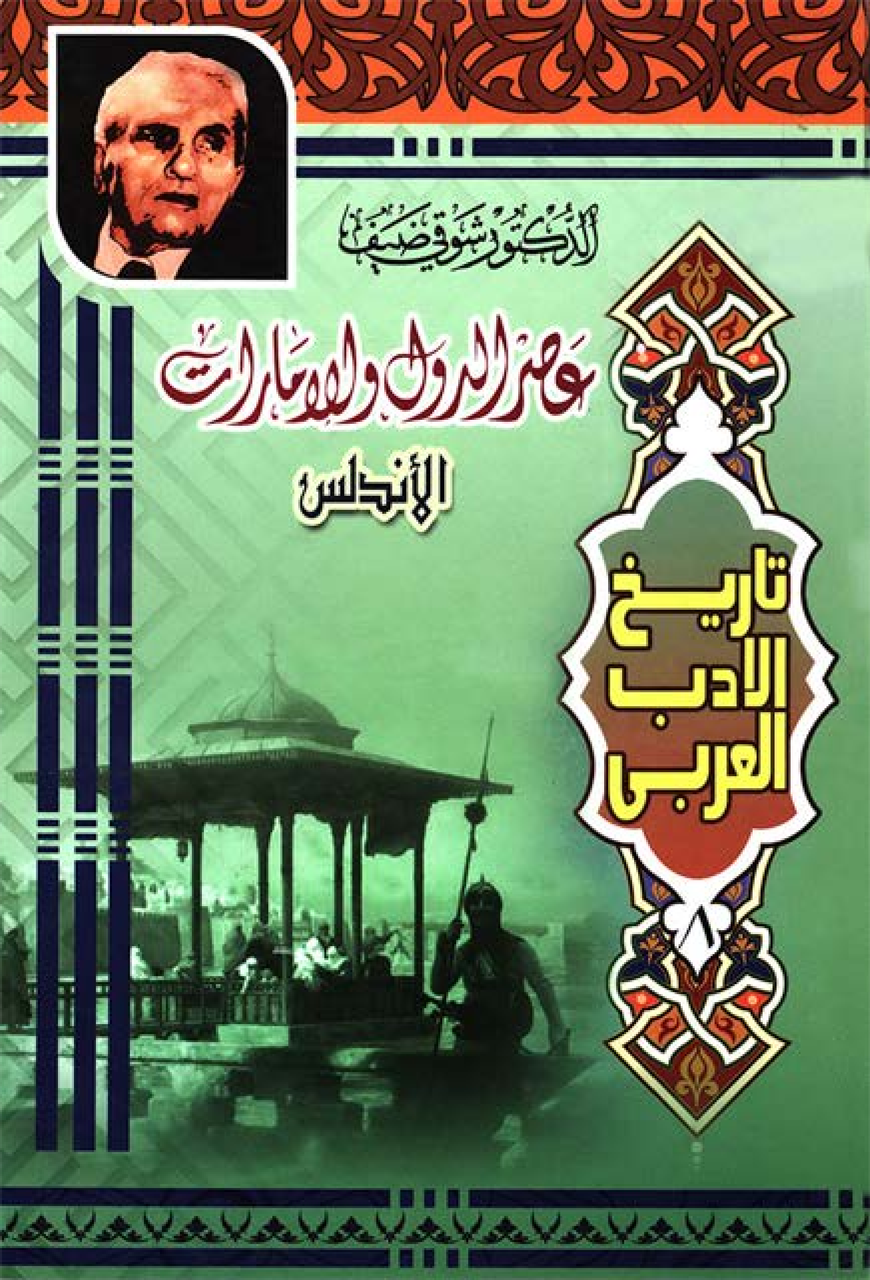

الدكتور شوقي ضيف
عصر الدول والإمارات
الأندلس
تاريخ الأدب العربي
٨

عصر
الدوَل والإمَارات
الأنْـــدَلسُ

تاريخ
الأدب العربى

عصر
الدول والإمارات
الأندلس

تأليف
الدكتور شوقى ضيف

منشورات ذوي القربىٰ

اسم الكتاب :	تاريخ الادب العربى (ج ٨)
المؤلف :	شوقى الضيف
الناشر :	ذوي القربى
الطبعة :	الأولىٰ
تاريخ الطبع :	١٤٢٨
الكمية :	١٠٠٠ نسخة
المطبعة :	ستاره
شابك ج ٨ :	٩٧٨ ـ ٩٦٤ ـ ٥١٨ ـ ١٩١ ـ ٦

مركز التوزيع : قم ـ پاساژ قدس ـ الطابق الاوّل ـ رقم ٥٩ ـ تليفون: ٧٧٤٤٦٦٣ـ٢٥١ـ٩٨+

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا الجزء من تاريخ الأدب العربى خاص بالأندلس فى عصر الدول والإمارات ويشتمل على خمسة فصول، أولها يتناول تاريخها السياسى منذ فتح العرب لديارها سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م إلى خروجهم منها سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م مع عرض لتكوين مجتمعها وظواهره وما تسرَّب إليه من تشيع وسَرّى فيه من زهد وتصوف. ويوضح الفصل كيف أن أسس الحضارة الأندلسية تكاملت منذ عهد الأمير الأموى عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦هـ/٨٢٢م- ٢٣٨هـ/٨٥٢م) وكانت قد استقرت منها ثلاثة أسس قبله، هى أسس الدين الحنيف والعربية والعلوم بشعبها اللغوية والدينية، وضمَّ عبد الرحمن الأوسط إلى هذه الشعب شعبة علوم الأوائل من الرياضيات وغير الرياضيات، وأرسى فى تلك الحضارة قواعدها المادية عن طريقين: طريق زاوله بنفسه، إذ شغف باقتناء أدوات الترف والتحف المشرقية، وجاراه الأندلسيون فى هذا الشغف، وطريق زاوله مغنيه زرياب تلميذ إسحق الموصلى الوافد على قرطبة فى أول عهد عبد الرحمن إذ سَنَّ للمجتمع الأندلسى سُنَنًا ظلت راسخة فيه، سُنَنًا عمت المأكل والملبس وما يتصل بهما من هيئة الأندلسيين رجالاً ونساءً وما يتخذون من صور التزين. وأرسَى عبد الرحمن قواعد الحكم متخذا له مجلسَ وزراء يدير شئون الدولة ومصالح الرعية على نحو ما نعرف الآن من مجالس الوزراء فى الأمم المتحضرة. وقد استطاع زرياب إرساء أسس فنية قوية لنهضة موسيقية رائعة كان لها - فيما بعد - تأثير واسع فى الموسيقى الإسبانية والأوربية. وحظيت المرأة فى هذا المجتمع الأندلسى بمكانة رفيعة لم تحظ بها أختها المشرقية.

ويوضح الفصل الثانى كيف أن إيبيريا - قبل الفتح العربى - لم يكن لها دور حضارى بارز فى الحضارة العالمية، والعرب هم الذين أتاحوا لها - حين استوطنوها - أن تنهض بدور عظيم فى هذا المضمار، ويعرض الفصل نشوء الحركة العلمية الأندلسية

وتطورها على مر العصور العربية هناك وإسهام المرأة الأندلسية فيها وما أضافه علماء الأندلس فى مختلف العلوم الرياضية وغير الرياضية من مثل البِطْرَوْجى وهو - لا كبلر (Kepler) الألمانى - الأب الحقيقى لعلم الفلك الحديث، ومثله الزهراوى فى الجراحة العالمية وعبد الملك بن زهر فى الطب الإكلينيكى وابن البيطار فى الصيدلة. وناهيك بازدهار الفلسفة فى الأندلس وتلمذة الغربيين لفلاسفتها وخاصة ابن رشد الذى ظل يُدَرَّسُ قرونًا متعاقبة فى جامعاتهم منذ القرن الرابع عشر الميلادى، وكان أثره العميق فى الفكر الأوربى حاسمًا، وخاصة فى حركة التحرر والإصلاح الدينى.

وأوضح الحديثُ عن النشاط اللغوى بالأندلس اكتشاف ابن حزم وابن سِيده لعلم فقه اللغة المقارن بين اللغات السامية قبل اكتشاف الغربيين لهذا العلم بقرون عديدة. وتبيَّن فى الفصل ما لعلماء مصر من أستاذية لغير عالم أندلسى فى اللغة والنحو والتاريخ والقراءات وحَمْل الأندلسيين فيها لقراءة ورش المصرى، وحَمْلهم لفتاوى عبد الرحمن بن القاسم ونظرائه المصريين فى الفقه. وأشار الحديث فى الفصل إلى التقاء المبدأين الأساسيين فى فلسفة ديكارت بأفكار المعتزلة والمتكلمين، وهما مبدأ الشك فى حقائق الأشياء حتى يتضح وجه اليقين، ومبدأ أنا أفكر فأنا موجود،مما يقتضى وجود الخالق رب العالمين.

والفصل الثالث يعرض نشاط الشعر والشعراء، ويستهل بالحديث عن تعرب سكان الأندلس جميعًا: مَنْ أسلم منهم وأبنائهم المولدين ومَنْ ظل على دينه المسيحى ولم يدخل فى الإسلام. وتدل على تعرب المسيحيين هناك أقوى دلالة صرخة القس ألْبَرُو المشهورة التى يتحسَّر فيها على إهمال الشبان المسيحيين فى إيبيريا للغة آبائهم اللاتينية الدارجة وازدرائهم لما أُلِّف فيها من كتابات مسيحية، بينما يقبلون فى شغف على تعلم العربية واتخاذها أداة للتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم نثرًا وشعرًا. ويؤكد بالنثيا فى كتابه تاريخ الفكر الأندلسى تلك الصيحة ويدعم دلالتها بوثائق كنسية لاتينية تحمل قصائد عربية وأيضًا بكتابات لاتينية لنصارى الإسبان - حتى بعد خروج العرب من الجزيرة - على هوامشها شروح وتعليقات باللغة العربية. وفى ذلك ما يؤكد - بوضوح - خطأ نظرية المستشرق الإسبانى ريبيرا المفضية إلى أن عرب الأندلس كانوا يستخدمون اللاتينية الدارجة لغة خطاب فى حياتهم اليومية، وهم إنما كانوا يستخدمون فى تلك الحياة عامية عربية أندلسية، وزعم ريبيرا - خطأ - أن الأزجال الأندلسية نُظمت باللاتينية الدارجة

وهى إنما نظمت بعامية عربية أندلسية أتاحت لها أن تُرْوَى فى المشرق وتتداول به وتحاكى فيه، وقد كتب فيها علماء اللغة الأندلسيون - مثل الزبيدى - كتبًا مختلفة. وامتازت الأندلس بكثرة الشعراء فيها كثرة مفرطة، ويدل على ذلك وفرة ما وُضع فيهم هناك من كتب، وخاصة كتاب الذخيرة لابن بسام بمجلداته المقصورة على عصر أمراء الطوائف، وقد ترجم لأكثر من مائة شاعر أندلسى فى هذا العصر القصير الذى لا يكاد يتجاوز ثمانين عامًا، فما بالنا بمن وراءهم من الشعراء فى قرون الأندلس الثمانية. ومَنْ يرجع إلى كتاب نفح الطيب يجد المقرى يترجم فيه لعشرين شاعرة كن مشهورات، ووراءهن كثيرات لم تكن لهن شهرتهن. ونفذت الأندلس فى أثناء هذا النشاط الشعرىّ الجَمّ إلى ابتكار فن شعرى جديد هو فن الموشحات، وذهب غير مستشرق إسبانى إلى أن هذا الفن نشأ فى الأندلس من المزج بين الشعر العربى وبعض الأغانى الرومانثية فى اللاتينية الإسبانية الدارجة، وليس فى أيديهم أغنية رومانثية واحدة يستطيعون أن يثبتوا بها دَعْواهم فى هذا المزج المزعوم. والصحيح أن الموشحات صورة أندلسية حديثة تطورت عن المسمَّطات المشرقية المعروفة فى الشعر العربى، وهى تتألف من أدوار، وكل دور فيها يُخْتَمُ بشطر تغاير قافيته قوافى الشطور السابقة له فى الدور بينما تتحد مع قوافى جميع الشطور الأخيرة فى الأدوار المختلفة، وكل ما بين المسمطات والموشحات من خلاف أن الشطر الأخير المتحد القافية فى أدوار المسمطات تعدَّد فى الموشحات مما يقطع - دون أدنى ريب - بأنها تطورت تطورًا طبيعيًّا عن المسمطات. ويؤكد ذلك أن من أنشأوها وطوَّروها فى الأندلس كانوا من أصول عربية خالصة فقد أنشأها عربى فى أواخر القرن الثالث الهجرى هو مقدم بن معافى، وطوَّرها فى القرن الرابع الهجرى وأوائل الخامس عربيان هما يوسف بن هرون الرمادى الكندى وعبادة بن ماء السماء الخزرجى الأنصارى. وألمَّ هذا الفصل الثالث بكبار الوشاحين وترجم لنفر منهم، كما ألمَّ بالأزجال التى نظمت بالعامية على غرار الموشحات مع الترجمة لناظمها الأندلسى المشهور: ابن قزمان. واستعرض الفصل - بعد ذلك - روائع شعراء المديح فى الأندلس على مر العصور مع الترجمة لسبعة من أعلامهم، وبالمثل استعرض روائع شعر الفخر مع الترجمة لثلاثة منهم وروائع شعراء الهجاء مع الترجمة لأربعة من كبار الهجائين، كما استعرض روائع أصحاب الشعر التعليمى مع الترجمة لعلمين من أعلامهم.

وعرض الفصل الرابع روائع الأغراض فى بقية الشعر الأندلسى مع الترجمة لبعض شعراء الأندلس المبدعين، وأول غرض عرضه الغزل، وفيه تتفوق الأندلس - فى رأينا -

على جميع البلدان العربية بما بثّت فيه من لوعات وَجْد لحب عذرى عفيف ظلت جذوته تتقد وتتوهج فى أشعار الغزلين الأندلسيين قرونًا متوالية. وبلغ من توهج تلك اللوعات أن امتد شررها الساطع إلى الأدبين الإسبانى والفرنسى وبالتالى إلى الآداب الأوربية. ويتضح هذا الشرر - بقوة - عند الإسبان فى قصة دون كيشوت لسرفانتس (١٥٤٧ - ١٦١٦ م) وكأنها قصة محب عذرى عربى فُتن بمحبوبته حتى جُنَّ أو كاد يُجَنّ. وسرفانتس فى سطورها الأولى ينسبها إلى عربى حدَّثه بها، مما يؤكد أنه استلهم فيها أقاصيص الحب العذرى عند الأندلسيين. ونمضى معه فى القصة فنرى الحب العنيف يخرجه دائمًا عن طوره إذ يعيش هائمًا على وجهه والجنون يصيبه أحيانًا وكلما أفاق منه تغنى بحبه مفتونًا بصاحبته مثله الأعلى فى الجمال البارع. ويعم شرر هذا الحب عند شعراء التروبادور الفرنسيين فى القرن الثانى عشر الميلادى. إذ نراهم مفتونين بمحبوباتهم فتنة تدفعهم إلى التذلل لها وتمجيدها لما تستشعره من عفة وجمال مثل قرينتها الأندلسية. ومما أثر به الغزل الأندلسى العفيف فى هؤلاء الشعراء ترداد ذكرهم للوشاة والرقباء، وأيضًا ظهور القافية فى أشعارهم لأول مرة فى الشعر الأوربى. وللمرأة الأندلسية فى هذا الغزل العفيف الملتاع مشاركة واضحة، وتغزلت أحيانًا فى أختها الأندلسية الفاتنة. وكانت لبعضهن ندوات يؤمها بعض الشعراء ورجال الأدب والفكر. وعكس غير شاعر عواطفه فى عناصر الطبيعة من حوله، مدوِّنًا فى شعره بدقة مشاعره وروعة تصاويره.

وتحوَّل الفصل من الغزل إلى الطبيعة والخمر، وينوِّه البحث دائمًا بتفوق الأندلس على البلدان العربية فى شعر الطبيعة، لما كان يتملَّى به الشاعر من جمال هذا الفردوس بجناته ورياضه وأزهاره ورياحينه وأنهاره وما يجرى فيها أو يتهادى من زوارق تزدان بالشموع ليلًا، وكأن أهل الأندلس كانوا فى عُرْسٍ دائم ليلًا ونهارًا. وقد تغنى الشعراء الأندلسيون بجمال هذا الفردوس الأرضى وما يسكب فى النفوس من سحر يروع القلوب والألباب على نحو ما هو معروف عن ابن خفاجة، وتفجؤنا عنده وعند أضرابه من شعراء الطبيعة - بل عند جميع شعراء الأندلس فى كل الأغراض الشعرية - صور فى منتهى الروعة.

وعرض الفصل - بعد ذلك - رثاء الأفراد وما لشعراء الأندلس من فرائد فى التفجع على الأبناء والزوجات والأصدقاء، ويبلغ التأثر بالقارئ مُنْتهاه فى مراثيهم للشهداء الأبرار فى حروب أعدائهم من حَمَلة الصليب الشماليين، ومن أروعها مرثية لابن الزقاق يبكى فيها شابًّا استشهد فى عنفوان شبابه بعد أن أبلى فى حرب أعداء دينه بلاء عظيمًا،

ولا تقل عنها روعةً موشحة على بن حزمون فى بكاء بطل بلنسية أبى الحملات قائد الأعنة حين استشهد فى معركة ضارية مع حَمَلة الصليب بعد أن مزّق كثيرين منهم تمزيقًا. ويتميز ابن وهبون فى مراثيه بتأملات عميقة فى حقائق الموت والحياة. وبجانب مراثى الأفراد مراث للدول الأندلسية حين تغرب شمسها وتدور عليها الدوائر مثل مراثى ابن اللبانة لدولة المعتمد بن عباد حين استولى يوسف بن تاشفين على إمارته بإشبيلية ونفاه إلى أغمات بالمغرب، ولابن عبدون مرثية طويلة لدولة المتوكل بن الأفطس أمير بطليوس حين فتك به المرابطون على أبواب مدينته، وفيها يسوق ابن عبدون الأمثال من الملوك الغابرة والدول الدائرة وكل ما على الأرض من حيوان كاسر وطير جارح فإن كل ذلك إلى فناء. وأنشد الفصل خواطر شتى فى الزهد وخاصة لأبى إسحق الإلبيرى كما أنشد خوالج وجدانية متنوعة فى التصوف الفلسفى الإسلامى عند ابن عربى وغيره. وتكاثرت المدائح النبوية على لسان كثيرين مثل ابن جـابر الأندلسى . ومنذ سقوط طليطلة فى حجر حَمَلة الصليب يستصرخ أهل الأندلس المغاربة والعرب لرد عدوانهم، ويكثر هذا الاستصراخ منذ القرن السابع الهجرى حين أخذت تسقط المدن الكبرى: قرطبة وأخواتها فى حجور النصارى الشماليين على نحو ما هو معروف من استصراخ ابن الأبار وأبى البقاء الرُّندى.

والفصل الخامس خاص بالنثر وكتّابه، ويبتدىء بعرض روائع الأندلسيين فى الرسائل الديوانية مع الترجمة لأهم كتابها الرسميين، وجعلهم جهادهم الدائب للنصارى الشماليين ونزالهم الضارى لهم يكثرون فى تلك الرسائل من تصوير مواقعهم معهم والتحول بتلك الرسائل أحيانا إلى ما يشبه منشورات حربية تستثير حمية أهل الأندلس والمغرب لسَحْق أعداء الدين الحنيف سحقا لايبقى منهم ولايذر، ومن أروع تلك الرسائل المنشور الذى وجهه أبو محمد بن عبد البر إلى أهل الأندلس لحمل السلاح والأخذ بثأر مدينة «بَرْبَشْتَر» حين نكّل بها النورمانديون ونصارى الشمال على حين غفلة من أهلها سنة٤٥٦هـ وتوالت مثل هذه الصيحات، ومُزِّق المغيرون شر ممزق. ولابن القصيرة رسالة ديوانية بديعة يصور فيها انتصار ابن تاشفين والأندلسيين فى موقعة الزلاقة وقد بلغ من كثرة قتلى النصارى فيها أن كان الناس يصنعون من رءوسهم صوامع يؤذنون عليها. ولابن أبى الخصال منشور حربى ملتهب للحض على خوض معركة حامية الوطيس، ولابن الخطيب تصويرٌ حماسى لمنازلة أمير غرناطة الغنى بالله النصارى فى جيّان. وحرىّ بالعرب فى كل عصر أن يرفعوا هذه الرسائل الديوانية الأندلسية وما يماثلها شعارات

لمجدهم الحربى على توالى العصور. وتلى الرسائل الديوانية فى الفصل الرسائل الشخصية مع الترجمة لأهم كتابها النابهين وقد استطاعوا أن يتحولوا بها من باب المناسبات وما يتصل به من مثل التهنئة والعتاب والاعتذار والاستعطاف والاستمناح إلى لوحات أدبية لوصف البطولة الحربية فى جهاد النصارى. وأكثروا من وصف الطبيعة على نحو ما نجد عند ابن خفاجة فى وصف نزهة، وأبى القاسم بن الجد فى وصف مطر بعد جدب شديد،وابن أبى الخصال فى وصف ليلة قاسية البرد. وعقدوا فى بعض رسائلهم مناظرات رائعة بين الأزهار والرياحين، عقدها ابن برد وحبيب وأبوعمر الباجى وابن حَسْداى وحوَّل الفقيه ابن سراج رسالة له فى الشفاعة لشخص يسمى الزُّرَيْزِير إلى دعابة مرحة أودعها كل ما يميز طائر الزُّرْزُور مما يتصل بريشه وأجنحته وهيئته وأفراخه وأعشاشه، وطارت الرسالة فى الأندلس وحاكاها كثير من الكتاب أمثال أبى القاسم بن الجد وأبى بكر عبدالعزيز بن القبطورنه. وبذلك كله استحالت الرسائل الشخصية فى الأندلس على أيدى كتابها المجلِّين - فى بعض جوانبها - إلى لوحات أدبية بارعة.

وتتميز الأندلس بكثرة الرسائل الأدبية الخالصة، ويعرض الفصل طائفة طريفة منها فى مقدمتها رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد، مع إثبات أن لا علاقة لها برسالة الغفران لأبى العلاء وأن ابن شهيد استوحاها من إحدى مقامات بديع الزمان، ومع بيان أن ابن شهيد استطاع بها أن يبتكر قصة رائعة يدور الحوار بها فيما وراء الطبيعة فى عالم الجن وأن يضمنها نظرات نقدية وغير قليل من الفكاهة المستملحة. ويُلِمُّ الفصل برسائل ابن برد الأدبية فى المناظرة بين السيف والقلم وفى وصف بخيل صاحب نخلة شحيح منتهى الشح، وتصوير صديق له يدافع بحرارة عن تفضيله لأهب الشاء - أو بعبارة أخرى جلود المَعْز - على البسط صيفا وشتاء. وقد استوحاها من رسالة سهل بن هرون فى فاتحة كتاب البخلاء للجاحظ وبيانه لفضل البخل وشُحِّ النفس على الجود والكرم. وتحدَّث الفصل عن رسالتى ابن زيدون الهزلية والجدية، وأولاهما فى السخرية - على لسان ولادة مهوى فؤاده - بغريمه فى حبها: ابن عبدوس، وثانيتهما فى استعطاف أبى الحزم جهور حين زَجَّ به فى غياهب السجون، وهما أثران أدبيان بارعان. ويلمُّ الفصل برسالة ابن غرسية الذميمة فى الشعوبية والردود المفحِمة عليها، كما يلمّ بالرسائل النبوية التى ضمَّنها كبار الكتاب من أمثال ابن الجنَّان شوقا حارًّا إلى زيارة الرسول ﷺ وطلب الشفاعة. وتكاثرت المواعظ على نحو ما هو معروف عن منذر بن سعيد وأبى بكر الطرطوشى.

ويعرض الفصل أعمالا نثرية متنوعة لكتاب الأندلس المبدعين، وفى مقدمتهم ابن حزم

وكتابه «طوق الحمامة» والكتاب دراسة تحليلية نفسية بديعة للحب العذرى العفيف وتجارب ابن حزم فيه وتجارب معاصريه فى غير مواربة بل فى صراحة مستحبَّة، صراحة تسمو فيها العاطفة الإنسانية الخالدة، عاطفة الحب، وترتفع عن صغائر الغريزة النوعية. والكتاب تُرجم من قديم إلى اللاتينية وتأثر به دانتى فى كتابه «الحياة المتجددة» وبالمثل تأثر به بعض شعراء الإسبان.

ومن الأعمال النثرية الأندلسية الرائعة كتاب المقتبس لابن حيان فى تاريخ الدولة الأموية بالأندلس، وهو نموذج فريد فى كتابة التاريخ كتابة تحليلية بصيرة لامثيل لها عند العرب قبله ولابعده، وعلى شاكلته كتاب الذخيرة لابن بسام فى كتابة التراجم الأدبية لعصره كتابة تاريخية تحليلية نقدية بارعة. ومن الطُّرَف النثرية الأندلسية مذكرات الأمير عبدالله ابن بُلُقِّين آخر أمراء غرناطة من بنى زيرى، وفيها يتحدث عن إمارة أسرته بتلك المدينة، وكذلك عن إمارته قبل نفى يوسف بن تاشفين له إلى المغرب، وهو حديث صريح كل الصراحة حتى لتصبح تلك المذكرات شبيهة بكتب الاعترافات عند الغربيين.

ومن أروع الأعمال النثرية الأندلسية، بل العربية عامة، قصة حى بن يقظان لابن طفيل الوادى آشى القيسى وهى قصة رمزية، أراد بها ابن طفيل التوفيق بين الفلسفة والدين، وقد أدارها على طفل نشأ فى جزيرة مهجورة نما فيها وحده ونما معه عقله، حتى أدرك حقائق الأشياء على نحو ما يدركها الفلاسفة، واستنبط أن للكون خالقا وشعر بحاجته إلى الاتحاد به، وما زال يحاول ذلك حتى تحقق له هذا الاتحاد. وابن طفيل بذلك يثبت أن التأمل الفكرى المحض، كالإيمان الحقيقى الصادق عن طريق الأنبياء، يؤدى مثله إلى الاتصال بالله والاتحاد به، وإذن فلا تعارض ولا تنافر بين الفلسفة والدين. وتصادف أن عثر غرسية غوميس فى مخطوطة موريسكيه بمكتبة الإسكوريال فى مدريد كتبت فى القرن السادس عشر على قصة تسمى قصة الصنم والملك وابنته تتشابه فى إطارها الخارجى مع قصة ابن طفيل التى كتبها فى القرن الثانى عشر، وبدلا من أن يستنتج أن مؤلف هذه القصة الموريسكية اطلع على قصة حى بن يقظان أو استلهمها إما فى أصلها العربى وإما فى ترجمة لاتينية أو قشتالية قديمة زعم العكس وأن ابن طفيل هو الذى استلهم هذه القصة أو أصلها القديم الذى كان شائعا فى زمنه، وهكذا بنى زعمه على مقدمات وهمية. وتنبه جوتييه فى مقدمة ترجمته الثانية لقصة حى بن يقظان لما وقع فيه غرسية من خطأ. وبالمثل أخطأ بالنثيا فى توهمه تأثر ابن طفيل بالمسيحية فى القصة وأن يقظان فيها رمز الله وبالتالى «حىّ» رمز المسيح ابن الله، والقصة تكتظ بالآيات

والتعبيرات القرآنية والروح الصوفية الإسلامية. وهى بحق عمل فريد أصيل لابن طفيل لاسابقة له فى الآداب العالمية، وقد تأثر به الأدب الإسبانى كما يتضح فى قصة الصنم والملك وابنته الموريسكية التى ذكرها غرسية وأيضا فى قصة الناقد (الكريتيكون) الإسبانية لجراثيان المنشورة فى منتصف القرن السابع عشر والتى يقول منندث بيلايو عنها إنها تتطابق مع قصة حى بن يقظان تطابقا واضحا. وقد كتب على هُدَاها فى سنة ١٧٠٩ الكاتب الإنجليزى دانييل ديفو قصته المعروفة: «روبنسن كروزو».

وتحدث الفصل بعد ذلك عن فن المقامات بالأندلس والتحامه بمقامات الحريرى المعتمدة على الكدية أو الشحاذة، مع عرض المقامات اللزومية للسرقسطى وخصائصها فى الأسلوب والمضمون، ومع بيان تأثير هذا الفن فى الأدب الاسبانى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد، إذ نشأ عند الاسبان - على هداه - ما سُمِّى بالقِصص البيكارسية أو قصص الشطارة والشطار، وبطلها «البيكارو» يعيش - كبطل المقامات - على التسول والشحاذة مستخدما لذلك حيلا وخُدَعا شتى.

وألمَّ الفصل برحلات الأندلسيين مبينا أنها تعددت عندهم بسبب أدائهم لفريضة الحج سنويا، وللإلمام بمراكز الثقافة فى المشرق، وللسفارة الخارجية إلى ممالك النصارى الشمالية، وللسفارة الداخلية إلى الإمارات الأندلسية، ولزيارة ماوراء البلدان العربية فى آسيا وشرقى أوربا، ولمرافقة أمراء غرناطة فى عهد الأندلس الأخير فى رحلاتهم وكذلك فى مرافقة بعض سلاطين المغرب فى رحلاتهم. ومن أطرف رحلات الأندلسيين رحلة ابن جبير المتميزة بحسن العرض وجمال الأسلوب المرسل العذب.

وهذه الدراسة المستفيضة لتاريخ الأدب العربى فى الأندلس أثناء ثمانية قرون طوال جعلتنى أرجع إلى كل ما استطعت الاطلاع عليه من المصادر والمراجع الأندلسية المتصلة بكتب التاريخ والتراجم وكتب علوم الأوائل والعلوم اللغوية والدينية وكتب الشعر ودواوينه وكتب النثر وأعمال كتابه، كما رجعت إلى طائفة من كتب المستشرقين والباحثين محاولا - بقدر ما أستطيع - أن أرسم هذه الصورة المستوعبة لأدب الأندلس مع تصحيح الأحكام المخطئة التى من شأنها الغَضّ من مكانته الرفيعة ومن المدى الخطير الذى أثر به فى الأدب الإسبانى والآداب الأوربية. والله - وحده - ولى الهُدَى والتوفيق.

القاهرة فى أول مايو سنة ١٩٨٩م.

شوقى ضيف

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

التكوين الجغرافى والبشرى[1]

تقع شبه جزيرة إيبيريا فى الجنوب الغربى من القارة الأوربية، وتتصل بالقارة عن طريق جبال شاهقة وعرة، هى جبال البرينيه التى تكوّن حاجزا منيعا بينها وبين أوربا، ولا يمكن لأحد اجتيازها إلا من ممرين يخترقانها فى الشرق والغرب، وبينهما ممرات متعرجة ملتوية ضيقة سماها العرب باسم الأبواب مما جعلهم يسمون تلك الجبال جبال الأبواب. وفى وسط الجزيرة هضبة كبرى تنحدر نحو الشرق مطلّةً على البحر المتوسط مهد الحضارات القديمة الكبرى: المصرية والفينيقية واليونانية والرومانية، كما تنحدر نحو الغرب مطلة على المحيط الأطلسى، وهو يطوّق شماليها الغربى فى خليج بسكاى ويتصل فى جنوبيها بالبحر المتوسط عن طريق مضيق الزقاق الذى سُمّى بعد الفتح العربى إلى اليوم باسم مضيق جبل طارق. وتمتد فى هضبة إيبيريا الوسطى سلاسل جبال من الشرق إلى الغرب تصعّب التواصل بين أجزائها فى الداخل. وبها أنهار كثيرة وخاصة فى الغرب حيث تصب فى المحيط، وهى من الشمال إلى الجنوب نهر المنيو ثم نهر دُوَيرة، وهو كثير الفروع غزير المياه خصب التربة، ويليه نهر تاجُه وتقع عليه مدريد وطليطلة ويصب عند أشبونة، ثم نهر آنه وتقع عليه بطليوس، فنهر الوادى الكبير وتقع عليه قرطبة وإشبيلية ومنه يتفرّع نهر شنيل مادًّا ذراعا له إلى غرناطة، وجنوبيه نُهَير لكه ويصب فى المحيط بالقرب من قادس. وتصب فى البحر المتوسط أنهار أقل أهمية ما عدا نهر إبرو فى

---

(١) انظر فى التكوين الجغرافى لإيبيريا كتب الجغرافية العربية القديمة وخاصة التراث الجغرافى الأندلسى والتعريف به فى كتاب الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس للدكتور حسين مؤنس. وراجع فى التكوين البشرى لإيبيريا الصفحات الأولى من كتاب فجر الأندلس للدكتور مؤنس وكتاب دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبد الله عنان وكتاب الإسلام فى إسبانيا للدكتور لطفى عبد البديع.

الشمال وهو متعدد الفروع غزير المياه، وينبع من شرقى إقليم قشتالة ويمر بإقليم أراجون فإقليم سرقسطة فى الثغر الأعلى فإقليم قطالونية ويصب عند طرطوشة جنوبى بَرْشلونة. ويليه جنوبا نُهَيْر الوادى الأبيض ويصب عند بَلَنْسية، فنهير شُقْر بأوديته وفروعه الخصبة ويصب شمالى دانية، ثم نهير شَقورة وعليه تقع مرسية، ويليه نهير أندرَش ويصب عند المرية، فنهير البُشَرَّات ويصب عند شَلَوْبينيه.

والمناخ فى إيبيريا متباين لاختلاف أقاليمها، فهو فى الجبال وشمالى البلاد بارد، وهو دافىء فى الوديان بالوسط وفى الجنوب. ومناخ الأقاليم فى الشرق مناخ البحر المتوسط وتخضع له تلك الأقاليم فى نباتاتها وحيواناتها، بينما تخضع الأقاليم فى الغرب لمناخ المحيط الأطلسى ونباتاته وحيواناته وغاباته. وإيبيريا لاتساع مساحتها وقيام الجبال والهضاب فيها متعددة المناخ، فمناطق جبلية بها غابات وأحيانا معادن وبسفوحها مراع، ووديان وسهول بها زروع وبساتين، وهضاب بها قفار ومراع، وأحواض أنهار بها حبوب وبقول وحدائق ذات بهجة. ومن يعيشون فى تلك الأحواض وما بها من زرع وضَرْع تجرى حياتهم سهلة هيِّنة، ومن يعيشون فى الجبال يتأثرون بوعورتها ومن يعيشون فى سفوحها والقفار ومراعيها يتأثرون بما يتأثر به أهل البوادى. وعلى هذه الشاكلة بينما نجد فى إيبيريا أهل مدن متحضرين نجد أهل جبال بائسين كما نجد رعاة متبدين، مما حال من قديم بين أهل إيبيريا وبين قيام وحدة جغرافية تؤلف بينهم وتجمع أشتاتهم.

وهذا الاختلاف فى أقاليم إيبيريا رافقه - منذ أقدم الأزمنة - اختلاف فى العناصر والأجناس البشرية التى كوَّنت سكانها، وأول من سكنها الإيبيريون وهم قبائل من غالة والبسك، وسرعان ما أخذت أجناس وأمم تفد عليها، وكان أولُ الوافدين الفينيقيين، وفدوا عليها فى القرن العاشر قبل الميلاد للتجارة، وأقاموا بشواطئها الجنوبية مؤسسين على البحر المتوسط مدينة مالقة وعلى المحيط مدينة قادس، ووفد عليها بعدهم الإغريق فى القرن الخامس قبل الميلاد وأقاموا بشواطئها الشرقية الشمالية وهم الذين سموها إيبيريا وقد أسسوا بها مدينة بَرْشلونة على البحر المتوسط، ووفد عليها بعدهم بنحو قرنين القرطاجنيون وأسسوا فى شرقيها مدينة قرطاجنة. واستولت عليها روما فى أواسط القرن الثانى قبل الميلاد، وكان جيشهم الفاتح لها خليطا من شعوب أوربية مختلفة إيطالية وغير إيطالية واستوطنتها بعض أسر رومانية، وأطلقت عليها روما اسم إسبانيا، وأشاعت فيها حضارتها ولغتها حتى إذا تنصرت أدخلتها معها فى النصرانية. وظلت خاضعة لها، حتى

إذا أقبل القرن الخامس الميلادى وأقبلتْ معه غارات المتبربرين من الألمان وغيرهم على الدولة الرومانية الغربية وقضت عليها كان من سابقيهم إلى إسبانيا قبائل، الوندال وزحزحتهم إلى الجنوب قبائل ضخمة من القوط وسُمِّى باسمهم: «ڤاندالوسيا» وعرَّب الفاتحون من العرب هذا الاسم إلى الأندلس وسموا به جميع إيبيريا من الجنوب إلى أقصى الشمال. وظل القوط يحكمون البلاد متخذين طليطلة - كما اتخذها الرومان - عاصمة لهم، ونزلها فى عهد القوط يهود كثيرون، وازداد عددهم بها حتى كانت لهم مدن خاصة بهم مثل ألُيسانة قرب قرطبة وكثروا فى إلبيرة وغرناطة.

وأضاف الفتح العربى إلى هذه العناصر البشرية الكثيرة فى المجتمع الإيبيرى عناصر جديدة آسيوية من العرب وإفريقية من البربر. وكان عدد العرب فى الفتح لا يتجاوز ثمانية عشر ألفا، وسموا باسم البلديين تمييزا لهم من فوج عربى نزل الأندلس سنة ١٢٣ للهجرة مع واليها بلج بن بشر القَشَيْرى، وكان تعداده عشرة آلاف وسموا باسم الشاميين تمييزا لهم من البلديين، ونزلها فى سنة ١٢٥ للهجرة مع واليها أبى الخطار حسام بن ضرار الكلبى فوج عربى ثان، وسمع العرب بخيراتها فارتحل إليها كثيرون منهم. وكانت كثرة الفاتحين من البربر حتى إذا تم الفتح أخذت بعض القبائل والعشائر البربرية تهاجر إلى الأرض الجديدة واتخذوها سكنا ومقاما لهم. وبجانب البربر والعرب نجد عنصرا ثالثا فسح له حكام الدولة الأموية فى الأندلس والمقام بها منذ أفضى زمام تلك الدولة إلى الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) إذ استكثر من شراء الصقالبة، وهم رقيق أوربى كان يُخْصَى ويباع، وأصل نشأته فى بلغاريا شرقى أوربا، ولذلك قيل له صقلبى، وعم الاسم فى الأندلس الرقيق الأوربى جميعه من ألمانيا وغير ألمانيا. وكان حكام الدولة الأموية يشترون هؤلاء الصقالبة شبانا ويدخلونهم فى الإسلام ويعلمونهم العربية وآداب المجتمع الأندلسى ويدربونهم على الفروسية واتخذوهم حرسا وخدمًا فى قصورهم، وألحقوا نفرا منهم بجيوشهم وازدادوا حتى بلغوا أكثر من ثلاثة عشر ألفا فى عهد عبد الرحمن الناصر، وسنراهم يستقلون ببلنسية ودانية والمرية فى عهد ملوك الطوائف.

وواضح أنه شاركت فى التكوين البشرى لإيبيريا أجناس كثيرة منها الآسيوى والإفريقى والأوربى، وبذلك أصبحت فى دمائها القارات القديمة الثلاث. مما حال دون قيام وحدة سياسية فيها، إذ أخذ كل إقليم من أقاليمها يشعر أن له وجودا ذاتيا وأن من حقه التمتع بالاستقلال، ومن ينظر إلى خريطتها اليوم يرى فيها أمتين مستقلتين تمام الاستقلال: الأمة الإسبانية والأمة البرتغالية، ولكل منها نظامها السياسى الخاص.

٢

الفتح - عصر الولاة

(أ) الفتح[1]

أتمّ موسى بن نصير والى المغرب منذ سنة ٨٦ هـ/٧٠٦ م فتح بلاد المغرب حتى المحيط الأطلسى غربا وجبال السوس الأقصى جنوبا، واتبع موسى سياسة حميدة: أن يرسل مع الجيوش الغازية طائفة من الفقهاء ليدخلوا البربر فى الدين الحنيف ويلقنوهم تعاليمه، مما عمل على تعريبهم سريعا، وأسس فى بلاد المغرب الأوسط ولاية جعل حاضرتها تلمسان، وأسس فى بلاد المغرب الأقصى ولاية ثانية جعل حاضرتها طنجة المطلة على مضيق الزقاق، وولى عليها أحد قواده من البربر هو طارق بن زياد. وأبقى موسى على سبتة شرقيها على الزقاق لواليها الرومى البيزنطى يوليان، وكان قد سارع إلى موسى حين وصوله إلى إقليم طنجة سنة ٨٩ هـ/٧٠٩ م فأعلن له ولاءه وطاعته. ويُظن أنه أغراه حينئذ بغزو إيبيريا، وكان ملكها غيطشة Witiza قد توفى سنة ٧٠٨ م وأبى الأشراف أن يخلفه على العرش أحد أبنائه، وأجلسوا عليه لذريق Roderic حاكم قرطبة، ونشبت حروب بينه وبين أبناء غيطشة، وانتصر عليهم، ويبدو أنهم استغاثوا بيوليان حاكم سبتة البيزنطى حليف أبيهم، ورأى أنه لا قِبلَ له بلذريق وفكر أن يستعين عليه بالعرب، فأغرى موسى بن نصير - حين لقيه فى طنجة - بغزوها. أما ما يقال من أن دافع يوليان إلى حَث موسى على هذا الغزو مسألة شخصية هى عدوان الملك الجديد لذريق على ابنته فى قصره وأنه أراد أن يثأر لانتهاك عرضه بحض العرب على غزو إيبيريا ففى رأينا أن ذلك من باب الأساطير، والمعقول أن يكون الباعث الحقيقى لموسى بن نصير على غزوها

---

(١) انظر فى الفتح الصفحات الأولى من أخبار مجموعة (طبع مدريد) وتاريخ افتتاح الأندلس لابن حبيب وأيضا لابن القوطية والجزء الثانى من البيان المغرب لابن عذارى والروض المعطار لابن عبد المنعم الحميرى وتاريخ ابن خلدون (طبع مطبعة بولاق) ١١٦/٤ وما بعدها ونفح الطيب (طبعة إحسان عباس) ٢١٥/١ - ٢٢٠، ٢٣١ وما بعدها ونزهة المشتاق للإدريسى بتحقيق دى جويه ودوزى (طبع ليدن) ص ١٧٧ وتاريخ إسبانيا الإسلامية لبروفنسال ٨/١ وما بعدها والصفحات الأولى من دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبد الله عنان وفجر الأندلس لحسين مؤنس ص ٥٢ وما بعدها والتاريخ الأندلسى لعبد الرحمن الحجى ص ٤٣ وما بعدها.

أو بعبارة أدق على فتحها أنه سأل عنها وعرف كثيرا من أحوالها الجغرافية والسياسية وأنْ ليس بها جيش حقيقى يحميها، فتطلع للاستيلاء عليها ونشر الإسلام بها، وشاور فى ذلك الخليفة، وكان الوليدُ بن عبد الملك، وكان مثله شديد الطموح للفتوح وكانت جيوشه تتغلغل فى أقصى الشرق: فى أواسط آسيا وفى الهند، فشجع موسى، غير أنه أمره بالتمهل حتى يرسل حملات استكشافية، يتبين بها أين ينزل الجيش الفاتح وكيف يتحرك. وندب موسى لهذه المهمة قائدا من قواده هو طريف فعبر - مع أربعمائة من الجند ومائة فارس - إلى الشاطىء الإيبيرى فى سنة ٩١ هـ/٧١٠ م ونزل فى موضع أقيمت به بلدة سميت باسمه، ولا تزال قائمة إلى اليوم، وقام طريف بعدة غارات تبين له منها أنه لا توجد بجنوبى إيبيريا وسائل دفاع تحميها. واستدار العام فرأى موسى أن يرسل حملة أكثر عددا بقيادة طارق بن زياد والى طنجة، فعبر فى سنة ٩٢ هـ/٧١١ م مضيق الزقاق بجيش عداده سبعة آلاف، وتجمعوا عند جبل سُمِّى فيما بعد إلى اليوم جبل طارق. ويقال إن عبور هذه الحملة للمضيق - مثل عبور سابقتها - إنما كان بسفن أعدَّها يوليان، ويدحض ذلك أنه كان لموسى بن نصير والعرب حينئذ أسطول يحمى شواطىء إفريقيا من الأسطول البيزنطى وأقيمت له دار صناعة كبيرة بتونس، وما دام موسى قد عزم على فتح إيبيريا فلابد أنه أمر أسطوله بالتوجه غربا ليعبر - بحملة طريف ثم بحملة طارق - مضيق الزقاق، أما قصة عبور الحملتين على سفن يوليان فلا يؤيدها منطق الأحداث، وهى - فى رأينا - تكملة لما نسجه الخيال الشعبى من سخط يوليان على لذريق بسبب اعتدائه المزعوم على ابنته. ومما يتصل بهذا القصص الأسطورى عن فتح الأندلس الخطبة البليغة التى أضيفت إلى طارق، وقيل إنه ألقاها على جنوده بعد عبورهم مباشرة مفتتحا لها بقوله: «أيها الناس! أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم فليس لكم والله إلا الصدق والصبر» والخطبة من روعة البيان بحيث يبعد أن ينشئها مغربى تعرَّب حديثا مثل طارق، غير أنها شاعت بين الأندلسيين شيوعا أعدَّ الخيال الشعبى ليضيف إليها أسطورة إحراق طارق للسفن التى جاز بها مع جنده إلى الشاطىء الإيبيرى، وهى لو صحت لكانت عملا طائشا، وهو عمل لا يمكن أن يقدم عليه أى قائد يقدر مسئولياته وتبعاته. ومما يؤكد أنها مختلقة ومن نسج الخيال الشعبى أنها لم ترد فى كتب التاريخ الأندلسى طوال خمسة قرون وأن أول من رواها الإدريسى الجغرافى المتوفى سنة ٥٦٠ للهجرة فى كتابه نزهة المشتاق.

وانحدر طارق بجيشه غربا مارًّا برأس بارز على الزقاق، أقيمت به - فيما بعد - مدينة الجزيرة الخضراء، وتابع مسيرته على المحيط، وعلم أن لذريق يعدّ جيشا للقائه، فأرسل إلى موسى بن نصير يستمدُّه، فأمدَّه بخمسة آلاف بقيادة طريف، جازوا المضيق فى سفن عربية، ولم يلبث طارق أن التقى مع لذريق فى السهول المنبسطة شرقى قادس وهزمه هزيمة ساحقة، جعلت كثيرا من مدن إيبريا تفتح أبوابها لطارق وجنده، بينما فرَّ لذريق إلى الشرق، وقُتل على نهر شقورة. وأرسل طارق أحد قواده إلى قرطبة فاستولى عليها. وتمادى طارق فى الفتح حتى طليطلة عاصمة لذريق والقوط، فألقت له عن يد، وفرَّ منها الأسقف والقساوسة يحملون مذبح كنيستها، ولحقت بهم كتيبة عربية عند بلدة صغيرة واستولت منهم على المذبح وذخائر كثيرة، وقيل لهم إنه مائدة سليمان، فسميت البلدة بعد ذلك باسم المائدة. وأخذت تشيع - منذ فتح طليطلة - أسطورة شعبية، مؤداها أنه كان بها بيت مطلسم عليه أقفال كثيرة أمر بفتحه لذريق، فوجده فارغا إلا من تابوت مغلق وجد فيه لفائف مدرجةً رسمت فيها صور عرب مدججين بالسلاح وفى أعلاها كتابات بالعجمية تشير إلى أن أمة الرجال المصورين ستغلب على الأندلس حين تكسر أقفال هذا البيت، وواضح أنها أسطورة مختلقة ولا أساس لها من حقيقة.

ولما بلغ طارق طليطلة فى وسط إيبيريا رأى موسى بن نصير أن يسير إليه فى قوة كبيرة ليشد أزره ويثبِّت فتحه ويمكِّن له، وحين نزل بجنده الجزيرة الخضراء بنى بها مسجدا، وظل كلما دخل بلدة كبيرة أسس بها بيتا من بيوت الله، وكان قد استقدم معه مهندسا معماريا لبناء تلك البيوت أو المساجد، واتبع فى إيبيريا ما اتبعه فى المغرب من تكليف بعض الفقهاء الداخلين معه تعليم أهل إيبريا القرآن الكريم وفرائض الإسلام. ومضى بجيشه غربا يتمم فتوح طارق واستولى على شذونة وإشبيلية وقرمونة وماردة ولقنت وانتهى إلى طليطلة، ويقول بعض المؤرخين خطأ إنه كان قد امتلأ غيظا وحقدا على طارق لما فتح الله على يديه من البلاد، وزعموا أنه حين لقيه - بدلا من تهنئته بانتصاراته - شدَّ وثاقه وهمَّ بقتله، وكل ذلك يخالف الأحداث، ولم يكن موسى من الطيش والحمق بأن يصنع ذلك بطارق الجدير بكل شكر وثناء. ويدل أقوى الدلالة على صحة ما نقول أن طارقا ظل الساعد الأيمن فى استكمال الفتح.

وأقام موسى مع طارق فى طليطلة طوال الشتاء فى سنتى ٩٤، ٩٥ هـ/٧١٣ - ٧١٤ م. وضرب للبلاد عملة جديدة تحمل على أحد وجهيها شهادة أن لا إله إلا الله، وبذلك كان أول عربى حكم قطرا أوربيا، وجاءه نبأ بانتقاض إشبيلية فأرسل إليها ابنه عبد العزيز

فأخذ الانتقاضة، واستولى غربيها على لَبْلة وباجة. وكان مما كتب به موسى بن نصير إلى الخليفة يبشره بالفتوح قوله: «إنها ليست الفتوح ولكنه الحَشْر ولكنها الجنة». وخرج فى ربيع سنة ٩٥ هـ/٧١٤ م - ومعه طارق - بالجيش إلى الشمال لإيبيريا قاصدا سرقسطة مفتاح منطقة وادى نهر إبرو، واستولى عليها كما استولى على لاردة شرقيها، وجاءه حينئذ أمر من الخليفة الوليد بن عبد الملك بوفوده عليه مع طارق لتقديم تقرير مفصل إليه عن الفتوح، ورأى أن يؤخر الوفود عليه بضعة أشهر حتى يستكمل فتح إيبيريا، إذ رأى بلدانها ومعاقلها فى الشمال تستسلم له دون مقاومة تذكر. وللإسراع بالفتح أمر طارقًا أن يتجه بجنده إلى الشمال الشرقى فاستولى على أراجون، واتجه موسى إلى الشمال الغربى، ولحق به طارق بعد استيلائه على أراجون، واستولى فى طريقه على ليون بمنطقة قشتالة، وتوغل موسى فى مسيرته وعبر جبال كنتبريه، واستولى على حصن أَبّيط فى أقصى الشمال، ووصل إلى خليج بِسْقاية (بِسْكاى) على المحيط. وأحس أنه أنهى فتح إيبيريا إذ استولى مع طارق على أقاليم قطالونيا فى الشرق وأراجون والبشكنس وقشتالة وجليقية فى الشمال إلى أقصى الغرب. فرأى أن يلبِّى مع طارق أمر الخليفة بوفودهما عليه، وأناب عنه فى حكم البلاد ابنه عبد العزيز. ومن سوء حظهما أن الموت كان قد أسرع إلى الخليفة الوليد، وخلفه أخوه سليمان فلم يحسن لقاء الفاتحين العظيمين، ولم يعودا بعد ذلك إلى إيبيريا، ولا عُرف مصيرهما، ويقال إن موسى حجَّ مع سليمان سنة ٩٧ هـ وإنه توفى بالطريق فى المدينة أو فى وادى القرى، أما طارق فيبدو أنه عاد إلى موطنه مكتفيا بما أدى فى سبيل الله من جهاد وفتوح عظيمة.

وكان موسى وطارق قد استوليا على أهم البلدان فى إيبيريا، وبقيت فيها بلدان وجهات لم تخضع لهما، فأخضعها ابنه عبد العزيز فى ولايته القصيرة قبل مقتله: (٩٥ - ٩٧ هـ). وكان قد اتخذ إشبيلية عاصمة له، واتجه منها إلى الغرب فاستولى على باجة ويابُرة وشَنْترين وقُلُمْرية، وبذلك استكمل فتح غرب إيبيريا، وكانت لاتزال فى الجنوب الشرقى جهات وبلدان لم تخضع للعرب خضوعا تاما، فرأى عبد العزيز أن يخضعها، وبدأ بمالقة فاستولى عليها كما استولى على غرناطة، وولى وجهه نحو إقليم مرسية، ولم تكن أنشئت فيه إنما أنشئت فيما بعد، وكانت أُريولة عاصمة هذا الإقليم، وكان يحكمه قائد قوطى تسميه المصادر العربية تدمير، فامتنع فى مدينته وصمد لحصار المسلمين، حتى إذا لم يبق فى قَوْس صبره منزع لجأ إلى حيلة، هى نشر نساء مدينته لشعورهن ووقوفهن على سور المدينة وبأيديهن القضبان إيهاما للمسلمين بأنه لايزال فى المدينة عدد

ضخم من الرجال البواسل المتهيئين لمواصلة القتال، وخرج هو وطلب لقاء قائد المسلمين عبد العزيز، فاستأمنه، فأمّنه، وعقد له الصلح ولأهل بلده على إتاوة وجزية يؤدونها. وفى رأينا أن هذه الحيلة للاستئمان تُعدُّ - بدورها - من أساطير الفتح الشعبية الكثيرة التى كانت تتداول فى إيبيريا. إذ يكفى أن يخرج هذا القائد بعد حصار طويل لقائد المسلمين المحاصرين لبلدته ويطلب الأمان له ولمدينته فيجاب إلى طلبه كما حدث كثيرا فى الفتوح الإسلامية.

(ب) عصر[1] الولاة (٩٥ هـ/٧١٤ - ١٣٨ هـ/٧٥٥ م)

عملت عوامل متعددة على كثرة الاضطرابات فى هذا العصر، منها كثرة العناصر التى تكوّن منها الشعب فى الأندلس، إذ كان منه أسبان مختلفو الجنسيات كما أسلفنا ويهود، وحلّ به بربر كثيرون وهم ينقسمون إلى قبيلتين كبيرتين: البتر والبرانس، كما حلّ به العرب وهم ينقسمون بدورهم إلى عدنانية أو مضرية ويمنية أو قحطانية، وكانت بينهما خصومات قديمة أشعلتها فى العصر الأموى حروب قيس المضرية وكلب اليمنية فى موقعة مرج راهط، واستعادت القبائل العربية فى الأندلس هذه الخصومات سريعا. وكان البربر البُتْر يأخذون صفّ العدنانية والقيسية، بينما البربر البرانس كانوا يأخذون صفّ القحطانية وكلب اليمنية، وكان الوالى على الأندلس إذا كان يمنيا أو كلبيا تعصب لقومه، وبالمثل إذا كان عدنانيا أوقيسيا مما هيأ لكثرة الاضطرابات والقلاقل فى تلك البلاد. وعامل ثان هيّأ لها هو كثرة تعيين الولاة هناك حتى بلغوا فى نحو أربعين عاما اثنين وعشرين واليا، فلم يكن الوالى يشعر بشىء من الاستقرار. وعامل ثالث هيأ بدوره لكثرة الاضطرابات فى الأندلس هو بعدها عن السلطة المركزية فى دمشق، فكان الخلفاء الأمويون لا يعرفون شئونها معرفة واضحة، مما جعلهم يكلون تعيين ولاتها إلى ولاتهم على المغرب، مع أنها كانت أكثر من المغرب ثراء وخراجا، وكانت تنعم بغير قليل من الحضارة، بينما أهل المغرب كانوا - وخاصة فى الداخل بعيدا عن الشواطئ - بدوا غير متحضرين، وكان أهل الأندلس يأنفون من هذه التبعية، والخليفة الوحيد الذى تنبه إلى

---

(١) انظر فى ولاة الأندلس بعد الفتح كتاب الأخبار المجموعة وافتتاح الأندلس لابن القوطية والجزء الثانى من البيان المغرب لابن عذارى وتاريخ ابن خلدون ١١٨/٤ ونفح الطيب ٢٣٤/١ وما بعدها و١٤/٣ وما بعدها وفجر الأندلس لحسين مؤنس ص ١٢٢ وما بعدها والتاريخ الأندلسى لعبد الرحمن الحجى ص ١٣١ وما بعدها.

ذلك هو عمر بن عبد العزيز، إذ فصل ولاية الأندلس عن ولاية المغرب، وولّى عليها سنة مائة للهجرة السمح بن مالك، فطبق سياسة عمر فى إنصاف الإسبان المغلوبين والمساواة فى الحقوق بينهم وبين المسلمين من العرب والبربر، ودفع الناس بقوة إلى الجهاد فى سبيل الله وراء جبال البرينيه فى غالة (فرنسا) وتوالت انتصاراته حتى مدينة تولوز، وثبّت أقدام المسلمين فى ولاية سبتمانية جنوبى فرنسا وعاصمتها أُربونة بحذاء البحر المتوسط، ولم يلبث ان استشهد فى آخر سنة ١٠٢ للهجرة.

وكان عمر بن عبد العزيز قد توفى قبل السمح فعادت الأندلس تابعة لوالى المغرب، فولى عليها عنبسة الكلبى، واقتدى بالسمح فى متابعة الجهاد وراء جبال البرينيه واستولى على قَرْقشونة فى داخل سبتمانية، وتوغل فى وادي نهر الرون حتى سانس على بعد ٧٠ كيلو مترا من باريس واستشهد سنة ١٠٧ وولّى عليها والى المغرب يحيى بن سلمة الكلبى وظل عليها حتى سنة ١١٠ وكان شديد العصبية - مثل عنبسة الوالى قبله - لقبيلته كلب اليمنية، ولقيت قيس المضرية منها الأمرين، وولى بعدهما ولاة قيسيون كالوا لكلب الصاع صاعين أهمهم الهيثم الكلابى وله بلاء حسن فى الجهاد بأرض غالة، ويقال إنه توغل فيها حتى ماسون شمالى ليون. ووليها عبد الرحمن الغافقى فأعاد إلى الأندلس الهدوء والنظام وقاد جيشا كبيرًا لغزو غالة، وواصل انتصاراته بين نهرى جَرونة ودوردونى، ومضى فى اتجاه اللوار وكان شارل مارتل قد حشد له جيشا كثيفا من الفرنج والألمان وشعوب الشمال الأوربى، والتقى به لسنة ١١٤ هـ/٧٣٢ م بين تور وبواتييه على بعد مائتى كيلو مترًا من باريس، وصمد المسلمون عشرة أيام ينازلون أعدادا ضخمة، وفجأهم استشهاد قائدهم عبد الرحمن فى المعركة فانسحبوا. ووَلِيَ الأندلس عبد الملك بن قطن الفهرى لمدة سنتين وخلفه عليها سنة ١١٦ عقبة بن الحجاج القيسى وظل يليها خمس سنوات محمود السيرة، ورابط فى جليقية بأقصى الشمال الغربى من إيبيريا حتى لم يبق فيها قرية إلا فُتحت ماعدا حصن بلاى بالقرب من خليج بسكاى لوعورة الطريق إليه، وتخطى جبال البرينيه إلى سبتمانية وعسكر بجيشه فى عاصمتها أربونة وتقدم على نهر الرون واستشهد فى قرقشونة. وباستشهاده يتوقف هذا المد العربى الإسلامى وراء جبال البرينيه فى غالة (فرنسا) بعد استمراره عشرين سنة أو تزيد، سجل فيها العرب صفحات انتصار مجيدة بجانب انتصاراتهم وفتوحاتهم العظيمة فى إيبيريا.

وإنما عاق العرب عن المضى فى هذه الفتوحات والانتصارات ما أفضوا إليه فى الأندلس - منذ أول العقد الثالث فى القرن الثانى - من عصبيات عنيفة أخذت تضطرم

اضطراما شديدا لا بين العرب المضرية واليمنية فحسب، بل أيضا بين العرب أنفسهم والبربر وكانت قد اندلعت العصبية بينهما فى المغرب، واضطر هشام بن عبدالملك أن يرسل جيشا ضخما بقيادة كلثوم بن عياض القشيرى وابن أخيه بلج بن بشر لإخماد ثورة ضارية للبربر، فهزم الجيش مرارا، واضطرت قوات منه تبلغ عشرة آلاف كان يقودها بلج بن بشر أن تلجأ إلى مدينة سبتة، وحاصرها البربر وأصابها جوع قاتل فكاتب بلج بن بشر والىَ الأندلس أن يسمح له بدخولها مع جنده، فتردد، وكان قد تطاير شرر كثير من فتنة البربر بالمغرب إلى إخوانهم فى الأندلس لإبعاد العرب لهم عن أداة الحكم ولما ينزلونه بهم من عسف، فثاروا فى بلدان كثيرة هناك وخشى الوالى مغبة ذلك فسمح لبلج بن بشر أن يدخل الأندلس سنة ١٢٣ بآلافه العشرة. وتعاون مع الوالى فى القضاء على ثوراتهم، مما جعلهم يتنادون - وخاصة فى شمال البلاد - بالرجوع إلى موطنهم فى المغرب. وكانت من البربر كثرة فى جليقية وحوض نهر الدُّوَيْرة وفى الأراضى الواقعة شمالى نهر تاجُه، فتركوا تلك الديار جميعا تَنْعَى أهلها، وكان لهذه الهجرة البربرية الجماعية أسوأ الأثر على مستقبل الإسلام لا فى الأندلس وحدها بل أيضا فى ساحات الجهاد والفتوح خلف جبال البرينيه فى غالة، فقد توقف هذا الجهاد، وليس ذلك فحسب، إذ ضاعت جليقية وأراضى حوض نهر الدويرة أو أشرفتا على الضياع، فقد تركها المغاربة لنصارى الشمال، وأوشك أن يكون ما تركوه وخسره الإسلام نحو ربع إيبيريا، تركوه للنصارى دون حرب أو ما يشبه الحرب، ليتجمع النصارى فيه ويعمروه ويغيروا على المسلمين منه طوال القرون التالية ويخرجوهم من ديارهم وفردوسهم الأرضى.

ولم يلبث بلج بن بشر أن اشتبك بعد ذلك مع جنوده الشاميين فى حروب مع والى الأندلس وجنوده من العرب الفاتحين، وسموا أنفسهم البلديين تمييزا لهم من هؤلاء الشاميين الطارئين. وانتصر بلج ولم يلبث أن توفى وعادت الحرب جذعة بين العرب الشاميين والعرب البلديين ومن انضم إليهم من البربر المستقرين فى الأندلس إذ كانوا يرون أنفسهم - مثل العرب البلديين - أحق بالأندلس وخيراتها. وهاجت الفتن والحروب بين الفئتين، ووَلى - من قبل والى المغرب - أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبى، وحاول أن يعيد إلى الأندلس الهدوء والنظام، غير أنه أفرط فى التعصب لقومه من كلب واليمنية ضد القبائل المضرية والقيسية ونشبت فتنة ضارية، فخُلع سنة ١٢٨، ولم تهدأ البلاد، فقد احتدمت الفتنة بين اليمنية والمضرية وأيضا بين العرب الشاميين والبلديين، واستطاع الصميل بن حاتم زعيم المضرية أن يضم تحت لوائه قومه ومعهم

العرب الشاميون بينما انضوى اليمنيون والعرب البلديون والبربر تحت لواء يوسف بن عبدالرحمن الفهرى، واتفق الطرفان سنة ١٢٩ أن تكون ولاية الأندلس ليوسف ويتخذ الصميل مستشارًا له ووزيرًا، وبذلك عاد الأمن والنظام إلى الأندلس حتى سنة ١٣٨ ولكنها لم تعد إلى الجهاد فى غالة (فرنسا) ولا إلى الحفاظ على ما أضاعته من الأندلس الهجرة البربرية الكبرى، مما أتاح الفرص لنصارى الشمال أن يقيموا لهم دُوَلًا ما زالت تناضل المسلمين قرونًا متطاولة إلى أن سقطت غرناطة آخر معاقلهم بتلك الديار.

٣

الدولة الأموية[١]

لا نصل إلى أواخر السنة الثانية والثلاثين بعد المائة حتى يقضى العباسيون على الدولة الأموية فى المشرق وقد مضوا يستأصلون الأمويين فى مذابح جماعية، وكأنهم لا يريدون أن يبقوا منهم على وجه الأرض باقية. فى هذه الأثناء فرَّ شاب أموى فى التاسعة عشرة من عمره إلى إفريقيا هو عبد الرحمن بن معاوية ابن الخليفة هشام بن عبد الملك، واستطاع أن يدخل الأندلس - ولذلك سُمِّى عبد الرحمن الداخل - وأن يقبض على زمام الحكم بها ويجعله وراثيًا فى أسرته لمدة ثلاثة قرون متوالية. وبذلك أثبت أن الدولة الأموية إذا كانت سقطت فى المشرق فقد قامت فى الأندلس وكل ما هناك أن العاصمة انتقلت من دمشق إلى قرطبة.

وأُحيط فرار عبد الرحمن إلى إفريقيا ودخوله إلى الأندلس بكثير من المبالغات والأساطير، من ذلك أنه كان بإحدى قرى العراق مع أختين له وأخ صغير فى الثالثة عشرة من عمره حين كان العباسيون ينكلون بأفراد أسرته، وحاصرت جنودهم القرية،

---

(١) انظر فى الدولة الأموية بالأندلس البيان المغرب لابن عذارى الجزء الثانى وأخبار مجموعة والجزء الأول من المغرب وأعمال الأعلام لابن الخطيب، والذخيرة لابن بسام فى خلفاء الحقبة الأخيرة للدولة الأموية ونفح الطيب فى مواضع مختلفة وتاريخ ابن خلدون ٤ / ١١٦ وما بعدها والمقتبس من أنباء أهل الأندلس: الأجزاء المنشورة بتحقيق الدكتور مكى والحجى وشالميتا ومعه رفيقان. وراجع دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبد الله عنان ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس والتاريخ الأندلسى لعبد الرحمن الحجى.

فاصطحب عبد الرحمن أخاه وحمل ما استطاع من المال وأوصى أختيه أن يرسلا إليه بموضع عيَّنه لهما فى الشام مولاه بدرا ومولاهما سالما. وحين كان يهم مع أخيه بعبور الفرات لحقتهما جنود العباسيين وعرضت عليهما الأمان، وكان التعب قد أخذ بخناق أخيه فاستجاب لهم. أما هو فألقى بنفسه فى الفرات، وبمجرد أن وصل إلى الشاطئ رأى سيوف الجند العباسي تنوش أخاه، فحمد الله أن نجا بنفسه، واتجه إلى الموضع الذى عيَّنه لأختيه بالشام فوجد بدرا وسالما فى انتظاره ومعهما مال وجواهر. ومضى معهما مسرعًا إلى إفريقيا وأخذ يتنقل فيها بين قبائل البربر، واستقرَّ عند أخواله من قبيلة نفزة بالقرب من طنجة. وكان سالم قد أعياه طول التنقل فعاد إلى الشام أما بدر فظل مع مولاه. وتساق مع هذه الأسطورة أسطورتان تزعم أولاهما أن والى المغرب أحسَّ بخطر عبد الرحمن فأرسل فى طلبه، وكاد أن يقع فى يد طالبيه، لولا أن خبأته امرأة من قبيلة نفزة فى ثيابها، وتزعم الأسطورة الثانية أن عم أبيه مسلمة بن عبد الملك كان على علم بالنجوم وأنها أخبرته أن الأمير عبد الرحمن سيتحقق الأمر على يده. ولم يكن مسلمة على شىء من العلم بالنجوم، إنما هى أسطورة كالأسطورتين السابقتين وكأساطير أخرى تتصل برحلة عبدالرحمن وجميعها وضعها قُصَّاص شعبيون بعد أن عظم شأن عبدالرحمن وبيته فى الأندلس. وتساق أخبار كثيرة عن إرسال عبد الرحمن بمولاه بدر إلى موالى أسرته الأموية فى الأندلس واستجابتهم له واستجابة اليمنية التى طالما أيَّدت أسرته فى صِفِّين وفى مرج راهط. ودخل عبد الرحمن الأندلس وكوَّن سريعًا جيشًا للقاء الوالى يوسف الفهرى ومستشاره الصميل على مشارف قرطبة. واندحر جيشهما وأسر الصميل ومات فى السجن خنقًا، أما يوسف ففرَّ إلى طليطلة وفى إحدي قراها لقى حتفه.

وفى مساء هذا الانتصار فى اليوم العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨ للهجرة دخل عبد الرحمن القصر بقرطبة وصلَّى بالناس وخطب فى الجند معلنًا ميلاد الدولة الأموية فى الأندلس، وأخذ يحاول جادًّا أن تكون دولته فى قرطبة امتدادًا لدولة آبائه فى دمشق، وكان أول ما مهَّد به لذلك قطعه الخطبة للعباسيين بعد عشرة أشهر من استيلائه فى الأندلس على صولجان الحكم، وحاول بعض دعاة العباسيين أن يثوروا به فى أول أمره، فقبض عليهم وحزَّ رءوسهم، وقيل إنه وضعها فى جَوَاليق (أوعية) وعلى رأس كل منهم بطاقة تحمل اسمه وأرسلها إلى والى العباسيين فى القيروان، وقيل: بل أرسلها إلى المنصور، فقال: الحمد لله الذى جعل بينى وبين عبد الرحمن صقر قريش بحرًا. وأخذ عبد الرحمن يعمل على تثبيت الحكم بالأندلس فى بيته وأن يكون وراثيًّا فى أبنائه وأحفاده، وبذلك حمى

الأندلس لمدة ثلاثة قرون من الاضطرابات والحروب الأهلية وأن تتوزع إلى أندلسات كثيرة. كما حدث فى القرن الخامس الهجرى لعهد ملوك الطوائف.

وهذا الحكم الوراثى حاكى فيه عبد الرحمن وأبناؤه وأحفاده حكم أسلافهم الأمويين فى دمشق، وكانوا - مثلهم - حكامًا مستبدين لا يشركون فى حكمهم أحدًا، فكل أزمّة الحكم بأيديهم، وسنرى عوامل فى الأندلس تلطّف هذا الحكم الاستبدادى وتخفّفه، إذ كان علماء الدين والقضاة والعامة يأبون فى أحوال كثيرة إلا أن يُسْمَع لهم ويؤخذ بوجهات نظرهم، ولا نصل إلى عهد عبد الرحمن بن الحكم حتى ينشئ فى الأندلس نظامًا للوزارة يشبه نظمها الحديثة. وعلى نحو ما كان الخلفاء الأمويون فى دمشق يتخذون لأبنائهم المؤدبين والمعلمين كذلك اتخذ عبد الرحمن الداخل وأبناؤه المعلمين والمؤدبين لأبنائهم فى قرطبة، وكان لذلك أثره فى رعاية الأمويين فى الأندلس للأدب وأهله وأيضًا للعلم وأصحابه على نحو ما كان أسلافهم فى دمشق يرعونهم. واسْتَنُّوا سنة أسلافهم فى بناء القصور بالبادية على نحو ما نعرف عن هشام جد الأسرة من بنائه لنفسه قصرًا بعيداً عن دمشق فى البوادى سماه الرُّصافة أو مُنْية الرصافة، وحاكاه فى قرطبة حفيده عبد الرحمن الداخل فبنى لنفسه قصرًا شمالى قرطبة سوى قصره المواجه لجامعها الكبير اتخذه للتنزه ولسكناه فى كثير من أوقاته، وتبعه أبناؤه يبنون لأنفسهم قصورًا خارج قرطبة، وكانوا كذلك يبنون دورًا لأبنائهم يعلّمون فيها ويؤدّبون. واقتدى عبد الرحمن بأسلافه فى بناء الجوامع والمساجد، وقد بدأ بناء جامع قرطبة الكبير وظل الأمراء بعده يزيدون فيه حتى أصبح يضارع الجامع الأموى الكبير فى دمشق، إن لم يتفوق عليه، وبنى مسجدًا فى إشبيليه وفى بلدان أخرى متعددة. وعُنى عبد الرحمن الداخل بالتنظيم الإدارى والشئون المالية على نحو ما كان يعنى أسلافه الأمويون فى دمشق. ومن تتمة هذه المحاكاة لأسلافه اتخاذه دارًا للسكة وضرب العملة فيها باسمه، واتخاذه مذهب الأوزاعى فقيه الشام المتوفى سنة ١٥٧ للهجرة أساسًا للفتوى والقضاء فى الأندلس، ومن تتمة ذلك أيضًا أن نجده يسمى وزيره عبد الواحد بن مغيث الغسانى حاجبًا بالضبط كما كان يسمى أسلافه فى دمشق وزراءهم، وظل ذلك بعده فترة.

وشُغل عبد الرحمن الداخل - وأبناؤه بعده - بثورات داخلية كثيرة على نحو ما شُغل أسلافهم فى دمشق بثورة ابن الأشعث فى العراق وثورات الخوارج والشيعة، وكانت ثورات الأندلس دائمًا حادة عنيفة بسبب ما كان بها من عصبيات - تحدثنا عنها - بين اليمنية والمضرية، وبين العرب البلديين والشاميين، وبين العرب والبربر، وأخذت تظهر

عصبية جديدة هى عصبة المولَّدين من أبناء وأحفاد من أسلموا من الإسبان وانضم إليهم المسالمة (المسلمون الجدد من الإسبان) وكذلك المسيحيون ممن استعربوا وغير المستعربين، وقد تنادوا بأن البلد بلدهم وهم أحق بها وأخذوا يثورون، وشبت بسبب ذلك كله ثورات فى الجزيرة الخضراء وباجة وإشبيلية وطليطلة وأخمدها عبد الرحمن جميعًا. وبجانب هذه الحروب الداخلية كانت هناك حروب فى الشمال مع الإمارات الإسبانية، وعلى نحو ما حوَّل أسلافه فى دمشق الحرب بينهم وبين بيزنطة، إلى حرب صوائف، وهى حملات صيفية كانت توجَّه إلى حدود بيزنطة كذلك صنع عبد الرحمن وخلفاؤه فى قرطبة. وبذلك توقفت حركة الفتوح التى رأيناها فى عصر الولاة والتى كانت قد توغلت فى جنوبى فرنسا الغربى حتى بواتييه ونهر الرون، إذ أخلى عبد الرحمن كل ما كان بأيدى العرب من أرض شمالى جبال البرينيه بفرنسا واقتصر على ما بيده من الأندلس. وكان ينفس عليه سلطانه واليان عربيان هما واليا سرقسطة وبرشلونة عاصمة قطالونيا وبلغا من خيانتهما أن اتصلا بشارلمان ملك الفرنجة وإمبراطور الغرب وأغرياه بغزو الأندلس سنة ١٦١ هـ/٧٧٨ م واقتحم جبال البرينيه وحاصر سرقسطة طويلًا واضطر إلى رفع الحصار عنها وعاد إلى بلاده، ولكن بعد أن أنشأ ولاية فى قطالونيا مهدت لاستقلال تلك المنطقة. وفى أثناء عودته أخذ الأندلسيون وحلفاؤهم من البشكُنس ينقضُّون على مؤخرته ومزقوها تمزيقًا هى وقائدها رولان الذى تكونت حوله - فيما بعد - ملحمة شعبية باسم ملحمة رولان.

وتوفِّى عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٢ وخلفه ابنه هشام بعهد منه، وقد بايعته العامة بقرطبة، مما يدل على أن الحاكم الأموى هناك كان يضع فى اعتباره رضاها عنه، وليس ذلك فحسب. فقد اتخذ هشام مستشارين له من الفقهاء أو مشاورين يرجع إليهم فى تدبير الأمور، ويروى أن مصعب بن عمران قاضى قرطبة حكم على أحد رجال هشام بحكم فشكاه إليه، فقال له: والله لو أمرنى بالخروج عن مقعدى (إمارتى) لخرجت عنه. وعلى هذا النحو كان يخفف من حدة استبداد الحاكم الأموى فى قرطبة الرعية التى كان يخشاها والقضاة والفقهاء أوعلماء الدين، وظل ذلك مرعيا طوال أيام الأمويين فى الأندلس حرصا على طلب السمعة وحسن الأحدوثة بين الرعية. وظلت جيوش هشام تقضى على ثورات المسيحيين فى الشمال إلى أن توفى سنة ١٨٠ للهجرة.

وولى بعده ابنه وولى عهده الحكم، وكان فى السادسة والعشرين من عمره، وهو أول من استكثر من الصقالبة، إذ بلغوا فى عهده خمسة آلاف. ومع حزمه كان يأخذ بشىء من

اللهو ويخرج للصيد، ولم تعجب سيرته الفقهاء والعامة، وكثر تعرض الناس له فى الطريق بالسُباب، فصلب فى سنة ١٩٠ نفرا من الفقهاء، مما جعل مراجل الغضب عليه تغلى فى قرطبة إلى أن انفجرت ثورة ضده فى جنوبيّها كان يقودها الفقهاء، واتسعت فشملت قرطبة، وتحركت جموع الشعب نحو قصره تطالب بعزله، فسلّط عليهم جنده من الصقالبة فسفكوا دماء كثيرين وتبعوهم فى دورهم بالهدم والإحراق وهدموا الربض الجنوبى منشأ الثورة ومركزها. وبعد ثلاثة أيام أعلن الحكم الأمان للثائرين على أن يخرجوا من قرطبة، فخرج منهم جمهور إلى طليطلة، وخرج جمهور ثان إلى دار الحرب فى الشمال وجمهور ثالث ركب البحر إلى الإسكندرية يبلغ نحو خمسة عشر ألفا، وأنزلهم عبدالله بن طاهر والى مصر للمأمون جزيرة كريت سنة ٢١٢ وأنشأ وا فيها دولة إسلامية ظلت بها إلى أن استعادها البيزنطيون سنة ٣٥٠ للهجرة. وكانت جيوش الحكم ماتنى غادية رائحة لحرب المسيحيين فى الشمال، واستطاع البَشْكُنْس بقيادة ونقة الاستيلاء على مدينة بنبلونة سنة ١٨٣ وأقاموا من حينئذ مملكتهم نبارّة وظلت وراثية فى أبناء ونقة. وحاصرت فى سنة ١٩٠ قوات فرنسية مدينة برشلونة، وسقطت بعد مقاومة عنيفة، وبذلك ضاع من أيدى العرب فى الشمال الشرقى إقليم قطالونية كما ضاع إقليم بنبلونة، وكان قد ضاع فى عهد عبد الرحمن الداخل إقليم جليقية وأشتوريش. ويقول ابن سعيد فى المغرب إن الحكم كان من أشد بنى أمية فى الأندلس إقداما إلى ما جمع من جودة الضبط وحسن السياسة وكان يشبه بالمنصور العباسى فى شد الملك وقهر الأعداء وتوطيد الدولة، وتوفى سنة ٢٠٦ للهجرة.

وولى بعده بعهد منه ابنه عبد الرحمن، ويسمى عبد الرحمن الأوسط لتوسطه بين جده عبد الرحمن الداخل وحفيده عبد الرحمن الناصر، وفى عهده تكاملت أسس الحضارة العربية فى الأندلس، وكانت ثلاثة أسس من أسسها أخذت فى الاستقرار هناك هى الدين الحنيف ولغته العربية ودعوته إلى العلم والتعلم وكانت الأندلس قد سارعت إلى العناية بالعلوم اللغوية والدينية، فدفعها عبد الرحمن الأوسط إلى العناية بعلوم الأوائل، وضم إلى ذلك أساسا رابعا هو الجانب المادى للحضارة الأندلسية، إذ شغف ببناء القصور وأثاثها ورياشها الفاخرة وحاكاه الأندلسيون مما جعل التجار يحملون إلى الأندلس نفائس المشرق وطرائفه. وانضم إلى ذلك أساس خامس فيها اكتمل للمجتمع من تكوين فنى وحضارى عن طريق وفود زرياب المغنى تلميذ إسحق الموصلى على قرطبة فى أول عهد الأمير عبد الرحمن وقيادته هنالك نهضة للغناء والموسيقى وبثه فى المجتمع الأندلسى

جوانب حضارية جديدة فى الملبس والمأكل والهيئة.

وبنى عبد الرحمن بقرطبة دارا للسكة وضرب الدراهم باسمه، وهو الذى وضع أساس الحضارة الأندلسة من وجهة تنظيم الحكم وضبط قواعده إذ اتخذ مجلس وزراء جعل له رئيسا باسم الحاجب، وجعل له ولمرءوسيه من الوزراء بيتا فى قصره يجلسون فيه على فرش منضدة، وجعل الأمر شورى بينهم، واختص كل منهم بشأن من شئون الدولة فوزير للمال ويسمى الخازن ووزير للمظالم ووزير للثغور أو الحرب، وعدَّ ابن حيان وزراءه وبلغ بهم ستة عشر طوال أيامه. وكان الوزراء يجتمعون مع رئيسهم يوميا، وكل منهم يعرض مسائله ويتشاورون فيها، وإذا قضوا بأمر عرضه الحاجب على الأمير، فإن قبله فبها وإلا رُدَّ إلى مجلس الوزراء لإعادة النظر فيه. وعلى نحو ما عُنى عبد الرحمن بتنظيم الوزارة عنى بالخطط، وقد تكون للوزارة خطة واحدة كخطة المظالم وخطة الثغور، وكانت أهم الخطط خطط القضاء وأجلُّها خطة قضاء الجماعة بقرطبة، ويليه خطة صاحب الرد فيما استرابه الحكام وردوه عن أنفسهم، وخطة الشرطة الوسطى (وقد تسمى الكبرى) وكان لصاحبها الضرب على أيدى أصحاب المناصب والجاه فى الظلامات، وخطة الشرطة الصغرى وكان صاحبها خاصا بالعامة، وخطة السوق لصاحب الحسبة المشرف على الأسواق. وبذلك كله أحكم عبد الرحمن النظام الإدارى للدولة، وظل هذا النظام بعده إلى نهاية أيامها. وكان لايصدر فى أمر إلا بعد الرجوع إلى مجلس الوزراء، وكان له مستشارون من القضاة والفقهاء لايحيد عن مشورتهم، وبذلك كله أُرْسيت قواعد الحكم الأموى فى قرطبة، إذ أصبح الحاكم يحكم عن طريق مجلس الوزراء والقضاة ورجال الدين، مما جعل الحكم هناك شوريا إلى حد كبير. وكان يقال لأيامه أيام العروس لما شمل الناس فيها من أمن ورخاء، وزاد فى جامع قرطبة رواقين فى الجنوب وبنى فى الأندلس جوامع كثيرة، وتولع مثله ببنائها جواريه.

وفى أيامه نشبت فتنة بين اليمنية والمضرية فى تدمير (مرسية) ظلت سبع سنوات إلى أن أخمدت، وكثيرا ما كانت جيوشه تغزو المسيحيين فى الشمال، وأحيانا كان يقود تلك الحملات بنفسه ويغنم غنائم كثيرة. وغزا النورمان (سكان إسكنديناوة) شواطىء الأندلس الغربية عند أشبونة وقادس فى آخر سنة ٢٢٩ وصعدوا من مصب الوادى الكبير إلى إشبيلية، ونكل بهم قواده وولت فلولهم إلى المحيط. وأرسل إليه إمبراطور بيزنطة بهدية، فأرسل إليه الشاعر القرطبى يحيى الغزال بهدية مماثلة، ويقال إنه قضى فى بيزنطة ثلاث سنوات، ولما عاد أرسله بهدية إلى ملك النورمان، ونجح فى السفارتين

أو الوفادتين جميعا، وعنى عبد الرحمن الأوسط ببناء أسطول لحراسة الثغور على المحيط الأطلسى وعلى البحر المتوسط وفتح به سنة ٢٣٤ جزائر البليار ميورقه ومنورقة ومما يُذكر له بنيانه ثغر مُرْسية على مقربة من ساحل البحر المتوسط. وفى أواخر أيامه أشعل المتعصبون من أحبار النصارى فتنة دينية ضد الإسلام والمسلمين، وأثاروا بعض القسس والشباب فكانوا يجاهرون بسبِّ الدين الحنيف ومقدساته حتى إذا لم يبق فى قوس الصبر منزع طلب عبد الرحمن إلى رئيس الأساقفة عقدَ مجمع كنسى فى قرطبة للنظر فى هذه المحنة، وعُقد المجمع وأصدر قرارا باستنكار هذه الفتنة الحمقاء وتحريم سب الإسلام. وهدأت الأمور، ولم يلبث عبد الرحمن أن لبَّى نداء ربه فى سنة ٢٣٨ للهجرة.

وولى بعده ابنه محمد بعهد منه، وطالت إمارته فى الأندلس حتى وفاته سنة ٢٧٣ للهجرة، وكان محبا للعلوم مؤثرا لأهل الحديث حسن السيرة، وزاد فى ترتيب الأداة الحكومية مستكثرا من الوزراء حتى بلغوا ثلاثة وعشرين فى عهده. وكان مثل آبائه يعامل المسيحيين معاملة حسنة، وفسح للمستعربين منهم ممن اتخذوا العربية لسانا لهم فى مناصب الدولة، من ذلك تعيينه لقومس بن أنتنيان متولى جمع الضرائب من أهل الذمة للدولة كاتبا له سنة ٢٤٦ ولم يلبث أن أسلم وحسن إسلامه ويُذكر أنه استعفى الأمير محمدًا أثناء اعتناقه النصرانية من العمل يوم الأحد، فأعفاه وأعفى جميع الموظفين، وأصبح ذلك بعده - كما يقول ابن حيان - عامًّا فى الأندلس. وفى سنة ٢٤٥ أغار النورمان غارتهم الثانية على شواطىء الأندلس الغربية على المحيط وشواطئها الشرقية على البحر المتوسط وصدَّهم الأسطول ونكّل بهم، فلم يعودوا بعد ذلك للإغارة على الأندلس. وكثرت الفتن والحروب فى عهد الأمير محمد كما كثرت الثورات، وفى مقدمتها ثورة عبد الرحمن بن مروان الجليقى فى بطليوس بالغرب سنة ٢٦٠ وثورة عمر بن حفصون فى مالقة سنة ٢٦٧ ودخل فى هذه الثورات عناصر جديدة من المسالمة (المسلمين الجدد) والمولدين (أبناء وأحفاد من أسلموا من الإسبان) وتحيزت النصارى إلى هؤلاء الثوار وصاروا إلْبا على العرب يقولون نحن أولى بحكم الأندلس لأنها بلدنا ووطننا. وظلت الثورتان المذكورتان محتدمتين وظلت جيوش الأمير محمد تحاول القضاء على هذه الفتن مع خروجها من حين إلى حين لحرب المسيحيين فى الشمال. وكان مشغوفا بالبنيان فزاد قصور آبائه فخامة، وبنى لنفسه قصرا أنيقا فى الجنوب الغربى لقرطبة.

وخلف محمدًا فى حكم الأندلس ابنه المنذر لمدة عامين شغل فيهما بحرب عمر بن حفصون فى قلعة بُبَشْتَر بين مدينتى رُنْده ومالقة، وحصره فيها، غير أن الأجل وافاه أثناء

الحصار، فعاد به أخوه عبد الله إلى قرطبة فى صفر سنة ٢٧٥ وولى الامارة بعده. وكان عبد الله يكثر من تلاوة القرآن والتهجد وصلاة الجماعة مع العامة، وكان مجلسه يحفل بطبقات أهل الآداب والعلوم، وفتح للعامة بابا فى قصره لأخذ رقاعهم والنظر فى ظلاماتهم،وبذلك انتعشت الرعية فى عهده، غير أن الثورات والفتن تفاقمت تفاقما شديدا فى أيامه، حتى لقد كادت تعم كُوَر الأندلس، إذ ماجت جميعها بالفتنة والثورة بين المولدين والمسالمة والنصارى من جهة وبين العرب من جهة ثانية أو بين البربر والعرب أو بين العرب بعضهم وبعض فبجانب ثورتى عبد الرحمن بن مروان الجليقى وابن حفصون كانت هناك ثورات عبد الملك بن أبى الجواد فى باجَة وابن وضاح فى لورقة بكورة مرسية وغيرهما كثيرون، سوى من ثار من البربر أمثال بنى ذى النون فى شَنْتَبرية. وفى أثناء هذه الفتن والثورات التى امتدت فى عهد الأمير محمد وطوال عهد ابنيه المنذر وعبد الله استطاع ألفونس الثالث ملك ليون والجلالقة أن يوسع رقعة مملكته حتى شملت الحوض الممتد بين نهرى الدويرة والتاجه وأنشأ به عددا كبيرا من الأديرة والكنائس، وأسكن هذه الأراضى الجديدة المستعربين من نصارى الإسبان الذين قدموا عليه من أرجاء الأندلس وتوفى عبد الله سنة ٣٠٠ للهجرة.

وكان لابد للأندلس من حاكم قوى حازم يعيد إليها وحدتها، ويبدو أن الأمير عبدالله شعر بذلك فى عمق مما جعله يعد للأمر عدته برعايته لحفيد له صنعه على يديه هو عبدالرحمن، اتخذه وليا لعهده، وكان يملك قلبه وقلوب الحاشية والرعية والجند، وكان شابًّا له اثنتان وعشرون سنة، وهاله ما رأى فى الأندلس من كثرة الثورات، وفى مقدمتها ثورة عمر بن حفصون ومن قادهم من المولدين والمسالمة والعجم، فقاد إليه جيشا فى أول سنة من سنى حكمه، واستولى فى طريقه إلى مركز ثورته فى ببشتَر بالقرب من مالقة على سبعين حصنا، وأعاد الكرة إليه فى السنة التالية وردّ إلى طاعته إشبيلية وشذونة ومالقة. ولم يجد ابن حفصون مفرا فى السنة الثالثة من إعلان طاعته والانقياد إليه، وتوفى سنة ٣٠٥ وتبين أنه كان قد تنصر إذ دُفن فى كنيسة ببشتر، وثار أبناؤه على عبد الرحمن وقضى على ثوراتهم نهائيا سنة٣١٤ وحوّل كنيسة البلدة إلى مسجد، واستخرج منها جثة ابن حفصون وصلبه بقرطبة، وعاد جنوب البلاد جميعه إلى طاعته. واتجه عبدالرحمن بعد ذلك إلى غربى الأندلس وعبدالرحمن بن مروان الجليقى، ولم تكد تدخل سنة٣١٨ حتى كان الغرب كله قد استسلم، واستسلمت طليطلة وجميع البلدان فى إقليمها. وبذلك محا عبد الرحمن فكرة الثورة فى الأندلس وعاشت فى أمن ورخاء. وأخذ منذ السنوات الأولى من حكمه يفرض

هيبته على من جاوره من المسيحيين الإسبان فى الشمال وأذعنت له بالولاء مملكتا الجلالقة والقشتاليين واتخذتا منه الحكَم المطاع فيما ينشأ بينهما من خلاف، وفزع إلى سُدَّته ملوكهما وأمراؤهما يلتمسون رضاه، وطار صيته فى أوربا، فوفدت منها سفارات كثيرة محملة بالهدايا: من إمبراطور بيزنطة والبابا فى روما وإمبراطور المملكة الجرمانية وهيو ملك الفرنجة وكونْت برشلونة وماركيز توسكانيا وماركيز بروفنسا: قلدو الذى أصبح - فيما بعد - ملكا على إيطاليا. وكانت تعقد لهذه السفارات فى قصره حفلات فخمة[1]. وكانت الدولة الفاطمية قد قامت فى القيروان قبيل حكمه بقليل وقضت على الدولة الرستمية فى المغرب الأوسط فأخذ يرسل المال والسلاح للأدارسة فى المغرب الأقصى حتى يستطيعوا الوقوف فى وجه الفاطميين واستولى على طنجة وسبتة، ورأى بثاقب فكره وقد أعلن عبيد الله المهدى الخلافة الفاطمية فى القيروان ولم يعد للعباسيين وجود فى المغرب أن يبادر إلى إعلان نفسه خليفة للمسلمين فى أواخر سنة ٣١٦ وتلقب بلقب أمير المؤمنين الناصر. وبذلك فصل الأندلس عن العالم العربى بعد أن ظلت طويلا تخضع لسلطان العباسيين الروحى قبله، إذ رأى هذا السلطان يتقلص فى إفريقيا، وبذلك تكاملت للأندلس شخصيتها السياسية، وأصدر فى ذلك منشورا قرىء على الناس فى مساجد الأندلس، وفيه أعلن تمسكه بنصرة أهل السنة والجماعة، مع استنكاره الشديد لعقيدة ابن مسرة المتوفى سنة ٣١٩ أى بعد منشوره بنحو سنتين، وكان قد مزج فى عقيدته بين مبادىء المعتزلة والمتفلسفة والصوفية.

وبلغ من احتفاء الناصر بأبهة الملك أن بنى لنفسه وحواشيه وجنده مدينة الزهراء على سفح جبل العروس المطل على قرطبة. وتأنق غاية التأنق فى قصره بها وأبهائه، ولم ينشأ له ولد إلا بنى له فيها قصرا مقرونا ببستان واختار له بعض الكفاة للقيام بشئونه وبعض المعلمين لتربيته وتعليمه. وعُنى بالمسجد الجامع فى قرطبة، فأضاف إليه فى اتجاه الجنوب زيادة ضاعفت حجمه. وعنى بعمده وزخرفته وأقواسه وأقام به محرابا بديعا. ومن إنشاءاته الضخمة بناؤه مدينة سالم فى الثغر الأوسط بمواجهة مملكتى نبارَّة والجلالقة فى الشمال لتكون مركزًا للجيوش المجاهدة هناك. وبنى أيضا مدينة المريَّة على البحر المتوسط لتكون قاعدة لأسطوله. ويُعَدّ عهده أعظم عهد مرّ بالأندلس، بما أتاح لها من الاستقرار

---

(١) انظر فى ذلك تاريخ ابن خلدون ١٣٧/٤، و٢٧٢/٢ وما بعدها. ١٤٢ وما بعدها، وأزهار الرياض ٢٥٨/٢

والوحدة والمنزلة العليا بين الدول الغربية والعربية، وأعانته على ذلك حنكته فى السياسة وتدبير الحكم وخبرته الدقيقة فى اصطفاء الرجال واختيار القواد، كما أعانه خلق إسلامى عربى كريم من التسامح والعفو عند المقدرة والوفاء بالعهد لكل من استسلم من الثوار مع حسن المعاملة. وطالت مدة حكمه إلى سنة ٣٥٠ إذ استغرقت خمسين سنة وستة أشهر وثلاثة أيام، ويقال إنه عدَّد أيام السرور التى صَفَتْ له فى هذه المدة الطويلة من حكمه، فكانت أربعة عشر يوما.

وخلفه بعهد منه ابنه الحكم المستنصر وكان فى السابعة والأربعين من عمره، وظلت الأندلس فى عهده موحدة وظلت للخلافة الأموية هناك هيبتها فى الداخل والخارج، وأخذت سفارات[1] ممالك النصارى فى الشمال وممالك أوربا تفد على قرطبة. وحاول البشكنس فى بنبلونة والجلالقة فى ليون الإغارة على بلاده فأوغلت جيوشه سنة ٣٥٢ فى أراضيها، وأرغمتها على العودة إلى إعلان ولائها لقرطبة. وتابع سياسة أبيه فى إمداد الأدارسة بالمغرب الأقصى بالمال والسلاح، وأمدهم بالجنود ضد الفاطميين. وفى عهده عاد النورمان إلى الإغارة على شواطئ الأندلس الغربية فى المحيط والشرقية فى البحر المتوسط ونكل بهم الأسطول غربًا وشرقًا. وكان قد تعهده العلماء فى شبابه فشُغف بالعلوم على اختلاف ألوانها واستحال جامع قرطبة لعهده إلى جامعة كبرى، وعُنى عناية واسعة بمكتبته ومكتبة القصر. وكان أبوه توفى قبل إتمامه للزيادة فى الجامع فأتمها. ووقع فى خطأ كبير إذ أوصى بالحكم من بعده لابنه هشام الملقب بالمؤيد وكان لا يزال طفلًا صغيرًا فى الثانية عشرة من عمره حين وفاته سنة ٣٦٦ وبذلك عرَّض الدولة لحكم الحجَّاب الأوصياء وبالتالى لزلزلة لابد أن تنزل بها سريعًا.

وقام بأمر المؤيد فى أول خلافته جعفر المصحفى حاجب أبيه، وأشركت معه فيها «صبح» أمه محمد بن أبى عامر المعافرى صاحب خطة الشرطة والسكة بقرطبة وكان قد ازدلف إليها فى عهد الحكم بحسن الخدمة والقيام بمواقع الإرادة، وأخذ يُعِدُّ سريعًا لتفرده بالحجابة، فأغرى المصحفى بالصقالبة وأخذ ما فى أيديهم من الأموال العظيمة، واستعان بالبطل غالب صاحب مدينة سالم على جعفر فسجنه حتى هلك فى سجنه، ثم بجعفر بن على الأندلسى أمير الزاب بالمغرب الأوسط على غالب ثم بعبد الرحمن بن هاشم التجيبى على جعفر، ثم فتك بعبد الرحمن، وخلصت له الحجابة، وكان المؤيد متخلفًا شديد

---

(١) راجع تاريخ ابن خلدون ١٤٥/٤ وما بعدها وأزهار الرياض ٣٨٨/٢ وما بعدها.

التخلف إلى حد البله، فانفرد بالسلطان المطلق فى الحكم، ونقل الأموال المختزنة فى قصر الخلافة إلى داره. وذكر ابن حزم فى رسالته نقط العروس أنه فكر فى عزل الخليفة هشام وتنصيب نفسه خليفة، واستشار نفرًا من الفقهاء فاختلفوا بين مؤيدين ومعارضين، فرجع عن ذلك واكتفى بلقبه المنصور. وكان له مجلس معروف فى أحد أيام الأسبوع يجتمع فيه إلى أهل العلم. ورأى أن يتخذ لنفسه جيشًا من البربر، فاستقدم منهم آلافًا أعانوه فى غزواته الكثيرة ضد البشكنس أصحاب نبارّه والجلالقة أصحاب ليون، ويقال إن غزواته أربت على عشرين غزوة وقيل بل على خمسين، واستولى فى إحداها سنة ٣٧٧ على بَرْشلونة.

وقد أخطأ ابن أبى عامر فى تكوينه الجيش البربرى الذى أنزله فى قرطبة إذ سيكون له - فيما بعد - أثر سىء فى فتنتها التى طالت سنين متعاقبة انتهت بالقضاء على الدولة الأموية. ودامت دولة ابن أبى عامر ستًا وعشرين سنة إذ توفى سنة ٣٩٢ بمدينة سالم فى الثغر الأوسط للبلاد. وتولى الحجابة بعده لهشام المؤيد ابنه عبد الملك الملقب بالمظفر، ونوّه ابن حيان بحسن ضبطه للأندلس وأن الناس سكنوا منه إلى عفة ونزاهة فأخذوا فى المكاسب والرفاهية وارتفعت نفائس الأعلاق والتحف الثمينة، ورام صهره ابن القطاع الاستيلاء على أزمّة الدولة ففطن له وقتله. وسار بسيرة أبيه فى الجهاد وكثرة الغزو للجلالقة والبشكنس واحتل بنبلونة عاصمة الأخيرين سنة ٣٩٧ وتوفى فى غزوة كبيرة له سنة ٣٩٩. وخلفه فى الحجابة أخوه عبد الرحمن الملقب بالناصر وكان نحسًا على نفسه وعلى المؤيد هشام وعلى أهل الأندلس، إذ انفتح منه - كما يقول ابن سعيد - باب الفتنة العظمى وفسد الناموس، لما انهمك فيه شربا وزندقة وطعنا فى الدين الحنيف قولاً وفعلاً، وطلب من هشام أن يوليه العهد بعده ففعل، وخرج لحرب المسيحيين فى الشمال، فثارت عليه الأسرة الأموية، وكان فى طليطلة، فرجع إلى قرطبة ليتدارك الأمر فتلقاه جند سفكوا دمه فى جمادى الأولى سنة ٣٩٩. وبذلك انتهت دولة بنى عامر.

واتفق بنو أمية على خلع هشام المؤيد ومبايعة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر وتلقيبه بالمهدى، وكان طائشا: فرأى - بغير رويّة - مناصبة جند العامريين من البربر العداء، فاجتمع بهم بظاهر قرطبة سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، فبايعوه فى ربيع الأول سنة ٤٠٠ للهجرة ولقبوه بالمستعين، ونهضوا به إلى طليطلة وهناك استنصر بالجلالقة فنصروه، وكان ذلك أول إسفين دُقّ فى ضياع

الأندلس، وحاصر البربر وجموع الجلالقة قرطبة وبرز إليهم المهدى فى كافة أهلها، وهُزم مع أنصاره هزيمة ساحقة، فرَّ على إثرها إلى طليطلة، فاستعان بالجلالقة - مثل المستعين - فأعانوه، ودخل قرطبة، غير أن أهل القصر قتلوه وأعادوا هشامًا إلى خلافته، وحجبه واضح الصقلبى، وحاصر البربر مع المستعين قرطبة وأرسل إلى الجلالقة ليمدوه، وبعث إليهم هشام وحاجبه واضح بالتنازل لهم عن ثغور قشتالة التى استولى عليها المنصور بن أبى عامر، فلم يلبوا المستعين. واستطاع البربر اقتحام قرطبة سنة ٤٠٣ وفتكوا بهشام المؤيد، وعاد للمستعين صولجان الحكم.

وكان من قواد البربر على بن حمود واخوه القاسم وهما من أسرة الأدارسة العلوية، وعقد المستعين لعلى بن حمود على طنجة وعملها وللقاسم على الجزيرة الخضراء، وظل فى الحكم طوال خلافته ست سنوات وعشرة أشهر كانت كلها شدادًا مشئومات، ويكفى دولته ذلًا وذمًّا أن أنشأها وثبَّتها الجلالقة حتى سنة ٤٠٧ إذ يهاجم على بن حمود قرطبة ويستولى على أداة الحكم ويقتل المستعين. وكان واضح الصقلبى قد فر إلى شاطبة وفر كثير من الصقالبة بزعامة خيران إلى المريَّة ومُرْسية ونزلت جماعة منهم دانية، ولم يلبث غلمان على بن حمود أن قتلوه سنة ٤٠٨ فخلفه أخوه القاسم وتلقب بالمأمون، ونازعه فى سنة ٤١٢ يحيى ابن أخيه على وكان واليًا لسبتة واستولى على قرطبة وتلقب بالمعتلى وفرَّ المأمون إلى إشبيلية وعاد ببعض البربر إلى قرطبة ولحق المعتلى بمالقة واستولى على الجزيرة الخضراء. وثار على المأمون أهل قرطبة وبايعوا عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار سنة ٤١٤ وقرَّب البربر منه فوثب عليه العامة بعد ٤٧ يومًا من حكمه، وبايعوا محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر وتلقب المستكفى بالله ويقال إنه لم يجلس على كرسى الخلافة أيام الفتنة أسقط منه ولا أنقص إذ كان أسير الشهوة عاهر الخلوة. وفى أيامه استؤصلت بقية قصور جده الناصر فى الزهراء، ولم يلبث يحيى بن على بن حمود أن تحرك سنة ٤١٦ للاستيلاء على قرطبة. فهرب المستكفى ومات ببعض الثغور واستولى يحيى على مقاليد الأمور، وثار عليه أهل قرطبة سنة ٤١٧ وبايعوا هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الجبار وظل يتردد فى الثغور ثلاثة أعوام، ثم سار إلى قرطبة وتلقب بالمعتدّ، وفى سنة ٤٢٢ خلعه أهلها، وبذلك انتهت الدولة الأموية فى الأندلس.

٤

أمراء الطوائف - المرابطون - الموحدون - بنو الأحمر فى غرناطة

(أ) أمراء الطوائف[١]

تقوّض الصرح الشامخ الذى شاده بالأندلس أمراء البيت الأموى وخلفاؤه. ونشأ عن ذلك تفكك الدولة واستقلال مدنها الكبرى بأعمالها وقيام النظام المسمى بنظام أمراء الطوائف أوملوك الطوائف، وقد بدأ منذ زمن الفتنة (٣٩٩-٤٢٢ هـ) إذ أخذت العناصر المختلفة تقتسم تلك البلدان، فكان للصقالبة أكثر بلدان الشرق وللعرب والبربر بلدان الموسطة والغرب والجنوب. وتنافست هذه البلدان تنافسًا أدى إلى طور حضارى راق كما أدى إلى نهضة واسعة فى الأدب والعلم. وفى الوقت نفسه أخذت تتحارب فيما بينها، بل أدهى من ذلك أن بعض أولئك الأمراء أدى الجزية صاغرا لمسيحيى الشمال مما قوّى فى نفوسهم فكرة استرداد الأندلس من العرب المسلمين. ونقف قليلًا عند أهم المدن التى تكوّنت فيها هذه الإمارات.

وأول مدينة نقف عندها قرطبة وقد اجتمع الملأ فيها أو كبار رجالاتها ووقع اختيارهم على أبى الحزم جهور ليكون أمينًا على حكمها، وبذلك تأسّس فيها نظام جمهورىٌّ ارستقراطى يرأس الحكم فيه أبو الحزم جهور، ويساعده مستشارون يأخذ بمشورتهم فى المسائل المهمة، وخلفه فى الحكم سنة ٤٣٥ ابنه أبو الوليد محمد باتفاق الملأ، وفوّض

(١) انظر فى هؤلاء الأمراء الذخيرة لابن بسام والمغرب لابن سعيد فى بلدانهم والجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون والحلة السيراء لابن الأبار فى تراجمها، وكذلك التكملة، والجزء الثانى والثالث من البيان المغرب (طبع باريس) والثانى من أعمال الأعلام (طبع بيروت) وكذلك الرابع بتحقيق د.إحسان عباس (طبع بيروت) ونفح الطيب للمقرى (بتحقيق إحسان) فى مواضع مختلفة والتبيان: مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين آخر أمراء غرناطة (طبع دار المعارف) ودول الطوائف لمحمد عبد الله عنان (طبع القاهرة) والصقالبة للعبادى (طبع مدريد) والإسلام فى المغرب والأندلس لبروفنسال (ترجم إلى العربية) طبع القاهرة والتاريخ الأندلسى لعبد الرحمن الحجى ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس وتاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس لعبد العزيز سالم والعبادى (طبع بيروت).

التدبير إلى ابنه عبد الملك، فأساء السيرة وحاصره المأمون بن ذى النون، فاستغاث بالمعتمد بن عباد أمير إشبيلية، فوجه إليه ابنه الظافر سنة ٤٦٢ فى عسكر كثيف ففك ابن ذى النون حصاره، وغدر الظافر بعبد الملك فخلع بنى جهور عن قرطبة ونفاه مع أبيه إلى شلطيش فى الجنوب الغربى للأندلس، واغتال حريز بن عكاشة الظافر ليلا، فأقبل المعتمد بجنوده وهرب ابن عكاشة ولحقته خيل فقتلته، ودخل المعتمد قرطبة وولى عليها ابنه المأمون فظل يدير شئونها إلى أن قتله المرابطون سنة ٤٨٤ للهجرة.

وتُعَدُّ إمارة إشبيلية أهم إمارات الطوائف لما قادت من حركة أدبية وعلمية كبرى ولما صار إليها من بلدان كثيرة فى شرقى الأندلس وغربيها، وأول من جمع زمام الحكم بيده بها قاضيها محمد بن إسماعيل اللخمى منذ سنة ٤١٤ إلى أن توفى سنة ٤٣٣ وخلفه ابنه عباد الملقب بالمعتضد وكان جبارًا سفاكًا للدماء وأحاط نفسه بكوكبة كبيرة من الشعراء واتسع بسلطانه على حساب جيرانه من العرب والبربر بينما كان يرهب المسيحيين فى الشمال رهبة شديدة حتى ليدفع لهم الجزية صاغرًا، وبذلك كان معولًا كبيرًا لهدم الإسلام والعروبة فى الأندلس. وتوفى سنة ٤٦١ فخلفه ابنه المعتمد وفى عهده بلغت الإمارة الذروة فى السلطان إذ دان له كثير من البلدان فى غربى الأندلس مثل قرمونة وشريش وشلب وفى شرقيها مثل مالقة ومرسية، وظل مثل أبيه يدفع الجزية صاغرًا لملك ليون وقشتالة، وكان شاعرًا واجتمع له من الشعراء ما لم يجتمع لأى حاكم أندلسى، وكان مولعًا بالشراب ومجالس الغناء، وعزله يوسف بن تاشفين فى عبوره سنة ٤٨٤ ونفاه إلى أغمات فى المغرب، وبها توفى سنة ٤٨٨ للهجرة.

وقامت فى الجنوب إمارة ثالثة هى إمارة غرناطة تملكتها صنهاجة وأول أمرائهم بها زاوى بن زيرى الذى اشتهر بهزيمته لخيران أمير المرية حين بايع المرتضى المروانى بالخلافة وزحف به على غرناطة. وخاف الكرة عليه من أهل الأندلس فرحل بما حازه من الأموال والذخائر إلى موطنه فى المغرب، وخلفه بغرناطة ابن أخيه حَبوس بن ماكسن (٤١٠ - ٤٢٩ هـ) وورثه ابنه باديس (٤٢٩ - ٤٦٥ هـ) وكان من أبطال الحروب وعظم سلطانه بهزيمته لزهير صاحب المرية وقتله سنة ٤٢٩ هـ وخلفه حفيده عبد الله بن بُلُقِّين، وظل على غرناطة إلى أن سلمها ليوسف بن تاشفين سنة ٤٨٤ للهجرة.

وقامت فى الثغر الأعلى إمارة سرقسطة، ثار بها منذر بن يحيى التجيبى ممدوح ابن درّاج، وتوفى سنة ٤١٤ فخلفه عليها ابنه المظفر يحيى وبعده ابنه منذر، وكان له ابن عم متهور كثير الحسد له فدخل عليه قصره وقتله، فانتهز الفرصة واليه على لاردة - وقيل

على تُطيلة - سليمان بن أحمد بن هود وانقضَّ على سرقسطة سنة ٤٣١، فهرب القاتل وخلصت له ولعقبه، ووليها بعده ابنه المقتدر أحمد وهو عميد بنى هود وكان فارسا مغوارا وله غزوات مشهورة للمسيحيين فى الشمال، وكان شاعرا وممدَّحا للشعراء. وجمع ألفونس السادس ملك ليون وقشتالة جيشا ضخما للاستيلاء على سرقسطة وباءت حملته بالإخفاق الذريع فأعاد الكرة سنة ٤٥٦ وفاجأ النورمانديون بلدة بربشتر على مسافة ٦٠ كيلو مترا فى الشمال الشرقى من سرقسطة واقتحموها وأنزلوا بأهلها مذبحة بشعة وسبوا منها خمسة آلاف من النساء والعذارى وباعوهن فى الأسواق بيع الإماء، وبارك البابا إسكندر هذا العمل الوحشى الفظيع. واستعاد المقتدر البلدة حين استدار العام ومزَّق المعتدين شر ممزق، ودانت له وشقة فى الشمال الغربى من بربشتر وطُرْطوشة فى الجنوب الشرقى من سرقسطة، وأخرج إقبال الدولة بن مجاهد من دانية على البحر المتوسط وأدخلها فى إمارته، وتوفى سنة ٤٧٤ وخلفه ابنه المؤتمن يوسف وكان شجاعا باسلا وحاميا للعلماء والشعراء وتوفى سنة ٤٧٨ فولى بعده ابنه المستعين أحمد، وحين استولى يوسف بن تاشفين على ديار أمراء الطوائف رأى أن يتركه حاجزا بينه وبين المسيحين فى الشمال، وتوفى شهيدا فى حروبه معهم سنة ٥٠٣ وخلفه ابنه عماد الدولة عبد الملك، وحاول على بن يوسف بن ناشفين أخذ الإمارة منه، فاستعان بالنصارى وتملكها المرابطون حتى سنة ٥١٢ إذ حاصرها النصارى واستولوا عليها وأخذوا فى تملك بلاد الثغر الشمالى الأعلى إلى أن ملكوها جميعا.

ومن الإمارات المهمة فى مَوْسَطة الأندلس إمارة طُلَيْطلة ثار فيها زمن الفتنة فى أواخر الدولة الأموية قاضيها ابن يعيش، وتوفى سنة ٤١٩ فتملكها إسماعيل بن ذى النون وأسرته البربرية طوال حقبة أمراء الطوائف، وتوفى سنة ٤٢٩ فخلفه فيها ابنه المأمون يحيى، وهو أعظم أمرائها قدرا، اجتمع عنده جِلَّة من الشعراء والكتاب، وعنى ببناء قَصْرٍ له تأنق فيه غاية التأنق مما جعل الأدباء والشعراء يطنبون فى وصفه، وتوفى سنة ٤٦٧ وخلفه حفيده القادر يحيى وكان قصير النظر سيِّء التدبير، وفغر ألفونس السادس فاه على ثغوره وجعل يطويها - كما يقول ابن سعيد - طى السجل للكتاب، فثار عليه أهل طليطلة وهرب إلى بعض حصونه وتملكها المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس لمدة عشرة أشهر، واستردها القادر بمعونة ألفونس السادس، وأسلمها له سنة ٤٧٨ على أن يساعده فى أخذ بلنسية، فأخذها لمدة عامين إلى أن قتل سنة ٤٨١. وكان قد تملكها زمن الفتنة صقلبيَّان هما مبارك ومظفر وصارت لحفيد للمنصور بن أبى عامر يسمى عبدالعزيز

سنة ٤١٧ وظل يدبر شئونها حتى سنة ٤٥٢ ووليها بعده ابنه المظفر عبد الملك، واستولى عليها القادر وثار عليه قاضيها ابن جحّاف، وأخذ فارس نصرانى يغير عليها هو السيد القنبيطور واستسلمت له سنة ٤٨٧ فنكل بأهلها وذبح الآلاف منهم وأحرق قاضيها حيًّا، ومات سنة ٤٩٢ واستولى عليها المرابطون سنة ٤٩٥.

ومن إمارات الشرق المهمة - بجانب إمارة بلنسية - إمارة دانية تملكها أول الأمر فى مدة أمراء الطوائف مجاهد الصقلبى منذ سنة ٤٠٥ إلى سنة ٤٣٦ وكان محبا للعلماء مجزلا العطاء لهم وللشعراء، وكان قد تملك مع دانية جزر البليار، وخلفه ابنه على الملقب بإقبال الدولة ومنه تسلم دانية المقتدر صاحب سرقسطة سنة ٤٦٨ وخلفه على ميورقة مولاه أغلب وتولاها بعده مبشر الصقلبى وآلت إلى المرابطين.

ومن الإمارات المهمة فى الشرق مُرْسِيَة، وهى - كما أسلفنا - من بنيان عبد الرحمن الأوسط، وثار بها فى زمن أمراء الطوائف المرتضى المروانى وبايعه الصقالبة الذين تغلبوا على الشرق وذهبوا به إلى غرناطة، فهزمهم زاوى بن زيرى وقُتل المرتضى فى المعركة، وخلفه على مرسية أبو عبدالرحمن بن طاهر، وثار عليه أهلها وراسلوا المعتمد بن عباد فأرسل إليهم وزيره ابن عمار الشاعر فأخذها من يده وثار بها لنفسه، وثار عليه القائد عبد الرحمن بن رشيق، وتملكها أبو الحسن بن اليسع باسم المعتمد بن عباد ثم صارت للمرابطين. ومن إمارات الشرق أيضا المرية وهى من بنيان الناصر على البحر المتوسط وقد تملكها الصقالبة ثم معن بن صمادح إلى أن توفى سنة٤٤٣ وورثها ابنه المعتصم، وكان شاعرا وكريما جزل العطاء للشعراء، توفى سنة ٤٨٤ وجيش المرابطين يحاصره.

ومن إمارات الغرب المهمة إمارة بطليوس، تملكها زمن أمراء الطوائف الأفطس عبد الله حتى سنة ٤٣٠ فورثها عنه ابنه المظفر وهو من أعلم أمراء الطوائف وآدبهم، وخلفه عليها ابنه المتوكل سنة ٤٦٠ ويؤثر له أنه انتدب أبا الوليد الباجى كبير فقهاء الأندلس فى زمنه ليدعو أمراء الطوائف إلى توحيد كلمتهم ضد نصارى الشمال، غير أن دعوته - بسبب أطماعهم - ذهبت أدراج الرياح، ومن يد المتوكل أخذ المرابطون هذه الإمارة وما كان يتبعها من المدن مثل أشبونة.

(ب) المرابطون[١]

رأينا ألفونس السادس ملك ليون وقشتالة يغير على ثغور طليطلة وما يلبث أن يستولى عليها سنة ٤٧٨ وهى نتيجة طبيعية لتفتُّت الأندلس وتوزعها بين أندلسات أو إمارات تتناحر وتتحارب بينما تؤدى الإتاوات لألفونس السادس وأمراء أراجون ونبارَّة وبرشلونه، تؤديها إشبيلية وبطليوس وغيرهما. وأحسَّ أمراء الأندلس وفى مقدمتهم المعتمد أمير إشبيلية والمتوكل أمير بطليوس أن ما أصاب طليطلة أصبح قاب قوسين أو أدنى إلى إصابة إماراتهم، فتقع فريسة لألفونس السادس ملك ليون وقشتالة أو لغيره من الأمراء المسيحيين فى الشمال، وأجمعوا أمرهم على أن يستغيثوا بيوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين فى المغرب، وأرسلوا إليه نفرا من قضاة مدنهم الكبرى يستنفرونه - واستنفره كثير من الفقهاء - للوقوف معهم فى وجه أعدائهم الشماليين من المسيحيين، وكان المرابطون قد نذروا أنفسهم للجهاد فى سبيل الله ونَشْر الإسلام بالصحراء الكبرى والسنغال. واستمع يوسف إلى القضاة، وهاله الأمر، فجهز سريعا جيشا جرارا وأعدَّ له أسطولا عبر به فى سنة ٤٧٩ الزقاق، واتجه إلى إشبيلية، وانضم إليه المعتمد صاحبها توا، وبالمثل عبد الله بن بلقين أمير غرناطة والمتوكل أمير بطليوس. وعلم ألفونس بمقدمه فاستغاث بملوك النصارى فى إسبانيا وفرنسا وإيطاليا وجاءته سيول من الفرسان، والتقى الجمعان فى الزلاقة بالقرب من بطليوس، ودارت معركة حامية الوطيس سُحق فيها جيش ألفونس، وفرَّ على وجهه مع الفارين. وتصادف أن توفى ابن ليوسف بن تاشفين فعاد إلى المغرب بعد هذا النصر المبين ولو تابع تقدمه لاستردَّ طليطلة. وكأنه اكتفى بتقليم أظافر العدو، وسرعان ما عاد ألفونس للإغارة على شرقى الأندلس، وعلم بذلك ابن تاشفين، فجاز إلى الأندلس جوازه الثانى سنة ٤٨١ وكاد ينزل بألفونس ما أنزله به فى الزلاقة،

---

(١) انظر فى المرابطين: الجزء الثالث من البيان المغرب (طبع باريس) والرابع (طبع بيروت بتحقيق إحسان عباس) والثالث من أعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع الدار البيضاء بالمغرب) ونفح الطيب للمقرى وتاريخ ابن خلدون والحلة السيراء والتكملة لابن الأبار والمعجب للمراكشى ونظم الجمان لابن القطان (تحقيق د. مكى - طبع الرباط) والاستقصا فى أخبار دول المغرب الأقصى للناصرى وتاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس لعبد العزيز سالم والعبادى (طبع بيروت) وعصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس لمحمد عبد الله عنان (طبع القاهرة) والتاريخ الأندلسى لعبد الرحمن الحجى (طبع دار القلم) ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس والإسلام فى المغرب والأندلس لبروفنسال بمراجعة د.لطفى عبدالبديع(نشر مكتبة النهضة المصرية).

غير أن الشتاء دخل فعاد إلى المغرب بعد أن ترك فى الأندلس حامية. وسرعان مادبَّ الشقاق بين أمراء الطوائف فجاز يوسف إلى الأندلس مرة ثالثة سنة ٤٨٣ مصمما - بمشورة الفقهاء الأندلسيين - على إنهاء حكم هؤلاء الأمراء، واستسلم له سريعا أمير غرناطة، واضطر إلى العودة إلى المغرب وترك لصهره سير بن أبى بكر تنفيذ الخطة، فاستنزلهم جميعا ومن أبى أخذه أسيرًا مثل المعتمد بن عباد الذى نُفِى إلى أغمات بالمغرب، أو قتَله بعد حصاره مثل المتوكل صاحب بطليوس. وبذلك أظلَّ حكم ابن تاشفين الأندلس ما عدا سرقسطة، فإنه تركها لبنى هود لتكون حاجزا بين الأندلس ونصارى الشمال، وعبر إلى الأندلس مرة رابعة سنة ٤٩٠ لأخذ البيعة لابنه على وتوفى سنة ٥٠٠ للهجرة.

وتولى على ابنه الحكم بعده فحاول الاقتداء بأبيه فى الجهاد فعبر إلى الأندلس سنة ٥٠١ ووجه أخاه تميما بجيش إلى أقليش شرقى طليطلة، والتقى بألفونس وأوقع به هزيمة ساحقة قُتل فيها ولى عهده - وكان ابنه الوحيد - فتوفى متأثرًا بفقده، واستولى تميم على أُقْليش وشَنْتبريَّة. وفى سنة ٥٠٣ غزا جيش للمرابطين أراضى طليطلة واستولى على طَلَبيرة غربيها، واستعاد المرابطون جزائر البليار سنة ٥٠٩. وكان على بن يوسف قصير النظر فحاول أخذ سرقسطة من بنى هود، واستولى عليها كما مر بنا، وسرعان ما أخذها منه النصارى سنة ٥١٢. واشتبك المرابطون سنة ٥١٤ مع ألفونس الأول ملك أراجون فى معركة بكتندة ولم يكتب لهم النصر. وفى سنة ٥١٩ استدعى المعاهدون من نصارى غرناطة ألفونس الأول للاستيلاء على بلدهم فاندفع إلى الجنوب، وردُّه المرابطون على أعقابه، وأجْلَوْا عن غرناطة من كانوا سببا فى استدعائه من النصارى إلى سَلا ومكناسة بمراكش. وفى سنة ٥٢٨ وجه على بن يوسف جيشا بقيادة يحيى بن غانية والى بلنسية ومرسية إلى إفراغة شرقى سرقسطة، ولقى جيشا لألفونس ملك أراجون فمزقه شر ممزَّق. وتوفى على بن يوسف بن تاشفين أمير المرابطين سنة ٥٣٧ وخلفه ابنه تاشفين وكان ضعيفا مما آذن بنهاية تلك الدولة.

وقد حمل كثير من المستشرقين فى مقدمتهم دوزى وبْروفنسال على تلك الدولة زاعمين أنها كانت دولة بدو جفاة لا عهد لهم بالحضارة، وفاتهم أن أهل المغرب اعتنقوا الدين الحنيف من قديم وأخذوا بقسط من حضارته الإسلامية وكل ما اتصل بها من علوم وآداب، فليس بصحيح أنهم كانوا بدوا جفاة وقد فتح سلاطينهم أبوابهم فى مراكش للعلماء والشعراء الأندلسيين واختاروا لرياسة دواوينهم فى حاضرتهم أبا بكر بن القصيرة كبير

كتاب الإمارة العبّادية بإشبيلية، حتى إذا توفى سنة ٥٠٧ خلفه زميل له من كتاب تلك الدولة هو أبو القاسم بن الجد، وتوفى سنة ٥١٥ فخلفه الكاتب الأندلسى البارع ابن أبى الخصال، وكان يساعد الثلاثة جميعا كتاب من الأندلس. وقد ازدهرت فى عهد المرابطين العلوم اللغوية وعلوم الدراسات الإسلامية وكذلك الدراسات الفلسفية ولمع فيها فيلسوف كبير هو ابن باجة. وشجّع حكام المرابطين فى الأندلس الحركتين العلمية والأدبية وفتحوا أبوابهم على مصاريعها للشعراء، على نحو ما يوضح ذلك ديوان ابن خفاجة ومدائحه فيه لإبراهيم بن يوسف بن تاشفين الذى ألف الفتح بن خاقان باسمه كتابه قلائد العقيان، وكذلك مدائحه لأخيه تميم حاكم غرناطة ثم إشبيلية والأندلس ولأخيهما سلطان المرابطين: على ولابن تيفلويت حاكم سرقسطة راعى ابن باجة والحركة الفلسفية ولأبى عبد الله محمد بن الحاج حاكم قرطبة وابنه أبى بكر. وتبرز من نسائهم راعيات للأدب مثل مريم زوجة تميم بن يوسف ممدوحة ابن خفاجة، وأهم منها السيدة حواء زوجة أهم قوادهم سير بن أبى بكر حاكم إشبيلية مددا متطاولة ممدوحة الأعمى التطيلى، وكانت لها ندوة فى قصر الإمارة يحضرها كبار الشعراء والمتفلسفة، وتحاورهم فى الشعر ونقده على نحو ما حدث فيما بعد بفرنسا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وظهور سيدات متأدبات فيها على غرارها، وكان لهن صالونات يتحاور فيها أدباء باريس النابهون.

وحقا كان لفقهاء المالكية سطوة كبيرة فى عصر المرابطين، وهى سطوة لا ترجع إلى المرابطين ذات أنفسهم، وإنما ترجع إلى أن هذا العصر أتى بعد عصر فساد فى الحكم انتشر فيه اللهو، وأصبحت الأندلس أندلسات وإمارات كثيرة بل شراذم، والجيران والإخوان يتحاربون، والعدو فاغرٌ فاه، يكاد يلتهمهم جميعا، مما جعل الفقهاء يستغيثون بالمرابطين وابن تاشفين كى ينقذوا الأندلس مما تحولت إليه من دار لهو كبيرة ممزقة، واستنقذها المرابطون ومن ورائهم ومعهم الفقهاء يؤيدون ويساعدون. فكان طبيعيا أن يعظم شأنهم فى هذا العصر بالقياس إلى عصر أمراء الطوائف عصر اللهو والفساد. وكان من أخطاء بعضهم أن أفتوا بأن الغزالى مجدد الإسلام المصلح يعد من المبتدعة، مما أدى إلى ظهور حركة دينية إصلاحية جديدة هى حركة الموحدين التى عجلت بسقوط دولة المرابطين. وفى هذه الأثناء انتهز نفر من رؤساء المدن فى الأندلس الفرصة فاستقلوا بها، وكان أولهم ابن حمدين قاضى قرطبة وتبعه فى بطليوس ابن قسى وفى المرية يوسف بن مخلوف ثم الرميمى وفى مرسية عبد الله بن عياض ثم صهره ابن مردنيش وتبعته بلنسية وطرطوشة

وجيان وظلت الجزر الشرقية مع بنى غانية حتى سنة ٥٨٠ إذ صارت لدولة الموحدين.

(جـ) الموحدون[1]

أنشأ هذه الدولة ابن تومرت، وهو مصلح دينى مغربى زار المشرق وتتلمذ على أساتذته من الأشعرية وغيرهم، وعاد إلى المغرب فنظم فيه ثورة واسعة ضد المرابطين وفقهائهم المالكية الذين كانوا يهتمون فى دراسة الفقه بالفروع دون الأصول، وتبعه خلق كثيرون وجعلهم طبقات: الطبقة الأولى سماها الجماعة، وسمى الطبقة الثانية باسم الموحدين وألف منهم جيشًا ضخمًا واقع به المرابطين سنة ٥٢٤. وتوفى سريعًا فخلفه عبد المؤمن بن على حتى وفاته سنة ٥٥٨ للهجرة، وهو يعد المؤسس الحقيقى للدولة، إذ استطاع القضاء نهائيًا على دولة المرابطين، وتبعه المغرب من طرابلس إلى المحيط، وتم له ملك أكثر الأندلس منذ سنة ٥٤٠. وكان ابن الرُّنك صاحب قلمرية شمالى نهر تاجه بالقرب من المحيط قد استولى على أشْبونة وشَنْتَرين وقصر أبى دانس، وهو يعد أول ملوك البرتغال بينما استولى ابن مردنيش على شرقى الأندلس وولى صهره إبراهيم بن همشك على جيان، فنازلهما الموحدون وقضوا عليهما فى الستينيات، وكان النصارى قد استولوا على المرية من يد ابن الرميمى فاستعادوها. وتوفى عبد المؤمن فخلفه ابنه يوسف، وكان مثقفًا ثقافة واسعة أتيحت له فى أثناء ولايته لأبيه على الأندلس واتخاذه إشبيلية عاصمة له، وكان مثل أبيه وإمامه ابن تومرت ثائرًا على كتب المذاهب الفقهية وما بها من كثرة الفروع والعلل والأقيسة ومعتنقًا لمذهب أهل الظاهر، وعبر إلى الأندلس فى سنة ٥٦٦ لجهاد النصارى، وأعاد عليهم الكرة فى سنة ٥٨٠ وهى سنة وفاته وخلفه ابنه يعقوب، وكان متعصبًا للمذهب الظاهرى تعصبًا شديدًا، وفى السنة الثانية من حكمه توفى ابن الرنك ملك البرتغال واستولى ابنه شانجه على مدينة شلب، واستردها يعقوب فى السنة التالية ومعها قصر أبى دانس فى الجنوب الشرقى لأشبونة. وعبر إلى الأندلس سنة ٥٩١ فى جيش

---

(١) انظر فى الموحدين بالأندلس الجزء الثانى والثالث من البيان المغرب (طبع باريس) ونفح الطيب وتاريخ ابن خلدون ١٦٥/٤ والمعجب للمراكشى (طبع القاهرة) وكتاب المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين لابن صاحب الصلاة وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشى (طبع تونس) والجزءين الثانى والثالث من الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للناصرى وأعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع بيروت والمغرب) وعصر المرابطين والموحدين لمحمد عبد الله عنان والتاريخ الأندلسى لعبد الرحمن الحجى ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس والإسلام فى المغرب والأندلس لبروفنسال بمراجعة د. لطفى عبد البديع.

جرار، وعلم به ألفونس الثامن ملك قشتالة فجمع له جموعًا كثيرة تزيد على مائتى ألف راجل وخمسة وعشرين ألف فارس، والتقيا عند حصن الأرَك فى وسط الطريق بين قرطبة وطليطلة، ومُنِىَ ألفونس وجيشه بهزيمة ماحقة وتنادوا الفرار الفرار، وفر ألفونس ناجيًا بنفسه. وعاد يعقوب إلى إشبيلية مبتهجًا بكثرة الأسلاب والغنائم، وأصلح مسجدها وبنى مئذنته التى عرفت باسم الخيرالدا، وكان حريًا أن يتبع ألفونس إلى طليطلة ويستولى عليها حتى يفيد الفائدة المرجوة من هذا النصر العظيم، غير أنه اكتفى بعقد معاهدة بينه وبين ألفونس بعدم الاعتداء لمدة عشر سنوات. وتوفى سنة ٥٩٥ وخلفه ابنه الناصر وكان ضعيفًا وشغلته ثورات مختلفة فى المغرب كما شغله استيلاؤه على جزائر البليار من يد بنى غانية، بينما كان ألفونس يعد العدة لمعركة فاصلة بينه وبين الموحدين وأعان ملوك النصارى فى الشمال والبابا والأساقفة فى جنوبى فرنسا واعدين مساعديه بالغفران وجاءه عُبّاد الصليب من كل فَجٍّ، والتقى سنة ٦٠٩ بالناصر وجيش الموحدين فى حصن العقاب إلى الجنوب الشرقى من حصن الأرَك، وهُزم الناصر وجيشه هزيمة مرة، ولم تَدُر السنة حتى توفى وخلفه ابنه المستنصر حتى سنة ٦٢٠ وأخوه المأمون حتى سنة ٦٢٩ وفى أيامه أعلن استقلاله ابن أبى حفص واليه على تونس، وولى بعده ابنه الرشيد حتى سنة ٦٤٠ وفى عهده استقل بنوزيان بتلمسان (المغرب الأوسط) وخلفه ابنه السعيد وفى أيامه عظم شأن بنى مرين فى المغرب الأقصى واستولوا على فاس ومكناس وأيضًا على سلا والرباط على شاطئ المحيط ودخلوا مراكش سنة ٦٦٤ وبذلك انتهى عهد الموحدين.

ومنذ زمن المأمون الموحدى أخذ بعض الثائرين فى الأندلس يعلنون استقلالهم، وفى مقدمتهم ابن هود الملقب بالمتوكل الثائر بمرسيه سنة ٦٢٥ ومَلَكَ قرطبة وإشبيلية وغرناطة فضلًا عن مالقة والمرية، ولقيه النصارى فى ماردة شرقى بطليوس سنة ٦٢٦ فهزموه وأخذوها، واستولى صاحب برشلونة على جزائر البليار سنة ٦٢٧، ولم يلبث ملك قشتالة أن استولى على قرطبة جوهرة الأندلس الكبرى سنة ٦٣٣ وقتل ابن هود وزيره ابن الرميمى غيلة فى المرية، وثار زيان بن يوسف بن مردنيش ببلنسية سنة ٦٢٦ وأخذها منه ملك أراجون سنة ٦٣٥ وسقطت جزيرة شقر سنة ٦٣٩ ودانية سنة ٦٤١ وشاطبة سنة ٦٤٤ واستولى فرناند الثالث ملك قشتالة على إشبيلية عروس الأندلس سنة ٦٤٦. وآلت مرسية لعم المتوكل بن هود بفريضة للنصارى وخدمة، وثار عليه عزيز بن خطاب سنة ٦٣٥ وهُزم فى وقعة مع النصارى فاستدعى أهل مرسية زيان بن يوسف بن مردنيش فدخلها وقتله سنة ٦٣٦ وعاد أهل مرسية فثاروا على ابن مردنيش وأخرجوه من بلدتهم،

فعادت لبنى هود، وما زال فرناند الثالث ملك قشتالة يغاورها ويحاصرها حتى استولى عليها سنة ٦٦٤ للهجرة.

(د) بنو الأحمر[١] فى غرناطة

تنتمى هذه الأسرة إلى حفيد الصحابى الجليل سعد بن عبادة سيد الخزرج لعهد الرسول ﷺ وهو محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر والملقب بلقب الغالب بالله، وكان فارسًا مقدامًا، رأس فى قريته أرجونة شمالى جَيَّان واستولى على جَيَّان سنة ٦٢٩ من ابن هود ثم على بَسْطة ووادى آش شمالى غرناطة، ثم على غرناطة نفسها سنة ٦٣٥ واتخذها عاصمة وامتدَّ سلطانه فى الشرق إلى مالقة والمرية، غير أنه اضطر إلى التخلى عن جيان سنة ٦٤٣ لملك قشتالة، وعقد معه معاهدة التزم فيها بتقديم عون له فى استيلائه على إشبيلية سنة ٦٤٦ واتسع بسلطانه شمالى مالقة والمرية حتى لورقة وجنوبيًا حتى جبل طارق والجزيرة الخضراء وحتى لبلة وشريش وشذونة فى الجنوب الغربى لغرناطة، ومكَّن له من تثبيت ملكه حنكته السياسية وطول مدة حكمه حتى سنة ٦٧١. وخلفه ابنه محمد الملقب بالفقيه، وسرعان ما هاجمه ألفونس العاشر ملك ليون فاستنجد بالمنصور عبد الحق سلطان المرينيين بالمغرب فأرسل إليه قوة كبيرة، والتقى الجمعان عند إستجة جنوبى قرطبة سنة ٦٧٤ وانتصر المسلمون انتصارًا عظيمًا. واتفق محمد الفقيه سلطان غرناطة وسلطان بنى مرين على أن تقيم فى مملكة غرناطة قوة مرينية يرأسها قائد مرينى يسمى شيخ الغزاة يدخل فى عداد كبار الشخصيات بغرناطة، واتفق على أن تكون مالقة قاعدة للقوات المرينية، وعبر المنصور المرينى مرارًا وظل يشتبك مع القشتاليين حتى أذعنوا لمسالمة محمد الفقيه، وتوفى سنة ٧٠١ وخلفه ابنه محمد المخلوع سنة ٧٠٨ وولى بعده أخوه نصر حتى سنة ٧١٣ إذ تنازل لابن عمه إسماعيل، والتقى بالقشتاليين سنة ٧١٨ ودارت عليهم الدوائر، وله فضل فى إقامة بعض منشئات قصر الحمراء واغتيل سنة

---

(١) انظر فى بنى الأحمر بغرناطة أو بنى نصر كتاب اللمحة البدرية فى الدولة النصرية والإحاطة فى أخبار غرناطة (فى تراجم أمرائهم) وأعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب ونبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر لمجهول (طبع المغرب) والمغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ١٠٩/٢ والذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية لابن أبى زرع (طبع الرباط) وتاريخ ابن خلدون: الجزء الرابع ونفح الطيب للمقرى (انظر الفهرس) ويوسف الأول سلطان غرناطة لمحمد كمال شبانة (طبع القاهرة) ونهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين لمحمد عبد الله عنان (طبع القاهرة) والتاريخ الأندلسى لعبد الرحمن الحجى ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس.

٧٢٥ وخلفه ابنه أبوالحجاج يوسف الأول، وفى أيامه استولى القشتاليون على طريف المشرفة على جبل طارق، وحدث وباء كبير سنة ٧٤٩ ولابن خاتمة الشاعر رسالة فى وصفه. واغتيل أبو الحجاج يوسف الأول سنة ٧٥٥ وخلفه ابنه محمد الخامس الغنى بالله وله القسط الأوفر من منشئات قصور الحمراء، وتوفى سنة ٧٩٣ وكانت علاقته حسنة بملك القشتاليين وبالمثل علاقات ابنه يوسف وحفيديه محمد ويوسف المتوفى سنة ٨٢٠ وتلا يوسف أمراء ضعاف دب الخلاف بينهم وبين أبناء عمومتهم، ولم يلبث القشتاليون أن استولوا على جبل طارق سنة ٨٦٧ وبذلك أصبحت إمارة غرناطة محاصرة بالقوات النصرانية. بالإضافة إلى ما نشب من حروب بين أبناء الأسرة الحاكمة كانوا يستعينون فيها بملوك قشتالة. وأخذ ذلك ينذر بنهاية إمارة غرناطة وعجَّل بها زواج فرناند ملك أراجون من إيزابيلا ملكة قشتالة، فتعاونا على القضاء على الإمارة، وقدما بقوات ضخمة استوليا بها على بعض المدن الصغرى، ثم حاصرا غرناطة آخر معقل للإسلام فى الأندلس، واستسلم أبو عبد الله الصغير وسلم مفاتيح الحمراء لفرناند سنة ٨٩٧ للهجرة ونصت معاهدة التسليم على أن يحتفظ المسلمون فى غرناطة والأندلس بكامل حقوقهم وبمساجدهم وإقامة شعائرهم الدينية، ولكن الاسبان ضربوا بكل ذلك عرض الحائط ومضوا يضطهدون المسلمين المتبقين أسوأ اضطهاد وسموهم المدجنين، بينما سموا من تنصر منهم ظاهرا الموريسكيين وعقدوا لهم محاكم التفتيش المشهورة إلى أن أصدر الملك فيليب الرابع سنة ١١١٧ هـ / ١٦٠٩ م أمرًا بخروجهم من إسبانيا. ومن الغريب أن هذا التعصب الدينى المقيت الذى أخرج المسلمين من الأندلس هو الذى أتاح لأوربا استكشاف أمريكا وطريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند فإن فردناند الذى ساعد أرستوف كولمب على اكتشاف أمريكا كان متأثرًا - بعد استيلائه على غرناطة - بفكرة حصر الإسلام والمسلمين بين نارين، وتأثر بنفس الفكرة البرتغاليون فى اكتشافهم لطريق الهند.

٥

المجتمع[١]

رأينا – فيما مر بنا – كيف كان التكوين البشرى لسكان إيبيريا مزيجًا معقدًا من عناصر جنسية كثيرة إذ نزلها قديمًا قبائل من بلاد الغال فى الشمال، ثم نزلتها عناصر فينيقية ويونانية وقرطاجنية ورومانية وجرمانية، ونزلها كثيرون من اليهود ثم نزلها مع الفتح العربُ والبربر. وجلب إليها حكام الدولة الأموية كثيرين من الصقالبة المنتمين إلى شرقى أوربا وفرنسا وألمانيا. ومن كل هذه العناصر تألف المجتمع الأندلسى مشتركةً فى تكوينه القارات القديمة الثلاث: أوربا وإفريقيا وآسيا. ودخل كثير من أهل إيبيريا فى الإسلام وكانوا يُسَمَّوْن: «مسالمة» وسُمِّى أبناؤهم باسم المولدين، وظل كثيرون على مسيحيتهم مع اصطناعهم لحياة المسلمين وعاداتهم وتعلم العربية والتكلم بها وسُمُّوا باسم المستعربين.

وأخذت تعمل عوامل فى المزج السريع بين المسلمين والمسيحيين، منها كثرة المصاهرة فقد تزوج كثيرون فى الجيش الفاتح من الإسبانيات. وظل ذلك فيما بعد، إذ كان كثيرون من العرب والبربر يؤثرون الإسبانيات الشقراوات، وكان البيت الأموى يكتظ بهن. ومن تلك العوامل أيضًا روح التسامح الدينى الذى بثه الإسلام فى أتباعه فكان أهل الذمة من النصارى واليهود يعاملون بالحسنى معاملة كريمة. ومرت بنا فى غير هذا الموضع فتنة دينية لعهد عبد الرحمن الأوسط أثارها بعض قساوسة النصارى ورهبانهم، وسرعان

---

(١) انظر فى المجتمع الأندلسى مواضع مختلفة من المقتبس لابن حيان بأجزائه المنشورة والصلة لابن بشكوال والحلة السيراء والتكملة لابن الأبار والذخيرة لابن بسام وكتاب أحكام السوق ليحيى بن عمر (طبع تونس) وكذلك نشرة صحيفة المعهد المصرى بمدريد: المجلد الرابع، والتبيان: مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين (طبع دار المعارف) ورسالة الحسبة لابن عبدون وصورة الأرض لابن حوقل ونقط العروس فى نوادر الأخبار لابن حزم نشر مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة العدد الثانى من المجلد الثالث عشر وتاريخ ابن خلدون ومقدمته وصفة الأندلس (من نزهة المشتاق) للإدريسى نشر دوزى ودى جويه (طبع ليدن) ونفح الطيب وكتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية ١٨٥/٢ حيث ينقل التيفاشى عن ابن سعيد نصًا مهما عن الموسيقى الأندلسية. وراجع تراث الإسلام: الجزء الأول طبعة القاهرة وانظر طبعته المتجددة فى الكويت وبحثا قيما عن المجتمع القرطبى للدكتور الطاهر مكى فى كتابه: «دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة» ص ١٥ وما بعدها وص ٢٤٧ وما بعدها.

ما انتهت وحل محلها تعصب وطنى استشعره المسالمة والمولدون والمسيحيون إذ داخلهم عصبية التعصب لوطنهم والشعور بأن العرب والبربر الأندلسيين غرباء أجانب، مما هيأ لثورات عبد الرحمن بن الجليقى فى بطليوس وعمر بن حفصون فى بُبَشْتَر وكثيرين غيرهما، واستطاع عبد الرحمن الناصر القضاء على هذه الثورات واستعادة وحدة الأندلس. ونتوقف قليلا بإزاء الحضارة والغناء والمرأة فى الأندلس.

الحضارة

كانت حياة أهل إيبيريا قبل الفتح العربى أقرب إلى حياة البداوة، وظل المسيحيون فى القسم الجبلى بالشمال يعيشون هذه الحياة لوعورة موطنهم، ولما تقوم عليه حياتهم من شظف وخشونة، وظل العرب والبربر وأهل الأندلس جميعًا يعيشون نفس هذه المعيشة المتبدية زمن الولاة، غير أنهم أخذوا فى التحضر زمن الدولة الأموية لما ساد حياتهم من أمن واستقرار، وأخذوا يخطون فى ذلك خطوات قوية منذ عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ). بسبب شغفه بحضارة العرب المادية فى المشرق مما دفع تجار قرطبة إلى استيراد أدواتها ونفائسها، وفى ذلك يقول ابن سعيد فى ترجمته بكتاب المغرب: «فى أيامه دخل الأندلس نفيس الجهاز من ضروب الجلائب لكون ذلك نفَق عليه وأحسن لجالبيه، ووافق زمنه انتهابُ الذخائر التى كانت فى قصور بغداد عند خلع الأمين فجُلبت إليه». وحاكاه أهل قرطبة والأندلس فى العناية بالفرش والرِّياش وأدوات الزينة، ولم يلبث أن أنشأ بقرطبة دار طراز لصنع المنسوجات والملابس الأنيقة، وأخذت تنشأ هناك صناعة الحلى والحقاق والتحف والأوانى والأثاث. وسرعان ما أخذ المجتمع القرطبى يتحضر فى المعاش والحياة الاجتماعية وآدابها فى المأكل والملبس والتزين وكان من أهم العوامل فى ذلك وفود زرياب غلام إسحق الموصلى فى أول عهد عبد الرحمن الأوسط الذى احتفل به احتفالاً عظيمًا وقد علَّم الأندلسيين الأكل على الموائد بالملاعق والسكاكين بدلاً من الأصابع مع تفضيل آنية الزجاج، وأضاف إلى أطعمتهم ألوانًا جديدة من أطعمة بغداد، وعلم المرأة الأندلسية كيف تتزين وما تتخذ من عطور ومن ضروب الثياب وكيف تتفنن فى تصفيفات شعرها وكيف تسدله على جبهتها وجوانب وجهها، وعلم الرجال آدابًا مختلفة فى اتخاذ الثياب وتقصيرها وتضييق الأكمام وإرسال شعرهم وراء آذانهم، وأيضًا كيف يتأنقون فى فرشهم وتأثيث بيوتهم.[1]

---

(١) انظر فى هذا الدور الحضارى لزرياب النفح للمقرى (تحقيق د. إحسان عباس) ١٢٧/٣ وما بعدها.

وأخذت الأندلس تخطو خطوات واسعة فى الحضارة المادية، وساعدها على ذلك ثراؤها لوفرة الأنهار فيها والثمار والضَّرْع والزرع والبساتين وكثرة المعادن، ولاحظ ذلك كل من زاروها من رحالة المشرق فقالوا إن خيراتها كثيرة وليس بها شحاذ ولا متسول، وهيأ هذا الثراء فيها وما كان يجنيه حكامها من الضرائب للتفنن فى بناء القصور منذ عهد عبد الرحمن الأوسط وابنه محمد حتى إذا كنا فى عهد عبد الرحمن الناصر وجدناه لا يبنى قصرًا أو قصورًا متعددة فحسب، بل يبنى مدينة الزهراء بجوار قرطبة على سفح جبل العروس وقد ظل عشرة آلاف عامل ينهضون ببنائها لمدة خمسة وعشرين عامًا، وكانت الطبقة الدنيا فيها بساتين وحدائق، وفى الطبقة الوسطى دور الموظفين، وفى الطبقة العليا قصره وقاعته الكبيرة المزدانة بأعمدة الرخام وحليِّها الذهبية وجوهرةٍ كبيرة تتلألأ فى وسطها سوى ما كان بالمجلس المعروف بمجلس المؤنس من تماثيل لحيوانات من الذهب الخالص. وكان القصر يمتد طولاً فى نحو ثلاثة آلاف ذراع وعرضًا فى نحو ألف وخمسمائة، وكان به نحو أربعة آلاف عمود من الرخام. ويتضح ثراء الحكم الأموى وأبهته فى بناء المسجد الجامع بقرطبة. ولا تزال روعته ماثلة إلى اليوم على الرغم مما اقتطع منه لكاتدرائية وكنيسة، وقد استغرق وصف روعة المعمار فيه نحو عشرين صحيفة فى كتاب الفن العربى فى إسبانيا وصقلية لفون[1] شاك. وبنى المنصور بن أبى عامر حاجب الخليفة هشام المؤيد بدوره مدينة الزاهرة. ولا يتضح ثراء الحكم الأموى فى بناء الجامع الكبير الذى ظل يعنى الحكام الأمويون حتى عهد المنصور بزخرفته والاتساع به ولا فى بناء القصور وبناء المدن فحسب، فمن أهم صوره الهدايا الفاخرة التى ذكر ابن حيان أن عبدالرحمن الناصر[2] كان يرسل بها إلى أمراء المغرب مثل هديته إلى موسى بن أبى العافية سنة ٣٢٢ وما كان بها من قطع البَزِّ العجيب الصنعة والطرف الأنيقة من ثياب وغير ثياب وطيب وغير طيب. وذكر ابن خلدون فى ترجمته للناصر هدية[3] وزيره أحمد بن عبد الملك بن شهيد وما حمل إليه فيها من الذهب، وقد بلغ خمسمائة ألف مثقال وحمل من التبر مثله، سوى كميات كبيرة من سبائك الفضة والعود الهندى والمسك الذكى والعنبر والكافور والثياب الحريرية المرقومة بالذهب والفراء الثمين والملاحف المذهبة للخيل والأبسطة، وأيضًا سوى عشرين جارية بكسوتهن وزينتهن وأربعين وصيفًا، وسوى ما لا يكاد يحصى من السلاح وعتاق الخيل الكريمة.

---

(١) انظر الكتاب بترجمة الدكتور الطاهر مكى (طبع دار المعارف) ص ٢٢.

(٢) المقتبس ٢٣٨/٥.

(٣) تاريخ ابن خلدون ١٣٨/٤. وانظر أزهار الرياض ٢٦١/٢.

وظل كثير من صور هذا الثراء الواسع ماثلًا فى عهد أمراء الطوائف، وهو يتضح فى تنافسهم فى بناء القصور والتفنن فى كل مايتصل بها من أناقة وتنميق على نحو مايصور ابن بسام ذلك فى وصفه لقصر المكرم للمأمون بن إسماعيل بن ذى النون حين احتفل فيه بإعذار لحفيده يحيى، ونشعر كأننا انتقلنا إلى قصر مسحور من قصور ألف ليلة وليلة لكثرة ما فيه من ضروب الديباج والطنافس والستائر المزركشة وأزر الحيطان المرمرية وما عليها من تماثيل وصور لحيوانات وأطيار وأشجار وثمار، سوى بحيرتين فى القصر صفّت عليهما تماثيل أسود من الذهب والمياه تنساب من أفواهها. ونعجب أن ينفق أمير طليطلة — وهو أقرب أمراء الأندلس إلى ملوك قشتالة والنصارى عامة — هذه القناطير المقنطرة من الذهب على قصره المكرم، ولا يكاد يبقى فى خزائنه ما لا يشترى به سلاحًا للقاء أعدائه، وما هى إلا سنوات حتى سقطت طليطلة من يد حفيده يحيى فى حجر ألفونس السادس ملك قشتالة. ولم يكن المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية يقل عن المأمون فى طليطلة إسرافًا فى بناء قصوره والإنفاق على حظاياه ومجالس أنسه الكثيرة وكان مشغوفًا بزوجته اعتماد الرميكية وفى نفح الطيب أنها رأت يومًا بإشبيلية نساء البادية حولها يَبِعْنَ اللبن فى القِرب، وهن رافعات — فى الطين — ثيابهن عن سوقهن، فقالت له: أشتهى أن أفعل مثلهن أنا وجوارىّ فأمر بعنبر ومسك وكافور وماء ورد، وصيّر كل ذلك طينًا فى القصر ومعه قِرَبٌ وحبال من حرير، وخرجت — هى وجواريها — يَخُضْنَ فى ذلك الطين. ويحكى عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة أنه حين تنازل عن أمواله ليوسف بن تاشفين كان بينها سَفَط ذهب فيه عشرة عقود من أنفس الجواهر، وتنازلت أمه عن خمسة عشر عقدًا نفيسًا. وعلى هذا النحو ظل أمراء الطوائف ينعمون بهذا الترف على حساب الشعب، وحقًا كانت هناك طبقة وسطى من التجار والصناع ممن كانوا يقدمون أدوات الترف والنعيم للطبقة الحاكمة وحواشيها من الوزراء والولاة والقواد وكبار رجال الدولة، غير أنه كان وراءها طبقة من العامة تكدح وتنصب لطائفة استأثرت لنفسها بزينة الحياة.

على أنه ينبغى أن لا نبالغ فى صور ما كانت تعيش فيه الطبقة العامة من شظف فى الحياة أو بؤس لكثرة ما كان فى الأندلس من طيِّبات الرزق، وقد ظلت تنعم بما فيها من ثراء لعهدى المرابطين الموحدين ونرى آثاره فى بناء السلطان يعقوب الموحدى لجامع إشبيلية ومئذنته «الخيرالدا» التى لا تزال قائمة إلى اليوم، أما الجامع فأحاله المسيحيون إلى كنيسة، وما كان أحراهم أن يبقوه متحفًا — على مر الزمن — يعرض مهارة الفنان الأندلسى فى المعمار والزخرفة. وحرى بنا أن نذكر أنه كان بالأندلس غابات كثيرة هيأت

لصناعة الأساطيل وازدهار صناعة الأثاث، واشتهرت طرطوشة بصنوبر أحمر صافى البشرة، ومن عيدانه اتخذ خشب المسجد الجامع بقرطبة. وكانت المعادن كثيرة، ومن أهمها معدن الزئبق فى شمالى قرطبة،ويقول الإدريسى فى القرن السادس الهجرى إنه كان يعمل فيه ما يزيد على ألف عامل، وازدهرت صناعات الحلى والأوانى والحِقاق والطرف المعدنية والبرونزية والفضية والملابس والثياب الحريرية، ويقول الإدريسى إنه رأى فى المرِّية ثمانمائة دار طراز للحرير تصنع فيها الحلل والثياب والستائر والبُسُط. ويقول ابن خلدون فى مقدمته عن الأندلس وصناعاتها وقد نزلها فى أواخر القرن الثامن الهجرى: «إنا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة فى جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها كالمبانى والطبخ وأصناف الغناء واللهو من الآلات والأوتار والرقص وتنضيد الفرش والرياش وحسن الترتيب والأوضاع فى بناء القصور وصَوْغ الآنية من المعادن والخزف وجميع المواعين وسائر الصنائع التى يدعو إليها الترف وعوائده فنجدهم أقومَ عليها وأبصرَ بها، ونجد صنائعها مستحكمة لديهم، وهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متميز بين جميع الأمصار لما قدمناه من رسوخ الحضارة أيام الدولة الأموية ودول الطوائف»[1]. ومن أكبر الأدلة على استمرار ازدهار الصناعات ومظاهر الحضارة المادية فى الأندلس قصر الحمراء الذى شاده بغرناطة أمراؤها فى الحقب العربية الأخيرة بها، وليس قصرًا فحسب بل معرضًا خلابًا لما وصلت إليه الحضارة الأندلسية من ازدهار، وبه يحيط سور يعلوه شرف للحراسة، وتلقاك بداخله جنة العريف، وهى حديقة كأنها اقتطعت من الفردوس بنافوراتها ومياهها المتدفقة وأشجار البرتقال والريحان بها والأزهار الأرجة، ومن ورائها القصر الفخم وقد فُرشت أرضه بالرخام وازدانت حيطان قاعاته وردهاته وغرفه بالآيات القرآنية والأشعار وآلاف الزخارف، وتلقاك أسود فى قاعة حاملة حوضًا من الماء ينسكب من أفواهها، وقد استغرق وصف هذا القصر وجنته فى كتاب «الفن العربى فى إسبانيا وصقلية» لفون شاك أكثر من خمسين صفحة، وإنه ليقول وقد أخذت روعته بلبه: «سعيد من يستطيع زيارة الحمراء إذ سوف تستيقظ فى روحه الأحلام المكبوتة وتحيا الآمال الضائعة[2]».

---

(١) المقدمة (تحقيق د. على عبد الواحد وافى) ص ٩٣٨ وما بعدها.

(٢) انظر الفن العربى فى إسبانيا وصقلية لفون شاك ص ١٨٢.

الغناء

وكان الغناء يشيع فى الأندلس منذ وفود زرياب غلام إسحق الموصلى على الأمير عبد الرحمن الأوسط واحتفاله به احتفالاً عظيماً، إذ جعل له راتباً مائتى دينار فى الشهر وأقطعه من الدور والضياع ما يقدر بأربعين ألف دينار غير صلات سنية. وأقام زرياب فى قرطبة معهداً يتدرب فيه الفتيان والفتيات على الغناء، واشتهر بأنه أضاف إلى أوتار العود وتراً خامساً اخترع له مضراباً من قوادم النسر[١]. وجعل للغناء تقاليد انفردت بها الأندلس فكان يبدأ بالنشيد ويخرج منه إلى البسيط ويختم بالمحركات والأهازيج[٢]. وينقل التيفاشى عن ابن سعيد أنه لم يكن بالأندلس قبله سوى طريقة حُداة العرب وترانيم الكنائس دون قانون[٣] فيها أى دون رقْم (نُوت) موسيقية. وزرياب بذلك يفتتح حركة الغناء والموسيقى فى الأندلس. وخرَّج زرياب كثيرين من الشباب والجوارى منهن منفعة أهداها إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط ومنهن بنانة وقلم وعلم وشفاء. وأخذ الغناء فى الأندلس يزدهر بعده وممن أتقنوه عباس بن فِرْناس المتوفى سنة ٢٧٤ واتسع التعلق به، حتى أصبح الشغل الشاغل لكثير من المدن، ويحكى التجيبى شارح أشعار كتاب المختار من شعر بشار للخالديين فى مقدمة شرحه أنه بات ليلة فى سنة ٤٠٦ بمالقة ساهراً لما كان يخفق حوله من أوتار العيدان والطنابير والمعازف من كل ناحية. وكل بلاد الأندلس كانت مثل مالقة عزفاً وغناء. واتسعت الموجة زمن أمراء الطوائف وخاصة فى إشبيلية وطُلَيطلة. وممن اشتهر بعد زمنهم بجودة التلحين أبو الصلت أمية بن عبد العزيز، وهو الذى أخذ أهل إفريقية الألحان الأندلسية عنه. وكان يعاصره الفيلسوف ابن باجة وكان إمام الأندلس الأعظم فى الموسيقى والألحان، وخلفه عليها تلميذه أبو عامر بن الحمارة وكان يصنع عود الغناء بيده وينظم الشعر ويلحّنه عليه ويغنى[٤] به، شأن المغنين الأوربيين المعاصرين الذين ينظمون الشعر ويلحنونه ويغنونه. ويبدو أنه كان يقترن الرقص بالغناء منذ زرياب، وقد رقى بدوره فنوناً من الرقى حتى لنجد ابن كسرى المالقى المتوفى سنة ٦٠٣ للهجرة يصف حركات راقصة تسمى نزهة على هذا النمط[٥]:

---

(١) النفح ١٢٦/٣.

(٢) النفح ١٢٨/٣.

(٣) انظر كتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية (طبع تونس) ١٧٩/٢.

(٤) المغرب ١٢٠/٢.

(٥) تحفة القادم نشر الفريد البستانى بمجلة المشرق ببيروت العدد ٤٠، ٤١ سنة ١٩٤٧م رقم ٥٧.

إذا رقصتْ أبصرتَ كلَّ بديعةٍ   تُرَى ألفا حينًا، وحينا هى النونُ

فهى تتحرك فى رقصها حركات شتى، تارة تُرَى معتدلة، وتارة تنثنى وتبالغ فى الثنى حتى لتصبح مثل القوس أو مثل النون. ويرسم لنا على بن يوسف بن خروف القرطبى نفس الصورة فيقول فى راقص ولعلها راقصة[١]:

ومنوَّع الحركات يلعب بالنُّهى   لبسَ المحاسن عند خلع لباسِهِ
متأوِّدًا كالغُصن وسط رياضهِ   متلاعبًا كالظبى عند كِناسه[٢]
بالعقلِ يلعب مُقبلا أو مُدبرا   كالدَّهْر يلعبُ كيف شاء بناسِهِ
ويضمُّ للقدمين منه رأسهُ   كالسيف ضُمَّ ذُبابُه لِرآسهِ[٣]

واشتهر فى القرن السابع أبو الحسن المرسى وكل تلحين بالأندلس والمغرب فى شعر متأخر فهو من صنعته. وقد أخذ ملوك قشتالة منذ القرن الخامس الهجرى يجذبون إليهم بعض المغنين والمغنيات الأندلسيات ويقيمون لهم الحفلات وكان لذلك أثره البعيد فى نشأة الموسيقى عند الاسبان، إذ لم يكن يعرفون قبل الغناء العربى وما صحبه من موسيقى سوى ترانيم الكنائس كما يقول ابن سعيد، فعرفوا آلات الموسيقى العربية الكثيرة ورقمها الموسيقية، تدل على ذلك أكبر الدلالة أسماء تلك الآلات فى اللغة الإسبانية، فقد انتقلت إليها بأنغامها وألحانها العربية وهو دين كبير للموسيقى الأندلسية العربية على الموسيقى الأوربية فقد أخرجتها من عالم الترانيم الكنسية إلى عالم الموسيقى المؤلفة فى رُقُم (نوت) موسيقية بتقديرات لحنية زمنية دقيقة.

المرأة

ولم نتحدث حتى الآن عن المرأة فى المجتمع الأندلسى، وكانت تحظى فيه بشىء من الحرية قلما كانت تحظى به أختها فى المشرق، يدل على ذلك من بعض الوجوه أن نجدها تركب مع الأمير فى موكبه إذ نرى ابن حيان يروى أن الأمير عبد الرحمن الأوسط قال لحاجبه عيسى بن شهيد يومًا وكان قد طال عليه المرض والمكث فى قصره دون خروج:

---

(١) المغرب ١٣٧/١.
(٢) متأوِّدًا: متثنيا - كناس الظبى: مأواه فى الشجر.
(٣) ذباب السيف: طرفه القاطع - رأس السيف: مقبضه.

«إن بعض كرائمنا سألننا تجديد العهد لديهن بالركوب معهن للنزهة على مقتضى العادة. فاخرجْ من فَوْرك فانظر فى إقامة ما يحتاج إليه للنزهة على مقتضى العادة واعجَلْ بذلك فإنا متحركون صبيحة[١] غد». ويبدو أن الأميرات كن يبرزن للشعب سافرات يدل على ذلك ما ذكره ابن حزم فى رسالته: «نقط العروس» من أن رَسيس كانت سيدة مهيبة اتصلت بعبد الرحمن الناصر ونالت عنده مكانة رفيعة مما جعله يُرْكبها فى موكب له ذات يوم على بغل خلفه سافرة بقلنسوة وشقَّ بها الربض الغربى كله بقرطبة إلى مدينته الزهراء[٢]. ومما يدل على ما كان للمرأة الأندلسية من منزلة أن نجد بينهن كاتبات أو كما نقول الآن سكرتيرات للأمراء والخلفاء مثل مُزْنة كاتبة عبد الرحمن الناصر كما يقول صاحب[٣] الصلة، وأيضا كاتبته كتمان[٤] كما يقول صاحب الذيل والتكملة، ومثل لبنى[٥] كاتبة ابنه الحكم المستنصر كما فى الصلة. واشتهرت فى الأندلس غير شاعرة حتى ليترجم المقرى لعشرين منهن، وسنلم بذلك فى الفصل التالى. ويبدو أن كثيرات من النساء وخاصة فى البيت الأموى كن يتقن أرقى الآداب الاجتماعية مع حيازتهن للثقافة ونظمهن للشعر مما أعدَّ لظهور ولّادة بنت الخليفة المستكفى واتخاذها فى قصرها ندوة أدبية كان يحضرها ابن زيدون وغيره من الشعراء والأدباء. وظل ذلك فى الأندلس، فكانت هناك سيدات من البيوت الرفيعة تحذو حذو ولّادة فى اتخاذ ندوة أدبية لها، حتى فى عهد المرابطين الذين يقال عنهم إنهم كانوا محافظين، إذ نجد سيدة شريفة من بيتهم هى السيدة حواء زوجة سير بن أبى بكر - الذى مهَّد بحسن قيادته ليوسف بن تاشفين حكم الأندلس وظل حاكما على إشبيلية اثنين وعشرين عامًا - تتخذ لنفسها ندوة مماثلة لندوة ولّادة، وسنعرض لها فى ترجمتنا للأعمى التطيلى ومدحه لها بقصيدة بديعة. وعلى شاكلتها وشاكلة ولّادة تلقانا حفصة الركونية وندوتها الأدبية فى عصر الموحدين وسنترجم لها مع أبى جعفر بن سعيد فى حديثنا عن الغزل.

---

(١) انظر المقتبس (بتحقيق د. مكى - طبع بيروت) ص ٢١.

(٢) راجع نشرتنا لتلك الرسالة فى الجزء الثانى من المجلد الثالث عشر من مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ص ٧٣ - ٧٤.

(٣) الصلة لابن بشكوال رقم ٦٥٤.

(٤) الذيل والتكملة للمراكشى (طبع المغرب) ٤٩١/٢/٨.

(٥) الصلة رقم ٦٥٣ وبغية الملتمس رقم ١٥٨٩ وكانت بارعة الخط نحوية عروضية شاعرة.

٦

التشيع - الزهد والتصوف

(أ) التشيع[1]

من الخطأ أن نظن أن ثورة أحد أحفاد من ناصروا عليا فى صفين كانت ثورة شيعية كما حدث فى عهد عبد الرحمن الداخل وبالمثل ثورة حفيد لعمار بن ياسر عليه، ويقال إن عمر بن حفصون اتصل - فى أثناء ثورته بالفاطميين - وكانوا لا يزالون فى القيروان ولم يكن اتصال ولاء إنما كان اتصالا سياسيًّا كيديا للأمير عبد الله بن محمد. ودعا ثائر أموى لنفسه سنة ٢٨٨ للهجرة هو أحمد بن معاوية وتلقب بالمهدى، فظُنَّ خطأ - لهذا اللقب - أن لثورته علاقة بالتشيع وكل ما هناك أنه استعار هذا اللقب من دعاة الشيعة. ونجد ابن عبد ربه المتوفى سنة ٣٢٨ يتحدث فى كتابه «العقد الفريد» عن الشيعة وفرقهم وليس معنى ذلك أنه كان شيعيا، فقد كان متشيعا للأمويين متعصبا لهم.

وحاول آسين بلاسيوس أن يرد بعض آراء ابن مسرة المتوفى سنة ٣١٩ إلى آراء الإسماعيلية من الشيعة لمقامه فترة فى القيروان عاصمة الفاطميين قبل انتقالهم إلى مصر. غير أنها ترد - كما سنرى فى غير هذا الموضع - إلى الاعتزال والتصوف والفلسفة، فلا علاقة بينه وبين التشيع، وبالمثل لا علاقة بين منذر بن سعيد خطيب عبد الرحمن الناصر وبينه. وحقا أرسل الفاطميون بعض جواسيسهم للتعرف على الأندلس والدعوة لهم مثل ابن حوقل، غير أن ذلك لم يأت بطائل، إذا استثنينا تشيع ابن هانئ الشاعر الأندلسى وإيمانه بالعقيدة الإسماعيلية، وربما كان أبوه من دعاتهم السريين فى الأندلس.

ووُجدت فى الأندلس زمن الفتنة الأموية فُرْصة للشيعة كى ينشطوا للدعوة إلى أنفسهم هناك حين استولى على بن حمود - من أسرة الأدارسة فى المغرب - على مقاليد الخلافة الأموية سنة ٤٠٧ غير أن غلمانه قتلوه - كما أسلفنا - فى السنة التالية. وولى

---

(١) انظر فى التشيع بالأندلس صورة الأرض لابن حوقل وأحسن التقاسيم للمقدسى والعقد الفريد لابن عبدربه والمغرب فى مواضع مختلفة والتشيع فى الأندلس للدكتور محمود مكى ومصادره.

بعده أخوه القاسم، ونازعه ابن أخيه المعتلى - كما مر بنا - ولم يلبث أن لحق بمالقة، وبها قتل سنة ٤٢٧. ولم يأخذ هؤلاء الحموديون الفرصة كي ينشروا فى الأندلس دعوة شيعية، وهم أنفسهم لم ينظموا هذه الدعوة هناك. وتنشأ صلة فى عهد أمراء الطوائف بين أمير دانية على بن مجاهد والفاطميين غير أنها لا تتعدى تبادل بعض الرسائل. ويربط بعض الباحثين بين ما حظى به اليهود - لعهد الطوائف - من مكانة فى غرناطة وبين ما كان فى أمرائها بنى زيرى من نزعة شيعية، وكأنما للتشيع صلة باليهودية. وهو ربط بعيد، والصحيح أن اليهود حظوا بهذه المكانة عند بنى زيرى لقدرتهم الاقتصادية مما جعل بنى زيرى يولون أحدهم - وهو ابن النغريلة - الوزارة

ونستطيع أن نزعم أن الأندلس كانت محصنة ضد التشيع ودعاته، حتى ليقول المقدسى فى أواخر القرن الرابع الهجرى إن الأندلسيين إذا عثروا على متشيع ربما قتلوه. وحتى بعد انتهاء الدولة الأموية نجد كبار المؤرخين فى الأندلس مثل ابن حيان وكبار المفكرين هناك مثل ابن حزم يتعصبون للأمويين ضد الشيعة تعصبا شديدا. وكل ما يمكن أن يكون للتشيع فى الأندلس إنما هو بعض الأصداء فى مدائح الشعراء للحموديين فى قرطبة ومالقة لمدة ربع قرن، وهى أصداء ضعيفة جدا إذ قلما صدر الشعراء فى شعرهم عن تشيع حقيقى لآل البيت. وسنرى فى حديثنا عن الرثاء أن الأندلسيين أخذوا منذ عصر المرابطين يستوحون مأساة الحسين فى نظم بعض مراث له، بل لقد أقاموا له أحيانا مآتم يندبونه فيها، وكأنما كانوا يندبون مأساتهم ومأساة رجالهم فى الأندلس. ونخلص من كل ما قدمنا إلى أنه لم تظهر فى الأندلس موجة حادّة للتشيع، وكل ما حدث أن أفرادا قد يتشيعون، وهو تشيع لا يعدو - غالبا - حب آل البيت.

(ب) الزهد[1] والتصوف

أخذت تنمو فى الأندلس نزعة مبكرة إلى الزهد فى متاع الحياة الدنيا والإقبال على العبادة. وكان مما يزكيها فى نفوس الأندلسيين الوعاظ فى المساجد الذين كانوا يعظونهم

---

(١) انظر فى الزهد والتصوف بالأندلس وأعلامهما المذكورين هنا الصلة لابن بشكوال والتكملة لابن الأبار والمغرب لابن سعيد والفِصَل فى الملل والنحل لابن حزم والذيل والتكملة للمراكشى والمقتبس لابن حيان والإحاطة فى أخبار غرناطة والنفح وأزهار الرياض (انظر الفهارس) والمَرْقبة العليا للنباهى والطبقات الكبرى للشعرانى وتاريخ الفكر الأندلسى لبالنثيا

دائما ويذكرونهم بالله واليوم والآخر وأنهم معروضون على ربهم يوم القيامة فإما إلى الجنة والنعيم، وإما إلى النار والجحيم. وزكاها أيضا أن الحكام الأمويين كانوا يلتزمون الصلاة فى المسجد الجامع وكانوا يأخذون أبناءهم ونساءهم بآداب الإسلام والقيام بفرائضه وواجباته. ومنذ عبد الرحمن الأوسط كانت تُعْنَى زوجاتهم ببناء المساجد على نحو ما كانوا يعنون هم أنفسهم وكنَّ يقفن بعض أموالهن للجهاد فى سبيل الله، واشتهرت طروب زوجة عبد الرحمن الأوسط ببنائها مسجدا فى الربض الغربى من قرطبة، واشتهرت ابنته البهاء بزهدها ونسكها وكتابتها لمصاحف وقفتها فى مسجد لها بين مساجد الربض الغربى.

ومن أوائل من يلقانا من زهاد الأندلس وعُبَّادها أيوب البَلّوطى، ويروى أن السماء شحَّت بمطرها لأول عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ -٢٣٨ هـ) وفزع الناس إلى قاضيه مسرور بن محمد كى يصلى بهم صلاة الاستسقاء لما يعرفون من صلاحه، فلباهم حتى إذا وقف ليخطب خطبة الاستسقاء نادى: يا أيوب البلوطى! عزمت عليك حيث كنت لتقومنَّ، فلم يقم إلا بعد أن أقسم عليه فى الثالثة، وقال حين قام: يا هذا أشهرتنى أما كنت أدعو حيث أنا؟ ثم رفع القاضى رأسه فقال: اللهم إنا نستشفع إليك بوليِّك هذا، وألحَّ بالدعاء، وكثر الضجيج والبكاء، فلم ينصرفوا إلا وأحذيتهم فى أيديهم من كثرة المطر. وطُلب أيوب بعد ذلك فلم يوقَفْ له على أثر. ويدل هذا الخبر على أنه كان لأهل الأندلس اعتقاد حسن فى النسَّاك الزهاد. ومَنْ كان يفرط فى زهده ونسكه كانوا يظنون أنه من أولياء الله وأنه مجاب الدعوة. وكان يعاصر أيوب إمام فى المذهب المالكى هو عيسى بن دينار المتوفى سنة ٢١٢ وكان فى الذروة من العبادة والزهد، ويقال إنه صلَّى أربعين سنة الصبح بصلاة العتمة أو العشاء. واشتهر بالزهد من قضاة عبد الرحمن الأوسط معاذ بن عثمان المتوفى سنة ٢٣٤ وقيل إنه كان مجاب الدعوة. ومن الزهاد أيام عبد الرحمن الناصر أبو وهب عبد الرحمن العباسى المتوفى سنة ٣٤٤ وسنعرض له بين شعراء الزهد. ويلقانا فى زمن الفتنة الزاهد عبد الرحمن بن مروان القنازعى المتوفى سنة ٤١٣ نُسب إلى ما كان يكتفى به لسد رمقه من صنع القنازع التى كان يتخذها الأندلسيون لغطاء رءوسهم مما يشبه القلنسوة، وكان صَوَّام النهار قوَّام الليل راضيا بالقليل من كسبه، ولم ينحطَّ يوما إلى مسألة أحد. ومن الزهاد فى عصر أمراء الطوائف الفقيه المحدِّث ابن الطلاع، واشتهر بأنه لقى المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، فوعظه ووبَّخه على حياته الماجنة اللاهية. ويؤلف ابن بشكوال المتوفى سنة ٥٧٨ كتابا فى زهاد الأندلس وأئمتها، وتظل نزعة الزهد حية مطردة فيها حتى خروج الإسلام والمسلمين

منها فى نهاية القرن التاسع الهجرى

وأخذت موجة من التصوف ترافق هذا الزهد منذ أيام عبد الرحمن الناصر، وكان أول من بعثها ودفعها دفعا قويا فى الأندلس محمد بن عبد الله بن مسرة المتوفى سنة ٣١٩ للهجرة، وكان قد حج وطوّف ببلدان المغرب ومصر والشام والحجاز ولابد أن سمع بمحنة الحلاج وصَلْبه سنة ٣٠٩ ببغداد وعاد إلى موطنه، واعتزل مع تلاميذه فى منزله بجبل قرطبة، وأخذ يلقنهم تعاليمه، وكانت مزيجا من آراء الصوفية والمعتزلة ومر بنا استنكار عبد الرحمن الناصر لعقيدته، وذكر ابن حيان فى الجزء الخاص بالناصر إرساله سنة ٣٤٠ إلى البلدان المختلفة فى الأندلس منشورا يندِّد فيه بعقيدة ابن مسرة ويتوعد أتباعه، مما يدل على أنها كانت قد أخذت تشيع وتتألف حولها فرقة. وتمادى الطلب لأفرادها بقيَّة عهد الناصر وفى عهد ابنه الحكم المستنصر، مما جعلهم يضطرون للاختفاء حتى إذا أظلهم عهد هشام المؤيد عادوا إلى الظهور والنشاط فى الدعوة لعقيدتهم مما اضطر القاضى محمد ابن يبقى بن زَرْب المتوفى سنة ٣٨١ للهجرة إلى الكشف عنهم واستتابتهم، وتابت على يديه منهم جماعة. غير أن هذه العقيدة الصوفية استمرت، ويذكر ابن حزم فى كتابه «الفِصَل» من معتنقيها فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى إسماعيل بن عبدالله الرُّعَيْنى، ويقول إنه أدخل على عقيدة ابن مسرة بعض التعديل، من ذلك أنه ذهب إلى أن العالم لا يفنى وأنه مستمر إلى ما لا نهاية. ولم تضمحل هذه العقيدة الصوفية فى الأندلس لعهد أمراء الطوائف بل ظل لها أتباع فى قرطبة وإشبيلية والمرية وغيرها من المدن الأندلسية.

وأخذ التصوف ينشط فى عهد دولة المرابطين، ومن أهم المتصوفة لعهدها أبوالعباس ابن العريف المتوفى بمراكش سنة ٥٣٦ وهو من أهل المرية وله فى التصوف كتاب محاسن المجالس نشره آسين بلاسيوس مع ترجمة فرنسية، وكانت تقوم طريقته على الزهد فى منازل الصوفية والعطايا والمواهب الإلهية والكرامات وما يتصل بها من المنن التى يمنُّ الله بها على النفس الإنسانية. ويقول إن طريقته هى طريقة الخواص التى تقف عند الفناء فى محبة الذات الإلهية، وكأنه لا يقول بوحدة الوجود إنما يقول بالفناء فى المحبة الإلهية، وهو بذلك يعد من أصحاب التصوف السنى، وكأنه يبتعد عن مراتب التصوف الفلسفى القائل بوحدة الوجود خطوة أو خطوات. ومن معاصريه فى الأندلس ابن برَّجان الإشبيلى عبد السلام بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٥٣٦، وأيضا ابن قَسِّى أبو القاسم أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٥٤٦ والذى قاد ثورة بغرب الأندلس ضد المرابطين حين ساءت

أحوالهم وأوشكت على نهايتها، وكان يتزعم فى ثورته طائفة كبيرة من المريدين أى المتصوفة. ويلقانا فى عصر الموحدين غير متصوف أندلسى ينزع بقوة نحو التصوف الفلسفى مثل أبى عبدالله الشوذى وتلميذه ابن دهاق المالقى المتوفى سنة ٦١١ للهجرة وينشأ فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى محيى الدين بن عربى (٥٦٠ - ٦٣٨ هـ) بإشبيلية، ويأخذ فيها تصوفه الفلسفى المعروف عن شيوخ متعددين يذكرهم من ترجموا له كما يأخذه عن عجوز تسمى نونّة فاطمة بنت ابن المثنى القرطبية لزمها سنتين خادما ومريدا. وأشهر من جاءوا بعده فى التصوف الفلسفى أبو الحسن الششترى المتوفى سنة ٦٦٨ وابن سبعين المتوفى سنة ٦٦٩. ويلقانا فى القرن الثامن ابن عباد الرُّندى المتوفى سنة ٧٣٣ وقد طاف ببلدان المغرب، وكأنما وجد فى العقيدة الشاذلية السنية مأربه فانضم إلى أتباعها، وعُنى بشرح كتاب الحكم لابن عطاء الله السكندرى ووصف فى شرحه رياضاته ومجاهداته النفسية.

الفصل الثانى

الثقافة

١

الحركة العلمية

لم يكن لإيبريا دور حضارى فى العالم القديم، إذ ظل سكانها قرونا متطاولة يستقبلون الحضارات ولا ينفذون من خلالها إلى حضارة لهم متميزة. وكان أول ما استقبلوا من الحضارات الحضارة الفينيقية إذ غزاها الفينيقيون فى القرن العاشر قبل الميلاد وأسسوا بها مالقة على البحر المتوسط وقادس على المحيط الأطلسى. وبعد نحو خمسة قرون استقبلوا الحضارة اليونانية إذ غزاها اليونانيون وأسسوا فيها مدينة برشلونة على البحر المتوسط وسموها إيبيريا، وحدثت حروب بينهم وبين الفينيقيين واستعان الفينيقيون ضدهم بأبناء عمومتهم من القرطاجنيين، فأعانوهم. واستقبلت إيبيريا حضارتهم وأسسوا بها مدينة قرطاجنة على البحر المتوسط نفس اسم مدينتهم فى إفريقيا، ونشبت الحرب بينهم بقيادة هانيبال وبين الرومان فى أوائل القرن الثانى قبل الميلاد وانتصر الرومان واستولوا سريعا على إيبيريا، ونشروا فيها - بواسطة جنودهم ومن سمع بخيراتها فى إيطاليا ورحل إليها - لغتهم اللاتينية، وحين اعتنقت روما المسيحية نشرتها فيها، وهى التى سمتها باسم إسبانيا.

وأخذت إسبانيا تشارك روما بعض المشاركة فى حياتها السياسية بفضل من نشأوا فيها أو وُلدوا بها لأسر إيطالية وخاصة من القياصرة مثل تراجان وابن أخيه هدريان. وكانت الخطابة مزدهرة فى روما بسبب ما كان لديها من مجلس شيوخ أعدَّ بقوة لهذا الازدهار، كما أعدَّ لكثرة الأساتذة الذين كانوا يعلّمون الشباب فنون البلاغة الخطابية. وشاركت إسبانيا فى هذا النشاط الخطابى باثنين من أبنائها القرطبيين هما سنيكا الأب الذى نشأ فى قرطبة وانتقل إلى روما وعلم فيها فن الخطابة، وسنيكا الابن الذى ولد بقرطبة فى العام الرابع قبل الميلاد، وجىء به إلى روما وتلقى تعليمه على أبيه ومن بها من الفلاسفة

الرواقيين، وأصبح فيلسوفا رواقيا ومعلما كبيرا للخطابة، وعلّمها نيرون، وله مسرحيات اتخذها كورنىّ وراسين مثلهما المسرحي الأعلى، وحكم عليه نيرون بالموت لاتهامه باشتراكه فى مؤامرة ضده. ورحل إلى روما شاب إسبانى هو كونتليان ليتعلم فن الخطابة، وبرع فيها هناك وأنشأ مدرسة لتعليمها، وألف فيها كتابا كان - ولايزال - المرجع الأساسي للأوربيين فى التعرف على الخطابة الرومانية. واشتهر بروما حفيد لسنيكا، هو «لوكان» الشاعر، وكان قد وُلد بقرطبة سنة ٣٩ للميلاد ونشأ بروما وأصبح شاعرا متألقا بما نظم من ملحمة قصصية من طراز ملحمة الإنيادة لفرجيل، وقد وصف فيها الحرب الأهلية بين قيصر وبومبى، واتهمه نيرون باشتراكه مع عمه فى مؤامرة ضده وحكم عليه بالموت وعمره لا يتجاوز السادسة والعشرين[١].

وواضح أن من شاركوا من إسبانيا قديما فى الأدب اللاتينى أفنوا شخصياتهم فيه، وهم لم ينتجوه فى إسبانيا، بل أنتجوه فى روما، وهو لذلك أدب لاتينى رومانى خالص. وإسبانيا - بذلك - لاتزال فى العهد الرومانى كما كانت فى العهود الفينيقية واليونانية والقرطاجنية لا تستطيع أن تضيف إلى الحضارة الإنسانية أعمالا إسبانية متميزة القسمات، بل ظلت روما ترعاها وتتعهدها فى الحضارة كما تعهدها ورعاها من قبل القرطاجنيون واليونان والفينيقيون، حتى إذا دخلت فى القرن الخامس للميلاد أغارت عليها القبائل الجرمانية المتبربرة التى قضت على الدولة الرومانية الغربية ونزلها منهم الفندال ثم القوط الذين حكموها إلى أن تسلّمها العرب منهم. ولم يكن للقوط حضارة، وقد قضوا على ما كان بإسبانيا من حضارة رومانية، ولا يحفظ التاريخ كتابا من أيامهم سوى مجموعة القس إيزيدور الإشبيلى المتوفى سنة ٦٣٦ للميلاد، وهو يعرض فيها تصوره الساذج للتاريخ والعلوم الطبيعية مع تفسيرات مجازية للكتاب المقدس، ويقول ديورانت فى قصة الحضارة إنها تكتظ بأخطاء فى الحقائق، وتدل على ما كان فاشيا فى عهد القوط بإسبانيا من الجهالة[٢]، وليس لهذه المجموعة أى ذكر فى كتابات الأندلسيين.

ومعنى ذلك أن العرب حين فتحوا إسبانيا كان ظلام الجهل يطبق عليها ولم يكن بها علم ولا علماء، وبحق ما يقوله صاعد فى كتابه طبقات الأمم من أن هذا القُطر لم يُعْرَف فى

---

(١) انظر فى سنيكا وأسرته وكونتليان ولوكان قصة الحضارة لول ديورانت: (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٠/١٦٣ وما بعدها وكذلك ١٧٤ وما بعدها و١٩٩ وما بعدها.

(٢) قصة الحضارة لول ديورانت ١٢/١٩٤ وما بعدها.

العصر القديم بالعلم ولا كان به شخص اشتهر بحبه للعلم، وظل مغلقا فى وجه الحكمة إلى أن فتحه العرب[١]. وكان فيه - كما مر فى الفصل الماضى - يهود ولكن لم يكن لهم أى كتاب علمى، وأيضا لم يكن لهم دور فى الحركة العلمية لأيام العرب، إنما دورهم يقوم فقط على تمثل العلم العربى ثم على المساهمة فى ترجمته إلى اللاتينية فيما بعد حين جَدَّ الغرب فى طلب العلم الأندلسى والوقوف عليه. ومثل اليهود - فى ذلك - الصقالبة الذين مرَّ ذكرهم فى غير هذا الموضع والذين جلبهم الحكام الأمويون إلى الأندلس منذ عهد الحكم الرَّبضى، وكانوا يتعلمون العربية ويتثقفون ثقافة عربية إسلامية، ولم يكن لهم أى دور فى الحركة العلمية بالأندلس إلا أن يصبح أحدهم حاكما لإحدى المدن فى عصر أمراء الطوائف، ويجزل العطاء للعلماء. أما أهل إسبانيا فإنهم - كما قلنا - لم يحملوا إلى الحركة العلمية فى الأندلس تراثا لاتينيا، وكل ما لهم أن من أسلموا منهم وسلالاتهم من المولَّدين أسهموا فى تلك الحركة العلمية العربية، وعروبتها لا ترجع إلى اللسان الذى استخدمته فحسب، بل ترجع - أيضا - إلى أنها أُسست - ونهضت كما سنرى - على أصول عربية مشرقية.

ومعروف أن الإسلام دفع أمته فى كل قطر وبلد إلى العلم والتعلم، ومرَّ بنا أن موسى ابن نصير فاتح الأندلس ومكمل فتح المغرب كان يرسل دائما مع الجيوش فقهاء يعلِّمون أهل الديار المفتوحة الإسلامَ ويحفِّظونهم بعض القرآن ويبصِّرونهم بالدين الحنيف وتعاليمه. ولما كان تعليم الناشئة المسلمة القرآن شعارا من شعائر الدين أخذ به المسلمون فى جميع بلدانهم فإن الأندلس - بدورها - أخذت بهذا التعليم، وافتتحت له الكتاتيب منذ عصرها الأول عصر الولاة[٢]، واطرد ذلك طوال الحقب التالية، ويؤثر عن الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) أنه أنشأ بقرطبة سبعة وعشرين كتَّابا فى عهده، جعل ثلاثة منها بجوار المسجد الجامع والباقى فى أماكن مختلفة منَّ أحياء قرطبة.[٣] وكانت قرطبة تكتظ بكتاتيب أخرى قبل كتاتيبه. وكان معلِّم الكتاتيب يسمى مؤدِّبا، وكان يأخذ أجرا على تعليمه الناشئة[٤]، ولم يكن تعليمه لها يقتصر على تحفيظها القرآن الكريم وبعض نصوص الحديث النبوى بل كان يتسع ليشمل تعليمها النحو وإحسان الكتابة والخط مع

---

(١) طبقات الأمم لصاعد (طبع مطبعة السعادة) ص ٩٧.

(٢) افتتاح الأندلس لابن القوطية (طبع مدريد) ص ٤٠.

(٣) البيان المغرب لابن عذارى (طبع بيروت) ٢/٢٤٠.

(٤) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى (طبع القاهرة) ص ٢٧٨.

تحفيظها بعض النصوص من الأشعار والرسائل البارعة، وينوِّه ابن خلدون بتعليم الناشئة فى الأندلس قائلا: «وأما أهل الأندلس فأفادهم التفنن فى التعليم وكثرة رواية الشعر والرسائل ومدارسة العربية (النحو) من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف فى اللسان العربى»[1]. وابن خلدون يثنى - بذلك - على مؤدبى الأندلس وأنهم استطاعوا أن يغرسوا فى الناشئة - فضلا عن حفظ القرآن الكريم - الملكة العربية بما مرنوهم عليه من قواعد النحو وما حفظوهم من منتخبات الشعر والنثر، مما أعدَّهم ليصبحوا أهل أدب بارع. ومنهم من كان يُؤدِّب أبناء الخاصة من الحكام الأمويين والأشراف من الأسرة الأموية والوزراء وغيرهم، ومنهم من كان يؤدب أبناء العامة فى المساجد أو فى دور ملحقة بها أو فى دور مستقلة بهم أو فى دورهم الخاصة.

وكان الناشئ حين يُنْهى هذا التعليم الأول على أيدى المؤدبين يتحول إلى حلقات الشيوخ فى المساجد ليتسع فى دروس العربية إن شاء أو ليتزود من هذا العلم أو ذاك من العلوم الدينية إما الفقه وإما التفسير وإما الحديث النبوى، وقد يجمع بين هذا كله. ومنذ عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية يقود حكامها الحركة العلمية. واستقر منذ أول هذه الدولة أن العالم فى أى علم من علوم العربية أو الدين لا يتم له علمه على الوجه الأكمل إلا إذا رحل إلى ينابيعه الأساسية فى المشرق، وحتى مؤدبو الكتاتيب تُذْكَر لهم رحلات إلى البصرة والكوفة وبغداد على نحو ما نقرأ عن جودى[2] النحوى المتوفى سنة ١٩٨ والغازى[3] بن قيس المتوفى سنة ١٩٩. وكانت الرحلة فى طلب الفقه والعلوم الدينية أوسع، واشتهر الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل (١٧٢ - ١٨٠ هـ) بتحبيبها إلى الشباب القرطبى وتشجيعهم عليها، ورحل فى عهده كثيرون إلى المدينة لحمل فقه الإمام مالك وموطئه. وتصبح الرحلة فى طلب العلم إلى المشرق تقليدا متبعا منذ هذا التاريخ، ويكثر الراحلون إليه من شباب العلماء الأندلسيين، ويفرد المقرى لمشاهيرهم فصولا طويلة فى نفحه، وهى تدل على أنها ظلت تقليدا متبعا قرونا متوالية. ونحن لا نصل إلى عصر الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) حتى يكثر الفقهاء لعهده كثرة مفرطة، كما تدل على ذلك ثورة أهل الربض القبلى عليه بقرطبة، فقد ألَّبهم كثيرون من الفقهاء عليه، حتى إذا أخفقت الثورة أمر بأن يرحل الثائرون ومؤلبوهم عن قرطبة،

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص١٢٥٢ ص ٢٧٨

(٢) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى (٣) الزبيدى ص ٢٧٧.

فرحل فريق إلى دار الحرب وفريق إلى طليطلة ورحل إلى الاسكندرية ١٥ ألفا وأنزلهم أميرها عبدالله بن طاهر جزيرة كريت على نحو ما مر بنا فى الفصل الماضى.

ويلى الإمارة بعد الحكم ابنه عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) ويقول عنه ابن سعيد فى المغرب، كما مر بنا: «عُنى أبوه بتعليمه وتخريجه فى العلوم الحديثة والقديمة، وكان من أهل التلاوة للقرآن والاستظهار للحديث، وكان يداخل كل ذى علم فى فنه»[١] ويقول ابن خلدون: «كان عالما متبحرا فى علوم الدين والفلسفة»[٢] ويقول ابن القوطية: «التزم إكرام أهل العلم وأهل الأدب والشعر فى دولته وإسعافهم فى مطالبهم كلها»[٣] وسنرى فى غير هذا الموضع أنه هو الذى دفع الأندلس إلى الاهتمام بعلوم الأوائل. وأقبل الطلاب لعهده على حلقات العلماء - وكانوا يعدون بالمئات - فى المسجد الجامع بقرطبة، وكانت حلقة عبد الملك بن حبيب كبير الفقهاء لزمنه بعد يحيى الليثى تضم ثلاثمائة طالب[٤]. وخلف عبد الرحمن الأوسط ابنه الأمير محمد (٢٣٨ - ٢٧٢ هـ) ويقول ابن حيان نقلا عن الرازى: «كان مكرما لأعلام الناس مقدِّما على طبقاتهم ذوى الفقه والعلم منهم يرفع مجالسهم ويزلف وسائلهم ويسعف فى رعايتهم ويستشعر مع ذلك الحذر من تحاسدهم»[٥] ويذكر ابن حيان موقفين عظيمين له[٦]، هما موقفه من بقى بن مخلد وموقفه من محمد بن عبد السلام الخشنى فقد رحلا إلى المشرق وجلَب أولهما كتاب مصنف ابن أبى شيبة فى الحديث فأنكر جماعة من الفقهاء ذلك عليه وسلطوا عليه العامة ليمنعوه من قراءته، وعلم بذلك الأمير فحماه منهم ونهاهم أن يتعرضوا له. وجاء الثانى أيضا من المشرق حاملا كتاب الناسخ والمنسوخ لأبى عبيد، فأنكر الفقهاء عليه إملاءه الكتاب على الطلاب فى المسجد الجامع، فنهاهم الأمير محمد عن تعرضهم له. ويقول ابن حيان عن ابنه الأمير عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) إنه «كان كثير التلاوة للقرآن مثابرا على درسه متصرفا فى فنون العلم متحققا بلسان العرب بصيرا بلغاتهم وأيامهم حافظا للغريب والأخبار آخذا من الشعر بحظ وافر، وكان مجلسه أعمر مجالس الملوك بالفضائل وأجمعها لطبقات أهل الآداب والتعاليم، وكان لا يقدم أمرا ولا يؤخره إلا بمشورة أهل

---

(١) المغرب (طبع دار المعارف) ١/ ٤٥.
(٢) تاريخ ابن خلدون (طبعة بولاق) ٤/ ١٣٠.
(٣) افتتاح الأندلس (طبع مدريد) ص ٨٥.
(٤) الديباج المذهب لابن فرحون. (نشر مكتبة دار التراث بالقاهرة) ٢/ ٨.
(٥) المقتبس (تحقيق د. محمود مكى - طبع بيروت) ص ٢٤٥.
(٦) المقتبس ص ٢٤٨ وما بعدها.

العلم والفقه باسط اليد على الفقراء وأهل الحاجة وذوى الزمانة[١]» وفى ذلك ما يؤكد بسطة يده على العلماء من كل صنف وإغداقه عليهم الأموال الجزيلة.

وتولى بعده حفيده عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ). وتبلغ الأندلس فى عهده الذروة المنتظرة فى قوة السلطان، وتزدهر الحركة العلمية فى أيامه، وكان قد انتدب لرعايتها ابنه وولى عهده الحكم المستنصر، واستنَّ له الإغداق على العلماء، ويكفى أن نعرف أنه أرسل إلى محمد بن القاسم بن شعبان الفقيه المالكى بالفسطاط - وهو أندلسى الأصل - عشرة آلاف دينار[٢] ليفرِّقها على شيوخ المالكية بمصر لنتصور مدى ما كان ينثر حينئذ من الأموال على فقهاء الأندلس وعلمائها من كل صنف، واستنَّ لابنه الحكم أيضا إكرام العلماء القادمين من المشرق لينشروا فى الأندلس علمهم، ووفد عليه من بغداد أبو على القالى[٣] سنة ٣٣٠ فبالغ فى الحفاوة به، وقاد أبو على فى الأندلس - كما هو معروف - حركة لغوية ضخمة بمؤلفاته اللغوية وبمن تخرج على يديه هناك من تلاميذه اللغويين الكثيرين. وكما عُنى الناصر بعلماء الدين واللغة عُنى بمن يدرسون علوم الأوائل، ونرى إمبراطور بيزنطة قسطنطين السابع يرسل إليه بهدية بينها كتاب ديوسقوريدس فى الصيدلة باليونانية، ولم يكن فى قرطبة حينئذ من يعرف تلك اللغة، فطلب الناصر من الإمبراطور أن يرسل إليه أحد العارفين بها، فأرسل إليه الراهب نيقولا سنة ٣٤٠ وكان يعرف اليونانية واللاتينية جميعا، وألف الناصر لجنة لمساعدته فى ترجمة الكتاب إلى العربية[٤].

واقتدى الحكم بأبيه منذ كان وليا لعهده وأسند إليه الإشراف على الحركة العلمية، فنهض بها فى أيامه، حتى إذا خلفه فى الحكم (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) عُنى بتلك الحركة إلى الذروة، وقد طرَّز القالى باسم أبيه واسمه كتابه الأمالى ونوَّه بهما طويلا فى مقدمته للكتاب، ونرى مؤلفين كثيرين فى الأندلس وفى المشرق يقدمون إليه مؤلفاتهم، من ذلك كتاب الاستيعاب[٥] فى فقه مالك لأحمد بن عبد الملك ومحمد بن عبيد الله القرشى،

---

(١) انظر المقتبس (طبع دارالمعارف) الفصل الخاص بالثناء على الأمير عبدالله وتقريظه.

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى ٣١٣/١-٣١٤.

(٣) انظر فى وفادة أبى على القالى على الناصر ومقامه بقرطبة طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ص٢٠٤ وإنباه الرواة ٢٠٤/١ ومعجم الأدباء لياقوت ٣٠/٧ وبغية الملتمس للضبى ص٢١٦ وجذوة المقتبس للحميدى (طبع القاهرة) ص١٥٥.

(٤) انظر طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل تحقيق فؤاد سيد (طبع المعهد الفرنسى بالقاهرة) ص٢٢ وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (طبعة دار مكتبة الحياة ببيروت) ص٤٩٣ وما بعدها.

(٥) الصلة لابن بشكوال (طبع مدريد) رقم ٣٦.

ووصلها بجائزة كبيرة، ومن ذلك كتاب الحدائق لأحمد بن فرج الجيانى الذى ألفه له، وقد عارض به كتاب الزهرة لابن داود الأصبهانى، وكان ابن داود ذكر فى كتابه مائة باب فى كل باب مائة بيت فجعل الجيانى كتابه مائتى باب فى كل باب مائتا بيت ولم يورد فيه لغير شعراء الأندلس شيئا[١]. وسمع الحكم بكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى فأرسل إليه ألف دينار ذهبا ليبعث إليه بنسخة من الكتاب، فأرسل إليه نسخة منه منقّحة، وأرفقه بكتاب فى أنساب أسرته الأموية موشّحا بمناقبهم، فجدّد له الحكم الصلة الجزيلة، وصنع نفس الصنيع مع القاضى الأبهرى المالكى حين طلب إليه شرحه لمختصر ابن عبد الحكم فى الفقه المالكى[٢].

ويقول ابن الأبّار: «لم يُسْمَعْ فى الإسلام بخليفة بلغ مَبلغ الحكم فى اقتناء الكتب والدواوين وإيثارها والاهتمام بها[٣]» ويقول ابن خلدون: «اجتمعت بالأندلس لعهده خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده[٤]». وكان له ورّاقون أو بعبارة أخرى جُلّاب كتب بأقطار البلاد وعواصمها مثل الإسكندرية والقاهرة ودمشق وبغداد ينتخبون له نفائس الكتب. ويقال إن عدد الفهارس بمكتبته فى القصر كانت أربعا وأربعين فهرسا فى كل فهرس عشرون[٥] ورقة - وفى رواية خمسون ورقة - وكانت الدار التى اتخذها لمكتبته أشبه بمجمع علمى، وكانت تزخر بالحذاق فى صناعة النسخ والتجليد[٦] وبالعلماء الدارسين من كل صنف وبالمحققين الذين يقابلون مخطوطات الكتب المهمة بعضها على بعض مستخلصين منها للمكتبة نسخا منقحة غاية التنقيح. ويذكر الحميدى فى الجذوة أن الحكم مرَّ يوما بأبى على القالى ومجموعة من العلماء يقابلون نسخ معجم العين وبينها نسخة القاضى منذر بن سعيد التى أخذها بالفسطاط عن عالم مصر اللغوى ابن ولاد، ومكث معهم قليلا يسألهم عن نسخ الكتاب[٧]. ويقول ابن الأبار منوها بثقافة الحكم ومعرفته بالكتب ومؤلفيها: «كان كثير الاهتمام بكتبه والتصحيح لها والمطالعة

---

(١) انظر الجذوة ص٩٧ وبغية الملتمس ص٤٠ وابن دحية فى المطرب ص ٤ ومعجم الأدباء ٢٣٦/٤.

(٢) تاريخ ابن خلدون ١٤٦/٤.

(٣) انظر ترجمة الحكم فى الحلة السيراء لابن الأبار (طبع القاهرة) ٢٠٠/١ وما بعدها.

(٤) تاريخ ابن خلدون ١٤٦/٤.

(٥) المغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ١٨٦/١ وراجع ترجمته فى الحلة السيراء وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٠٠.

(٦) تاريخ ابن خلدون ١٤٦/٤ ويقال كان بمكتبة الحكم أربعمائة ألف كتاب.

(٧) جذوة المقتبس للحميدى ص٤٧ وما بعدها.

لفوائدها. وقلما تجد له كتابا كان فى خزانته إلا وله فيه قراءة ونظر من أى فن كان من فنون العلم، يقرؤه ويكتب فيه بخطه - إما فى أوله أو فى آخره أو فى تضاعيفه - نسبَ المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به وأنساب الرواة له، ويأتى من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لكثرة مطالعته.. وصار كل ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم، ينقلونه من خطه ويحاضرون به[١]». وطبيعى أن تبلغ الحركة العلمية بالأندلس فى عهده كل ما كان يؤمل لها من ازدهار لا بفضل ما وضعه تحت أعين العلماء من أمهات الكتب فى العلوم اللغوية والدينية وعلوم الأوائل من طب وغير طب فحسب، بل أيضًا بفضل ما أغدق عليهم من الرواتب الجزيلة. ولم يكن الحكم يقصر الرواتب على العلماء المتخصصين الذين يحاضرون الطلاب فى المساجد، بل كان يعممها فى المؤدبين الذين يعلمون أولاد الفقراء والمساكين فى الكتاتيب[٢] ومرَّ بنا أنه أنشأ فى قرطبة سبعة وعشرين كُتَّابا، سوى ما كان بها قبله من الكتاتيب، ويقول ابن الأبار إنه أفاء على العلم بما بسط عليه من المال، ونوَّه بأهله ورفع ذكرهم، ورغَّب الناس فى طلبه، ووصلت عطاياه وصلاته إلى فقهاء البلدان النائية عن بلده[٣].

وولى بعد الحكم المستنصر ابنه هشام المؤيد، وكان فى الحادية عشرة من عمره، واستبد بالسلطان وتدبير الدولة حاجبه أو رئيس وزرائه المنصور بن أبى عامر، لا ينازعه فى ذلك منازع طوال حياته، وله وقائع كثيرة مع النصارى فى الشمال انتصر فيها دائما واستولى منهم على برشلونة وحصونا وبلدانا أخرى كثيرة، مما حبَّب الناس فيه. وأعلى مراتب العلماء وجعل لهم فى كل أسبوع يوما يجلس لهم فيه ويتناظرون بين يديه[٤]، وكان يجزل الرواتب والعطايا لهم، ووفد عليه بعض علماء المشرق فأكرم وفادتهم عليه، على نحو ما هو معروف من وفادة صاعد بن الحسن البغدادى اللغوى، وألف له فى اللغة كتبا مختلفة نال بها منه أموالا جمة، منها كتابه الفصوص ألفه على شاكلة كتاب الأمالى لأبى على القالى، وحين قدمه إليه أمر له توا بخمسة آلاف دينار[٥]. وكان يعنى بالفقهاء

---

(١) ترجمة الحكم فى ابن الأبار ١/٢٠٢ ويقول القاضى عياض فى كتابه ترتيب المدارك (طبع الرباط ١/٢٢): «كان الحكم ممن طالع الكتب ونقر عن أخبار الرجال تنقيرا لم يبلغ فيه شأوه كثير من أهل العلم».

(٢) البيان المغرب لابن عذارى ٢/٣٥٨.

(٣) ابن الأبار فى الحلة السيراء ١/٢٠١.

(٤) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لعبدالواحد المراكشى (طبع القاهرة) ص ٨٣ والحميدى ص ٧٢.

(٥) الصلة لابن بشكوال ١/٢٣٥ وإنباه الرواة للقفطى (طبع القاهرة) ٢/٨٩.

والمحدثين عنايته بصاعد اللغوى واللغويين. وكان شديد الطموح فأمر أن يحيىٌّ بتحية الملوك، وقعد على سرير الملك. وطمح - كما مرَّ بنا فى الفصل الماضى - إلى تنصيب نفسه خليفة، ورأى - تقربا للعامة - أن ينكل بتلامذة ابن مسرة الصوفى المتفلسف المعتزلى[١]، ودفعه هذا التقرب إلى أن يأمر بإحراق كل ما كان فى مكتبة الحكم المستنصر بالقصر من كتب الفلسفة والفلك والتنجيم[٢] حتى يرضى العامة، غير أن ذلك لم يقف الحركة العلمية التى ازدهرت فى عصر عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم فقد ظلت فى مدِّها، إذ كانت أقوى من أن يعصف بها هذا الحادث. وسرعان ما تنشب بعد ابن أبى عامر الفتنة أو الفتن التى ظلت أكثر من عشرين عاما وانتهت بالقضاء على الدولة الأموية فى الأندلس سنة ٤٢٢ للهجرة، وكان من آثار هذه الفتن أن هاجر من قرطبة إلى مدن الأندلس المختلفة كثير من علمائها. وهاجر معهم إلى تلك المدن كثير من الكتب العلمية التى كانت مختزنة فى مكتبة الحكم وغيرها من مكتبات المساجد والمكتبات الخاصة.

وأعدَّ ذلك من بعض الوجوه لأن تنشط الحركة العلمية فى المدن الكبرى التى تأسست فيها إمارات أمراء الطوائف أو ملوك الطوائف كما كانوا يسمونهم، إذ انتثر عقد الأندلس وأصبحت أندلسات أو قل إمارات كثيرة، ففي كل مدينة كبيرة فرد أو أسرة تحكمها، وتنافست هذه المدن، فكل مدينة تريد أن تتفوق على أخواتها فى العلم والفلسفة والأدب، وكل أمير لمدينة يريد أن يظفر بقصب السبق على نظرائه فى السلطان والشئون المادية والثقافية والفنية، وكأنما أعيدت فى هذه الحقبة سيرة المدن اليونانية القديمة: أثينا وإسبرطة وأخواتها وما كان بينها من تنافس هيَّأ لعصر من أزهى العصور اليونانية فى الفلسفة والفن والعلم والأدب، مما جعل حقبة أمراء الطوائف من أزهى الحقب فى تاريخ الأندلس، ومن يرجع إلى إشبيلية سيجد حاكميها المعتضد عباد وابنه المعتمد يتحولان بها إلى ما يشبه سوقا كبرى للشعر والشعراء، بينما يجد بنى الأفطس فى بطليوس بغربى الأندلس وقد صعدوا بالتأليف فى الثقافة والآداب إلى الأوج على نحو ما يصور ذلك المظفر بن الأفطس فى موسوعته التى سماها كتاب المظفرى فى الأدب والتاريخ، وكانت

---

(١) يدفعنا إلى اعتقاد ذلك أن قاضى الجماعة محمد ابن يبقى فى صدر دولة ابن أبى عامر هو الذى تولى محاكمة هؤلاء التلاميذ ولابُدَّ أنْ كان ذلك بإيعاز منه. انظر النباهى فى تاريخ قضاة الأندلس ص ٧٨ وتاريخ الفكر الأندلسى لبالنثيا (الترجمة العربية) ص ٣٣٠.

(٢) طبقات الأمم لصاعد ص١٠٣ ونسبة إحراق الكتب للخليفة هشام المؤيد خطأ وانظر البيان المغرب لابن عذارى ٢/٤٣٧.

نحو مائة مجلد[١]. وبثّ بنو ذى النون فى طليطلة حركة علمية وأدبية واسعة وخاصة فى عهد أميرهم المأمون يحيى بن إسماعيل، ويقول ابن سعيد: «لم يجتمع عند ملك من ملوك الأندلس ما اجتمع عنده من الوزراء والكتاب الأجلاء[٢]». ونهضت سرقسطة فى أقصى الشمال بحركة علمية نشطة فى الرياضيات والفلك وبالمثل نشطت فى دراسة الفلسفة، وخاصة على عهد أميرها المؤتمن من بنى هود وله فى العلوم الرياضية تآليف مثل الاستهلال والمناظر[٣] وكان مألفا للعلماء والأدباء والشعراء. وازدهرت فى المرية شرقى الأندلس نهضة علمية وأدبية واسعة قادها أحمد بن عباس الوزير لزهير الصقلبى أول أمرائها، وكان كاتبا مبدعا وشُغف بجمع الكتب واقتنائها حتى قالوا إنه اقتنى منها أربعمائة ألف مجلد[٤]. وصارت الإمارة سريعا إلى بنى صُمادح فانتعش بهم العلم والشعر وخاصة فى عهد أميرها المعتصم وكان شاعرا مجيدًا كما كان ممدّحا أكثر الشعراء من مديحه[٥]. وتكاثر العلماء والشعراء المبدعون فى مرسيه وبلنسية فى شرقى الأندلس وقاد مجاهد صاحب دانية هناك حركة علمية وأدبية، وكان عالما بالعربية وعلوم القرآن، وجمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من نظرائه، ووفد عليه العلماء الأجلاء والشعراء الأفذاذ، وشاع العلم فى حضرته حتى فشا فى جواريه وغلمانه[٦]. وكان لغرناطة فى جنوبى الأندلس ما لأخواتها الأندلسيات من النشاط العلمى والأدبى، وظلت قرطبة تفوح بشذاها العطر فى الفلسفة والعلوم والآداب.

واستولى ألفونس السادس على طليطلة سنة ٤٧٨ للهجرة، واستقر فى نفوس أمراء الطوائف أن لا حول لهم ولا قوة إزاءه وإزاء المسيحيين بالشمال فاستغاثوا بيوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين فى المغرب فلباهم، وأوقع بألفونس وجيوشه هزيمة ساحقة فى وقعة الزلاقة المشهورة، ورأى من الخير أن يضم شتات الأندلس ودويلاته المتنازعة تحت لوائه، لما ثبت له من فساد حكمهم وعجزهم عن مقاومة المسيحيين فى الشمال وبذلك أظل الأندلس حكم دولة المرابطين إلى أواخر العقد الرابع من القرن الخامس، وعظم شأن

---

(١) المغرب لابن سعيد ٣٦٤/١ ويذكر أنه اجتمع عنده ابن شرف حسنة القيروان وعبدالله بن خليفة المصرى الحكيم وأبو الفضل البغدادى الأديب.
(٢) المغرب ١٢/٢.
(٣) تاريخ ابن خلدون ١٦٢/٤.
(٤) المغرب ٢٠٦/٢.
(٥) انظر ابن الأبار فى الحلة السيراء ٨٢/٢ ويقول كان يجلس يوما فى كل أسبوع للفقهاء والخواص فيتناظرون بين يديه فى التفسير والحديث.
(٦) المغرب ٤٠١/٢ وأعمال الأعلام للسان الدين ابن الخطيب (نشر بروفنسال) ص ٢٥٦ والبيان المغرب ١٥٧/٣.

الفقهاء فى هذه الدولة منذ ابن تاشفين وأجرى الرواتب على كثيرين منهم طوال أيام حكمه[١]، واحتذاه فى ذلك ابنه على خليفته فى الحكم. ولا تلبث دولة الموحدين أن تحل فى المغرب والأندلس محل دولة المرابطين، وتدين الأندلس لمؤسسها عبد المؤمن وكان فقيها عالما مشاركا فى كثير من العلوم الدينية والدنيوية[٢] وكان مؤثرًا لأهل العلم ويجرى عليهم الرواتب الواسعة[٣] وخلفه ابنه يوسف (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ) وكان قد درس فى إشبيلية على فقهائها وعلمائها اللغويين، وقيل إنه كان حُفَظَة حتى ليقولون إنه حفظ البخارى بأسانيده، وشُغف بالفلسفة وأمر بجمع كتبها فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر[٤]، وولى بعده ابنه يعقوب وكان مثقفا مثله ثقافة واسعة وكان يعقد المناظرات بين يديه للعلماء والفلاسفة.[٥] وكل ذلك يشهد بأن الحركة العلمية والفلسفية ظلت مطردة النمو فى الأندلس طوال عصر دولتى المرابطين والموحدين.

وأخذت المدن الأندلسية الكبرى تسقط فى أيدى المسيحيين الشماليين منذ العقد الثالث فى القرن السابع الهجرى، واستطاع محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر أن يؤسس فى غرناطة سنة ٦٣٥ إمارة ظلت حتى سنة ٨٩٧ للهجرة وقد استطاعت بعلمائها وأدبائها ومن آوى إليها من أدباء المدن الأندلسية الساقطة فى حجر النصارى أن تستتم نهضة العلوم والآداب الأندلسية. وهاجرَ كثير من الأدباء والعلماء الأندلسيين إلى مراكش والمشرق ونشروا بها آدابهم وعلومهم وذاع صيتهم. وكان لغرناطة والمدن التابعة لها مثل مالقة الحظ الأوفر فى الحركتين العلمية والأدبية ونرى أمراءها منذ الأمير محمد الفقية (٦٧١ - ٧٠١) يرعون العلماء والشعراء، وعُرف باسم الفقية لدراسته الفقة أيام أبيه وشغفه به، ويبدو أنه كان شغوفا بكل فروع العلم حتى علوم الأوائل، يدل على ذلك استقدامه من مرسية لمحمد بن إبراهيم الأوسى ومحمد بن أحمد الرقوطى كى يدرسا للطلاب فى غرناطة العلوم الطبية والفلسفية[٦] ولعل أكبر أمير من بنى الأحمر نشطت دراسة العلوم فى عهده هو أبو الحجاج يوسف الأول

---

(١) روض القرطاس لابن أبى زرع (طبع الرباط) ص ٣٨.

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (طبع القاهرة) ١٥٨/١.

(٣) المعجب ص ٢٦٩.

(٤) المعجب ص ٣١٠.

(٥) انظر كتابنا الرد على النحاة (طبع دار المعارف) ص ١٥.

(٦) الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (تحقيق عنان - طبع القاهرة) ٦٧/٣ - ٦٨.

(٧٣٣ - ٧٥٥) الذى أنشأ لأول مرة فى غرناطة - بل ربما أيضا فى الأندلس - مدرسة سماها المدرسة[١] النصرية. ومعروف أنه لم يكن لأهل الأندلس مدارس لتعليم فروع العلم، بل كانوا يدرسونها جميعا فى المساجد أو فى دور العلماء أنفسهم، إذ كان كثيرون منهم يعلمون الطلاب فى منازلهم، ولم يكن ذلك قاصرا على أصحاب علوم الأوائل بل كان عاما عند أصحاب العلوم اللغوية والدينية وأيضا عند بعض معلمى الكتاتيب. ومع أن الأندلس لم تعرف المدارس قبل القرن الثامن الهجرى فإن الحركة العلمية ازدهرت بها ازدهارا عظيما كما رأينا سواء فى المساجد أو فى منازل العلماء التى كانت تتحول إلى ما يشبه المدارس منذ القرنين الثانى والثالث الهجريين.

وحظيت المرأة فى هذه الحركة العلمية بغير قليل من العلم والتعليم، ومعروف أن الإسلام يُلْزم أتباعه رجالا ونساء بأخذ قسط من التعليم فكان طبيعيا أن تقبل المرأة الأندلسية عليه حتى تتعرف على فروض دينها وخاصة من العبادات وحتى تحفظ أجزاء من القرآن وقد تحفظه جميعه. وكانت تتعلم بداخل الدور، وكان الأمراء يختارون المؤدبين لبناتهم ولجواريهم وكانت قصورهم تكتظ بهن، ومثلهم الوزراء وأصحاب الثراء. وتذكر كتب التراجم بجانب المؤدبين مؤدبات كن يتفرغن لتأديب الصبيان فى الصغر مثل ابنة حزم التى كانت تشترك مع أبيها وأخيها فى تأديب الناشئة بدار واحدة[٢] وكان قيام المؤدبين بهذه المهمة أوسع، ولم يكن هناك عالم فى أى فرع من فروع العلم إلا ويأخذ بناته بالتعليم المبكر. وكثيرات كن لا يكتفين بتعلم القراءة والكتابة وشىء من الحساب مع حفظ بعض المختارات من الشعر، بل كُنَّ يحاولن استيعاب العلوم ويتفرغن لإتقانها، واشتهرت البهاء بنت الأمير عبد الرحمن بن الحكم الربضى (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) بأنها كانت زاهدة عابدة متبتلة وكانت كما مر بنا تكتب المصاحف وتقفها على القراء بالمساجد[٣] وكانت تعاصرها أم الحسن بنت سليمان بن وانسوس وزير الأمير محمد والمنذر وعبد الله وقد تتلمذت للمحدث بقى بن مخلد المتوفى سنة ٢٧٦ وروت عنه سماعا منه وقراءة عليه، وصحبته، وكان لها يوم فى الجمعة تنفرد فيه به لأخذ العلم عنه بداره،

---

(١) راجع هذه المدرسة فى ترجمة رضوان النصرى فى الإحاطة ٥٠٨/١ وبها لوحة تحدد تاريخ الانتهاء من بنائها بسنة ٧٥٠.

(٢) التكملة لابن الأبار رقم ٩٧ وانظر رقم ٣١٢.

(٣) الذيل والتكملة للمراكشى (طبع أكاديمية المملكة المغربية - تحقيق محمد بن شريفة) ٤٨٤/٢/٨.

وحجت وسمعت هنالك الحديث والفقه وعادت إلى الأندلس[١]. ومن لداتها ورفيقاتها رقية بنت تمام بن عامر وزير الأمير محمد وكان أديبا شاعرا وأحسنت ابنته رقية الكتابة حتى اتخذتها ابنة الأمير المنذر بن محمد (٢٧٣ - ٢٧٥ هـ) كاتبة لها[٢]. ومر بنا فى الفصل الماضى ثلاث من جوارى القصر الأموى كانت اثنتان منهن: مزنة وكتمان تكتبان للناصر، وكانت الثالثة لُبْنى تكتب للمستنصر، وكانت نظام كاتبة بقصر الخلافة أيام هشام المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩هـ) وكانت أديبة بليغة تحسن تحبير الرسائل ومن إنشائها الرسالة التى عزّى فيها هشام المؤيد حاجبه المظفر بن المنصور بن أبى عامر عن أبيه وجدّد له العهد بالحجابة[٣] سنة ٣٩٢. ويدل على ما كان للجوارى فى قصور الخلفاء والوزراء وعلية القوم من ثقافة أنهن اللائى كن يقمن على تربية النشْء فى تلك القصور وهو ما يشهد به ابن حزم أحد أبناء الوزراء فى العهد الأموى إذ يقول عن نشأته فى أواخر القرن الرابع الهجرى بكتابه طوق الحمامة: «إننى رُبِّيت فى حجور الجوارى ونشأت بين أيديهن ولم أعرف غيرهن ولا جالست الرجال إلا وأنا فى حد الشباب وحين بقَل[٤] وجهى وهن علمننى القرآن وروّيننى كثيرا من الأشعار»[٥]. وتلقانا فى كتب التراجم من حين لآخر عالمات متعمقات فى العلم مثل ابنة فائز زوجة أبى عبد الله بن عتاب، وقد أخذت عن أبيها التفسير واللغة والعربية والشعر وعن زوجها الفقه ورحلت إلى دانية لأخذ القراءات السبع عن أبى عمرو الدانى المقرئ وكان قد سبقها إليه الموت فأخذت تلك القراءات عن تلميذه أبى داود بن نجاح فى آخر سنة ٤٤٤ للهجرة[٦]. وكانت تعاصرها إشراق السويداء وقد برعت فى العربية واللغة والآداب واشتهرت بتقدمها فى علم العروض وعنها أخذه أبو داود المقرئ وقرأ عليها كامل المبرد وأمالى القالى[٧] واشتهرت فى تلك الحقبة جارية الطبيب ابن الكتانى بحسن الغناء وبإحسانها لعلم الطب وتشريح الأعضاء مما يقصر عنه كثيرون من أصحاب الصناعة.[٨] وتلقانا فى القرن السادس أم العز[٩] راوية قراءة ورش عن أم معفر إحدى زوجات محمد بن سعد بن مردنيش

---

(١) المراكشى ٤٨١/٢/٨.

(٢) نفس المصدر ٤٨٥/٢/٨.

(٣) المراكشى ٤٩٣/٢/٨.

(٤) يقال بقل وجه الغلام حين ينبت شعر خده ولحيته.

(٥) طوق الحمامة لابن حزم (تحقيق د. الطاهر أحمد مكى طبع دار المعارف) ص٧٩.

(٦) التكملة رقم ٢١١٨ والمراكشى ٤٩٤/٢/٨.

(٧) التكملة رقم ٢١١٥ والمراكشى ٤٨٠/٢/٨.

(٨) المجلد الأول من القسم الثالث من الذخيرة لابن بسام (تحقيق احسان عباس) ص١١٢.

(٩) التكملة رقم ٢١٢٥ والمراكشى ٤٨٣/٢/٨.

أمير شرقى الأندلس (٥٤٢ - ٥٦٨ هـ) كما تلقانا أم عمرو بنت عبد الملك بن زهر الطبيب وأخت أبى بكر وكانت تحذق الطب مثل أبيها وأخيها وكثيرين من أسرتها، وكانت الطبيبة لنساء الأمراء من بنى عبد المؤمن بإشبيلية وأطفالهم وجواريهم، وكانت تُستَفْتى فى الطب لرجالهم فتزيد حظوة[1] عندهم، وتوفيت بعد سنة ٥٨٠ وتُعد بحق - جدَّة الطبيبات العربيات المعاصرات. وكثيرات هن العابدات المتبتلات اللائى كن يعظن النساء هناك مثل ناسكة تسمى رشيدة كانت تتجول فى بلدان الأندلس مذكرة للنساء وواعظة.[2] ويذكرون عن محيى الدين بن عربى الصوفى المشهور أن من أهم من دفعوه إلى اعتناق التصوف زوجته مريم بنت محمد بن عبدون بما كان يسمعه من مواعظها ويشاهده من ورعها، وأهم منها فى دفعه إلى التصوف نونّة فاطمة بنت ابن المثنى القرطبية، وقد لزمها سنتين خادما ومريدا، مأخوذا بما كانت تذكره من تنبؤات غريبة. وسنلم فى موضع آخر بإقبال المرأة الأندلسية على التثقف بالشعر، مما هيأ لظهور شاعرات أندلسيات كثيرات.

٢

علوم الأوائل - الفلسفة - علم الجغرافيا

(أ) علوم الأوائل

لم يكن فى إسبانيا قبل فتح العرب لها شيء واضح من علوم الأوائل فى الرياضيات وغير الرياضيات، ويبدو أن العرب أخذوا يجلبون أطرافا منها منذ أواخر القرن الثانى الهجرى مما ترجم فى بغداد عن اليونانية وغيرها، إذ يقول ابن سعيد فى ترجمة الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) إن أباه الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) عُنى بتعليمه وتخريجه فى العلوم الحديثة والقديمة، حتى إذا استولى على صولجان الحكم بعد أبيه رأى أن يحدث فى الأندلس نهضة علمية بالتعرف الدقيق على علوم الأوائل مع رعاية الدولة لها، إذ يمضى ابن سعيد فى ترجمته قائلا إنه: وجَّه عباس بن ناصح إلى العراق فى

---

(١) انظرها فى الذيل والتكملة للمراكشى ٤٨٣/٢/٨ وراجع طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة فى ترجمة أخيها الطبيب أبى بكر ابن زهر، وكانت ابنتها طبيبة مثلها.

(٢) انظر المراكشى ٤٨٥/٢/٨.

التماس الكتب القديمة، فأتاه بكتاب السند هند وغيره منها، وهو أول من أدخلها الأندلس وعرّف أهلها بها، ونظر هو فيها»[١]. وعبد الرحمن الأوسط - بذلك - لم يدخل الكتب الخاصة بعلوم الأوائل من مثل كتاب السند هند المترجم عن السنسكريتية الهندية والخاص بعلم الحساب والهيئة والجداول الفلكية فحسب، بل إنه دفع الأندلسيين إلى تعلمها والتثقف بها. وكان ذلك فاتحة عصر جديد فى الأندلس: عصر دراسة علوم الأوائل، وسرعان ما نجد أندلسيا فى زمنه يقبل على دراسة علم الفلك والهيئة ويصبح منجما له هو عبد الله بن الشَّمْر، وكان شاعرا فكان الأمير عبد الرحمن الأوسط يجرى عليه راتبا للشعر وراتب للتنجيم، وكان رئيس المنجمين لعهده، وله معه فى التنجيم أخبار طريفة[٢].

وابن الشمر رمز لاهتمام الأندلسيين فى القرن الثالث الهجرى منذ فواتحه بالفلك والتنجيم وما يتصل بهما من الرياضيات، وأخذوا سريعا يهتمون بالكيمياء والفلسفة. واشتهر بذلك كله عباس[٣] بن فرناس المتوفى سنة ٢٧٤ للهجرة فى أوائل أيام الأمير المنذر بن محمد (٢٧٣ - ٢٧٥ هـ)، وفيه يقول ابن سعيد: «كان فيلسوفا حاذقا وشاعرا مفلقا مع علم التنجيم، وهو أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة.. وكان كثير الاختراع والتوليد واسع الحيل حتى نُسب إليه السحر وعمل الكيمياء» ويقول ابن حيان فى المقتبس: «أبدع عباس بن فرناس عندنا فى فنون التعاليم القديمة والحديثة وتفلسف وأغرب فى غير مذهب من الحكمة وخدمة الموسيقى وضرب العود وصَوْغ اللحون». وبلغ من علمه بالفلك أن صنع فى بيته قبة على هيئة السماء تتراءى للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود، ويقول ابن سعيد إنه احتال فى تطيير جثمانه، فكسا نفسه الريش على سَرَقٍ (شقق) الحرير فتهيأ له أن طار فى الجو من ناحية الرصافة بقرطبة واستقل فى الهواء فحلّق فيه حتى وقع على مسافة بعيدة.

وتأخذ علوم الأوائل ومايتصل بها من الفلسفة فى النمو منذ عصر الأمير محمد

---

(١) انظر المغرب (طبع دار المعارف) فى ترجمة الأمير عبد الرحمن الأوسط ٤٥/١.

(٢) انظر فى ابن الشمر المغرب ١٢٤/١ والمقتبس (تحقيق د. مكى) ص ٦٥، ٤٧٧ وابن الفرضى رقم ٦٨٩ والزبيدى ص ٢٨٠ والبيان المغرب لابن عذارى ٨٥ وما بعدها والقضاة للخشنى ص ٨٣. والجذوة للحميدى رقم ٥٠٥ وبغية الملتمس رقم ٨٤٥.

(٣) راجع فى ابن فرناس المغرب ٣٣٣/١ والمقتبس ص ٢٧٩ والجذوة رقم ٧٣١ والبغية رقم ١٢٤٧.

(٢٣٨ - ٢٧٣ هـ.)، ولم يبق حينئذ كتاب مهم فى علوم الأوائل ببغداد ودمشق والقاهرة والإسكندرية إلا جُلب وأكبَّ العلماء عليه يدرسونه. وطبيعى لذلك أن يظهر فى عهد المستنصر مسلمة[١] المجريطى المتوفى سنة ٣٩٨ وهو يفتتح سلسلة الرياضيين الأندلسيين العظام، وسرعان ما يصبح أستاذ مدرسة رياضية أندلسية. ومن أعماله شرحه لقبة الفلك لبطليموس وقد تُرْجم إلى اللاتينية فى بازل بسويسرا سنة ١٥٣٦ بعنوان: «سرعة أفلاك السماء ونجومها وطبيعتها وحركتها» وبالمثل ترجمت له إلى اللاتينية رسالة فى الأسْطُرْلاب وزيج محمد بن موسى الخوارزمى أوجداوله الفلكية وقد حوَّلها من التاريخ الفارسى إلى التاريخ العربى وزاد فيها جداول حسنة، وله ملخص لزيج البتّانى سماه تعديل الكواكب. وخلفه فى الرياضيات كثير من التلاميذ مما يدل على أن أمرَ المنصور بن أبى عامر فى زمن حجابته باحراق كتب علوم الأوائل - كما مرَّ بنا - كان حدثا عارضا، وظلَّ لعلوم الأوائل رياضيات وغير رياضيات نشاطُها فى بلدان الأندلس.

ومن أهم تلاميذ مسلمة الرياضيين أبو القاسم[٢] أصبغ بن محمد بن السمح الغرناطى المتوفى سنة ٤٢٥ وكان رياضيا بارعا فى الحساب والهندسة وهيئة الأفلاك وحركات النجوم وله «المدخل إلى الهندسة» فى تفسير كتاب إقليدس وكتب مختلفة فى الحساب، وكتابان فى الأسطرلاب أحدهما فى التعريف بصورة صنعته والآخر فى العمل به، وله أيضا زيج فلكى انتفع به وبكتاباته الفلكية ألفونس العاشر وعلماؤه. ومن تلاميذ مسلمة ابنُ الصفّار[٣] أحمد بن عبدالله الغافقى، وله زيج جيد ورسالة فى العمل بالأسطرلاب، وكان يعلِّم فى قرطبة علوم العدد والهندسة والنجوم، وهاجر منها - زمن الفتنة فى أوائل القرن الخامس الهجرى - إلى دانية لعهد صاحبها مجاهد العامرى وظل بها إلى وفاته سنة ٤٢٤. ومن تلاميذ مسلمة أيضا الكرمانى[٤] عمرو بن عبدالرحمن المتوفى سنة ٤٥٨ عن تسعين

---

(١) انظر فى مسلمة المجريطى طبقات الأمم لصاعد (طبع مطبعة السعادة بالقاهرة) ص١٠٧ وابن أبى أصيبعة (نشر مكتبة الحياة ببيروت) ص ٤٨٢ وتاريخ الفكر الأندلسى لبالنثيا (ترجمة د. حسين مؤنس نشر مكتبة النهضة) ص ٤٤٨ والعلم عند العرب لألدوميلى (ترجمة د. عبد الحليم النجار) ص٣٥١ وفى مواضع مختلفة (انظر الفهرس) وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٣٢٣/٤.

(٢) راجع طبقات صاعد ص١٠٧ وابن أبى أصيبعة ص٤٨٣ وبالنثيا ص٤٤٩ وألدوميلى ص٣٥١.

(٣) انظر فى ابن الصفار طبقات صاعد ص١٠٨ وابن أبى أصيبعة ص٤٨٤ وبالنثيا ص٤٥٠ وألدوميلى ص٣٥١ وبروكلمان ٢٢٧/٤.

(٤) راجع فى الكرمانى طبقات صاعد ص١٠٩ وابن أبى أصيبعة ص٤٨٤ وبالنثيا ص٤٥٥ وألدوميلى ص ٣٥١ وبروكلمان ٢٢٨/٤.

عاما وقد رحل إلى المشرق وجلب معه - لأول مرة - إلى الأندلس - رسائل إخوان الصفا. واستقر بسرقسطة عند بنى هود فى رعاية المقتدر بالله بن هود أميرها (٤٣٨ - ٤٧٤ هـ) وكان يشغف بالرياضيات والفلك والفلسفة. وخلفه ابنه يوسف المؤتمن إلى أن توفى سنة ٤٧٨ وكان يكبُّ على الرياضيات وله فيها كتاب المناظر. وله أيضا كتاب الاستهلال فى الفلك[١].

ولعل فى التلامذة السابقين لمسلمة المجريطى ما يدل من بعض الوجوه على أن أمراء الطوائف كانوا يأخذون أنفسهم بتشجيع العلماء، وكانت منافسة حميدة بينهم، ولايلبث أن يظهر فى عصرهم عَلَمُ الرياضيات الزَّرقالى[٢] القرطبى المتوفى سنة ٤٧٢ وهو من أعاظم علماء الفلك العرب، وله زيج أو جداول فلكية وأسْطرلاب واخترع له أجهزة دقيقة كالزرقالية والصفيحة. وابتكر فى الفلك نظرية جديدة مهمة عن الكواكب السيارة والحركات الدائرية للنجوم، واستخدم ألفونس العاشر وعلماؤه من مؤلفاته رسالة فى العمل بأسطرلاب الصفيحة، وكما تُرْجمت إلى الإسبانية القديمة أو القشتالية ترجمت إلى اللاتينية ومثلها كتابه «طريقة فى عمل أسطرلاب لرصد الكواكب السبعة وأفلاكها».

وينتهى عصر أمراء الطوائف وتدخل الأندلس فى حوزة المرابطين منذ سنة ٥٨٤ للهجرة ويكون للفقهاء سلطان كبير فى عهدهم ولكنه لايعوق نشاط الرياضيين والفلكيين وغيرهم من أصحاب علوم الأوائل والفلسفة. ويظل المرابطون فى الأندلس حتى أواخر العقد الرابع من القرن السادس الهجرى ويلمع فى عصرهم اسم جابر[٣] بن أفلح الإشبيلى وله كتاب فى حساب المثلثات، عرضها فيه بطريقة مبتكرة، وأهم منه كتابه فى علم النجوم الذى سماه إصلاح المجسطى، وفيه عرض ملاحظات دقيقة عن منازل الشمس وحركات الكواكب، وهو أحد الكتب التى تعد بالعشرات مما ترجمه إلى اللاتينية جيرار دى كريمونا المتوفى بطليطلة سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م. وتخلف دولة الموحدين دولة المرابطين فى الأندلس منذ العقد الخامس فى القرن السادس الهجرى، ويتألق فى عهدهم بالنصف الثانى من القرن اسم عالم رياضى إشبيلى عربى يُعَدّ فى طليعة الرياضيين

---

(١) تاريخ ابن خلدون ١٦٣/٤ وبالنثيا ص ٤٥٥. وعاش فى بلاط بنى هود من تلامذة مسلمة المجريطى ابن البغونش انظر فيه طبقات صاعد ص١٢٧ وابن أبى أصيبعة ص٤٩٥ وبالنثيا ص٤٥٣.

(٢) انظر الزرقالى فى طبقات صاعد ص١١٧ وبالنثيا ص٤٥١ وألدوميلى ص ٣٥٩ (انظر الفهرس).

(٣) انظر فى جابر بالنثيا ص٤٥٦ وألدوميلى ص ٣٨٣.

العالميين. ونقصد البِطْرَوجي[1] أبا إسحق نور الدين (من أهل النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادى) وأصله من بطروج قرية كبيرة بقرب قرطبة. وترجع شهرته وأهميته إلى كتابه الفلكى فى علم الهيئة، إذ قوّض فيه نظرية بطليموس فى كتابه المجسطى عن الكواكب السيارة قائلا إنها تتحرك فى مدارات إهليليجية أو بيضاوية حول الشمس، وتُرْجِم هذا الكتاب الفلكى سريعا إلى اللاتينية ميشيل سكوت حين نزل طليطلة واطّلع عليه حوالى سنة ٦١٤ هـ/١٢١٧م وبذلك أدخل نظرية البطروجى الفلكية مبكرا إلى العالم الغربى وترجمها إلى العبرية موسى بن طِبُّون سنة ٦٥٧ هـ/١٢٥٩م ونقلها عن العبرية إلى اللاتينية قالينيموس بن داود سنة ٩٣٥ هـ/١٥٢٩ ونشرت ترجمته فى البندقية سنة ٩٣٧ هـ/١٥٣١م. وبدون ريب اطلع كبلر[2] الألمانى (١٥٧١ - ١٦٣٠م) على تلك النظرية الفلكية وصاغ منها نظريته الفلكية التى استخرج منها نيوتن قانون الجاذبية، وبذلك عُدَّ كبلر أبًا لعلم الفلك الحديث، وهو ليس أباه الشرعى، فأبوه الشرعى الحقيقى هو البِطْرُوجى الإشبيلى العربى. وتوقف هذا النشاط فى الدراسات الفلكية بإشبيلية منذ سقطت فى يد فرناند ملك القشتاليين سنة ٦٤٦ هـ/١٢٤٨م.

ولم تسقط إشبيلية وحدها فى أيدى المسيحيين الشماليين من الإسبان بل سقطت قرطبة وغيرها من مدن كثيرة فى الأندلس، وأخذ النشاط فى علوم الأوائل ينحسر عن أكثر تلك المدن وينحاز إلى إمارة غرناطة التى ظلت للعرب فى الجنوب نحو قرنين ونصف وقد هاجر إليها من مدينة مرسية الرُّقوطى[3] محمد بن أحمد وتوفى بها سنة ٧٤٤ هـ/١٣٤٤ م وكان قد اشتهر بحذقه بالرياضيات فى مسقط رأسه وتوافد عليه الطلاب من كل ملة، وسمع به أمير غرناطة محمد بن يوسف بن الأحمر المعروف باسم الأمير محمد الفقيه فاستدعاه لتدريس الرياضيات للطلاب فى حاضرته، ولبّاه سريعا. ويختتم الرياضيين الأندلسيين فى نهاية القرن التاسع الهجرى القَلَصادى[4] على بن محمد القرشى وقد بارح غرناطة قبيل سقوطها إلى بلاد المغرب وتوفى ببجاية سنة ٨٩١ هـ/١٤٨٦م وظلت كتبه تتدارس فى المغرب طويلا وخاصة كتابه كشف الجلباب عن علم الحساب.

---

(١) راجع فى البطروجى ابن أبى أصيبعة ص ٤٨٢ وبالنثيا ص ٤٥٦ وألدوميلى ص ٣٨٣ ومابعدها.
(٢) راجع بالنثيا ص ٥٣٥.
(٣) انظر فى الرقوطى بالنثيا ص ٤٥٧ والاحاطة ٦٧/٣ وما بعدها.
(٤) راجع فى القلصادى ترجمة واسعة فى نفح الطيب ٦٩٢/٢ وانظر الضوء اللامع للسخاوى ١٤/٥ وبالنثيا ص ٤٥٧ ومابعدها وألدوميلى ص ٤١٢. ومقدمة رحلته المطبوعة بتونس بتحقيق الأستاذ محمد أبو الأجفان.

وازدهر الطب فى الأندلس - مثل علوم الرياضة والفلك - ويقول ابن جلجل إنه لم يكن للنصارى الإسبان بَصَرٌ بالطب ولا بالهندسة والفلسفة حتى عهد عبد الرحمن الأوسط[١] (٢٠٦ - ٢٣٨) ويمكن أن نعمم ذلك فى الأندلسيين بعامة، كما مرَّ بنا آنفا، فإنهم انتظروا فى ذلك كله حتى جلب لهم هذا الأمير علوم الأوائل من بغداد والمشرق. وكان أول من اشتهر ببراعته فى الطب لعهد ابنه الأمير محمد (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) طبيب يسمى حمدين[٢] بن أبان وكان - كما يقول ابن جلجل - طبيبا حاذقا، ووفد على قرطبة حينئذ طبيب من المشرق يسمى الحرانى[٣] اشتهر بدواء لأوجاع الجوف سماه المغيث، ويذكر ابن جلجل فى عهد الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) طبيبا يسمى إسحق وآخر يسمى ابن ملوكة[٤]. ثم أخذ علم الطب فى الازدهار لعهد عبدالرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) إذ كثر دخول الكتب الطبية من المشرق إلى الأندلس، ومن الأطباء الذين اشتهروا فى صدر دولته يحيى[٥] بن إسحق الطبيب السالف، وكان يعالج بنات الناصر وجواريه، وله فى الطب كتاب فى خمسة أسفار. ومن أطباء العيون حينئذ سليمان[٦] بن باج، وكان يعاصره سعيد[٧] بن عبدالرحمن ابن أخى عبدربه صاحب كتاب العقد الفريد، توفى سنة ٣٤٢ وكان حاذقا فى علاج الحميات، وله كتاب فى الصيدلة. ومن الأطباء لعصر المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) أحمد[٨] بن يونس وأخوه عمر وكانا قد رحلا إلى المشرق سنة ٣٤٠ وتتلمذا لثابت بن سنان بن قرة الطبيب المشهور ببغداد وقرآ عليه كتاب جالينوس، واختلفا إلى ابن وصيف الحرانى وأخذا عنه علاج أمراض العيون، وعادا إلى قرطبة سنة ٣٥١ فاستخلصهما المستنصر لنفسه، وتوفى عمر، وظل المستنصر حفيا بأحمد وأسكنه قصره بمدينة الزهراء وكان ماهرا فى علاج أمراض

---

(١) طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل ص ٩٢.

(٢) انظر فيه ابن جلجل ص٩٣ وبالنثيا ص ٤٦١.

(٣) انظر فى الحرانى ابن جلجل ص٩٤ وابن أبى أصيبعة ص٤٨٦.

(٤) راجع فى ابن ملوكة وإسحق ابن جلجل ص٩٧ وابن أبى أصيبعة ص٤٨٦ ويقول ابن جلجل كان على باب دار ابن ملوكة ثلاثين كرسيا لقعود الناس.

(٥) انظر فى يحيى بن اسحق ابن جلجل ص ١٠٠ وابن أبى أصيبعة ص ٤٨٨.

(٦) راجع فى ابن باج ابن جلجل ص ١٠٢ وابن أبى أصيبعة ص ٤٨٩

(٧) انظر فى سعيد ابن جلجل ص١٠٤ وابن أبى أصيبعة ص٤٨٩ والمغرب لابن سعيد ١٢٠/١ والتكملة لابن الأبار رقم ١١٩٥ وبالنثيا ص ٤٦٢.

(٨) راجع فى أحمد وأخيه عمر ابن جلجل ص١١٢ وابن أبى أصيبعة ص٤٨٧ وبالنثيا ص ٤٦٤

العيون كما كان صيدلانيا حاذقا. وكان يعاصره محمد[١] بن عبدون الجبلى وكان قد رحل إلى المشرق سنة ٣٤٧ وأقام بالفسطاط ودبَّر مارستانها وعاد إلى قرطبة سنة ٣٦٠ وخدم المستنصر وابنه المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ) وحاجبه المنصور بن أبى عامر.

وتتوَّج النهضة الطبية حينئذ بالزهراوى[٢] أبى القاسم خلف بن عباس، وهو منسوب إلى الزهراء مدينة الناصر التى بناها غربى قرطبة، وقد خدمه - فيما يبدو - وخدم ابنه المستنصر وحفيده المؤيد وتوفى سنة ٤٠٤ هـ/١٠١٣م وقد ألف موسوعة طبية كبيرة فى ثلاثين جزءا، بعنوان كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف، وجعلها أقساما ثلاثة: قسما فى الطب العام والأمراض وقسما فى الصيدلة وقسما فى الجراحة، وعُنى جيراردى الكريمونى فى القرن الثانى عشر بترجمة قسم الجراحة من الكتاب إلى اللاتينية وترجم أجزاء أخرى منه. وعكف آخرون بعده على ترجمة بعض أجزائه. وتمت ترجمة قسم الصيدلة إلى اللاتينية سنة ١٢٢٨. وأخذت هذه الترجمات تنتشر فى البلدان الغربية، حتى إذا ظهرت المطبعة فى القرن الخامس عشر اتسع انتشار الكتاب فى الغرب، وظل يدرس فى الجامعات الأوربية من القرن الثانى عشر إلى القرن السابع عشر وخاصة قسم الجراحة منه. إذ ظل الجراحون الأوربيون يعدُّون الزهراوى إمامهم فى الجراحة سواء فى جراحة العظام أو فى جراحة الحصاة فى المثانة والمهبل والشق عنها وتفتيتها وعمليات الفتق والدوالى وأمراض النساء والعيون وطب الأسنان وزرعها. وضمَّن هذا القسم تصوير آلات الجراحة، وهى تتوالى عنده بالعشرات مع بيان كيفية استعمالها. وهو بكل ذلك يعد أبا للجراحة العالمية، كما يعد البِطْرَوْجى السالف الذكر أبًا لعلم الفلك العالمى.

ويظل علم الطب فى الأندلس مزدهرا فى عصر أمراء الطوائف وكذلك فى عصر المرابطين والموحدين، ويُتوارث فى بعض البيوت مثل بيت بنى زهر بإشبيليه، وقد أنجب سلسلة من الأطباء المشهورين فى القرنين الخامس والسادس للهجرة يتقدمهم عبد الملك[٣] جدهم وكان ماهرا فى صناعة الطب، وطارت شهرته بها فى عصر أمراء

---

(١) انظر فى ابن عبدون ابن جلجل ص ١١٥ وابن أبى أصيبعة ص ٤٩٢.

(٢) راجع فى الزهراوى الصلة لابن بشكوال ٣٦٨ وابن أبى أصيبعة ص ٥٠١ وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٤/٣٠٠ ومابعدها وبالنثيا ص ٤٦٥ وألدومييلى ص ٣٥٣، ٣٥٥.

(٣) انظر، فى طبقات الأمم لصاعد ص ١٢٩ والتكملة رقم ١٦٩١ وابن أبى أصيبعة ص ٥١٧ والذيل والتكملة للمراكشى تحقيق د. إحسان عباس ٥/١/٣٧.

الطوائف إلى أن توفى سنة ٤٦٧ للهجرة، وعنه تلقن الطب ابنه أبو العلاء[1] طبيب المعتمد بن عباد ثم يوسف بن تاشفين أمير المرابطين وابنه على إلى أن توفى سنة ٥٢٥ للهجرة، وله فى الطب تصانيف متعددة، ذكرها ابن أبى أصيبعة، وقال إن أمير المرابطين على بن يوسف بن تاشفين أمر بجمعها ونسخها فى السنة التالية لوفاته، ومن أهمها كتاب التذكرة (ويسمى أحيانا باسم كتاب النكت) وقد نشره جبرييل كولان بالعربية والفرنسية فى باريس سنة ١٩١١ وعليه تتلمذ ابنه عبد الملك[2] طبيب المرابطين ثم الموحدين إلى أن توفى سنة ٥٥٧ للهجرة ولم يكن بزمانه من يماثله فى صناعة الطب واشتغل الأطباء بمصنفاته وقد بقى منها ثلاثة إلى اليوم، هى: كتاب الاقتصاد فى إصلاح الأنفس والأجساد وهو فى الطب الباطنى، وكتاب الأغذية والأدوية وهو فى الصيدلة والأدوية المفردة، وكتاب التيسير، وقد كتبه تلبية لطلب من ابن رشد، وهو فى الطب العملى، وترجم إلى اللاتينية، وطبعت الترجمة فى البندقية سنة ١٤٩٠ للميلاد، ويقول ألدوميلى: «يُعَد عبد الملك بن زهر أعظم طبيب عربى عملى (كلينيكى) بعد الرازى». وأخذ عنه صناعة الطب ابنه أبو بكر بن زهر الوشاح والشاعر المشهور، الذى انفرد بالإمامة فى الطب لزمنه إلى أن توفى سنة ٥٩٥ ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع أن أخته - الملقبة باسم أم عمرو - كانت طبيبة ماهرة، وكانت تعالج نساء الموحدين. واتصل الاهتمام بصناعة الطب فى هذا البيت، فكان عبد الله[3] بن أبى بكر بن زهر طبيبا حاذقا وخدم الناصر الموحدى (٥٩٥ - ٦١٠ هـ) إلى أن توفى سنة ٦٠٢ وورث صناعة الطب عنه ابنه أبو العلاء. واشتهر لأبى الوليد بن رشد فيلسوف الأندلس المتوفى سنة ٥٩٥ كتاب الكليات فى الطب، ويعرض فيه التشريح ووظائف الأعضاء، كما يعرض الأمراض وأعراضها والأدوية والأغذية والعلاج وحفظ الصحة، وقد ترجم إلى اللاتينية فى منتصف القرن الثالث عشر وطبعت الترجمة سنة ١٤٨٢ وتكررت بعد ذلك طبعاته مع كتب أبى العلاء زهر، وتلقَّن صناعة الطب عن ابن رشد ابنه أبو محمد[4] عبد الله وخدم بها الناصر

---

(١) راجع أبا العلاء فى التكملة رقم ٢٥٥ وابن أبى أصيبعة ص٥١٧ والمطرب لابن دحية (طبع القاهرة) ص٢٠٣ وفيه أنه تطبب زمانا طويلا بالمشرق وتولى رياسة الطب ببغداد ثم بمصر ثم بالقيروان وعاد إلى الأندلس وبذَّ بها أهل زمانه.

(٢) انظر فى عبد الملك بن أبى العلاء بن زهر ابن أبى أصيبعة ص ٥١٩ والتكملة لابن الأبار (طبعة كوديرا بمدريد) رقم ١٧١٧ وبالنثيا ص ٤٧١ وألدوميلى ص ٣٩٧ وما بعدها وكتاب كولان عن حياته ومؤلفاته.

(٣) راجع ابن أبى أصيبعة فى ترجمة أبيه ص ٥٢٩.

(٤) انظر أيضا ابن أبى أصيبعة بعد ترجمة أبيه ص ٥٣٣.

الموحدى. وتظل عناية الأندلسيين بالطب متصلة زمن بنى الأحمر بغرناطة، ويؤلف ابن خاتمة المتوفى سنة ٧٧٠ رسالة فى وصف وباء الطاعون الذى اجتاح مدينة المرية سنتى ٧٤٩، ٧٥٠ يصف فيها العدوى وأسبابها ومرض الطاعون وصفا طبيا. ويؤلف معاصره لسان الدين بن الخطيب فى الطب كتابا فى جزءين عن الأمراض والحميات والجراحة.

وكان طبيعيا أن ينشط علم الأدوية أو الصيدلة مع علم الطب إذ هما صنوان، غير أن نشاطه يتسع منذ ترجمة كتاب ديوسقوريدس فى الحشائش والأدوية لعهد عبد الرحمن الناصر، على نحو ما مرَّ بنا، وكان له تأثير بعيد فى نهضة علم الصيدلة والأدوية بالأندلس. ومر بنا ذكر أحمد بن يونس طبيب العيون لعهد المستنصر، وكان حاذقا فى صناعة الأدوية والأشربة، ويقول ابن جلجل فى ترجمته إنه تولى خزانة الطب فى قصر المستنصر، ورتّب لها اثنى عشر صَبِيًّا صقالبة طبَّاخين للأشربة صانعين للمعجونات. ونلتقى فى عصر المؤيد وحاجبه المنصور بن أبى عامر بصيدلى يسمى عبد الرحمن بن إسحق بن الهيثم، إذ ذكر له ابن أبى أصيبعة[1] كتابا يسمى كتاب الكمال والتمام فى الأدوية المسهلة والمقيِّئة. وأعظم صيادلة القرن الرابع أبو داود سليمان بن حسان المعروف باسم ابن جلجل[2] مؤلف طبقات الأطباء والحكماء الذى يتردد ذكره فى الهوامش، وأهم كتبه تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديوسقوريدس، وقد فسرها فى الكتاب وأفصح عن مضمونها، وله مقالة فى ذكر أدوية لم يذكرها ديوسقوريدس فى كتابه مما يستعمل فى صناعة الطب، ومقالة ثانية فى أدوية الترياق. وكان يعاصره حامد بن[3] سَمَجون وله كتاب فى الأدوية المفردة والعقاقير حظى بغير قليل من الشهرة. واطرد نشاط الصيادلة فى عصر أمراء الطوائف، وأهم صيدلى فى عصرهم ابن[4] وافد عبد الرحمن بن محمد المتوفى سنة ٤٦٦ للهجرة، وفيه يقول صاعد: «تمهّر فى علم الأدوية المفردة حتى ضبط منها ما لم يضبطه أحد فى عصره، وألف فيها كتابا جليلا لا نظير له، جمع فيه ما تضمنه كتاب ديوسقوريدس وكتاب جالينوس المؤلفان فى الأدوية المفردة ورتبه أحسن ترتيب، وله

(١) راجع ابن أبى أصيبعة ص ٤٩٣.

(٢) انظر فى ابن جلجل طبقات الأمم لصاعد وابن أبى أصيبعة ص ٤٩٣ وجذوة المقتبس للحميدى (طبع القاهرة) ص ٢٠٨ وبغية الملتمس للضبى (طبع مدريد) ص ٢٨٥ وبالنثيا ص ٤٦٥ وألدوميلى ص ٣٥٤.

(٣) انظر فى ابن سمجون ابن أبى أصيبعة ص ٥٠٠ وبالنثيا ص ٤٦٧

(٤) راجع فى ابن وافد طبقات الأمم لصاعد ص ١٢٨ وابن أبى أصيبعة ص ٤٩٦ وبالنثيا ص ٤٦٧.

نوادر محفوظة فى الإبراء من العلل الصعبة بأيسر العلاج وأقربه. وقد استوطن طليطلة، ووزر فيها - حتى وفاته - لأميرها المأمون بن ذى النون. وتَسْند كتبَ الصيدلة حينئذ كتب أُلفت فى الفلاحة والنباتات والأشجار، من أهمها كتاب المقنع فى الفلاحة لابن[١] حجاج الإشبيلى المؤلف سنة ٤٦٧ وقد نشره مجمع اللغة العربية الأردنى. وهو يفيض فى بيان الزراعة والغراسة لمختلف البقول والفواكه والثمار وخاصة الزيتون مع بيان معالجة الافات والامراض، وعلى شاكلة هذا الكتاب فى الفلاحة كتاب لأبى عبيد البكرى الجغرافى المتوفى سنة ٤٨٧ وهو فى نباتات الأندلس وأشجارها، وكتاب لابن بصال المتوفى سنة ٤٩٩ بعنوان: «القصد والبيان».

ونمضى إلى القرن السادس الهجرى، ونلتقى فيه بصيدلى كبير هو أحمد[٢] بن محمد الغافقى المتوفى سنة ٥٥٩ للهجرة صاحب كتاب الأدوية المفردة فى العقاقير والأعشاب، وسقط الكتاب من يد الزمن، غير أن ابن البيطار احتفظ فى كتبه بنحو مائتى نقل عنه، وأيضا فإن ابن العبرى المتوفى سنة ٦٨٤ كان قد وضع له مختصرا ونشره جورج صبحى وماكس مايرهوف بالقاهرة. ونلتقى بعده بابن[٣] العوام أبى زكريا يحيى بن محمد صاحب كتاب الفلاحة المنشور بمدريد، وهو موسوعة تاريخية نفيسة فى علم النبات، وقد عدَّد منه ٥٨٥ نوعا منها أكثر من خمسين من الأشجار المثمرة. وممن تعمقوا فى دراسة النباتات فى الكتب الإغريقية والعربية أحمد بن محمد بن مفرج المعروف بلقبه ابن الرومية[٤] الإشبيلى المتوفى سنة ٦٣٧ وقد نزل مصر فى طريقه إلى الحج سنة ٦١٣ وتجوَّل فى الشام والعراق وعاد إلى موطنه، وله تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديوسقوريدس، ومقالة فى تركيب الأدوية، وأعظم ما أهداه إلى الصيدلة تلميذه ابن البيطار[٥] أهم صيادلة العرب أندلسيين وغير أندلسيين، وهو ضياء الدين عبدالله بن أحمد، وقد تجول فى نواحى المغرب والشام وآسيا الصغرى وبلاد اليونان والروم، واستقر بالقاهرة وجعله السلطان الكامل

---

(١) انظر ابن حجاج فى المغرب ١/٢٥٦ وبالنثيا ص ٤٦٨ ومقدمة كتابه المقنع فى الفلاحة.

(٢) راجع فى الغافقى ابن أبى أصيبعة ص ٥٠٠ وبالنثيا ص ٤٧٢ وألدوميلى ص ٤٠١.

(٣) راجع فى ابن العوام بالنثيا ص ٤٧٥ وألدوميلى ص ٤٠١ وأعمال مؤتمر المستشرقين فى استوكهلم (١٨٨٩م) ٢/٢١٥ - ٢٥٧ ودائرة المعارف الإسلامية.

(٤) انظر فى ابن الرومية بقية التكملة لابن الأبار طبع الجزائر رقم ٣٠٤ وابن أبى أصيبعة ص ٥٣٨ وبالنثيا ص ٤٧٨ وألدوميلى ص ٤١٤.

(٥) راجع فى ابن البيطار ابن أبى أصيبعة ص ٦٠١ وفوات الوفيات لابن شاكر (تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد) ١/٤٣٤ وبالنثيا ص ٤٧٨ وألدوميلى ص ٤١٤.

رئيسا على العشّابين بمصر، وظل يرأسهم فى عهد ابنه السلطان الصالح نجم الدين أيوب إلى أن توفى بدمشق سنة ٦٤٦ ويقول ابن أبى أصيبعة عنه: أوحد زمنه فى معرفة النبات ومواضعه ونعته وماهيته. وأهم كتبه كتابان ألفهما باسم السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وهما: كتاب «الجامع لمفردات الأغذية والأدوية» المطبوع ببولاق فى أربعة مجلدات وهو معجم أبجدى للأدوية والأغذية يضم أكثر من ٢٣٣٠ مادة جمع منها كل ما ذكره السابقون من اليونان والعرب عن الأدوية وزاد عليهم ثلاثمائة دواء لم يذكرها أحد قبله. ويذكر أسماء الأدوية باليونانية، ويضيف كثيرا أسماءها بالفارسية والبربرية والإسبانية الدارجة. والكتاب الثانى المغنى فى الأدوية، وفيه يتحدث عن الأعشاب من حيث العلاج بها فقط لا من حيث التاريخ الطبيعى. وأخذت كتبه تدرس بعده فى العالم الإسلامى دراسة واسعة، وقد ترجم كتاب الجامع إلى الفرنسية والألمانية، وهو بحق خاتم صيادلة العرب العظام. وربما كان أهم صيدلى فى الأندلس بعده محمد بن[1] السراج الغرناطى المتوفى سنة ٧٢٩ للهجرة، وقد ترك موطنه إلى مراكش ووضع فى الأدوية والأعشاب كتبا كثيرة، سقطت جميعها من يد الزمن.

(ب) الفلسفة

لم نتحدث حتى الآن عن الفلسفة، وقد تأخرت العناية بها فى الأندلس، وأول شخص تضاف إليه محمد بن[2] عبد الله بن مسرة المولود بقرطبة سنة ٢٦٩ للهجرة، ويبدو أنه اعتنق مبكرا بعض الآراء الفلسفية والاعتزالية مما جعل بعض الفقهاء يتهمه فى عقيدته، وكأنما خشى على نفسه، فرحل فى سنة ٢٩٩ إلى بيت الله الحرام، لأداء فريضة الحج، واختَلف فى رحلته إلى حلقات المتكلمين ومجالس المتفلسفة والمتصوفة، وعاد إلى موطنه، فاعتزل فى ضيعة له بقرية من قرى قرطبة، واجتذب إليه كثيرين عاشوا معه فى عزلته، وآمنوا بما كان يردده من آراء تتصل بالاعتزال والفلسفة والتصوف، أما الاعتزال فقد كان يردد فيه فكرة أن القرآن مخلوق وفكرة استطاعة الإنسان وحريته فى إرادته ووجوب إنفاذ الوعيد على الله. وأما الفلسفة فكان يردد فيها بعض مبادئ المدرسة

---

(١) انظر فى ابن السراج بالنتيا ص ٤٨٢.

(٢) راجع فى ابن مسرة تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى (طبع القاهرة) رقم ١٢٠٢ وأخبار الحكماء للقفطى (طبع ليبزج) ص ١٦ والجزء الخامس من المقتبس لابن حيان ص ٢٠ وما بعدها وكتاب الناصر فى التنديد بمذهبه ص ٢٥ والفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم (طبع القاهرة) ١٩٨/٤ وبالنتيا ص ٣٢٦.

الأفلاطونية الحديثة المنسوبة خطأ إلى إنباذوقليس والقائلة بوجود مادة روحانية تشترك فيها جميع الكائنات ما عدا الذات الإلهية، وأنها أول صورة للعالم العقلى المؤلف من الجواهر الخمسة. وأما التصوف فكان يردد فيه أفكار أمثال ذى النون المصرى الذى كان يتحدث عن الأحوال والمقامات وعلم الصوفية الباطن، وألف فى ذلك كله كتابين هما التبصرة والحروف. وكان يقدح فى أحاديث الشفاعة ونزول آيات القرآن. وكان يَنْشُرُ دعوته بالتقشف والورع والنسك وكان تلامذته يتناقلون آراءه سرا. ويبدو أن أتباعه أخذوا يتكاثرون بعد وفاته سنة ٣١٩ ولا نصل إلى سنة ٣٤٥ حتى نجد عبد الرحمن الناصر يأمر بأن يُتْلَى على الناس فى قرطبة والبلدان الأندلسية المختلفة كتاب توضح فيه نحلتهم وأنهم خرجوا على الجماعة بمعتقداتهم وخاصة الاعتزالية وأنهم يستحلون دماء المسلمين مع تحريف التأويل لآى القرآن العظيم وأحاديث الرسول الأمين، وأَمَرَ من يتولون الأحكام بتتبعهم واستتابتهم. ويعودون إلى الظهور فى عهد ابنه المستنصر لما شاع لزمنه من التسامح الفكرى حتى إذا توفى وولى ابنه المؤيد وأصبح زمام الحكم بيد المنصور بن أبى عامر حاجبه - وكان يستشعر الحمية للدين - أمر قاضى قرطبة محمد بن يبقى بالقبض على كل من يؤمن بتعاليم ابن مسرة، فأخذ يتعقبهم وتاب على يده كثيرون منهم. وألف ابن يبقى ضد هذه التعاليم كتابا ينقضها، وحاكاه فى ذلك الزبيدى اللغوى. ويظل لابن مسرة أتباع مستترون. ويذكر ابن حزم فى كتابه الفصل - كما مر بنا - داعيا كبيرا لتلك التعاليم كان يعاصره فى القرن الخامس الهجرى، وكان يرى أن البعث إنما يكون بالأرواح لا بالأجساد وبمجرد الموت تحاسب الروح فإما إلى الجنة وإما إلى النار، واسمه إسماعيل بن عبد الله الرعينى، وكان يقول إن العالم لا يفنى أبدا، إلى غير ذلك من آراء جعلت أتباع المذهب يبرءون منه[1]. وظلت تعاليم ابن مسرة حية فى الأندلس طويلا، إذ هيأت - من بعض الوجوه - لاعتناق بعض الأفراد مذهب الاعتزال وعناية أفراد آخرين بالتصوف إلى أن انتهى - فيما بعد - إلى ابن عربى، وأيضا عناية كثيرين بالفلسفة، وإن كانوا لم يستمروا فى اتجاهه أو بعبارة أخرى فى اتجاه المدرسة الأفلاطونية الحديثة، فقد أخذوا يتجهون إلى المدرسة المشائية وفيلسوفها الكبير أرسطاليس.

وكثر هذا الاتجاه فى عهد أمراء الطوائف، وكان قد كثر دخول الكتب الفلسفية إلى

---

(١) الفصل ١٩٩/٤.

الأندلس، وكثر معها الإقبال على الدراسات المنطقية، ويشير صاعد بن أحمد الطليطلي المتوفى سنة ٤٦٢ في كتابه طبقات الأمم مرارا إلى من أكبوا على دراسة المنطق من مثل أبي الوليد الوقشي الطليطلي وابن الجلاب السرقسطي وابن سيده المرسي، وفيه يقول: «عني بعلوم المنطق عناية طويلة وألف فيه تأليفا كبيرا مبسوطا». وعلى الرغم مما يقال من أن عصر المرابطين كان عصر الفقهاء المحافظين نجد الدراسات المنطقية والفلسفية تنشط فيه ويشتهر بها غير منطقي ومتفلسف، ويلقانا ممن عكفوا على دراسة المنطق أبو الصلت أمية[١] بن عبد العزيز الداني المتوفى سنة ٥٢٩ وله في المنطق كتاب تقويم الذهن المنشور بمدريد مع ترجمة إسبانية. ويلقانا من المتفلسفة ابن[٢] السيد البطليوسي عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٥٢١ وهو عالم لغوي وله في الفلسفة رسالة مطبوعة في القاهرة بعنوان: «كتاب الحدائق في المطالب الفلسفية العويصة» وفيه يتحدث عن ترتيب الموجودات عن السبب الأول وأن صفات الله - جل شأنه - لا يصح أن يوصف بها إلا عن طريق السلب وأن نفس الإنسان الناطقة لا تفنى - بل تبقى - بعد موته. ويذكر ابن السيد في الكتاب بعض أقوال لأرسطو وزينون وأفلاطون وغيرهم من فلاسفة اليونان، وقد أورد فيه لأفلاطون فقرا من محاورة تيماوس ونقل بالنثيا عن آسين بلاسيوس أنها لا تتفق مع النص اليوناني المعروف لتلك المحاورة.

وأهم من ابن السيد معاصره ابن[٣] باجة المتوفى سنة ٥٣٣ للهجرة، وهو أول فيلسوف أندلسي بالمعنى الدقيق لكلمة فيلسوف، وقد انحدر من أسرة في سرقسطة شمالي الأندلس كانت تحترف الصياغة، ولا تذكر المصادر التي عنيت بالترجمة له شيئا عن نشأته ودراسته، ويبدو أنه أكبَّ مبكرا على دراسة الفلسفة وعلوم الأوائل، كما أكبَّ على علم الألحان والغناء، وبلغ فيه كما بلغ في الفلسفة وعلم الأوائل مبلغا عظيما. وكان شاعرا مبدعا كما كان ناثرا بليغا، مما جعل أبا بكر[٤] بن تِيفَلْوِيت حين حكم سرقسطة من قبل

---

(١) انظر في مصادر أمية ترجمته في الفصل الرابع.

(٢) راجع في ابن السيد الصلة لابن بشكوال (طبع مدريد ١٨٨٢) رقم ٦٣٩ والمغرب ١/٣٨٥ وقلائد العقيان لابن خاقان ص ١٩٣ وابن خلكان ٣/٩٦ وأزهار الرياض ١/٥٦، ٣/١٠١ وبالنثيا ص ٣٣٤.

(٣) انظر في ابن باجة القفطي ص ٤٠٦ وابن أبي أصيبعة ص ٥١٥ والمغرب ٢/١١٩ والفتح في القلائد ص ٣٠٠ وابن خلكان ٤/٤٢٩ ونفح الطيب (لمحقيق د. إحسان عباس) ٧/٢٧ والوافي بالوفيات للصفدي (طبع إستانبول) ٢/٢٤٠ والخريدة للعماد الأصبهاني (قسم شعراء المغرب والأندلس) طبع الدار التونسية ٢/٣٣٢ وبالنثيا ص ٣٣٥.

(٤) انظر ترجمته في الإحاطة ١/٥٠٤.

المرابطين لأواخر سنة ٥٠٣ للهجرة يتخذه كاتبا له ووزيرا، حتى إذا توفى هذا الحاكم سنة ٥١٠ أكثر من مراثيه وتغنى بها فى ألحان مبكية كما يقول ابن سعيد، ولم يطب له فيها المقام بعده، فهاجر منها إلى المرية ثم إلى غرناطة، وظل بها فترة ثم رحل عنها إلى فاس عاصمة المرابطين فى المغرب، وقيل بل إلى جيان وانقطع للدرس والتأليف حتى وفاته سنة ٥٣٣. وكان من أهم ما انقطع له الفلسفة المشائية وأستاذها أرسطو وتعمقها أدق تعمق حتى ليقول ابن أبى أصيبعة: إذا قارنت أقاويله فيها بأقاويل ابن سينا بان لك الرجحان فى أقاويله، وقد عنى عناية واسعة بشرح كثير من أعمال أرسطو، فشرح كتابه السماع الطبيعى أو سمع الكيان، وجزءا من كتابه الكون والفساد، والمقالات الأخيرة من كتابه عن الحيوان، وجزءا من كتابه عن النبات. وشرح المنطق للفارابى والأدوية المفردة لجالينوس وأيضا لابن وافد. وله تصانيف فى الرياضيات والهندسة والفلك فاق فيها المتقدمين. وله فى الفلسفة كتاب فى البرهان وكتاب فى النفس وكتاب فى العقل الفعال إلى غير ذلك من كتب لم يبق منها إلا بعض رسائل وإلا كتابه تدبير المتوحد المنشور بمدريد وفيه يتخيل مدينة فاضلة مثالية لا يحتاج أهلها إلى طوائف الأطباء الثلاث: لا أطباء البدن لأن أهلها لا يرتكبون أى رذيلة تسبب لهم المرض، ولا أطباء العدالة لأن أهلها متحابون لا يقع بينهم ما يحتاجون معه إلى قضاة وقضاء، ولا أطباء النفوس لأن أهلها كاملون. ويفيض فى بيان الصور الروحية والعقلية وأن غاية المتدبر اتحاد عقله بالعقل العلوى الفعال حتى يبلغ مرتبة المعرفة العقلية الحقيقية، وبذلك وصَل بين التأمل العقلى وبين عَوْنٍ علوى، محاولا الوَصْل بذلك بين الفلسفة والدين. وخلفه ابن طُفَيْل وابن رشد[١]، فبلغا بالفلسفة الإسلامية فى موطنها الغاية التى ليس وراءها غاية.

وابن طُفَيْل[٢] هو أبو بكر محمد بن عبد الملك - وقيل ابن عبد الله - القيسى، ولد سنة ٥٠٦ للهجرة فى بُرْشانة من أعمال المريَّة، وقيل فى وادى آش من أعمال غرناطة، وقيل بل فى تاجَلة من أعمال جيَّان، وقد أكبَّ على كتب الفلسفة والطب مبكرا، وخاصة كتب ابن باجة أكبر فيلسوف فى زمنه، وتبعه يشرح بعض كتب أرسطو مثل كتابه الآثار العلوية، كما تبعه يؤلف فى الفلسفة مثل كتاب له فى النفس، واشتغل بالطب فى غرناطة

---

(١) انظر فى تلمذة ابن طفيل لابن باجة المعجب للمراكشى (طبع القاهرة) ص ٣١١ وفى تلمذة ابن رشد له ابن أبى أصيبعة فى ترجمة ابن باجة ص ٥١٦.

(٢) راجع فى ابن طفيل المعجب ص ٣١١ وما بعدها والمغرب ٨٥/٢ وتحفة القادم (الموجز - عدد أيلول سنة ١٩٤٧) رقم ٤٣ والإحاطة ٤٧٨/٢ وبالنتياص ٣٤٨ والميتافيزيقا فى فلسفة ابن طفيل للدكتور عاطف العراقى. (طبع دار المعارف).

وببعض الأعمال الإدارية فيها وفى سبتة وطنجة، ثم صار طبيبا لسلطان الموحدين يوسف بن عبد المؤمن، واتخذه مستشارا، فجلب إليه العلماء من جميع الأقطار، وممن جلبه إليه صديقه ابن رشد، وما زال يوسف حفيًّا به إلى أن توفى قبله بقليل فى مراكش سنة ٥٨٠، بينما توفى ابن طفيل سنة ٥٨١ وكانت له فى الطب والفلك مؤلفات سقطت فى يد الزمن، ويقول البطروجى أكبر علماء الفلك الأندلسيين إنه أخذ عنه قوله فى الدوائر الخارجية والدوائر الداخلية. وقد اشتهر فى عصره إلى اليوم بقصته: حى بن طفيل، وسنخصها بحديث مفرد فى الفصل الأخير.

وابن رشد[١] هو أبو الوليد محمد بن أحمد سليل أسرة فقهية قرطبية، وُلد لها فى العقد الثانى من القرن السادس الهجرى، وتولى مثل أبيه وجده القضاء فكان قاضيا فى إشبيلية سنة ٥٦٥ وفى قرطبة سنة ٥٦٧، مما يدل على أنه أكبَّ على دراسة الفقه فى بواكير حياته، وله فيه كتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد وهو منشور بالقاهرة. وكان - ولا يزال - مرجعًا مهما فى الفقه وفتاويه. واهتم بعلوم الأوائل، فدرس الفلك وله فيه رسالة عن حركته وأخرى عن النجوم الثابتة، ودرس الطب وله فيه كتاب الكليات المنشور بتطوان، وتُرْجم فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى إلى اللاتينية وطبع فى البندقية سنة ١٤٨٢ وتُرْجم له أيضا إلى اللاتينية شرح على أرجوزة لابن سينا فى الطب طُبع أيضا فى البندقية بعد كتابه الكليات بسنتين. وله تلخيصات لكتب جالينوس الطبية مثل: كتاب المزاج وكتاب القوى الطبيعية وكتاب العلل والأعراض وكتاب الحميات وكتاب الأدوية المفردة. وشُغف بالفلسفة وعرف فيه ذلك صديقه ابن طفيل، وكانت له حظوة عند السلطان يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٧ - ٥٨٠ هـ) فشكا إليه قلق عبارات أرسطو فى كتبه وحاجتها إلى الشرح والتلخيص، وسأله أن يقوم بذلك، فاعتذر بعلو سنِّه، وأشار عليه أن يطلب ذلك من ابن رشد - وكان قاضى إشبيلية حينذاك - فاستدعاه وطلب إليه أن

---

(١) راجع فى ابن رشد ابن أبى أصيبعة ص ٥٣٠ والمعجب ص ٣١٤ وما بعدها وابن الأبار فى كتابه التكملة رقم ٨٥٣ والوافى بالوفيات للصفدى (طبع إستانبول) ١/١١٤ وابن فرحون فى الديباج المذهب ٢/٢٥٧ والمغرب ١/١٠٤ وابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ٦/١٥٤ وابن العماد فى الشذرات ٤/٣٢٠ وبالنثيا ص ٣٥٣ وتراث الإسلام (طبع لجنة الترجمة والتأليف والنشر بالقاهرة) ص ٣٠٥ وما بعدها وكتاب ابن رشد والرشدية لرينان ومقالة كرادى فو عنه فى دائرة المعارف الإسلامية وراجع كتاب مؤلفات ابن رشد للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (طبع الجزائر) وكتابى د. عاطف العراقى عن النزعة العقلية والمنهج النقدى فى فلسفة ابن رشد. (طبع دار المعرف).

ينهض بهذا العمل فنهض به على خير وجه، وظل حاسدون يسعون ضده عند السلطان يعقوب بن يوسف (٥٨٠ – ٥٩٥ هـ) حتى إذا انتصر فى موقعة الأرَك المشهورة ضد نصارى الإسبان سنة ٥٩١ أخذته الحميَّة للدين فكلف طائفة من الفقهاء ببحث كتبه وهل فيها ما يخالف الدين، ورأوه يقول بقدم العالم بالقوة موفقا بين الفلسفة والدين وأن البعث سيكون بالأجسام كما قال الدين ولكن لا بعينها ولكن بأجسام تشبهها أكثر كمالا، فاتهموه لذلك بالزندقة. وعرف السلطان خطأه فى سنة ٥٩٥، فاستدعاه إلى مراكش لإعلان رضاه عنه، واسترضاه ولم يلبث كل منهما أن لبىَّ نداء ربه.

وقد وضع ابن رشد شروحا مطولة ومتوسطة وموجزة لكثير من مؤلفات أرسطو، ويقول صاحب المعجب: «رأيت له تلخيص كتب أرسطو فى جزء واحد فى نحو مائة وخمسين ورقة لخَّص فيه كتبه: سمع الكيان، والسماء والعالم، والكون والفساد، والآثار العلوية، والحس والمحسوس، ثم لخَّصها وشرح أغراضها فى كتاب مبسوط فى أربعة أجزاء» ويقول بالنثيا إنه وضع شروحا مطولة لكتاب البرهان وكتاب السماع الطبيعى وكتاب السماء والعالم، وكتاب النفس وكتاب ما وراء الطبيعة، ووضع شروحا متوسطة لهذه الكتب، وللمنطق وللكون والفساد والآثار العلوية، وللأخلاق وللحس والمحسوس أو الطبيعيات الصغرى، وللأجزاء التسعة الأخيرة من كتاب الحيوان. وكل هذه الشروح تُرجمت إلى اللاتينية والعبرية وترجمت إليها أيضا مؤلفاته الأصيلة فى الفلسفة وفى مقدمتها تهافت التهافت الذى يرد فيه على الغزالى فى كتابه تهافت الفلاسفة مدافعا بحرارة عن الفلسفة وأرسطاليس. وله شروح على كتابى الشعر والخطابة لأرسطو، وتُرجم إلى اللاتينية أيضا كتاباه: «الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة» و«فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» ومن قوله فيه: «الحكمة (أى الفلسفة) صاحبة الشريعة وأختها الرضيعة وهما مصطحبتان بالطبع ومتحابتان بالجوهر والغريزة، ويقرر ما قاله صديقه ابن طفيل فى قصة حى بن يقظان من أن الفلسفة تخاطب الخاصة والدين يخاطب العامة.

وكان يذهب إلى أن عقول الأفلاك تصدر عن الله، وكل فلك أو كل عقل يحدث الحركة فيما دونه إلى أن نصل إلى العقل الفعال، وفى كل إنسان قبس منه، وإذا ازداد اتصاله به سما إلى حالة الكشف الصوفى. وأدَّته محاولته فى التوفيق بين الدين والفلسفة إلى التأويل فى النصوص الدينية حتى يتاح للإنسان فهم الحقائق العليا. وحاول أن يوفق بين

رأى أرسطو والفلاسفة المشائين بأن العالم قديم ورأى الغزالى وعامة المتكلمين بأنه محدث، فقال إن قدمه إنما هو بالقوة لا بالفعل، ثم وُجِد وتشكَّل فهو قديم ومحدث، وكذلك المادة قديمة ومحدثة. وقال إن الله يعقل الأشياء فى ذاته لا كما نعقلها نحن على وجه كلى أو جزئى، إذ هو علة الموجودات جميعا والمحرك لها من القوة إلى الفعل.

ومنذ أخذ مترجمو ابن رشد إلى اللاتينية: جيرار الكريمونى (١١٨٧ م) وميشيل سكوت الإنجليزى (١٢٣٥ م) وهرمان الألمانى (١٢٧٢ م) يذيعون أعماله أخذت تُدَرَّس فى الجامعات الأوربية بإيطاليا وفرنسا وإسبانيا بينما كانت الكنيسة تقاومها وخاصة رهبان الدومينيكان، وصبَّت الكنيسة لعناتها على سيجر البرابانتى الأستاذ بجامعة باريس وطردته من رحابها فى سنة ١٢٦٦ إذ عدته زنديقا رشديًّا، وعلى الرغم من أن الراهب الدومينيكانى الألمانى ألبرت الكبير وتلميذه الراهب توماس الأكوينى هاجما بعض الآراء والتعاليم المنسوبة إليه خطأ فقد انتفعا أكبر انتفاع بأدلته وبراهينه فى التوفيق بين الفلسفة أو العقل وبين الدين، حتى ليسيران معه فى طريق واحدة متبعين خطاه فيما قرر من وحدانية الله لوحدة العالم وتنزيهه عن كل نقيصة. وظلت فلسفة ابن رشد وتعاليمه وأفكاره تدرس فى الغرب منذ القرن الرابع عشر، وعلى الرغم من أن مجمع لاتران البابوى قرَّر سنة١٥٠٢ لَعْنَ كل من ينظر فى فلسفة ابن رشد ظل له أنصار كثيرون وظل يدرس فى الجامعات الغربية حتى العصر الحديث. ومما لا ريب فيه أنه كان لفلسفته وأفكاره أثر بعيد فى قيام حركة التحرر والإصلاح الدينى فى النهضة الأوربية، ويقول بالنثيا إن تأثير ابن رشد فى تاريخ الفكر الأوربى كان حاسما، وهو تأثير يحتاج بيانه إلى مجلدات طوال وهو يُعَدّ - بحق - خاتمة الفلاسفة والمفكرين العظام فى الأندلس.

(جـ) علم الجغرافيا

تابع الأندلسيون المشارقة فى الاهتمام بعلم الجغرافيا لمعرفة مسالك العالم وممالكه مما أتاح لهم جغرافيين يصفون جزيرتهم، وقد يصفون معها المغرب والعالم العربى والإسلامى، وقد يصفون أنحاء من أوربا الغربية والشرقية، وأضافوا إلى ذلك وصف رحلات لهم كثيرة. والعرب بطبيعتهم رحالة، وبدأوا ذلك فى جاهليتهم حين كانوا يكثرون من الرحلة وراء الكلأ ومساقط الغيث ولغرض الحج، وجعل الإسلام الحج جزءا لا يتجزأ من عباداتهم ومَنْسِكهم، ثم كانت فتوحهم الإسلامية وهجراتهم الطويلة شرقا

إلى أواسط آسيا وغربا إلى الأندلس والمحيط الأطلسى، فكان طبيعيا أن يولعوا بالرحلات والأسفار والتعرف على البلدان القريبة والبعيدة والمسالك المؤدية إليها. وطبيعي لذلك أن يكون لكل بلد عربى جغرافيوه ورحّالته، وأن تشارك الأندلس فى ذلك بحظ أو حظوظ. وأول جغرافى مهم نلتقى به فيها أحمد[1] بن محمد الرازى المتوفى سنة ٣٤٤ للهجرة، وهو مؤرخ وجغرافى ولم يبق من أعماله سوى قطعة فى جغرافية الأندلس احتفظت بها ترجمات إسبانية وبرتغالية، ويظن أنها كانت مقدمة لكتابه: «أخبار ملوك الأندلس» وهو فيها يتحدث عن موقع الأندلس وهيئتها ومناخها فى قسميها الغربى والشرقى وأنهارها وجبالها وكورها ومدنها وإنشائها وحدودها وحصونها. وقد استشهد ابن حيان فى كتابه - وكذلك ابن سعيد فى كتاب المغرب - بفقرات من هذه المقدمة الجغرافية. ويبرز من الجغرافيين بعده أبو[2] عبد الله محمد بن يوسف التاريخى القيروانى نزيل الأندلس فى عصر المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) المتوفى سنة ٣٦٣ وله كتاب عن مسالك إفريقية وممالكها انتفع به أبو عبيد البكرى فى كتابه المسالك والممالك. ويلقانا فى عصر أمراء الطوائف أحمد[3] بن عمر بن أنس العذرى الدلائى المزنّى المتوفى سنة ٤٧٦ وله كتاب نظام المرجان فى المسالك والممالك وفيه يعرض كُوَر الأندلس وأجزاءها والطرق السالكة إليها، وبه انتفع أيضا أبو عبيد البكرى[4]، وهو عبد الله بن عبد العزيز المتوفى سنة ٤٨٧ للهجرة، كان آباؤه أمراء وَلْبة وشَلْطيش بعد سقوط الخلافة، وأخذها منهم المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، ونشأ أبو عبيد بقرطبة وتتلمذ على ابن حيان المؤرخ المشهور، وبعد وفاته سنة ٤٦٩ نزل المريّة، وأرسله ابن صُمادح صاحبها فى رسالة إلى المعتمد بإشبيلية، فآثر المقام عنده، حتى إذا خلعه يوسف بن تاشفين سنة ٤٨٤ هاجر إلى قرطبة وبها توفى. وله فى الجغرافية كتابان: المسالك والممالك، والقسم الخاص بالمغرب منه

---

(١) انظر فى الرزى جذوة المقتبس للحميدى (طبع القاهرة) ص٩٧ وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى رقم١٣٥ وكتاب الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس لحسين مؤنس (طبع مدريد) ص٥٦.

(٢) راجع فى أبى عبدالله التاريخى الحميدى رقم ٩٠ وبغية الملتمس للضبى رقم ٩٠ والتكملة لابن الأبار رقم ٣٤٤ ومؤنس ص ٧٣.

(٣) انظر فى الدلائى الحميدى رقم ٢٣٦ والضبى رقم ٤٤٦ ومؤنس ص ٨١.

(٤) راجع فى أبى عبيدالبكرى الذخيرة لابن بسام، المجلد الأول من القسم الثانى (تحقيق د. إحسان عباس) ص ٢٣٢ والقلائد للفتح بن خاقان (طبع بولاق) ص١٩١ والصلة لابن بشكوال ص٢٨٢ وابن أبى أصيبعة ص٥٠٠ والمغرب ٣٤٧/١ والحلة السيراء (طبع القاهرة ١٨٠/٢) ومؤنس ص١٠٨ وما بعدها وتاريخ الفكر الأندلسى لبالنثيا ص٣٠٩ وما بعدها والدوميلى ص ٣٦٠.

مطبوع، والكتاب الثانى معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع فى جزيرة العرب، طبعه وستنفلد قديما، ثم طبعه الأستاذ مصطفى السقا طبعة علمية محققة فى أربع مجلدات ضخمة بالقاهرة، ويقول أبو عبيد فى مقدمته: «هذا كتاب ذكرت فيه جملة ما ورد فى الحديث والأخبار والتواريخ والأشعار من المنازل والديار والقرى والأمصار والجبال والآثار والمياه والآبار والدارات والحِرار منسوبة محدَّدة ومبوَّبة على حروف المعجم مقيدة» واستهلَّه بوصف الجزيرة العربية وحدودها الجغرافية وأقسامها: الحجاز وتهامة ونجد واليمن مع بيان مفصل عن قبائلها وما يتصل بها من التنقلات والوقائع والأيام.

ونلتقى فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى بجغرافى يسمى محمد[1] بن أبى بكر الزهرى عاش فى المرية أو غرناطة، وله كتاب جغرافى فى وصف ما سماه «الخارطة المأمونية للعالم» وفيه يتحدث عن أقاليم الأرض السبعة وطبيعتها وسكانها ويعنى بالأندلس ووصف مدنها. وقد نشرت منه مقتطفات عن الأندلس ومراكش وصقلية، ويكتظ بالعجائب والغرائب حتى ليمكن أن يوصف بأنه جغرافيا شعبية.

وتلقانا فى الأندلس كتابات جغرافية عند بعض المؤرخين يضعونها فى مقدمات كتبهم عن تاريخ الأندلس أو عن رجالها مثل مقدمة كتاب فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس لابن غالب[2] من مؤرخى القرن السادس الهجرى وهى تعرض كور الأندلس وما تضمه من مدن وحصون وقرى ومسالك وما تشتهر به من صناعة وزراعة مع تفصيل القول عن قرطبة ومسجدها الجامع ومقصورته ومحرابه ومنبره ومع بيان الجبال فى الأندلس والأنهار. ولابن سعيد المتوفى سنة ٦٨٢ مقدمة جغرافية نفيسة للقسم الأندلسى من كتابه المغرب، سقطت أوراقها منه، غير أن المقرى احتفظ بها فى النفح، وله فى الجغرافيا كتاب مجمل سماه «كتاب بسط الأرض فى الطول والعرض»، ويقول الدكتور حسين مؤنس: «يمكن وصفه بأنه جدول بالمدن والجبال والأنهار والبحار وغيرها من الأعلام الجغرافية موقعة على أطوالها وعروضها فى دقة[3]» والأرض عنده تسعة أقاليم مقسمة إلى عشرة أجزاء تبتدىء من جزائر الخالدات فى المحيط الأطلسى، وتنتهى بجزائر السِّيلى أى اليابان.

---

(١) انظر فى الزهراوى د. مؤنس فى كتابه تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ص٣٥٨ وما بعدها.

(٢) راجع فى ابن غالب ومقدمته تحقيق الدكتور لطفى عبدالبديع لها وقد نشرها فى الجزء الثامن من المجلد الأول فى معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، وانظر كتاب د.مؤنس ص٤٥٢ وما بعدها.

(٣) انظر د. مؤنس ص ٥٠١ وكتاب بسط الأرض لابن سعيد نشر بتطوان.

وللسان الدين بن الخطيب مقدمات جغرافية فى وصف غرناطة لكتابيه: الإحاطة فى تاريخ غرناطة واللمحة البدرية فى الدولة النصرية. وحرىّ بنا أن نذكر محمد[١] بن عبد المنعم الحميرى المتوفى سنة ٩٠٠ للهجرة وكتابه الروض المعطار فى خبر الأقطار، وهو معجم جغرافى نشر منه بالقاهرة المادة الخاصة بالأندلس.

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

كان طبيعيا أن تعنى الأندلس مبكرة بقيام مؤدبين على تعليم الناشئة الفصحى وقواعدها وتحفيظها القرآن الكريم أو سورًا منه وبعض الأحاديث النبوية، وبالمثل تعليم من دخلوا فى الدين الحنيف من الإسبان وأبنائهم حتى يستطيعوا جميعا النطق بالفصحى وببعض آيات القرآن الكريم فى صلاتهم. ونلتقى فى القرنين الثانى والثالث للهجرة بكثير من هؤلاء المؤدبين، وهم يعدون بالعشرات فى كتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدى، ومن أوائلهم الغازى[٢] بن قيس المؤدب بقرطبة حين دخلها عبدالرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية هناك سنة ١٣٨ للهجرة وتوفى الغازى سنة ١٩٩ ونراه يرحل إلى المشرق، ويلتقى بالأصمعى ونظرائه فى اللغة بالبصرة ويأخذ عن مالك الموطأ فى الفقه، وهو إشارة واضحة إلى أن المؤدبين بالأندلس فى القرن الثانى والثالث للهجرة كانوا يأخذون أنفسهم بثقافة لغوية ودينية واسعة، وكانوا يرحلون للقاء أئمة اللغة والدين فى القراءات والفقه والحديث النبوى. وعلى شاكلته فى الرحلة والأخذ عن الأصمعى ومالك وغيرهما من الأئمة معاصره أبو موسى[٣] الهوارى، وله كتاب فى القراءات وكتاب ثان فى التفسير. ومن معاصريهما جودى الراحل إلى المشرق المتوفى سنة ١٩٨ وهو تلميذ الكسائى إمام النحو الكوفى وأول من أدخل كتابه إلى قرطبة، وله تأليف فى النحو، وكان يعاصره محمد[٤] بن عبد الله مؤدب أبناء الحكم الربضى الراحل بدوره إلى المشرق.

---

(١) راجع فى الحميرى كراتشكوفسكى ص٢٩٥ ربالنثيا ص٣١١ ود. مؤنس ص٥٢٩.

(٢) انظر فى الغازى كتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدى بتحقيق الأستاذ محمد أبى الفضل إبراهيم (طبع ونشر الخانجى) ص ٢٧٦.

(٣) انظر فى الهوارى الزبيدى ص ٢٧٥.

(٤) راجع الزبيدى ص ٣٠٦.

ويذكر الزبيدى فى طبقاته عشرات من لغويى الأندلس فى القرن الثالث الهجرى، منهم عثمان[١] بن المثنى القيسى تلميذ ابن الأعرابى، لقى أبا تمام وأخذ عنه ديوانه وأقرأه بقرطبة، ومنهم الرشاش سعيد[٢] بن الفرج وكان من أقوم العلماء فى زمانه على لسان العرب وأحفظهم للغة وأعلمهم بالشعر وكان يحفظ أربعة آلاف أرجوزة، ومنهم محمد بن عبدالله حفيد الغازى السالف ذكره، تتلمذ للغويى العراق من أمثال الرياشى وأبى حاتم وجلب إلى الأندلس علما كثيرا من اللغة والعربية، وعنه روى الأندلسيون الأشعار المشروحات كلها، ومنهم ثابت[٣] بن عبد العزيز وابنه قاسم وهما أول من أدخل معجم العين المنسوب إلى الخليل بالأندلس، وأدخله بعدهما القاضى منذر بن سعيد بسماعه من أبى العباس بن ولاد المصرى المتوفى سنة ٣٣٢ ويبدو أنه كانت قد وصلت إلى الأندلس نسخ مختلفة من هذا المعجم مما جعل الحكم المستنصر يكلف أربعة من العلماء اللغويين بمقارنة هذه النسخ من العين بعضها على بعض لاستخلاص نسخة دقيقة الضبط[٤].

وينزل قرطبة أبو على[٥] القالى اللغوى الكبير سنة ٣٣٠ لعهد عبد الرحمن الناصر، فيكون نزوله فيها فاتحة عهد لغوى عظيم، ويستقبله الناصر استقبالا كريما، ويوالى هو وابنه الحكم رعايته وإغداق المال عليه، ونشط فى التأليف والتدريس بقرطبة وضاحيتها الزهراء حتى وفاته سنة ٣٥٦ وكان مما أملاه على الطلاب من مؤلفاته كتابه «الأمالى» وهو مجلدان من مختارات شعرية ونثرية مع شرح ما جاء فيها من الغريب، وأتبع هذا الكتاب بكتاب على شاكلته سماه «ذيل الأمالى والنوادر» وأملى أيضا من تأليفه كتابه المقصور والممدود والمهموز وكتابا فى الأمثال سوى مؤلفات أخرى، وأهم من ذلك شروحه للمعلقات وروايته هناك للمفضليات والنقائض وشعر الهذليين وإدخاله دواوين النابغة الذبيانى وعلقمة والأعشى والحطيئة والشماخ والنابغة الجعدى وأوس بن حجر والقطامى

---

(١) انظر فى ابن المثنى الزبيدى ص ٢٨٨ وابن الفرضى ١/٨٨ والمغرب ١/١١٢.

(٢) راجع فى الرشاش الزبيدى ص ٢٨٤ وابن الفرضى ص ١٤١ والحميدى ص ٢١١ والمغرب ١/١١٤.

(٣) انظر فى ثابت وابنه قاسم الزبيدى ص ٣٠٩ وابن الفرضى ١/٨٨ وبغية الملتمس للضبى ٢٣٨ وانباه الرواة للقفطى (تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم) ١/٢٦٢.

(٤) الحميدى ص ٤٧.

(٥) راجع فى القالى الزبيدى ص ٢٠٢ وابن الفرضى ١/٨٣ والقفطى ١/٢٠٤ وبغية الملتمس ٢١٦ ومعجم الأدباء ٧/٢٥ والأنساب للسمعانى ٤٣٧ ب وابن خلكان ١/٢٢٦ والحميدى فى الجذوة ١٥٤ وفهرسة ابن خير ص ٣٩٥ وفى مواضع مختلفة وشذرات الذهب ٣/١٨.

والأخطل وذى الرمة إلى غير ذلك من دواوين الجاهليين والإسلاميين سوى معجمه «البارع» وإن لم يتمه. وهو بذلك كله دفع الأندلس إلى حركة لغوية خصبة، وكانت قد بدأت هذه الحركة وأخذت فى النمو أثناء القرن الرابع الهجرى على نحو ما يشهد بذلك ابن القوطية محمد بن عمر المتوفى سنة ٣٦٧ وقد امتدحه القالى فى اللغة، ومن مؤلفاته فيها كتاب تصاريف الأفعال طبعه جويدى فى ليدن باسم كتاب الأفعال وتصاريفها ويقول ابن خلكان هو الذى فتح للعلماء الكتابة فى هذا الموضوع، وله كتاب فى المقصور والممدود يقول ابن خلكان جمع فيه ما لا يحد ولا يوصف، وفاق من تقدمه. وأهم من ابن القوطية فى القرن الرابع الزبيدى[1] محمد بن الحسن تلميذ القالى المتوفى سنة ٣٧٩ وفيه يقول ابن خلكان: «كان واحد عصره فى حفظ اللغة وعلم النحو وكان أخبر أهل زمانه بالإعراب والمعانى والنوادر ولم يكن بالأندلس فى فنه مثله فى زمانه» واختاره الحكم المستنصر لتأديب ابنه وولى عهده المؤيد، وولاه القضاء، وولاه المؤيد الشرطة، ونال فى عهدهما دنيا عريضة، وفى مقدمة كتبه اللغوية مختصر معجم العين للخليل ويشهد له القدماء بأنه يفضل أصله لحذفه منه الأبنية المصحفة والمختلة وزيادته فيه كثيرًا من المواد التى يفتقر إليها المعجم مع استدراكه الأخطاء الواقعة فيه، وقد ذهب إلى أن هذا المعجم ليس من صنع الخليل، لما فيه من رواية عن أناس متأخرين عن الخليل بحيث لايمكن أن يروى عنهم، ولأن جميع ما فيه من مسائل النحو إنما هو على مذهب الكوفيين والخليل نحوى بصرى، بل هو إمام المدرسة النحوية البصرية. وله فى لحن العوام من أهل الأندلس مصنف طريف نشره الدكتور رمضان عبدالتواب، وهو لا يقصد بالعوام الدهماء من الناس وإنما عوام المثقفين، وما يجرى فى ألسنتهم من أخطاء. ومن لغويى القرن الرابع السرقسطى[2] سعيد المعافرى المتوفى بعد سنة ٤٠٠ للهجرة، وهو تلميذ أبى بكر ابن القوطية، وقد روى عنه كتابه الأفعال، ورأى أن يبسطه فى كتاب مطول ويزيد فيه بنفس اسمه وقد نشره مجمع اللغة العربية فى أربعة مجلدات. ومن تلاميذ الزبيدى ابن الإفليلى[3] إبراهيم بن محمد المتوفى سنة ٤٤١ روى عن أستاذه كتاب الأمالى للقالى، وله

---

(١) انظر فى الزبيدى ابن الفرضى ٩٢/٢ والحميدى ٤٣ والمغرب ٢٥٥/١ وبغية الملتمس رقم ٨٠ وإنباه الرواة ١٠٩/٣ ومعجم الأدباء ١٨٠/١٨ وابن خلكان ٣٧٢/٤. وكتابه طبقات النحويين واللغويين من مراجعنا فى الهوامش.

(٢) راجع فى السرقسطى الصلة رقم ٤٧٤ ومقدمة نشرة كتابه الأفعال.

(٣) انظر فى ابن الإفليلى الذخيرة لابن بسام (طبعة إحسان عباس) ٢٨١/١ والصلة ٩٤ والإنباه ١٨٣/١ ومعجم الأدباء ٤/٢ وابن خلكان ٥١/١.

شرح جيد على ديوان المتنبي. ومن لغويي القرن الخامس ابن سيده[1] على بن إسماعيل الضرير المتوفى سنة ٤٥٨ وفى المغرب لابن سعيد: «لا يُعلم بالأندلس أشد اعتناء من هذا الرجل باللغة ولا أعظم تأليفا. تفخر مدينة مرسية به أعظم فخر» وله معجمان ضخمان: المحكم وهو على شاكلة كتاب العين مرتب حسب مخارج الحروف. والمعجم الثانى المخصص وهو موزع على الموضوعات والمعانى فى سبعة عشر مجلدا. ويذكر فى مقدمته مصادره. وهى تتوالى بالعشرات. حتى ليخيل إلى الإنسان أنه لم يبق فى اللغة كتاب لعالم لغوى قبله إلا اطلع عليه. وقد تنبه ابن سيده فى هذا المعجم بوضوح إلى القرابة اللغوية بين بعض اللغات السامية وبين العربية. إذ يقول: «كنعان بن سام بن نوح. إليه ينسب الكنعانيون. وكانوا أمة يتكلمون بلغة تضارع (تشابه) العربية».[2] وهو ما قرره علماء اللغات السامية حديثا من أن الكنعانية تعد إحدى اللغات السامية المتفرعة - مثل العربية - من أمٍّ واحدة. ونجد ابن حَزْم معاصره يتنبه بقوة إلى أن السريانية والعبرية والعربية بينها جميعا لحمة قرابة وثيقة كقرابة اللهجات فى لغة واحدة. يقول فى كتابه الإحكام فى أصول الأحكام: «إن الذى وقفنا عليه وعلمناه يقينا أن السريانية والعبرانية والعربية التى هى لغة مضر وربيعة - لا لغة حمير - هى لغة واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها. فحدث فيها جرس كالذى يحدث من الأندلسى إذا رام نغمة أهل القيروان ومن القيروانى إزا رام نغمة الأندلسى.. وهكذا فى كثير من البلاد. فإنه بمجاورة أهل البلدة بأمة أخرى تتبدَّل لغتها تبدلا لا يخفى على من تأمله.. فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أن اختلافها إنما هو من نحو ما ذكرنا من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان واختلاف البلدان ومجاورة الأمم وأنها لغة واحدة فى الأصل[3]». وواضح أن ابن حزم يرى أن العربية والعبرانية والسريانية كانت جميعا لغة واحدة. وبتفرق أهلها وهجرتهم من الجزيرة شمالا وغربا أخذت تحدث عند كل قوم تغيرات أعدت لحدوث لغاتهم. وهو نفس ما يقرره علماء اللغات السامية حديثا. وكأن ابن حزم وابن سيده وأمثالهما من الأندلسيين هم الذين نبهوا الأوربيين - بذلك - إلى علم فقه اللغات السامية وما يطوى فيه من مناهج لغوية علمية مقارنة. وبذلك كانوا المكتشفين لفقه

---

(١) راجع فى ابن سيده الحميدى وبغية الملتمس رقم ٢٠٥ والمطمح ٦٠ والصلة ص ٤١٠ ومعجم الأدباء ٢٣١/١٢ وابن خلكان ٣٣٠/٣ والإنباه ٢٢٥/٢ ونكت الهميان ٢٠٤ وشذرات الذهب ٣٠٥/٣ والديباج المذهب ٢٠٤ والمغرب ٢٥٩/٢.

(٢) انظر المخصص لابن سيده ١٦٧/١٣.

(٣) راجع الإحكام فى أصول الأحكام لابن حزم (طبع القاهرة) ٣٠/١.

اللغات المقارن بين اللغات السامية التى ترجع إلى أم أو لغة واحدة. وقد مضى الأوربيون يطبقونه على مجموعات اللغات اللاتينية والسكسونية وغيرها من الأسر اللغوية، شأنهم فى ذلك نفس شأنهم الذى مر بنا فى قيام علومهم وفلسفاتهم الحديثة على أساس الفلسفات والعلوم الأندلسية. وكان يعاصر العلمين الأندلسيين السابقين: ابن حزم وابن سيده الأعلم الشنتمرى[١] يوسف بن سليمان المتوفى سنة ٤٧٦ شارح الدواوين الستة لأعلام الشعر الجاهلى: امرىء القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عبدة، وهو يحتفظ فى شرحه لتلك الدواوين برواية الأصمعى، وبعد أن ينتهى منها فى كل شاعر يضيف إليها بعض الزيادات من روايات أخرى. وعلى هداه كتب أبو بكر عاصم[٢] بن أيوب البطليوسى المتوفى سنة ٤٩٤ شرحا لنفس الشعراء الستة المذكورين، وكان يعاصره أبو عبيد البكرى المذكور بين الجغرافيين، وله كتاب اللآلى فى شرح أمالى القالى نشره عبد العزيز اليمنى بالقاهرة، وكتاب فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال لأبى عبيد القاسم بن سلام نشره إحسان عباس وعبد المجيد عابدين بالخرطوم. ومن لغويى الأندلس المهمين ابن السيد[٣] البطليوسى عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٥٢١ وله الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب لابن قتيبة وشرح سقط الزند لأبى العلاء وهو منشور مع مجموعة شروح السقط طبع دار الكتب المصرية وأيضا شرح على مختارات من لزوم ما لا يلزم لأبى العلاء نشره بالقاهرة الدكتور حامد عبد المجيد، وكان يعاصره الأشتركونى أبو الطاهر محمد بن يوسف المتوفى سنة ٥٣٨ وله كتاب المسلسل فى الألفاظ العربية وهو منشور بالقاهرة. ويلقانا فى أوائل القرن السابع الشريشى أحمد بن عبد المؤمن المتوفى سنة ٦١٩ وشرحُه لمقامات الحريرى منشور بمصر.

ونشاط الأندلس فى النحو لا يقل عن نشاطها فى اللغة إن لم يتفوق عليه إذ كان المؤدبون فى القرنين الثانى والثالث للهجرة كما يعلمون الناشئة اللغة كانوا يعلمونها العربية أو النحو، ومرَّ بنا أن جوديا المتوفى سنة ١٩٨ أدخل إلى الأندلس كتاب الكسائى، وله تأليف فى النحو، ويُرْوَى أن للفقيه عبد الملك بن حبيب السلمى المتوفى سنة ٢٣٨ كتابا فى إعراب القرآن، ونلتقى فى أواخر القرن الثالث الهجرى بالأفشنتين[٤]

---

(١) انظر فى الشنتمرى الصلة رقم ١٣٩١ والمطمح ٦٤ وابن خلكان ٨١/٧ ومعجم الأدباء ٦٠/٢٠ ونكت الهميان ٣١٣ وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٩٣.

(٢) راجع فى عاصم الصلة رقم ٩٦٦.

(٣) انظر مصادره فى ص ٨٤ وكتابنا المدارس النحوية (طبع دار المعارف) ص ٢٩٤.

(٤) انظر فى الأفشنتين الزبيدى ص ٣٠٥ وابن الفرضى ٣٢٩/١ والإنباه ٢١٦/٣.

محمد بن موسى المتوفى سنة ٣٠٧ وله رحلة إلى المشرق أخذ فيها بالفسطاط عن أبي جعفر الدينوري كتاب سيبويه، وكان يدرس في قرطبة لطلابه. ونلتقي بعده بمحمد[1] بن يحيى الرباحي المتوفى سنة ٣٥٨ تلميذ أبي جعفر النحاس بالفسطاط، وعليه درس كتاب سيبويه، وحذق مسائله ومشاكله وعاد إلى قرطبة يدرسه لطلابه، وهو يفتتح في الأندلس دراسة كتاب سيبويه والنحو دراسة تستوفي دقائق العربية وغوامضها والتعليل لمسائلها كما يقول الزبيدي، وهو أستاذه في النحو وعليه درسه وتمثله وألف فيه كتابه الواضح الذي نشره بالأردن الدكتور عبد الكريم خليفة. وكان ابن الإفليلي المار ذكره بين اللغويين يقرئ تلاميذه - مع ما يهتم به من شرح الشعر - كتاب سيبويه رواية عن العاصمي عن الرباحي. ولابن سيده الذي تحدثنا عنه آنفا بين اللغويين شرح مشكل أبيات المتنبي، وينوه في مقدمة معجميه: المخصص والمحكم بأنه أودع فيهما مواد نحوية كثيرة من كتابات النحاة، ويذكر من بينهم خاصة أبا علي الفارسي وابن جني، مما يدل على أن نحاة الأندلس أخذوا يتعمقون - بجانب تعمقهم في نحو المدرستين البصرية والكوفية - في نحو المدرسة البغدادية وينهجون نهجها من المزج بين آراء المدارس النحوية المختلفة. ومن النحاة الشنتمري الذي عرضنا له بين اللغويين ويقول ابن مضاء إنه كان شغوفا بعلل النحو المعقدة، وقد روى كتاب سيبويه عن ابن الإفليلي وأقرأه لطلابه مذللا لهم صعابه ومشاكله، وتوفر الأندلسيون - بفضل نسخة الرباحي من كتاب سيبويه التي ذكرناها آنفا - على الكتاب يدرسونه ويفسرون غوامضه واشتهروا بذلك شهرة جعلت الزمخشري يرحل في شبابه من خوارزم إلى مكة لقراءة الكتاب على نحوي أندلسي كان مجاورا بها هو عبدالله[2] بن طلحة المتوفى سنة ٥١٨. ونلتقي بابن السيد البطليوسي المار ذكره بين اللغويين، وكان يعنى بشرح كتاب الجمل للزجاجي، وله كتاب في النحو سماه المسائل والأجوبة، وهو في آرائه النحوية بغدادي الاتجاه، يختارها أحيانا من المدارس النحوية السابقة وأحيانا ينفذ إلى آراء جديدة، ومثله في ذلك معاصره ابن[3] الباذش

---

(١) راجع في الرباحي الزبيدي ص ٣٣٥ وابن الفرضي ٣١٤/١ والإنباه ٢٢٩/٣ وابن خلكان ٣٧٢/٤.

(٢) انظر في ابن طلحة تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٣٧٢/٤ وبغية الوعاة للسيوطي ص ٢٨٤ وانظر التكملة رقم ١٣٣٠ والعقد الثمين في تاريخ البلد الأمين للفاسي (طبع القاهرة ١٨٢/٥).

(٣) راجع في ابن الباذش بغية الملتمس ص ٤٠٦ والإنباه ٢٢٧/٢ وطبقات القراء لابن الجزري ٥١٨/١ والديباج المذهب ١٠٧/٢ وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٩٥ والإحاطة ١٠٠/٤.

على بن أحمد المتوفى سنة ٥٢٨ وله شروح على كتاب سيبويه والمقتضب للمبرد والأصول لابن السراج والإيضاح لأبى على الفارسى، وعلى شاكلته وشاكلة صاحبه ابنُ الطراوة[١] سليمان بن محمد معاصرهما المتوفى سنة ٥٢٨.

ويسود هذا الاتجاه فى النحو الأندلسى من انتخاب أفذاذ النحاة لآرائهم من آراء نحاة المدارس المختلفة مع النفوذ إلى بعض الآراء المبتكرة على نحو ما نرى عند السهيلى[٢] عبد الرحمن بن عبد الله المتوفى سنة ٥٨١ فى كتابه «نتائج الفكر» وكان يشغف بمحاولة الإكثار من العلل النحوية كما يقول ابن مضاء، وعلى شاكلته عيسى[٣] الجزولى المتوفى سنة ٦٠٧ وله مقدمة فى النحو وحواش على كتاب الجمل للزجاجى، ومثله ابن خروف[٤] على بن يوسف المتوفى سنة ٦١٠ ويشتهر بشرح له على سيبويه وشرح ثان على كتاب الجمل للزجاجى، وحرى بنا أن نذكر ابن مضاء أحمد[٥] بن عبد الرحمن القرطبى قاضى قضاة دولة الموحدين المتوفى سنة ٥٩٢ وهو صاحب كتاب الرد على النحاة الذى نشرتُه مع تحليل لآرائه التى هاجم فيها نظرية العامل عند النحاة وما انطوى فيها من تعليلات وتقديرات، ومع محاولة لوضع أسس فى تيسير النحو وتبسيطه للناشئة على هدى آرائه. ومن أهم نحاة القرن السابع الأندلسيين الشلوبين[٦] عمر بن محمد المتوفى سنة ٦٤٥ وله شرح على مقدمة الجزولى المسماة بالجزولية وكتاب فى النحو سماه التوطئة، وكان يعاصره ابن عصفور[٧] على بن مؤمن المتوفى سنة ٦٦٣ حامل لواء العربية فى زمنه بالأندلس، وله الممتع فى التصريف والمقرب فى النحو وهما منشوران،

---

(١) انظر فى ابن الطراوة بغية الملتمس ص ٢٩٠ والتكملة لابن الأبار ص ٧٠٤ والمغرب ٢/٢٠٨ وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٩٦.

(٢) راجع فى السهيلى بغية الملتمس ص ٣٥٤ والإنباه ٢/١٦٢ وطبقات القراء ١/٣٧١ وابن خلكان ص ١٤٣ والمدارس النحوية ص ٢٩٩.

(٣) انظر فى الجزولى الإنباه ٢/٣٧٨ وابن خلكان ٣/٤٨٨ والمدارس النحوية ص ٣٠٠.

(٤) راجع فى ابن خروف التكملة ص ٦٧٦ ومعجم الأدباء ١٥/٧٥ وابن خلكان ٣/٣٣٥ والذيل والتكملة للمراكشى ٥/٣١٩ والفوات ٢/١٦٠ وصلة الصلة (طبع الرباط) ١٢٢ وكتابنا المدارس النحوية ص ٣٠١.

(٥) انظر فى ابن مضاء بغية التكملة رقم ٢٣٤ وبغية الملتمس ص ١٩٢ والديباج المذهب لابن فرحون ١/٢٠٨ والمدخل لتحقيقنا كتابه الرد على النحاة.

(٦) راجع فى الشلوبين التكملة ص ٦٥٨ والمغرب ٢/١٢٩ والإنباه ٢/٣٣٢ وابن فرحون فى الديباج ٢/٧٨ وابن خلكان ٣/٤٥١ وكتابنا المدارس النحوية ص ٣٠٢.

(٧) انظر فى ابن عصفور بغية الوعاة للسيوطى ص ٣٥٧ وعرضنا لآرائه فى كتاب المدارس النحوية ص ٣٠٦

وكانت له ثلاثة شروح على كتاب الجمل للزجاجى. ونلتقى بعده بابن[١] مالك محمد بن عبد الله إمام النحاة المتوفى بدمشق سنة ٦٧٢ وهو صاحب الألفية المشهورة فى النحو وله مصنفات نحوية كثيرة منها التسهيل وشرحه وشرح الكافية لابن الحاجب المصرى وشرح الجزولية وإعراب مشكل صحيح البخارى سوى مصنفات أخرى فى النحو تبلغ نحو الثلاثين. وكان يعاصره ابن الضائع[٢] على بن محمد المتوفى سنة ٦٨٠ وله شروح مختلفة على كتاب سيبويه والإيضاح لأبى على الفارسى والجمل للزجاجى. وخاتمة أئمة النحو فى الأندلس أبو حيان[٣] محمد بن يوسف تلميذ ابن الضائع المتوفى بالقاهرة سنة ٧٤٥ وعلى يديه تخرج جيل من النحاة المصريين وله شروح على كتاب سيبويه وكتابى ابن عصفور: المقرب والممتع وألفية ابن مالك وكتابه التسهيل. وله أيضا فى النحو كتاب ارتشاف الضَّرَب أى عسل النحل فى ستة مجلدات. وصنع له مختصرًا فى مجلدين. ويقول السيوطى فى البغية: «لم يؤلف فى العربية أعظم من هذين الكتابين ولا أجمع ولا أحصى للخلاف بين النحاة».

وبجانب علوم النحو واللغة عُنيت الأندلس بالبلاغة العربية. وظلت حتى نهاية القرن الرابع الهجرى تعتمد فى ذلك على رواية النصوص الأدبية للناشئة والتعرف على كتابات المشارقة فى البيان العربى. واستطاع المؤدبون فى أثناء ذلك أن يدفعوا الناشئة للإكباب على الأدب الجاهلى والإسلامى والعباسى بفرعيه من الشعر والنثر حتى استقامت لهم ألسنتهم وحتى تمثل كثيرون خصائص البيان العربى. وأصبحوا شعراء وكتابا نابهين. ويبدو - بوضوح - أنهم ظلوا يكتفون بكتابات الجاحظ والمبرد وابن قتيبة وابن المعتز وأضرابهم من أصحاب الاتجاه العربى فى البلاغة وبذلك ظلوا - آمادا - بعيدين عن مناحى الاتجاه البلاغى المجدد الغالى فى التجديد[٤] والذى كان يتخذ من البلاغة اليونانية - كما يمثلها كتابا الخطابة والشعر لأرسطو - معايير للبلاغة العربية.

---

(١) راجع فى ابن مالك طبقات الشافعية لسبكى ٢٨/٥، ٢٥٧ وفوات الوفيات ٢٢٧/٢ وطبقات القراء لابن الجزرى ١٨٠/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٣/٧ وبغية الوعاة ص ٥٣ وشذرات الذهب ٣٣٩/٥ وفى كتابنا المدارس النحوية ص ٣٠٩ وما بعدها عرض لآرائه النحوية.

(٢) انظر فى ابن الضائع الإحاطة ١٢٠/٤ وبغية الوعاة ص ٣٥٤ والمدارس النحوية ص ٣١٨.

(٣) راجع فى أبى حيان طبقات الشافعية للسبكى ٣١/٩ وطبقات القراء ٢٨٥/٢ والإحاطة ٤٣/٣ والدرر الكامنة لابن حجر ٣٠٢/٤ وفوات الوفيات ٣٥٢/٢ ونكت الهميان ص ٢٨٢ وبغية الوعاة ص ١٢١ والشذرات ١٤٥/٦ والمدارس النحوية ص ٣٢٠ وما بعدها.

(٤) انظر فى هذا الاتجاه وسابقه كتابنا البلاغة: تطور وتاريخ طبع دار المعارف ص ٦٢-٦٦.

ويلقانا فى مطالع القرن الخامس الهجرى كتابان عن التشبيه أحدهما سقط من يد الزمن واسمه «الفوائد فى التشبيه من الأشعار الأندلسية» لعلى[١] بن محمد بن أبى الحسين المتوفى قريبا من سنة ٤٣٠ ويدل اسمه على أنه كان مختارات من التشبيهات لشعراء الأندلس، والثانى على شاكلته، واسمه «كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس» لابن الكتانى[٢] أبى عبد الله محمد المتطبب المتوفى سنة ٤٢٠ وكان من أهل المنطق والفلسفة، ومع ذلك لم يعن بدراسة تلك التشبيهات دراسة علمية على نحو ما صنع ابن طباطبا المشرقى المتوفى سنة ٣٢٢ فى كتاب «عيار[٣] الشعر» وتقسيمه للتشبيه فيه من حيث المادى الحسى والمعنوى الذهنى ومن حيث الصورة واللون والهيئة والتركيب، إنما عُنى بعرض أبيات مختارة للشعراء الأندلسيين حتى زمنه، وهى موزعة على أكثر من ستين بابا، استهلها بأبواب فى وصف الطبيعة من سماء ونجوم وكواكب ورياح وأمطار ورياض، وأتبع تلك الأبواب بأبواب فى وصف الخمر والغناء والمغنين وآلاتهم فأبواب للجمال الإنسانى والحب ومشاعره، ثم أبواب تتضمن صور الصراع بين الإنسان والطبيعة من مثل قطع المفاوز والبحار وصيد الحيوان وكذلك الصراع بين الإنسان والإنسان فى الحرب وما يتصل به من آلات الحضارة ومن الأخلاق الفردية والاجتماعية مع العبرة بالشيخوخة والفناء. وتُعرضُ فى كل ذلك التشبيهات الطريفة فى رأى ابن الكتانى لشعراء الأندلس. وعلى شاكلة هذا الكتاب كتاب البديع فى وصف الربيع لأبى الوليد إسماعيل بن حبيب الحميرى الملقب بحبيب[٤] المتوفى بعد ابن الكتانى بنحو عشرين عاما قريبا من سنة ٤٤٠ للهجرة، وكلمة البديع فى العنوان لا تعنى البديع بمعناه البلاغى الاصطلاحى، وإنما تعنى المستطرف المستحسن من الشعر والنثر للأندلسيين من أهل عصره مما يتصل بالربيع ويتفوق به الأندلسيون على أهل المشرق، كما يقول فى مقدمة الكتاب «لما لهم فيه من الاختراع الفائق والابتداع الرائق وحسن التمثيل والتشبيه ما لا يقوم أهل المشرق مقامهم فيه». وحقا للأندلسيين أشعار بديعة فى وصف الربيع والطبيعة، أما أنهم يتفوقون

---

(١) راجع فى ابن أبى الحسين واسم كتابه الحميدى ٢٩٠ والصلة رقم ٨٨٠ وبغية الملتمس رقم ١١٩٣ والحلة السيراء طبعة حسين مؤنس بالقاهرة ٢٢٤/١.

(٢) انظر فى ابن الكتانى طبقات الأمم لصاعد ص ١٢٥ وابن جلجل ص ١٠٩ وابن أبى أصيبعة ص ٤٩١ ومقدمة الدكتور إحسان عباس لتحقيقه لكتابه (طبع دار الثقافة ببيروت).

(٣) انظر تحليلنا لهذا الكتاب وحديثنا عن التشبيه فى كتاب البلاغة: تطور وتاريخ ص ١٢٣.

(٤) انظر فى حبيب ومصادره وترجمته الفصل الخامس. وكتابه البديع نشر فى الرباط بتحقيق هنرى بيريس وفى السعودية بتحقيق د. عبد الله عسيلان.

فيها على المشارقة فقول يحتاج إلى نظر. ويكفي المشارقة أن يكون من بينهم ابن الرومى أكبر مبدع فى وصف الطبيعة والربيع. ويورد الحميرى فى كتابه مختاراته الشعرية والنثرية فى ثلاثة أبواب: باب جعله فى وصف الربيع ورياحينه وباب ثان فى وصف أزهاره، وباب ثالث فى وصف كل زهرة منفردة على حدة، ويشفع ذكره لبعض القطع بمثل قوله مقدما لها: «ومن غريب الرصف فى عجيب الوصف» وقوله: «ومن جيد التشبيه وحسن التمثيل» وقوله: «ومن السحر المنتحل والكلام المنتخل». وتلى مثل هذه التعبيرات المقطوعات الشعرية. والكتاب بذلك - مثل سابقه - كتاب مختارات من النثر والشعر الأندلسيين وليس كتاب بلاغة. وكأن الأندلس حتى عصر أمراء الطوائف لم تكن تعنى بالكتابة فى البلاغة، إنما كانت تعنى بعرض المختارات الشعرية، وقد أكبّت كما مر بنا على دواوين الجاهليين والإسلاميين والعباسيين وأخذت فى أواخر العصر تعنى بمختارات للأندلسيين أنفسهم، مكتفية بما نُقل إليها من كتابات المشارقة فى البلاغة. وكان مما نقل إليهم كتاب العمدة فى صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيروانى سنة ٤٦٣ وفيه دراسة مفصلة عن فنون البديع ومحسناته وهى تضم عنده الصور البيانية من تشبيه واستعارة ومجاز وكناية، ويبدو أنهم عكفوا عليه بالدرس، يدل على ذلك من بعض الوجوه أن نجد محمد[1] بن عبد الملك الشنترينى المتوفى سنة ٥٤٥ للهجرة يصنع تلخيصا له مع بيان أغلاط فيه.

وربما كان أول كتاب للأندلسيين عنى بمباحث أساليب الكتابة البلاغية وفصّل القول فيها كتاب إحكام صنعة الكلام للكلاعى[2] أبى القاسم محمد بن عبد الغفور المتوفى حوالى منتصف القرن السادس الهجرى، وقد جعل كتابه فى مقدمة تحدث فى فصولها عن صور من محاكاته لأبى العلاء ومضى يعلى النثر على الشعر ثم أفاض القول فى بابين: باب خصه بالكتابة وآدابها، وباب خصه بضروب الكلام قدم له بحديث مفصل عن الإيجاز والإطناب والمساواة، وهو باب كبير من أبواب علم المعانى، ومن الطريف أنه نفذ إلى مصطلح المساواة المتوسطة بين الإيجاز والإطناب على نحو ماشاع ذلك بعده عند المشارقة منذ بدر[3] الدين بن مالك المتوفى سنة ٦٨٦ كما نفذ إلى تقسيم الإيجاز إلى إيجاز قصر وإيجاز حذف، ويبدو أنه رأى أن يعدل عن الحديث فى الصور البيانية والمحسنات البديعية لأنها

---

(١) راجع التكملة ص ١٩١ رقم ٦٦٠.

(٢) انظر فى الكلاعى المطمح ص ٢٩ وابن الأبار فى التكملة ص ١٨٧ والمغرب ٢٤٢/١ ومقدمة كتابه إحكام صنعة الكلام طبع بيروت بتحقيق محمد رضوان الداية.

(٣) انظر كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ٣١٥.

قُتلت بحثا عند المشارقة وأيضا عند ابن رشيق، فأفرد فصولا لأنواع الأسلوب فى الكتابة وهى عنده سبعة: الأسلوب العاطل وهو الخالى من الأسجاع، والحالى وهو المحلى بالسجع والصور البيانية، والمصنوع وهو المسجوع الموشح بمحسنات البديع، والمرصع وهو ما حُلى بالأخبار والأمثال والأشعار والآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والمغصَّن وهو ما تتضمن فيه السجعتان المتقابلتان سجعات داخلية تتقابل فى كل سجعة طويلة مع قرينتها فى السجعة الطويلة التالية، وكأنما أصبح للسجعتين الأساسيتين فى الأسلوب أغصان وفروع مثل: «ومن السلام سلام وإن لاح جوهرا، ومن الكلام كلام وان فاح عنبرا» والمفصَّل وهو ما تعقب فيه الأبيات الشعرية الجمل النثرية على شاكلة كتاب ملقى السبيل لأبى العلاء ولبديع الزمان الهمذانى رسالة مشهورة من هذا النوع، والأسلوب السابع المبتدع وهو ما تقرأ فيه سطور الكلمات والكلمات نفسها من جهتين أو أكثر، وهى صورة من التعقيد ليس فيها فن ولا جمال. وبعد فراغه من كل ذلك يتحدث عن فنون الكتابة من التوقيعات والخطب والحكم والأمثال والمقامات والحكايات والتوثيقات والمؤلفات، وهى أول مرة يتحدث فيها ناقد بإفاضة عن فنون النثر المختلفة.

وكان يعاصره المواعينى محمد[1] بن إبراهيم بن خيرة المتوفى سنة ٥٦٤ وله كتاب ريحان الألباب وريعان الشباب، جمع فيه ما يحتاج اليه الشاعر والكاتب من فنون وجعلها فى سبعة مراتب وتهمنا فى حديثنا عن مباحث البلاغة بالأندلس المرتبة الرابعة من هذه المراتب إذ جعلها للفصاحة والبلاغة وإنشاء الصناعة، وفيها أسهب فى بيان شروط الفصاحة مستمدا من كتابات المشارقة فيها وخاصة ابن سنان الخفاجى فى كتابه «سر الفصاحة» واستمد منه ومن الجاحظ فى حديثه عن عيوب الكلام من المعاظلة وغيرها، ويتحدث عن أنواع البديع متأثرا فيها بقدامة فى كتابه نقد الشعر والحاتمى فى كتابيه: حلية المحاضرة وسر الصناعة.

ونمضى فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى فنرى البلاغة تلتحم فى الأندلس بالفلسفة عند ابن رشد إذ يتصدَّى لكتابى الخطابة والشعر لأرسطو، فيلخصهما ويشرحهما بفكره العبقرى الناصع، وكان ابن سينا قد وضع لكتاب الخطابة تلخيصا، وتحول ابن رشد بهذا التلخيص إلى شرح موسع للكتاب ونصوصه موردًا لكل مبدأ بلاغى فيه أمثلة من الشعر العربى على نحو ما يتضح فى قسمه الثالث الخاص بالعبارة

(١) راجع فى المواعينى ابن الأبار فى التكملة رقم ٧٦٣ ص ٢٣٣ والمغرب ٢٤٧/١

وهو فيه يفصل الحديث فى أبواب علم البيان المعروفة: التشبيه والاستعارة والكناية. أما التشبيه[١] فيتحدث فيه عن أدواته وأن لكل أمة تشبيهاتها المستمدة من بيئتها، ويحذّر من التشبيهات النابية ملاحظا أن التشبيه ينبغى أن ينعقد بين أشياء متجانسة، ويلم بالتشبيهات التمثيلية المركبة. ويتحدث عن الاستعارة ويلاحظ - متأثرا بأرسطو - أن الاستعارة المكنية لا تقوم - مثل التصريحية - على التشبيه. ويعرض صورا مختلفة من الكناية. ويلاحظ أن الصور البيانية تتفاوت حسنا وقبحا كقول القائل فى وصف امرأة مخضوبة اليد بالحناء إنها وردية اليد وقول آخر إنها دموية اليد. فشتان - فى رأيه - بين الوصفين. ويلاحظ أيضا تفاوت البيان فى التعبيرات الحقيقية، وأن صور البيان البارعة تعرض مشاهد تامة، بل حية نابضة. وكل ذلك لم يفد منه البلاغيون بعد ابن رشد. ويتحدث عن الايجاز والإطناب والطباق والمقابلة وعن المبالغة ويقول إنها تقبل فى الشعر ولا تقبل فى النثر خطابة ورسائل، ومثلها الألفاظ الغريبة. وكان ابن سينا قد صنع قبل ابن رشد تلخيصا لكتاب الشعر، فعمد ابن رشد إلى إعادة تلخيصه وشرحه، بحيث أصبح عمله فى هذا الكتاب أشبه بتعريب له. ووقف فيه عند التشبيه وأنه قد يكون تشبيه محسوس بمحسوس أو تشبيه معنوى بمحسوس ملاحظا أنه ينبغى أن لايكون بالأشياء الخسيسة. ويعرض أمثلة للاستعارة المكنية عند أبى تمام، ويهاجمها متأثرا بالآمدى فى كتابه الموازنة بين الطائيين أبى تمام والبحترى. ويعود إلى فكرة الصورة أو الصور المتكاملة فى بيتين أو ثلاث مما يصور مشاهد حية حافلة بالحركة والحياة. وعرض للكناية وللجناس التام والناقص وللطباق ولمراعاة النظير. وهاجم المبالغة فى الشعر التى تخرج إلى حد الاستحالة، بخلاف المبالغة المحمودة التى تعتمد على أصل من الواقع والحقيقة. ولم ينتفع البلاغيون بعده بملاحظاته الدقيقة.

ويجيء بعد ابن رشد بنحو قرن أبو البقاء[٢] صالح بن شريف الرندى المتوفى سنة ٦٨٤ للهجرة، وله كتاب مخطوط فى المكتبة التيمورية، يسمى: «الوافى فى نظم القوافى» وهو فى أربعة أجزاء أولها فى فضل الشعر، والشعراء وطبقاتهم، وعمل الشعر وأغراضه

(١) انظر فى آراء ابن رشد البلاغية مقالنا: البلاغة عند ابن رشد فى الجزء الثانى والأربعين من مجلة مجمع اللغة العربية ص ١٥. وراجع فى الحركة النقدية وأعلامها التالين بالأندلس كتاب تاريخ النقد الأدبى عند العرب للدكتور إحسان عباس ص ٤٧٠ وما بعدها.

(٢) انظر فى مصادر أبى البقاء الرندى ترجمته فى الفصل الرابع ص ٣٨٨ وانظر تحليل كتابه: الوافى فى كتاب تاريخ النقد الأدبى فى الأندلس للدكتور محمد رضوان الداية (طبع بيروت) ص ٤٣٣ وما بعدها وقد لاحظ تأثره الشديد بابن رشيق فى كتابه العمدة وراجع د. إحسان عباس ص ٥٣٨.

وآدابه، وهو يتأثر فيه بابن رشيق فى كتابه العمدة، والجزء الثانى فى محاسن الشعر وبديعه ومعانيه، والثالث فى سرقات الشعراء، والرابع فى حد الشعر والعروض. والجزء الثانى فى الكتاب يلتقى فى وضوح بمباحث البلاغة المعروفة عند المشارقة، إذ يتناول فيه الصور البيانية من تشبيه واستعارة وغيرهما، كما يتناول المحسنات البديعية، وقد أضاف اليها نحو ثلاثين محسنا. ومن أهم ما تحدث عنه من المحسنات الطباق والمقابلة والتجنيس والتصدير والتضمين والتتميم والتسهيم والترصيع والمبالغة، وفى كل ذلك يتأثر بابن رشيق وكتابه العمدة. وقلما نلتقى بعد الرندى فى الأندلس بكتب مستقلة فى علوم البلاغة، وكأنها ارتضت أن تعيش فيها على ما يكتبه المشارقة.

وأخذت الكتابات النقدية تنشط فى الأندلس منذ القرن الخامس الهجرى على نحو ما يتضح فى رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد المتوفى بقرطبة سنة ٤٢٦ للهجرة وسنفصل القول فى هذه الرسالة[١] فى الفصل الأخير وبها كثير من الآراء النقدية، ونحن نسوقها مرتبة بترتيب ابن بسام لها، فمن ذلك ذهابه إلى أن اللغويين والنحاة القائمين على تعليم الناشئة البيان لا يصلحون للقيام على هذا التعليم ويهاجم فى رسالته شيخهم ابن الإفليلى، لأنهم يفقدون فى رأيه الملكة الأدبية أو كما يقول الطبع والذوق الأدبى، وينوه بروعة الكلام وجمال نسقه قائلاً: «إن للحروف أنسابا وقرابات تبدو فى الكلمات فإذا جاور النسيبُ النسيبَ ومازج القريب القريب طابت الألفة وحسنت الصحبة». ويلاحظ على أبى تمام كثرة الجناسات ويرى من الخير للشاعر أن لا يغرق فيها، بل ينحو منحى الاعتدال، ويشيد بالطبع وحسن البديهة والجمع بين المعانى الخفية الدقيقة والأساليب الناصعة البيِّنة. ويعرض لسرقات الشعراء للمعانى بعضهم من بعض، وينصح الشاعر إذا أخذ معنى سبقه إليه غيره أن يحسن صياغته، ونحس دائما عنده رهافة الذوق الأدبى ودقة الإحساس بالجمال الفنى. ويعرض ابن حزم بعده لمراتب البلاغة، وينوه بالبلاغة المكونة من الألفاظ المألوفة عند عامة المثقفين كبلاغة الجاحظ كما ينوه بالبراعة فى الشعر ويقصد بها إيراد المعانى الدقيقة البعيدة ويقول إن الشعر مبنى على الإغراق والمبالغة.

ونمضى إلى القرن السادس الهجرى ونلتقى بابن خفاجة ومقدمته لديوانه، وفيها يُنوِّه

---

(١) انظر فى الرسالة وآراء ابن شهيد ترجمته فى الذخيرة لابن بسام (تحقيق د. إحسان عباس) ١٩١/١ وراجع كتابه تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ٤٧٥.

بالتخييل فى الشعر ويعيب على نقاد عصره تمسكهم بالجزالة حتى فى الغزل مع أن الرقة مستحسنة فيه على نحو ما يلاحظ فى شعر عبد المحسن الصورى والشريف الرضى ومهيار. وكان يعاصره الأشتركونى الذى مر ذكره بين اللغويين وله مقامات سنعرض لها فى غير هذا الموضع ونراه فى مقامتين من مقاماته يصدر أحكاما سريعة على أعلام الشعر المشرقى حتى زمن مهيار، وهى أحكام منثورة فى كتب النقد عند المشارقة وليس فيها نظرات جديدة. ويلقانا ابن بسام بكتابه الضخم: «الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة» من الشعراء والكتاب، وصفحات مجلداته الثمانية تكتظ تراجم الشعراء فيها ببيان كثرة ما أخذوا من المعانى المبثوثة فى أشعار المشارقة، وبذلك يفتح دراسة واسعة لتحويرات شعراء الأندلس لمعانى الشعر المشرقى وصوره وأخيلته، ونراه يحمل[1] على من يضمن شعره بعض ألفاظ فلسفية مثل المتنبى أو بعض معان إلحادية مما نسب إلى أبى العلاء، كما يحمل على الاستعارات البعيدة مما يؤكد نزعته المحافظة. ويلقانا عند الكلاعى الذى تحدثنا عنه بين البلاغيين كتاب له باسم الانتصار لأبى الطيب غير أنه مفقود. ويخرج المواعينى فى كتابه ريحان الألباب شعر المواعظ والحكم من الشعر بمعناه الدقيق.

وكل ما قدمنا من نشاط نقدى كان يرتكز على نقد المشارقة، وقلما التحم منه شىء بالنقد المشوب بالفلسفة اليونانية وما نقل عن اليونان فى كتابى الشعر والخطابة لأرسطو. وكأنما احتفظ النقد الأندلسى بذلك لناقد متأخر هو حازم[2] القرطاجنى المتوفى بتونس سنة ٦٨٤ وسنترجم له بين أصحاب الشعر التعليمى وهو فى النقد الأندلسى يقابل ابن رشد فى البلاغة الأندلسية الذى سبقه بنحو قرن، وقد وُلد حازم - ونشأ - بقرطاجنة شرقى الأندلس، وهاجر منها - حين سقطت فى حجر الروم - إلى المغرب وعاش فى ظل الدولة الحفصية. وله فى النقد كتاب يسمى «منهاج البلغاء وسراج الأدباء»، سقط منه قسمه الأول وكان يتناول - كما ذكر محققه - القول وأجزاءه والأداء وطرقه وأثر الكلام فى السامعين، وسلمت منه ثلاثة أقسام تتناول صناعة الشعر وطريقة نظمه وتتعمق فى بحث المعانى والمبانى والأسلوب، وكل قسم من هذه الأقسام الثلاثة موزع على أربعة أبواب، ويسمى حازم كلا منها باسم منهج وكل باب أو منهج يتألف من فصول اختار لكل منها

---

(١) الذخيرة ٤٧٩/٢/١ وما بعدها تحقيق د. إحسان عباس ص٥٠٣ وما بعدها.

(٢) انظر فى كتابه منهاج البلغاء ومصادره وآرائه النقدية مقدمة محققه الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة، وانظر تاريخ النقد الأدبى عند العرب للدكتور إحسان ص ٥٣٩.

اسم مَعْلم أو معرف، ويُعْنَى المعلم بالتفريعات المنطقية غالبا بينما يعنى المعرف بالدلالات النفسية، وكل فصل يختم بملاحظات سماها مَأمًّا أى مقصدا، وكل فصل تتناثر فيه كلمات إضاءة وتنوير، والإضاءة بسط لفكرة فرعية، والتنوير بسط لفكرة جزئية. وقد حقق الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة الأقسام الثلاثة الباقية من الكتاب تحقيقا علميا سديدا وقدم لها بمدخل علمى قيم تناول فيه مصادر حياة حازم وحياته ومصنفاته وتحليل كتابه ومميزاته ومنزلته بين كتب النقد العربية.

وحازم فى كتابه يمزج بين قواعد النقد والبلاغة عند العرب وقواعدهما عند اليونان، وقد ذكر من أصحاب البلاغة والنقد العربى الجاحظ صاحب البيان والتبيين أربع مرات، وذكر ابن سنان الخفاجى صاحب سر الصناعة مرارا وأكثر من ذكر قدامة صاحب نقد الشعر. وأما اليونان فعوَّل فيهم على أرسطو من خلال تلخيص ابن سينا لكتابه عن الشعر فى الفن التاسع من كتاب الشفاء وقد أشار إليه فى الكتاب أربع عشرة مرة كما أشار إلى تلخيص الفارابى للكتاب مرتين، ويصرح بأنه ذكر من تفاصيل صنعة الشعر ما جاء عند ابن سينا خاصة عنه. وهو فى أكثر كتابه يعد شارحا لما جاء عنده من أقاويل أرسطو، وقد سيطرت عليه فكرة أرسطو المشهورة: أن الشعر محاكاة لأعمال الناس، وغاب عنه أنه كان يتحدث عن الشعر اليونانى والمأساة فيه وأنها تمثل أعمالا وأفعالا للناس. وجعله ذلك يظن أن المحاكاة هى تشبيه الأشياء. ومع سيطرة هذه الفكرة فى الكتاب نفذ حازم إلى كثير من الآراء البصيرة الدقيقة عن الشعر. وهو فى القسم الثانى أول الأقسام المنشورة من كتابه يبحث فى الشعر وقيامه على التخييل فى المعانى والتصرف فيها وطرق اجتلابها وتأثيرها فى النفوس دافعا عن معانى الشعر ما لا يلائمها من المعانى العلمية مع بيان طريقة انتقاء الشعراء لمعانيهم ووجوه تأليفها وبيان ما ينبغى لكل عمل فنى من مهيآت وأدوات وبواعث، وألم بما رآه فى البلاغة والنقد العربيين من الحديث عن المطابقة والمقابلة والتقسيم والتفسير والتفريع، ويقول إنه لابد فى الشعر من إثارة الإغراب والتعجب، ونفى عن الشعر ما يقال بسبب المبالغة فيه من انطوائه على الكذب، ويقول إنه أكثر صدقا من الخطابة القائمة على إيقاع الظن إيقاع اليقين، وينبه على أهمية الاستعارة والتشبيه، وينوِّه بآراء علماء البلاغة والنقد من العرب. وفى القسم التالى يبحث فى الملكة الشعرية ومقوماتها وفى أوزان الشعر واستخدامها وأعاريضها ويحاول أن يصور مدى تناسبها مع الأغراض الشعرية، ويقول إنه لابد فى القصيدة من ترابط أجزائها ويشيد بالمتنبى وصنيعه المحكم فى قصائده. وفى القسم الأخير قَسَّم الشعر

إلى جدى وهزلى وتحدث عن موضوعات الشعر العربى ونوه بالشريف الرضى ومهيار وابن خفاجة، كما تحدث عن الأساليب الشعرية ونوه بابن المعتز والبحترى والمتنبى وأبى تمام وابن الضحاك وأبى سعيد المخزومى ويقول إن وظيفة الناقد صعبة وإنه تصعب المفاضلة بين الشعراء إلا إذا كانوا ممتازين ولكل منهم امتيازه وتفرده الواضح. وحازم يختتم النشاط النقدى فى الأندلس، فلم يظهر فيها بعده ناقد كبير.

٤

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

أخذ المؤدبون فى الأندلس يحفّظون الناشئة سورا من القرآن الكريم منذ استقر المسلمون هناك. ومرّ بنا أنه كان من أوائل هؤلاء المؤدبين الغازى بن قيس الذى كان يؤدب الناشئة قبل دخول عبدالرحمن الداخل إلى الأندلس سنة ١٣٨ للهجرة وذكرنا أنه رحل إلى المشرق طلبا للعلم وقد أخذ عن نافع مقرئْ أهل المدينة وأحد القراء السبعة المشهورين قراءته، وهو أول من أدخلها - كما يقول الزبيدى - إلى الأندلس. وكان ابنه عبد الله يقرئْ بها - بعده - الناشئة والناس. وكان يعاصر عبد الله بن الغازى أبو عبد الله محمد بن عبد الله مؤدب أبناء الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) ويقول الزبيدى إن له رحلة إلى المشرق أخذ فيها عن ورش عثمان بن سعيد القبطى الأصل المصرى تلميذ نافع قراءته، وأخذت تشيع هذه القراءة فى الأندلس كما أخذت تشيع فى المغرب عن طريق تلاميذ آخرين لورش، ولا تزال شائعة فيه إلى اليوم. ومن حين إلى آخر طوال العصر يلقانا من اشتهروا بهذه القراءة مثل عبد الله[١] بن محمد القضاعى الذى كان يقرئْ الناس بقراءة ورش فى عهد الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) حتى توفى سنة ٣٧٨. وما نكاد نصل إلى نهاية القرن الرابع وأوائل الخامس حتى نجد نفرا من الأندلسيين يأخذون القراءات - وخاصة القراءات السبع - عن المشارقة ويحاولون التأليف فيها مقتدين بهم فى ذلك إذ نجد بقرطبة مؤلفا كبيرا فى القراءات هو أبو عمر[٢] الطلمنكى المولود سنة ٣٤٠ وقد رحل إلى المشرق فأخذ القراءات عن أئمتها فى الشام

---

(١) طبقات القراء ١/٤٥٦.

(٢) انظر فى الطلمنكى النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى ١/٧١ وكتابه طبقات القراء ١/١٢٠.

ومصر، وخاصة عن عبدالمنعم بن غلبون المتوفى سنة ٣٨٩ صاحب كتاب الإرشاد فى القراءات السبع وشيخ المقرئين بالقاهرة، وعاد إلى قرطبة يعنى بدراستها حتى توفى سنة ٤٢٩ وله فيها كتاب الروضة. وكان يقرئ الناس معه بقرطبة مكى[١] بن أبى طالب المعروف بحموش القيروانى منذ نزلها سنة ٣٩٣ إلى أن توفى سنة ٤٣٧ وهو تلميذ عبدالمنعم بن غلبون مثل الطلمنكى، وعدّ له ابن خلكان فى القراءات واختلاف القراء تصانيف كثيرة منها كتاب التبصرة فى خمسة أجزاء، وكتاب فى أصول قراءة نافع وذكر الاختلاف عنه فى جزءين وكتاب فى تصحيح المدّ لوَرْش فى ثلاثة أجزاء. ومن القراء المهمين حينئذ أبو عمرو عثمان بن سعيد الدانى[٢] المولود بقرطبة سنة ٣٧١ وقد رحل إلى مصر سنة ٣٩٧ وأخذ القراءات عن شيوخها وعاد إلى قرطبة يقرئ بها القرآن إلى سنة ٤٠٣ إذ تركها سبعة أعوام إلى سرقسطة فى الشمال وعاد إلى قرطبة وتركها سريعا إلى المرية ورحل عنها إلى جزيرة ميورقة فأقام بها ثمانية أعوام، ثم غادرها إلى دانية سنة ٤١٧ واتخذها سكنا ودار إقامة إلى أن توفى سنة ٤٤٤ للهجرة، وهو أحد الأئمة فى قراءات القرآن وتفسيره وعلومه، وله فيها مصنفات حسان يطول تعدادها، منها كتاب التيسير فى القراءات السبع وعليه عوّل الأندلسيون وهو منشور، وله كتاب إيجاز البيان فى قراءة ورش عن نافع، ونشر له فى دمشق كتاب المحكم فى نقط المصاحف. ويلقانا بعده محمد[٣] بن شريح الإشبيلى المتوفى سنة ٤٧٦ وكتابه الكافى فى القراءات. وأهم قراء الأندلس بعد الدانى الإمام الشاطبى[٤] الضرير القاسم بن فِيرُه نزيل القاهرة المتوفى بها سنة ٥٩٠ نزلها سنة ٥٧٢ ورتبه القاضى الفاضل وزير صلاح الدين بمدرسته متصدرًا لإقراء القرآن الكريم وقراءاته، وله قصيدة «حرز الأمانى ووجه التهانى فى القراءات» وعدّتها ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتا، وعليها عوّل القراء فى زمنه وبعد زمنه حفظا وقراءة وتفسيرا، ولها شروح كثيرة، يقول ابن خلدون: «استوعب الشاطبى ما دوّنه

---

(١) راجع فى مكى طبقات القراء ٣٠٩/٢ وبغية الملتمس ٤٥٥ ومعجم الأدباء ١٦٧/١٩ وإنباه الرواة ٣١٣/٣ وابن خلكان ٢٧٤/٥.

(٢) انظر فى الدانى طبقات القراء ٥٠٣/١ والصلة رقم ٨٧٣ ومعجم الأدباء ١٢١/١٢ وبغية الملتمس ٣٩٩ وتذكرة الحفاظ ٢٩٨/٣ وطبقات المفسرين للسيوطى ١٥٩ وإنباه الرواة ٣٤١/٢ والنفح ١٣٥/٢.

(٣) راجع النشر فى القراءات العشر ٦٧/١ وابن خلكان ٨٢/٧.

(٤) انظر فى الشاطبى التكملة لابن الأبار رقم ١٩٧٣ وطبقات القراء ٢٠/٢ والذيل والتكملة للمراكشى ٥٤٨/٥ ومعجم الأدباء ٢٩٣/١٦ ونكت الهميان ص ٢٢٨ وطبقات الشافعية للسبكى ٢٧٠/٧ ونفح الطيب ٤٥/٢.

الدانى فى القراءات بقصيدته وعُنى الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين وجرى العمل على ذلك فى أمصار المغرب والأندلس[١]». وخاتمة قراء الأندلس أبو حيان الغرناطى الذى مر ذكره بين النحاة، ويقول فى مقدمة تفسيره إن له فى القراءات منظومة فى ألف بيت وأربعة وأربعين ويذكر من ترجموا له أن له كتابا فى كل قارئ من القراء السبعة وأيضا كتابا فى قراءة زيد بن على إمام الزيدية.

ومعروف أنه تكونت حول القرآن علوم كثيرة تتناول نقطه ورسمه والإملاءات فيه والإدغام والوقف والابتداء كما تتناول مشكل معانيه وناسخه ومنسوخه وأحكامه، وللقارئين: الدانى ومكى فى ذلك كتب مختلفة. وظلت الأندلس تعنى بتلك العلوم وظل الأندلسيون يؤلفون فيها مثل المشارقة، ويطول بنا الحديث لو تعقبنا ما كتبوا فيها. وحسبنا أن نتحدث عن نشاطهم فى تفسير الكتاب العزيز، ومن أقدم ما أُلّف فيه هناك كتاب بقى[٢] بن مخلد المتوفى سنة ٢٧٦ للهجرة، وفيه يقول ابن حزم: «هو الكتاب الذى أقطع قطعا لا أستثنى فيه أنه لم يؤلف فى الإسلام تفسير مثله: لا تفسير محمد بن جرير الطبرى ولا غيره» وابن حزم يضعه فوق تفسير الطبرى أهم التفاسير المشرقية للذكر الحكيم حتى زمنه فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى. ونلتقى بعد بقى بمحمد[٣] بن عبد الله بن أبى زمنين المتوفى سنة ٣٩٩ وله مختصر فى التفسير منه مخطوطة بمكتبة القرويين، ولمكى المذكور آنفا تفسير ضخم سماه: «الهداية إلى بلوغ النهاية فى معانى القرآن الكريم وتفسيره وأنواع علومه» وكان فى سبعين جزءا، وسقط من يد الزمن. وأهم تفسير أنتجته الأندلس بعد تفسير بقى التفسير الكبير لابن عطية[٤] أبى محمد عبد الحق بن غالب بن عطية قاضى المريّة المتوفى سنة ٥٤٢، وولى أبوه قبله قضاء غرناطة، فهو من بيت علم وفضل، وكان فقيها نابها عارفا بالأحكام والحديث، وكتابه المحرر الوجيز فى التفسير من أحسن التآليف فيه وأبدع التصانيف على مر الأزمنة، وسماه الوجيز تواضعا، وهو فى مجلدات ضخمة، وفيه لخص - كما يقول

(١) مقدمة ابن خلدون تحقيق الدكتور وافى ١٠٣٠/٣.

(٢) راجع فى بقى ابن الفرضى ١٠٧/١ والحميدى ١٦٧ ونفح الطيب (تحقيق إحسان عباس) ١٦٨/٣ والصلة رقم ٢٧٧ والبغية للضبى ٢٢٩ ومعجم الأدباء ٧٥/٧ وتذكر الحفاظ للذهبى ٦٢٩.

(٣) انظر فى ابن أبى زمنين الحميدى ٥٣ وابن بشكوال، رقم ١٠٤٧ والبغية ٧٧ وطبقات المفسرين للسيوطى رقم ١٠٢ والوافى للصفدى ٣٢١/٣ وابن فرحون ٢٣٢/٢.

(٤) راجع فى ابن عطية الفتح فى القلائد ص ٢٠٨ وتاريخ القضاة للنباهى ص ١٠٩ والصلة رقم ٨٢٥ وابن فرحون فى الديباج ٥٧/٢ والمغرب ١١٧/٢.

ابن خلدون - التفاسير المأثورة كلها وتحرّى الأقرب إلى الصحة منها، وتداول تفسيره بعده أهل المغرب والأندلس[١]. وينسب لمحيى الدين بن عربى المتوفى سنة ٦٣٨ تفسير مطبوع، وأكبر الظن أن نسبته له غير صحيحة، ونلتقى بعده بالقرطبى[٢] محمد بن أحمد نزيل مصر الذى اختار المنيا بالصعيد سكنا إلى أن توفى سنة ٦٧١ وله تفسيره المشهور المسمى: «جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآى القرآن» وهو فى عشرين مجلدا، سار فيه على نهج ابن عطية فى تفسيره[٣]. ويختتم نشاط الأندلسيين فى تفسير القرآن العظيم بكتاب البحر المحيط لأبى حيان الذى مرَّ بنا ذكره بين النحاة وهو فى ثمانى مجلدات ضخام، ويذكر فى مقدمته مصادره فى اللغة والنحو والبلاغة والحديث النبوى وأصول الفقه وعلم الكلام وكتب القراءات والتفسير ويشيد بتفسير عبدالحق بن عطية مواطنه وتفسير الزمخشرى، ويذكر من روى عنهم هذين التفسيرين خاصة لأنه كثير النقل عنهما والمراجعة لهما فى تفسيره، ويعنى فيه عناية واسعة بوجوه الإعراب وببيان لغات العرب كما يعنى بالقراءات السبع وما وراءها مما يكمل القراءات الأربع عشرة والشاذة.

ونشطت الأندلس فى علم الحديث نشاطا واسعا منذ محدثها وقاضيها معاوية[٤] بن صالح المتوفى سنة ١٧٨ سواء فى روايته أو فى التصنيف فيه وفى رجاله. ويتسع هذا النشاط منذ القرن الثالث الهجرى، ونلتقى فيه ببقى بن مخلد الذى مر ذكره بين المفسرين، وله فى الحديث النبوى مصنف يقول فيه ابن حزم: «له فى الحديث مصنفه الكبير الذى رتبه على أسماء الصحابة رضى الله عنهم، فروى فيه عن ألف وثلاثمائة صحابى ونيف، ثم رتب حديث كل صحابى على أسماء الفقه وأبوابه فهو مصنف ومسند» أى أنه مصنف فى الفقه وأحكامه ومسند على طريقة مسند ابن حنبل يراعى فيه الصحابى الراوى للحديث عن رسول الله ﷺ ومع كل حديث سنده، ويقول ابن حزم: «ما أعلم أحدا سبق بقى بن مخلد إلى مثل ذلك مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله وجودة شيوخه،

---

(١) مقدمة ابن خلدون ١٠٣٢/٣.

(٢) انظر فى القرطبى طبقات المفسرين للسيوطى ص ٢٨ وابن فرحون ٣٠٨/٢ والوافى للصفدى ١٢٢/٢ وشذرات الذهب ٣٣٥/٥.

(٣) ابن خلدون ١٠٣٢/٣.

(٤) راجع فى معاوية ابن الفرضى رقم ١٤٤٣ والحميدى رقم ٧٩٦ ومعجم الصدفى لابن الأبار ص ١٨٠ وترتيب المدارك للقاضى عياض ٣٤٩/١ وابن القوطية ص ٤٣ والمغرب ١٠٢/١ والقضاة للخشنى (طبعة ريبيرا) ص ٣٠ وتهذيب التهذيب لابن حجر (طبع حيدر آباد) ٢٠٩/١٠

فإنه روى أحاديثه فى المصنف عن مائتى رجل وأربعة وثمانين ليس فيهم عشرة ضعاف وسائرهم أعلام مشاهير»[١] ويقول ابن حيان فى المقتبس به انتشر الحديث بالأندلس ورسا أصله، ثم تلاه محمد[٢] بن وضّاح المتوفى سنة ٢٨٧ - وله رحلتان إلى المشرق - فى نشر الحديث وسعة الرواية، «فاستوسع أهل الأندلس فى الحديث من يومئذ وصارت دار حديث ومعدن سند»[٣] وشما لم يدفعا الأندلس إلى السعة فى المادة وروايته فحسب، بل دفعاها أيضا إلى معرفة طرقه وعلله. ويلقانا بعد بقى وابن وضاح تلميذهما ثابت[٤] بن عبدالعزيز السرقسطى المتوفى سنة ٣١٣ وابنه قاسم المتوفى قبله سنة ٣٠٢ وقد رحلا إلى المشرق فى طلب الحديث وعادا إلى قرطبة، فعنى قاسم بتأليف كتاب فى غريب الحديث سماه «الدلائل» وحال الموت بينه وبين تمامه فأتمه أبوه، ويقول ابن حزم إن كتاب الغريب المصنف المشهور فى غريب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام لا يتميز عليه إلا بالتقدم فى زمن تأليفه فحسب. ومن أهم المحدثين فى القرن الرابع قاسم[٥] بن أصبغ تلميذ بقى بن مخلد وابن وضاح المتوفى سنة ٣٤٠ وله كتاب غرائب حديث مالك بن أنس مما ليس فى الموطأ، وكتاب المجتبى ويشيد ابن حزم بعلو سنده، ويقول: له فى الحديث مصنف، وكذلك لمعاصره محمد[٦] بن عبدالملك بن أيمن (المتوفى سنة ٣٣٠) وهما مصنفان رفيعان احتويا من صحيح الحديث وغريبه ما ليس فى كثير من كتب المصنفات. ويلقانا فى آخر القرن الرابع ابن فطيس المتوفى سنة ٤٠١ وينوه ابن بشكوال فى كتابه الصلة بحفظه للحديث وعلله، ومعرفته بأسماء الرواة: المعدَّلين منهم والمجرَّحين[٧]. ونلتقى فى القرن الخامس بكتاب الجمع بين الصحيحين للحميدى[٨] صاحب جذوة المقتبس التى نرجع إليها فى الهوامش المتوفى سنة ٤٨٨. ويتكاثر المصنفون لكتب الحديث النبوى فى القرن السادس الهجرى، ومنهم رزين[٩] السرقسطى المتوفى سنة ٥٢٤ وله كتاب التجريد فى الجمع بين الموطأ والصحاح الخمس: البخارى ومسلم وأبى داود والترمذى والنسائى، وقد

---

(١) نفح الطيب ١٦٨/٣.

(٢) انظر فى ابن وضاح ابن الفرضى رقم ١١٣٤ والحميدى رقم ١٥٢ والضبى رقم ٢٩١.

(٣) المقتبس (تحقيق د. محمود مكى - نشر بيروت) ص ٢٦٤

(٤) راجع فى ثابت وقاسم ابنه مراجعهما فى هامش ص٩٢ وأيضا النفح ١٧٠/٣ والحميدى رقم٣٤٥، ٧٧١

(٥) انظر فى ابن أصبغ النفح ١٦٩/٣ وابن الفرضى رقم ١٠٦٨

(٦) راجع فى ابن أيمن النفح ١٦٩/٣ والحميدى رقم ٩٨ وابن الفرضى رقم ١٢٢٨.

(٧) انظر الصلة رقم ٦٧٩.

(٨) راجع فى الحميدى الصلة رقم ١١١٤ ومعجم الأدباء ٥٨/٧ وابن خلكان ٢٨٢/٤ وما به من مصادر والوافى للصفدى ٣١٧/٤.

(٩) انظر فى رزين الصلة رقم ٤٢٤ والضبى ٧٤١.

دوت شهرته فى المغرب والمشرق وعليه اعتمد ابن الأثير فى كتابه «جامع الأصول». وجاء بعده الرشاطى[١] عبدالله بن على المتوفى سنة ٥٤٢ وله كتاب فى أنساب رواة الحديث على نهج كتاب الأنساب للسمعانى.

وجاء بعده ابن قُرْقول[٢]: إبراهيم بن يوسف المتوفى سنة ٥٦٩ وله كتاب مطالع الأنوار وضعه على مثال كتاب مشارق الأنوار للقاضى عياض فى غريب الحديث. وكان يعاصره عبد الحق[٣] الإشبيلى المعروف بابن الخراط المتوفى سنة ٥٨١ وله كتاب الجمع بين الصحيحين: البخارى ومسلم، وله أيضا كتاب فى الجمع بين الصحاح الستة وكتاب فى المعتل من الحديث وكتاب فى غريبى القرآن والحديث ضاهى به الغريبين للهروى وثلاث نسخ من كتاب له فى الأحكام: كبرى ووسطى وصغرى. ومن أهم المحدثين بالأندلس فى القرن السابع الهجرى ابن القطان[٤] على بن محمد المتوفى بفاس سنة ٦٢٨ وكان من أبصر العلماء بالحديث وعلله ورجاله ورأس طلبة الحديث بمراكش قاطبة، ويذكر ابن الأبار أن له تآليف مختلفة فى الحديث. وخاتمة المحدثين بالأندلس أحمد بن[٥] فرح الإشبيلى نزيل دمشق وبجامعها حدَّث إلى أن توفى سنة ٦٩٩ وله قصيدة غزلية ضَمَّن أبياتها أكثر مصطلحات الحديث. وللأندلسيين معاجم مختلفة فى رجال الحديث ورواته، من أهمها كتاب أنساب الرواة للرشاطى المار ذكره، ومن أهمها أيضا كتاب طبقات المحدثين وطبقات أئمة الفقهاء لابن الدباغ[٦] يوسف بن عبدالعزيز الأندى المتوفى سنة ٥٤٦ وكان من أعرف المحدثين بثقات الرواة وضعفائهم.

وللأندلس نشاط خصب فى الفقه ودراساته، وكانت تعتمد فيه أولا على مذهب الإمام الأوزاعى فقيه الشام المشهور المتوفى سنة ١٥٧ للهجرة، إذ كان أكثر العرب الفاتحين للأندلس والقادمين إليها من الشام، فكان الفقهاء يفتون الناس به، وفى مقدمتهم صعصعة[٧] بن سلام تلميذه المتوفى سنة ١٩٢ وهو الذى أفتى الناس هناك – أخذا برأى

---

(١) راجع فى الرشاطى الصلة رقم ٦٤٨ وتذكرة الحفاظ للذهبى ١٣٠٧ والمطرب لابن دحية (طبع القاهرة) ٦١، ١٢٠ وابن خلكان ١٠٦/٣

(٢) راجع فى ابن قرقول بغية التكملة رقم ٣٩٤ وابن خلكان ٦٢/١

(٣) انظر فى ابن الخراط عبد الحق التكملة رقم ١٨٠٥ وتذكرة الحفاظ ١٣٩/٤ والمراكشى فى المعجب ص ٣٤٧ وفوات الوفيات ٥١٨/٢.

(٤) راجع ابن القطان فى التكملة رقم ١٩٢٠

(٥) انظر ابن فرح فى طبقات الشافعية (الطبعة الجديدة) ٢٦/٨ وتذكرة الحفاظ ١٤٨٦/٤ وشذرات الذهب ٤٤٣/٥ والنجوم الزاهرة ١٩١/٨.

(٦) راجع ابن الدباغ فى الصلة رقم ١٣٩٥

(٧) انظر فى صعصعة ابن الفرضى رقم ٦٠٥ والحميدى رقم ٥١٠.

أستاذه - بغرس الشجر فى صحن المسجد الجامع بقرطبة، وظل به العمل فى المساجد الجامعة بالأندلس[١] بعد انصرافها عن مذهب الأوزاعى إلى مذهب مالك[٢] بن أنس إمام المدينة، إذ كانوا يرحلون فى كل عام إلى الحجاز للحج، وكانت المدينة حتى وفاة مالك سنة ١٧٩ تُعَدّ دار الفقه ويؤمها ويؤم إمامها مالك التلاميذ من كل فَجّ. فكان طبيعيا أن يكون بين هؤلاء التلاميذ أندلسيون، وخاصة أنه كان لمالك سمعة مدوِّية فى العالم الإسلامى، وأيضا فإن عبد الرحمن الداخل (١٣٨ - ١٧٢ هـ) وابنه هشاما (١٧٢ - ١٨٠ هـ) دفعا الطلاب للرحلة إلى مالك لأنه كان مغاضبا للعباسيين منذ أفتى أهل المدينة بالتحلل من بيعة الخليفة المنصور ومبايعة النفس الزكية محمد بن عبدالله سليل الحسن بن على بن أبى طالب سنة ١٤٥ ولم يلبث واليها جعفر بن سليمان أن دعا بمالك سنة ١٤٦ بعد القضاء على ثورة النفس الزكية، وجرّده وضربه بالسياط عقابا له على فتواه[٣]. وهو ما جعل - فى رأينا - عبدالرحمن الداخل وابنه هشاما يتشيعان لمالك ومذهبه الفقهى نصرة له ضد العباسيين وصاحبهم أبى حنيفة وتلاميذه، مما أشعل الحماسة فى نفوس طلاب العلم الأندلسيين للتلمذة على مالك وحَمْل كتابه الموطأ إلى الأندلس ودراسته للطلاب بقرطبة وغير قرطبة، ومن أوائل من أدخله إلى الأندلس - إن لم يكن أول من أدخله - الغازى بن قيس الذى مر بنا بين المؤدبين والقراء، يقول ابن القوطية: «فى أيام عبدالرحمن بن معاوية (الداخل) دخل الغازى بن قيس الأندلس بالموطأ عن مالك وبقراءة نافع، وكان له مكرما ومتكررا عليه بالصلة فى منزله»[٤] ويقول الحميدى: كانت تدور الفُتْيا على الغازى بن قيس فى عهد هشام إذ كان مشاورا مع مصعب بن عمران[٥]. ومن أوائل من أدخلوا الموطأ أيضا إلى الأندلس شبطون[٦]: زياد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٢٠٤ وفى بعض الروايات أنه أول من أدخل الموطأ إلى

---

(١) انظر فى هذه المسألة تاريخ قضاة الأندلس للنباهى (طبع القاهرة) ص ٥١.

(٢) ظلت فى الأندلس بقية لمذهب الأوزاعى فى الفقه، يدل على ذلك أن نجد زهير بن مالك المتوفى سنة ٢٥٠ فقيها على مذهبه. انظر الحميدى ص ٢٠٥ وابن الفرضى فى تاريخ علماء الأندلس (طبع مدريد) ص ١٨١.

(٣) راجع ترجمة مالك فى ابن خلكان ٣٥/٤.

(٤) انظر افتتاح الأندلس لابن القوطية (طبع مدريد) ص ٣٥

(٥) الحميدى ص ٣٠٥.

(٦) راجع فى شبطون ابن الفرضى رقم ٤٥٦ والحميدى رقم ٤٣٩ والقضاة للخشنى ص ١٤، ٣٣ وابن فرحون ٣٧٠/١.

الأندلس. وأول فقيه أندلسي مالكي يُعَدُّ - بحق - بين أئمتها المالكيين عيسى[1] بن دينار المتوفى سنة ٢١٢ ويقول ابن حيان في المقتبس: «رحل عيسى فأدرك أصحاب مالك، وسمع من عبد الرحمن بن القاسم رئيس المدرسة المالكية بمصر حتى وفاته سنة ١٩١ واقتصر عليه فاعتلت في الفقه المالكي طبقته.. وكان محمد بن وضاح يقول: «هو الذى علّم أهل الأندلس الفقه» ويقول أيضا ابن حيان: «كان لا يُعَدُّ في الأندلس أفقه منه في نظرائه» وله في الفقه المالكي كتاب الهداية، وفيه يقول ابن حزم إنه من أرفع الكتب وأجمعها في معناها على مذهب مالك وتلميذه عبد الرحمن بن القاسم[2]. وتألق في الفقه المالكي بالأندلس بعد ابن دينار نجم يحيى[3] الليثي المتوفى سنة ٢٣٤ وقد سمع الموطأ في أول نشأته بالأندلس من شبطون ورحل في الثامنة والعشرين من عمره إلى المشرق ولحق الليث بن سعد فقيه مصر، كما لحق مالكا وسمع الموطأ منه إلا بعض أبواب سمعها في الفسطاط من عبد الرحمن بن القاسم. وكان أقرب الفقهاء إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم الربضي (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) وكان يلتزم من إعظامه وتكريمه وتنفيذ أموره ما يلتزمه الولد لأبيه ويقول ابن حزم: «إنه كان لا يولّى قاضيا إلا بمشورته واختياره ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه المالكي وبذلك انتشر مذهب مالك في الأندلس». ولم يقبل تولى القضاء إذ فرّغ نفسه للدراسة ولقاء طلابه الكثيرين.

وحرى بنا أن نتوقف قليلا لنوضح - من بعض الوجوه - مدى ما كان للفقهاء المصريين من تأثير في الفقه المالكي وفقهائه في الأندلس فإن إمامهم عيسى بن دينار تخرّج في الفقه المالكي على يد عبد[4] الرحمن بن القاسم، وتخرّج مثله على يده سحنون

---

(١) انظر في ابن دينار ابن الفرضي رقم ٩٧٣ والحميدى ص ٢٧٩ والضبي ص ٣٨٩ والمقتبس لابن حيان (طبعة بيروت - تحقيق مكي) ص ٧٨، ٩٩.

(٢) النفح ١٦٧/٣ وترتيب المدارك للقاضي عياض (طبعة الرباط) ١٧/١

(٣) راجع في يحيى المقتبس ص ٤٢ و٨٣ وما بعدها وابن الفرضي رقم ١٥٥٤ والحميدى رقم ٩٠٨ وابن خلكان ١٤٣/٦ والمغرب ١٦٣/١ وترتيب المدارك لعياض (طبع بيروت) ٥٣٤/١.

(٤) يُذكر كثيرًا في النصوص الأندلسية أن الفقهاء كانوا يلتزمون بآراء عبد الرحمن بن القاسم المصرى الفقيه حتى ليقول أبو الوليد الشقندى في رسالته التي كتبها في فضل الأندلس واحتفظ بها المقرى في النفح (طبعة د. إحسان عباس) ٢١٦/٣: «أهل قرطبة أشد الناس محافظة على العمل بأصح الأقوال المالكية حتى إنهم كانوا لا يولون قاضيا إلا بشرط أن لا يعدل في أحكامه عن مذهب ابن القاسم».

فقيه القيروان الذى حمل عنه مدونته[١] وأذاعها بموطنه، فنُسبت إليه، وهى من عمل ابن القاسم وإملاءاته[٢] على طلابه. وقد تتلمذ عليه من فقهاء قرطبة كثيرون ويدور اسم ابن القاسم تاليا لاسم مالك فى كتب الفقه المالكى الأندلسى، ونمثل لذلك بكتاب الوثائق والسجلات لابن العطار، فقد ذكر مالكًا فى فتاويه وأحكامه نحو تسعين مرة وذكر ابن القاسم ٥٤ مرة. ويذكر أيضا فى تلك الكتب اسم كبار الفقهاء المالكيين بمصر ممن تتلمذ لهم الأندلسيون مثل أشهب بن عبد العزيز رئيس المدرسه المالكيه بعد ابن القاسم إلى أن توفى سنة ٢٠٤ وأصبغ بن الفرج رئيس تلك المدرسة بعد أشهب إلى أن توفى سنة ٢٢٥. ويذكر أيضا فيها الإمام الليث المذكور آنفا الذى قال فيه الشافعى: «الليث بن سعد أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به» يقصد تلاميذه المصريين. ونرى يحيى الليثى عميد الفقهاء المالكيين فى الأندلس المذكور آنفا والذى كان لا يفتى إلا برأى مالك يترك رأيه فى القنوت فى الصبح لرأى الليث، كما يترك رأيه فى الأخذ باليمين مع الشاهد لرأى الليث فى إيجاب شاهدين والمسألة الأخيرة من المسائل الثلاث[٣] التى خالفت فيها مالكية الأندلس جميعا الإمام مالكا مؤثرة رأى الليث. والمسألة الثانية مسألة الخلطة وهى الشركة غير المميزة كأن يكون لرجل فى غنم مائة وعشر ولآخر فى نفس الغنم مائة وعشر فهل تؤخذ الصدقة على مجموعها فيكون عليها ثلاث شياه أو تؤخذ من كل منها على حدة فيكون على كل واحد منها شاة واحدة، والفقهاء يختلفون هل تؤخذ الصدقة على الجمع أو على التفريق. والمسألة الثالثة التى خالفت فيها مالكية الأندلس جميعا مالكا إلى رأى الليث هى مسألة كراء الأرض للفلاح بجزء مما يخرج منها بالنصف أو الثلث مثلا وهو نظام معروف فى مصر إلى اليوم، وكأن المصريين أخذوا بفتوى الليث على مر الأزمنة كما أخذ بها الأندلسيون. ومرَّ بنا أنهم أخذوا بمذهب الأوزاعى فى غرس الشجر فى المساجد مخالفين فى ذلك رأى مالك. وخلف يحيى الليثى فى رياسة المدرسة المالكية بالأندلس عبد[٤] الملك بن حبيب المتوفى سنة ٢٣٨ للهجرة، وله كتاب

---

(١) ابن خلكان ١٨١/٣ إذ يقول أصل المدونة أسئلة سأل عنها فقيه القيروان أسد بن الفرات ابن القاسم فأجابه عنها، وجاء بها إلى موطنه فكتبها عنه سحنون ورحل بها إلى ابنَ القاسم سنة ١٨٨ فعرضها عليه وأصلح فيها مسائل ورجع بها إلى القيروان سنة ١٩١.

(٢) انظر المقتبس ص٨٤.

(٣) راجع فى هذه المسائل التى خالف فيها مالكية الأندلس مذهب مالك النباهى ص٥١.

(٤) انظر فى عبد الملك بن حبيب ابن الفرضى رقم ٨١٤ والزبيدى فى طبقات النحويين واللغويين ص٢٨٢ والحميدى رقم ٦٢٨ والمغرب ٩٦/٢ والمطمح لابن خاقان ص٣٦ وابن فرحون فى الديباج ٨/٢ وتذكرة الحفاظ ١١٢/٢.

الواضحة فى الفقه المالكى الذى اشتهر فى الأندلس وبلدان المغرب. ومن كبار الفقهاء بعده ابن عتبة[١] محمد بن أحمد المتوفى سنة ٢٥٤ وهو تلميذ يحيى الليثى وعبد الملك بن حبيب، رحل إلى المشرق ومصر وسمع بها أصبغ بن الفرج، وله كتاب المستخرجة وتسمى العتبية نسبة إليه، وطارت شهرتها فى الأندلس والمغرب. وكان يعاصره يحيى[٢] بن مزين المتوفى سنة ٢٥٩ وله كتاب فى تفسير الموطأ للإمام مالك أشاد ابن حزم به وباستقصائه لمعانى الموطأ، كما أشاد بكتاب ثان له فى رجال الموطأ. ومن الفقهاء المؤلفين بعده يحيى[٣] بن عبد الله حفيد يحيى الليثى المتوفى سنة ٣٦٧، وكان يملى على الطلاب بقرطبة الموطأ وكتاب سماع ابن القاسم وحديث الليث وعشرة[٤] جدّه يحيى الليثى. وفى ذلك ما يدل على أن كتابا فى الأندلس كان يروى عن ابن القاسم يسمى سماعه وهو يقابل كتاب المدونة رواية سحنون فى القيروان، كما كان يُرْوَى كتاب آخر عن الليث يسمى حديثه، فكان لكل من هذين الفقيهين المصريين كتاب متداول هناك. وجاء بعد ذلك ابن أبى زمنين[٥] المتوفى سنة ٣٩٩ وله المغرب فى اختصار مدونة سحنون وكتاب فى الشروط وشرح كبير على الموطأ.

ونلتقى فى زمن أمراء الطوائف بالفقيه المالكى الأندلسى الكبير ابن عبد[٦] البر يوسف النمرى المتوفى سنة ٤٦٣ للهجرة وله «كتاب الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار فيما تضمن الموطأ من معانى الرأى والآثار» شرح فيه الموطأ على نسق أبوابه وكلامه شرحا بديعا، وله «كتاب التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد» رتبه على أسماء شيوخ مالك على حروف المعجم، قال ابن حزم: لا أعلم فى الكلام على فقه الحديث مثله أصلا، وله كتب لا مثيل لها، منها كتابه المسمى بالكافى فى الفقه على مذهب مالك وأصحابه خمسة عشر جزءا». واشتهر بعده فى القرن الخامس أبو الوليد[٧] الباجى

---

(١) راجع ابن عتبة فى ابن الفرضى رقم ١١٠٢ والحميدى رقم ٥ وابن فرحون ٢/١٧٦.

(٢) انظر فى ابن مزين ابن الفرضى رقم ١٥٥٦ والحميدى رقم ٨٨٠ وابن فرحون ٢/٣٦١ والنفح ٣/١٦٨.

(٣) راجع فى يحيى بن عبد الله ابن الفرضى رقم ١٥٩٥.

(٤) يريد بعشرة جده كتبا عشرة له كان يرويها عن شيوخه وخاصة شبطون.

(٥) انظر مصادر ابن أبى زمنين بين المفسرين ص ١٠٨

(٦) راجع فى ابن عبد البر المطمح ص ٦١ والحميدى ص ٣٤٤ والصلة رقم ١٣٨٦ وتذكرة الحفاظ ١١٢٨ وابن فرحون ٢/٣٦٧ والمغرب ٢/٤٠٧ وترتيب المدارك ٤/٨٠٨.

(٧) انظر فى أبى الوليد الباجى الصلة رقم ٤٤٩ وقلائد العقيان ص ١٨٨ والنباهى ص ٩٥ والمغرب ١/٤٠٤ ومعجم الأدباء ١١/٢٤٦ وابن خلكان ٢/٤٠٨ وابن بسام المجلد الأول من القسم الثانى ص ٩٤.

سليمان بن خلف المتوفى سنة ٤٧٤ رحل وسمع منه خلق كثير غربا وشرقا وله كتاب الاستيفاء شرح الموطأ، والمنتقى مختصره، والإيماء مختصر المنتقى، وكتاب فى الأصول باسم إحكام الفصول فى أحكام الأصول، وأيضا كتاب المقتبس من علم مالك بن أنس والمهذب فى اختصار مدونة سحنون. ويلقانا فى القرن السادس ابن[١] رشد الجد أبو الوليد محمد بن أحمد أشهر فقهاء المالكية فى زمنه المتوفى سنة ٥٢٠ وله «البيان والتحصيل لما فى المستخرجة (العتبية) من التوجيه والتعليل» بسط فيه الأحكام الفقهية لمذهب مالك بحسب ما جاءت فى المستخرجة، وكتاب المقدمات لأوائل كتاب المدونة. وجاء بعده الفقيه المتبحر أبو[٢] بكر بن العربى محمد بن عبد الله المتوفى سنة ٥٤٣ وله كتاب القبس فى شرح موطأ مالك بن أنس، وشرح عليه ثان باسم ترتيب المسالك فى شرح موطأ مالك، سوى كتب أخرى كثيرة فى شرح كتب الصحاح فى الحديث وفى أحكام القرآن. ويختم القرن السادس بابن رشد المتفلسف حفيد ابن رشد الفقيه، وله فى الفقه كتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد ويقول ابن الأبار: ذكر فيه أسباب الخلاف وعلّل ووجهً فأفاد وأمتع به، ولا يعلم فى فنه أنفع منه ولا أحسن مساقا[٣]. ولا تكاد الأندلس بعد ذلك تخرج فقيها مالكيا كبيرا باستثناء ابن حرب محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٤١ وله كتاب الفوائد الفقهية فى المذاهب المالكية والشافعية والحنفية والحنبلية فى ثلاثة مجلدات وجاء بعده ابن عاصم أبو بكر محمد بن محمد المتوفى سنة ٨٢٩ وله أرجوزة فى الفقه المالكى فى نحو ١٦٩٠ بيتا وهى منشورة فى باريس منذ القرن الماضى، وكان الطلاب يدرسونها فى جامعة فاس إلى عهد قريب.

ولعل فيما سبق ما يدل على مدى ازدهار المذهب المالكى فى الأندلس، وكان من أهم الأسباب فى ذلك أن جُمع له القضاء، فكان له غير قليل من السلطان والرياسة، والناس سراع إلى طلب الدنيا، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به. ولذلك قل من اعتنق مذهب[٤] أبى حنيفة، إذ عُدَّ مذهب العباسيين خصوم الأمويين فى الأندلس، ومثله المذهب

---

(١) انظر فى ابن رشد الجد الصلة رقم ١١٥٤ والنباهى ص٩٨ والديباج ٢٤٨/٢

(٢) راجع فى ابن العربى الضبى رقم ١٧٩ والنباهى ص١٠٥ والمغرب ٢٥٤/١ والصلة رقم ١١٨١ وابن خلكان ٢٩٦/٤ وتذكرة الحفاظ رقم١٢٩٤ وأزهار الرياض ٨٦/٣ - ٩٥ وابن فرحون ٢٥٢/٢.

(٣) التكملة رقم ٨٥٣.

(٤) ممن ذكر عنه أنه تأثر بالفقه الحنفى محمد بن عيسى الأعشى وكان من الفقهاء المشاورين فى عهد عبد الرحمن الأوسط. انظر ابن الفرضى رقم ١١٠٠ والمقتبس (طبع بيروت) ص ٤٢.

الحنبلي البغدادي، أما المذهب الشافعي فعني به بعض الفقهاء ممن كانوا ينزلون مصر، وكثرتهم كانت تتلمذ لأصحاب مالك من مثل عبدالرحمن بن القاسم وأشهب وأصبغ ومن جاء بعدهم، وقلة منهم كانت تتلمذ لأصحاب الشافعي من مثل المُزَني ومحمد بن عبدالله بن عبدالحكم وإبراهيم بن المنذر وأبي الطاهر أحمد بن عمرو ويونس بن عبدالأعلى والحارث بن مسكين وإبراهيم بن محمد ابن عم الشافعي ومن جاء بعدهم. وأول فقيه شافعي يلقانا بقرطبة هو قاسم[1] بن محمد بن سيار المتوفى سنة٢٧٦ تتلمذ لبعض من سميتهم من أصحاب الشافعي بالفسطاط ولزم منهم خاصة محمد بن عبدالله بن عبدالحكم للتفقه والمناظرة وصحبه وتحقق به، وعاد إلى الأندلس فعني بنشر مذهب الشافعي عن طريق التأليف والتدريس، ومما ألف كتابُ الإيضاح في الرد على ابن عتبة وابن مزين الفقيهين المالكيين المار ذكرهما في ترك التقليد والأخذ بالحجة والنظر، والتف حوله بعض الشباب من الفقهاء أمثال أحمد بن خالد ومحمد بن عمر بن لبابة وسعيد بن عثمان الأعناقي. وكان يعاصره بقي بن مخلد، ولم يكن يعيش لمذهب الشافعي مثله غير أنه كان يدعو إلى النظر فيه بجانب مذهب مالك والمذاهب الفقهية الأخرى، وكان قد رحل وتتلمذ لشافعيين مختلفين ولأحمد بن حنبل. ويذكر ابن الفرضي من فقهاء الشافعية يحيى بن عبد العزيز المعروف بابن الخراز[2] المتوفى سنة ٢٩٥ تتلمذ بمصر للمزني والربيع بن سليمان ومحمد بن عبدالله بن عبد الحكم أصحاب الشافعي وليونس بن عبد الأعلى، ومما سمعه من ابن عبد الحكم مختصر المزني ورسالة الشافعي. ومن شافعية الأندلس تلميذ لبقي وقاسم هو أبو الخيار هرون[3] بن نصر القرطبي المتوفى سنة ٣٠٢ وكان قد تفقه بكتب الشافعي. ومن فقهاء الشافعية في القرن الرابع الهجري أسلم[4] بن عبد العزيز المتوفى سنة ٣١٩ وقد رحل إلى المشرق وتتلمذ للمزني والربيع بن سليمان ومحمد بن عبدالله بن عبدالحكم أصحاب الشافعي، وعاد إلى قرطبة، وولي بها قضاء الجماعة مرتين في أيام عبدالرحمن الناصر وكان يقضي بين الناس بما عليه الجماعة هناك من مذهب مالك..

---

(١) راجع ابن سيار في الحميدي ٣١٠ وابن الفرضي ٣٩٧/١ والسبكي في طبقات الشافعية (طبعة الحلبي الجديدة) ٣٤٤/٢.

(٢) راجع في يحيى ابن الفرضي رقم ١٥٦٨.

(٣) انظر في هرون ابن الفرضي رقم ١٠٤٧ وابن فرحون ٣٦٠/٢

(٤) انظر في أسلم ابن الفرضي رقم ٢٧٨ والحميدي رقم ٣٢٢ والقضاة للخشني ص ١٥٥ وابن فرحون ٣٠٨/١ والإحاطة (نشر عنان) ٤٢٧/١.

وكان عبد الله بن عبد الرحمن الناصر شافعيا، وثبت لأبيه أنه يدبر مؤامرة ضده، فأمر بقتله سنة ٣٣٩ ولو قدرت له الحياة لأعان على انتشار المذهب الشافعى فى الأندلس. ووفد فى عصر المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ) فقهاء يحملون المذهب الشافعى فأكرمهم وتوسع لهم فى العطاء والرواتب مثل عبيد[1] الله بن عمر المتوفى بقرطبة سنة ٣٦٠ وكان إماما فى الفقه على مذهب الشافعى كثير التصنيف فيه وفى القراءات والفرائض. ومن فقهاء الشافعية المهمين فى القرن الرابع الأصيلى[2] عبد الله بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٩٢ وله كتاب فى اختلاف مالك والشافعى وأبى حنيفة سماه كتاب الدلائل على أمهات المسائل. ومن كبار فقهاء الشافعية فى القرن الرابع ابن[3] أمية الحجارى وله كتاب فى أحكام القرآن نوه به ابن حزم قائلا إنه كان بصيرا بالكلام، وقلما نسمع بعد عصر بنى أمية عن فقهاء شافعيين مهمين.

وعرفت الأندلس مبكرًا مذهب الظاهرية فى الفقه لصاحبه داود بن خلف الظاهرى المتوفى ببغداد سنة ٢٧٠ إذ تتلمذ له أندلسى هو عبد الله بن محمد بن قاسم المتوفى سنة ٢٧٢، وقد نسخ كتبه بخطه وأقبل بها إلى الأندلس واجتهد فى نشر المذهب، ولم يكتب له النجاح فيما ابتغى إذ لقى معارضة شديدة من فقهاء المذهب المالكى. ونمضى إلى القرن الرابع الهجرى، ونلتقى بمنذر[4] بن سعيد المتوفى سنة ٣٥٥ وقد رحل إلى المشرق ودرس على شيوخه من الفقهاء واللغويين، وعاد إلى بلده يحمل معجم العين للخليل عن ابن ولاد المصرى واختلاف العلماء روايةً عن ابن المنذر النيسابورى، كما يحمل مذهب داود الظاهرى، وكان خطيبًا مفوهًا، وولاه عبد الرحمن الناصر الصلاة والخطابة فى المسجد الجامع بالزهراء ثم ولاه قضاء الجماعة وظل يليهما فى عهد ابنه الحكم وكان شديدًا فى دينه لا تأخذه فى الله لومة لائم، وله مع الناصر عظات محمودة، وكان مذهبه الفقهى المذهب الظاهرى وكان يحتج له ويحامى عنه ويؤثره، حتى إذا جلس مجلس القضاء قضى بمذهب مالك الذى عليه العمل فى بلده ولم يعدل عنه، ويقول ابن حزم إنه كان قويًّا على الانتصار للمذهب الظاهرى، وله كتاب فى أحكام القرآن غاية فى بابه. ويلقانا فى القرن

---

(١) راجع فى عبيد الله بن عمر ابن الفرضى رقم ٧٦٩.

(٢) انظر فى الأصيلى ابن الفرضى رقم ٧٨٥ وابن فرحون ٤٣٣/١

(٣) راجع فى ابن أمية الحميدى ص ٣٨٠ وقد سماه ابن آمنة وانظر فى كلمة ابن حزم عنه النفح ١٦٩/٣.

(٤) انظر مصادر منذر فى ترجمته بالفصل الخامس.

الخامس إمام مذهب الظاهرية فى الأندلس على[1] بن أحمد بن حزم المتوفى سنة ٤٥٦، وكان من أسرة نابهة، إذ كان أبوه وزيرًا للمنصور بن أبى عامر، ونشأ نشأة مترفة. ولم تلبث الفتنة أن هبت على قرطبة منذ سنة ٤٠٠ فخرج من قرطبة وعاد إليها مرارًا وأقامه المستظهر وزيرًا سنة ٤١٤ ولم يلبث المستظهر أن قتل فصمّم ابن حزم على اعتزال السياسة والتفرغ للعلم والأدب، وكان قد عكف على دراسة المذهب المالكى، ورأى العدول عنه إلى مذهب الشافعى ثم عدل عنه إلى دراسة المذهب الظاهرى على أبى الخيار مسعود بن مفلت المتوفى سنة ٤٢٦ واعتنقه مؤمنا به، وألف فيه كتاب الإبطال وفيه يبطل الأصول الخمسة التى أخذ بها الأحناف والشافعية، وهى القياس والرأى والاستحسان والتقليد والتعليل، فكل ذلك ينبغى إبطاله والاكتفاء بالكتاب والسنة. وله كتاب فى أصول المذهب المالكى القائمة على التقليد، وكتاب ثان يناقش فيه أصول المذهب الشافعى وفروعه. ومعروف أن المذهب الظاهرى ازدهر فى عصر دولة الموحدين إذ كانت تعتنقه مذهبًا فقهيًا لها من دون المذاهب المشهورة: مذهب أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل واتخذ ذلك شكل ثورة عنيفة فى عهد يعقوب بن يوسف (٥٨٠ - ٥٩٥) حتى لنجده يأمر بحرق كتب تلك المذاهب، وكان طبيعيًا لذلك أن تصبح كثرة القضاة من فقهاء المذهب الظاهرى يتقدمهم قاضى القضاة ابن مضاء[2] أحمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٥٩٢ وابن[3] حوط الله عبد الله المتوفى سنة ٦١٢ وكان قد ولى القضاء ببلدان أندلسية كثيرة مثل إشبيلية وقرطبة ومثلهما ابن[4] خطاب الإشبيلى على بن عبد الله قاضى إشبيلية المتوفى سنة ٦٢٩ وابن الرومية المار ذكره بين الصيادلة. ويعود المذهب المالكى بعد زوال دولة الموحدين - بقوة - إلى سلطانه القديم وقلما نسمع عن أتباع للمذهب الظاهرى، ويتحول عنه كثيرون على نحو ما تحول أبو حيان المار ذكره بين المفسرين فقد بدأ حياته ظاهريًا ثم تحول إلى المذهب الشافعى.

ولم نعرض لفقهاء القضاء المالكيين فى الأندلس لأن لهم كتبًا متعددة مطبوعة تعنى بهم مثل كتاب القضاة للخشنى ولابن عبد البر كتاب مماثل وكذلك للنباهى، وإنما يهمنا من دفعوا الحركة الفقهية المالكية فى الأندلس إلى الازدهار بدراستهم المذهب للطلاب

---

(١) راجع فى مصادر ابن حزم ترجمته فى الفصل الخامس.

(٢) مرت مصادر ابن مضاء فى ص ٩٧.

(٣) راجع فى ابن حوط الله النباهى ص ١١٢ والتكملة ٢/٨٣٨.

(٤) انظر فى ابن خطاب التكملة رقم ١٩٠١.

ومؤلفاتهم النفيسة. على أنه ينبغى أن أشير إلى أن النظام القضائى بالأندلس رافقته ثلاث ظواهر لا يعرفها نظيره فى المشرق، أولاها أنه كان هناك - منذ أول الأمر - هيئة استشارية[١] من الفقهاء يرجع إليها القضاة للتشاور وإبداء الحكم السديد فى القضايا المشكلة، وهى تشبه ما نعرف فى قضائنا المعاصر من قيام هيئة استشارية بجانب محاكم مجلس الدولة للرجوع إليها فى القضايا الملتبسة ودراستها وإبداء الحكم فيها وقد نقلنا ذلك عن القضاء الفرنسى. والظاهرة الثانية ظاهرة هيئة المحامين من الفقهاء عن أصحاب الدعاوى والمتهمين على نحو ما نعرف فى قضائنا اليوم، وكان من يوكل عنه محاميًا يثبت ذلك فى عقد بينه وبين المحامى[٢] وكان للمحامى الحق فى أن ينيب من يترافع عنه فى القضية أمام القاضى، ويثبت ذلك أيضًا فى عقد بينهما[٣]. والظاهرة الثالثة وضع كتب باسم الوثائق يضعها كبار الفقهاء تبين للناس كيفية العقود وصيغها القانونية، وهى كتب بالغة الأهمية فى بيان الأحوال الاجتماعية فى الأندلس إذ تعرض علينا عقود المعاملات فى المزارعات وغيرها من الاستئجارات، ومن الطريف أن نعرف أنه كانت هناك محلات لاستئجار الخيل والسلاح للحرب واستئجار الثياب والحلى والكتب[٤]، وكان لابد لإسلام نصرانى أو يهودى من وثيقة يقدمها للقاضى وعليها شهادة شهود بأنه أسلم غير مكره ولا فارٍّ من شىء ولا متوقع لأمر، وأنه اختار الإسلام بعد أن وقف على شريعته وعلم أنه ناسخ لجميع الأديان وأنه الدين الذى لا يقبل الله سواه، وأنه أسلم على يد فلان القاضى أو صاحب الشرطة أو المدينة أو السوق[٥].

ولم تعرف الأندلس الخلافات الكلامية الكثيرة التى عرفها المشرق، ولذلك لم تنشأ فيها فرق المرجئة والجبرية والقدرية أو المعتزلة أو بعبارة أدق لم تجد لها أنصارًا فيها إلا ما كان من الاعتزال بسبب قراءة بعض الراحلين إلى المشرق لكتابات الجاحظ المعتزلى ونقلهم لها إلى الأندلس، فأخذ الناس يقرءون كتاباته وأخذوا يحاولون التعرف على الاعتزال منذ القرن الثالث الهجرى ومن المعتزلة القدامى حينذاك عبد الأعلى بن وهب

---

(١) يتردد أسماء أعضاء هذه الهيئة فى مقتبس ابن حيان لعهد بنى أمية ويسميهم المشاورين.

(٢) انظر فى ذلك كتاب الوثائق والسجلات لابن العطار الأندلسى المتوفى سنة ٣٩٩ (طبع مدريد) ص ٤٩٨. وراجع ترجمة ابن العطار فى الديباج المذهب ٢/٢٣١.

(٣) ابن العطار ص ٥٠٠.

(٤) راجع ابن العطار ص ١٩٤، ١٩٧، ٢٠٦.

(٥) ابن العطار ص ٤٠٥، ٤٠٩.

القرطبى المتوفى سنة ٢٦٢ للهجرة وكان يقول بحرية الإرادة[١] للإنسان، وكان يعاصره معتزلى مثله هو خليل الغفلة، وكان يقول مثله بحرية الإنسان[٢] فى أفعاله، وتابعه فى اتجاهه الاعتزالى ابن السمينة[٣] يحيى المتوفى سنة ٣١٥ إذ يقول صاعد إنه كان معتزليًا. وأول معتزلى أندلسى دعا إلى الاعتزال بمعناه الكامل ابن مسرة الذى ألممنا به فى أول حديثنا عن الفلسفة ملاحظين من كتاب أمرَ الناصر فى سنة ٣٤٥ بتلاوته على الناس لبيان خروجه هو وتلاميذه عن العقيدة السنية للجماعة بترويجه لأفكار المعتزلة من مثل قولهم بخلق القرآن وبأن الانسان حر فى إرادته ووجوب إنفاذ الوعد والوعيد على الله. ومع ذلك ظل له تلاميذ يرددون آراءه الاعتزالية، واضطروا إلى الاختفاء - كما أسلفنا - فى عهد الناصر وعادوا إلى الظهور فى عصر ابنه الحكم لما نشر من التسامح إزاء الاعتزال وغيره من العقائد. ولم يلبث أن خلفه ابنه المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ) وحاجبه المنصور بن أبى عامر الذى أظهر التشدد فى كل ما يخالف آراء أهل الأندلس، ومع ذلك كان حكم بن منذر بن سعيد فى عهدهما رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم وأستاذهم ومتكلمهم وناسكهم كما يقول[٤] ابن حزم، واضطرت شيعة ابن مسرة إلى الاختفاء ثانية فى عهد ابن أبى عامر وعادت إلى شىء من النشاط فى عصر أمراء الطوائف على نحو ما مرَّ بنا - فى حديثنا عن ابن مسرة - وداعية تعاليمه إسماعيل الرعينى. ولا نسمع بعده عن نشاط اعتزالى أو كتب اعتزالية لأندلسيين. ويبدو أن كثيرًا من كتابات المعتزلة والمتكلمين عامة تسرب إلى الغرب عن طريق ما حملته الأندلس من تلك الكتابات على نحو ما حملت إليه من علوم الطب والرياضيات والصيدلة مما هيأ لقيام التأليف العلمى فى أوروبا ولنهضتها العلمية، كما هيأ لقيام التفكير الفلسفى فيها. ومن أقوى الدلالات على تأثير المعتزلة فى التفكير الأوربى أن نجد ديكارت (١٥٩٧ - ١٦٥٠ م) أبا الفلسفة الغربية الحديثة يقيم فلسفته على مبدأين يلتقيان بأفكار المعتزلة والمتكلمين وهما مبدأ الشك فى حقائق الأشياء حتى نتبين فيها وجه اليقين ويردد الجاحظ هذا المبدأ عن أستاذه النظام فى كتابه الحيوان مستشهدًا بقوله: «لم يكن يقين قط حتى كان قبله شك». وكان حريًا بالأستاذ الدكتور طه حسين حين نوه بهذا المبدأ فى أوائل كتابه «فى الأدب الجاهلى»

---

(١) انظر ترجمته فى ابن الفرضى رقم ٨٣٥ وابن فرحون ٢/٥٥ وبالنثيا ص ٣٢٥.

(٢) راجع ترجمته عند ابن الفرضى رقم ٤١٧ وبالنثيا ص ٣٢٥.

(٣) انظر فيه طبقات الأمم لصاعد ص ١٠١ وابن الفرضى رقم ٥٧٨، والنفح ٣/٣٧٥ وبالنثيا ص ٣٢٥.

(٤) طوق الحمامة (تحقيق د. الطاهر مكى) ص ٧٢.

وأضافه إلى ديكارت أن يضيفه إلى أصحابه الحقيقيين من المعتزلة. والمبدأ الاعتزالى أو الكلامى الثانى أشار إليه بيير دانييل هويه إذ قال إن ديكارت أخذ عن أهل الفكر والجدل الإسلاميين مبدأه الفلسفى: «أنا أفكر فأنا موجود»[١] مما يقتضى وجود الله، وحديث المتكلمين والمعتزلة عن وجود الإنسان الممكن ووجود الله الواجب علة وجوده معروف. وبذلك يكون المبدآن أو الأصلان الأساسيان للفلسفة الأوربية اجتلبهما ديكارت اجتلابًا مما ترجم فى اللاتينية من كتابات الكلاميين الإسلاميين وخاصة المعتزلة. وقد ذكر المقرى فى[٢] النفح عن شخص يسمى محمد بن خلف أنه كان متكلمًا متحققًا برأى الأشعرية، وأنشد له بيتين فى مديح إمام الحرمين الجوينى المتوفى سنة ٤٣٨ للهجرة، وإعلانه حبه له وإيمانه بعقيدته ومعروف أنه إمام كبير من أئمة الأشعرية.

وإذا كانت الأندلس لم تنتج فى الاعتزال والدراسات الكلامية بحوثًا خصبة، فإنها أنتجت عند ابن حزم أروع تاريخ ناقد للأديان والفرق والمذاهب الدينية من إلهية ووثنية بكتابه «الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل» وهو عرض باهر لكل ما يتصل بعلم الكلام فى الإسلام، وفيه ينقض نقضًا دقيقًا مذاهب الزنادقة وعقائد المجوسية، كما ينقض عقيدة اليهود بمذاهبها الخمسة: السامرية والصدوقية والقراءية والربانية والعيسوية أتباع أبى عيسى الأصبهانى، وينكر صحة العقيدة المسيحية وقواعدها الأخلاقية قائلًا إنها جميعًا من صنع البشر. ويرى أن الكلمات فى التوراة وفى الإنجيل بعهديه - القديم والجديد - حُرِّفت عن مواضعها على أيدى أصحابها من اليهود والنصارى. وينتهى من دراساته المتعمقة فى التوراة والإنجيل وعقائد الوثنيين والمجوس والزنادقة إلى أن الدين الصحيح المنزل من السماء هو الإسلام، ويدلل - ببراهين قاطعة - على صحته وصحة النبوة المحمدية والوحى الإلهى، وكيف أن الله نسخ بالإسلام ما أوحى به قبله إلى أنبياء بنى إسرائيل بما فيهم عيسى، إذ يعدُّه - كما يعده المسلمون عامة - نبيًا مرسلًا.

---

(١) بالنثيا ص٥٣٤. وانظر فى مبدأ ديكارت الفلسفى ترجمته فى قصة الفلسفة الحديثة للدكتورين أحمد أمين وزكى نجيب محمود ١/١٠٠.

(٢) النفح ٣/٣٥٣.

٥

التاريخ

نشطت الأندلس -منذ القرن الثالث الهجرى- فى الكتابة التاريخية سواء منها ما اتصل بالتاريخ العام للأندلس وغيرها من الدول العربية أوبالتاريخ الخاص لتلك الدول ومدنها وأعلامها أوبالسيرة النبوية العطرة أوبكتب التراجم من كل لون، ومع كثرة ما فقد فى هذه الجوانب لا تزال بقية كبيرة منها. ويتضح فى كتب التاريخ العام تأثر المؤرخين هناك بالمؤرخين المصريين من أمثال ابن عبد الحكم وكتابه فتوح مصر والمغرب. وأول ما يلقانا من هذه الكتب كتاب لعبد الملك بن حبيب رئيس المدرسة المالكية بعد يحيى الليثى الذى مر بنا ذكره بين فُقهائها، وهو يتحدث فيه عن ابتداء خلق الدنيا وخلق آدم وحواء وقصة إبليس معهما وتاريخ الأنبياء وخاتمهم المصطفى ﷺ وألم بالخلفاء وبفتح الأندلس وولاتها وحكامها إلى زمنه فى عهد عبد الرحمن الأوسط. ومنه مخطوطة بمكتبة بودليانا فى أوكسفورد[١]. ونلتقى بعده بعَريب[٢] المتوفى سنة ٣٣١ وكتابه صلة تاريخ الطبرى وهو مثله على السنوات بادئًا بسنة ٢٩١ حتى سنة ٣٢٠ وفيه أضاف أخبار إفريقيا والأندلس. ولابن حزم المار ذكره بين الفقهاء والمترجم له فى الفصل الأخير رسالة تدخل فى التاريخ العام سماها نقط العروس فى تواريخ الخلفاء ونوادر أخبارهم نشرتُها فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٥١. ولابن الخطيب المترجم له بين الكتّاب كتاب إعلام الأعلام فى تاريخ الأندلس والمغرب. وتكثر الكتب الخاصة بتاريخ الأندلس وفى مقدمتها أخبار ملوك الأندلس لأحمد[٣] بن محمد الرازى المتوفى سنة ٣٤٤ وكتاب الموعب لابنه عيسى، والكتابان مفقودان. ونلتقى بكتاب الأخبار المجموعة، لمؤلف مجهول، ويمتد التاريخ فيه من الفتح إلى زمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠) مما يؤكد أنه ألف فى أيامه. كما نلتقى بكتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية المار ذكره بين اللغويين، وهو يعرض فى الكتاب تاريخ الأندلس من الفتح إلى نهاية أيام الأمير عبد الله

---

(١) راجع مقال د. مكى عن هذا المخطوط فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بالمجلد الخامس ص ١٨٩، ٢٢١.

(٢) انظر فى ترجمة عريب القسم الأول من الجزء الخامس من كتاب الذيل والتكملة للمراكشى ص ١٤١ وكتابه منشور بدار المعارف.

(٣) انظر مصادر ترجمة الرازى بين الجغرافيين ص ٨٩.

(٣٠٠-٣٧٥هـ). ونلتقى فى عصر أمراء الطوائف بابن حيان كبير مؤرخى الأندلس المتوفى سنة٤٦٩ وموسوعتيه التاريخيتين الكبيرتين: المقتبس والمتين وسنلم بهما فى الفصل الأخير. وليحيى[١] بن الصيرفى المتوفى سنة ٥٥٧ كتاب فى تاريخ دولة لمتونة (المرابطين) وجاء بعده ابن صاحب[٢] الصلاة المتوفى سنة ٥٧٧ وله فى تاريخ الموحدين كتاب باسم «المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين وظهور الإمام المهدى إمام الموحدين». ويلقانا عبد الواحد[٣] المراكشى المتوفى بعد سنة ٦٢١ ومع أنه مغربى درس فى الأندلس وعنى بكتابة تاريخها منذ الفتح إلى سنة ٦٢١. وجاء بعده أبو الحجاج البياسى[٤] يوسف بن محمد صاحب كتاب الحماسة المغربية المتوفى سنة ٦٥٣ وله تاريخ ذيَّل به على تاريخ ابن حيان إلى عصره. ويلقانا بعده لسان الدين بن الخطيب، المترجم له فى الفصل الأخير وله كتاب اللمحة البدرية فى الدولة النصرية، وهو تاريخ لبنى الأحمر حكام غرناطة، ومثله كتاب نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر لمجهول.

وتكثر الكتابة فى السيرة النبوية الزكية على هدى سيرة ابن هشام المصرى المتوفى سنة ٢١٨ للهجرة ولابن حزم فيها «جوامع السيرة النبوية» ولابن عبد البر الفقيه المار ذكره فيها كتاب الدرر فى اختصار المغازى والسير، وهما منشوران بدار المعارف. وللقاضى عياض كتاب الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى ﷺ وهو سَبْتى، وأولى لذلك أن نذكره فى الجزء الخاص بالمغرب. وللكلاعى[٥] سليمان بن موسى المتوفى سنة ٦٣٤ كتاب الاكتفاء، بما تضمنه من مغازى رسول الله ﷺ ومغازى الثلاثة الخلفاء وهو منشور بالقاهرة. ولابن[٦] سيد الناس الإشبيلى المتوفى بالقاهرة سنة ٧٣٤ فى السيرة النبوية «عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير» وهو منشور بالقاهرة من قديم فى مجلدين.

وتتكاثر كتب تراجم العلماء من كل صنف والأدباء من شعراء وكتاب، ومن الكتب

---

(١) راجع فى ترجمة ابن الصيرفى التكملة رقم ٢٠٤٥ والمغرب ٢/١١٨.

(٢) انظر ترجمة ابن صاحب الصلاة فى التكملة رقم ١٧٢٦ وكتابه منشور.

(٣) راجع فى ترجمة عبد الواحد مقدمة كتابه المعجب لمحققه محمد سعيد العريان.

(٤) انظر فى ترجمة البياسى المغرب ٢/٧٣ واختصار القدح المعلى (طبع القاهرة) بتحقيق الأستاذ الإبيارى ص ٩٤.

(٥) انظر فى الكلاعى التكملة رقم ١٩٩١ والمغرب ٢/٣١٦ وتحفة القادم رقم ٩٠ وابن فرحون ١/٣٥٨.

(٦) راجع فى ابن سيد الناس الدرر الكامنة للسيوطى ٤/٢٠٨ والنجوم الزاهرة ٩/٣٠٣.

العامة كتاب الاستيعاب لابن عبد البر فى تراجم الصحابة، وكتاب جمهرة أنساب العرب لابن حزم وهو مفيد فى تراجم الأندلسيين والكتابان منشوران. ومن كتب تراجم الأندلسيين العامة تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى[١] عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٤٠٣ وكتاب طبقات الأمم لصاعد[٢] المتوفى سنة ٤٦٢، وجذوة المقتبس للحميدى[٣] محمد بن فتوح المتوفى سنة ٤٨٨ وينتهى به عند المتوفين سنة ٤٤٩ وكتاب الصلة لابن بشكوال[٤] المتوفى سنة ٥٧٨، وكتاب بغية الملتمس للضبى أحمد بن عميرة المتوفى سنة ٥٩٩ وقد اعتمد على الحميدى فى جمهور تراجمه، وكتاب التكملة لابن الأبار المترجم له فى الفصل الرابع المتوفى سنة ٦٥٨ وهو تكملة لكتاب الصلة، وله كتاب الحلة السيراء فى تراجم العلماء والأدباء والأمراء الذين نظموا الشعر فى الأندلس والمغرب وله أيضًا معجم الصدفى وشيوخه وأصحابه، وللملاحى[٥] محمد بن عبد الواحد المتوفى سنة ٦١٩ كتاب فى علماء إلبيرة وغرناطة، وكتاب صلة الصلة لابن الزبير[٦] أحمد بن إبراهيم الغرناطى المتوفى سنة ٧٠٨ وهو صلة وتتمة لكتاب ابن بشكوال. وأخيرًا كتاب الإحاطة فى تاريخ غرناطة وعلمائها وأدبائها لابن الخطيب وهو فى أربعة مجلدات. ومن كتب تراجم الفقهاء والقضاة كتاب الفقهاء لابن عبد البر أحمد بن محمد وتاريخ قضاة قرطبة للخشنى[٧] المتوفى سنة ٣٦١ والمرقبة العليا للنباهى[٨] المتوفى سنة ٧٩٣. ومن كتب تراجم الأطباء طبقات الأطباء والحكماء حتى عصر المستنصر لابن جلجل المتوفى سنة ٣٧٧ ومر ذكره بين الصيادلة. ومن كتب تراجم اللغويين طبقات النحويين واللغويين للزبيدى المار ذكره، وألفت فى أخبار الشعراء بالقرن الرابع كتب مختلفة مفقودة منها كتاب لعبادة بن ماء السماء المترجم له بين الشعراء، ويلقانا كتاب المطرب من أشعار أهل المغرب

---

(١) انظر فى ابن الفرضى كتاب الصلة رقم ٥٦٧ والحميدى ٢٣٧ والمغرب ١٠٣/٦ والذخيرة ٦١٤/٢.

(٢) راجع فى صاعد الصلة لابن بشكوال رقم ٥٣٥.

(٣) انظر مصادر الحميدى بين المحدثين ص ١١٠.

(٤) راجع ابن بشكوال فى التكملة رقم ١٧٩ ومعجم شيوخ الصدفى لابن الأبار رقم ٧٠ وابن فرحون وابن خلكان ٢٤٠/٢.

(٥) انظر فى الملاحى التكملة رقم ٩٦٠ والمغرب ١٢٦/٢.

(٦) راجع فى ترجمة ابن الزبير الذيل والتكملة للمراكشى ٣٩/١ والإحاطة ٨٨/١ والدرر الكامنة ٨٤/١ والمنهل الصافى ١٩٧/١ وطبقات القراء ٣٢/١ وابن فرحون ١٨٨/١.

(٧) انظر فى الخشنى ابن الفرضى رقم ١٣٩٨ والضبى رقم ٩٥ وتذكرة الحفاظ للذهبى ٢٠٩/٣ والأنساب للسمعانى الورقة ٢٠٠.

(٨) راجع فى النباهى الجزء الثانى من أزهار الرياض ونيل الابتهاج لأحمد بابا ص ٣٠٥ وشذرات الذهب ١٠٨/٦.

(الأندلس) لابن دحية[1] المتوفى سنة ٦٣٣. وتكثر الكتب الخاصة بالأدباء من شعراء وكتاب، وفى مقدمتها قلائد العقيان والمطمح للفتح[2] بن خاقان والذخيرة لابن بسام وهى فى ثمانية مجلدات وسنلم بها فى الفصل الأخير، ولابن الأبار غير كتاب ومن كتبه الحلة السيراء المذكورة آنفًا وكتاب تحفة القادم فى تراجم الشعراء ونشر منتخب له بمجلة المشرق فى العددين الثالث والرابع من سنتها الحادية والأربعين، ولابن[3] سعيد المتوفى سنة ٦٨٥ كتاب المغرب وقد نشرت القسم الخاص بتراجمه الأندلسية فى جزءين بدار المعارف، وله الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة وهو منشور بالدار أيضًا، ونشر له بالقاهرة اختصار كتابه القدح المعلى وبه طائفة كبيرة من شعراء الأندلس فى النصف الأول من القرن السابع. ولابن الخطيب كتاب الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، ولابن[4] الأحمر إسماعيل بن يوسف المتوفى سنة ٨٠٧ نثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان. وقبل أن نختم الحديث عن نشاط الأندلسيين فى كتابة التاريخ ينبغى أن نشير إلى أن لهم رسائل سجلوا فيها روائع علمائهم وأدبائهم مثل رسالة فضل الأندلس لابن حزم المدونة فى نفح الطيب، وأهم من ذلك كتب الفهرسة بأسماء الشيوخ وما حُمل عنهم من الكتب مثل فهرسة[5] ابن خير المتوفى سنة ٥٧٥.

---

(١) انظر فى ابن دحية التكملة رقم ١٨٣٢ وصلة الصلة ٧٣ وابن خلكان ٤٤٨/٣.

(٢) انظر فى الفتح بن خاقان معجم الصدف: ٣٠٠ والمغرب ٢٥٩/١ ومعجم الأدباء ١٨٦/١٦ والذيل والتكملة للمراكشى ٥٢٩/٥ وابن خلكان ٢٣/٤.

(٣) راجع فى ابن سعيد الإحاطة ٢٣٠/١ والفوات لابن شاكر ١٨١/١ ومقدمتنا لنشر القسم الأندلسى من كتابه المغرب (طبع دار المعارف).

(٤) انظر فى ابن الأحمر درة الحجال لابن القاضى (طبع الرباط) ١١٦/١ وجذوة الاقتباس ٦٩ ونيل الابتهاج ٩٩.

(٥) راجع فى ابن خير التكملة رقم ٧٨٠ والضبى ٦٥ والذيل والتكملة للمراكشى (تحقيق د. محمد بن شريفة) ٢٩٩/٨ وطبقات القراء لابن الجزرى ١٣٩/٢.

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب الأندلس - كثرة الشعراء

(أ) تعرب الأندلس

مرَّ بنا أنه كان بالأندلس قبل الفتح العربى الإسلامى عناصر جنسية مختلفة، منها الأوربى من الفالة والبسك والجلالقة والإغريق والرومان والفاندال والقوط، ومنها الآسيوى من الفينيقيين والقرطاجنيين واليهود، ونزلها مع الفتح عرب من آسيا: قحطانيون يمانيون وعدنانيون مضريون ونزلها معهم بربر كثيرون من أفريقيا وكانوا ينقسمون مثل العرب إلى قبيلين كبيرين: بُتْر وكانوا ينحازون إلى العرب العدنانيين، وبرانس وكانوا ينحازون إلى العرب القحطانيين، وجلب الحكام الأمويون إلى الأندلس كثيرين من الصقالبة، وبذلك كله كانت الأندلس مجمعا لعناصر جنسية شتى. وذكرنا - فيما أسلفنا من حديث - أن الرومان أدخلوا فيها المسيحية، وأن بعض أهلها شاركوا فى الأدب والفكر اللاتينيين ولكن لا فى موطنهم بالأندلس، وإنما فى روما نفسها حين نشأوا فيها أو هاجروا إليها. والأندلس بل جميع شبه جزيرة إيبيريا لم تستطع فى تاريخها القديم أن تضيف إلى تاريخ الحضارة الإنسانية شيئا ذا بال يذكر لها. ونزلتها منذ أوائل القرن الخامس للميلاد قبائل جرمانية متبربرة من الفندال والقوط قضت - أو كادت - على ما كان بها من حضارة رومانية، وأنزلت بها ضروبا من العسف والظلم حتى كاد أهلها يستحيلون إلى ما يشبه الرقيق، سوى ما نشروا فى البلاد من الجهل، مما جعل الأندلس تلقى العرب والبربر الفاتحين بلهجة رومانسية عامية مجدبة من كل ما يتصل بالعلم والفكر والدين إلا ما كان من مجموعة القس إيزيدور الإشبيلى المتوفى سنة ٦٣٦ للميلاد وقد أشرنا إليها فى الفصل الماضى وقلنا إنها تعرض صورة ساذجة للتاريخ والعلوم ولبعض تفسيرات للكتاب المقدس، كما قلنا إنها تمتلئ بأخطاء كثيرة، وتدل - بوضوح - على ما كان يعم الأندلس وإيبيريا عامة من جهالة مطبقة وتخلف شامل فى مضمار الدين

والفكر والعلوم مع ما كان يعمها من فقدان الحرية والعدل الذى لا تطيب حياة أى شعب بدونهما بل إنها تصبح نُكْرا وشرا خالصين مع ما كان يجثم عليها من الظلم والقهر البشع والبؤس التعس.

وكأنما كُتب للأندلس - حينئذ - أن تتخلص من كل هذه الخطوب المدلهمة بنزول العرب فيها حاملين إلى أهلها تعاليم دينهم السمح فى معاملة أهل الكتاب من النصارى واليهود بمنتهى الرفق، بحيث تُكْفَلُ لهم حريتهم الدينية فى عباداتهم وما يتخذون لها من كنائس وبيوت وشعائر دون أى تدخل، وبحيث يُرْفَع عنهم ثقل الضرائب الفادحة التى فرضها عليهم القوط وأحالوا بها حياتهم إلى صور بغيضة من البؤس والظلم والهوان. وكانت هذه المعاملة الإسلامية الكريمة التى حررت أهل الأندلس من جَوْر القوط بعد أن كانوا مسترقين لهم استرقاقا قبيحا، والتى ملأت الأندلس بالعدل الذى يعطى لصاحب الحق حقه دون أى حَيْف، والذى يسوى بين الناس فى مواجهة الحياة بقسطاس مستقيم، سببا قويا فى أن يعتنق كثيرون من مسيحيىّ الأندلس الإسلام لما يرون فيه من مُثلٍ إنسانية رفيعة، ومن دين قويم لا تشوبه أى شائبة من فكرة التثليث المعقدة فى الدين المسيحى، مع ما يتيح لمعتنقه من سعادة فى دنياه وآخرته، وأيضا لأن من كان يعتنق الدين الحنيف منهم يصبح له جميع حقوق العربى الفاتح لدياره، فله كل ما للمسلمين الفاتحين من هذه الحقوق. وهيأ ذلك سريعا فى الأندلس لأن تدخل أفواج متلاحقة فى الإسلام وكانوا يسمون المسالمة، وسُمّي أبناؤهم باسم المولدين. وينبغى أن نذكر أنه لم يحدث فى تاريخ العرب بالأندلس أن أُكره أحد على الإسلام، فقد كانت الحرية الدينية مكفولة للنصارى واليهود إلى أقصى حد، وكان من أسلم من أهل الكتاب لابد أن يعلن ذلك أمام قاض من قضاة المسلمين فى قرطبة وغيرها من البلدان، وأن يسجل إعلانه لذلك فى وثيقة يُشْهد عليها شاهدين، قائلا فيها إنه يعتنق الإسلام بعد أن وقف على شريعته «طائعا آمنا، غير فارٍّ من شىء ولا مكره، وأنه يحمد الله على أن هداه للإسلام شاكرا له نعمته على هدايته له»[1].

وطبيعى أن يُقْبل من أسلم من أهل الأندلس على تعلم العربية حتى يحسنوا أداء شعائر الإسلام وتلاوة كتابه التى تُعَدّ جزء لا يتجزأ من اعتناقه، وبالمثل دفعوا أبناءهم إلى هذا التعلم، ومعنى ذلك أن شطرا كبيرا من أهل الأندلس تعربوا تعربا كاملا: دينا ولغة،

---

(١) كتاب الوثائق والسجلات لابن العطار (طبع مدريد) ص ٤٠٥ وما بعدها.

وقد بقى وراءهم شطر ظل على مسيحيته، وكان يتخذ لهجة لاتينية عامية أو رومانثية لغةً فى تخاطبه اليومى، غير أنه شعر سريعا بما ذكرناه آنفا من أنها لغة مجدبة فقيرة، وخاصة حين يقرنها إلى العربية، إذ ليس لها تراث أدبى كتراث العربية، وأيضا ليس لها مثلها تراث ثقافى ولا حضارى، تستطيع أن تثبت به أمامها، فضلا عما لأهل العربية فى البلاد من عزة وقوة وسلطان وغلبة، ومعروف أن المغلوب دائما يحاول أن يحاكى الغالب، فما بالنا إذا ظل هذا الغالب يستعلى على مسيحيِّ الأندلس ويهودها ثقافيا وأدبيا وحضاريا لا قرنا ولا قرنين بل قرونا متعاقبة من القرن الثامن الميلادى حتى نهاية القرن الخامس عشر، وهم طوال هذه الحقب كانوا يقفون مشدوهين أمام هذا الفكر العربى الباهر فى العلم والأدب والفلسفة، ويصور ذلك «ترند» فى مقاله بتراث الإسلام قائلا: «كانت قرطبة فى القرن العاشر الميلادى أكثر المدن الأوربية حضارة، وكانت فى ذلك الحين مثار إعجاب العالم، وبلغ من ارتفاع شأنها أن حكام ليون ونبارُّه وبرشلونه كانوا يقصدون إليها كلما مسَّتهم الحاجة إلى جراح أو مهندس معمارى أو مطرب كبير»[1]. ومنذ أواسط القرن الحادى عشر تتحول طليطلة وبعض المدن الأندلسية التى استولت عليها الإمارات المسيحية الشمالية إلى مؤسسات[2] ترجمة ضخمة لكل ما هو عربى من علم وفلسفة وأدب، ويؤمّ طليطلة طلاب العلم من مختلف البلاد الأوربية: الفرنسية والإيطالية والألمانية والإنجليزية فضلا عن البلاد الإسبانية يحمل كل منهم بمقدار طاقته وجهده أقباسًا عربية إلى مدنه وبلدانه، وظل ذلك حتى القرن الخامس عشر للميلاد، وكانت هذه الأقباس من أكبر العوامل فى نهضة أوربا وخروجها من ظلام العصور الوسطى إلى أضواء العصر الحديث. وإنما قلت ذلك كله لأتخذ منه الدليل الساطع على أن من بقى من المسيحيين فى الأندلس على دينه تعرب - مثل زميله الذى اعتنق الدين الحنيف - بحكم ما كان للعربية والعرب من تفوق حضارى وثقافى، وأيضا بحكم ما كان لهم من شعر وأدب رفيع قصص وغير قصص، بينما كانت اللهجة الرومانسية الدارجة فى التخاطب «اليومى» للمسيحيين فى الأندلس وفى شمال إيبيريا فقيرة فقرا شديدا، بحيث لا نستطيع أن نجد مبررًا كافيًا لما ذهب إليه المستشرق الإسبانى ريبيرا فى نظريته[3] الجديدة المفضية إلى أن عرب الأندلس كانوا يستخدمون العربية الفصيحة لغة رسمية يتعلمونها فى

---

(١) تراث الإسلام (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص١٧.

(٢) انظر فى ذلك تاريخ الفكر الأندلسى لبالنثيا ص٥٣٦ وما بعدها وفى مواضع مختلفة.

(٣) راجع هذه النظرية فى بالنثيا ص ١٤٢ وما بعدها.

المدارس ويكتبون بها الوثائق وما إليها، وكانوا فى شئونهم اليومية وأحاديثهم فيما بينهم يستخدمون لهجة من اللاتينية الدارجة أو الرومانثية ، ويقول: إن هذا الازدواج فى اللغة كان الأصل فى نشوء طراز شعرى مختلط تمتزج فيه مؤثرات غربية وشرقية. واتخذ هذا الطراز الجديد من الأدب الشعبى صورتين هما الزجل والموشحة وهما فن شعرى واحد، غير أن الزجل سوقى دارج والموشحة عربية فصيحة. وفى رأينا أن ريبيرا بالغ فى كل ذلك مبالغة أدته إلى نظريته المخطئة.

وقد يشهد لها أن يروى الخشنى عن بعض القضاة بقرطبة أنه كان يعرف اللاتينية الدارجة أو كما كانوا يسمونها العجمية، إذ ذُكر عنه أن شخصا صاح عليه بالعجمية وهو منصرف من مجلس قضاء ليقف له، فقال لمن معه قولوا له بالعجمية إن القاضى قد أدركته الملالة والسآمة[١]. وواضح أنه فهم مراده من صياحه بالعجمية، مما يدل على أنه كان يعرفها. وأوضح من ذلك فى الدلالة على معرفة بعض القضاة للاتينية الدارجة ما ذكره الخشنى من أن رجلا من شهود أحد القضاة يسمى ابن عمار كانت له بغلة هزيلة تلوك لجامها طوال النهار على باب المسجد، فتقدمت امرأة إلى هذا القاضى فى مجلسه بالمسجد، فقالت له بالعجمية: يا قاضي انظر لشقيِّتك هذه (تقصد نفسها) فقال لها بالعجمية: - كما يقول الخشنى - لست أنت شقيتى إنما شقيتى بغلة ابن عمار التى تلوك لجامها على باب المسجد طوال النهار[٢]. وكان بين القائمين على الشهادة عند القضاة بقرطبة شيخ أعجمى اللسان مقبول الشهادة عندهم[٣]. وهذه الأخبار جميعا عند الخشنى لا تدل دلالة قاطعة على أنه كانت بقرطبة فضلا عن الأندلس لهجة لاتينية دارجة يستخدمها العرب فى لغة التخاطب لأنها أخبار فرديةٌ، وممكن أن يكون القاضيان السالفان رُزقا لأمَّين أعجميتين، فتلقَّفَ كل منهما الأعجمية عن أمه. أما اتخاذ القضاة لشاهد أعجمى اللسان فيدل على أنهم كانوا فى حاجة إليه وأنهم كانوا لا يعرفون اللاتينية الدارجة التى يلوكها بعض الأعاجم، فاحتاجوا إلى مترجم يترجم ما يقولون سواء أكانوا من أصحاب الدعاوى أو المتهمين، حتى يحكم القضاة فى قضاياهم عن حسن فِقْهٍ بها ودقة فهم لها. وهو بذلك خبر ينقض ما يقال من أن لغة التخاطب فى قرطبة كانت لهجة لاتينية دارجة، إذ لم تكن كثرة القضاة بها تعرفها. ومما يدلل به أيضا أنصار نظرية ريبيرا أن بعض الألقاب

---

(١) قضاة قرطبة للخشنى (طبعة مصر) ص٩٦.

(٢) الخشنى ص١١٨.

(٣) الخشنى ص٨٤.

اللاتينية ظلت تلاحق بعض أعلام الأسر الإسبانية التى دخلت فى الإسلام، وهو شىء طبيعى أن يظل اللقب اللاتينى القديم ملحقا ببعض الأعلام لأنه رمز الأسرة، وقد يقولون: إننا نجده يَلْحَقُ بعض أبناء العرب أنفسهم من الشعراء وغيرهم، من ذلك أن الشاعر مؤمن بن سعيد المتوفى سنة ٢٦٧ لقّب زميله عبد الله بن بكر بن سابق الكلاعى الشاعر بلقب النُّنْل كما فى المقتبس لابن حيان[١]، وفى التكملة لابن الأبار أنه لقّبه بالقملة ولعلها تحريف لكلمة القنلة Canalla باللاتينية أى النذل[٢]، وكأنما شاع عليه اللقب بالعربية واللاتينية. ويلقانا بعده شاعر يسمى محمد بن يحيى بن زكريا المتوفى سنة ٣٠٢ وكان هجاء كبيرا قذر الثياب دائما، فلقبه بعض معاصريه انتقاما منه بلقب القلفاط، و Calafate باللاتينية الدارجة دهّان السفن بالقار، نبزوه بذلك - كما يرى الدكتور مكى - لقذارة ثيابه. وكان سعيد بن عثمان المروانى شاعر المنصور بن أبى عامر فى أواخر القرن الرابع يُنْبَز بلقب البَلّينه[٤] Ballena وهو باللاتينية الدارجة - كما قال ابن سعيد - الحوت لضخامته. ومثل هذا النبز بالألقاب العجمية لأبناء العرب فى قرطبة والأندلس كان محدودا إذ لا يتجاوز المعروف منه الواضح فى دلالته على النبز عدد أصابع اليدين إن لم يكن عدد أصابع اليد الواحدة، ولذلك لا نستطيع أن نتخذه دليلا على شيوع اللاتينية الدارجة فى تخاطب العرب بالأندلس.

وقد يقول أصحاب نظرية ريبيرا إن فى أيدينا برهانا قويا على صحتها هو ما ذكره ابن حزم فى كتابه «جمهرة أنساب العرب» عن قبيلة بَلِىّ بالأندلس، إذ قال: «دارهم فى الموضع المعروف باسمهم بشمالى قرطبة، وهم هنالك إلى اليوم (فى القرن الخامس الهجرى) على أنسابهم لا يحسنون الكلام باللاطينية لكن بالعربية فقط: نساؤهم ورجالهم»[٥]. ويقولون واضح من هذا النص لابن حزم أن قبيلة بلىّ وحدها فى الأندلس دون القبائل العربية الأخرى لم تكن تحسن الكلام باللاتينية الدارجة، بخلاف سواها من القبائل، إذ كانت تتكلم بها وتتخاطب فى لغتها اليومية. وابن حزم إنما تحدث عن بلىّ وحدها، دون أن ينسب بوضوح إلى غيرها من القبائل أنها كانت تحسن الأداء عما فى نفسها باللاتينية. ولعل مما يؤكد أنه كان وراءها قبائل بل مدن لا تتكلم إلا بالعربية على

---

(١) انظر المقتبس (تحقيق د. مكى طبع بيروت) ص ٩٨ وقابل بالمغرب ١/١١٣.

(٢) التكملة (طبع مدريد) رقم ١٢٤٠ وراجع فى ذلك تعليق د. مكى فى المقتبس ص ٥٠٤

(٣) راجع المغرب ١/١١١.

(٤) المغرب ١/١٩٧.

(٥) راجع جمهرة أنساب العرب لابن حزم (طبع دار المعارف) ص ٤٤٣.

شاكلتها ما جاء عند ياقوت بالقرن السابع فى كتابه معجم البلدان عن أهل شِلْب إذ يقول: «قلَّ أن ترى من أهلها من لا يقول شعرا ومن لا يعانى الأدب، ولو مررت بالفلاح فيها خلف محراثه، وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه وأى معنى طلبت منه»[1]. ويقول ابن الخطيب فى الإحاطة[2] إن أهل غرناطة - فى زمنه بالقرن الثامن الهجرى - ألسنتهم فصيحة عربية ، يتخللها إعراب كثير . وفى الروض المعطار للحميرى المتوفى سنة ٩٠٠ : « مدينة شلب فى الجنوب الغربى للأندلس » ويقول : « إن سكانها وسكان قراها ظلوا يحافظون على اللغة العربية الفصيحة إلى عهود متأخرة »[3] . وكأنما ظل يعيش فى الأندلس ببعض مدنها وديارها عرب لم يفارقوا لغتهم الفصيحة حتى عصور متأخرة . فكيف يذهب باحث إلى أن العرب - أو كثيرًا منهم - هناك زايلت العربية أماكنها من ألسنتهم وعقولهم وقلوبهم وحلت محلها اللاتينية الدارجة فى تخاطبهم اليومى ، بينما كانت الفصحى لغة السياسة والسلطان والحكم ولغة الدين والثقافة والفكر والأدب ؟!

ومما يدل على خطأ نظرية ريبيرا أيضا - من بعض الوجوه - صيحة ألْبَرُو القرطبى المشهورة سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م وفيها يأسى لولع نصارى الإسبان بالأدب العربى ولغته العربية، فما بالنا بولع المسلمين من العرب والإسبان بهذه اللغة وأدبها الرائع، يقول، والحسرة تقطِّع نياط قلبه: «إن إخوانى فى الدين يجدون لذة كبرى فى قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين، لا ليردّوا عليها وينقضوها، وإنما لكى يكتسبوا من ذلك أسلوبا عربيا جميلا صحيحا، وأين تجد الآن واحدا - من غير رجال الدين - يقرأ الشروح اللاتينية التى كتبت على الأناجيل المقدسة ؟! ومَنْ - سِوَى رجال الدين - يعكف على دراسة كتابات الحواريين وآثار الأنبياء والرسل ؟! يا للحسرة ! إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها ويقبلون عليها فى نَهَم، وهم ينفقون أموالا طائلة فى جَمْع كتبها، ويصرِّحون فى كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة بالإعجاب، فإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك فى ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم. يا للألم! لقد أُنسِىَ النصارى حتى لغتهم، فلا تكاد تجد بين الألف منهم واحدا يستطيع أن يكتب إلى صاحب له كتابا سليما من الخطأ. فأما عن الكتابة بلغة العرب فإنك واجد فيهم عددا عظيما يجيدونها فى أسلوب منمق، بل هم ينظمون من الشعر العربى ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنا وجمالا»[4].

---

(١) انظر مدينة شلب فى معجم البلدان لياقوت.

(٢) الإحاطة (الطبعة الأولى) ١ / ١٣٥.

(٣) الروض المعطار للحميرى (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٠٦ .

(٤) راجع نص هذه الصيحة فى بالنثيا ص ٤٨٥ وما بعدها .

وألْبَرُو يصرخ - بأعلى صوته - إن شبان النصارى فى الأندلس لزمنه أصبحوا يشغفون شغفا شديدا بلغة العرب وآدابها الرائعة، حتى لقد نسوا لروعتها الباهرة لغتهم اللاتينية، فإذا هى تملك منهم الألسنة والقلوب وتسيطر على العقول والمشاعر والأحاسيس، وإذا هم يعكفون عليها قارئين متخذين منها أمثلتهم فى الكتابة المنمقة ونظم الأشعار البديعة. ويؤكد بالنثيا تلك الصيحة لألْبَرُو قائلا: «إن كل ما ذكره حقيقى تؤيده تلك القصائد التى نجدها فى خاتمة مخطوط محفوظ فى المكتبة الأهلية بمدريد، وهو يضم مجموعة من القوانين الكنسية، وقراراتها مرتبة أبوابا على حسب موضوعاتها ومترجمة من اللاتينية إلى العربية بقلم قُسٍّ يسمَّى بِنْجِنْسْيس، والكتاب مُهْدًى إلى الأسقف عبد الملك، ونظمت عبارات الإهداء فى قصيدة شعرية عربية لا تفترق فى شىء عما ينظمه العرب المسلمون فى هذا المقام شكلا ومضمونا». ويسوق بالنثيا أربعة أبيات بديعة من تلك القصيدة، ثم يقول: «والكثير من الكتب اللاتينية التى كتبها المستعربون (من نصارى الإسبان) تحمل هوامشها شروحا وتعليقات عربية.. وقد ظلوا يستخدمون العربية زمنا طويلا بعد زوال سلطان الإسلام من الجزيرة (فى طليطلة وغيرها من المدن الأندلسية الوسطى والغربية والشرقية) وظلوا يكتبون بلغة العرب وقانعهم ويتسمَّون بأسماء عربية حتى أوائل القرن الرابع عشر، كما يتضح من الوثائق التى خلَّفها لنا مستعربو طليطلة»[١].

ويشهد لبالنثيا وألْبَرو أن نجد بين الإسبان المسيحيين من بلغ من إتقانهم العربية أن عُيِّنوا كتابا فى دواوين الدولة الأموية منذ أواسط القرن الثالث الهجرى مثل قومس بن أنتنيان الذى مرَّ ذكره فى الفصل الأول لعهد الأمير محمد بن عبدالرحمن. وإذا كان ألبرو يشهد بتعرب الإسبان المسيحيين بحيث أصبحوا يستحبُّون العربية على لغتهم اللاتينية الدارجة فإن اليهود الذين كانوا يعيشون بإسبانيا منذ قرون طويلة تعرَّبت - فى ظننا - كثرتهم حتى لنجد كتب التراجم الأدبية الأندلسية تترجم لنفر منهم بين كتاب الأندلس وشعرائها وموسيقييها ووشَّاحيها، وقد ترجم ابن سعيد فى كتابه المغرب لسبعة منهم، هم: إسماعيل بن يوسف بن النغريلة وزير باديس بن حبوس فى غرناطة وكان سيئ السيرة، وكذلك لابنه يوسف وكانا شاعرين، ولمعاصرهما حسداى بن يوسف بن حسداى كاتب بنى هود بسرقسطة، وقد أقاله الله من دينه، فأسلم وحسن إسلامه، وكان أديبا مجيدا شعرا ونثرا، وله ترجمة طويلة فى كتاب الذخيرة وكان أبوه كاتبا عند بنى هود قبله، وعين

(١) انظر بالنثيا ص ٤٨٦ وما بعدها.

عبد الرحمن الناصر جده حَسْداى كاتبا فى دواوينه. وممن ترجم لهم ابن سعيد بين شعراء المائة السادسة إلياس بن صَدّود الطبيب وإسحق بن شمعون وكان يحسن الغناء والضرب على الآلات الموسيقية الأندلسية. وترجم ابن سعيد لشاعر يهودى طليطلى مستعرب هو إبراهيم بن الفخار رسول ألفونس إلى الأئمة فى دولة الموحدين. وترجم ابن سعيد فى القرن السابع أيضا لإبراهيم بن سهل الإسرائيلى الإشبيلى الذى آثر الإسلام دينا وعقيدة، وكان شاعرا نابها ووشاحا مجيدا. ومما يدل على اتساع التعرب بين يهود الأندلس أن نجد بين نسائهم شاعرات مجيدات مثل قَسْمونة بنت إسماعيل اليهودى وكان أبوها - كما يقول المقّرى - شاعرا واعتنى بتأديبها، وكانت تطارحه الشعر، وكان ربما نظم قسما من موشحة، فأتمتها هى بقسم آخر. ومما يؤكد أن الكثرة من يهود الأندلس تعربت تعربا كاملا أنه حين أخذ الإسبان والغربيون يطلبون ترجمة الثقافة العربية إلى الإسبانية الدارجة واللاتينية كان لهم فى ذلك دور ضخم، سوى ما تمثلوه من تلك الثقافة فى لغتهم العبرية، حتى ليقول بالنثيا: «نبعت ثقافة يهود إسبانيا من موارد الثقافة الإسلامية الأندلسية بصفة مباشرة»[١].

ولعل فى ذلك كله ما ينقض - بوضوح - نظرية ريبيرا المفضية إلى أن عرب الأندلس كانوا يستخدمون فى شئونهم اليومية وأحاديثهم فيما بينهم لهجة من اللاتينية الدارجة أو العجمية، لأن فى ذلك ما يخالف الحقائق الكبرى التى قدمناها. وأيضا فإنه لايستطيع أحد أن يقول إن نصارى الإسبان فى الأندلس ويهودها لم يكونوا يستخدمون فى تخاطبهم اليومى العامية العربية الأندلسية، بينما سموا مستعربين وهو اسم لصق بهم طوال امتزاجهم بالعرب قرونا متوالية. وكل ما يستدل به ريبيرا على نظريته المخطئة ظهور طراز جديد من الأدب الشعبى فى الأندلس اتخذ صورتين هما الموشحة والزجل، ومعروف أن الموشحة سبقت فى نشأتها الزجل بأكثر من قرنين على الأقل وأنها كانت تنظم بالعربية الفصحى فى جمهورها، إلا ما قد يتظرف به ناظمها فى الحين بعد الحين من ذكر كلمات رومانسية فى نهايتها، على نحو ما سنوضح ذلك فيما بعد. ومعروف أيضا أن الزجل لا ينظم بلاتينية دارجة، إنما ينظم بعامية أندلسية تتراءى فيها أحيانا ألفاظ من اللغة اللاتينية الدارجة، وهى ليست عامية لاتينية، إنما هى عامية عربية، شأنها شأن العاميات التى نشأت فى جميع البلاد العربية من التقاء الفصحى فيها بلغات أهلها

---

(١) راجع دور اليهود فى ترجمة الثقافة الأندلسية عند بالنثيا ص ٤٨٨ و٥٣٧.

الوطنية، وقد دخلتها فى كل بلد عربى بعض خصائص تلك اللغات فى النبر والتصريف، كما دخلتها ألفاظ منها كثيرة. وهو ما حدث فى الأندلس على نحو ما يتضح فى أزجالها، فهى منظومة بعربية عامية تتخللها من حين إلى حين ألفاظ من اللهجة الرومانثية التى كانت مستقرة فى الأندلس قبل الفتح العربى وظلت حية فيها وراءها من الإمارات المسيحية فى الشمال، وبالمثل فى الأندلس على ألسنة بعض النصارى والجوارى الإسبانيات والمسترقين من الإسبان فى الحروب، وانزلقت منها بعض ألفاظ فى الأزجال. وبين أيدينا نصوص لا تكاد تحصى أو تستقصى من هذه الأزجال المنظومة بالعامية، وليس فيها أى نص مكتوب أومنظوم باللهجة الرومانثية الدارجة فى الأندلس، مما يؤكد أن نظرية ريبيرا المفضية إلى شيوع تلك اللهجة على ألسنة عرب الأندلس مخطئة وكل ما يمكن أن يقال أن بعض عرب الأندلس كانوا يعرفون تلك اللهجة أويلمون بشىء منها بجانب الفصحى والعامية العربية الأندلسية المتداولة فى الألسنة. ولم يكتب الزجالون بتلك العامية أزجالهم وحدها، بل كتبوا معها أيضا قصائد نظموها على أوزان العروض العربى، على نحو ما يلقانا عند أبى عبدالله أحمد بن الحاج المعروف باسم مَدْغَلِّيس، وهو من شعراء القرن السادس الهجرى، إذ ذكر صفى الدين الحلى فى كتابه: «العاطل الحالى» أنه قرأ له فى ديوانه بجانب أزجاله ثلاث عشرة قصيدة عامية على أوزان الشعر العربى، وقد سمَّى أوزان عشر قصائد منها، وهى أربع من وزن المديد، واثنتان من وزن الرمل، وأخريان من وزن الخفيف، وقصيدة من وزن المتقارب وأخرى من وزن مخلَّع البسيط، وأنشد من كل قصيدة مجموعة غير قليلة من أبياتها العامية[1]. ومن المؤكد أن الأزجال عند مدغليس وغيره كانت مثل هذه القصائد العامية تنظم على أوزان الشعر العربى كما سيتضح - فيما بعد - فى تعليقنا على ما ننشده من بعض الأزجال.

والأندلس - بذلك كله - لم يتداول أهلها من العرب فى ألسنتهم لهجة لاتينية دارجة كما توهم ريبيرا، إنما تداولوا فيها عامية عربية، كان يتداولها العامة بالأندلس فى تخاطبهم اليومى بالأسواق وغير الأسواق، واشترك معهم فيها أوساط المثقفين مع تمسكهم بالفصحى وآدابها الرفيعة، يستوى فى ذلك المسلمون والمسالمة، كما يستوى المسيحيون المستعربون ممن تحدث عنهم ألبرُّو آنفًا. والشعب الأندلسى - فى هذا الصنيع - يلتقى

---

(١) راجع كتاب العاطل الحالى والمرخص الغالى لصفى الدين الحلى بتحقيق حسين نصار (نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة) ص ١٥ وما بعدها.

بجميع الشعوب الإسلامية فى البلدان العربية المختلفة. إذ كانت الأوساط الثقافية فيها جميعًا تتمسك بالفصحى وتتمثل آدابها وتشارك فيها بما تنتج من شعر ونثر. وفى الوقت نفسه تتحدث هذه الأوساط بلغة عامية دارجة مثلها فى ذلك مثل العامة من حولها، وهى لغة أهمل فيها الإعراب، ودخلتها بعض خصائص وألفاظ من اللغات القديمة التى كانت سائدة فى تلك البلدان قبل أن ينزلها العرب ويستقروا فيها ويتخذوها أوطانًا جديدة لهم. وكما أن العامة بمختلف البلدان العربية بدَّلت فى بعض ألفاظ العربية تبديلات مختلفة فى حركاتها وانزلقت من كلماتها السوقية والعامية بعضُ ألفاظ إلى كتابات الكتّاب وقصائد الشعراء مما جعل بعض اللغويين فى المشرق يؤلف كتبًا فى لحن العامة، حتى يجتنبه الأدباء وينحّوه عن كتاباتهم وأشعارهم على نحو ما نعرف عند الكسائى البغدادى المتوفى سنة ١٨٩ للهجرة كذلك ألّف الزبيدى القرطبى الذى مرَّ ذكره بين اللغويين الأندلسيين فى القرن الرابع الهجرى كتابًا فى لحن العوام حتى ينبِّه الكتّاب والشعراء إلى ما أفسدته العامة من ألفاظ العربية ودخل أحيانًا فى كتاباتهم وأشعارهم حتى يتبيَّنوه ويجتنبوه[١].

وإذن فقد كانت تشيع عامية عربية فى الأندلس على ألسنة العرب والمستعربين لا لاتينية دارجة أو رومانثية ، كما ظن ريبيرا. وهى عامية كانت تهمل الإعراب وتفسد أحيانا النطق السليم لبعض ألفاظ العربية شأن العاميات التى نشأت فى البلدان العربية الأخرى، وقد كتب فيها - كما ذكرنا - العلماء اللغويون من أمثال الزبيدى كتبا. ونظم فيها زجالون أزجالا كثيرة. وأحيانا دواوين زجلية، وأضاف بعض الزجالين إلى أزجالهم قصائد عامية، وهو تراث عربى أندلسى عامى ضخم، وهو لا يقاس من حيث الضخامة إلى ما خلفت العربية هناك من تراث فصيح هائل ثقافى وأدبى وعلمى وفلسفى، بحيث نستطيع أن نقول بحق إن العرب أنشأوا فى الأندلس شعبا عربيا كبيرا ظل بها ثمانية قرون متعاقبة، وظل عربىَّ اللغةِ فصيحةً وعاميةً، وظل عربىَّ الدين والحضارة كما ظل عربى الثقافة والعقل والفكر والشعور والوجدان.

---

(١) انظر مقدمة كتاب لحن العوام للزبيدى بتحقيق الدكتور رمضان عبد التواب (طبع مكتبة دار العروبة بالقاهرة).

(ب) كثرة الشعراء

كان طبيعيا أن يظل نشاط الشعر بالأندلس محدودا زمن الولاة (٩٢ - ١٣٨هـ) وصدر الدولة الأموية هناك حتى عهد الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦هـ) لأن أكثر العرب الفاتحين للأندلس كانوا يمنية، والشعر إنما ينشط على ألسنة العدنانيين، وربما نُظمت أشعار فى تلك الفترة لم يسجلها الرواة، ومع ذلك فقد حدثونا عن شاعر مضرى مبكر فى عصر الولاة لم يلحق زمن الدولة الأموية هو جَعْونة الكلابى كان مدّاحا للصُّمَيْل بن حاتم مستشار يوسف بن عبد الرحمن الفهرى والى الأندلس منذ سنة ١٢٩ للهجرة، وأنشدوا بعض شعره، كما أنشدوا أشعارا لعبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية وابنه الأمير هشام وحفيده الحكم الربضى. ويظل الرواة ينشدون أشعارًا لأمراء البيت الأموى. وقد أخذ هذا البيت القرشى فى رعاية الشعر منذ أول ولايته فى الأندلس، ويذكرون من الشعراء فى عصر الداخل قاضيه معاوية بن صالح وابن عم جده بشر بن عبد الملك المروانى الداخل إلى الأندلس فى صدر أيامه وحبيب بن عبد الملك المروانى وكانت له عند الداخل مكانة عليّة. واشتهر من الشعراء فى عهد الأمير هشام أبو المخشىّ عاصم بن زيد المتوفى فى دولة ابنه الحكم الربضى، واشتهر لزمن الحكم غِرْبيب بن عبد الله الثقفى الطُّلَيْطلى المتوفىّ فى أول دولة عبد الرحمن الأوسط ابن الحكم (٢٠٦ - ٢٣٨هـ) وعهده يُعَدّ - كما مر بنا - بدء الازدهار الحضارى والثقافى بالأندلس، وأيضا بدء الازدهار الأدبى، وحظى بنزول زرياب فى قرطبة لأول حكمه، ودَفْعه لنهضة غنائية وموسيقية تحدثنا عنها فى غير هذا الموضع. ورافق ذلك نشاط واسع للشعر وإعزاز لمكانته ورعاية متصلة من عبد الرحمن الأوسط لشعرائه، ونعد من مشهوريهم عباس بن ناصح قاضى الحكم الربضى على شذونة والجزيرة، ومرّ بنا - فيما أسلفنا - أن عبد الرحمن الأوسط وجّه به إلى العراق فى التماس الكتب القديمة التى تحمل علوم الأوائل فجلب منها إلى الأندلس كنوزا كثيرة أكبّ عليها الأندلسيون، وبدءوا نهضتهم فى إساغة تلك العلوم ثم الإضافة إليها - فيما بعد - إضافات باهرة. ومن مشهورى الشعراء أيضا فى هذا العهد يحيى الغزال الذى بدأ ظهوره فى عهد الحكم الربضى وعاش طويلا حتى سنة ٢٥٠ للهجرة، ومثله عباس بن فرناس صاحب قصة الطيران المشهورة، وقد نجم فى عهد الحكم وعاش حتى سنة ٢٧٤. وكان يعاصرهما عبد الله بن الشِّمْر منجم الأمير عبد الرحمن الأوسط ونديمه وعثمان بن المثنى مؤدب أبنائه، ومثله

عبد الله بن بكر الكلاعى الملقب بالنذل، ومثلهما أبو عثمان سعيد بن الفرج الملقب بالرشاش، وكان من آدب الناس فى زمانه وأقومهم على لسان العرب، يقال إنه كان يحفظ أربعة آلاف أرجوزة. ومن مشهورى الشعراء لعهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) عبد الله بن حسين بن عاصم الثقفى جليسه، ووزيره عبد الملك بن أحمد بن شهيد وعامر بن عامر بن كليب، ومحمد بن عبد العزيز العتبى وله مدائح كثيرة فى الأمير وابنه القاسم ووزيره هاشم بن عبد العزيز، ومؤمن بن سعيد كبير شعراء قرطبة كما يقول ابن حيان، ولكل هؤلاء تراجم وأشعار فى المغرب والمقتبس. وممن تدور أسماؤهم من الشعراء فى المقتبس لعهد الأمير محمد طاهرُ بن حزم وتمام بن أحمد بن عامر وعبد الله بن محمد الموروري وأحمد بن محمد بن فرج البلوى. ومن الشعراء المشهورين لعهد الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) حسب تعداد ابن حيان لهم فى المقتبس ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، ويقول إنه زعيمهم وسابق حلبتهم وعبيد الله بن يحيى بن إدريس وسبحظى عبد الرحمن الناصر بمدائحهما له حتى وفاتهما لعهده، وعِداد ابن عبد ربه فى بيوتات المولدين ومثله عداد ابن إدريس فى بيوتات المولدين لعهد الدولة المروانية كما يقول ابن حيان. ومضى يعد من شعراء الأمير عبد الله مقدم بن معافى القبرى مخترع الموشحات وهو عربى صليبة كما سنعرف فيما بعد وقاسم بن عبد الواحد العجلى وأحمد بن قلزم وإسحاق المنادى وزيد بن ربيع وسعيد بن عبد ربه المطبِّب ابن أخى الشاعر ابن عبد ربه وعبيديس بن محمود، وكان كاتبا فى القصر وله مدائح كثيرة فى الأمير عبد الله، ثم خرج إلى عبيد الله بن أمية المعروف باسم ابن الشاليه الثائر بجيّان فكتب له وامتدحه بشعر كثير، كما امتدح زميله الثائر مثله على الدولة ابن حفصون. ومن أهم الشعراء حينئذ القلفاط محمد بن يحيى المار ذكره وله مدائح فى الأمير عبد الله وأيضا فى كثيرين من الثوار على الدولة. ومر بنا فى الفصل الأول أن الفتن كانت قد تفاقمت لعهد الأمر عبد الله فى ديار كثيرة بالأندلس بين المستعربين والمسالمة والمولدين من جهة وبين العرب من جهة ثانية وكانت من الديار التى حدثت فيها هذه الفتنة إلبيرة ومعها غرناطة، ونشبت بين الطرفين فيها حروب ووقائع كثيرة. والمهم أن ذلك أدى إلى ظهور شعراء ينتصر كل منهم لجماعته ويهجو متوعدا الجماعة المقابلة، واشتهر من هؤلاء الشعراء بين العرب سعيد بن سليمان بن جودى والى الأمير عبد الله على غرناطة، وشعره يفيض بحمية قوية للعرب وتوعد شديد لخصومهم، وأدار شاعران: عربى هو الأسدى محمد بن سعيد بن مخارق، ومولد من أبناء المسالمة هو العبلى عبد الله مناقضات، يناضل فيها كل منهما عن قومه.

ونفر غير قليل من شعراء الأمير عبد الله عاشوا فى عهد حفيده عبد الرحمن الناصر لذى امتد خمسين عاما حتى سنة ٣٥٠ للهجرة يقول ابن حيان: «اجتمعت له حَلْبة من فحول الشعراء أمراء الكلام افتنوُّا فى تقريظه وتوسعوا فى ذكر عدالته وسماحة كفه وشجاعة قلبه وجزالة رأيه وثقوب فهمه وبصره بتدبير حروبه واتصال فتوحه.. فأبدعوا فيما تناولوه به من ذلك بفضل اقتدارهم ومكانهم من صناعتهم فزادوا دولته حسنا وبهاء وكان المقدمون لديه من طبقتهم عدة خناذيذ[1] مقدَّمهم معلمه فى الصبا ابن عبد ربِّه ، ويليه من غمطه عبيد الله بن يحيى بن إدريس وعبد الملك بن سعيد المرادى وإسماعيل بن بدر وأغلب بن شعيب وحسن بن حسان السُّناط وغيرهم من كبار الطارئين عليه من المشرق مثل طاهر بن محمد البغدادى ومحمد بن الحسين الطُّبْنى الإفريقى»[2]. ويذكر ابن حيان فى الجزء الخامس الخاص بالناصر من المقتبس لهم مدائح كثيرة كانوا يهنئونه فيها بانتصاراته وخاصة لابن عبد ربه وابن إدريس ولشعراء آخرين مثل جعفر المصحفى ومحمد بن أضحى صاحب الحامَّة وعبد الملك بن جهور وزيره وأحمد بن محمد الرازى الذى مر ذكره بين المؤرخين. وكثير من هؤلاء الشعراء باستثناء الأولين يدخلون فى عداد شعراء ابنه الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) وفى مقدمتهم جعفر المصحفى مولاه وحاجبه ومحمد بن الحسين الطُّبْنى ومن شعرائه المهمين وزيره أحمد بن عبد الملك بن شهيد ويحيى بن هذيل ومحمد بن شخيص وأحمد بن فرج الجيَّانى صاحب كتاب الحدائق. وكان الحكم مِثل أبيه الناصر - شاعرا، وأنشد له صاحب المغرب أشعارا بديعة، وكذلك أنشد لأخوته عبد الله ومحمد وعبد العزيز ولابن أخيهم محمد بن عبد الملك بن الناصر. ويخلفه ابنه المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩هـ) ويحجب له المنصور بن أبى عامر ثم ابناه المظفر والناصر، وتصبح الدولة دولتهم، وليس للمؤيد حول ولا طول، وتنشب بقرطبة فتنة تظل نحو عشرين عاما، ويُقْضى فيها على الحكم الأموى قضاء مبرما. ومن مشهورى الشعراء فى الدولة العامرية والسنوات العجاف بعدها عبد الملك بن أحمد بن شهيد، وابنه أحمد صاحب رسالة التوابع والزوابع المشهور بجودة نثره وشعره، والبلينه سعيد بن عثمان المروانى وهو من مداح المنصور بن أبى عامر، والقائد يَعْلَى بن أحمد بن يَعْلَى وعبد الملك بن إدريس الجزيرى كاتب المنصور وابن النظام عبد الرحمن بن محمد والمطرف بن عمر الهُشَيْمى وعبد الله بن أبى الحسن

---

(١) الخناذيذ جمع خنذيذ،وهو من الشعراء: المجيد المحسن.

(٢) راجع الجزء الخامس من المقتبس (طبع المعهد الاسبانى العربى للثقافة بمدريد) ص٤٠ وما بعدها.

ومحمد بن شخيص شاعر المستنصر ويوسف بن هرون الرمادى المتوفى سنة ٤١٣ ومحمد بن الحسين الطُّبْنى وجعفر بن أبى على القالى، وعيسى بن الحسن، وعُبادة بن ماء السماء المتوفى سنة ٤١٩ وابن الكتّانى محمد بن الحسن المذحجى المطبِّب وابن دراج القسطلى وأمية[1] بن غالب المورورى.

ومما يدل بوضوح على كثرة الشعراء فى زمن الدولة الأموية منذ القرن الثالث أن نجد كثيرين من الأندلسيين يعنون بالترجمة لشعرائهم منذ صدر القرن الرابع الهجرى، على نحو ما. نجد عند عثمان بن ربيعة المتوفى سنة ٣١٠ واسم كتابه «طبقات الشعراء بالأندلس» وتتوالى بعده المصنفات التى تعنى بتاريخ الشعراء الأندلسيين وعَرْض أشعارهم مثل شعراء الأندلس لابن سعيد الكنانى المتوفى سنة ٣٢٠ وأخبار شعراء الأندلس لمحمد بن هشام الأموى فى زمن عبد الرحمن الناصر، والشعراء من فقهاء الأندلس لقاسم بن نصير المتوفى سنة ٣٣٨ وشعراء الأندلس لمحمد بن عبد الرءوف الأزدى المتوفى سنة ٣٤٣ وشعراء إلبيرة لمطرف بن عيسى الغسانى المتوفى سنة ٣٥٧ وكتاب الحدائق لأحمد بن فرج الجيانى، ومرَّ بنا فى الفصل الماضى أنه ألفه للحكم المستنصر معارضا به كتاب الزهرة لابن داود البغدادى وكان ابن داود وزَّع كتابه على مائه باب وأودع فى كل باب مائة بيت، فجعل ابن فرج كتابه - كما مر بنا - فى مائتى باب وفى كل باب مائتا بيت، افتخارا بذلك لأهل موطنه وبيانا لتفوقهم فى الشعر وبراعتهم فيه. وألف بعده ابن الفرضى المتوفى سنة ٤٠٣ كتابا فى أخبار شعراء الأندلس، وبنفس العنوان ألف عبادة بن ماء السماء كتابا مماثلا. وألف ابن الكتّانى «كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس» وهو نماذج من التشبيهات البديعة اختارها للشعراء الأندلسيين حتى زمنه، وقد ألممنا به فى حديثنا عن عناية الأندلسيين بالبلاغة العربية فى الفصل الماضى. وفى سرد تلك الكتب العشرة ما يدل بوضوح على كثرة الشعراء الأندلسيين كثرة مفرطة زمن الدولة الأموية.

ونمضى إلى عصر أمراء الطوائف، وقد أدَّت المنافسة بينهم إلى أن يجمع كل منهم حوله كوكبة من الشعراء ولعل إمارة لم تُعْنَ بجذب الشعراء إليها كما عُنيت إمارة بنى عباد بإشبيلية، فقد أكثروا من إغداقهم على الشعراء، وليس ذلك فحسب، فقد أحالوا إشبيلية

---

(١) انظر تراجم هؤلاء الشعراء فى المغرب وخاصة فى كتاب مدينة الزاهرة ١٩٧/١-٢١١.

إلى دار غناء ضخمة، وكانت مجالس المعتضد وابنه المعتمد ندوات كبيرة لالتقاء الشعراء وإنشادهم مدائحهم فى الأميرين، وكانا شاعرين، وخاصة المعتمد إذ كان شاعرا كبيرا وله ديوان شعر منشور. ويترجم ابن بسام فى الذخيرة وابن سعيد فى المغرب لشعراء إشبيلية والوافدين عليها فى عهد المعتضد والمعتمد، وهم يعدون بالعشرات، نذكر منهم لعهد المعتضد أبا عامر بن مسلمة صاحب كتاب الارتياح فى وصف حقيقة الراح ألفه للمعتضد وإسماعيل بن عامر الحميرى الملقب بحبيب صاحب كتاب البديع فى وصف الربيع وأبا جعفر أحمد بن الأبار وأبا حفص عمر بن الحسن الهوزنى وعلى بن غالب بن حصن ومحمد بن ديسم وأحمد بن محمد الإشبيلى وإبراهيم بن خيرة بن الصباغ وعبد الله بن حجاج وأبا القاسم محمد بن عبد الغفور وابن زيدون القرطبى الذى اتخذه وزيرا ومدبّرًا لشئون دولته منذ نزوله بإشبيلية سنة ٤٤١. وكان ابنه المعتمد راعيا كبيرًا للشعر والشعراء، ومن شعرائه أبو الوليد محمد بن عبد العزيز المعلم وزيره وكاتبه وأبو القاسم بن الجد وأبو القاسم بن مرزقان وابن المِرْعِزِّى النصرانى الإشبيلى. وكاد أن لا ينجم فى بلد من بلدان الأندلس شاعر كبير إلا ويفد عليه ويقدم مدائحه إليه من مثل ابن عمار الشلبى الذى وفد على أبيه، وانعقدت بينه وبين المعتمد صحبة حتى إذا أفضت الإمارة إليه جاءه فتلقاه بأعظم قبول، وظلت الصلة بينهما وطيدة إلى أن أفسدها ابن عمار. ومن كبار شعراء الأندلس الوافدين عليه من البُشَرات فى إلبيرة ابن القزاز محمد بن عُبادة، ومن المريّة يوسف بن عبد الصمد، ومن مرسية عبد الجليل بن وَهْبون الذى تغنى طويلا بانتصاره مع يوسف بن تاشفين فى موقعة الزلاقة، ومن دانية ابن اللبانة الذى تفجع على دولته تفجعا مريرا حين نفاه ابن تاشفين إلى أغمات بمراكش. وممن وفد عليه أيضا ومدحه ابن حمديس شاعر صقلية المشهور.

ولعل فى هذا العرض السريع للشعراء المستوطنين والوافدين على إمارة إشبيلية ما يصور - من بعض الوجوه - كثرة الشعراء فى عهد أمراء الطوائف وحقا لم تبلغ إمارة من إماراتهم ما بلغته إشبيلية من رعاية الشعراء حينئذ، غير أنه لم تكد تخلو إمارة من شعراء يحفون بها وبأمرائها، ولنأخذ مثلا المريّة، فقد كان من أمرائها راعٍ كبير للشعر هو المعتصم بن صُمادح الذى ظل على إمارتها نحو أربعين سنة وكان شاعرا، وكذلك كان أبناؤه أبو يحيى وأبو جعفر أحمد وأبو محمد عبد الله وأختهم أم الكرم وكانت تنظم الشعر والموشحات، ومن مداحه يوسف بن عبد الصمد الوافد على المعتمد فى إشبيلية، وأبو حفص بن الشهيد، وابن الطراوة سليمان بن محمد، ومن كبار الشعراء الوافدين

عليه من الأندلس وغيرها الأشكركى يوسف بن محمد وابن القزاز محمد بن عبادة الإلبيرى الذي كان يفد على المعتمد بإشبيلية وابن الحداد محمد بن أحمد الوادى آشى والأسعد بن بلِّيطة الطُّليطلى وابن شرف القيروانى. وتكتظ الذخيرة وكتاب المغرب بشعراء إمارات الطوائف المختلفة.

وكان تعدد هذه الإمارات سببا فى أن تتعدد بالأندلس المراكز التى تُغْدَقُ على الشعراء فيها الأموال والعطايا الجزيلة، مما لم يكن مألوفا زمن الدولة الأموية، إذ كانت قرطبة وحدها هى التى تنثر الدنانير، أما فى هذا العصر فقد أخذت منها هذه المكانة - أو قل بزَّتها فيها - مدن كثيرة من مثل إشبيلية والمريَّة ومُرْسية ودانية وبطليوس وطليطلة وسرقسطة وغرناطة، ودفع ذلك إلى ظاهرة مستجدة فى هذا العصر هى ظاهرة الشعراء الجوَّالين الذين يرحلون من إمارة إلى إمارة أو من أمير إلى أمير فى طلب النوال والمال مثل أسعد بن بلِّيطة الطليطلى وابن القزاز محمد بن عبادة وأبى عامر بن الأصيلى وكان جواب آفاق وعبد الرحمن بن مقانا الأشبونى المبدع، ورأى أن يرجع أخيرا إلى موطنه «القَبْذاق» ويشتغل فيها بالزراعة بعد أن كلَّت قدماه وأضناه التطواف على الإمارات والأمراء[١]. وأخذت تشيع حينئذ ظاهرة غريبة هى ظاهرة المداحين المتسوِّلين من أهل الكُدْية الذين يسميهم ابن بسام فى الذخيرة باسم القوَّالين، وهم لا ينظمون شعرا ولا مديحا، وإنما ينشدون غرر القصائدعلى الأبواب وفى الأسواق يَسْتجدون بها الناس بما يسمعونهم من شعر رائع يمتعونهم به، ويذكر ابن بسام من ذلك الشعر قصيدة ابن مُقانا:

ألبرقٍ لائحٍ من أنْدرينْ ذرفتْ عيناك بالدمع المَعِينْ[٢]

ويقول إن طائفة القوالين فى الأندلس كانوا يتداولون أكثر أبياتها لما تشتمل عليه من عذوبة فى اللفظ وسلاسة[٣].

وينتهى عصر الطوائف وأمرائه، وتدخل الأندلس فى عصر المرابطين (٤٨٤ - ٥٤١هـ) وكانوا مشغولين بحرب النصارى فى الشمال، ولم يكن لهم اهتمام بالشعر والأدب، غير أنهم لم يلبثوا - وخاصة ولاتهم فى الأندلس - أن أشربوا روح الأندلس وثقافتها وعنايتها بالشعر، وطبيعى أنْ ظلَّ يعيش فى عصر المرابطين شعراء كثيرون ممن نشأوا فى عصر أمراء الطوائف، ومن الشعراء فى هذا العصر عبد الله بن سارة وابن أبى

---

(١) الذخيرة ٧٨٧/٢.

(٢) أندرين: قرية بالشام.

(٣) الذخيرة ٧٩١/٢.

الخصال الكاتب وابن الزقاق وابن خفاجة وعبد العزيز بن القبطورنة وعلى بن الإمام ومحمد بن الجراوى الغرناطى وعبد الرحمن بن مالك ويحيى بن الصيرفى وله كتاب فى تاريخ الدولة اللمتونية أو دولة الملثمين أو المرابطين ومحمد بن أحمد بن حجاج وجعفر بن الحاج وأمية بن أبى الصلت والفتح بن خاقان صاحب القلائد والمطمح وابن بسام صاحب الذخيرة وأبو بكر المخزومى الأعمى وأبو العلاء بن الجنان وابن عائشة الكاتب وأبو بكر بن العربى وابن العريف وأبو أمية بن عصام وعبد الحق بن عطية وعبد المجيد بن عبدون وجعفر بن محمد بن الأعلم ومحمد بن الروح وابن الفخار الأصولى المالقى، ومن كبار الشعراء الوشاحين فى العصر الأعمى التطيلى ويحيى بن بقى واليكى يحيى بن سهل والأبيض أبو بكر محمد بن أحمد الأنصارى وأبو عبد الله بن أبى الفضل بن شرف وأبو الحسن بن نزار وابن باجة الفيلسوف. ولكل هؤلاء الوشاحين والشعراء تراجم وأشعار فى كتاب المغرب لابن سعيد، وأيضا فإنه ترجم لابن قزمان الواضع النهائى لفن الزجل الأندلسى وديوانه منشور منذ القرن الماضى وقد توفى سنة ٥٥٥ بعد عصر المرابطين بنحو خمسة عشر عاما، وهو لذلك حرى بأن يلحق بعصرهم.

ونمضى إلى عصر الموحدين ونرى ابن سعيد فى كتابه المغرب يترجم فيه لأكثر من أربعين شاعرا نذكر منهم أحمد بن شطرية القرطبى وابن خروف على بن يوسف ومحمد بن الصفار الأعمى القرطبى والهيثم بن أحمد بن الهيثم ومحمد بن عياض اللبلى والخراز البسطى وابن طفيل الفيلسوف وأبا عامر محمد بن الحمارة تلميذ ابن باجة ومحمد بن عبد الواحد الملاحى مؤرخ غرناطة وعبد البر بن فرسان وعبد الله بن عذرة وأحمد بن عبد الملك بن سعيد وصفوان بن إدريس صاحب زاد المسافر والكتندى محمد بن عبد الرحمن وأحمد بن عتيق الفيلسوف المعروف بابن الذهبى والرصافى محمد بن غالب وأحمد بن طلحة ومرج الكحل وأبا عامر بن ينق الشاطبى ويحيى الجزار السرقسطى. وترجم ابن سعيد بجانب هؤلاء الشعراء وأشعارهم لطائفة من الوشاحين مع إنشاده لبعض موشحاتهم، منهم أحمد بن حنون وأبو بكر بن زهر وابن حبيب القصرى الفيلسوف وعلى بن المرينى وابن هرودس وعلى بن الفضل وعلى بن حريق وعبد الرحيم بن الفرس وابن موهّد الشاطبىّ. وبالمثل ترجم لطائفة من الزجالين مع إنشاده لبعض أزجالهم منهم أبو عمرو بن الزاهر الإشبيلى والبلارج القرمونى وابن الدباغ ومدغليس وابن ناجية اللورقى. ومما يدل بقوة على ازدهار نهضة الشعر فى الأندلس منذ القرن الثالث الهجرى كثرة ناظميه بين الفقهاء واللغويين والنحاة والأطباء

والرياضيين والمتفلسفة وحتى بين العامة وأهل الريف على نحو ما مرَّ بنا عن أهل شلب مما حكاه ياقوت. ومن أكبر الأدلة على هذا الازدهار أن المرأة الأندلسية أسهمت فيه إسهاما واسعا بزَّت فيه أخواتها فى البلاد العربية الأخرى، مما جعل كتب التراجم الأدبية الأندلسية من مثل المغرب تترجم لغير شاعرة، وقد ترجم المقرى فى النفح لأكثر من عشرين شاعرة، منهن فى القرن الثالث حسانة التميمية بنت الشاعر أبى المخشىّ عاصم بن زيد، ومنهن فى القرن الرابع حفصة بنت حمدون الحجارية وعائشة بنت أحمد القرطبية والشاعرة الغسانية البجانية، ومنهن فى القرن الخامس ولادة بنت الخليفة المستكفى ومهجة بنت التيَّانى القرطبية ومريم بنت أبى يعقوب الإشبيلية وأم العلاء بنت يوسف الحجارية والعبادية جارية المعتضد بن عباد واعتماد المعروفة باسم الرُّمَيْكية زوجة ابنه المعتمد وأم أبنائه وغاية المنى جارية المعتصم بن صمادح صاحب المرية وأم الكرم ابنته وحواء زوجة القائد المرابطى سير بن أبى بكر والى إشبيلية حتى وفاته، وكانت لها ندوة أدبية تجلس فيها للشعراء تحاضرهم فيها وتستمع إلى أحاديثهم وأشعارهم وتبدى بعض انتقادات على ما تسمع. وممن ترجم لهن المقرى فى القرن السادس نزهون بنت القليعى وحمدة بنت زياد وحفصة بنت الحاج الركونية الغرناطية وورقاء بنت ينتان القرطبية والشاعرة الشلبية وأسماء العامرية،وترجم المقرى فى أواخر عصر الموحدين بالنصف الأول من القرن السابع لأم السعد بنت عصام القرطبية وأختها مهجة. وهو عدد وفير من الشاعرات الأندلسيات لم يتح لأى إقليم عربى، مما يدل بوضوح على شغف الأندلسيين الشديد بفن الشعر شغفا أذكى فى نفوسهم نساء ورجالا جذوة الشعر مما جعل الأندلس تمتلئ شاعرات وشعراء.

وما إن ينحسر لواء دولة الموحدين عن الأندلس حوالى سنة ٦٢٥ حتى يأخذ هذا الازدهار الذى رافق الشعر الأندلسى قرونا متعاقبة فى التقلص والنصول، إذ أخذ كثير من ينابيع الحياة التى كان يستمد منها فى الجفاف بسبب ضياع الشطر الأعظم من الأندلس فقد سقطت الحواضر الكبرى فى وسط الأندلس وشرقيها وغربيها فى حجور المسيحيين، ولولا أن أتيح للشطر المتبقى القائد العربى ابن الأحمر حفيد سعد بن عبادة الأنصارى الصحابى لضاعت الأندلس نهائيا من أيدى العرب، ولكنه استطاع أن يصمد للنصارى الشماليين وأن يكوِّن دولة فى غرناطة والأجزاء الجنوبية من الأندلس ظل أبناؤه وأحفاده يقومون عليها حتى غُلبوا على أمرهم لسنة ٨٩٧ للهجرة وخرجوا - وخرج معهم جمهور العرب - من الجزيرة. ومنذ واقعة العقاب سنة ٦٠٩ واندحار جيش

الموحدين فيها أحسَّ الأندلسيون أن الخطر تفاقم وأن ديارهم لن تثبت طويلا أمام ضربات العدو، وهو ما أخذ يتراءى لهم سريعا، وكان ذلك سببا فى أن يغادر الأندلس كثيرون من أهلها إلى البلاد المغربية والمشرقية فاستقروا بها حاملين معهم علومهم وآدابهم التى أثروا بها تأثيرا عميقا فى البلاد المغربية خاصة فى مراكش وبجاية وتونس.

ولابن سعيد صاحب كتاب المغرب المتوفى سنة ٦٨٥ كتابٌ نُشِر مجمل له باسم اختصار القِدْح المعلَّى وهو يعرض فيه شعراء الأندلس فى المائة السابعة ممن جالسهم فى الأندلس وقيَّد عنهم بعض أشعارهم أو جالسهم فى البلدان المغربية وخاصة تونس أو فى البلدان المشرقية فى الإسكندرية أو فى القاهرة أو فى دمشق، وقد بلغوا فى كتابه اثنين وسبعين شاعرا، وتراجمهم أكثر تفصيلا وأشعارا من ترجماته فى كتاب المغرب، وممن يذكره بينهم أبو الوليد الشُّقُندى صاحب الرسالة المشهورة فى فضل الأندلس وتفوقها الثقافى والأدبى، ويذكر إبراهيم بن محمد بن صناديد الجيانى ويقول إن أباه ممدوح مدغليس فى أزجاله. ويتوسع فى الحديث عن علماء اللغة والنحو: الشلوبين والدباج والأعلم البطليوسى منشدا بعض أشعارهم وكان قد أقام بتونس طويلا، ولذلك عنى بالحديث عمن نزل فيها من الأدباء والشعراء الكبار مثل ابن الأبار صاحب التكملة والحلة السيراء وتحفة القادم ومعجم الصدفى وبها توفى سنة ٦٥٨ ومثل أبى المطرف أحمد بن عميرة وأبى الحجاج يوسف البياسى وابن هَشْك محمد بن يحيى. وممن ذكر أنهم رحلوا إلى مصر أبو الحجاج يوسف الإشبيلى المطبِّب وقد عيَّنه المصريون فى مارستان القاهرة. وكانت مصر دائما ترحب بالمهاجرين إليها من الأندلس مثل ابن دِحْية الذى أسند إليه السلطان الكامل رياسة مدرسة الحديث ومثل ابن البيطار الذى جعله رئيسا للعشَّابين أو الصيادلة فى القاهرة، وهاجر إلى دمشق ابن عربى المتصوف وتوفى بها سنة ٦٣٨ وهاجر تلميذه ابن سبعين إلى مكة وبها توفى سنة ٦٦٩. وكتاب اختصار القدح المعلى مهم لأنه يعرض علينا جمهرة كبيرة من شعراء الأندلس فى المائة السابعة. ونلتقى بعده بكتاب «الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة» للسان الدين بن الخطيب وبه تَرجمات لمائة شاعر وثلاثة، بدأهم بالوعاظ والمتصوفة من مثل ابن عباد النفزى المتوفى سنة ٧٩١ وتلاهم بالمقرئين والمدرسين من الشعراء مثل أبى حيان المهاجر إلى القاهرة، وذكر فى إثرهم طبقة القضاة ثم طبقة الكتاب والشعراء من أمثال ابن خاتمة وابن زمرك. ويكمل كتاب لسان الدين فى شعراء الأندلس فى المائة الثامنة كتاب نثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان لابن الأحمر إسماعيل بن يوسف المتوفى سنة ٨٠٧ وقد

عاش بعد لسان الدين المتوفى سنة ٧٧٦ ثلاثين عاما، وهو يلتقى معه فى طائفة من تراجمه غير أنه يضيف إليه بعض تراجم جديدة، بينها ترجمة للسان الدين بن الخطيب وترجمة لنفسه.

ولعل فى كل ما قدمت ما يدل بوضوح على كثرة الشعراء فى الأندلس منذ اكتمل تعربها فى القرن الثالث الهجرى كثرة مفرطة، وظل الشعر حيًّا بل مزدهرا فى الأندلس حتى الأنفاس الأخيرة من حياة العرب هناك، وكأنه توأم روحهم، فكلما وُجدوا تغنوا بالشعر وصدحوا به معبرين عن مشاعرهم ووجداناتهم، يشترك فى ذلك علماؤهم من كل صنف ورجالهم ونساؤهم وشيوخهم وشبانهم، ومثقفوهم وعامتهم، حتى الأميون منهم وأصحاب الحرف كالخراز والجزار اللذين مر ذكرهما ومثلهما مرج الكحل الشاعر البلنسى فقد نشأ ينادى فى الأسواق ويتعيَّش من بيع السمك، وأخذت همته ترقَّى قليلا قليلا فى حب الشعر إلى أن نظمه وأجاده. ومثله ابن جاخ الصباغ البطليوسى.

٢

الموشحات والأزجال

(أ) الموشحات

الموشحات جمع موشحة، وهى مشتقة من الوشاح وهو - كما فى المعاجم - خيطان من لؤلؤ وجوهر منظومان يخالَف بينهما معطوف أحدهما على الآخر. والتسمية دقيقة إذ الموشحة تتألف من قفل يسمى مركزا، وتتعدد أجزاؤه أو شطوره، ويليه غصن متعدد الأجزاء أو الشطور، وبينما تتحد أجزاء الأقفال التالية مع الأجزاء المقابلة لها فى القفل الأول سواء فى الوزن أو القافية تختلف أجزاء الأغصان التالية مع أجزاء الغصن الأول فى قافيته، فلكل غصن قافية تتحد فى أجزائه أو شطوره مع اتفاق أجزاء الأغصان جميعا فى الوزن. والموشحة - بذلك - تتألف من مجموعتين من الأجزاء أو الشطور، مجموعة تتحد أجزاؤها المتقابلة فى الأقفال المتعاقبة فى الوزن والقافية، ومجموعة تتحد أجزاؤها فى الوزن وحده دون القافية فإنها تتخالف فيها دائما. وهما - بهذه الصورة - يشبهان الوشاح المذكور آنفا أدق الشبه.

واشتهرت الأندلس بأنها هى التى ابتكرت فن الموشحة، ويُظَنُّ أنه كان لاتساع موجة الغناء والموسيقى منذ زرياب فى عهد عبد الرحمن الأوسط على نحو ما مرَّ بنا فى الفصل

الأول أثر كبير فى نشوء الموشحة بقصد الغناء بها مع العازفين، وكأنها تتألف من فقرتين: فقرة للمنشد وفقرة ترد بها الجوقة. وكان بدء ظهورها فى عهد الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠هـ) يقول ابن سعيد: «ذكر الحجارى فى كتاب المسهب فى غرائب المغرب أن المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم بن معافى القَبْرِى من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى وأخذ عنه ذلك أبو عمر بن عبد ربه صاحب العقد ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما»[١]. ويسمى ابن بسام فى ترجمته لعبادة بن ماء السماء مخترعها خطأ باسم محمد بن حمود القبرى الضرير، ويقول: «كان يضعها على أشطار الأشعار، غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة»[٢] وظن بعض الباحثين - وخاصة من المستشرقين الإسبان - أن ذلك يدل على أن الموشحة لم تكن تنظم فى نشأتها بالفصحى على أعاريض الشعر العربى وأوزانه إنما كانت تنظم على أعاريض المقاطع مثل الشعر الأوربى[٣]. وهو خطأ فى الفهم إذ أن كلمة «الأعاريض المهملة غير المستعملة عند ابن بسام لا تفيد ذلك، إنما تفيد ما ردده العروضيون المشارقة والمغاربة من أن الدوائر الخمس التى ضبط بها الخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٥ للهجرة أعاريضَ الشعر العربى تفسح لأوزان مهملة لا تنحصر لم يستخدمها العرب فى أشعارها، واستخدمها فى عصره - كما يقول صاحب الأغانى - تلميذه عبد الله بن هرون بن السَّمَيْدع البصرى، وأخذ ذلك عنه وحاكاه فيه رُزَيْن العروضى وأتى فيه ببدائع جمة، وجعل أكثر شعره من هذا الجنس[٤] وقد أنشد ياقوت قصيدة له فى مديح الحسن بن سهل، وأشار إلى أنها خارجة على أوزان الشعر العربى وأنها إنما تجرى على وزن من أوزان الخليل المهملة، وهو - فى رأينا - عكس وزن المنسرح. ويعد أبو العتاهية أهم شاعر عباسى ثان نظم أشعارا له مختلفة على تلك الأوزان المهملة على نحو ما يصور ذلك كتابنا «العصر العباسى الأول».[٥]

ومعنى ذلك كله أن كلمة الأعاريض المهملة غير المستعملة التى أشار ابن بسام إلى أن أشطار أكثر الموشحات نظمت عليها لا يقصد بها أنها أعاريض أعجمية، إنما يقصد بها

---

(١) راجع كتاب المقتطف من أزاهر الطرف لابن سعيد بتحقيق د. سيد حنفى حسنين (نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب) ص ٢٥٥.

(٢) الذخيرة ٤٦٩/١.

(٣) انظر بالنثيا فى تاريخ الفكر الأندلسى ص ١٤٢ وما بعدها وراجع فصل الأدب للدكتور مكى فى كتاب أثر العرب فى النهضة الأوربية ص ٥٠ وما بعدها.

(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ١٦٠/٦.

(٥) العصر العباسى الأول (طبع دار المعارف) ص ١٩٥.

أنها من أعاريض دوائر الخليل المهملة التى لم يستعملها العرب. وقد يقال إنك اقتطعت كلمة ابن بسام من بقية لها تدل على ما نقول، إذ يذكر ابن بسام عن منشئها - فى رأيه - محمد بن حمود القبرى الضرير أنه كان: «يأخذ اللفظ العامى والعجمى ويسميه المركز ويضع عليه الموشحة» وهو يقصد قفلها الأخير الذى يأتى فى الخاتمة. وربما كان ذلك ما دعا «ريبيرا» إلى القول بأن الموشحة طراز شعرى يمتزج فيه الشرق بالغرب. ويتسع المستشرق الإسبانى المعاصر غرسية غوميس بالفكرة ويقول مستدلا بكلمة ابن بسام إن الخرجات (الخواتيم) الرومانثية فى الموشحات الأولى كانت أجزاء مقتبسة من أغان شعبية إسبانية أعجب بها الوشاح الأول، واتخذها قاعدة بُنى على شاكلتها موشحته مرصِّعا لها بذلك الجزء كما يرصع الخاتم بفَصٍّ من الجواهر الكريمة. وليس فى يد غرسية دليل على أن الخرجة عند الوشاح الأول كانت تقتطع من أغنية رومانثية ، فهو مجرد ظن، وأقرب منه وأصحّ منطقيا أن يكون قد حدث أحيانا عند الوشاح الأول ومن حاكوه اقتباس صيغة عامية أو أعجمية فى نهاية الموشحة على سبيل التظرف، كما حدث ذلك مرارا عند بعض الشعراء العباسيين[1]. وحتى بعد أن ازدهر هذا الفن فى القرن الخامس وما بعده لم يستطع باحث بين المستشرقين الإسبان أن يرد خرجة رومانثية إلى أغنية رومانثية كانت متداولة فى الأندلس أو تغنَّى، فالقول بذلك إنما هو - فى رأينا - مجرد ظنٍّ لا دليل عليه.

أما لماذا استمر الوشاحون يجنحون أحيانا فى بعض موشحاتهم إلى اختتامها بصيغة رومانثية أو أعجمية فقد ذكر ابن سناء الملك السبب الأهم فيه إذ قال: «الخرجة عبارة عن القفل الأخير من الموشح، والشرط فيها أن تكون حجاجية (نسبة إلى ابن حجاج شاعر بغداد المفرط فى المجون) من قبل السخف، قزمانية (نسبة إلى ابن قزمان الزجال) من قبل اللَّحْن حارة محرقة من ألفاظ العامة.. ويُجْعَلُ الخروج إليها وثبا واستطرادا وقولا مستعارًا على بعض الألسنة وأكثر ما تجعل على ألسنة الصبيان والنسوان والسكرى والسكران، ولابد فى البيت قبل الخرجة من قال أو قلت أو قالت أو غنى أو غنت»[2]. وواضح أن ما تحمله الخرجة أحيانا - أو ما يريد لها الوشاح أن تحمل - من مجون زائد

---

(١) انظر فى ذلك فصلا فتحه الجاحظ فى البيان والتبيين (طبعة هرون) ١/١٤١ - ١٤٤ لمن كان يتملح بإدخال ألفاظ فارسية فى شعره من الأعراب فضلا عمن كانت أصولهم فارسية، وراجع كتابنا العصر العباسى الأول ص١٤٢ وما بعدها.

(٢) انظر دار الطراز لابن سناء الملك بتحقيق الدكتور جودة الركابى (طبع دمشق) ص ٣٠.

عن الحد وأنها قد تقال على لسان المرأة كان السبب فى استخدام الوشاح الأندلسى أحيانا للخرجات الرومانثية فرارًا من التصريح بألفاظ مفحشة نابية. ومن يرجع إلى ما ذكره الدكتور عبد العزيز الأهوانى من خرجات الموشحات فى كتابه - الزجل الأندلسى - يلاحظ أن كثيرا من الخرجات العجمية التى ذكرها تشكو فيها الفتاة لأمها تباريح حبها لمن سلبها روحها وفؤادها متذللة لعاشقها تذللا شديدا، وقد يصاغ ذلك فى خرجات عامية ولكن فى تلميح غالبا دون أن يخدش حياء الفتاة. أما ما كان يظن الوشاح أنه يخدش حياءها فكان يصوغه فى عبارة لاتينية دارجة أو رومانثية وهذا - فى رأينا - هو الباعث على وجود الخرجات الأعجمية فى بعض الموشحات لا أنها نشأت على أساس بعض الأغانى الرومانثية الأعجمية. ومما يؤكد - بل يقطع - بأن الموشحات عربية خالصة أن من يقرنها إلى المسمطات العباسية التى ظهرت منذ القرن الثانى الهجرى على لسان أبى نواس وأضرابه يلاحظ توا أن المسمطات قصائد تتألف من أدوار تقابل الأغصان فى الموشحة وكل دور - مثل الغصن - يتألف من أربعة شطور أو أكثر تتفق فى قافية واحدة ما عدا الشطر الأخير فإنه يستقل بقافية مغايرة، وهو يتحد فيها مع الشطور الأخيرة فى كل دور من أدوار المسمط، ويسمى - من أجل ذلك - عمود المسمط فهو القطب الذى يدور عليه. وهو يقابل بوضوح المركزَ أو القفلَ فى الموشحة، وكل ما بينهما من فروق أن الشطر فى نهاية أدوار المسمط واحد بينما هو فى مراكز الموشحة متعدد، وسنرى عما قليل أنه كان فى الموشحات الأولى شطرا واحدا. وقد أحس الأندلسيون من قديم بالمشاكلة الشديدة بين الموشحة والمسمط كما يتبين من الاسم الذى اختاروه لها اشتقاقا من الوشاح كما أسلفنا إذ وجدوا العباسيين يشتقون لفظ المسمط من السمط، وهو القلادة تنتظم فيها عدة سلوك تلتقى جميعا عند جوهرة كبيرة، على شاكلة التقاء كل دور فى المسمط مع الأدوار الأخرى فى قافية الشطر الأخير. لذلك - رأوا - أى الأندلسيين - بدورهم أن يشتقوا الموشحة من وشاح المرأة الذى يمتد فيه خيط مرصع باللؤلؤ وخيط مرصع بجواهر متنوعة يخالَف بينهما ويُعْطَف أحدهما على صاحبه. وهى تسمية بارعة للموشحة وما تحمل من لآلئ الأقفال وجواهر الأغصان.

ومن أكبر الأدلة على أن الموشحة بدأت محاكاة للمسمط أن القبرى وشاحها الأول كان - كما يقول ابن بسام - يجعل اللفظ العامى أو العجمى مركزا أو كما سُمِّى فيما بعد قفلا ويضع عليه أشطارا، والمركز بذلك كان عند الوشاح الأول شطرا واحدا بالضبط كما كان فى المسمط. ويقول ابن بسام إنه كان يبنى على هذا المركز أو الشطر أشطار الأشعار،

وكان أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة، وهى الأعاريض التى أشار إليها الخليل بن أحمد فى دوائره العروضية الخمس وما أخضعها له من فكرة التباديل والتوافيق الرياضية[١] بحيث يمكن أن يستخرج منها ما لا يحصى من أوزان مهملة لم يستخدمها العرب، وكأن الوشاح الأول فى الأندلس كان يقوم من تلك الأوزان أو الأعاريض مقام ابن السميدع ورزين العروضى وأبى العتاهية فى بغداد، ممن عنوا - كما أسلفنا - بالنظم على الأعاريض المهملة. ومضت الموشحة على هذه الصورة عند الوشاح الأول الذى ابتكرها ومن خلفوه عليها، حتى ظهر يوسف بن هرون الرمادى الكندى المتوفى سنة ٤٠٣ فأحدث فيها تطورا مهما يقول ابن بسام فى نفس النص السابق: «فكان أول من أكثر فى الموشحة من التضمين فى المراكز» يريد أنه أول من أحدث فى الموشحة تعدد الأجزاء أو الشطور فى المراكز، ولم تحتفظ كتب الأدب له بموشحة تصور لنا بدقة صنيعَه. ثم يقول ابن بسام إنه نشأ بعده عبادة بن ماء السماء الخزرجى، الأنصارى المتوفى سنة ٤١٩ فأضاف إلى الموشحة تطورا جديدًا هو تضمينه مواقع الوقف فى الأغصان أو بعبارة أخرى دقة التجزئة فى أشكال الأغصان، وبذلك تمت للموشحة صورتها التى حملتها العصور التالية. وصور ذلك ابن بسام قائلا: «كانت صنعة التوشيح التى نهج أهل الأندلس طريقها ووضعوا حقيقتها غير مرقومة البُرود، ولا منظومة العقود، فأقام عبادة بن ماء السماء منآدها، وقوّم ميلها وسِنادها فكأنها لم تسمع بالأندلس إلا منه ولا أُخذت إلا عنه». وإذا كانت الكتب الأدبية لم تحتفظ للرمادى بإحدى موشحاته فإن فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى احتفظ لعبادة بن ماء السماء بموشحتين تتقابل فيهما أجزاء المراكز أو الأقفال، وبالمثل تتقابل الأجزاء فى كل غصن تقابلا دقيقا على نحو ما نرى صنيعَه فى هذا الغصن متغزلا[٢]

لَيْلِيَّـةُ الـذوائبْ وَوَجْهُهـا نهارُ[٣]
مَصْقولةُ التَّرائب ورَشْفُهـا عُقارُ[٤]
أَصْداغُها عَقارب والخَـد جُلَّنـارُ[٥]

وتتوالى الأغصان على هذه الصورة مجزأة إلى ستة شطور، تتحد الثلاثة الأولى منها فى القافية، وبالمثل الثانية. وأصبح ذلك تقليدا ثابتا فى الموشحات بعده. والوزن فى هذا

(١) راجع فى ذلك ترجمة الخليل فى كتابنا المدارس النحوية (طبع دار المعارف) ص ٣١.
(٢) راجع الموشحة فى الفوات ٤٢٨/١.
(٣) الذوائب = الضفائر.
(٤) العقار = الخمر.
(٥) جلنار: زهر الرمان.

الغصن والأغصان بعده مستفطن فعولن، وكأنه تجزئة من وزن الرجز، وموشحته الأخرى التى أنشدها ابن شاكر من وزن الرمل أقفالها وغصونها، ومطلعها:

مَنْ وَلِي   فى أمةٍ أمرا   ولم يعدلِ   يُعْزَلِ

إلا لحاظَ الرَّشَإِ الأكْحَلِ

وظلت الموشحات بعد ابن ماء السماء تُنظم إما على أعاريض الشعر العربى المستعملة وإما على أعاريضه المهملة، وموشحتاه تتألف من ستة أقفال وخمسة أغصان، ويغلب فى الموشحات بعده أن تتخذ هذه الصورة وقد تطول أكثر أو تنقص فيزيد فيها عدد الأقفال والأغصان إلى ثمان أو تنقص إلى أربع، وقد يبدأ الموشح بغصن ويسمى - حينئذ - أقرع، وقد يتألف القفل من جزءين أو ثلاثة وقد يطول إلى ثمانية أجزاء وبالمثل الغصن. ويسمى القفل الأخير باسم الخرجة وقد تكون ألفاظه أعجمية أو عامية كما مر بنا، ويكثر أن تكون عربية بلغة سهلة مألوفة تقرب قربا شديدا من اللغة الدارجة.

ويقبل على نظم الموشحة غير شاعر من شعراء أمراء الطوائف، نذكر منهم القزّاز محمد بن عبادة وسنخصه بكلمة مستقلة، ومنهم ابن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذى النون أمير طليطلة، ووزيره أبو عيسى بن لُبُّون، وابن اللبانة محمد بن عيسى، وكان هو والقزاز فرسى رهان فى العصر، وسنترجم له بين الشعراء لأنه كان يجيد الشعر كما كان يجيد الموشحات، وأغلب موشحاته مدائح فى المعتمد بن عباد أمير إشبيلية وأبنائه، وهو يستهلها دائما بغزل رقيق من مثل قوله فى موشحة مدح[1] بها المعتمد:

يفترُّ عن لؤلؤٍ فى نَسَقِ   من الأقاحِ   بنسيمه العَبِقِ

هـل من سبيـلٍ لـرَشْفِ القُبَـلِ

هـيهـاتَ مـن نَيْـلِ ذاك الأمـلِ

كـم دونـه مـن سُيـوف المُقَـل

سُـلَّتْ بِـلَحْظٍ وَقـاحٍ خَـجِـلِ

والقفل يتكون من أربعة أجزاء أولها على زنة: مستفعلن فَعِلن مُسْتعلن. والثانى على زنة: مُتَفَعِّلات والثالث على زنة: متفاعلن. والرابع على زنة فعلن. واجتماع هذه التفاعيل تخرج القفل عن أعاريض العرب المستعملة وتجعله من أعاريضهم المهملة، أما الغصن

---

(١) انظر الموشحة فى دار الطراز ص ٥٤ وفى المغرب ٢/٤١٤.

فيطرد على زنة: مستفعلن فاعلن مستفعلن، وهو وزن عربى مستعمل بكثرة ونقصد وزن البسيط، واستخدمه ابن اللبانة فى موشحاته مرارا لعذوبته.

وتتسع موجة الوشاحين فى عصر المرابطين، ومن أهمهم فى عهدهم، بل من أهم الوشاحين الأندلسيين عامة الأعمى التطيلى المتوفى حول سنة ٥٢٥ ويحيى بن بَقِىّ المتوفى سنة ٥٤٠ وسنخصه بكلمة ولم يكن الأعمى التطيلى يقل عنه براعة، غير أن له ديوانا كبيرا مما جعلنا نخصه بترجمة بين الشعراء، ويكفى لبيان مهارته فى صنع الموشحات ما يروى من أن جماعة من الوشّاحين اجتمعوا لإنشاد موشحات لهم فى مجلس بإشبيلية بينهم يحيى بن بقى والأعمى التطيلى، وقدموا الأعمى للإنشاد، فلما افتتح موشحته بقوله:

ضاحكٌ عن جُمانْ سافرٌ عن بَدْرِ
ضاقَ عنه الزمانْ وحَواهُ صَدْرى

مزَّق ابن بقى موشحته وتبعه الباقون[1] لما فجأهم به التطيلى فى موشحته من عذوبة فى اللفظ وروعة فى التصوير، والقفل السالف مكون من أربعة أجزاء، والجزآن: الأول والثالث المتقابلان على زنة: فاعلاتن فعول، والجزآن الثانى والرابع المتقابلان على زنة: فاعلاتن فَعْلن، وتمضى جميع الأقفال بهذه الزنة بينما تمضى الأغصان على زنة: فاعلن فاعلن أو بعبارة أخرى على وزن المتدارك على شاكلة قوله فى الغصن الأول:

آهِ مما أجِدْ شفَّنى ما أجِدْ
قام بى وقَعَدْ باطنٌ متئِدْ

وكأن التطيلى تعمَّد أن يكون القفل من أعاريض العرب المهملة، إذ مزج فيه بين تفاعيل من أوزان أو بحور مختلفة، بينما نظم الغصن من وزن المتدارك، وقد ينظم الوشاح موشحته جميعها أقفالا وأغصانا من وزن عربى مستعمل واحد كالرجز أو البسيط أو السريع أو المجتث، وكل ذلك نجد له أمثلة فى موشحات التطيلى الملحقة بديوانه كقوله فى موشحة نظمها من الوزن الأخير:

حُثَّ الكئوسَ رَوِيَّة على رُواءِ البساتينْ من قهوةٍ بابليَّه
أرقَّ من دَمْع محزون
خلعتُ عِزِّى ودينى فى أهيف القَدِّ لَدْنِهْ

---

(١) المغرب ٤٥٦/٢ والمقتطف ص ٢٥٦.

يَنْسطو بسيف المنونِ ما جَفْنه غير جفنه
يا قسوةَ الحبُّ لِيفي ولو بِرُمّان غُضْنه

وأجزاء الأقفال والأغصان تطرد هكذا على وزن المجتث: مستفعلن فاعلاتن. وعاصر التطيلى من الوشاحين النابهين أبو بكر بن باجة الفيلسوف المار ذكره فى الفصل الماضى وهو أحد من طوروا الموسيقى الأندلسية، وكانت له تلاحين مشهورة، ويحكى أنه صنع موشحا فى مديح ابن تِيفَلْويت المرابطى الوالى على شرقى الأندلس وسرقسطة ليوسف بن تاشفين، ولحنه وألقاه على قينة، فلما غنت ابنَ تيفلويت به صاح: واطرباه، وحلف بأيمان مغلظة أن لا يمشى ابن باجة فى طريقه إلى داره إلا على الذهب، وتلطف ابن باجة فاحتال بأن جعل ذهبا فى نعله ومشى عليه. ومن الشعراء الوشاحين البارعين فى عصر المرابطين الأبيض أبو بكر محمد بن أحمد الأنصارى وأبو بكر بن رُحَيم ويحيى بن الصيرفى المؤرخ وأبو الحسن بن نزار وله موشح بناه من مخلع البسيط مستخرجا دائما الجزء الثانى من أغصانه وأقفاله من آخر كلمة فى الجزء الأول على هذا النمط[1]:

يا ربَّة المنظر الجميلِ ميلى
رأيت فى وجهك السعيد عِيدى

وتظل الموشحات مزدهرة فى عصر الموحدين (٥٤٠ - ٦٣٤هـ) بل تبلغ غاية ازدهارها على لسان ابن هرودس كاتب عثمان بن عبدالمؤمن والى غرناطة كما يتضح فى موشح له بديع[2] مستخرجا الجزء الثانى من أقفاله - على شاكلة ابن نزار - بعد نهاية الجزء الأول كقوله فى مطلعه:

يا ليلة الوَصْلِ والسُّعودِ بالله عُودِى

والجزء الأول من القفل - مثل سابقه عند ابن نزار - على زنة مخلع البسيط، وزنة الجزء الثانى مستفعلان، والأغصان جميعها من مخلع البسيط: مستفعلن فاعلن فعولن، ومن كبار الوشاحين على بن المرينى وفى المغرب له موشحة[3] بارعة. وسابق الحلبة - كما يقول ابن سعيد - أبو بكر بن زهر، وسنخصه بكلمة، ومن المشهور أنه لما سمع قول عبد الرحيم بن الفرس فى إحدى موشحاته:

---

(١) المغرب ١٤٧/٢.
(٢) المغرب ٢١٥/٢.
(٣) المغرب ٢١٨/٢.

ورداءُ الأصيـلِ تَطْويه كفُّ الظلامِ

قال لمن حوله: أين كنا نحن عن هذا الرداء[1]؟ وهى صورة رائعة، ودخل عليه أبو الحسن سهل بن مالك، ولم يكن يعرفه، حتى إذا أنشده موشحة من مجزوء البسيط يقول فيها:

كُحْلُ الدُّجَى يَجْرِى من مُقْلة الفَجْرِ على الصَّباحْ
ومِعْصَمُ النَّهْرِ فى حُلَلٍ خُضْرِ من البِطاحْ

طرب لهذا القفل منها طربا شديدا[2] لعذوبة ألفاظه وحسن صوره. ومن كبار الوشاحين حينئذ على بن حزمون الهجَّاء، وله موشحة[3] بديعة يرثى بها أبا الحملات قائد الأعنة ببلنسية، وقد استشهد فى الدفاع عنها فى إحدى معاركه المحتدمة مع النصارى وسننشد منها قطعة فى الحديث عن شعراء الرثاء. وكان يعاصر ابن حزمون على بن الفضل الإشبيلى المتوفى سنة ٦٢٧، وله فى إحدى موشحاته[4]:

وأُفْرِدْتُ بالرَّغْم لا بالرِّضا وبِتُّ على جَمَرات الغَضَا
أعانِقُ بالفكر تلك الطُّلولْ وأَلْثِم بالوهم تلك الرسومْ

وأغصان الموشحة وأقفالها من بحر المتقارب، وزنته: فعولن أربع مرات. وتفضى الأندلس بعد الموحدين إلى التفكك وسقوط مدنها الكبرى فى حجر النصارى، وقلما يظهر وشاح مبدع إلا من نشأوا فى عصرهم من تلاميذ من سميناهم فيه من مثل إبراهيم بن سهل الإسرائيلى، وأشهر موشحاته[5]:

هل دَرَى ظَبْىُ الحِمَى أنْ قد حَمَى قلبَ صَبٍّ حَلَّه عن مَكْنَسِ
فَهْوَ فى حَرٍّ وخَفْقٍ مِثْلَما لعبتْ ريحُ الصَّبا بالقَبَسِ

وقد صاغه أقفالا وأغصانا من بحر الرمل وزنته: فاعلاتن فاعلاتن فاعلن. ويقبل المتصوفة على صنع الموشحات ويهاجر كثيرون بها إلى المشرق مثل ابن عربى والششترى. ونلتقى فى غرناطة بابن زمرك ولسان الدين بن الخطيب، وله موشحة

---

(١) المقتطف ص ٢٦٠.
(٢) المقتطف ص ٢٥٨ وما بعدها.
(٣) المغرب ٢/٢١٧.
(٤) المغرب ٢/٢٨٩ والغضا: من أشجار نجد. يستوقد بخشبه.
(٥) ديوان ابن سهل الإشبيلى (طبع بيروت) ص ٢٨٣ ومكنس الظبى: مأواه فى الشجر ليستتر به. القبس: شعلة النار.

مشهورة عارض بها موشحة ابن سهل المارة مفتتحا لها بقوله[١]:

جادك الغيثُ إذا الغَيْثُ هَمَى   يا زمانَ الوَصْلِ بالأندلسِ
لم يكن وَصْلُك إلا حُلُمًا   فى الكَرَى أو خِلْسَةَ المختلس

وكأنها كانت مسك الختام لفن الموشحات بالأندلس. وحرى بنا أن نفى بما وعدنا من كلمات مجملة عن ثلاثة من كبار الوشاحين بالأندلس، هم ابن عبادة القزاز وابن بقى وابن زهر.

ابن عُبادة[٢] القزّاز

هو أبو عبدالله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز، ترجم له ابن سعيد فى المغرب وقال إنه من حصن بِلّور من إقليم غرناطة وظنّه ابن خاتمة من أهل مالقة، واشتهر بأنه شاعر المعتصم بن صمادح أمير المرية، وله فيه مدائح شعرية وموشحات، وفيه يقول:

ولو لم أكن عبدًا لآل صُمادح   وفى أرضهم أصلى وعيشى ومَوْلدى
لما كان لى إلّا إليهم ترحُّلٌ   وفى ظِلّهم أُمسى وأُضحِى وأُغتدى

وكان يلم بالمعتمد بن عباد وله أيضا فيه موشحات ومدائح، ويصفه ابن بسام بقوله عنه: «من مشاهير الأدباء الشعراء وأكثر ما ذُكر اسمه وحُفظ نظمه فى أوزان الموشحات التى كثر استعمالها عند أهل الأندلس وهو ممن نسج على منوال ذلك الطراز، ورقم ديباجه، ورصّع تاجه، وكلامه نازل فى المديح، أما ألفاظه فى التوشيح فشاهدة له بالتبريز والشفوف». وربما قسا ابن بسام عليه فى حكمه على مديحه لروعة موشحاته روعة فاق بها كل أقرانه فى زمنه حتى قالوا إنه لم يشق غباره واحد من معاصريه، وهو أحد خمسة أدار عليهم ابن سناء الملك حديثه واختياراته من الموشحات فى كتابه: دار الطراز، هو ومعاصره ابن اللبانة ثم التطيلى ويحيى بن بقى من عصر المرابطين وأبو بكر بن زهر من عصر الموحدين، ومن أروع موشحاته موشح غزلى يتكون قفله من ستة أجزاء بينما يتكون غصنه من أربعة أجزاء، ونكتفى منه بغصن بهر أبا بكر بن زهر، حتى أثر عنه أنه

---

(١) أزهار الرياض (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢١٣/٢ وهى: سقط مدرارا.

(٢) انظر فى ابن عبادة القزاز القلائد للفتح بن خاقان: ١٤ و المغرب ١٣٤/٢ وأزهار الرياض ٢٥٢/٢ والذخيرة ٨٠١/١/١ وما بعدها والخريدة (طبعة تونس) ١٨٢/٢ ودار الطراز لابن سناء الملك: الموشحات أرقام ٩، ١٥، ١٨، ٢١، ٢٣

قال: كل الوشاحين عِيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله:

بَدْرُ تِـمّْ شَمْسُ ضُحَى غُصْنُ نَقَـا مِسْكُ شَمّْ
مـا أتَمّْ مـا أوضَحَـا مـا أوْرَقَـا ما أنَمّْ
لا جَـرَمْ مـن لَمَحَـا قـد عَشِقَـا قد حُرِمْ

والألفاظ رشيقة رشاقة لا تُحَدّ، رشاقة كأنما تطير بها فى خفة فتحدث عَبَقًا، وهو عبق مصدره الدقة فى انتخاب الألفاظ وانتخاب الوزن، إذ هى مشتقة من بحر البسيط الرقيق العذب، إذ تتوالى الأجزاء فى كل سطر على: فاعلن، مستعلن مستعلن فاعلن. وليس هذا بالضبط عروض البسيط فعروض الأجزاء الأربعة المتوالية فيه مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن، وقدم القزاز فى الجزءين الأولين فاعلن على مستفعلن. وبمثل ذلك وبما قدمنا من تكوين الوشاح لعروض بعض موشحاته من تفعيلتين إحداهما من بحر والثانية من بحر آخر على نحو ما مرَّ بنا فى قفل موشحتين للتطيلى وابن اللبانة قال ابن بسام إن أكثرها يجرى على الأعاريض المهملة غير المستعملة فظن «ريبيرا» ومن تبعه خطأ بأنه يقصد أعاريض أعجمية لا يعرفها العرب، وهو إنما كان يقصد الأعاريض المهملة غير المستعملة عند العرب التى نص عليها الخليل بن أحمد، بما وضع فى دوائر العروض الخمس من تفاعيل أدارها فيها مقدَّما ومؤخرا فى أسبابها وأوتادها ومستخدما إشارات من النقط والحركات تصور ما يحدث فى التفعيلات من زحافات بحيث تجمع الأعاريض أو الأوزان العروضية عند العرب وما يمكن عقلا أن يستخدم من أوزان جديدة أهملها العرب ولم يودعوا فيها من أشعارهم شيئا. وكانت هذه الدوائر وما يداخلها من أعاريض مهملة وكيفية استحداث تلك الأعاريض معروفة للأندلسيين منذ بدأوا فى نظم الموشحات بدليل أن ابن عبد ربه المعاصر للقبرى الوشاح الأول أثبتها مفصلة فى كتابه العقد الفريد. ولابن عبادة بجانب الموشحة التى أنشدناها. والتى أعجب ابن زهر بأحد أغصانها إعجابا شديدا أربع موشحات إحداها غزلية، والثانية فى وصف عَرْض لأسطول المعتصم فى البحر المتوسط يوم المهرجان، وفيها نفس العذوبة والرشاقة التى رأيناها فى الموشحة السابقة كقوله يصف سفن الأسطول فى أحد الأغصان:

وجـاريـاتٍ تـجـولْ مثلَ الجياد السابقه
إنشاءُ مَنْ فى المُحولْ يُنْشِى السحابَ الوَادِقه[1]

(١) المحول: الجدب. الوادقة: المطرة. وهو يشيد بجود المعتصم وقد أشاد طويلا ببسالته الحربية.

سمتْ على النجم طولْ　　منهـا فروعٌ بـاسِقَه[1]

والموشحة تُرَدُّ إلى بحر الرجز وزحافاته. والموشحة الثالثة جمع فيها بنفس السلاسة والانسياب بين مديح المعتصم بن صمادح والمعتمد بن عباد ، وفى أحد أقفالها يقول فيها:

بَحْرا نِعَمْ　لمن وَرَدْ　ظَمْآنْ　سيفا نِقَمْ　لمن مَرَدْ[2]　أوخانْ

ولعل فيما قدمنا ما يوضح نهج ابن عبادة القزاز وأنه كان يعنى بتقصير أجزاء القفل والغصن حتى يتيح لموشحته كل ما يمكن من عذوبة النغم وحلاوته، وعادة لا يكتفى بذلك بل يعنى عناية شديدة بانتخاب ألفاظه، بحيث تعبق الموشحة بأريج عطر من النغم البديع.

يحيى[3] بن بقى

هو أبو بكر يحيى بن محمد بن عبد الرحمن القرطبى القيسى المشهور باسم ابن بقى نسبة إلى جد أبيه، وقد ترجم له الفتح فى القلائد، فقال عنه: «هو رافع راية القريض، وصاحب آية التصريح فيه والتعريض، أقام شرائعة، وأظهر روائعه، وصار عصيُّه طائعَه، إذا نظم أُزْرَى بنظم العقود، وأتى بأحسن من رَقْم البرود، ضفا عليه حرمانه، وما صفا له زمانه، فصار قعيد صهوات، وقاطع فلوات، مع توهم لا يظفره بأمان، وتقلُّب دهرٍ كواهى الجُمان» وهو أحد من حكمت عليه حرفة الأدب بإقلاله وحرمانه، فامتطى غارب الاغتراب إلى بلاد المغرب، ويبدو أن كثيرا من الأبواب أغلقت دونه مما جعله ينشد:

وَغَلْتُ فى المغرب الأقصى فأعجزنى　　نَيْلُ الرغائبِ حتى أُبْتُ بالنَّدمِ

ولم يلبث أن فُتح له باب كبير هو باب بنى عَشْرة قضاة سَلا بالقرب من الرباط

---

(١) باسقة: عالية. يقصد الصوارى وما يرفع عليها ويمتدّ من القلاع.

(٢) مرد: عتا وجاوز الحد.

(٣) انظر فى يحيى بن بقى القلائد ٢٧٩ والذخيرة ٦١٥/٢ ومعجم الأدباء ٢١/٢٠ والتكملة رقم ٢٠٤٢ وابن خلكان ٢٠٢/٦ والمغرب ١٩/٢ والإحاطة ٤١٨/٤ والمقتطف ص ٢٥٦ وما بعدها ومعجم السلفى ٥٠ والخريدة (طبع تونس) ٢٣٦/٢ ونفح الطيب فى الجزءين الثالث والرابع (انظر الفهرس) وأزهار الرياض ٢٠٨/٢ ودار الطراز أرقام: ١٧، ١٩، ٢٠، ٢، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٣ وله موشحة فى المغرب وثانية فى معجم الأدباء وافتتح ابن الخطيب كتابه «جيش التوشيح» بطائفة من موشحاته.

الحالية عاصمة المملكة المغربية، وكانوا بحارا فياضة فى الجود فغمروه بجودهم وخاصة يحيى بن على بن القاسم وأخاه أحمد قاضى سَلا، فمكث فى رحابهما طويلا، وأضفى عليهما من شعره وموشحاته دُرَرا كثيرة، وأول ما نقف عنده من موشحاته فيهم الموشحة التى مدح بها القاضى أحمد، والتى قال فى خرجتها أو خاتمتها أبو بكر بن زهر: ما حسدت وشاحا على قول إلا ابن بقى حين وقع له:

أما ترى أحمدْ فى مَجْده العالى لا يلحقُ
أطلعه المغربْ فأرِنَا مِثْلَهُ يا مَشْرِقُ

وهو لم يحسده فى رأينا على جمال صياغته فحسب، بل حسده أيضا على روعة تصويره فى الفقرة الثانية إذ جعل القاضى أحمد كوكبا يبزغ فى المغرب ولا مثيل له فى المشرق. ويتضح إبداعه فى تصويره إذ يقول فى أحد أغصان هذا الموشح متغزلا بصاحبته:

عطا بليتَيْهِ ومرَّ كالظَّبْىِ لِبِيدِهْ[1]
فدلَّ عليه تكسُّر الحَلْىِ بجِيدِهْ
تفتيرُ عَيْنَيْهِ يُسْرِع فى بَرْىِ عَمِيدِه

وهو يجعلها كأنها ظبية حقيقية تمد عنقها لتناول الأوراق فى الشجر مصورا بذلك جمال جيدها، ويقول إنه إنما رآها لمحا أو كاللمح إذ مرَّتْ سريعا إلى منزلها، ويصوره كأنه بيداء فلن يعود يراها. ويعود إلى نفسه فليست من الظباء بل هى من النساء إذ سمع صوت الحلى بجيدها. ويقول إن تفتير عينيها الجميلتين يسرع فى ضَنًا محبوبها، ولا يزال يأمل من البيد والفلوات ردَّها. والموشحة من مجزوء البسيط. وواضح أن نسبتها إلى ابن بقى لا يشوبها شك فقد نسبها إليه أبو بكر بن زهر وكذلك ابن سعيد فى كتابه «رايات المبرزين» والمقرى فى أزهار الرياض ومع ذلك نجدها فى ديوان التطيلى خطأ[2] كما نجد أختا لها فى ديوانه أيضا وهى فى مديح يحيى بن القاسم ممدوح ابن بقى الذى تفيأ ظلاله.

---

(١) الليت: صفحة الجيد وجعلها تعطو بها وتمدها، كناية عن طولها.

(٢) انظر ديوان التطيلى ص ٢٧٠ وقارن برايات المبرزين ص٧٩ وأزهار الرياض ٢/٢٠٩.

وينص ابن سناء الملك فى مقدمته لدار الطراز على نسبتها إليه[١] وينشدها كاملة بين ما اختاره من الموشحات الأندلسية، وفيها يقول:

صبرتُ والصَّبْرُ شِيمةُ العاني ولم أقل للمطيل هجراني معذِّبي كفاني
لما جَنَى الوَرْدُ مِلْء كفَّيْهِ تشوَّفَتْ وردتان إليه
فحلَّتا فى رياضِ خَدَّيْهِ

ويقول ابن سناء الملك إن هذه الموشحة من وزن المنسرح، ما عدا نهاية القفل: «معذبي كفاني» لأن وزنه مستفعلن فعولن، والأولى تفعيلة الرجز والثانية تفعيلة المتقارب. وألفاظ القفل بعذوبتها كأنها اقتطعت من اللغة الأندلسية الدارجة لتخفف عن قارئها متاعبه. وصورة الورد فى خدود صاحبته تنقلنا إلى عالم شعرى حالم مكتظ برؤى بديعة. ويلاحظ ابن سناء الملك أن موشحته:

ياوَيْحَ صَبٍّ إلى البَرْقِ له نَظَرُ وفى البكاءِ مع الوُرْقِ له وَطَرُ

من وزن البسيط أقفالا وأغصانا، وهو يضم فى الوزن الجزءين الأولين والتاليين بعضها إلى بعض، ويقول من موشحة:

إن لم يكن إليك سبيلُ فالصَّبْرُ بالجميل جميلُ

والوزن فى أقفالها وأغصانها مستفعلن فعولن فعولن، فهو مكون من تفعيلة الرجز وتفعيلة المتقارب ويكثر هذا الوزن بين الوشاحين. وتكثر هذه السهولة المفرطة فى كثير من أغصان ابن بقى وخرجاته كقوله فى موشحة من وزن الرجز:

ليلٌ طويلْ ولا مُعينْ يا قلبَ بعضِ الناسْ أما تَلينْ

وقوله فى خرجة موشحة ثانية مستخدما لغة عامية كأنما تنفصل من قلوب سامعيه فتؤثر فيهم تأثيرا بعيدا:

---

(١) راجع ديوان التطيلى ص ٢٦٩ وقارن بدار الطراز لابن سناء الملك ص ٣٤ ونسب أيضا ابن سعيد فى المغرب ٢٥/٢ الموشحة: ما الشوق إلا زناد إلى ابن بقى وقد أضيفت الى التطيلى فى ديوانه ص٢٧٩ مما يدل على أن موشحات ابن بقى اختلطت بموشحات التطيلى وخاصة فى كتاب جيش التوشيح لابن الخطيب على نحو ما يلاحظ فى نسبة الموشحات الثلاث المذكورة إلى التطيلى وعنه ألحقها د. إحسان عباس بالديوان حين حققه مع إشارته إلى ذلك!

سافَرْ حبيبى سَحَرْ وما وَدَّعْتُو يا وَحْشَ قلبى فى الليل إذا افتكرتُو

وكلمة وحش حذفت منها التاء لضرورة تفعيلة الرجز: مستفعلن مع زيادة سبب فيها أحيانا إذ تصبح مستفعلاتن. وبهذه الألفاظ الغزلة المفرطة فى السهولة وبما كانت تتضمنه موشحات ابن بقى من صور بديعة طارت شهرته فى عصره وبعد عصره، وقد لبّى نداء ربه سنة ٥٤٠ للهجرة.

أبو بكر[١] بن زُهْر

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن أبى العلاء زهر بن عبد الملك، وهو سليل أسرة طبية ألممنا بها بين الأطباء فى الفصل الماضى، ولد سنة ٥٠٧ بإشبيلية، وأخذ علم الطب عن أبيه وجده، وانفرد بالإمامة فى عصره، ويقول ابن الأبار إنه كان يحفظ صحيح البخارى أسانيد ومتونا، وكان له حظ وافر من الآداب واللغة والحفظ لأشعار الجاهلية والمولدين، وحدَّث بمقامات الحريرى عن أبيه، ويقول صاحب المطرب. كان بمكان من اللغة مكين، كان يحفظ شعر ذى الرمة وهو ثلث لغة العرب مع معرفة جميع أقوال أهل الطب. وكان له منزلة عليا عند الموحدين وخاصة عند الأمير يعقوب بن يوسف سلطان الموحدين (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ) وتوفى فى آخر سنة ٥٩٥ وصلى عليه السلطان الناصر بن يعقوب ودفن بروضة الأمراء فى مراكش. ويقول صاحب المطرب إن الذى انفرد به وانقادت إليه طباعه وأصارت النبهاء أتباعه الموشحات، وقد طار فى المغرب والمشرق موشحه:

أيُّها السَّاقى إليك المُشْتكَى قد دَعَوْناكَ وإن لم تَسْمَعِ
ونـديمٍ هِمْتُ فى غُـرَّتـهِ
وسقـانى الرَّاحَ من راحَتـهِ
كلما استيقظ من سَكْـرتـهِ
جذَب الزِّقَّ إليه واتَّكَى وسَقـانى أربعًا فى أربـعِ

---

(١) انظر فى أبى بكر بن زهر التكملة رقم ٨٥٥ والمغرب ٢٧١/١ والمطرب لابن دحية ص ٢٠٣ وما بعدها والمعجب ص ١٤٢ وابن أبى أصيبعة ص ٥٢١ ومعجم الأدباء ٢٥٦/١٨ وزاد المسافر لصفوان (طبع بيروت) ص ٧١ والوافى للصفدى ٢٩/٤ وراجع فى موشحاته المغرب ومعجم الأدباء وابن أبى أصيبعة وتوشيع التوشيح للصفدى (انظر الفهرس) وبالمثل جيش التوشيح لابن الخطيب.

والموشحة من وزن الرمل، وهى تسيل خفة ورقة وعذوبة ورشاقة فى نسق من بديع الألفاظ المختارة، وكأنها لا تتلاقى فحسب، بل تتعانق آخذا بعضها بتلابيب بعض. وله من موشحة هذا الغصنُ وقفله:

هل تستعادْ أيامُنا بالخليجْ أو ليالينا
إذ يُستفادْ من النسيم الأرِيج مِسْكُ دارينا[1]
وإذ يكادْ حُسْنُ المكان البَهيج أن يحيِّينا
نهرٌ أظلّهْ دَوْحٌ عليه أنيق مورقٌ فينانْ[2]
والماء يجرى وعائمٌ وغريقْ من جَنَا الرَّيحانْ

والغصن والقفل جميعا يزخران بشجىٍّ يثير فى القلب حنينا بل جذوة متقدة من الحنين لأيام سعيدة هنيئة مرت وكأنها حلم من الأحلام لن يعود. لن تعود تلك الأيام والليالى ولا ما كان فى حدائقها البهيجة من النسيم العطر حتى لكأنما كل شىء فيها كان يلقاهم بالتحيات والبسمات، وماء نهر إشبيلية يجرى من تحتهم وفروع الأشجار وأغصانها المورقة تظلله، والرياحين والزهر بين سابحٍ وغريق. كل ذلك سقط من يد ابن زهر وهو موله مشوق أعظم شوق، حتى لكأنما انتُزع منه انتزاعا. وزنة الجزء الأول فى القفل والغصن مستفعلاتن، وزنة الجزء الثانى مستفعلن فاعلانْ، وزنة الجزء الثالث فى القفل فاعلانِ وفى الغصن فَعْلن، وبذلك يُرَدّ وزن الموشحة إما إلى البسيط وإما إلى السريع مع زيادة سبب إلى التفعيلة الأولى دائما وكذلك إلى التفعيلة الأخيرة. وهذه التغيرات فى تفاعيل هذه الموشحة وما ماثلها مما أشرنا إليه هو ما جعل ابن بسام يقول إن الموشحات تجرى أحيانا على أعاريض مهملة أى من أعاريض الشعر العربى كما أسلفنا مرارا لا من أعاريض الشعر الأعجمى الوهمية، كما ظن «ريبيرا» وتلاميذه. ولابن زهر موشحة صاغها على طريقة ابن نزار هكذا:

قَلْبِى من الحبِّ غير صاحِ صاح
وإن لَحانى على المِلاح لاَحِ
وإن دَرَى قِصَّتى وشانى شانى

والجزء الأول فى الغصن والقفل من مخلع البسيط، والجزء الثانى على زنة فعلن تفعيلة

(١) دارين: قرية كانت على الخليج العربى ينسب إليها المسك والطيب.

(٢) فينان: كثير الفروع والأغصان.

المتدارك وصاح الأولى: مستيقظ، والثانية: ترخيم صاحب، واللاحى: العاذل اللائم، وشانى الأولى: مخففة من شانئ والثانية: المبغض. واستمر ابن زهر فى هذه الموشحة يستخرج الجزء الثانى من الجزء السابق له أو يكرره بمعنى جديد، مما يفجأ به قارئه ويدخل عليه غير قليل من المتاع الشعرى. وكان كثيرا ما يفجأ قارئه بصور طريفة كقوله فى الموشحة التى أنشدها له ياقوت فى معجم الأدباء:

طرقتْ والليل ممدودُ الجَناحْ   مرحبًا بالشمسِ من غير صباحْ

فجناح الليل ممدود على الكون من حوله، وزارته صاحبته فأضاءت فى هذا الليل كأنها شمس تطلع دون صباح مما يلقى فى نفسه غير قليل من العجب، والموشحة جميعها أقفالا وغصونا من وزن الرمل، وأنشد له ابن دِحْية فى المطرب موشحة من وزن المتقارب افتتحها على هذه الصورة:

سَدَلْنَ ظلامَ الشعورْ   على أوْجهٍ كالبدورْ

سفَرْن فلاح الصَّباحْ

ضحكنَ ابتسامَ الأقاحْ

كأن الذى فى النُّحورْ   تَخَيَّرْنَ منه الثُّغورْ

والصور طريفة إذ يجمع فى غزله والإعجاب بجمال صواحبه ظلام الشعور وبدور أو أقمار الوجوه ويضيف أنهن سفرن ونحين النقاب عن وجوههن فأضاء الصباح، وضحكن وابتسمت ثغورهن ابتسام زهر الأقاح الذى طالما شبه به الشعراء الثغور لنصاعة بياضه. ويفجؤنا ابن زهر بما ملأ نفسه حيرة، إذ يتنقل بصره بين ثغورهن وعقود اللآلئ التى تزدان بها نحورهن فيخال كأنهن تخيَّرْن ثغورهن من تلك اللآلئ البهيجة.

وواضح من كل ما قدمت أن موشحات ابن زهر وابن بقى وابن عبادة القزاز وغيرهم من الوشاحين الأندلسيين تموج بالنغم، وحقا خالفوا بين قوافى الأقفال وقوافى الأغصان، ولكن الأقفال تتحد قوافيها فى كل موشحة كما تتحد قوافى الأجزاء فى كل غصن. فالقافية لم تهمل فى الموشحة إنما تنوعت فى الأغصان، وظلت موحدة فى أجزاء الأقفال، وكان حريا أن يسقط بذلك شىء من وفرة الأنغام المعروفة فى القصيدة العربية غير أنهم تلافوا ذلك باختيارهم لموشحاتهم أرشق الألفاظ العربية وأكثرها عذوبة وسلاسة وصفاء، وليس ذلك فحسب، فقد قصَّروا الشطور فى أجزاء الأقفال والأغصان، حتى أصبحت أنغام أى موشحة لا تقل عن أنغام القصائد وَفْرَة، بل إنها لتتفوق عليها فى

كثير من الأحيان بسرعة التدفق والانسياب، حتى لتصبح روائعها وكأنها يَمٌّ من الأنغام تغرق الأذن فى خِضَمِّه. وليس بصحيح ما زعمه بعض المستشرقين الإسبان من أنها وُضعت فى نشأتها - وظلت توضع أحيانا - على أسس إيقاع لأنغام أغنيات باللغة الإسبانية أو الرومانثية الدارجة، ليس ذلك بصحيح، إذ هو وهم تبادر إليهم - كما أسلفنا - من كلمة ابن بسام : إن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة، وهو إنما يقصد أعاريض الشعر العربى المهملة التى حاول بعض العباسيين أن ينظم فيها أشعاره أو بعض أشعاره، ثم جاء الأندلسيون من أصحاب الموشحات بعدهم فنظروا فى دوائر الخليل وتحريكه فيها للتفاعيل بالزيادة والنقص، فاستغلوا ذلك فى موشحاتهم أحيانا بزيادة سبب فى بعض التفاعيل أو نقصه مع اطراد ذلك فى الموشحة، بحيث تدخل بدقة فى أعاريض الشعر العربى وإيقاعه، فضلا عن أن كثيرا منها - إن لم تكن كثرتها - صيغت كما رأينا عند كبار الوشاحين من نفس أعاريض الشعر العربى وأوزانه المستعملة من قديم.

(ب) الأزجال

الأزجال جمع زجل[١]، وهو فى اللغة التطريب، وقد سمى به الأندلسيون الفن الشعرى العامى المقابل للموشحة. وفى اسمه الذى اختاره الأندلسيون ما يدل على أنه نشأ للتغنى به فى الطرقات والأسواق والمحافل العامة، وظل ذلك شأنهم على توالى الزمن، ونرى ابن قزمان يصرح بذلك فى بعض أزجاله[٢]، ونلتقى بعده بابن عبد الرءوف ورسالته فى الحسبة، ونراه يقول إنه ينبغى أن يمنع الذين يمشون فى الأسواق بالأزجال إلا أن تكون نفيرا للجهاد أو تهليلا لحج بيت الله الحرام والسفر إلى الحجاز[٣]. وحين رأى المستشرق الإسبانى «ريبيرا» أن صورتها لا تختلف فى شىء عن صورة الموشحة من حيث الأقفال والأغصان قرنها بها فى نشأتها منذ أواخر القرن الثالث الهجرى قائلا إنه نشأ حينئذ طراز شعرى شعبى تمتزج فيه مؤثرات غربية وشرقية متخذا صورتين هما

---

(١) راجع فى هذا الموضوع كتاب الزجل فى الأندلس للدكتور عبد العزيز الأهوانى (نشر معهد الدراسات العربية العالية فى الجامعة العربية) وكتاب تاريخ الأدب الأندلسى: عصر الطوائف والمرابطين للدكتور إحسان عباس ص ٢٥٢ وما بعدها.

(٢) انظر الزجل رقم ٦١ فى ديوانه.

(٣) راجع رسالة الحسبة لابن عبد الرءوف فى ثلاث رسائل نشر بروفنسال.

الموشحة الفصيحة والزجل السوقى الدارج[١]. ويبسط غرسية غوميس فكرته قائلا إنه «قدّم براهين جلية على وجود لغة رومانثية كان يتكلمها أهل الأندلس وهى اللغة التى كتب بها ابن قزمان شاعر القرن الثانى عشر الميلادى أزجاله.. وكانت اللغة الدارجة الجارية على الألسن فى قرطبة»[٢]. والشعبتان جميعا كما يراهما ريبيرا تحتاجان إلى مراجعة، إذ ينقصهما البرهان اليقينى، أما أنه كانت تشيع فى الأندلس لغة دارجة رومانثية كتبت بها الأزجال فإن الأزجال نفسها تنقضها لأنها كانت مكتوبة بلغة عامية عربية لا رومانثية بدليل أن أبواب البلدان العربية جميعا فُتحت لها وتناشدها الناس فيها، وأكبُّوا على روايتها ودراستها، حتى ليقول ابن سعيد إنه رأى أزجال ابن قزمان إمام الزجل الأندلسى مدونة ببغداد أكثر مما رآها مدونة بحواضر المغرب[٣]. ومن الطريف أن نعرف أن الأندلسيين لم يكتبوا فيها بحثا ولا دراسة، وأن أول مَنْ بحثها ودرسها وحاول أن يعرض شيئا من تاريخها وخصائصها العروضية واللغوية بغدادى هو صفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ فى كتابه «العاطل الحالى والمرخص الغالى» ولو أنها كانت منظومة بلغة رومانثية أو لاتينية كانت دارجة فى الأندلس ما استطاع فهمها ولا دَرْسها دراسة علمية قيمة على نحو ما نقرأ فى كتابه السالف، الذى لا أبالغ إذا قلت إن أحدا لا يستطيع أن يدرس الأزجال الأندلسية دراسة علمية بصيرة دون الاعتماد عليه. ولم يبْن دراسته للزجل على دراسة ديوان ابن قزمان وحده بل لقد استعرض معه طائفة من دواوين الزجالين الذين جاءوا بعده حتى القرن السابع مما يدل - بوضوح - على أنها كانت متداولة جميعا فى المشرق وأنها كانت منظومة بعامية عربية لا لاتينية دارجة أو رومانثية ، ولا ننكر أنه تتخلل بعض الأزجال وخاصة عند ابن قزمان بعض ألفاظ رومانثية بحكم أنها دخلت العامية الأندلسية، بالضبط كما حدث لمثيلات لها فى لغات الشعوب التى فتحها العرب والتى استُحْدثت فيها عاميات مختلفة، ولكن ذلك لا يخرجها جميعا - كما لا يخرج العامية الأندلسية - من عالم العاميات العربية.

وبالمثل الشعبة الثانية من رأى «ريبيرا»، وهى أن الزجل نشأ مع الموشحة منذ أواخر القرن الثالث الهجرى فى حاجة أيضا إلى مراجعة، إذ لا تذكر المراجع الأندلسية أى شىء عن زجل أو أحد الزجالين قبل القرن السادس الهجرى، مما يمنعنا علميا أن ننسب نشأة الزجل إلى القرن الخامس فضلا عن القرن الرابع وما قبله. ونفس ابن قزمان

---

(١) انظر بالنثيا ص ١٤٢.

(٢) دراسات أندلسية للدكتور الطاهر مكى ص ١٨٦.

(٣) المقتطف ص ٢٦٣.

المتوفى فى منتصف القرن السادس يحدثنا فى مقدمة ديوانه بأن الزجالين الذين عاشوا فى زمنه أو قبله بقليل لم تستقر عندهم القاعدة الأساسية للزجل، وهى أن يكون بلغة عامية تخلو من الإعراب ومن التفاصح بالألفاظ العربية الجزلة، ويقول إن أول من اتخذ هذه القاعدة أساسا للزجل أخطل بن نمارة وحده دون غيره ممن سبقوه فإن ألفاظ أزجاله ملحونة وسلسة. ويدل على أن أصول الزجل وقواعده لم تكن قد وضعت نهائيا قبل ابن قزمان، أنه عاد يأخذ على ابن نمارة تفاصحه ببعض الألفاظ التى لا تجرى فى العامية الأندلسية، وحمل بسبب ذلك على زجال يسمى يخلف بن راشد حملة عنيفة. وهذا يؤكد أن نشأة الزجل متأخرة وأنه لم يأخذ مقوماته وخصائصه الكاملة إلا على يد ابن قزمان، ويشهد بذلك ابن سعيد إذ يقول إن الأزجال قيلت بالأندلس قبل ابن قزمان ولكن لم تظهر حُلاها، ولا انسكبت معانيها، ولا اشتهرت رشاقتها إلا فى زمانه[1]». ويجزم ابن خلدون بأنها ظهرت متأخرة محاكاة للموشحة، يقول: «لما شاع فن التوشيح فى أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا فى طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعرابا، واستحدثوا فنا سموه بالزجل»[2].

ومعنى ذلك أن تصور «ريبيرا» ومن تابعه مثل غرسيه غوميس أن الزجل نشأ مبكرًا مع الموشحة وأنه نُظم بلغة رومانثية دارجة كانت تشيع على ألسنة أهل الأندلس تصور مخطئ أشد الخطأ، فقد نُظم بلغة عامية عربية لا لاتينية دارجة، أو رومانثية ، ونُظم محاكاة للموشحة بعد أن شاعت وذاعت وازدهرت فى عصر الطوائف وما بعده كما يقول ابن خلدون. وسنخص ابن قزمان بكلمة. وينبغى أن نعرف أن الزجل مثل الموشحة يكثر فيه الغزل ووصف المتاع بالخمر ووصف الطبيعة والإعجاب بجمالها الفاتن والمديح والهجاء والرثاء وجميع أغراض الشعر العربى، وكان كثير منه يُنشد فى الحث على جهاد النصارى وفى المناسبات الدينية. وأكبر زجّال فى الجيل التالى لابن قزمان هو أحمد بن الحاج المشهور باسم مَدْغَلِّيس[3]. وهو من أهل المريّة، وله أزجال كثيرة فى مديح الأمراء والقواد، ويقول ابن سعيد إن أزجاله مطبوعة إلى نهاية، ويقول المقرى فى نفح

---

(١) المقتطف ص ٢٦٣.

(٢) مقدمة ابن خلدون (تحقيق د. على عبد الواحد وافى) ص ١٣٥٠.

(٣) انظر فى مدغليس المغرب ٢١٤/١ وتعليقنا على ترجمته فى الهامش.

الطيب: كان أهل الأندلس يقولون: ابن قزمان فى الزجالين بمنزلة المتنبى فى الشعراء ومدغليس بمنزلة أبى تمام بالنظر إلى الانطباع والصناعة، فابن قزمان ملتفت للمعنى ومدغليس ملتفت للفظ. وكان أديبًا معربًا لكلامه مثل ابن قزمان (يريد أنهما كانا ينظمان الشعر الفصيح) ولكنه لما رأى نفسه فى الزجل أنجب اقتصر عليه»[1] وكان ديوانه يُرْوَى فى المشرق وحصل صفى الدين الحلى على مخطوطة منه، وأدار عليه وعلى ابن قزمان أكثر ملاحظاته على عروض الزجل الأندلسى وخصائصه اللغوية، وذكر له كما أسلفنا - ثلاث عشرة قصيدة عامية على أوزان الشعر العربى، وذكر له قطعًا من أزجاله وأروعها الزجل الذى أنشده له ابن سعيد، وفيه يقول:[2]

ثلاث آشيا فِالبساتِينْ لَسْ تجِدْ فى كلّ موضعْ
النّسيم والخُضْرَهْ والطّيرْ شِمْ واتْنَزّهْ واسْمَعْ
وَرَذاذًا دقّ ينْزِلْ وشعاع الشمس يِضْرَبْ
فترى الواحدْ يِفضّضْ وترى الآخرْ يِذَهّبْ
والنباتْ يِشرْب ويِسْكَرْ والغصونْ تُرْقُصْ وتِطْرَبْ

ويشيد فى نهاية الزجل بغناء أم الحُسْن. والزجل مفعم بالسلاسة والعذوبة والتصاوير الرائعة الملحنة على أنغام وزن الرمل المرقص المطرب، وكأنما تحمل إلينا الألفاظ أنفاس البستان وأريج رياحينه. ومع أن مدغليس لم يوحّد القوافى بين الأجزاء الأولى المتقابلة فى قوافل هذا الزجل وأغصانه واكتفى باتحادها فى الأجزاء الثانية أسوة بابن قزمان فى بعض أزجاله يموج زجله بجرس يلذ الأذن ويمتع النفس لدقته فى اصطفاء ألفاظه وحسن ذوقه فى انتخابها حتى لكأننا نستمع فيها إلى لحن موسيقى. وربما كان هو أول من ابتكر صياغة القصائد بالعامية التى أسلفنا الحديث عنها، وكأنما رأى أن يقيس القصيدة على الموشحة، فكما صاغوا الزجل قياسًا على الموشحة صاغ القصائد العامية قياسًا على قصائد الفصحى بنفس أعاريضها المستعملة عند العرب - كما مرّ بنا - من مديد وخفيف وغير ذلك. ومن كبار الزجالين بعده أبو الحسن على بن محمد الشاطبى، وقد أنشد له صاحب العاطل الحالى قطعةً من زجل يبدو أنه كان من أزجال الاستنفار للجهاد وأنه قاله عقب انتصار، يقول فيه واصفًا حال العدو[3]:

---

(١) النفح ٣/٣٨٥.
(٢) المغرب ٢/٢٢٠.
(٣) انظر العاطل الحالى ص ٣٤ و ٨٠.

كلما رَا السيوفْ إليه تّنجردْ — صاح ويشكو وثَمّ لم يرْتَفِدْ[١]
يَنْبَحِ الكلبُ إذ يَرَى الأسدْ — والأسَدْ لَسْ يَهُزّو ذاك النُباحْ

ورَجاعتْ عليه جنودْ ووبالْ — ومال النُحْس ماعو كَفْ مامالْ
لم تنجيّـه وصيّةُ الكـردِنالْ — ولَ فـادتْ نصيحةُ النُصّـاحْ

وواضح أن الزجل من وزن الخفيف. ويذكر ابن سعيد فى المغرب طائفة من الزجالين وطرائفهم الزجلية، وقد نقل كثيرين منهم عن كتاب ملح الزجالين لابن الدباغ المالقى، ومنهم زجّالو إشبيليه: أبو عمرو الزاهر وأبو بكر الحصار وأبو عبد الله بن خاطب وأبو بكر بن صارم ومنهم ابن[٢] ناجية اللورقى. وقد أضاف ابن سعيد إليهم طائفة من زجالى القرن السابع أمثال البُلّارج القرمونى ويحيى بن عبد الله بن البحبضة. وترجم لابن الدباغ[٣] المذكور آنفًا وقال إنه لقيه بمالقة وإنه إمام فى الهجو على طريقة الزجل، وذكر له بعض أزجاله. ونشعر أن الزجل - مثل الموشحة - انتهى عصر ازدهاره بانتهاء عصر الموحدين لولا ما أتيح له من حيوية وروحانية بعد ذلك على لسان المتصوفة من أمثال الششترى المتوفى بدمياط سنة ٦٦٨ للهجرة. ومن الزجالين المهمين ابن عمير، وقد أنشد له صاحب العاطل من زجل قوله[٤]:

يـا حَبيبْ قلبى تعطّفْ — بعض هـذا الهجر يكْفـا
فـدموعْ عَيْنَىَ مـا تَرْقَـا — ولهيبْ قلبىَ مـا يِطْفَـا

والزجل من وزن الرمل. ويقول ابن خلدون إنه نزل بمدينة فاس فى المغرب ونظم لهم نوعًا من الشعر الملحون فى أعاريض مزدوجة فأولعوا بالنظم فيه وسموه عروض[٥] البلد. ويذكر ابن خلدون من الزجالين فى عصره ابن الخطيب (المتوفى سنة ٧٧٦ للهجرة) وكان يعاصره إمام فى الزجل هو محمد بن عبد العظيم من أهل وادى آش، وينشد له ابن خلدون قطعة من زجل عارض به زجلًا لمدغليس استهله بقوله:

حلَّ المجونْ يا أهل الشطارا — مذ حلّتِ الشمس بالحَمَلْ

وجدير بنا أن نقف قليلًا عند ابن قزمان إمام الزجل الأندلسى ونتحدث عن بعض أزجاله.

---

(١) يرتفد: يريد أنه لم يدعم بمدد من قومه.
(٢) انظر فى هؤلاء الزجالين فهرس المغرب.
(٣) المغرب ٤٣٨/١.
(٤) العاطل الحالى ص ٥٦.
(٥) المقدمة ص ١٣٥٧.

ابن قزمان[١]

هو أبو بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان، ولد حول سنة ٤٨٠ وعاش فى عصر المرابطين إلى أن توفى بعده سنة ٥٥٥ للهجرة فى صدر دولة الموحدين (٥٤٠ - ٦٤٠ هـ) وفى المغرب أنه من بيت عريق بقرطبة وأن أفراد أسرته لم يزالوا بين عالم ووزير ورئيس. وقد نشأ مثل أترابه فى قرطبة نشأة علمية أدبية، وهى نشأة أهلته ليكون أديبًا وكاتب وثائق كما يكون شاعرًا ووشاحًا[٢]. أما شعره فروى له منه ابن الأبار بعض مقطوعات فى كتابه تحفة القادم، وروى له ابن سعيد مقطوعة من قصيدة فى مديح يحيى بن غانية والى غربى الأندلس من قِبَل على بن يوسف بن تاشفين ومقطوعة ثانية نظمها وقد رقص فى مجلس شراب، فأطفأ فيه السراج بأكمامه. ولعل فى ذلك ما يدل على أنه اتجه مبكرًا للمتاع بالخمر واللهو. وأما التوشيح فقد روى له صاحب العاطل الحالى موشحة غزلية غزلًا ماديًّا صريحًا[٣]. وفى المُغرِب أنه «كان فى أول شأنه مشتغلًا بالنظم المعرب (شعرًا وتوشيحًا) فرأى نفسه تقصر عن أفراد عصره كابن خفاجة وغيره، فعمد إلى طريقة لا يمازجه فيها أحد منهم، فصار إمام أهل الزجل المنظوم بكلام عامة الأندلس». وقد طارت شهرته فى الزجل لا بقرطبة وحدها، بل فى كل مدن الأندلس، وأيضًا فى المغرب والمشرق، حتى لتحتفظ العصور بمخطوطة من ديوانه كتبها نسّاخ بمدينة صفد فى فلسطين قبل سنة ٦٨٣ هـ/١٢٣٤ م وقد نشرها المستشرق جنزبرج سنة ١٨٩٦ مصوَّرة فى لوحات، وعُنى فى سنة ١٩٣٣ المستشرق التشيكى «نيكل» بنشره بحروف لاتينية مع دراسة عن ابن قزمان، وصدرت هذه النشرة فى مدرسة الدراسات العربية بمدريد وغرناطة، وانتقد المستشرق كولان هذه النشرة وقال إنها مليئة بأخطاء كثيرة، ونشر الديوان من جديد المستشرق غرسية غوميس بحروف لاتينية مع ترجمة إلى الإسبانية، غير أنه أخطأ فى رأينا خطأ كبيرًا حين حاول أن يطبق على أزجاله أعاريض الشعر الغربى القائمة على النبر والمقاطع كأوزان الشعر الإسبانى بحجة أن الزجل نُظم على تلك الأوزان لا على الأوزان العربية، وهى حجة لا دليل

---

(١) انظر فى ابن قزمان المغرب ١/١٠٠ و١٦٧ وما بعدها وتحفة القادم لابن الأبار فى مجلة المشرق عدد ٣ سنة ١٩٤٧ رقم ٢٥ ص ٣٧٥ والإحاطة ٤٩٤/٢ والعاطل الحالى لصفى الدين الحلى (انظر الفهرس) والوافى للصفدى ٤/٣٠٠.

(٢) راجع الزجل السابع فى الديوان.

(٣) العاطل الحالى ص ٨٢.

عليها أى دليل. بل كل شيء ينقضها نقضًا فقد صيغت الأزجال محاكاة للموشحات كما لاحظ ابن خلدون، وهى لذلك تلتقى بها فى أوزانها العربية وتفاعيلها المعروفة على نحو ما أوضحنا فى تحليلنا العروضى لطائفة من الموشحات، بل لقد أوضحنا ذلك فى الأزجال المارة إذ ذكرنا معها أعاريضها وأوزانها العربية. ولو أن غرسية غوميس درس أعاريض الشعر العربى ودوائر الخليل التى أثبتها ابن عبد ربه فى العقد الفريد وتأنّى فى قراءة أزجال ابن قزمان لعرف أنها جميعًا لا تخرج عن الأعاريض العربية، وكيف كان يمكن لناسخها فى صفد قديمًا أن ينسخها، وكيف كان يمكن لصفى الدين الحلى أن يدرسها فى كتابه العاطل الحالى، وهى على أعاريض الأشعار الأوربية أو الأندلسية: أعاريض النبر والمقاطع. ونفس صفى الدين يشهد فى كتابه بأنها جمعت بين أصول الطرب وصحة أوزان العرب[١]. ونضيف كيف كان يمكن للبلدان العربية أن تحاكيها وأن تزدهر فيها إلى اليوم لو أنها كانت على أعاريض الشعر الأوربى؟ إن كل ذلك يقطع بأن الزجل نظم - مثل الموشحة على الأعاريض العربية، سواء عند ابن قزمان أو عند غيره من الزجالين.

والديوان - بدون ريب - كنز نفيس لأن الزمن لم يحتفظ لنا من دواوين الأزجال الأندلسية إلا به، وفيه غُنْية عن سواه لأنه ديوان إمام الزجالين فى الأندلس غير مدافع، ويتراءى لنا فيه ابن قزمان ماجنًا عاكفًا على اللذات من الخمر والنساء والغلمان لا يرعوى ولا يزدجر، وهو يعلن ذلك مرارا مجاهرًا به فى غير حياء، ويبدو أنه كان يهبط أحيانًا إلى صور من العبث والمجون جعلت ابن المناصف القاضى يأمر بسجنه، ويستغيث بالقائد المرابطى محمد بن سير فيرد إليه حريته. وطبيعى لمن يعيش هذه المعيشة الماجنة المسرفة فى المجون أن يتلف كل ما ورثه من مال وأن لا يبقى على مال يصل إلى يده، مما جعله فى أزجاله مداحًا كبيرًا للأمراء والولاة وسلاطين المرابطين والقضاة ووجهاء قرطبة وغير قرطبة إذ كانت له رحلات إلى إشبيلية وغير إشبيلية، يستجدى العطاء فى إلحاح. وهو يهبط فى هذا الاستجداء حتى ليطلب الثياب والدقيق والفحم والزيت وأجرة البيت الذى يسكنه مصورًا فى تضاعيف ذلك بؤسه وحرمانه وماهو فيه من تعاسة وضنك ومسغبة حتى ليدنو من صورة أصحاب الكدية والتسول. وهو جانب ننكره عنده كما ننكر إسرافه فى اللهو وما ملأ به أزجاله من مجون وإثم. غير أننا إذا نحينا ذلك كله عن ابن قزمان يظل عندنا الزجّال الفنان الكبير الذى أعطى للزجل صورته العامية

(١) العاطل الحالى ص ٢٢ ويؤكد صفى الدين ذلك قائلا إنهم خالفوا أحيانًا بين الأوزان فى الأقفال والأغصان من غير أن يخسروا فى الميزان.

التامة وسلاسته وعذوبته المكتملة بحيث أصبح يخلب الألباب بخفته ورشاقته من مثل هذه الفقرة الأخيرة من الزجل رقم ٥٨ فى الديوان:

لانْسيتِ إذْ زارني حِبّي وانجلى همى وزاد كَرْبى قلتُ لُهْ وَقْتَا أخذْ قلبى
قالْ متى تْجينِ قُلْ غدا وغدا للناظرين قريبْ

والزجل من وزن الرمل مع تعديل طفيف فى جزئى القفل. والجزء الثانى فى الغصن: «وانجلى همى وزاد كربى» يدل على عمق شاعرية ابن قزمان وأحاسيسه، فحين زال همه زاد كربه، وهى صيغة لا يقولها إلا من شفّه العشق. ويقتطف صفى الدين الحلى هذا المطلع من أحد أزجاله[1]:

قالوا عنّي بأنّى فيكْ عاشقْ إيشْ تَقُلْ يَصْدُقوا
يا حبيبى لْقيتْ كثيرْ في الناسْ بالصوابْ يَنْطِقوا
هذا شئْ والنبىْ يا نورْ عينى ما تحدّثت بيه
ولَ بالله خطَرْ على بالى لا ولا خُضْتُ فِيه

والزجل من وزن المقتضب: مفعولات مستفعلن فَعْلن. والفقرة رقيقة رقة شديدة، مع غير قليل من الرفق والعطف والحب الذى يكظمه فى نفسه ويشيع - دون إرادته - من حوله وحول محبوبته. وأنشد له ابن سعيد فى المغرب طائفة من أزجاله الماجنة، وتتخللها أحيانا قطع أو فقر بديعة فى وصف الربيع والطبيعة مثل قوله:

الرَّبيع ينشُرَ غلامْ مثل سلطاناً مؤيَّدْ
والثمارْ تنشر حليّه بثيابْ بِحَلْ زَبَرْجَدْ
والرياضْ تلبسْ غِلالا من نبات فِحَلْ زمرُّدْ
والبَهارْ مع البنفسَجْ ياجمال ابيَضْ فى أزْرَقْ

واستمر يذكر الندى يترقرق على الغصون وأزهار الخيرى والآس، والماء يجرى، والظل يمتد يمينا ويسارا. ويستطرد إلى الحديث عن الخمر وإلى غزل يصور فيه غريزته النوعية. وواضح أنه صاغ هذا الزجل من وزن الرمل المرقص المطرب. وإذا كانت تشوب أزجاله أحيانا كلمات أو صيغ رومانثية فإنها جاءته من العامية الأندلسية، وهى أشياء محدودة لا تُخرج صياغة أزجاله إلى صياغة لاتينية أو رومانثية كما ظنّ «ريبيرا»

---

(١) العاطل الحالى ص ٣٤

وغرسية غوميس، فالصياغة المطردة فى أزجاله صياغة عامية عربية هى عامية الأندلس على نحو ما يلاحظ فيما أنشدناه من أزجاله. وبحق لاحظ صفى الدين الحلى أنه على الرغم من أنه دعا إلى أن تكون ألفاظ الزجل ملحونة وأن لا تكون من الألفاظ العربية الجزلة الرصينة فإن بأزجاله كثيرا من الألفاظ والصيغ العربية الرصينة المصقولة وأيضا من الألفاظ المعربة بالحركات والحروف، واستشهد صفى الدين لذلك كله وما يماثله بشواهد كثيرة من أزجاله.[1] ولا نبالغ إذا قلنا إن أحدا لا يستطيع أن يدرس أزجال ابن قزمان ولا الأزجال الأندلسية دراسة لغوية وعروضية دون الرجوع - كما أسلفنا - إلى دراسة صفى الدين لها فى كتاب العاطل الحالى، إذ لم يتصدَّ أحد لدراستها دراسة علمية خصبة قبله، وسيظل كتابه منجما لا ينفد للدارسين لها والباحثين.

وحرى بنا أن نشير إلى أنه أصبح من الثابت بين علماء الاستشراق أن صيغة الزجل ونظامه وما اقترن به من الموسيقى الأندلسية، كل ذلك أثر تأثيرا واسعا فى الغرب، إذ على هديه ظهرت الطُّرُز الشعرية المقفاة عند أوائل التروبادور البروفانسيين. ويتحدث بالنثيا حديثا مفصلا عن مدى تأثيره فى فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا والبرتغال بدليل ما نشأ عندهم من أغان مقفاة على شاكلة القوالب الزجلية، وليس ذلك فحسب فإنها تأثرت بمضامين الزجل الغزلية وما فيها من تصور للعشق، وأيضا بما كان يرافقها من موسيقى. ويمضى بالنثيا فى الحديث عن تأثير الزجل فى الأغانى الإسبانية بطرازه الشعرى وموسيقاه، ويذكر أن دواوين نظمت أكثر أغانيها وأناشيدها فى قالب الزجل، منها ديوان ألفونس العاشر فى القرن الثالث عشر (١٢٢١ - ١٢٨٤ م) الذى سماه أناشيد لمريم العذراء المقدسة وهو يتضمن أربعمائة وعشرين أنشودة منها نحو ثلاثمائة على نسق الأزجال الأندلسية وقوالبها المعروفة، ومثل هذا الديوان ديوان القس هيتا فى القرن الرابع عشر الميلادى الذى سماه: «الحب الطيب» ويقول بالنثيا إن التشابه بين مقطوعاته وبين الأزجال لا يرقى إليه شك، ويمثل ببعض مقطوعاته.

---

(١) انظر العاطل الحالى ص ٦٤ وما بعدها

٣

شعراء المديح

طبيعى أن يأخذ شعراء المديح فى الظهور منذ تأسيس عبد الرحمن الداخل للدولة الأموية بقرطبة، وهم يأخذون فى التكاثر منذ عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) كما مرَّ بنا، ويخلفه ابنه محمد ويظل من عاش فى عصره من الشعراء يدبج القصائد فى مديحه مثل مؤمن بن سعيد وطاهر بن حزم، وربما كان أهم مداحه عباس[1] بن فرناس ويقال إنه مدح أباه عبد الرحمن وجده الحكم، وينوه ابن حيان بإبداعه فى التفلسف وفنون التعاليم القديمة والحديثة وحذقه للموسيقى والضرب على العود وصوغه للألحان، وله فى تهنئة الأمير محمد عند قفوله مظفرا سنة ٢٥٩ من غزوته الكبرى لأهل بنبلونة فى نبارُة بأقصى الشمال قصيدة بديعة، وكان صادف اقتران قفوله منها بعيد الفطر مما جعله يقول[2]:

إنَّ القُفولَ الذى أوْفَى بعيدينِ ... مكرَّمين على الدنيا عَزِيـزَيْنِ

قُدومُ أكرمِ مَنْ فى الأرض قاطبةً ... قُدومُ فِطْرٍ فكانا خيرَ عيدين

طابا كتفَـاحَتَىْ خَدَّىْ مُنَعَّمـةٍ ... تورَّدا فى بياضٍ بين صُدْغَيْن[3]

أو مُقْلَتَىْ رَشأٍ فى طَرْفِهِ حَوَرٌ ... مَكْحُـولتين بِسِحْرِ البـابليَّيْنِ[4]

ونلتقى بعده بشعراء ابنه الأمير عبدالله وفى مقدمتهم ابن عبد ربه، وعبيد[5]الله بن يحيى بن إدريس وهو من بيوتات الشرف فى المولدين. وللشعراء فيه مدائح كثيرة سجلها ابن حيان فى قسم المقتبس الخاص به، من ذلك قول عبيدالله بن يحيى بن إدريس يهنئه بفتح حصن لُكّ:

---

(١) انظر فى عباس بن فرناس المقتبس لأبى حيان (تحقيق د. مكى - طبع بيروت) ص ٢٧٩ والزبيدى ص ٢٩١ والحميدى رقم ٣٧١ والمغرب ١/٣٣٣ وبغية الملتمس رقم ١٢٤٧ وله وللشعراء المذكورين أشعار كثيرة فى المقتبس.

(٢) المقتبس ص ٣٣٩.

(٣) الصدغ: الشعر على جانب الوجه من الأذن إلى العين.

(٤) البابليان: هاروت وماروت المشهوران بالسحر.

(٥) انظر فى ابن إدريس الحميدى رقم ٥٨٢ وابن الفرضى رقم ٧٦٥ والضبى رقم ٩٧٤. واختار له ابن حيان فى الجزء الخاص بعبد الرحمن الناصر أشعارا كثيرة (انظر الفهرس) وبلغ من إعجاب الناصر به أن أسند إليه الوزارة، وكان متواضعا حتى قالوا إنه كان يؤذن فى مسجده وهو وزير.

قد جاءك الفَتْحُ فى العِيد الكبير فما ... رأيتُ مثلهما فى اليوم عِيدَيْنِ
يا فَرْحةً مَنْ رأى فى الغَزْو طالعها ... وشاهدَ الفتح لم يأسف على البَيْنِ
ألذُّ فى السمع من بُشْرَى الحَمِيم إذا ... وَافَى ومنْ منظر المعشوق فى العَيْن

ويمدَّح البيت الأموى الجديد بكل مديح وثناء عبد الرحمن الناصر الذى أعلن نفسه خليفة سنة ٣١٦ وقد ظل صولجان الحكم بيده خمسين سنة. كانت قرطبة فيها عاصمة الحضارة والثقافة فى أوربا، وعادت إلى الأندلس وحدتها التى تفككت فى عهد جده عبد الله، ودان حكام نبارَّة وقشتالة وبرشلونة وليون له بالولاء، ومرَّ بنا حديث ابن حيان عن كثرة الشعراء فى زمنه. وكانت غزواته طوال حكمه متصلة فاتصل مديح شعرائه جميعاً بها وفى مقدمتهم ابن عبدربه وسنفرده بكلمة، وبالمثل اتصل بها مديح عبيد الله بن يحيى بن إدريس وله يقول فى مدحة ميمية:[١]

يَهْنا الخلافة سَعْىُ خيرِ إمام ... لله مَسْعاهُ ولِلإسلامِ
لِيُعزَّ دينَ الله فى كَنَفِ العُلا ... ويذبُّ عن حَرم الهدى ويُحامى
مستنجزًا وعد الإلـه بِنَصْرِه ... فى شِيعة الإشراك والإجرامِ

وكان الناصر قد غزا نصارى الشمال فى شهر رمضان وأدركه عيد الفطر فى بلاد العدو فلم ينكل ولم يتراجع بل صمد - كما يقول ابن حيان - للقاء العدو ومزَّق جموعه تمزيقا. ولابن إدريس يذكر زيادته فى جامع قرطبة وبناءه لمدينة الزهراء بجوارها[٢]:

سَيَشْهَدُ ما شيَّدتَ أنك لم تكن ... مُضِيعًا وقد مُكِّنْتَ للدين والدُّنْيا
فبِالجامعِ المعمورِ للعلم والتُّقى ... وبالزَّهرة الزَّهْراء للمُلْك والعَلْيا

وقد استحال جامع قرطبة فى عهده إلى جامعة كبرى للعلوم والآداب، وإلى ذلك يشير ابن إدريس. ودائما يرفع شعراء الأندلس فى مدائحهم لأمراء البيت الأموى الدين الحنيف شعارا لهم فى غزواتهم للمسيحيين فى الشمال، فهم يحامون ويصولون تحت لوائه دفاعا عنه وانتصارا له زُلْفى لربهم. ويخلف الناصر ابنه الحكم المستنصر أكبر راع للعلوم والآداب فى الأندلس، بل فى جميع العالم العربى، لعصره، غير أنه لم يكن داهية فى السياسة، فقد رأى أباه الناصر يشعر بخطر نشوء الدولة الفاطمية فى تونس فيستولى على سبتة وطنجة ويرسل إعانات مالية كبيرة لزعيم الأدارسة يحيى بن إدريس ويمده بالسلاح

---

(١) المقتبس الجزء الخامس ص ٤٢.

(٢) المغرب ١/١٨٠.

والعتاد لمقاومة الخطر الفاطمى، ويستطيع يحيى التغلب على نصير الفاطميين موسى بن أبى العافية ويعلن ولاءه للناصر. ولا يسلك الحكم المستنصر مسلك أبيه فى تلك السياسة إذ ألقى بخيرة قواده وجنوده فى الصراع مع المغرب، ولم يظفر من ذلك بطائل سوى إضعاف جبهته الشمالية فى حروبه مع نصارى الإسبان. وفى هذه الأثناء وفد عليه جعفر بن علي أمير الزاب وأخوه يحيى معلنين الانفصال عن مَعَدّ الفاطمى ودعوته وولاءهما له، وهلّل شعراؤه بوفادتها طويلا، من ذلك قول شاعره محمد بن شخيص[1]:

بِـأَيْمنِ إقبالٍ وإسْعادِ طائـرٍ ... تباشيرُ محتومٍ من الأمرِ واقعِ
توافتْ بمُلْكٍ من معدٍّ مقوَّضٍ ... لمُلْكٍ إلى مهديِّ مروانَ راجعِ
فيالكِ من بُشْرَى سرورٍ تَضَمَّنَتْ ... بلوغَ الأمانى عن سُعود الطوالعِ
فجعفرُ يُغْنِى عن جنودٍ برأيِهِ ... ويَحْيَى يلاقى حاسرًا ألفَ دارع

وهو يقول إن وفودهما بشرى بأن ملك معد الفاطمى تقوض من أساسه للملك المروانى: الحكم، ويصفه بأنه مهدى منتظر على نحو ما كان معد يصف نفسه. ويتغنى بذلك شاعر الحكم محمد بن حسين الطُّبْنى وغيره من الشعراء. ويخلفه على العرش ابنه المؤيد وهو غلام فى الثانية عشرة من عمره ويحجب له المنصور بن أبى عامر وابناه المظفر والناصر، ويظل صولجان الحكم بيد المنصور نحو ربع قرن ويخلفه عليه ابناه نحو سبع سنوات وكان المنصور شجاعا فأكثر من غزوات النصارى فى الشمال حتى بلغت - فيما يقال - نيفا وخمسين غزوة، ومن أهمها غزوة جربيرة فى صيف سنة ٣٩٠ وفيها هزم نصارى الشمال هزيمة ساحقة تغنى بها شعراؤه طويلا من مثل قول صاعد[2]:

اليوم عاشَ الدِّينُ وابتدأ الهُدَى ... غَضًّا وعاد الملْكُ عذبَ الموردِ
من فـاته بـدرٌ وأدرك عُمْـرُه ... جَرْبيرَ فَهْو من الرَّعيلِ الأسعدِ

وهو يجعل غزوة جربيرة أختا لغزوة بدر التى أعز الله بها الإسلام ورسوله والمؤمنين

---

(١) قطعة المقتبس الخاصة بالحكم المستنصر (طبع بيروت) ص ٥٤. وانظر فى ترجمة ابن شخيص الحميدى فى الجذوة ص ٨٤ وبغية الملتمس ص ١١٩ واليتيمة للثعالبى (تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - طبع دار الفكر) ٢٢/٢ وقال الضبى فى البغية: له على لسان رجل يعرف بأبى الغوث أشعار مشهورة فى أنواع الهزل.

(٢) انظر أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب ص ٧٢ - ٧٣ وهو صاعد البغدادى اللغوى الشاعر الوافد على المنصور بن أبى عامر. وراجع ترجمته فى الذخيرة ٨/١/٤ وما بعدها والحميدى: ٢٣٣ والبغية رقم ١٥٢٣ والصلة رقم ٥٣٦ ومعجم الأدباء ٢٨١/١١ وإنباه الرواة ٨٥/٢ والمعجب للمراكشى ص ٧٥ وابن خلكان ٤٨٨/٢.

مبالغة فى تمجيده لانتصار ابن أبى عامر فيها. وشاعره الفذ هو ابن درّاج القسطلى وسنخصه بكلمة. ويقول فيه وفى حجابته عبادة بن ماء السماء[١]:

لنا حاجبٌ حاز المعالي بأسْرها ... فأصبحَ فى أخلاقه واحدَ الخَلْقِ
فلا يغتررْ منه الجَهُولُ بِبِشْره ... فمعظَمُ هولِ الرَّعْدِ فى أثَر البَرْقِ

وعاصر عبادةُ زمنَ الفتنة بقرطبة (٣٩٩ - ٤٢٢ هـ) حتى إذا استولى على مقاليد الخلافة على بن حمود العلوى من أدارسة المغرب سنة ٤٠٧ نجد عبادة يقدم له مدائحه متحزبا له متشيعا بمثل قوله[٢]:

أطاعتك القلوبُ ومَنْ عَصِيٌّ ... وحِزْبُ الله حزبُك يا علىُّ
وإن قال الفَخورُ أبى فلانٌ ... فَحَسْبُكَ أن تقول أبى النبىّ

ويتوفى على سنة ٤٠٨ ويخلفه أخوه القاسم فيقدم مدائحه إليه وينازعه الخلافة يحيى ابن أخيه، ويستولى على صولجان الحكم فترة سنة ٤١٢ ويفر عمه إلى إشبيلية، ويعود بجنود من البربر إلى قرطبة ويستردّ الحكم من يحيى سريعا، ويغادر قرطبة إلى الجزيرة الخضراء ويستولى عليها، وله يقول عبادة:

فهـا أنا ذا يـابنَ النبوّة نـافثٌ ... من القول أرْيًا غير ما يَنْفُثُ الصِّلُّ[٣]
وعندى صريحٌ فى ولائك مُعْـرقٌ ... تشيُّعـه محضٌ وَبَيْعَـتُـهُ بَتْـلُ[٤]

وهو يقول إن ولاءه لآل البيت عريق وعِضى فيذكر أن جده كان مواليا لعلى مما جعل معاوية يبغضه بغضا شديدا. وكان ابن الحناط الكفيف القرطبى يتشيع مثله للحموديين وله مدائح متعددة فيهم وخاصة فى على بن حمود وفيه يقول:[٥]

إمامٌ أقام الدِّينَ حَدُّ حسامِه ... طريرًا ومنه فى يد الله قائمُ[٦]

وكأنما كان الصوتان المتشيعان نشازا على أسماع الحموديين فى الأندلس، إذ لم يكونوا

---

(١) راجع ترجمة عبادة فى الذخيرة ٤٧٥/١ وسنخصه بكلمة بين شعراء الطبيعة والخمر.

(٢) انظر فى هذين البيتين والأبيات التالية ترجمة عبادة فى الذخيرة ٤٦٨/١ وما بعدها.

(٣) الأرى: عسل النحل. الصل: الحية.

(٤) بتل: حق.

(٥) انظر القصيدة فى ترجمة ابن الحناط بالذخيرة ٤٣٧/١ وراجع ترجمته فى الجذوة ص ٥٣ والبغية رقم ١٢٤ والصلة رقم ١٤٣٥ والمغرب ١٢١/١ والتكملة رقم ٤٢٩ والوافى ١٢٤/٣.

(٦) طريرا: له رُواء وبهجة.

هم ولا آباؤهم الأدارسة فى المغرب دعاة نحلة أو عقيدة شيعية، لذلك ذهب هذان الصوتان أدراج الرياح.

وإذا مضينا فى عصر أمراء الطوائف وجدنا عواصم هؤلاء الأمراء تتحول إلى ساحات كبرى للمديح، فليس هناك أمير ولا وزير إلا وتدبَّج فيه المدائح، إذ تكاثر الحَبُّ فى تلك الساحات وتكاثر الشعراء الذين يلتقطونه من داخل الإمارة ومن الوافدين على أمرائها، وقد استحالت قصورهم إلى ندوات واحتفالات لإنشاد الشعراء مع ما يتخلل ذلك من مجالس الأنس والطرب والغناء، مما أحدث فى الأندلس نهضة شعرية بأدق ما تؤديه كلمة نهضة من معان، وقد كتب ابن بسام فيها كتابه الذخيرة بمجلداته الثمانية الضخام متحدثا عن الشعراء البارعين بكل حاضرة فى هذا العصر وقد بلغوا أكثر من مائة شاعر فذ، ولكل منهم مدائح بديعة، من ذلك مدحةُ أبى زيد عبد الرحمن بن مُقانا الأشبونى لإدريس بن يحيى الحمودى أمير مالقة جعل مقدمتها طبيعة وغزلاً وخمرًا وسنعرض لذلك فى ترجمته بين شعراء الطبيعة والخمر، وخرج إلى المديح، منشدًا[١]:

وكأنَّ الشمسَ لما أشرقتْ ... فانْثنَتْ عنها عيونُ الناظرينْ
وَجْهُ إدريسَ بن يحيى بن علىِّ بنِ حَمُّودٍ أمير المؤمنين
كتب الجودُ على أبوابِهِ ... ادْخُلوها بسلام آمنينْ
انظرونا نَقْتَبِسْ من نوركم ... إنَّه من نورِ ربِّ العالمينْ

وكان ابن مقانا بدأ إنشاد إدريس هذه القصيدة وهو محتجب على عادته، فلما سمع البيتين الأخيرين أمر برفع الحجاب حتى نظر إليه، وأضفى سابغ نواله عليه. وتغنى ابن زيدون مرارا بأمراء قرطبة بنى جهور، ولما ظنوا أنه مشترك فى مؤامرة ضدهم وزجُّوا به فى غياهب السجن أخذ يعتذر إليهم بمثل قوله[٢]:

بنى جَهْورٍ أحرقتمُ بجفائكم ... جَنانى فما بالُ المدائح تعبَقُ
تظنوننى كالعَنْبَرِ الوَرْد إنما ... تطيبُ لكم أنفاسُه وهْو يُحْرَقُ

ورُدَّت إليه حريته، فالتحق بالمعتضد بن عباد أمير إشبيلية، فاتخذه وزيرا له وأجزل له فى الراتب والعطاء، وفيه يقول ابن زيدون فى إحدى مدائحه[٣]:

---

(١) انظر القصيدة فى ترجمة ابن مقانا بالذخيرة ٤٨٦/٢.

(٢) ديوان ابن زيدون ومعه رسائله (تحقيق محمد سيد كيلانى) ص ٦٠ والمغرب ٦٩/١.

(٣) الديوان ص ١١٢.

همامٌ يَزين الدهرَ منه وأهلَه — مليكٌ فقيهٌ كـاتبٌ متفلسفُ
يتيهُ بِمَرْقـاهُ سريـرٌ ومِنْبَـرٌ — ويحمد مَسْعاه حسامٌ ومُصْحَفُ
جحيمٌ لعـاصيه يُشَبُّ وقـودُه — وجَنّةُ عَدْنٍ للمطيعين تُزْلَفُ[1]

ومرَّ بنا أنه اجتمع للمعتضد وابنه المعتمد كثيرون من الشعراء الأفذاذ، والذخيرة تكتظ بما قدموه لهما من مدائح بديعة، وسنخص ابن عمار من بينهم بكلمة، ومنهم الشاعر ابن اللبانة، وسنترجم له فى الفصل التالى، ومن قصيدة له فى مديح المعتمد[2]:

ملكٌ إذا عقد المغافرَ للوَغى — حَلَّ الملوكُ معاقدَ التيجانِ[3]
وإذا غدتْ راياتُـه منشـورةً — فالخافقانِ لهنَّ فى خَفَقانِ[4]
يـامنشئَ العَلْياءِ بعـد مماتِهـا — تَفْنى النجـومُ وما ثَناؤك فانِ
الأرضُ حاجتُها إليكِ بِطَبْعها — كالعَيْنِ حاجتها إلى الإنسانِ

وكانت سوق الشعر نافقة بالمرية فى عهد أميرها المعتصم بن معن بن صُمادح وطالت إمارته إلى إحدى وأربعين سنة وكان شاعرا، فهتفت باسمه الشعراء فى إمارته ووفدوا عليه من بلدان الأندلس، وهو يغدق عليهم من أمواله، ولمواطنه أبى حفص بن الشهيد أمداح فيه كثيرة من مثل قوله[5]:

وأحسنُ من روضٍ تحلَّى بنَوْرِهِ — مُحَيَّا ابن مَعْنٍ فى حُلِىِّ الفضائلِ
جوادٌ كأن الأرضَ جمعاءَ راحةٌ — له وبحورَ الأرض خمسُ أناملِ
جَلَلْتَ فجلَّ القولُ فيك وإنما — يُقَدُّ لقَدْرِ السيف قدرُ الحمائلِ

وشاعر المعتصم المبدع ابن الحداد، وسنفرد له كلمة، ولم يكن يقلُّ عن المعتصم والمعتمد جودا وشعرا ولَسَنًا وفصاحة المتوكلُ بن المظفر بن الأفطس أمير بَطَلْيَوْس، ولأبيه كتاب المظفرى فى الأدب والتاريخ نحو مائة مجلد. واستحالت بطليوس فى عهده إلى كعبة للشعراء تطوف بها آمالهم وتُتْلَى فيها مدائحهم، وتغنى بمدح المتوكل الشاعر الفذ

---

(١) تزلف: تقدَّم وتصبح زلفى ومنزلة
(٢) الذخيرة ٦٨٧/٣
(٣) المغافر: جمع مِغفرة: زرد من الدروع على قدر الرأس يتقنع به المسلح للقتال. الوغى: الحرب
(٤) الخافقان: المشرق والمغرب. الخفقان: سرعة نبضات القلب.
(٥) انظر فى الأبيات ترجمة أبى حفص بن الشهيد فى الذخيرة ٦٧٠/١ وما بعدها، وانظره فى الحميدى ص ٢٨٣ والمغرب ٢٠٩/١ وبغية الملتمس ص ٣٩٤ وقال ابن سعيد: شاعر المرية فى زمانه وكان مقتصرا على أمير بلده المعتصم بن صادح.

عبد المجيد بن عبدون مواطنه وقصر مدائحه عليه، وسنخصه بترجمة فى الفصل التالى، وفيه يقول[١]:

طبّقْتَ آفاق الكلامِ فلم أدَعْ ... زَهَرًا يرفُّ ولا جُمانًا يُنْظَمُ
لله دَرُّكَ هل لمجدك غايةٌ ... إلا وأنت بها معنًى مُغْرَمُ
هزَّتْك أرْوَاحُ السماحة بانَةً ... ومن الرَّجاحة فى حِماك يَلَمْلَمُ
وتعلّمتْ منك الغمامةُ شيمةً ... تَهْمِى وفيها للبروق تبسُّم

وجعل ابن عبدون المتوكل كالبانة التى يشبه بها الشعراء محبوباتهم فى الحسن سماحة وجودا، ومثل جبل يلملم فى رجاحة العقل وحلمه ورزانته، والصورة الأخيرة بديعة إذ جعله يغدق أمواله على الشعراء والمجتدين وهو يبتسم وكأنه غمامة تهطل والبروق فيها مائتى تلمع كبسماته التى ترتسم دائما على وجهه.

وحرى بنا أن نقف قليلا عند موقعة الزلاقة فى أواسط سنة ٤٧٩ وكانت الأندلس أصبحت أندلسات كثيرة، كما مر بنا فى الفصل الأول، إذ توزعت إلى عديد من الإمارات والعواصم لأمراء عاشوا للترف واللهو، وإن سدَّدوا سيوفهم فإلى صدور جيرانهم فى الإمارات وإخوانهم فى الدين، بينما يدفعون الإتاوات للمسيحيين فى الشمال، وسقطت طليطلة فى حجر ألفونس السادس سنة ٤٧٨. ويتأهب للاستيلاء على عواصم هؤلاء الأمراء المترفين المفكَّكين المتطاحنين، مما جعلهم يجمعون وفى مقدمتهم المعتمد بن عباد أمير إشبيلية - وأجمع الشعب معهم وفى مقدمته الفقهاء - على استصراخ أمير المسلمين فى المغرب يوسف بن تاشفين ليدفع عنهم الكوارث الخطيرة الموشكة الوقوع، فعبر الزقاق، وانضمت إليه الجموع الأندلسية فى غرناطة وإشبيلية يتقدمها المعتمد بن عباد، والتقى يوسف بجموع ألفونس السادس فى الزلاقة بالقرب من بطليوس فى اليوم الثانى من رجب سنة ٤٧٩ وصدَق - ومعه المعتمد وجموع المسلمين - فى وطيس القتال، وسحقوا أعداء الله سحقا ذريعا، وكأنما استؤصل جيشهم استئصالا، إذ لم ينج منه إلا من سارع منهم إلى الفرار مخذولا مقهورا، وفرَّ على وجهه ألفونس يتسنَّم الجبال الشاهقة ويسلك الطرق الوعرة حتى دخل طليطلة، وهنأ الشعراء المعتمد بهذا النصر الحاسم من مثل قول ابن القزاز محمد بن عبادة الوشاح فى تهنئة له[٢]:

---

(١) الذخيرة ٦٨٥/٢.

(٢) الذخيرة ٨٠٣/١ والمغرب ١٣٥/٢ ومرت فى الحديث عن الموشحات مصادر ترجمة ابن القزاز.

تناؤك ليس تَسْبقه الرِّياحُ ... يطيرُ ومن نَدَاك له جَنَاحُ
تطيبُ بذكرك الأفواهُ حتى ... كأن رُضَابها مِسْكٌ وراحُ[١]
جلبتَ إلى الأعادى أُسْدَ غابٍ ... بَرَاثِنُها الأسنَّةُ والصِّفاحُ[٢]

وكان يوسف بن تاشفين والمرابطون ينسبون أنفسهم إلى العرب فى حمير وكان بنو عباد من قبيلة لخم اليمنية، وذكر ذلك عبد الجليل بن وهبون فى قصيدة يهنئ فيها يوسف بن تاشفين والمعتمد بهذا النصر المبين منشدا[٣]:

نُمِى فى حِمْيَرٍ ونَمتْك لَخْمٌ ... وتلك وشائجٌ فيها التحامُ
فيوسفُ يوسفٌ إذ أنت منه ... كيامِنَ، لا وَهَى لكما نظام
فإنْ يَنْجُ اللَّعِينُ فلا كَحُرٍّ ... ولكنْ مثلما ينجو اللئامُ
وصاروا فوق ظهر الأرض أرضا ... كأن وِهادها منهم إكامُ

وهو يجعل يوسف نفس سميه الصديق ويجعل المعتمد أخا له يشد أزره مثل يامن أخى الصديق وهو بنيامين. ويقول إن وهاد الأرض استحالت من جثث الأعداء إكاما أو أكمات وتلالا. وللشاعر يوسف بن عبد الصمد شاعر المرية تهنئة بديعة[٤] للمعتمد بهذا النصر غير أنه خصه بها وحده. وعاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب بعد أن نصح أمراء الطوائف بالوحدة، ولُقِّب بعد تلك الموقعة المظفَّرة بأمير المسلمين، وبنى ألفونس حصنا ضخما بالقرب من مرسية فى موضع يسمى لييط، ليجدد إغاراته على أمراء الطوائف، فاستنجدوا بابن تاشفين، وعبر ثانيا الزقاق سنة ٤٨١ ووجَّه قواته إلى حصن لييط، واضطر ألفونس إلى هدم الحصن وإخلائه. وسرعان ما عاد أمراء الطوائف إلى سابق العهد بهم من الانغمار فى الخلافات وفى الترف واللهو، فاستصرخ فقهاء الأندلس ابن تاشفين ليزيل - إلى غير رجعة - حكم هؤلاء الأمراء الذين يخربون بيوتهم وبيوت المسلمين فى الأندلس بأيديهم. وعبر يوسف الزقاق فى رجب سنة ٤٨٣ وتقدم قائده ابن أخيه سير بن أبى بكر، فاستسلم طواعية عبدالله بن بُلُقِّين أمير غرناطة، واستسلم المعتمد بن عباد فى إشبيلية كرها واستسلمت المرية ومرسية وشاطبة وبطليوس، وهلَّل

---

(١) الرضاب: الريق المرشوف. راح: خمر

(٢) البراثن: جمع برثن: مخلب السبع. الصفاح: السيوف.

(٣) الذخيرة ٢/٢٤٥ وابن وهبون من شعراء المعتمد بن عباد، وسنفرد له ترجمة فى الفصل التالى.

(٤) انظر فى هذه التهنئة الذخيرة ٣/٨١٤.

فقهاء الأندلس لزوال حكم هؤلاء الأمراء، ويصور ذلك أبو الحسن بن الجد فى مدحة لابن تاشفين متشفيا فيهم قائلا[١]:

ناموا وأَسْرَى لهم تحت الدُّجَى قدرٌ هوى بأنجمهم خَسْفًا وما شعروا
وكيف يشعرُ مَنْ فى كفِّه قَدَحٌ تحدو به منهلاتُ النَّاىِ والوَتَرُ[٢]
فقُلْ لمن نام أصبحتَ انْتَبِه فلقد مضى لك الليل صِرْفًا وانقضى السَّحَرُ
وانظرْ إلى الصبح سَيْفًا فى يدىْ ملكٍ فى الله من جُنْدِه التأييدُ والظَّفَرُ
يَرْعَى الرعايا بطَرْفٍ ساهرٍ يَقِظٍ كما رعاها بِطَرْفٍ ساهرٍ عُمَرُ[٣]

ويُظِلُّ الأندلس عهد المرابطين الذين أبلوا فى قتال النصارى ما أُخر استردادهم للأندلس جميعها قرونا بفضل جيوشهم وجيوش دولة الموحدين المغربية من بعدهم. ويموج ديوان الأعمى التطيلى بمديح على بن يوسف بن تاشفين خليفة أبيه على المغرب والأندلس: وسنفرده بكلمة، وبالمثل يموج ديوان ابن خفاجة بمديح أخويه إبراهيم وتميم، وكان إبراهيم واليا له على شرقى الأندلس حتى وفاته سنة ٥١٥ وكان تميم واليا له على غرناطة منذ سنة ٥٠٠ وولى مرسية شرقى الأندلس فترة، ولعل ذلك ما وصل ابن خفاجة به، وديوانه مُفْتَتَحٌ بمدحة بديعة فيه استهلها بوصف الطبيعة والغزل، وفيها يقول[٤]:

وأبْلَجَ منصورِ اللِّواء إذا سَرَى أظلَّتْ عُقابُ النَّصْر أجنحةَ النَّسْرِ
له فتكةٌ لو زاحم الدهرَ تحتها لعُدَّتْ به دُهْمُ الليالى من الشُّقْرِ
وعزمٌ يردُّ الطَّوْدَ هَدًّا ونَجْدَةٌ تهزّ قُدودَ السُّمْرِ فى الحُلَلِ الحُمْرِ
تقسَّمه جودٌ يَفيضُ وهِمَّةٌ فمن مَنْهَلٍ غَمْرٍ ومن جَبَلٍ وَعْرِ

والمدحة على هذا النحو تلوينات وتوليدات فى معانى الشجاعة والكرم، ففتكته تحيل الليالى شقراء بما تلطخها من الدماء وبالمثل تحيل الرماح حلل الأعداء حمرا مما تلطخها به من الدم المسفوك، وجوده يفيض كمنهل عذب، وهمته لا تبارى كجبل وعر لا يساميه جبل فى وعورته. ولابن خفاجة قصيدة بديعة فى مديح زوجة تميم مريم، وكانت سيدة أديبة

---

(١) راجع القصيدة فى الذخيرة ٢/٢٥٦ وانظر فى ترجمة ابن الجد المغرب ١/٣٤٠.

(٢) يشير ابن الجد إلى تهالك أمراء الطوائف على الملذات والخمر والغناء وكأنهم يعيشون فى دور ملاهٍ لا فى دور حكم وسياسة.

(٣) يريد بعمر الفاروق عمر المشهور برعايته للدولة وعدله.

(٤) الديوان (تحقيق د. السيد مصطفى غازى) ص ٢٥ وما بعدها.

فاضلة تحفظ جملة وافرة من الشعر، وكانت لها ندوة تحاضر به فيها وتستمع إلى الشعراء وتثيبهم على أشعارهم، وفيها يقول ابن خفاجة[١]:

مشهورةٌ فى الفضل قِدْمًا والنُّهَى ... والجودِ شُهْرَةَ غُرَّةٍ فى أدْهَمِ
تُولِى الأيادى عن يدٍ نَزَلَ النَّدى ... منهـا بمنزلـةِ المحِبِّ المُكْرَمِ
حمل الثناءَ بها القريضُ وإنما ... حمل الحديثَ روايةً عن مسلمِ

وابن خفاجة يجعل ما يحمله الشعر من الثناء على هذه السيدة عَطِرا عطرَ الحديث المرويِّ عن مسلم فى صحيحه مبالغة منه فى بيان تقواها وما يحف بها من تجلة تغنى بها ابن خفاجة وغيره مادحين مطربين، وسنفرد لابن خفاجة ترجمة فى الفصل الثانى. وفى ابن تيفلويت والمرابطين يقول ابن باجة معللا لاسمهم «الملثمين» إذ كانوا يضعون لثاما على وجوههم[٢]:

قـومٌ إذا انتقبـوا رأيت أهِلَّةً ... وإذا هُمُ سَفَـرُوا رأيتَ بُدورا
لا يسألون عن النَّوال عُفاتَهُمْ ... شكرا ولا يَحْمُون منه نَقِيرا[٣]
لو أنهم مسحوا على جَدْب الرُّبى ... بـأكفِّهم نَبَتَ الأقـاحُ نَضِيـرا

وهو يجعل وجوههم أهلة حين ينتقبون ويخفون جزءا من وجوههم فإذا سفروا ورفعوا النقاب رأيتهم بدورا. ويمدحهم بالكرم الفياض وأنهم لا يسألون طلاب النوال والحاجات شكرا على ما يبذلون لهم، وهم يجودون بكل ما يملكون .ولا يبقون منه لأنفسهم أى شىء. ولا يلبث ابن باجة بخياله الخصب أن يقول إنهم لو مسحوا على أرض مجدبة بأكفهم لاهتزَّت وربتْ وأنبتت أزهارا وأقاحا ناضرا.

ولمحمد بن إبراهيم بن المواعينى المار ذكره بين البلاغيين فى الفصل الماضى مدحة فى الزبير بن عمر الملثم والى قرطبة يقول فى تضاعيفها مخاطبا الملثمين أو المرابطين[٤]:

جُولوا وصُولوا فالمناسبُ حِمْيَرٌ ... أهلُ المفاخر والنَّدَى والنادِى
للقوم فى كل البلادِ رياسـةٌ ... تحكى بنى العباس فى بَغْدادِ
أضْحَتْ مجالسُهم سروجَ جيادهم ... إن السروجَ مجالسُ الأمجادِ

---

(١) الديوان ص ٩٧ - ٩٨.
(٢) النفح ٤١٧/٣.
(٣) النوال: العطاء. العفاة: السائلون طلاب المعروف .. النقير: الشىء المتناهى فى الصغر.
(٤) انظر الأبيات فى ترجمته بالمغرب ٢٤٧/١.

والصورة فى البيت الأخير بديعة. ولليكّى يحيى بن سهل هجّاء الأندلس فى المرابطين معللا لتسميتهم بالملثمين بالغا بهم الغاية من المديح[١]:

قومٌ لهم شرفُ العلا فى حميرٍ ... وإذا انْتَمَوْا صنهاجةٌ فهمُ همُ
لما حَوَوْا إحْرازَ كلِّ فضيلةٍ ... غلبَ الحيــاءُ عليهمُ فتلثمــوا

واشتهرت أسرة مغربية زمن المرابطين بأنها حامية للآداب وراعية للشعر والشعراء، وهى أسرة بنى عشرة أصحاب خطة القضاء فى مدينة «سَلا» على شاطئ المحيط. وأول من رحل إليه شعراء الأندلس لمديحه أو أرسلوا إليه بمدائحهم القاضى على بن القاسم بن عشرة المتوفى سنة ٥٠٢ وهو ممدوح يحيى بن بقى وعيسى بن وكيل الغرناطى ومحمد بن سوار الأشبونى المترجم له بين شعراء الرثاء، وكان قد خلصه من أسره عند النصارى بفدية كبيرة فأكثر من مديحه بمثل قوله[٢]:

لو أن رِفْقَكَ فى القلوب مركَّبٌ ... لم يُلْتقم فى البحر يونسَ حوتُ
ولقد حملتَ من الوقار سكينةً ... لم يحتمِلْها قبلك التابوتُ

وهو يشير إلى الآية الكريمة عن الرسول يونس عليه السلام: ﴿فالتقمه الحوت وهو مُليم﴾ وإلى آية سورة البقرة عن طالوت: ﴿إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينةٌ من ربكم﴾. وخلف عليا فى القضاء ابنه أحمد وأنشد ابن بسام فى ترجمته بالذخيرة مدحه لابن سوار فيه، وكان هو وأخوه يحيى مونلا لشعراء الأندلس، وبنى أحمد قصرا، هنأته به الشعراء، وكان المتفلسف الشاعر أبوعامر محمد بن الحمارة حاضرا ولم يكن أعدَّ شيئا ففكر قليلا، ثم أنشد[٣]:

يا أوحدَ الناس قد شيَّدتَ واحدةً ... فحُلَّ فيها حلولَ الشمس فى الحَمَلِ[٤]
فما كدارِكَ فى الدنيا لـذى أملٍ ... ولا كدارك فى الأخرى لذى عَملِ

ومرَّ بنا فى ترجمة يحيى بن بقى بين الوشاحين أنه خصَّ القاضى أحمد وأخاه يحيى بدرر كثيرة من موشحاته وأشعاره بينما كانا يواليان إغداق نوالهما عليه، مما جعل لسانه

(١) المغرب ٢٦٨/٢ وسنفرد له ترجمة فى الفصل التالى بين الهجّائين.
(٢) البيتان فى ترجمته بالذخيرة ٨١١/٢.
(٣) انظر ترجمة أبى عامر فى النفح ١٣/٤ و ١٤٠ وقد دعاه أبا الحسين على بن الحمارة وراجع ترجمته فى المغرب ١٢٠/٢ وفى البغية ص ٥١٧.
(٤) الحمل: من منازل الشمس.

يلهج بمديحها والثناء عليها طويلا، من مثل قوله فى يحيى من مدحة طويلة[١]:

نَدْبٌ عليه من الوقار سكينةٌ ... فيها حفيظةُ كلِّ لَيْثٍ مُخْدِرِ[٢]
مثل الحسام إذا انطوى فى غِمْدِهِ ... أَلْقَى المهابةَ فى نفوس الحُضَّرِ
أَزْرَى على البحر الخِضَمِّ لأنه ... فى كل كفٍّ منه خَمْسَةُ أبْحُرِ
أقبلتُ مـرتـادًا لجـودكَ إنـه ... صَوْبُ الغمامةِ بل زُلالُ الكَوْثَرِ[٣]

وانتهت دولة المرابطين وخلفتها دولة الموحدين منذ سنة ٥٤١ وأخذت المدن الأندلسية تستظل بلوائهم من مثل الجزيرة الخضراء ورندة ثم إشبيلية وقرطبة وغرناطة. وظل شرقى الأندلس: مرسية وجيَّان وبلنسية بيد محمد بن سعد المشهور باسم ابن مردنيش حتى توفى سنة ٥٦٧ فدخل كل ما بيده فى حوزة الموحدين. وأمر عبد المؤمن ببناء مدينة على جبل طارق، حتى إذا تم بناؤها عبر الزقاق إلى هذا الجبل بجموع غفيرة سنة ٥٥٦ وسماه جبل الفتح، وأقام به شهرا يستقبل وفود الأندلس للبيعة من أهل مالقة وغرناطة وقرطبة وإشبيلية. واتخذ يوما لاستقبال الشعراء، وكانوا قد جاءوه من كل مدينة لاستقباله ومديحه، وكان يوما مشهودا، أنشده كثيرون منهم قصائدهم فيه، وفى مقدمتهم الأصم المروانى القرطبى الشاعر حفيد الشريف الطليق والرصافى البلنسى محمد بن غالب، وسنفرد له ترجمة عما قليل وأحمد بن سيد الإشبيلى وأخيل الرندى وأبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد الغرناطى، وأنشده مدحة يقول فى تضاعيفها[٤]:

دعانا نحو وجهك طِيبُ ذِكْرٍ ... ويدعو للرياضِ شذا الرياحِ
وكنت كساهرٍ ليلا طويلاً ... ترنَّح حين بُشِّر بالصباحِ

ورتَّب عبد المؤمن أمور الأندلس، واتخذ ولاة لمدنها الموالية له، وولَّى مدينة إشبيلية وأعمالها ابنه يوسف ولى عهده، وبذلك كانت حاضرة الموحدين فى الأندلس، وولَّى ابنه عثمان غرناطة وأعمالها، وكان محبًّا للأدب والشعر، فاجتمع حوله شعراء أندلسيون كثيرون. وخلف يوسف (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ) أباه وكان ممدحا، ومن مدَّاحه أبو محمد المالقى وهو يستهل مدحة قدَّمها له بأنه سيملك العالم بأقاليمه السبعة المعروفة لزمنه تسنده سُوَرُ الحواميم القرآنية السبع التى يرددها هى وغيرها من سور القرآن الكريم آناء الليل

---

(١) ابن خلكان ٦/٢٠٤.
(٢) حفيظة : حمية. ليث مخدر: أسد فى خدره وغيله.
(٣) صوب: مطر. الكوثر: نهر فى الفردوس.
(٤) انظر مدحته فى المغرب ٢/١٦٤ وسنخصه بكلمة فى الفصل التالى.

وأطراف النهار، ويقول إنه ستسنده وتنصره السبع المثانى وهى آيات سورة الفاتحة السبع التى يرددها كل يوم فى صلواته، وكذلك السور السبع الطوال من البقرة إلى نهاية التوبة بحسبان التوبة والأنفال سورة واحدة، ولهذا لم يفصل بينهما فى المصحف بالبسملة. ويجعله الجوهرة الواسطة أو الوسطى لسلك أو عقد يضم جواهر العلم والدين والدنيا وينوه بإحكامه لتدبيره السياسى. وكان سيوسا وعالما بالعربية وبالحديث ويقال انه كان يحفظ البخارى بأسانيده وجمع من كتب الفلسفة ما اجتمع للحكم المستنصر الأموى قبله، واتخذ الفيلسوف ابن طفيل جليسه ووزيره، وهو الذى نبّهه - كما مرّ فى الفصل السالف - إلى ابن رشد. وخلفه ابنه المنصور يعقوب الطائر الصيت (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ.) وفى أيامه شرع فى بنيان مدينة الرباط إلى أن أتم سورها ومسجدها وكثيرا من قصورها، وفى سنة ٥٩٠ نقض ألفونس ملك قشتالة العهد الذى بينه وبين الموحدين وأخذت خيله تغير على أطراف دولتهم فى الأندلس، فعبر إليه الزقاق فى جمادى الآخرة سنة ٥٩١ بجموع عظيمة نزل بها فى إشبيلية. وأخذ يعد العدة للقاء ألفونس وجنده، وتجهز ألفونس للقائه بدوره، والتقى الجمعان فى الثالث من شعبان فى الأرك بالقرب من قلعة رباح، فأنزل الله نصره على يعقوب، وسحق المسلمون أعداءهم ودقوا أعناق ستة وأربعين ألفا منهم، وأسروا ثلاثين ألفا، وفرّ ألفونس ومن بقى من جموعه على وجوههم إلى طليطلة وفرائصهم ترتعد رعبا وفزعا، وكان حريا بالمنصور أن يتعقبهم إلى طليطلة ويستنزلهم منها، غير أنه صنع ما صنعه يوسف بن تاشفين فى موقعة الزلاقة، فاكتفى بهذا النصر المبين، وقد تغنى به الشعراء، ومن أروع قصائدهم قصيدة على بن حزمون المرسى من وزن المتدارك ويستهلها بقوله مخاطبا المنصور[1]:

حَيَّتْكَ معطَّرَةَ النَّفَسِ ... نفحاتُ الفَتْحِ بأَنْدَلُسِ
فَذَرِ الكفارَ ومَأْتَمَهُم ... إن الإسلام لفى عُرُسِ
أإمامَ الحقِّ وناصِرَهُ ... طهَّرتَ الأرضَ من الدَّنَسِ
وصدعتَ رداءَ الكفر كما ... صَدَعَ الدَّيْجُورَ سَنَا قَبَسِ[2]

ومضى يصور فى القصيدة هزيمتهم الماحقة وما سُقِيت به الوهاد والتلال من دمائهم، وعلوهم هلعا قائلا إن خيل المنصور وراءهم وقد ملأ التوحيد أعنّتها وأغار بها روح

---

(١) القصيدة بتمامها فى المعجب ص ٣٧٠ وما بعدها.

(٢) الديجور: الظلمة. قبس: ضوء.

القدس، وإن كان نجا ألفونس وبعض جنده فإلى عيش نكد تعس. وتوفى يعقوب بعد أربع سنوات، وخلفه ابنه الناصر محمد (٥٩٥ - ٦١٠ هـ) وفى عهده استرد ألفونس وجنوده قواهم وأخذ يعدُّ لمعركة فاصلة استصرخ لها الشعوب الأوربية حتى بلغ استصراخه إلى بيزنطة، وكأنما شعر الناصر بهذا الإعداد، فعبر إلى الأندلس واستقبله الشعراء بمثل قول أحمد بن شطريَّة القرطبى[1]:

كذا يشرفُ الطالعُ الأسْعَدُ ويسمو لأملاكه السُّيِّدُ
ويَـرْعَى أقاصىَ أقطارِه قريبٌ له عزمةٌ تَبْعُدُ

وأخذ الناصر يعدّ العدة للقاء ألفونس، بينما جاءه عباد الصليب من كل أركان أوربا وقد منحهم البابا الغفران. ولم تلبث رحى هذه الموقعة الصليبية أن دارت فى سهل يقع إلى الشمال الشرقى من قرطبة وجنوبى قلعة رباح، ومُنى الناصر وجيش المسلمين بهزيمة فادحة، كانت نذيرًا لانتهاء دولة الموحدين، واستولى ألفونس سريعا على قلعة رباح وبياسه وأبدة. وتوفى الناصر بعد نحو عام من الموقعة، وخلفه ابنه المستنصر (٦١٠ - ٦٢٠ هـ) وتوفى، فخلفه عمه العادل فأخوه المأمون فالرشيد، والدولة تزداد وهنا على وهن، مما هيأ للملوك قشتالة وأراجون الاستيلاء على كثير من الحصون والمدن، وأخذت تسقط فى حجورهم العواصم الكبرى، وأصبح كل شىء يؤذن بخروج العرب من الأندلس، وأخذ كثيرون من علمائها وشعرائها يغادرونها الى المغرب والمشرق، واتصل ذلك طوال القرن السابع. وكان كثيرون منهم يمنون أنفسهم بأنهم سيعودون إلى وطنهم بجحافل الجيوش المغربية التى ترد الأمر إلى نصابه، ومنهم ابن الأبار وسنترجم له بين شعراء الاستصراخ، ومنهم حازم القرطاجنى الذى اتجه إلى أبى زكريا الحفصى، وقدم إليه مدحة يقول فيها[2]:

أميرَ الهُدَى من يَدْن منك فإنه بِقُرْبك عن صَرْف الحوادث قد أُقْصِى
عسى الله أن ينتاشَ أنْدُلُسًا بكم ويأخذ فيها للهدى أخْذَ مقتصِّ

وسنترجم له بين أصحاب الشعر التعليمى. وكان قد قُيِّض للأندلس منذ الثلاثينيات فى القرن السابع ابن الأحمر فأقام بغرناطة دولة أسرته التى استمرت نحو قرنين ونصف،

---

(١) انظر البيتين فى ترجمته بالمغرب ١/١٣٩ وله ترجمة فى تحفة القادم لابن الأبار رقم ٦١ ومعها بعض شعره.

(٢) ديوان حازم القرطاجنى (طبع بيروت) ص ٦٦.

وطبيعى أن يتجمع حولها الشعراء وأن يقدموا لحكامها مدائحهم، وطبيعى أن يكون أول من أشادوا به مؤسس الدولة ابن الأحمر محمد بن يوسف وفيه يقول ابن سعيد: «كان من عجائب الدهر فى الفروسية والإقدام والسعادة فى لقاء العدو، ويفهم الشعر ويكثر مطالعة التاريخ، أنشدته قصيدة أولها:

لمثلك تنقادُ الجيوشُ الجَحافِلُ وتُذْخَرُ أبناءُ القَنَا والقنابلُ»[1]

وما زال ينازل ملك قشتالة حتى اضطر إلى عقد معاهدة بينهما، ويتعاقب أبناؤه وأبناء أسرته على الحكم بعده منذ توفى سنة ٦٧١ وحكمهم صفحات مشرقة من جهاد النصارى الشماليين، وأُرْغم حفيده محمد على تسليم جبل طارق لملك أرَاجون سنة ٧٠٧ واستولى على صولجان الحكم سنة ٧١٣ أبو الوليد إسماعيل، ونازله الجيش القشتالى سنة ٧١٨ فى مرج غرناطة، فهزم هزيمة ساحقة وقتل قائده، ويهنئه أبو عبدالله اللوشى بمثل قوله[2]:

قصدوا العَرينَ ليغلبوا آسادَهُ فقضى عليهم بأسُك الغلاّبُ

وقويت شوكة المسلمين فى عهد أبى الوليد وعهد ابنه أبى عبدالله محمد، وقد جمع رأيه على استعادة جبل طارق، وأعاده بعد موقعة بحرية عنيفة سُحق فيها أسطول ملك أراجون ويهنئه بهذا الفتح المبين أبو العلاء محمد بن سماك العاملى منشدا[3]:

فتحٌ قضاه لمُلْكك الرحمنُ لم تأت قط بمثله الأزمانُ
فلأىّ يومٍ سعادةٍ أولاكَهُ ذلّتْ بعزّةِ نَصْرِه الصُّلْبانُ

وخلفه أخوه أبو الحجاج يوسف الأول (٧٣٣ - ٧٥٥) وكان راعيا للآداب والفنون، وأضاف إلى قصر الحمراء المشهور بغرناطة منشآت كثيرة، ومدحه كثيرون فى مقدمتهم لسان الدين بن الخطيب، وله فيه نحو خمسين قصيدة بين مدح وتهنئات بالأعياد والمولد النبوى الشريف وإشادة بأعماله ومنها بناؤه للمدرسة التى تحدثنا عنها فى غير هذا الموضع، وفى ديوانه أنه أمره بنظم أبيات تزيِّن بها قبةُ العَرْض المطلة على مجلسه فى الحمراء، فنظم تسعة أبيات منها قوله على لسان القبة[4]:

(١) المغرب ١٠٩/٢.
(٢) انظر ترجمة أبى عبدالله اللوشى فى الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة للسان الدين بن الخطيب تحقيق د. إحسان عباس (طبع بيروت) ص ١٧٥ وراجع فى ترجمة اللوشى الإحاطة ١٩٧/٢ وكانت وفاته سنة ٧٥٢.
(٣) راجع ترجمة ابن سماك العاملى فى الكتيبة الكامنة ص ١٩٨.
(٤) انظر ديوان ابن الخطيب المسمى: «الصيب والجهام والماضى والكهام» تحقيق الدكتور قاهر (طبع الجزائر) ص ٢٦١.

أأبصرت مِنِّى فى المصانع قُبَّةً تأنق فىُ السَّعْدُ من كل جانبِ
فتُتْلَى سُطورُ الكُتب فوقىَ دائما وتُعرَضُ من تحتى سطورُ الكتائبِ

والقطعة بديعة، ولابن جُزَىّ الغرناطى مؤلف رحلة ابن بطوطة مدحة بديعة فى أبى الحجاج من مثل قوله[١]:

إن المعالىَ والعوالىَ والنَّدَى والبأسَ طَوْعُ يَدَىْ أبى الحجاجِ[٢]
ماضى العزيمة والسيوفُ كليلةٌ طَلْق المُحَيَّا والخطوبُ دواجى
ليث الوَغَى والخيلُ تُزْجَى بالقنا والبِيض تنهلُ من دم الأَوْداجِ[٣]

وخلفه ابنه محمد الخامس الغنى بالله (٧٥٥ - ٧٩٣ هـ) مكمل منشآت قصر الحمراء، وكان مُمَدَّحا للشعراء، وأهم مادحيه منهم ابن زمرك، وسنفرد له ترجمة عما قليل. وكان حفيد الغنى بالله يوسف الثالث (٨١٠ - ٨٢٠ هـ) شاعرا، ولزمه ابن فُرْكون الشاعر يمدحه واتخذه كاتب سره، وتستغرق ديوانه مدائحه فيه، حتى لتبلغ نحو مائة قصيدة ومقطوعة، إذ لم يترك مناسبة شخصية أو اجتماعية أو سياسية أو حربية إلا ونظم للسلطان فيها مدحة طنانة، ومن قوله فيه حين تقلَّد السلطة[٤]:

إليك تباشيرُ البشائر مُقْبِله تلوح بآفاق الهدى متهلِّله
فهُنِّئْتَ ما استقبلتَ يا ملكَ الهدى من العزِّ لا زالتْ سعودك مقبله
لقد قلَّد الرحمنُ أمرَ عبادهِ إمامًا له فى العدل أرفعُ منزله

ويُعَدّ يوسف الثالث آخر أمراء بنى الأحمر المهمين، ويفضون بعده فى القرن التاسع الهجرى إلى خلافات، تقضى على الإمارة قضاء مبرما. وحرى بنا أن نتوقف قليلا لنتحدث عن أهم شعراء المديح فى الأندلس، وهم ابن عبد ربه وابن دراج القسطلى وابن عمار وابن الحداد والرُّصافى وابن زمرك.

---

(١) انظر هذه القصيدة فى ترجمة ابن جزى الضافية فى أزهار الرياض ١٨٩/٣ وترجم له ابن الأحمر إسماعيل بن يوسف فى كتابه نثير فرائد الجمان وابن الخطيب فى الكتيبة الكامنة ص ٤٦.

(٢) العوالى: الرماح.

(٣) تزجى: تدفع. الأوداج جمع ودج وهو عرق فى العنق إذا قطعه الذابح لم تبق فى الإنسان حياة.

(٤) انظر ديوان ابن فركون بتحقيق د. محمد بن شريفة (طبع أكاديمية المملكة المغربية) ص ١٠٣.

ابن عبد ربه[1]

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، ولد فى قرطبة سنة ٢٤٦ للهجرة، فى أسرة متواضعة من أسر الموالى إذ كان جده سالم من موالى هشام بن عبد الرحمن الداخل، وألحقه أبوه بأحد الكتاتيب، ثم وجهه إلى الدراسة على الشيوخ فى جامع قرطبة الكبير، فأخذ يختلف إلى حلقات الفقهاء والمحدثين واللغويين من أمثال بقى بن مخلد وابن وضاح والخشنى. ولم تلبث موهبته الشعرية أن تفتحت، فأخذ ينظم - مثل أقرانه - فى الغزل والخمر، وقلما يقع له فيهما شعر جيد.ويبدو أنه لم يكن ينظم فيهما عن عاطفة حقيقية، وأنه كان يصدر فيهما عن محاكاة أنداده، ومن خير ما له فى الغزل قوله:

الجسم فى بلدٍ والروحُ فى بلدِ	ياوحشةَ الروح بل ياغربة الجسَدِ
إن تبكِ عيناك لى يامَنْ كلفتُ بهِ	من رحمةٍ فهما سَهْماك فى كبدى

وكان سريع الغضب، وجَرَّ عليه ذلك اشتباكه مع القلفاط الشاعر معاصره فى الهجاء، ونراه فى كثير من أشعاره شابا وشيخا ميالا إلى التشاؤم وإلى ذم الدنيا والناس وسوء الظن بالأشخاص. وربما كان صادرا فى ذلك عن نزعة دينية غرسها فيه شيوخه، ومن بقيتها عنده أن نراه بأخرة من حياته يعارض كل مقطوعة غزلية أو خمرية فى شبابه بمقطوعة فى ذم الدنيا والتنفير منها، وسمَّى تلك المقطوعات الممحَّصات أى المخلصات من الذنوب، كأنما عدَّ شعره فى شبابه ذنوبا وآثاما وهو إنما كان فى رأينا محاكاة للشعراء العباسيين لا اقترافا حقيقيا للآثام، لأنه لم يكن مهَّيئا لذلك بحكم روحه المحافظة. ويدل على ذلك أبلغ الدلالة كتابه «العقد الفريد» وهو مطبوع بمصر مرارا فى عدة مجلدات، وفيه يعرض الثقافة الأدبية المشرقية على نهج كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة، ولم يعن فيه بالحديث عن أدباء بلده وشعرائه إلا ما كان من تمثله بكثير من أشعاره وذكره لشاعر

---

(١) انظر فى ترجمة ابن عبد ربه وأشعاره الحميدى ٩٤ وابن الفرضى ٤٩/١ والبغية رقم ٣٢٧ واليتيمة للثعالبى (طبعة محيى الدين عبد الحميد) ٥/٢٢ - ١٠. ٧٤ - ٩٩ والمطرب ص ١٤١ ومعجم الأدباء ٢١١/٤ والمطمح ص ٥١ وابن خلكان ١١٠/١ والمقتبس لابن حيان الجزء الخاص بالأمير عبد الرحمن وابنه محمد (نشر د. محمود مكى ببيروت) والجزء الخاص بالأمير عبد الله نشر ملشور بباريس والجزء الخامس الخاص بعبد الرحمن الناصر والعقد الفريد لابن عبدربه ونفح الطيب للمقرى. انظر فى كل ذلك الفهارس،وتاريخ الأدب الأندلسى عصر سيادة قرطبة للدكتور إحسان عباس ص ١٣٥ والأدب الأندلسى للدكتور هيكل ص ٢٢٣.

الأمير عبد الرحمن الأوسط يحيى الغزال. أما بعد ذلك فالكتاب مشرقى خالص بما فيه من شعر ونثر بحيث قال الصاحب بن عباد حين اطلع عليه: هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا. وهو رمز واضح لروحه المسرفة فى المحافظة.

ومع أن غزلياته وخمرياته وزهدياته يبدو فيها جميعا التكلف الشديد تتجلى فى مدائحه شاعرية بارعة، وكأنما خُلق للمديح أو مداحا، وبدأ مديحه مبكرا. وقد استهله بمديح الأمير محمد بن عبد الرحمن، وتوفى فعنى بمديح ابنه المنذر ويؤثر له فيه قوله من مدحه:

بالمنذر بن محمد   شَرُفَتْ بلادُ الأندلسْ
فالطيرُ فيها ساكنٌ   والوحشُ فيها قد أنِسْ

وتوفى المنذر وخلفه أخوه عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) ويمدحه لأول استيلائه على صولجان الحكم بقصيدة قافية يقول فيها متجاوزا كل حد فى المبالغة على عادة الشعراء:

إذا فُتحتْ جنَّاتُ عَدْنٍ وأُزْلِفتْ   فأنت بها للأنبياء رفيقُ

وينتصر عبد الله على ابن حفصون الثائر فى إحدى المعارك معه سنة مائتين وثمان وسبعين، وكان قد اشتدت شوكته وتداعى له - كما يقول ابن حيان - أهل الشر من أقطار الأندلس، فهنأه ابن عبد ربه بقصيدتين: حائية وجيمية، وفى الثانية يقول:

هذى الفتوحاتُ التى أذكتْ لنا   فى ظُلمة الآفاق نورَ سِراجِ

ويخلف عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) جده عبد الله وكان ابن عبدربه أحد معلميه وكان الناصر جديرا بكل حمد فعاش ابن عبد ربه بقية حياته حتى وفاته سنة ٣٢٨ يتغنى بفتوحاته وانتصاراته الضخمة على الثائرين فى الداخل، ودانت له الأندلس ودان له ملوك النصارى وأمراؤهم فى الشمال. وبمجرد استيلائه على مقاليد الحكم يُعِد جيشا جرارا لغزوة المنتلون، ويستولى فيها على مائتى حصن من حصون الثوار ويهنئه ابن عبدربه بهذا النصر المبين مرارا منشدا:

فى غزوةٍ مائتا حِصْنٍ ظفرتَ بها   فى كل حصْنٍ غواةٌ للعناجيجِ[1]
ما كان ملكُ سليمانٍ ليدركها   والمُبْتَنِى سَدَّ يأجوجٍ ومأجوجِ

وهو يعلى ملكه على ملك سليمان بن داود وملك الإسكندر ذى القرنين بانى سد يأجوج ومأجوج وصاحب الفتوح الكبرى. ولابن عبدربه فى حروب الناصر من سنة ٣٠٠

---

(١) العناجيج: الخيل.

إلى سنة ٣٢٢ منظومة[١] تاريخية يصف فيها انتصاراته على مدار تلك السنوات البالغة اثنتين وعشرين سنة، وهو يستهلها بالتسبيح والتحميد، وينوه بالناصر وحسبه ونسبه وتقواه، ثم يقص غزواته موزعة على تلك السنين بهذا الأسلوب الذى نقرؤه فى حديثه عن غزوة المُنْتلون بجيَّان:

أرْجفتِ القِلاعُ والحصونُ كأنما ساورها المَنونُ[٢]
وأقبلتْ رجالُها وُفودَا تَبْغى لدى إمامها السُّعودا
قلوبهم باخعةٌ بالطَّاعَةْ قد أجمعوا الدُّخولَ فى الجماعَةْ

وأسلوب ابن عبد ربه فى المنظومة جميعها يخلو من التصاوير مما يدخلها فى دوائر الشعر التاريخى التعليمى كمنظومة على بن الجهم التاريخية التى ألممنا بها فى كتاب العصر العباسى الثانى، وفى الحق أن أجنحة ابن عبد ربه كانت من القصر بحيث لم يستطع أن يحلِّق فيها بين شعراء الملاحم المبدعين.

ابن[٣] دراج القسطلى

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج ولد سنة ٣٤٧ فى بيت من بيوت قبيلة صنهاجة المغربية بمدينة من أعمال جَيَّان تسمى قسطلة دراج، وفى نسبتها إلى جده ما يدل على عراقة أسرته، وألحقه أبوه منذ نعومة أظافره بكتاب حفظ فيه القرآن وبعض الأشعار على عادة لداته، حتى إذا أتم حفظ القرآن انتقل إلى حلقات الشيوخ بجيَّان فاتسعت ثقافته اللغوية والأدبية. ويبدو أن ملكته الشعرية تفتحت مبكرة، فأخذ ينظم الشعر حتى عُرف بين شعراء بلدته، ولم يلبث أن تزوج وأنجبت له امرأته بنتا وطمحت نفسه إلى الشهرة، فرأى أن يرحل إلى قرطبة محاكيا بذلك بعض شعراء جيان ممن سبقوه إليها

---

(١) أنظر فى هذه المنظومة العقد الفريد لابن عبدربه (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٤٩٩/٤ ومابعدها وسنلهم بها بأخرة من هذا الفصل.

(٢) أرجفت: اضطربت من الفزع. ساورها: صارعها.

(٣) راجع فى ترجمة ابن دراج وشعره الذخيرة ٥٩/١ وما بعدها والحميدى ١٠٢ واليتيمة للثعالبى (طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد) ١٠٣/٢ وما بعدها والصلة لابن بشكوال رقم ٧٥ وبغية الملتمس رقم ٣٤٢ والمغرب ٦٠/٢ والمطرب ص ١٥٦ والمعجب للمراكشى ص ٨٥ والبيان المغرب لابن عذارى ٢٧٤/٢ و ٩/٣ وفى مواضع مختلفة وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ١٢٢ - ١٢٤ وأيضا فى مواضع مختلفة وابن خلكان ١٣٥/١ ومقدمة ديوانه المنشور بدمشق تحقيق د. محمود مكى وكتابنا الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة الحادية عشرة) ص ٤٢٤ وتاريخ الأدب الأندلسى عصر سيادة قرطبة للدكتور إحسان عباس ص ١٩١ والأدب الأندلسى للدكتور هيكل ص ٣٠٢.

ونالوا فيها غير قليل من الشهرة مثل الغزال يحيى بن حكم شاعر الأمير عبد الرحمن الأوسط وأحمد بن فرج الجيانى صاحب كتاب الحدائق شاعر الحكم المستنصر. ورحل إليها مخلفا وراءه زوجته وابنته سنة ٣٨٢ وكان المنصور بن أبى عامر حاجب المؤيد هشام فى الذروة من سلطانه، وكان يرعى الشعراء، واتخذ لهم ديوانا لأعطياتهم ورواتبهم وأقام عليه أديبا بصيرا بالشعر هو عبد الله بن مسلمة فعرض عليه ابن دراج مدحة فى المنصور أعجبته فقدمه إليه، وأخذ المنصور يختبر بداهته فى نظم الشعر وهو يوفق فيما يطلبه ويختبره فيه، وألحقه بدواوينه وفسح له فى مجالسه، وطلب إليه ذات مرة أن يعارض أبا نواس فى رائيته: «أجارة بيتينا أبوك غيور» فنظم فى معارضتها قصيدة بديعة صوّر فيها امرأته متلهفة عليه فى وداعه مشفقة ورضيعها فى المهد وهى تتجرع مرارة الفراق وتنتحب .. يقول:

ولما تدانتْ للوداع وقد هَفَا ... بصبرىَ منها أنَّةٌ وزفيرُ
تناشدنى عهدَ المودّة والهوى ... وفى المَهْد مبغومُ النّداءِ صغيرُ[1]
تبوّأ ممنوعَ القلوب ومُهِّدَتْ ... له أذرعٌ معطوفةٌ ونحورُ

ويطيل فى تصوير هذا الوداع مما جعل القصيدة تطير شرقا وغربا، ويصور رحلته من جيان إلى قرطبة لزيارة المنصور ومديحه، ويشيد بجهاده للنصارى فى الشمال ونصرته للدين الحنيف وانتصاراته المتوالية على الأعداء. وكان ملوكهم مايزالون يفدون عليه فى قرطبة معلنين خضوعهم له وطاعته، ووفد فى أول سنة نزل بها ابن دراج قرطبة ملك نبارّة معلنا ولاءه ومحكِّما له فى نفسه، فأنشده مدحة يقول فيها:

ألا هكذا فَلْيَسْمُ للمجد مَنْ سَما ... ويَحْمى ذِمارالملك والدين مَنْ حَمَى[2]
فهذا عظيمُ الشِّرْك قد جاء خاضعا ... وألقى بكفَّيْه إليك محكِّما

ووفد فى نفس السنة أمير قشتالة وولى عهدها على المنصور، ويصف فى لامية له مثوله خانعا بين يدى المنصور والعرضَ العسكرى الرهيب الذى أقيم لاستقباله. ولا يفد أمير ولا ملك إلا وابن دراج يشيد بالمنصور ويمدحه، وبالمثل كان يوالى مدائحه فيه مع انتصاراته المتعاقبة، ومعروف أن المنصور غزا طوال حجابته اثنتين وخمسين غزوة، وحضر ابن دراج غزواته الأخيرة، ومع كل غزوة كان يغزوها ينشده مدحة بديعة كان بحقّ أهلا لها وجديرا، ومن أهم تلك الغزوات غزوة شنتياقب فى جلّيقية بأقصى الشمال الغربى

---

(١) مبغوم النداء: رقيقه ولينه.

(٢) ذمار الملك: ما ينبغى حياطته والدفاع عنه.

لإسبانيا وفيها دمر المسلمون تلك البلدة مشعلين النار فيها وفى كنيستها، وتُعَدُّ من أهم مراكز الحج عند المسيحيين وفى تلك الوقعة يقول ابن‌دراج فى مدحه بديعة:

لقد قصمت عُـرَى دينِ الضلالـة من رأسِ القواعد ممنوعِ الحِمَى أشِبهْ[1]
وسُمْتَـه جـاحمـا للنـار مـابقيتْ نفسٌ من الكفـر إلا وَهْيَ من حَـطبـه
فـاللّهُ جازيـك يامنصـورُ غـزوتَـه بسيفِ ماضٍ لنصر الدين مُحْتَسِبه

ويتوفى المنصور بن أبى عامر سنة ٣٩٢ ويخلفه ابنه المظفر عبد الملك وكانت مدته حتى سنة ٣٩٩ فترة رخاء ورفاهية، وسكن الناس منه إلى عدالة ونزاهة، واستنَّ سنة أبيه فى غزو النصارى، ولابن دراج فيه مدائح مختلفة. وخلفه أخوه عبد الرحمن فى الحجابة لمدة شهرين إذ قُتل فى إثرهما وكان نحسا على نفسه وعلى الأندلس إذ انفتح به باب فتنة ظلت قرطبة تعانى منها أشد العناء نحو عشرين عاما هُدِّمت فيها أحياء وهدمت الزهراء مدينة عبد الرحمن الناصر والزاهرة مدينة المنصور بن أبى عامر. ونجد ابن دراج يقدم مدائحه لمن يستولون على صولجان الخلافة والحكم واحدا بعد الآخر. فهو يقدمها للخليفة الجديد المهدى، ثم للخليفة الثائر عليه المستعين ولوزيره القاسم الحمودى ويعبر الزقاق إلى سِبْتة لمديح أخيه على بن حمود ويستظهر فى مديحه مشاعر التشيع له، لنسبه ونسب أسرته إلى الرسول ﷺ. ومرَّ بنا أن الحموديين لم يستشعروا حقوق أهل البيت النبوى فى الخلافة، ولذلك كان مثل هذا التشيع لا يلقى منهم استجابة. ويترك ابن دراج على بن حمود إلى الأمراء الذين استولوا فى أثناء الفتنة على بلدان الأندلس الشرقية: مرسية وشاطبة وطرطوشة والمرية وصاحبها خيران الصقلبى، ويمدحه بنونية يستهلها بقوله

لكِ الخيرُ قد أوفى بعهدك خَيْرانُ وبُشْراك قد آواك عِـزٌّ وسلطانُ

ويقصِّر خيران فى جزائه، وينتهى به المطاف - بعد سنوات ثمان مضنية - إلى الأمراء التجيبيين فى سرقسطة سنة ٤٠٨ ويهنأ بها فى رعاية منذر بن يحيى التجيبى ولا يترك مناسبة إلا ويمدحه فيها وخاصة حين ينكّل بالنصارى المجاورين لإمارته على نحو ما نرى فى عينيه، يهنئه فيها بجهاده فى شهر رمضان وظفره بأعدائه، يقول فيها:

ساقى الحياة لمن سالمتَ، مُطْعِمُها ذُعافَ سُمٍّ لمن حاربتَ ناقعهْ[2]
مـواصلاً بـالنَّـدى مـاالله واصلهُ وقـاطعا بـالظُّبَى مـاالله قـاطعُـهُ

---

(١) أشب: ملتف الشجر، ويقصد الكنيسة وكانت على مرتفع غاص بالشجر.

(٢) السم الذعاف: السم القاتل.

في جيش عزٍّ ونصرٍ أنت غُرَّتُه   وشَمْـل دينٍ ودنيا أنت جـامعُه

ويتوفى منذر سنة ٤١٢ فتظل له نفس المنزلة والرعاية عند ابنه يحيى، حتى إذا كانت سنة ٤١٩ وسمع بما ذاع وشاع عن مجاهد أمير دانية والجزائر الشرقية وإسباغه العطايا الجزيلة على الشعراء والعلماء وفد عليه مادحا بقصيدة بديعة استهلها بقوله:

إلى أىِّ ذكرٍ غيرِ ذكرك أرتاحُ   ومن أىِّ بحرٍ بعد بَحْرك أَمْتاحُ

واحتفل مجاهد بقدومه عليه وأجزل له فى العطاء مما جعله يؤثر المقام عنده ولكن القدر لم يمهله فقد توفى بدانية بعد عامين من نزوله بها سنة ٤٢١

وقد أشاد بابن دراج كل من كتبوا عنه شرقا وغربا، فالثعالبى يقول عنه فى اليتيمة: «كانٍ بصُقْع الأندلس كالمتنبى بصقع الشام وهو أحد الشعراء الفحول وكان يجيد ما ينظم» ويقول ابن حيان عنه: «أبو عمر بن دراج القسطلى سبَّاق حلبة الشعراء العامريين وخاتمة محسنى أهل الأندلس أجمعين» ويصفه ابن شهيد«بجزالة شعره وصحة قدرته على البديع وحَوْك الكلام وتلاعبه بالمعانى وإطالته فيها» ويقول ابن بسام عنه: «لسان الجزيرة شاعرا وآخر حاملى لوائها، سار نظْمه ونثره مسير الشمس» ويلاحظ بحق كثرة اقتراضه للمعانى من المتنبى، ولاحظ ابن شهيد كثرة استخدامه للبديع، وكأنه يحاكى فيه أبا تمام، وقد عرضنا من ذلك أمثلة فى ترجمتنا له بكتاب «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى»، كما عرضنا أمثلة أخرى تدل على ميله للتصنع، إذ يتصنع فى بعض شعره للمصطلحات العلمية. ومما يلاحظ عليه أنه يكثر عنده حين يلم بمعنى أن يطيل فيه حتى يفقد حرارته، وأيضا يلاحظ عليه كثرة معارضاته لقصائد المشارقة وخاصة أبا نواس وأبا تمام والمتنبى، وهو - كما ذكرنا فى كتاب الفن ومذاهبه فى الشعر العربى - يلتقى صوته فى أشعاره بصوت ابن هانئ فى العناية باللفظ الطنان وقعقعاته، وتعلق منذ قصائده الأولى بالشكوى من الدهر والسخط على الناس محاكيا بذلك المتنبى فى مطالع كثير من قصائده، وازداد هذا النغم عنده منذ الفتنة التى جعلته يحس بالضياع سنين عديدة.

ابن[1] عمار

هو أبو بكر محمد بن عمار من قرية من قرى مدينة شلب يقال لها شنبوس، ومر بنا ما ذكره ياقوت عن شلب وأن نظم الشعر كان يشيع على كل لسان بها، حتى لو طلب أحد إلى فلاح بها خلف محراثه قَرْض شيء من الشعر قَرَضه له توا فى أى معنى يطلبه منه. فكان طبيعيا أن تهدى إلى الأندلس شاعرا فذا من شعرائها. وكأنما اختار القدر لها محمد ابن عمار الذى نشأ بشلب طفلا لأسرة متواضعة، وتعلم فيها العربية والأدب على شيوخ متعددين منهم أبو الحجاج يوسف بن عيسى الأعلم، ثم رحل إلى قرطبة فأكمل فيها تأدبه، واستيقظت ملكته الشعرية على شىء غير قليل من ضنك العيش وبؤسه، مما جعل ابن بسام يقول عنه إنه «أحد من امترى[2] أخلاف الحرمان، وقاسى شدائد الزمان، وبات بين الدكة والدكان واستحلس[3] دهليز فلان وأبى فلان». ولم يكن له شىء يتكسب به سوى شعره، فطاف به فى بعض مدن الأندلس مسترفدا، لا يبالى ممن أخذ ولا من مدح من سيد أو سوقة. وحدث أن عاد إلى شلب من بعض سفراته على دابة لا يجد علفها، فنظم مديحا فى رجل من أهل السوق ظنا منه أنه يعطيه النوال الوفر، وإذا هو يسرّ إلى غلامه بكلام، فأتاه بمخلاة شعير، وفكّر فى دابته وحاجتها إلى العلف، فاحتمل الغضاضة. ومضى يتقلب فى بلاد الأندلس للمديح والاستجداء إلى أن وفد على المعتضد (٤٣٣ - ٤٦١ هـ) أمير إشبيلية ومدحه بقصيدته الفريدة:

أدرِ الزُّجاجةَ فالنسيمُ قد انْبَرَى ... والنَّجْمُ قد صَرَفَ العِنان عن السُّرَى[4]

واستحسنها المعتضد وأمر له بمال وثياب ومركب وأن يُكْتَب فى ديوان الشعراء، وتعرف حينئذ على ابنه وولى عهده المعتمد، وتوثقت عرى المودة بينهما حتى أصبح المعتمد لا يستغنى عنه ساعة من ليل أو نهار. وولى المعتمد على مدينة شلب من قبل أبيه فاتخذ ابن عمار وزيره فى تلك الولاية وساءت السمعة عنهما لعكوفهما على الخمر والغناء، فأمر

---

(١) انظر فى ترجمة ابن عمار وأشعاره الذخيرة ٣٦٨/٢ وما بعدها والقلائد ٨٣ والحلة السيراء (طبع القاهرة) ١٣١/٢ والمغرب ٣٨٩/١ والمطرب ص ١٦٩ والمعجب للمراكشى (طبع القاهرة) ص ١٦٩ وأعمال الأعلام لابن الخطيب ١٦٠ والخريدة ٧١/٢ وبغية الملتمس رقم ٢٢٧ وابن خلكان ٤٢٥/٤ ونفح الطيب للمقرى (انظر الفهارس).

(٢) امترى: حلب. الأخلاف: الضرع.

(٣) استحلس: لزم. الدهليز: المدخل بين الباب والدار.

(٤) السرى: المسير ليلا.

المعتضد بالتفريق بينهما وخروج ابن عمار عن بلده، فمضى يطوف بأمراء الطوائف، ففترة عند المعتصم بن صُمادح أمير المريَّة وفترة عند أبي عبد الرحمن بن طاهر أمير مُرْسِية، وفترات أخرى عند غيرهما، إلى أن توفى المعتضد فاستدعاه المعتمد وقرَّبه حتى أصبح أقرب إليه من حبل الوريد، وسأل المعتمد ولاية شلب: بلده ومنشئه، فأجابه إلى أن اشتد شوقه إليه، فاستدعاه منها واتخذه وزيره ومستشاره.

وطمح المعتمد إلى الاستيلاء على مرسية، وزيَّن له ذلك ابن عمار، فأعدَّ جيشا جرارا بقيادته وقيادة عبد الرحمن بن رشيق، وتكفل له ابن عمار بأخذها وإخراج ابن طاهر عنها، غير مراع له حرمة برِّه القديم به كما أسلفنا. ونزل بالجيش على مرسية سنة ٤٧١ وأخذها وأخرج ابن طاهر عنها، وتمادى فى إنكاره للجميل إذ سوَّلت له نفسه أن يستلبها من المعتمد وأن يعلن استقلاله بها، ودانت له هى وأعمالها، وجلس بمجلس التهنئة للخواص والعوام واستقبل الشعراء يهنئونه ويمدحونه. واستعمل على الحصون خِساس عبيده وأقطعهم الضياع وأقبل على اللهو والخمر والمتاع، وعبثا حاول المعتمد بن عباد أن يرده عن غيِّه، وله معه مراجعات شعرية كثيرة، وبدلا من أن يطلب الصفح هجاه وهجا زوجته الرُّمَيْكيَّة قرة عينيه بقصيدة طارت شهرتها فى الأندلس منها:

فيا عامرَ الخيل يا زَيْدَها منعتَ القِرَى وأبحتَ العِيالا[1]

وأفحش فيها غاية الفحش ولم يفكر فى العواقب، وبينما كان سادرا فى خمره ولهوه أخذ عبد الرحمن بن رشيق يستبدل العبيد من ولاته ببنى إخوته وأخواته حتى صارت مرسية وأعمالها فى يده، حينئذ انتهز فرصة خروجه لرؤية حصن من حصونه، وأغلق أبواب مرسية فى وجهه. وعرف أن لا سبيل إلى دخولها فولَّى وجهه نحو سرقسطة وأميرها المؤتمن بن المقتدر بن هود (٤٧٤ - ٤٧٨ هـ) واستقبله على مضض منه لما فعل بالمعتمد ولىِّ نعمته، وأرسل إليه قصيدة يستعطفه بها استهلها بقوله:

علىٌّ وإلا ما نُواح الحمائمِ وفىَّ وإلا ما بكاء الغمائمِ

وأخذ يذكِّره بأيامه معه ويسترحمه، لعله يرق له، ولكن ذنبه كان عظيما. ولم يلبث أن رغَّب المؤتمن فى الاستيلاء على حصن شقورة شمالى مرسية من يد أميرها عتاد الدولة عبدالله بن سهل، فعرف عتاد الدولة كيف يخدعه ويودعه سجنه، وأرسل إلى المعتمد وغيره من الأمراء هل لأحد فيهم رغبة فى شراء هذا الخائن الآثم الكنود؟ فأرسل إليه

---

(١) القرى: طعام الضيوف.

المعتمد ابنه الراضى بمال وخيل، وتسلّمه من عتاد الدولة سنة ٤٧٧ وحاول أن يستلين قلب الراضى ببعض شعره فلم يصغ إليه، ونظم فى طريقه إلى المعتمد قصيدة يستعطفه بها افتتحها بقوله:

سجاياك- إن عافيتَ- أندى وأسمحُ   وعذرُك- إن عاقبتَ- أجلى وأوضحُ

ولم ينفعه عند المعتمد تذلله فيها وتضرعه، وكان بقرطبة، فكان يحضره كل ليلة راسفا فى قيوده ويوبخه على سوء فعله، وانحدر به إلى إشبيلية، وأودعه غياهب السجون إلى أن استثارته عليه زوجته الرميكية فأجهز عليه، ورثاه عبد الجليل بن وهبون ببيت مفرد هو قوله:

عجبًا لمن أبكيه ملْءَ مدامعى   وأقولُ: لاشَلَّتْ يمينُ القاتلِ

وبدون ريب كان ابن عمار انتهازيا وصوليا لا يرعى صداقة ولا عهدا، أما شعره ففى الذروة من شعر الأندلسيين وفيه يقول الفتح فى القلائد: «مقذف حصا القريض وجِماره ومطلع شمسه وأقماره» ويقول ابن بسام: «شعره غرَّب وشرَّق، وأشأم فى نغم الحُداة وعلى ألسنة الرواة وأعرق.. وهو يضرب فى أنواع الإبداع بأعلى السهام، ويأخذ من التوليد والاختراع بأوفر الأقسام» ويطيل فى الإشادة به، ويقول ابن الأبار فى ترجمته: «من بديع صنيعه إتلاف أشعاره المقولة فى الامتياح وقصائده المصوغة فى الانتجاع ومحو آثارها فما يوقف منها اليوم على شىء سوى أمداحه فى المعتضد وما لا اعتبار به لنزوله» ويتيمته - بحق - وفريدته مدحته الرائية فى المعتضد عباد التى ذكرنا مطلعها، وفيها يصف روضا كأنه حسناء تكتسى بوشى الزهر الأنيق، وتتقلّد بجوهر الندى النفيس، ويخرج إلى المديح فينشد:

عبادُ المخضرُّ نائلُ كفِّهِ   والجوُّ قد لبِسَ الرداءَ الأغْبَرا[١]
أنْدَى على الأكبادِ من قَطْرِ النَّدَى   وألذُّ فى الأجفان من سِنَةِ الكَرَى[٢]
أيقنتُ أنى من ذراه بجنَّةٍ   لما سَقانى من نَدَاه الكَوْثَرا[٣]
فاحَ الثَّرَى متعطِّرًا بثنائهِ   حتى حسِبْنا كلَّ تُرْبٍ عَنْبَرا

وما يزال ابن عمار يفجأ قارئ مدحته بهذه الصور والمعانى البديعة، ومما يفجأ قارئه به تصويره لإطاحة المعتضد بالملوك ودقّه لأعناق كُماتهم وشجعانهم إذ يقول:

---

(١) الجو قد لبس الرداء الأغبر: كناية عن الجدب.
(٢) الكرى: النوم. سنة الكرى: الغفوة فى أوله.
(٣) ذراه: كنفه. الكوثر: نهر فى الجنة.

أثمرتَ رُمْحَكَ من رؤوس ملوكهمْ   لما رأيت الغُصْنَ يُعشَقُ مُثمِرَا
وصبغتَ دِرْعَك من دِماء كُماتِهم   لما رأيتَ الحسن يُلْبَسُ أحمرا

وابن عمار لا يبارَى فى روعة التصاوير والأخيلة وروعة الأداء وحسن الصياغة، وكأن مدينة شلب وقراها الشاعرة ظلت تمخض الشعر فيها حتى أنتجت رحيق شعره الصافى البديع.

ابن الحداد القَيْسى[1]

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحداد القيسى من مدينة وادى آش فى إلبيرة موطن بنى عقيل وغيرهم من القيسيين وشُغف فى صباه - كما يقول ابن بسام - بصبية نصرانية رمز إليها باسم نويرة، وسنعرض لغزله بها فى حديثنا عن شعراء الغزل. وقد اشتهر بمعارفه الواسعة فى الآداب العربية والعلوم الإسلامية وأيضا فى الفلسفة والعلوم القديمة ولذلك ترجم له ابن سعيد كأحد العلماء فى موطنه، ويذكر مترجموه أن له فى العروض كتاب «المستنبط فى علم الأعاريض المهملة عند العرب» ولا أرتاب فى أنه لو وصل إلينا لكان دليلا قويا على ما قلته فى حديثى عن الموشحات من أن الأعاريض المهملة التى يُنْظم فيها والتى أشار إليها ابن بسام ونقلناها عنه هناك إنما هى أعاريض العرب المهملة التى نصَّ عليها الخليل فى دوائره العروضية لا أعاريض أشعار رومانسية كما توهم «ريبيرا» ومن تابعه، وقال مترجمو ابن الحداد إن له فى العروض كتابا ثانيا باسم: «قيد الأوابد وصيد الشوارد» وكتابا ثالثا باسم: «الامتعاض للخليل» ردَّ فيه على السرقسطى المنبوز بالحمار - وهو سعيد بن فتحون - مازجا فيه بين الأنحاء الموسيقية والآراء الخليلية، ولا أرتاب فى أن كتبه جميعا تؤكد ما ذهبت إليه فى فهم كلمة ابن بسام عن نظم الموشحات فى الأوزان المهملة التى أشار إليها الخليل فى وضعه لدوائره العروضية، وهى مرسومة بدقة فى كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه.

وكان يلزم المعتصم محمد بن معن بن صُمادح التجيبى أمير المرية التى بناها عبد الرحمن الناصر بالجنوب الشرقى للأندلس وأصبحت قاعدة للأساطيل الأموية،

---

(١) انظر ترجمة ابن الحداد فى الذخيرة ٦٩١/١ والمطمح ص ٨٠ والمغرب ١٤٣/٢ والتكملة رقم ٤٦٨ والخريدة ٢٠٤/٢ والفوات ١٦٧/٢ والإحاطة ٢٥٠/٢ والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى ١٠/٦ والوافى للصفدى (طبع إستانبول) ٨٦/٢.

وقاد فيها المعتصم منذ أصبح أميرا لها فى الثامنة عشرة من عمره سنة ٤٤٣ حركة علمية وأدبية كبيرة طوال مدة حكمه التى امتدت إلى أكثر من أربعين عاما، وكان يخصص يوما فى كل أسبوع لمناظرة الفقهاء والمحدثين بين يديه، ولزم حضرته كثيرون من الشعراء، منهم من المرية يوسف بن عبد الصمد وأبو حفص بن الشهيد ومن غيرها الأسعد بن بلّيطة الطليطلى والقزاز محمد بن عبادة الإلبيرى المترجم له بين الوشاحين ويوسف بن محمد الأشكركى ومنهم - كما أسلفنا - شاعرنا ابن الحداد الذى عاش عنده أكثر حياته مما جعله يستنفد أكثر أشعاره ومدائحه فيه من مثل قوله فى إحدى مدائحه:

ولولا أبو يحيى ابنُ معنٍ محمدٌ ... لما كانت الأيامُ عندى ذخائرا
يحجُّ ذَراه الدهرَ عافٍ وخائفٌ ... جُموعا كما وافى الحجيجُ المشاعرا[1]
فزر مكّةً مهما اقترفتَ مآثما ... وزُرْ أُفُقَهُ مهما شكوتَ مَفاقِرا[2]
تهيمُ بمرآهُ العصورُ جلالةً ... وتحسدُ أولاها عليه الأواخرا

والصورة فى البيت الثانى رائعة، وكان يعرف كيف ينفذ إلى طرائف الصور والأخيلة البديعة، كقوله فى مدحة أخرى للمعتصم، استهلها بالمزج بين الطبيعة والغزل على مألوف المدائح عند الأندلسيين ولم يلبث أن خرج من وصف نهر إلى المديح منشدا.

ويا لك من نَهرٍ صَئُولٍ مُجَلْجِلٍ ... كأن الثَّرَى مُزْنٌ به دائمُ الرَّعْدِ[3]
كأن يدَ المَلْك ابنِ معنٍ محمَّدٍ ... تُفجِّره من مَنْبع الجود والرِّفْدِ[4]
فمن جوده ما فى الغمامة من حَيًّا ... ومن نوره ما فى الغزالة من وَقْدِ[5]
ومنك أخذنا القول فيك جلالةً ... وما طاب ماءُ الوَرْد إلا من الورْدِ

وقَرْنُ جلجلة ماء النهر فى حصباء الثرى بصلصلة الرعد الدائم فى السحاب الممطر فى منتهى الروعة، ومن نفس الطراز الصور فى البيتين الثالث والرابع.

ويبدو أن أخًا له اقترف ذنبا اضطر المعتصم إلى اعتقاله سنة ٤٦١ وأحس الشاعر بشىء من سخط المعتصم عليه، فغادر المرية موليا وجهه إلى المقتدر بن هود (٤٣٨ - ٤٧٤ هـ) بسرقسطة، وكان شاعرا يقدر الشعر وأهله كما كان بطلا مجاهدا

---

(١) ذراه: حماه وكنفه عاف: طالب معروف.
(٢) مفاقر: وجوه فقر.
(٣) صئول: شديد الهياج. المزن: السحاب الممطر.
(٤) الرِّفْد: العطاء.
(٥) الحيا: الغيث والمطر. والغزالة: الشمس.

صاحب غزوات مشهورة، واستقبل ابن الحداد استقبالا حافلا، وأكثر من إسباغ عطاياه عليه، وأكثر ابن الحداد من التغنى بانتصاراته على ابن ردمير حاكم أراجون، وله فيه من مدحة يصور فيها بسالته الحربية وبناءه حصن المدوّر فى نَحْر العدو:

مساعيك فى نَحْر العدوّ سِهامُ ... ورأيك فى هامِ الضلال حُسامُ[1]
ولَمْحُكَ يرْدِى القِرْنَ وهوَ مُدَجَّجٌ ... وذكرُك يَثنى الجيشَ وهو لُهامُ[2]
كأنك لا ترضى البَسيطةَ منزلا ... إذا لم يُطَنِّبه عليك قَتامُ[3]
كأنك خلت الشمسَ خَوْدا فلم يَزَلْ ... يقنِّعها بالنَّقع منك لِثامُ[4]

وواضح أنه أبدع فى تصوير غزوات المقتدر المستمرة التى لا يزال يشنها على العدو حربا فى إثر حرب، حتى ليتصوره ابن الحداد لا يتخذ له مسكنا فى الأرض إلا ساحات القتال وقد شُدَّت عليه فيها أطناب القتام وغبار القتال الأسود الكثيف ويُبْعد فى الخيال، فيظن المقتدر يخال الشمس فتاة جميلة، وكأنه يغار عليها، فلا يزال يثير غبار الحرب متخذا منه لها لثاما أو حجابا. وحنَّ إلى المعتصم بن صمادح، فعاد إليه وإلى المرية، وهو يردِّد.

واصِلْ أخاك وإن أتاك بجفوة ... فخلوصُ شىءٍ قلما يتمكَّنُ
فى كلِّ شىءٍ آفةٌ موجودةٌ . ... إن السِّراج على سَناه يُدَخِّن

وذكرنا فى صدر الحديث عنه أن كان مولعا بالفلسفة وعلوم الأوائل، ولعل ذلك ما دفعه إلى نظم قصيدة سماها «حديقة الحقيقة» وضاعت فيما ضاع من ديوانه، وكانت كبيرة كما يقول مترجموه، وأنشد منها ابن الأبار قوله:

ذهب الناسُ فانفرادى أنيسى ... وكتـابى محـدِّثى وجليسـى
صاحبٌ قد أمنتُ منه مَلالا ... واختـلالا وكلُّ خُلْقٍ بَئيسِ

ولعله تناول فيها جوانب من أخلاق الناس بعد أن عاشرهم طويلا دون محاولة لسخط عليهم أو نقمة، وأخيرا لبىَّ ابن الحداد نداء ربه بالمرية سنة ٤٨٠.

---

(١) هام: جمع هامة: الرأس.
(٢) اللهام: الجيش الجرار.
(٣) يطنبه: يغطيه كالخيمة. القتام: الغبار.
(٤) الخود: الحسناء. النقع: غبار الحروب.

الأعمى التُّطيلي القَيْسى[١]

هو أبو جعفر - وقيل أبو العباس - أحمد بن عبد الله بن أبى هريرة التطيلى القيسى، فهو عربى الأرومة. أما نسبته إلى تُطيلة - وكانت تقع إلى الشمال الغربى من سرقسطة - فلأنها كانت موطن آبائه. ويبدو أن أباه - وربما جده - هاجر منها مبكرا إلى إشبيلية، فوُلد الشاعر فيها، ومن المؤكد أنه نشأ بها كما يقول ابن سعيد فى كتابه «رايات المبرزين» ففيها كان مَرْباه وتعلمه، ويعلن مرارا أنه ضُيِّق باستيطانها، يقول عنها:

فتَاللهِ ما استوطنتُها قانعًا بها ولكننى سَيْفٌ حَواه قِرابُ

فهو منها كسيف حواه قراب أوغمد، لابد أن يسكن لها راضيا أو راغما. وربما بعثه على إعلانِ ذلك بَرَمٌ وقلق كانت تنطوى عليهما نفسه، بسبب فقده لبصره، إذ كان ضريرا، وبكَّر إليه - فيما يبدو - شىء من الصلع أو بعض الشعرات البيض فى رأسه، مما جعله يصرخ:

أما اشتفتْ منِّىَ الأيامُ فى وطنى حتى تضايق فيما عَنَّ من وَطَرِ[٢]
ولا قضتْ من سَواد العين حاجتَها حتى تِكرُّ على ما كان فى الشَّعَرِ[٣]

وكان يلتقى فى إشبيلية دائما بطائفة من الشعراء والوشَّاحين المجيدين فى مقدمتهم الشاعر والوشاح الفذ يحيى بن بقى وكان يقدِّمه على نفسه معترفًا له بالتفوق والسبق فى التوشيح كما مرَّ بنا فى حديثنا عن الموشحات، وتكفل له شاعر إشبيلى هو أبو القاسم بن أبى طالب الحضرمى المنيشى بمرافقته فى روحاته وغدواته. وليس فى ديوانه مدائح لأمراء الطوائف ولا ليوسف بن تاشفين مما يدل على أنه لم يلحق عصر يوسف المتوفى سنة ٥٠٠ بينما نجد فيه مدائح لابنه على أمير المرابطين (٥٠٠ - ٥٣٧ هـ) مما يدل على أن شاعريته إنما تفتحت فى القرن السادس، وقد يؤكد ذلك أنه توفى سنة ٥٢٥ بينما يقول ابن بسام إنه لم يطل زمانه ولا امتد أوانه، وأنه اعتُبط (مات) شابا (أو قريبا من

---

(١) انظر فى ترجمة الأعمى التطيلى وأشعاره الذخيرة ٧٢٨/٢ وما بعدها والقلائد ص ٢٧٣ والخريدة ٥١١/٣ وبغية الملتمس رقم ٤٢٩ والمغرب ٤٥١/٢ ونكت الهميان للصفدى ص ٤١٠ ونشر ديوانه وقدم له د. إحسان عباس فى دار الثقافة ببيروت وألحق به موشحاته.

(٢) وطر: مأرب.

(٣) تكرّ: تعاود من حين إلى حين، ومنه: كرّ الليل والنهار.

الشباب) عندما به اغتبط». ويدل ذلك على أن مولده لا يتجاوز سنة ٤٩٠ وإن تجاوزها فإلى سنوات معدودات. وفى ديوانه مرثية حارة لزوجة له تسمى آمنة، ويبدو أنه اقترن بعدها بأخرى تسمى زهراء، ويذكر فى بعض شعره أنها كانت تعنفه لقعوده عن التماس الرزق، ولعل ذلك ما جعله يكثر من مديحه لذوى الجاه والثراء فى إشبيلية من مثل بنى الحضرمى وخاصة محمد بن عيسى ومثل الطبيب أبى العلاء زهر، وكان قد أثرى ثراء طائلا من مهنته وحلّ من السلطان محلا لم يحظَ به أحد من أهل الأندلس فى وقته وله ينشد:

خَشُنْتَ فلم تَتْرك وأنت منازِعٌ ... ولِنْتَ ولم تأخذ وأنت قديرُ
من المَجْدِ دانٍ دونه متعرِّضٌ ... إلى الهول سباقٌ عليه جَسُورُ
كفيلٌ بأرواح الأنام موكَّلٌ ... عليمٌ بأسرار الحِمام خبيرُ

وهو يشير فى البيت الأخير إلى مهارة أبى العلاء فى الطب وعلاج الأنام أو الناس ومعرفة أسرار الحِمام أو الموت. ونظم فى أمير المرابطين على بن يوسف بن تاشفين ثلاث قصائد ويتوسل فى إحدى قصائده إلى مالك بن وهيب المتفلسف مواطنه، الذى اتخذه الأمير المرابطى جليسا له ومستشارا، أن يحمل إليه ما ينظمه، وينزل عند رغبته مرارا، وفى إحداها يثنى عليه بمثل قوله:

جنابُك للعُلا حِصْنٌ حَصِينٌ ... وذكـرُك للمُنَى دُنْيـا ودِيـنٌ
طليعةُ جيشك الظَّفرُ المُوَاتِى ... وظـلُّ لِوائـك الفَتْـحُ المبينُ
جـوادٌ بـالـديـارِ ومـا حَوَتـه ... ولـو أنَّ الزمـانَ بهـا ضَنِينٌ
تـَـد اهتزَّتْ بـأنْعمِك الليـالى ... كمـا تهتـزُّ بـالثَّمرِ الغصــونُ

وله فى على بن يوسف بجانب قصائده أرجوزة طويلة. وله أيضا فيه موشحة بديعة، وإحدى فقراتها تمضى على هذه الشاكلة:

ســمـا علىُّ ... لإمــرةِ المسلمينـا
صبـحٌ جَلِىُّ ... راقَ، النُّهى والعيونا[1]
سمـحٌ أبىُّ ... يـرضيك شَدًا ولينـا
كالهُنْدوانى ... وكالغمام الهتَّانِ
وَفْـقُ الأمـانى ... وبِلْء عَيْنِ الزَّمانِ

---

(١) النهى: العقول.

وممن أكثر من مديحهم ابن حمدين أبو القاسم أحمد بن محمد التغلبي قاضي الجماعة بقرطبة منذ سنة ٥١٣ حتى وفاته سنة ٥٢١ وكان يرسل بمدائحه إليه، وفي أخباره أنه زار قرطبة، وربما زارها من أجل لقائه، وله يقول:

أسدٌ يملأ العَرِينَ من البأ ... سِ وطَوْدٌ يحمى من الإملاقِ[١]
زُهِيَتْ خطةُ القضاء به زهـ ... ـوَ حَمامِ الغصونِ بالأطْوَاقِ
أرْيَحِيٌّ تراه يهتزُّ للبـذْ ... لِ اهتزازَ القضيب للإيراق[٢]

وكان صديقا للشاعر الوشاح يحيى بن بقي ورآه يطرق أبواب بني عشرة قضاة سَلا رعاة الشعر لزمانه كما مرَّ بنا في ترجمته وقد خص من بينهم أبا العباس أحمد القاضي بعد أبيه علي وأخاه يحيى، فتبع ابن بقي يقدم إليهما مثله شعره وموشحاته، من ذلك قصيدة كافية مدح بها أبا العباس يقول فيها:

لقاضي قُضاةِ الغَرْبِ وابن قضاتهِ ... تـودَّدتِ الآمال وَهْيَ سَـوامكُ[٣]
إذا سمعتْ أُذْناه حَيَّ على العُلا ... فلا الجودُ متروكٌ ولا البأس تارك
رفعتم لأهل الغرب أعلامَ دينهم ... فـأبصر مـأفوكٌ وأقْصَـر آفـكُ[٤]

وقد أضيفت إلى الشاعر في الديوان قصيدة نونية ص ٢١٨ قال الفتح بن خاقان إنه مدح بها القاضي أبا الحسن علي بن القاسم بن عشرة، وعنه نقلها محقق الديوان مع إشارته إلى أن العماد الأصبهاني في الخريدة ذكر أنها في مديح أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، وفي رأينا أن الصواب ما ذكره العماد، لأن القاضي المذكور توفي سنة ٥٠٢ وكان التطيلي لا يعدو حينئذ الخامسة عشرة من عمره، وذكرنا أن له في الأمير علي بن يوسف ثلاث قصائد فأولى أن تضاف إليها، فيكون له فيه أربع قصائد سوى الأرجوزة. وألحقت بديوانه في بني عشرة ست موشحات، وقد ذكرنا في ترجمة يحيى بن بقي أن القدماء نصوا على ثلاثة منها بأنها لابن بقي، فنسبتها إلى التطيلي مخطئة. ونظن ظنا أن الموشحتين رقم ١٠ و١٥ الخاصتين بمديح يحيى بن علي بن القاسم حرى بهما أن تنسبا أيضا إلى ابن بقي مثل أختهما رقم ١١ في ملحق الديوان إذ هو الذي تفيأ ظلاله كما نصَّ القدماء وتغنى به في غير موشحة. وفقط ذات الرقم ١٣ في مديح من يسمى

---

(١) العرين: الغيل أو بيت الأسد. البأس: القوة. طود: جبل. الإملاق: الفقر.
(٢) القضيب: الغصن. الإيراق: خروج الورقة منه.
(٣) سوامك: جمع سامك: عال.
(٤) مأفوك: ضعيف العقل. آفك: كذاب مفتر.

يوسف بن القاسم، فهى التى يمكن أن تضاف إلى التطيلى، وخاصة أن نسبتها إليه شاعت بين الوشاحين حتى ليعارضه فيها ابن الصباغ[١] المتصوف فى القرن السابع الهجرى، وفيها يقول:

إن جئت أرض سَلا	وافاك بالمكارمِ فِتْيانُ
هُمْ سطور العُلا	ويوسف بن القاسمِ عنوان

وله قصيدة بديعة مدح بها السيدة حواء زوجة سير بن أبى بكر الذى مهّد الأندلس ببطولته وقيادته الحازمة ليوسف بن تاشفين، وهو ابن أخيه، وولاه يوسف إشبيلية وظل عليها - دهرًا: سبعة وعشرين عاما فيها يقال وكانت سيدة فاضلة نبيلة تقرأ القرآن وتنظم الشعر، وكانت لها ندوة فى قصر الإمارة بإشبيلية تحاضر فيها الكُتّاب والشعراء وتستمع إلى حوارهم فى الشعر وتشارك فى نقد بعض الأبيات، وممن كان يتردد على ندوتها مالك بن وهيب المتفلسف المار ذكره والكاتبان أبو بكر بن القصيرة وابن المُرْخى محمد بن عبد العزيز، وكانت مُمدحة، ومن ثناء التطيلى عليها فى قصيدته:

مليكةٌ لا يوازِى قَـدْرَها ملِكٌ	كالشمس تَصْغُر عن مقدارها الشُّهُبُ
دُنْيـا ولا تـرفٌ، دِينٌ ولا قَشَفٌ	مُـلْكٌ ولا سَـرَفٌ دَرْكٌ ولا طلبُ
بِـرٌّ ولا سَقَمٌ عَيْشٌ ولا هِـرَمٌ	جَدٌّ ولا نَصَبٌ وِرْدٌ ولا قَـرَب[٢]

ويفيض التطيلى فى وصف جودها وما تغدق من الذهب والفضة على الأدباء والشعراء، ويشيد بإخوتها يحيى والى قرطبة ومحمد محرِّر بلنسية، ولا يشير إلى زوجها حاكم إشبيلية والأندلس بكلمة، وأغلب الظن أنه كان قد توفى منذ فترة. ولعل صوت الأعمى التطيلى اتضح لنا الآن، وبحق يقول عنه ابن بسام: «له أدب بارع، ونظر فى غامضه واسع، وفهم لا يجارَى، وذهن لا يبارَى، ونظم كالسحر الحلال، ونثر كالماء الزلال، جاء فى ذلك بالنادر المعجز، فى الطويل منه والموجز».

---

(١) انظر أزهار الرياض للمقرى ٢٣٣/٢ - ٢٣٥.

(٢) القرب: سرى الليل لورد الغد يعنى أن وِرْد العطاء لهذه السيدة فى متناول الأيدى ولا يكلف عناء ولا مشقة.

الرُّصافى محمد بن غالب(١)

وُلد محمد بن غالب فى رصافة بلنسية، فنُسب إليها، وقد رزقت به أسرة متواضعة إذ كان أبوه رفّاء، وكأنما كان مولده فى تلك الرصافة بشيرا بأنه سيكون من شعراء الطبيعة فى الأندلس لجمالها إذ كانت - كما يقول ابن سعيد فى ترجمته بالمغرب - مناظر وبساتين ومياها جارية، وفى بلنسية يقول: «خصَّها الله بأحسن مكان، وحفّها بالأنهار والجنان. وحيث خرجت من جهاتها لا تلقى إلا منازه ومسارح ومن أبدعها وأشهرها الرصافة». وفى هذه الجنة الفيحاء نشأ الطفل المرهف غير أنه لم يكتب له أن تتم له نشأته فيها، إذ اضطر أبوه - فيما يبدو - لمبارحتها إلى مالقة وهو لا يزال صغيرا فى نحو الثامنة أو التاسعة من عمره، مما جعله - فيما بعد - يكثر - كما قال ابن الأبار فى ترجمته بالتكملة - من الحنين إليها ويقصر أكثر منظومه عليها، وفى ذلك يقول عنها:

بلادى التى رِيشتْ قُوَيْدِمتى بها فُرَيْخًا وآوتْنى قَرارتُها وَكْرا(٢)
مِهادى ولِيْنُ العَيْش فى رَيِّق الصِّبا أَبَى الله أن أَنْسى لها أبدًا ذِكْرا

وطار الطفل صغيرا من وكره مع أبيه إلى عُشٍّ متواضع فى مالقة، وفيها أخذ أبوه يلقنه حرفته من رَفْو الملابس، وفسح له من الوقت ما مكنه من الاختلاف إلى كُتّاب لحفظ القرآن الكريم ثم الاختلاف فيما بعد إلى حلقات الشيوخ لتعلم العربية والتزود من علوم الدين الحنيف ومن الأدب والشعر. وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة، إذ يُرْوى أنه خرج مع بعض رفاقه فى الدراسة إلى نزهة فى مالقة، وارتجل فى تلك النزهة بيتين أعجب بهما الشيخ المرافق، وتنبأ له أنه سيكون شاعر زمانه. ويقدم عبد المؤمن أمير الموحدين لزيارة الأندلس سنة ٥٥٦ للهجرة، ويُسْتدعى الشعراء من بلدان الأندلس لاستقباله فى جبل طارق أو جبل الفتح، وكان عبد المؤمن - كما مرَّ بنا أمر ببناء مدينة على سفحه، وفيها أنشده شعراء الأندلس مدائحهم فيه، ومن بينهم الرصافى، وهو لا يتجاوز عشرين ربيعا كما يقول صاحب المعجب، وقصيدته أو مدحته تصوِّر شاعرية

---

(١) انظر فى ترجمة الرصافى وأشعاره المغرب ٣٤٢/٢ والمعجب للمراكشى ص ٢٨٦ والإحاطة ٥٠٥/١ والتكملة لابن الأبار رقم ٧٧٢ وكتابه تحفة القادم رقم ٣٤ وابن خلكان ٤٣٢/٤ والوافى ٣٠٩/٤ وجمع د. إحسان عباس أشعاره ونشرها فى دار الثقافة ببيروت باسم ديوان الرصافى البلنسى مع مقدمة عن حياته وشعره.

(٢) قويدمة الطائر: الريشات فى مقدم الجناح

ناضجة، وقد تمثل فيها دعوة ابن تومرت مهدىّ الموحدين وإمامهم ونهوض عبد المؤمن بها من بعده كأنها نار شبّت فى جانب جبل الفتح كالنار التى جاء فى القرآن الكريم أنها شبت لموسى من جانب الطور الأيمن بسيناء ﴿فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى فلما أتاها نودىَ يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نَعْليك إنك بالوادى المقدس طُوًى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى﴾ وتمثّل الرصافى الآيات الكريمة ومضى ينشد عبد المؤمن مفتتحا قصيدته بقوله:

لو جئتَ نارَ الهُدَى من جانب الطُّورِ	قَبَسْتَ ما شئتَ من عِلْمٍ ومن نورِ
فَيْضِيَّةَ القَدْحِ من نور النبُّوة أو	نور الهداية تجلو ظلمةَ الزُّورِ
مازال يُقْضمها التَّقْوَى بمَوْقِدِها	صوَّامُ هاجرةٍ قوَّامُ دَيْجُورِ[١]
نورٌ طوى الله زَنْدَ الكون منه على	سِقْطٍ إلى زمن المهدىِّ مَذْخورِ[٢]
حتى أضاءتْ من الإيمان عن قَبَسٍ	قد كان تحتَ رمادِ الكفر مكفورِ[٣]

ويشيد الرصافى بعبد المؤمن وما يحمل من دعوة المهدى إمام الموحدين ابن تومرت وأضوائها التى طبّقت البلاد المغربية والأندلسية، ويصف عبور عبد المؤمن الزقاق على سفن تتهادى بين أيدى مجاذفها وكأنها تغرق فى ماء الورد الأرجوانى الصافى، وتسرع خائضةً التيارات فى الزُّقاق فيُخال كأنها تطير بأجنحة النور الكاسرة. ويبدع الرصافى فى تصويره لجبل طارق الشامخ الصاعد فى عنان السماء بذراه حتى لتتوج النجوم مفرقه بأكاليلها المتألقة. ويقول إن الجبل مقيَّد الخَطْو غير أنه جوَّال الخواطر يواصل الصمت والتفكير فيما جاء بالذكر الحكيم عن يوم القيامة وتسيير الجبال ودكها دكًّا، ويطمئنه على غده فقد زاره عبد المؤمن. ويعود إلى الإشادة به وبهدى دعوته وبسالة جيشه، وينهى القصيدة بتمثله فى جبل طارق والمهدى ابن تومرت وخليفته عبد المؤمن جبلَ الطور وموسى وفتاه يوشع قامع الجبابرة الذى تأخرت له الشمس عن مغربها، وكأن عبد المؤمن يوشع جديد.

والقصيدة رائعة بل أكثر من رائعة وانتظر الشاب الرصافى أن يقدرها عبد المؤمن

---

(١) يقضمها: يطعمها. الهاجرة: نصف النهار عند اشتداد الحر. الديجور: الظلمة.

(٢) الزند: الحجر الأعلى الذى تقدح به النار. السقط: شرر النار. مذخور: مخبوء.

(٣) مكفور: محجوب مستور.

وحاشيته حق قدرها فيعلن أنه الشاعر الرسمى للموحدين أو يسبغ عليه ولاية صغيرة أو جاها، وفوجىء بأن عومل معاملة غيره من الشعراء الكثيرين الذين زفوا إلى عبد المؤمن مدائحهم، فكوفئ مثلهم على قصيدته بدنانير معدودات، وتحسر على شعره وعلى نفسه وموهبته، ورجع إلى مالقة مصمما أن يهجر صنعة المديح إلى الأبد مكتفيا بصنعة رَفو الملابس. وسكن غرناطة وقتا وانعقدت صداقة بينه وبين شاعرها أبى جعفر بن سعيد، ويبدو أنه ألحّ عليه فى امتداح أخيه محمد فامتدحه بقصيدة عادية، كأنه نظمها مجاملة لأبى جعفر. وفى بعض أشعاره ما يدل على أنه زار مكناسة والمسيلة فى المغرب، وعاد ثانية إلى مالقة وهو مصر على أن لا يمدح أحدا، وراجعه بعض الشعراء فى ذلك وألح عليه، فكتب إليه يراجعه:

يقول أناسٌ لو رفعتَ قصيدةً لأدركتَ حتْمًا فى الزمان بها أمرا
ومن دون هـذا غَيْرَةٌ جـاهليَّةٌ وإنْ هى لم تلزم فقد تلزم الحُرَّا

وهى ليست غيرة جاهلية، بل هى غيرة شعرية، غيرة الشاعر الحر على شعره وفنه أن يسخره فى تملق الحاكم وأن لا يكون نصيبه من ذلك إلا أجرا زهيدا تأباه النفوس الحرة الكريمة. وكان ممن عرف قدره وروعة شعره أبو جعفر الوقّشى الشاعر وزير ابن همشك صهر محمد بن سعد بن مردنيش الثائر على الموحدين بمرسية وشرقى الأندلس (٥٤٢ - ٥٦٧ هـ) فأخذ يرسل إليه بهدايا نفيسة، ولم ير الرصافى بدا من أن يشكره، ووالى الوقّشى هداياه فشكره بقصيدة بديعة، وفيها يقول:

رجلٌ إذا عرض الرجالُ له كثر العَدِيدُ وأُعْوِزَ النِّـدُّ[١]
من معشرٍ نَجَمَ العلاءُ بهم زُهْـرًا كما يتنـاسقُ العِقْدُ[٢]
وكـأنمـا فـاق الأنـامَ بهم نسبٌ إلى القمـرين ممتـدُّ
فيـرى وَليدُهمُ المنـامَ على غيـر المجـرَّة أنــه سُهْـدُ
هيهاتَ يذهب عنك موضعُه هطلَ الغمامُ وجَلْجَل الرَّعْدُ

وظل الرصافى بمالقة قانعا بصناعة الرفو وما يكسبه منها بعرق جبينه، وهو مع ذلك ينظم الشعر لا فى المديح ولكن فى الطبيعة وفى بعض مجالس اللهو والخمر مع بعض رفاقه وأصدقائه محرِّما على نفسه أن ينتجع أحدا بقصيدة أو يبتذل شعره بمدحة حاكم

---

(١) الند: النظير.
(٢) نجم: نشأ. زهر جمع أزهر: النجم والكوكب الساطع.

لا يستحقها. ولم يتزوج وبالتالى لم يكن له أسرة ولا أبناء إلى أن توفى سنة ٥٧٢ وهو فى نحو السادسة والثلاثين من عمره، وشعره - كما يقول ابن الأبار مِدون بأيدى الناس متنافَسٌ فيه.

ابن زَمْرَك[١]

هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد، ولد بحى البيازين فى غرناطة سنة ٧٣٣ لأسرة هاجرت إليها من شرقى الأندلس، وهى أسرة متواضعة حياتها بها غير قليل من الشظف، إذ كان أبوه حدادا، ويقول ابن الأحمر المؤرخ عنه إنه نشأ ضئيلا كالشهاب يتوقد، وحفظ القرآن الكريم سريعا، وأخذ يختلف - مثل أترابه - إلى حلقات الشيوخ ينهل من معارفهم ومحاضراتهم. ويذكرون من شيوخه فى الفقه أبا سعيد بن لب وفى الحديث النبوى أبا البركات ابن الحاج وفى الأصول أبا على منصور الزواوى وفى التصوف أبا عبد الله بن مرزوق وفى العربية أبا عبد الله بن الفخار والشريف الغرناطى أبا القاسم محمد بن أحمد شارح مقصورة حازم وفى الأدب والشعر ابن الخطيب وزير الإمارة المشهور، فهو تلميذه وخريجه وصنيعته، وعُنى به فألحقه بدواوين الإمارة وكفل له راتبا حسنا. ونراه حين خُلع السلطان محمد الخامس الغنى بالله عن إمارة الأندلس سنة ٧٦٠ ونفى إلى المغرب والتجأ إلى أبى سالم المرينى يلتحق به فى منفاه مثل أستاذه ابن الخطيب وغيره ممن رفضوا التعاون مع أخيه أبى الوليد إسماعيل مدبر المؤامرة ضده، ولم يهنأ إسماعيل باستيلائه على الإمارة، إذ سرعان ما دار العام وفتك به زوج شقيقته من أبناء عمومته واستولى على صولجان الحكم وهو أبو عبد الله محمد واتخذ لقبا له الغالب بالله، وتطورت الظروف سريعا، فقتل بدوره وعاد محمد الخامس الغنى بالله إلى إمارته فى جمادى الأولى سنة ٧٦٣ وعاد معه ابن زمرك كما عاد وزيره لسان الدين بن الخطيب، ونرى ابن زمرك يردد لأستاذه دائما فى رسائل وقصائد ولاءه له وحمده وشكره

---

(١) انظر فى ترجمة ابن زمرك وأشعاره وموشحاته الإحاطة ٢/٣ - ٣١٤ والكتيبة الكامنة فى شعراء المائة الثامنة ص ٢٨٢ ونيل الابتهاج للتنبكتى (طبع فاس) ص ٢٨٢ وجذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس لابن القاضى (طبع فارس) ص ١٨٤ والدرر الكامنة لابن حجر ٤١٢/٤ وخصَّه السلطان يوسف الثالث (٨١٠ - ٨٢٠ هـ) بكتاب ضخم سماه البقية والمدرك من كلام ابن زمرك، واطلع المقرى على هذا الكتاب، فنقل عنه ترجمة ضافية له بالجزء الثانى من كتابه أزهار الرياض وهى تشغل فى هذا الجزء من صفحة ٧ إلى صفحة ٢٠٦ وتشتمل على سيرته وكثير من أشعاره وموشحاته.

على ما أنعم به عليه. وتظل الأيام تسير رُخاء حتى سنة ٧٧٣ إذ يترامى إلى ابن الخطيب أن مؤامرة تدبَّر للقضاء عليه فيفر فجأة إلى السلطان المرينى عبد العزيز بتلمسان ويحتل ابن زمرك منصبه، فيصبح الوزير الأول للسلطان الغنى بالله. ويرسل الغنى بالله إلى السلطان المرينى أبا الحسن النباهى قاضى الجماعة بغرناطة ليتسلم منه ابن الخطيب متهما بتهمة الإلحاد والزندقة. وأخفق القاضى فى مهمته، إذ حمَى ابن الخطيب منه السلطان المرينى، غير أن حاميه لم يلبث أن توفى سنة ٧٧٤ ونقل المرينيون عاصمتهم إلى فاس، وتجددت مساعى الغنى بالله للقبض على ابن الخطيب، وأخيرا يقبض عليه فى سنة ٧٧٦ وتَقْدم من غرناطة لجنة لمحاكمته برياسة ابن زمرك ويمثل أمامها ويعنف به تلميذه القديم وصنيعته فى المحاكمة متهما له بالزندقة والإلحاد لعبارات صوفية وردت على لسانه فى كتابه: «روضة التعريف بالحب الشريف» ويسترسل فى توبيخه. وزُجَّ به فى غياهب السجون، وبإحدى الليالى دُسَّ إليه من قتله وأشعلت فيه النار على قبره قبل دفنه، فاسودَّت بشرته ووُورى التراب مأسوفا عليه لتهمة زائفة دُبِّرت له كيدا آثما. ونعم ابن زمرك بوزارة الغنى بالله عشرين عاما متوالية أصبح فيها المدبِّر لشئون الإمارة حتى ليروى ابن الأحمر المؤرخ سفاراته الموفقة للغنى بالله إلى الملوك وأنه فوِّض له فى عقد الصلح بين الملوك بالعُدْوتين أى بين ملوك المغرب وملوك إسبانيا والبرتغال، ويقال إنه فوِّضه فى الصلح مع النصارى تسع مرات. ويتوفى الغنى بالله سنة ٧٩٣ ويخلفه ابنه يوسف الثانى فيهوى به من حالق إلى غياهب السجون ويردّ إليه بعد نحو عام ونصف حريته ويعيده إلى منصبه، وبعد أيام قليلة يتوفى ويخلفه ابنه محمد السابع فيعزله ويولى مكانه محمد بن عاصم، ثم يعيده إلى منصبه سنة ٧٩٥ وسرعان ما اقتحم حرس السلطان عليه داره وفتكوا به وبابنين له.

وإذا أغضينا النظر عن أخلاقية ابن زمرك وجحوده لفضل أستاذه ابن الخطيب والتجنى عليه لمآرب دنيوية زائلة ورجعنا إلى شعره وموشحاته تقرؤهما وجدناه ينزل فيهما منزلا عليًّا من شعراء الأندلس فى مختلف عصورهم، ويذكر السلطان يوسف الثالث فى كتابه السالف:«البقية والمدرك من كلام ابن زمرك» أنه خدم جده السلطان الغنى بالله سبعا وثلاثين سنة، منها ثلاثة بالمغرب وباقيها بالأندلس وأنه أنشده فى تلك السنوات ستاوستين قصيدة أو مدحة فى ستة وستين عيدا. ويذكر أيضا أن كل ما فى منازل الغنى بالله من القصور والرياض والضياع من نظم رائق ومدح فائق منقوش فى القباب والطاقات والثياب السلطانية فهو له. وينشد المقرى له فى كتابه أزهار الرياض عن كتاب

«البقية والمدرك» ما يقرب من عشرين قصيدة وخمسة طويلة ونحو ثلاثين مقطوعة فى مديح الغنى بالله سوى مقطوعات متعددة فى مديح ابن الخطيب ولىّ نعمته وسوى قصيدة فى مديح أبى سالم المرينى وقطع من قصائد للسلطان يوسف الثانى وابنه السلطان محمد وسوى ثلاث مراث فى الغنى بالله ومرثية فى أستاذه الشريف الغرناطى. ومن أهم مدائحه للغنى بالله يائية امتدت إلى نحو مائة وخمسين بيتا استهلها بغزل بديع شغل ثمانية وعشرين بيتا، وخرج منه إلى مديح الغنى بالله قائلا إنه الشمس يعم نفعها وضوؤها القريبَ والبعيد والغيثُ الذى يهطل على العفاة دائما والباسلُ الذى يروى غصون الرماح العطشى دماء الأعداء القانية. ثم يأخذ فى وصف مبانيه فى قصور الحمراء مأخوذا بروعة النقوش وترصيعاتها وزخارفها، يقول:

وقد مَبْنـاك الجميـلُ فـإنّـه ... يفوقُ على حكم السعود المبانيا
بنيتَ لـه كفّ الثريـا معيذةً ... ويصبـح معتلّ النـواسم راقِيا
وتَهْوى النجومُ الزُّهْرُ لو ثبتتْ بهِ ... ولَمْ تكُ فى أُفْق السماء جَواريا

وقد جعل ابن زمرك نجمة الثريا عُوذة له وتميمة من عيون الحساد لشدة سموقه وارتفاعه، وجعل النسيم العليل فيه كأنه الرُّقْيَةَ التى يستروحها الناس، لما يندفع فيه من مياه تجرى فى قنوات مثبتة فى الحوائط بجميع الغرف لتلطيف الجو. ويمضى ابن زمرك فيصور البهو الذى شاده الغنى بالله وما يتوسطه من حوض كبير من المرمر به نافورة مرمرية يحملها اثنا عشر أسدا تمج المياه من أفواهها إلى بركة تحيط بها، ويستمر ابن زمرك فى وصفه المبنى الباهر وهذا البهو الرائع والنافورة قائلا:

به البَهْوُ قد حاز البهاءَ وقد غدا ... بـه القَصْرُ آفـاقَ السماءِ مُبـاهيا
به المَرْمَرُ المجلوُّ قد شَفَّ نورُه ... فيَجْلُو من الظَّلْماء ما كان داجيـا
وراقصةٍ فى البَهْوِ طـوعَ عِنانهـا ... تـراجـع ألحـانَ القيـانِ الغَـوانيـا
إذا ما علتْ فى الجُو ثم تحدَّرتْ ... تَحَلَّى بمُرْفَضّ الجُمَان النَّواصيا[1]
يـذوبُ لُجَيْنٌ سالَ بين جـواهـرٍ ... غدا مثلها فى الحسن أبيضَ صافيا[2]
تشـابَـه جـارٍ للعيـون بجـامـدٍ ... فلم أَدْرِ أيًّا منهما كـان جاريـا

وتصويره للنافورة فى الأبيات الأربعة الأخيرة تصوير بديع، وخاصة البيت الأخير.

---

(١) مرفض الجمان: متناثر اللؤلؤ. (٢) اللجين: الفضة.

إذ لم يعد يدرى أيهما السائل لجين الماء أو جواهر المرمر الناصعة البياض، ويشيد بما فى البهو من زخارف بديعة ترصع أعمدته. ويلتفت إلى قاعة السفراء أو قاعة العرش البهيجة وما يعلوها من برج قمارش المصعد فى السماء وينشد:

وطامحةٍ فى الجوِّ غيرِ مُطالةٍ ... يردُّ مداها الطَّرْفَ أحْسَر عانيا[1]
تمدُّ لها الجوزاءُ كفَّ مصافحٍ ... ويدنو لها بَدْرُ السماء مناجيا
ولا عجبٌ أن فاتت الشُّهْبَ بالعلا ... وأن جاوزتْ منها المَدى المتناهيا

والأبيات السالفة جميعا لا تزال ترصع البهو إلى اليوم ومعها غيرها من نفس القصيدة امتدت على حافات النافورة وحيطان البهو وقاعة بنى سراج المتصلة به. ويصور ابن زمرك فى نفس القصيدة جنة العريف القائمة فى مدخل القصر، وهى من عجائب البساتين والرياض فى الدنيا، وكأنما تكمل زينة القصر بل كأنما تكمل العرس البهيج الذى لا يزال قائما فيه ليل نهار بدون أهله.

ولابن زمرك خمس عشرة موشحة أكثرها فى مديح الغنى بالله، وإحداها فى مديح الرسول ﷺ، وجمهورها من مخلع البسيط. واشتهرت له موشحات صبحية يذكر فيها وداع صاحبته فى الصباح، ولذلك أصل واضح عند الأندلسيين قبله بل عند العرب منذ عمر بن أبى ربيعة وسنعرض لذلك فى حديثنا عن الغزل، ويعد ابن زمرك بدون ريب آخرَ الشعراء الأندلسيين المبدعين.

٤

شعراء الفخر والهجاء

(أ) شعراء الفخر

الفخر من أغراض الشعر العربى التى رافقته - مثل المدح - من قديم، وقد ظل الشعراء يتغنون به طوال العصور الإسلامية مجسِّدين فيه دائما مثاليتهم الخلقية الفردية من الوفاء والمروءة والعزة والكرامة وغير ذلك من الشيم الرفيعة كما يتغنون عصبياتهم القبلية والقومية وبأسهم وشجاعتهم الحربية التى يسحقون بها أعداءهم. وأول ما يسوقه الرواة من أشعار الفخر فى الأندلس يضيفونه إلى الأسرة الأموية وحكامها منذ القرن

---

(١) أحسر: كليلا.

الثانى الهجرى وخاصة على لسان الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) الذى استطاع بحزمه ومضائه وجلده أن يقضى قضاء مبرما على ثورة أهل الرَّبَض الجنوبى بقرطبة، مما جعله ينشد مبتهجا بعد تلك الوقعة[١]:

رَأَيْتُ صُدوعَ الأرض بالسيف راقِعًا ... وقِدْمًا لأمتُ الشَّعْبَ مذ كنتُ يافعا[٢]
فسائلْ ثُغورى هل بها اليومَ ثَغْرةٌ ... أبادِرُها مُسْتَنْضِىَ السَّيْفِ دارِعا[٣]
وشافِهْ على الأرض الفضاء جَماجما ... كأقْحاف شِرْيان الهَبِيد لوامعا[٤]
تُنَبِّيك أنى لم أكن فى قِراعهم ... بِوانٍ وأنى كنت بالسيف قارعا

ومع تلك الأبيات أبيات أخرى يصور فيها رباطة جأشه فى القتال وأنه لا ينكل عن الحرب ولا يتراجع حتى يذيق أعداءه الموت ناقعا. ويهتف شاب أموى متهور فى عهد ابنه عبد الرحمن الأوسط يسمى بشر بن حبيب الملقب بدحّون أنه فوق الناس جميعا من بيته وغيره وأنه سيُشعل الأرض ويُضْرمها بنيران الحروب، فيزجّ به عبد الرحمن فى غياهب السجون ثم يعفو عنه ويرد إليه حريته.

ومرَّ بنا فى الفصل الأول كيف أن نيران فتنة هائلة بين المولدين والمسالمة والنصارى من جهة وبين العرب من جهة ثانية أخذت تتقد فى نواح كثيرة بالأندلس لأواخر عهد الأمير محمد، وظلت لعهد الأمير عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) وقادها فى نواحى مالقة عمر ابن حفصون وفى نواحى بطليوس عبد الرحمن الجليقى وأخذ يطير من هذه الفتنة شرر كثير إلى إلبيرة فى أوائل عهد الأمير عبد الله، وقاد العرب فيها يحيى بن صقالة وفتك به المولدون والنصارى، فقادهم سوار بن حمدون المحاربى القيسى، وساعدُه الأيمن سعيد بن جودى وكان فارسا وشاعرا مجيدا، وواقع سوار جموع النصارى والمولدين ثأرًا لابن صقالة سنة ٢٧٦ وفتك بسبعة آلاف منهم، وتغنى بهذه الوقعة سعيد بن جودى مفاخرا متوعدا ومهددا، وأخذ كثيرون من العرب من كورتى جيّان وريّة يتجمعون إلى سوار فى حصن غرناطة، بينما لاذ المولدون والنصارى بعمر بن حفصون، ونشبت بين الفئتين معركة اندحر فيها النصارى والمولدون من أهل إلبيرة، ولسعيد بن جودى فيها قصيدة

---

(١) المغرب ١/٤٤.

(٢) يقصد بصدوع الأرض انشقاقات الثائرين، ورأب: لأم وأصلح. والشعب: الصدع والانفراج بين جبلين. والاستعارة واضحة.

(٣) مستنضى السيف: شاهره. دارعا: لابسا درع الحرب والنزال.

(٤) أقحاف: رءوس. الهبيد: الحنظل.

حماسية ملتهبة، وحانت بعدها للمولدين والمسالمة والنصارى غِرّة من سوار ففتكوا به سنة ٢٧٧ وأمّر العرب عليهم سعيد بن جودى، فقادهم سبع سنوات أنزل فيها بخصومهم هزائم كثيرة إلى أن قتل غيلة سنة ٢٨٤ وله أشعار كثيرة يحرّض فيها العرب ويفاخر ببأسه وشجاعته، وسنخصه بترجمة عما قليل. واندلعت مع المعارك الحربية لهذه الفتنة معركة شعرية[1] نُظم فيها شعر حماسي كثير يكتظ بالتهديد والوعيد بين شاعر للمولدين يلقب بالعَبْلى واسمه عبد الرحمن (أو عبد الله) بن محمد وبين شاعر للعرب يسمى الأسدى محمد بن سعيد بن مخارق من أسد بنى خزيمة، ومن قول العبلى فى إحدى قصائده يهوّن من العرب وجموعهم بغرناطة:

منــازِلُهم منهم قفــارٌ بَــلاقِــعُ تجارى السَّفَا فيها الرِّياحُ الزعازعُ[2]

ومضى يهدد العرب بوقائع مبيرة تحصدهم حصدا، فردَّ عليه الأسدى ناقضا لقوله، منذرا متوعدا له ولجماعته بالويل والثبور يقول:

منــازلنــا معمــورةٌ لا بــلاقــعُ وَقَلْعَتنا حصنٌ من الضَّيْم مانعُ
ألا فائذنوا منها قريبا بوقعةٍ تشيبُ لها وِلْدانكم والمَرَاضِعُ

واتفق أن كان للعرب عليهم بعد سبعة أيام وقعة لقى فيها سبعة عشر ألفا منهم حتفهم وصرخوا واستغاثوا بالأمير عبد الله فى قرطبة، ومن مشهور قول العبلى فى تلك الوقائع والحروب قصيدة حماسية استهلها بقوله:

قد انقصفتْ قناتُهمُ وذَلُّوا وزُعْزِعَ ركنُ عزِّهمُ الأذلُّ

وناقضه الأسدى بقصيدة طويلة يعيّره هو وقومه فيها بما ينزله العرب بجموعهم من تقتيل وسفك لدمائهم، ومن قوله مفاخرا:

لواءُ النَّصْر معقودٌ علينا بتــأييد الإلٰــهِ فمــا يُحَــلُّ

وللأسدى شعر كثير يحرّض فيه العرب على التجمع ضد خصومهم، واستطاع الأمير عبد الله أن يصلح بين الفئتين المتخاصمتين فى كورة إلبيرة حتى إذا خَلَفه حفيده الناصر قضى على مثيرى هذه العصبية الجنسية فى كل أنحاء الأندلس. وبذلك عادت لأهل الأندلس وحدتهم عربا ومسالمة ومولدين.

---

(١) انظر فى أشعار هذه المعركة المقتبس لابن حيان الجزء الخاص بالأمير عبد الله.

(٢) بلاقع: مقفرة. السفا: التراب.

ومن طريف ما يُرْوَى عن المستنصر بن الناصر (٣٥٠ - ٣٦٠هـ) أن نزارًا الفاطمى الملقب بالمستنصر صاحب مصر (٣٦٥ - ٣٨٦هـ) كتب إليه كتابا يسبُّه فيه ويهجوه، فرد عليه المستنصر المروانى: «أما بعد فإنك عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك:

ألسنا بنى مروان كيف تبدَّلتْ بنا الحالُ أودارتْ علينا الدوائرُ
إذا وُلد المولـودُ منا تهلَّلَتْ له الأرضُ واهتزَّتْ إليه المنابر»

فأفحمه[1] ولم يستطع الجواب. وللشاعر الطليق حفيد أخى المستنصر المروانى المسجون فى عهد المنصور بن أبى عامر شعر كثير يفتخر فيه بنفسه وبآبائه، وسنفرده بكلمة. وللمنصور بن أبى عامر[2]:

رميتُ بنفسى هولَ كل عظيمةٍ وخاطرتُ والحرُّ الكريم يخاطِر
رفعنا المعالى بالعوالى بسالةً وأورثناها فى القديم مَعافِر[3]

وحكاياته فى الجهاد كثيرة، ويقال إن له نيِّفا وخمسين غزوة فى النصارى وإنه كان لا يخلّ فى أكثر أيامه بغزوتين فى السنة يشنُّها عليهم، ومرَّ بنا فى الفصل الأول حديث عنه وعن غزواته المظفرة. ولابن شهيد[4]:

بالعلم يفخرُ يومَ الحَفْل حاملُه وبالعفاف غـداةَ الجمعِ يـزدانُ
ومـا ألان قَناتى غَمْـزُ حـادثـةٍ ولا استخفَّ بحلمى قَطُّ إنسانُ
أمضى على الهَـوْل قُدْمًا لا يُنَهْنِهُنى وأنثنى لسفيهى وهْـو غضبـانُ

ومضى يقول إنه لا يرد على حمق بحمق وإنه يعتصم بالصبر وكظم الغيظ ولا يتملق ولا يفوه بغير الحق، وإنه قد يبيت على الطَّوَى حانيا الضلوع على لظى المسغبة دون تبرم أو ضيق، بل مع البشر وطلاقة الوجه. ويقول صديقه ابن[5] حزم:

أنا الشمس فى جَوِّ العلوم منيرةً ولكنَّ عَيْبى أن مطلعىَ الغَرْبُ
ولو أننى من جانب الشرق طالعٌ لجدَّ على ما ضاع من ذكرىَ النَّهْبُ

---

(١) انظر هذه الرواية فى النفح ٥٥٨/٣.

(٢) المغرب ٢٠٣/١.

(٣) العوالى: الرماح. ومعافر بفتح الميم: قبيلة ابن أبى عامر وهى يمنية.

(٤) ديوان ابن شهيد تحقيق يعقوب زكى (طبع القاهرة) ص ١٦٣.

(٥) الذخيرة ١٧٣/١.

وهو حقًا - كان شمسًا منيرة فى العلوم ولم يعبه طلوع شمسه من المغرب، فقد أضاءت ما بينه وبين المشرق، ولا تزال تضيء ما بينهما إلى اليوم، وسنفرد له حديثًا فى الفصل الأخير.

وتتكاثر على ألسنة أمراء الطوائف أشعار الفخر، يفتخرون بما حققوه من مجد وبكرمهم الفياض وبأسهم وشجاعتهم وحمايتهم لإماراتهم وحسن سياستهم وتدبيرهم، ومن قول المعتضد عباد صاحب إشبيليه[1]:

أقومُ على الأيّام خيرَ مُقام ... وأوقدُ فى الأعداءِ شرَّ ضِرامِ
وأنْفقُ فى كسب المحامد مُهجتِى ... ولو كان فى الذِّكرِ الجميلِ حِمامى
وأبْلغ من دنياى نَفْسِىَ سُؤْلَها ... وأضربُ فى كل العلا بسهامى

فهو يعيش لإحكام السياسة وسحق الأعداء وكسب المحامد والذكر الجميل بالغا من دنياه كل ما يتمنى محققًا لنفسه كل ما يريد من المعالى والأمانى. وسنخص من بين هؤلاء الأمراء عبد الملك بن هذيل بكلمة. ونشعر كأن الفخر يغيض معينه بعدهم فى نفوس الأندلسيين غير أنه بقيت من ذلك بقية من مثل قول[2] على بن أضحى الهمدانى الغرناطى المتوفى سنة ٥٤٠ للهجرة:

نحن الأهلّةُ فى ظلام الحِنْدِسِ ... حيث احتللنا فَهْوَ صَدْرُ المجلسِ
إن يذهب الدَّهْرُ الخئونُ بعزِّنا ... ظلمًا فلم يذهب بعزِّ الأنفسِ

والبيتان يصوران قوة نفس عزيزة صلدة تنزلق عنها توًّا محن الزمن دون أن تنال منها أى نيل. ولابن خفاجة قصيدة يفتخر فيها بنفسه وبرفاق له فى مسقط رأسه بجزيرة شُقْر يعيشون للبأس والنجدة والنضال وخَوْض الدماء بخيلهم المحجَّلة إلى أعدائهم منزلين بهم صواعق الموت التى لا تبقى ولا تَذر، وفيها يقول[3]:

مَضاءٌ كما سُلَّ الحُسام من الغِمْدِ ... وبأسٌ كما طار الشَّرارُ من الزَّنْدِ
تساقَوْا وما غيرُ النَّجيعِ سُلافةٌ ... تدارُ ولا غيرُ الأسنة من وِرْدِ
وإنى على أن لست صَدْر قناتهم ... لِخدْنُ العُلا تِرْبُ النَّدى لِدَةُ المجدِ
أخوضُ الظُّبا تخضرُّ فى النَّقع بِيضُها ... فألْقى المنايا الحُمْرَ فى الحُللِ الرُّبْدِ

---

(١) الحلة السيراء (تحقيق د. مؤنس) ٤٤/٢.
(٢) مغرب ١٠٨/٢.
(٣) ديوان ابن خفاجة (طبع منشأة المعارف بالإسكندرية) ص ٣٤٦.

والقصيدة تتوهج بحماسة ملتهبة، وتتكاثر فيها الصور. - على عادة ابن خفاجة في شعره - فرفاقه لا يقلّون عن السيف مضاء ولا عن شرار النار بأساودمارا، وإنهم ليتساقون المنايا حتى لكأن سلافتهم وخرهم فيها نجيع الدماء التي يسفكونها من الأعداء ولا وِرْد لهم سوى الأسنة الفاتكة بهم، ويقول - تواضعا - إنه ليس صَدْرهم، بل هو فرد منهم، ويقول إنه خدْن وصديق للعلا ورفيق للندى والكرم ووليد للمجد، وإنه ليخوض معهم الحروب وقد أصاب النقع أو الغبار الظُّبا بغير قليل من الخضرة كما أصاب الحلل والثياب بغير قليل من الكثرة، وهو يندفع - مثلهم - إلى الأعداء، مقتحما إليهم المنايا الحمر التي تسحقهم سحقا.

وبهذه الروح العاتية التي لا تقهر، يقول الطبيب الشاطبي أبو عامر محمد بن يَنَّق[1] المتوفى في آخر سنة ٥٤٧:

دَعْنِي أُصادِ زماني في تقلُّبهِ — فهل سمعت بظلٍّ غير مُنْتقلِ
وكلما راح جَهْمًا رُحتُ مبتسمًا — كالبَدْر يزداد إشراقا مع الطَّفَل
ولا يروعَنْك إطْراقي لحادثةٍ — فالليثُ مكمنه في الغِيل للغِيَلِ
وما تأطُّر عِطْفُ الرُّمحْ من خَوَرٍ — فيه ولا احمرَّ صَفْحُ السيف من خَجل
لا غَرْوَ أنْ عُطِّلَتْ من حَلْيها هممي — وهل يُعَيَّر جِيدُ الظَّبي بالعَطَل

وهو يقول دعني أصادى الزمان وأعارضه في تقلباته بي وأحداثه معي، وهل سمعت بظل ثابت في مكانه، ومهما تجهَّم لي ونظر إليّ مكفهرَّ الوجه فسأظل مبتسما كالبدر يزداد إشراقا مع الطفل أو الظلام الداجي، وإذا رأيتني مطرقا إزاء حادثة ملمة فإنه إطراق الليث في غِيله للوثوب على فريسته، ومهما يصبني من أحداث فلن تثني إرادتي، وحتى إن ظُنّ أنها تنثني فهو تثني حد الرمح شديد المضاء،وسأظل قاطعًا نافذا كالسيف تسيل على صفحته الحمراء حمرة الظفر، لا حمرة الخجل. وإن هممي لأعظم من أن تتحلى بالرماح والسيوف، فهي أحد من أي سيف وأمضى من أي رمح، وإنها مجردة من تلك الحلى تجرد جيد الظبي رائع الجمال. وهو زهو ما بعده زهو وعُجْب لا يماثله عجب برجولته وشخصيته ورجولته.

ونلتقي بسهل بن مالك الأزدي الغرناطي البارع في العلوم القديمة والحديثة، وكانت

---

(١) مغرب ٢/٢٨٨ وانظر في ترجمة ابن ينق التلاثة ٢١٢ والتكملة ص ١٩٨ ومعجم الصدفي ص ١٦٢ والخريدة ٢/٤٦٣

قد نالته محنة فى عهد ابن هود صاحب مرسية (٦٢٥ - ٦٣٥) وغُرِّب عن غرناطة إلى أن مات ابن هود فعاد إليها وهو يردد[١]:

وإنّىَ من عزمى وحزمى وهمتى ... وما رُزِقَتْهُ النفسُ من كرم الطَّبْعِ
لفى منصبٍ تعلو السماءَ سِماتُهُ ... فتثبتُ نورًا فى كواكبها السَّبع
تدرَّعتُ بالصبر الجميل وأجلبتْ ... صُروفُ الليالى كى تمزّقَ لى دِرْعى[٢]
فما ملأتْ قلبى ولا قبضتْ يدى ... ولا نَحَتَتْ أصلى ولا هَصَرتْ فَرْعِى[٣]
فإنْ عرضتْ لى لا يفوه بها فمى ... وإن زَحَفتْ لى لا يضيق لها ذَرْعِى[٤]

ونفس سهل - حقًّا - كانت نفسًا كبيرة لم تنكسر لما نزل به من محنة. بل ظل رابط الجأش قوىَّ النفس أمام صروف الدهر وهمومه إلى وفاته سنة ٦٣٩. ولابن[٥] جُزَىٍّ المار ذكره المتوفى سنة ٧٨٥:

وكم من غادةٍ كالشمس تبدو ... فيُسلى حُسْنُها قلبَ الحزينِ
غَضَضْتُ الطَّرْف عن نظرى إليها ... محافظةً على عِرْضى ودِينى

وهو يفتخر بعفافه، وليوسف الثالث سلطان غرناطة فخر كثير وسنخصه بكلمة، ولم نعرض لفخر الأندلسيين بأشعارهم، وهو عندهم - كما عند المشارقة - كثير، وحسبنا الآن أن نقف عند ثلاثة من شعرائهم فسحوا للفخر فى أشعارهم، وهم سعيد بن جودى وعبد الملك بن هذيل ويوسف الثالث.

سعيد[٦] بن جودى السعدىّ

هو سعيد بن سليمان بن جودى بن أسباط بن إدريس السعدى من هوازن من جند

(١) الذيل والتكملة للمراكشى (بقية السفر الرابع - تحقيق د. إحسان عباس) ص ١٠٣ وراجع فى ترجمته التكملة رقم ٢٠٠٧ واختصار القدح المعلى ص ٦٠

(٢) أجلبت: أحدثت جلبة وصخبا. كناية عن تكاثرها

(٣) هصرت فرعى: كسرته، كناية عن أن صروف الليالى انزاحت عنه دون أن تنال منه.

(٤) الذرع: الطاقة.

(٥) أزهار الرياض ١٨٦/٣.

(٦) انظر فى ترجمة سعيد بن جودى المقتبس: الجزء الخاص بالأمير عبد الله (راجع الفهرس) والحميدى ص ٢١٣ والبغية ص ٢٩٤ والحلة السيراء لابن الأبار ١٥٤/١ وما بعدها وأيضا فى ترجمة سوار بن حمدون السابقة لترجمته والمغرب ١٠٥/٢ وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٣٥ والإحاطة ٢٧٥/٤.

دمشق الداخلين إلى الأندلس فى عهد الولاة، ولىَ جده الأقرب جودى بن أسباط - كما يقول ابن حيان - الشرطة للأمير الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) وصحب سعيد - كما ذكرنا منذ قليل - سوارَ بن حمدون المحاربى أمير عرّب إلبيرة المنازعين للمولدين والمسالمة والنصارى من أهل تلك الكورة أيام نشوب الفتنة العصبية بها لأول عهد الأمير عبد الله. وتحيز سوار بأصحابه إلى حصن غرناطة فملكه ودانت له العرب فى تلك الأنحاء واتخذ سعيد بن جودى - وكان شاعرًا - أهم مساعد له فى حركته لشجاعته وبأسه وفروسيته، ومر بنا كيف استطاع سوار أن يأخذ ثأر زعيم العرب قبله فى تلك المنازعة مع المولدين وأصحابهم: يحيى بن صقالة، إذ قتل منهم فيما يقال سبعة آلاف. ونرى ابن جودى يرميهم حينئذ بشُواظ من شعره منشداً:

قد طلبنا بثَأرِنا فقتلنا ... منكمُ كلَّ مارقٍ وعَنيدِ
قد قتلناكُم بيحيى وما إنْ ... كانَ حكمُ الإلهِ بالمردودِ
فاصطلوا حرَّها .وحرُّ سيوفٍ ... تتلظَّى عليكُمُ كالوَقودِ
لم تزالوا تبغونها عِوَجًا حتـ ... ـى وَرَدْتُم للموت شرَّ وُرودِ

ويقول إنهم قتلوا يحيى بن صقالة غدرا، ويشيد بشجاعته وجوده وحلمه وتقواه ويدعو الله أن يجزيه جزاء الشهداء الأبرار. ويحشد المولدون ومن يؤيدهم من المسالمة والنصارى جموعهم ويهاجمون غرناطة، فتدور عليهم الدوائر وتحصد سيوف العرب منهم اثنى عشر ألفا، ويرميهم بقصيدة ملتهبة، يقول فيها:

لقيتم لنا مَلْمومَةً مُسْتَجِرَّةً ... تُجيدُ ضِراب الهام تحت العَوامِلِ[١]
وظلَّتْ سيوفُ الهند تَحْصُدُ جمعكم ... حصادَ زروعٍ أَيْنَعَتْ للمَناجِلِ[٢]
ولم يَبْقَ منكم غيرُ عانٍ مُصَفَّدٍ ... يُقاد أسيرًا مُوثَقًا فى السلاسلِ[٣]
وآخر منكم هاربٌ قد تضايقتْ ... به الأرضُ يَعْدُو من جَوًى وبلابلِ[٤]

ولم يلبث سوار قائد هاتين المعركتين أن قُتل بحيلة دبرها المولدون سنة ٢٧٧ فأمَّر العرب مكانه فى زعامتهم سعيد بن جودى صاحبه، وظل يذود عنهم ذياد الأبطال سبع

---

(١) ملمومة: كتيبة. مستحرة من استحر القتل إذا اشتد. الهام: الرءوس. العوامل: الرماح
(٢) تحصد: تقطع. أينعت: حان حصادها وقطعها. وأينع الثمر: حان قطافه. المناجل: جمع منجل: آلة لحصد الزرع
(٣) عان: أسير. مصفد: مقيد بالأغلال.
(٤) يعدو: يفر. جوى: ضيق. بلابل: وساوس.

سنوات طوال، مثيرا فيهم الحماسة والحمية لمنازلة خصومهم. ويبدو أن شعرا حماسيا كثيرا لسعيد نظمه فى تلك الحروب سقط من يد الزمن، من ذلك قصيدة دالية لم يبق منها إلا هذا البيت :

وما كان إلا ساعةً ثم غودروا ... كمثل حَصيدٍ فوق ظَهْرِ صَعِيدِ[1]

وله مرثية فى بطل وربما رثى بها سوار بن حمدون أو بعض أصحابه من الفرسان ممن لقوا حتفهم فى تلك الحروب، وله أيضا بعض أشعار غزلية، ويقول ابن الأبار إنه يشوبها بشجاعته على شاكلة أبى دلف قائد المأمون فى غزلياته. وله فى جارية تسمى جيجان سمعها بقرطبة تغنى للأمير عبدالله فى إمارة أبيه محمد، فهام بها دهرًا دون أن يراها وفيها يقول :

سَمْعِى أَبَى أن يكون الروح فى بَدَنى ... فاعتاض قلبىَ منه لوعةَ الحزَنِ
أعطيتُ جيجانَ روحى عن تذكرها ... هذا ولم أرها يوما ولم ترنى
فقل لجيجان يا سُؤْلِى ويا أملى ... استوصِ خيرا بروح زال عن بدن[2]
كأنَّنِى واسْمَها والدمع منسكبٌ ... من مقلتى راهبٌ صَلَّى إلى وَثَنِ

ومن عجب أن قُتِل هذا الفارس البطل غيلةً بأيدى بعض أصحابه فى شهر ذى القعدة من سنة ٢٨٤.

عبد الملك[3] بن هذيل

هو أبو مروان عبد الملك بن هذيل. كان أبوه هذيل بن خلف بن رَزِين من أكابر جند البربر، وفى أول الفتنة بقرطبة سمت نفسه إلى اقتطاع كورة السهلة بين طليطلة وسرقسطة، وتم له ذلك بالاتفاق مع أمراء البلدتين بحسن سياسته وتدبيره. ومرَّ بنا أنه أول من أفرط فى ثمن القينات من أمراء الطوائف وأنه اشترى قينة بثلاثة آلاف دينار كانت أديبة تحسن الغناء مع معرفة بالطب والتشريح وعلم الطبيعة واللعب بالسيوف والخناجر المرهفة، وابتاع لها هذيل قينات مغنيات مشهورات بالتجويد فكانت ستارته أرفع ستائر أمراء الطوائف والستارة عندهم تعنى المسرح الذى كانت تغنى وترقص عليه

(١) الحصيد: الزرع المحصود أو المقطوع. الصعيد: وجه الأرض.
(٢) حذف الياء فى «استوص» فى خطاب جيجان لضرورة الوزن.
(٣) انظر فى عبدالملك بن هذيل وشعره القلائد ٥١ والخريدة ٣/٣٠٩ وما بعدها والحلة السيراء ٢/١٠٨ والمغرب ٢/٤٢٨ وأعمال الأعلام ٢٣٨ والبيان المغرب لابن عذارى ٣/٣٠٩ والمطرب ص٣٩.

القينات مع العود وغيره من آلات الطرب. وفى هذه البيئة نشأ عبد الملك نشأة فيها كثير من اللهو والعناية بالشعر، فكان طبيعيا أن تتفتح فيها ملكته. وتوفى أبوه سنة ٤٣٦ فخلفه على السهلة، ويقول الفتح بن خاقان إنه كان غيثا فى النَّدَى، وليثا فى العِدا» بينما يقول ابن الأبار إنه «كان - مع شرفه وأدبه - متعسفا على الشعراء، متعسرا بمطلوبهم من ميسور العطاء» ويقول ابن بسام: «كان له طبع يدعوه فيجيبه، ويَرْمى ثُغَّرَة الصواب عن قوسه فيصيبه». وظل على إمارة السهلة حتى تغلب على ما بيده ابنُ تاشفين وتوفى سنة ٤٩٦ وكانت له نجدة وفيه شجاعة، وكان يختلط بجنده ويتحبب إليهم حتى إنه كان لا يمتاز منهم فى مركب ولا ملبس. وله وقائع مع النصارى مشهورة، وربما كانت مطالب هذه الوقائع من أموال للسلاح وإعداد هى التى اضطرته إلى عدم الاتساع فى النوال على الشعراء لا عن شُحٍّ وبخل، ولكن عن حاجة للأموال واضطرار، وقد تدل على ذلك دعوته للجود فى بعض شعره قائلا:

اهدمْ بناءَ البخلِ وارْفُضْ لهُ ... مَنْ هَدم البخل بنى مَجْدَهُ
لا عاش إلا جائعًا نائعًا ... مَنْ عاش فى أمواله وحده

وهو يدعو على البخيل الشحيح الذى يقبض يده عن العطاء للناس ولا يشركهم فى أمواله أن يعيش جائعا نائعا أو ظامئا وبعبارة أخرى فقيرا بائسا. وكان موقفه كريما من ابن طاهر حين سلبه ابن عمار مرسية - كما مرَّ بنا - فقد كتب إليه يسأله أن ينزل عنده وأن يقاسمه خاصَّ ضياعه وأملاكه، وإن شقَّ عليه ذلك لبعد السهلة وبرد هوائها فإنه يهبه بلدة من بلدانها الجنوبية، هى شنتمرية ويقف طاعتها عليه وتصريف أمورها بيديه، ومن قوله مفاخرا:

شَأَوْتُ آل رزينٍ غيرَ محتفلٍ ... وهم - على ما علمتم - أفضلُ الأممِ
قومٌ إذا سُئلوا أغْنَوْا وإنْ حَرَبُوا ... أَفْنَوْا وإنْ سوبقوا جازوا مَدَى الكرمِ[1]
جادوا فما يتعاطى جودَ أَنْمُلِهم ... مَدُّ البحار ولا هَطَّالةُ الدِّيَمِ
وما لرتقيتُ إلى العَلْيا بلا سبب ... هيهاتَ هل أحدٌ يَسْعى بلا قَدَمِ
فمن يَرُمْ جاهدا إدراكَ منزلتى ... فَلْيَحْكِنى فى النَّدى والسَّيْفِ والقلم

ومبالغة منه مسرفة أن يقول عن أسرته من آل رزين إنها أفضل الأمم، وهو يصفهم -

---

(١) حربوا: طعنوا. جازوا: قطعوا وتعدَّوا.

ويصف نفسه معهم - بالكرم الفياض، ويقول إنه لم يرتق مصعدًا إلى ذروة العلياء إلا بجوده وبأسه وقلمه وما يدونه من جيد المنظوم والمنثور. ويقول:

أنا مَلْكٌ تجمَّعتْ فيَّ خَمْسٌ   كلُّها للأنام مُحْيٍ مُمِيتُ
هي ذهنٌ وحكمةٌ ومَضَاءٌ   وكلامٌ فى وقتِهِ وسكوتُ

وهو يفتخر بذكائه وحكمته وشجاعته، وأنه يصمت حين ينبغى الصمت ولا يتكلم إلا حين يطلب الكلام وحينئذ يكون الكلام نافذا ماضيًا كالسهام المصمية. وروى له ابن بسام مقطوعة ذم فيها ذما شديدًا من يتناولون الناس بالسخرية والإزراء عليهم وثلبهم بينما هم فى الدرك الأسفل من الدناءة والغباء، كما روى له مقطوعة ثانية يعجب فيها من رهبته أمام عيون صاحبته وما تسلّه من ألحاظها بينما لا يخشى السيوف فى القتال ولا يرهبها، يقول:

إذا سلَّت الألحاظُ سَيْفًا خشيتهُ   وفى الحرب لا أخْشَى ولا أتوقَّعُ

ولعل فى كل ما قدمت ما يشهد لعبد الملك بن هذيل بأنه كان على حظ غير قليل من الفضل والنبل والشيم الكريمة.

يوسف الثالث[1]

حفيد الغنى بالله، حكم غرناطة من سنة ٨١٠ إلى سنة ٨٢٠ وترتيبه الثالث عشر بين أمرائها بنى الأحمر النصريين، وله ديوان كبير حقَّقه الأستاذ عبد الله كنون سنة ١٩٥٨ ويذكر يوسف فى مقدمته التى سقطت من الديوان واحتفظ بها المقرى فى نفحه - كما جاء فى مقدمة محققه - شيوخه الذين ثقف عليهم العربية والشريعة الإسلامية. ونعرف من الديوان اسم زوجته «سلمى» وله فيها غزل كثير قبل اقترانه بها، وهى ابنة عمه وأم أولاده. وتوفيت فى أثناء حكمه فرثاها، ومن قبلها رثى أباه السلطان يوسف الثانى، وله مراث فى بعض إخوته وأبنائه. وفى الديوان إشارات كثيرة إلى منازعات ظلت طويلا بينه وبين أبى سعيد عثمان المرينى صاحب فاس (٨٠٧ - ٨٢٣ هـ) بسبب جبل طارق ومن

---

(١) انظر فى ترجمة يوسف الثالث وشعره مقدمة الأستاذ عبد الله كنون لديوانه بتحقيقه (طبع تطوان) ودراسة د. محمد بن شريفة له ولشعره فى تقديمه لديوان ابن فركون شاعره من ص ١٩ إلى ص ٩٤ والتاريخ الأندلسى لحجى ص ٥٤٨ وما بعدها ونهاية الأندلس لمحمد عبد الله عنان.

يكون صاحب السيادة عليه، ويظفر أخيرا به وتصفو بينهما العلاقة، ويمتدحه ويمتدح قومه. وكان نصارى الشمال - وخاصة القشتاليين - لا يزالون مع يوسف بين مهادنة ومنازلة وموادعة ومحاربة، وانتصر عليهم يوسف فى بعض الوقائع، مما جعله ينشد مثل قوله فى قصيدة حماسية من قصائده:

راقَ الزمانُ وجاءنا ميقاتُهُ ... بالضَّحوة الغرَّاء من أيامِهِ[١]
نأتمُّ فى حَرْب الصَّليب وحِزْبِهِ ... بِشَفيعِ كلِّ موحِّدٍ وإمامِهِ
مستأصلى بِيَعَ العُداة مُهَتِّمي ... ما صان فيها الكفرُ من أصنامه[٢]
والله جَلَّ جلالُه متكفِّلٌ ... بالنَّصْر والمعهودِ مِن إنْعامِهِ

ويوسف يعلن أنه انتصر فى ضحوة أوضحى أحد الأيام على حملة الصليب، وهو يقتدى فى جهاده لهم بجهاد الرسول ﷺ للكفار. مصمما على استئصال بِيَعهم أو كنائسهم وتهتيم أو تهشيم أصنامهم مستعينا بعون الله فى نصره عليهم وسحقهم سحقا ذريعًا. وطبيعى أن يكتظ ديوان يوسف بحُمَم كثيرة من الحماسة والفخر المضطرم من مثل قوله:

لقد علمتْ نَصْرٌ بأنى كفيلُها ... إذا هاجت الهيجاءُ واحمرَّت الأرضُ[٣]
أدافع عنهم بالصوارم والقَنا ... وأحمى حِماها أن يُنال لها عِرْضُ
بنا ساعةَ الهيجاء يَحْمَى وَطيسُها ... وتُهْتك أستارُ البُغاة إذا انقضُّوا
إلى عِتْرة الأنصار تُعْزَى أرومتِى ... إلى معشرٍ فى الذِّكر حُبُّهمُ فَرْضُ

وهو يقول إن بنى نصر من أسرته يعلمون بلاءه فى الحرب وأنه حين يحمى وَطيسها أو شرارها وتسيل الدماء على أديم الأرض ويتساقط عليها القتلى صرعى يذود عن حماهم ويدافع عنهم مستميتا بالسيوف وبالرماح، ولا غرو فإنه ينتمى إلى رهط الأنصار إذ أسرته من سلالة سعد بن عبادة، ومعروف أن عداده فى السابقين الأولين من الأنصار. وينشد مفاخرًا:

ألستُ سليلَ الصِّيدِ من آل خِمْيَرٍ ... وخيرِ ملوك الأرض قومًا ولا فَخْرُ[٤]

---

(١) الضحوة: الضحى.
(٢) بيع: كنائس مهتمى: محطمى.
(٣) كفيل: ضامن. الهيجاء: الحرب. احمرار الأرض: كناية عن كثرة الدماء.
(٤) الصيد: جمع أصيد: السيد.

لنا المنصبُ الأعلى على كل منصب　　لنا العِزّةُ القَعْساءُ والغُرَرُ الغُـرُّ[١]
لنا الهَضْبَةُ الشَّمَّاء سامِيةُ الذُّرَى　　لنا الرَّاية الحمراء يَهْفُو بها النَّصْرُ[٢]
مكارمُ أعْيَتْ كلَّ من رام حَصْرها　　وهيهاتَ ما للشُّهْب فى أفْقها حَصْرُ

وهو يفتخر بأنه سليل أصحاب الحَوْل والطَّوْل من حمير، إذ أصل الأنصار من اليمن، وأن لهم المنصب أو المقام الرفيع والعزة الوطيدة والأعمال العظيمة المشهورة والهضبة الضاربة فى السماء التى لا يمكن لأحد بلوغ ذراها السامقة والراية الحمراء رمز إمارتهم وانتصاراتها الماحقة، وهى مكارم يعزُّ حصرها، وهل يمكن أن تحصر أو تحصى الشهب والنجوم فى السماء. ووراء ما اخترناه ليوسف الثالث من أشعار فى الفخر والحماسة أشعار ذات نسيج ضعيف، وهى طبيعية ممن ينشأ مثله فى الملك والترف والنعيم.

(ب) شعراء الهجاء

الهجاء قديم فى الشعر العربى، ومرَّ بنا - فى كتابنا عن العصر الجاهلى - أنه كان فى الأصل لعنات يصبها الأفراد على أعدائهم وأعداء قبائلهم آملين أن تنزلها بهم المقادير، وأخذ يتحول من لعنات خالصة إلى سباب وتهوين للمهجوِّين على ألسنة شعراء الجاهلية، ومضوا يتقاذفونه ويسلُّونه كما يسلون سيوفهم فى حروبهم، وبقيت منه بقايا غير قليلة فى الإسلام بين شعراء المدينة ومكة لعهد الرسول ﷺ. ولم يلبث أن احتدم بالعراق فى العصر الأموى ونشأت عنه مناظرات هجاء حادة بين جرير والفرزدق سُمِّيت بالنقائض. وظل التهاجى مضطرما بين الشعراء فى العصر العباسى، وسقطت منه شعل كثيرة إلى الأقاليم، وبمجرد أن نشط الشعر فى الأندلس لعهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) نشط الهجاء وأخذ شعراؤه يتكاثرون، وفى مقدمتهم يحيى الغزال، وسنخصه بكلمة، ومن هؤلاء الهجائين المبكرين عبد الله[٣] بن الشِّمْر المتفنن فى العلوم منجم الأمير عبد الرحمن الأوسط، ويذكر ابن حيان[٤] عن قاض اسمه يُخامر بن عثمان كانت فيه غفلة أن ابن الشمر استغلَّ ذلك يوما - وهو فى مجلس القضاء - فألقى بين البطاقات التى كان ينادى بها الخصوم للتقدم إليه بطاقة مكتوبا عليها: يونس بن متى،

---

(١) القعساء: الوطيدة. الغرر: الأعمال العظيمة. الغر: المشهورة.
(٢) الشماء: السامقة: يهفو: يخفق.
(٣) مرت مصادر ابن الشمر فى الحديث عن علوم الأوائل فى الفصل التالى.
(٤) المقتبس (تحقيق د. مكى - طبع بيروت)، ص ٦٥ - ٦٦.

المسيح بن مريم. وحين وقعت البطاقة فى يده أمر أن يُدْعَى له بن فيها، فهتف الهاتف: يونس بن متى والمسيح بن مريم وكرَّر الهاتف النداء خارج مجلس القاضى ولا مجيب إلى أن صاح ابن الشمر: إن نزولهما من علامات الساعة! وتناول بطاقة وكتب فيها مع بيتين آخرين:

يُخامرُ ما تنفكُّ تأتى بِفَضْحةٍ دعوتَ ابنَ مَتَّى والمسيحَ بنَ مَرْيَما
قَفاك قَفا جَحْشٍ ووجهُك مظلمٌ وعَقْلُك ما يَسْوَى من البَعْر بِرْهما

فتألب الفقهاء على يُخامر وأجمعوا على ذمه والقدح فيه، وثارت به العامة لفقده حسن المعاملة ولقلة درايته. ومن الهجائين المعاصرين لابن الشمر مؤمن[١] بن سعيد الملقب بدعبل الأندلس، وكان يهاجى ثمانية عشر شاعرًا رموه عن قوس واحدة لتمزيقه أعراض الناس. وكان هاشم بن عبد العزيز وزير الأمير محمد بن عبد الرحمن يقرّبه ويجزل له النوال، وأسرته النصارى فى إحدى المواقع، فقال يخاطب أبا حفص ابن عمه وعدوّه شامتا به فى قصيدة طويلة:

تصبَّحْ أبا حفصٍ على أَسْرِ هاشمٍ ثلاثَ زُجاجاتٍ وخمسَ رَوَاطِمِ[٢]
وبُحْ بالذى قد كنت تُخْفيه جِنْبَته فقد قطعَ الرحمنُ دولةَ هاشمِ

وافتدى الأمير محمد هاشما فلما عاد إلى وزارته وعلم بالقصيدة نصب لمؤمن حبائل السعاية عند أميره فحبسه، وطال حبسه حتى توفى سنة ٢٦٧. ومن كبار الهجائين فى عهد الأمير عبدالله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) القلفاط[٣] محمد بن يحيى المتوفى سنة ٣٠٢ وكان يسلّ لسانه على الناس جميعا حتى على الأمير عبدالله وفيه يقول:

ما يَرْتَجِى العاقلُ فى مُدَّةٍ أَلرِّجْلُ فيها موضعُ الراسِ

وكان صديقا لابن عبد ربه، وبدرت منه بادرة له، فتوجّس منه شرا، وتهاجيا وأقذع كل منهما فى هجاء صاحبه. وخفت حدة الهجاء لعهد عبد الرحمن الناصر،

(١) انظر فى ترجمة مؤمن بن سعيد وشعره الحميدى ٣٣٠ والجزء السابق من المقتبس فى مواضع مختلفة (راجع الفهرس) وقضاة قرطبة للخشنى ١٠٣ - ١٠٥ والحميدى ص ٣٣٠ وبغية الملتمس ص ٤٥٦ والمغرب ١٣٢/١.

(٢) رواطم لعلها من آنية الخمر فى الأندلس.

(٣) انظر فى القلفاط وشعره الزبيدى ٣٠١ والحميدى ٩١ وبغية الملتمس ١٣٤ والمغرب ١١١/١ وابن عذارى ١٩٣/٢ وإنباه الرواة ٢٣١/٣ والمقتبس الجزء الخاص بالأمير عبد الله.

(٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) حتى إذا أمر المستنصر ابنه (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) بإراقة الخمر وتشدد فى ذلك تعرضت له جماعة من الشعراء بذمه، من بينهم الرمادى: يوسف بن هرون، فأمر بسجنه حتى إذا توفى عادت إليه حريته، واشتهر له قوله فى طفل حلق أهله شَعْره خوفا عليه من الحسد[1]:

حلقوا رأسَهُ ليكسوه قُبْحا خيفةً منهمُ عليه وشُحّا
كان قبل الحِلاقِ ليلًا وصُبْحا فمحَوْا ليله وأبقوه صُبْحا

ونمضى إلى عصر أمراء الطوائف وفيه يشتد التنافس بين الشعراء، ويشتد معه الهجاء ولو أن ابن بسام عُنى فى الذخيرة بعرضه لأورد منه عشرات بل مئات من الصحف، ولكنه عاهد نفسه أن لا يعرض منه إلا القليل الأقل. وأخذ حينئذ يتخصص بعض الشعراء بنظمه، فهم لا يكادون يطرقون بابا سواه وفى مقدمتهم السُّمَيْسر وسنفرد له ترجمة وكان على شاكلته أبو تمام غالب[2] الملقب بالحجَّام شاعر قلعة رباح غربى طليطلة وقد سقطت فى حجر ألفونس السادس سنة ٤٦٧ وغالبا لا يذكر ابن بسام من يهجوهم وخاصة إذا كانوا من رجال الأندلس أو علية القوم، ولعل ذلك ما يجعله يختار له الأبيات العامة التى تصيب كل مذموم كقول غالب مما أنشده صاحب الذخيرة:

صغارُ الناسِ أكثرهُم فسادا وليس لهم لصالحةٍ نهوضُ
ألم تَرَ فى سباع الطير سِرًّا تسالمنا ويؤذينا البَعُوضُ

وقوله:

فيا للمُلْك ليس يَرَى مكاني وقد كُحِلَتْ لواحظُه بنورى
كذا المِسْوَاكُ مطَّرَحًا هوانًا وقد أبقى جِلاءً فى الثغورِ

وأخذ يظهر من حينئذ شعراء يطوفون بمدن الأندلس، ويتغنون على كل باب يظنون منه خيرا، وقد يتعثر الخير، وقد يشعرون بشيء من الاستطالة مع الإقلال والجدب فيمن يقصدونهم، فيتركونهم إلى غيرهم ممن يحسنون بهم الظن، فيجدونهم أكثر إقلالا وإجدابا. ومن أشهر هؤلاء الشعراء الجوالين أبو عامر[3] الأصيلى، وهو كثير الذم والهجاء للناس

---

(١) رايات المبرزين (طبعة القاهرة) ص ٧٨.

(٢) راجع فى أبى تمام غالب الحجام وشعره الذخيرة ٨٢١/٣ وما بعدها والمغرب ٤٠/٢ ورايات المبرزين ص ٨٢.

(٣) انظر فى أبى عامر الأصيلى وشعره الذخيرة ٨٥٧/٣ والمغرب ٤٤٤/٢ والخريدة ٣٠٨/٢.

بمثل قوله مما اختار له ابن بسام:

أرى الأوغادَ يَعْتمرون دورًا ... ومالى فى بلادِ الله دارُ
أجولُ فلا أرى إلا رِعاعًا ... كبارُهُمُ إذ اخْتُبروا صغارُ

ونشبت لعهد أمراء الطوائف أكبر[١] معركة للهجاء ضد يهود غرناطة. ذلك أن كورة إلبيرة كانت قد وقعت من نصيب زاوى بن زيرى الصنهاجى زمن الفتنة، فاتخذ غرناطة قاعدة له حتى سنة ٤٢٠ إذ رحل عنها إلى بلاده بإفريقية وتركها لابن أخيه حبوس بن ماكسن، واتخذ وزيره أبو القاسم بن العريف كاتبا له يهوديا يسمى إسماعيل (صمويل) ويلقب بابن النغْرِيلة، وكان داهية خبيثا درس بقرطبة الديانة اليهودية وكل ما اتصل ببحوثها التلمودية مع ما درس من الثقافة والآداب العربية. وتوفى حبوس سنة ٤٢٩ وخلفه باديس حتى سنة ٤٦٧ وفى عهده أصبح ابن النغريلة رئيس وزرائه أو وزيره الأول بحسن تدبيره لشئون المال، وبالغ باديس فى الثقةَ به، بينما هو كان يعد نفسه حاميا لليهود فى الأندلس، فجاءوه من كل بلد، وأخذ يعهد إليهم بكثير من وظائف الحكم والضرائب، كما أخذ يرعى مصالحهم الاقتصادية والتجارية. ودفع باديس إلى أن يعيش بين كاس وطاس لا يدرى شيئا من شئون الحكم، وبلغ من عدائه للإسلام أن كان لا يجد حرجا من استهزائه به، وأقسم أن ينظم القرآن فى أشعار، وتوفى سنة ٤٥٦ وكان قد أعدَّ ابنه يوسف ليخلفه فى وزارته لباديس، وسرعان ما أخذ الناس يعلنون ضيقهم به وبسيطرة اليهود على شئون الدولة من ضرائب وغير ضرائب، وأخذ غير شاعر يستثير العامة للثورة على اليهود وزعيمهم يوسف وفى مقدمتهم السُّمَيْسر وأبو الحسن يوسف بن الجد القائل فى سخط وغضب[٢]:

تحكَّمتِ اليهودُ على الفُروجِ ... وتاهتْ بالبِغالِ وبالسُّروجِ
وقامتْ دولةُ الأَنْذالِ فينا ... وصار الحكمُ فينا للعُلوجِ[٣]
فقل للأعور الدَّجَّالِ هذا ... زمانُك إن عزمتَ على الخروجِ

(١) انظر فى هذه المعركة والثورة على يهود غرناطة الذخيرة ٢/٧٦٦ وما بعدها وانظر المغرب ٢/١١٤ وأعمال الأعلام ص ٢٦٤ والبيان المغرب ٣/٢٦٤ والإحاطة ١/٤٣٩ وتاريخ ابن خلدون ٤/١٦١ وراجع مقدمة د. إحسان عباس على رسالة الرد على ابن النغريلة لابن حزم (طبع القاهرة) ص ٩ - ١٨.

(٢) الذخيرة ٢/٥٦٢

(٣) العلوج: جمع علج: الفظ.

وأصبح المسلمون فى غرناطة، يموجون بالحنق والغيظ من يوسف واليهود الذين اعتصروا طيبات الأرض وعرق الكادحين باسم الضرائب، وقد اختلت الموازين فبعد أن كان المسلمون هم الذين يجبون الضرائب من اليهود وأهل الذمة أصبح اليهود هم الذين يجبونها، وبينما كان الناس ينتظرون شعلة لتثير بركان الثورة الكامن، إذا أبو إسحق الإلبيرى الذى سنترجم له بين الزهاد يمدهم بقصيدة حماسية ملتهبة، بل بالشعلة الشعرية المضطرمة شواظا ونارا حامية، وإنه ليهتف فى مطلعها برجال صنهاجة الحاكمين[١]:

ألا قُلْ لصَنْهاجَةٍ أجمعينْ	بدورِ النَّدِىِّ وأُسْدِ العَرِينْ[٢]
لقد زلَّ سَيِّدُكم زَلَّةً	تَقَرُّ بها أعْيُنُ الشامتينْ
تخيَّر كاتبَه كافرًا	ولو شاءَ كان من المسلمين
فعزَّ اليهودُ به وانْتَخَوْا	وتاهوا وكانوا من الأرْذلينْ[٣]
ونالوا مناهم وجازوا المَدى	فحانَ الهلاكُ وما يَشْعُرون

ويتساءل ألم يكن من الواجب على باديس أن يبقيهم - كما أبقاهم حكام المسلمين قبله - باعة جوّالين يحملون أخراجهم على ظهورهم فى صغار وذل وهوان باحثين فى المزابل عن خرق من الثياب ملوّثة يتخذونها أكفانا لموتاهم. ويتجه إلى باديس مادحا مثنيا حتى يتنبه ليوسف وأعوانه وما يدبرون من الكيد له بينه وبين شعبه، وما كنزوا وبنوا من القصور الباذخة. وما يزال يستثير باديس حتى إذا ظن أنه بلغ به الغاية من الثورة على اليهود وحاميهم يوسف أفتاه - كفقيه - بسفك دمه ودماء أعوانه من اليهود، يقول:

فبادِرْ إلى ذَبْحهِ قُرْبةً	وضَحِّ به فَهْو كَبْشٌ ثمينْ
ولا تحسبَنْ قتلهم غَدْرةً	بل الغَدْرُ فى تركهم يعبثون
وقد نكثوا عَهْدَنا عندهم	فكيف تُلام على الناكثين

وأخذ سكان غرناطة يتناسخون القصيدة وينشدونها فى الطرقات، وغلت نفوسهم وصمموا على الانتقام، وحانت الفرصة إذ كان يوسف قد اتفق مع المعتصم بن صمادح أن يرسل إليه جنودا إلى غرناطة أملا فى أن تخلص له بعد خلوصها من باديس. وفى مساء يوم السبت لعشر خلون من صفر سنة ٤٥٩ تسوّر كثيرون من الرعية قصره حين تبينت

---

(١) ديوان الإلبيرى (طبع مدريد) ص ١٥١.

(٢) الندى: مجلس القوم. العرين: غيل الأسد ومأواه.

(٣) انتخوا: تعاظموا وتكبروا.

لهم جليّة نواياه مصممين على قتله، فاختبأ منهم فى بيت فحم، فقبضوا عليه وقتلوه وصلبوه على باب المدينة، ونهبوا متاجر اليهود ومنازلهم وقتلوا منهم نحو أربعة آلاف.

ومن كبار الهجائين فى عصر المرابطين عبد الله[1] بن سارة الشنتريني المتوفى سنة ٥١٧ ويقول ابن بسام عنه: «رأيت له عدة مقطوعات فى الهجاء تُرْبى على حَصَى الدَّهْناء، وهو فيه صائب السهم نافذ الحكم» ويقول إنه أضرب عن ذكرها إلا لمعا قليلة لمنهجه الذى اتخذه فى الذخيرة، وهو أن ينحىَّ عنها الهجاء وخاصة المفحش منه. وكان ابن سارة مقترًا عليه فى الرزق، فتنقل طويلا فى بلدان الأندلس، ثم استوطن إشبيلية واحترف فيها الوِراقة، وفيها يقول ذامًّا هاجيا:

أما الوِراقَةُ فَهْىَ أَنْكَدُ حِرْفَةٍ ... أغصانها وثمارُها الحِرْمانُ
شبَّهتُ صاحبها بإبرة خائطٍ ... تكسو العُراةَ وجِسْمُها عريانُ

ويكثر فى زمن المرابطين هجاء الفقهاء لما حازوا لأنفسهم فيه من مال وسلطان، وابن سارة أحد من تعرض لهم هاجيا، ومثله ابن خفاجة وابن البَنِّى وفيهم يقول مخاطبا لهم:

أهلَ الرِّياءِ لبستمُ ناموسَكم ... كالذئب أَدْلَجَ فى الظلام العاتمِ
فملكتمُ الدنيا بمذهب مالكٍ ... وقَسَمتمُ الأموالَ بابن القاسمِ
وركبتمُ شُهْبَ الدوابِّ بأشهبٍ ... وبأَصْبغٍ صُبِغتْ لكمْ فى العالَمِ

وهو يتهمهم بالمراءاة وأكل الأموال بالباطل ويزعم أنهم ملكوا الدنيا بمذهب مالك وأئمته المصريين الذين تتلمذ عليهم فقهاء الأندلس واتخذوا كتبهم مصدرا لفتاويهم وأحكامهم، وهم ابن القاسم المتوفى سنة ١٩١ وأشهب بن عبد العزيز المتوفى سنة ٢٠٤ وأصبغ بن الفرج المتوفى سنة ٢٢٥. وممن عنف بالفقهاء فى الهجاء الأبيض[2] محمد بن أحمد المتوفى حول سنة ٥٢٥ وولع بهجاء الزبير المرابطى حاكم قرطبة بمثل قوله:

عكف الزُّبَيْرُ على الضلالة جاهدا ... ووزيرُه المشهورُ كَلْبُ النَّارِ
مازال يأخذ سَجْدَةً فى سجدةٍ ... بين الكُئوسِ ونَغْمةِ الأوْتارِ

---

(١) انظر فى ترجمة عبد الله بن سارة وشعره الذخيرة ٨٣٤/٢ والخريدة ٣١٥/٢ والقلائد ٢٦٠ والتكملة ٨١٦ والبغية رقم ٨٩٦ والمغرب ٤١٩/١ وابن خلكان ٩٣/٣ والمطرب ٧٨، ١٣٨، ٢٣٥.

(٢) راجع فى ترجمة الأبيض وشعره المغرب ١٢٧/٢ وزاد المسافر ص ٦٦ ونفح الطيب ٤٨٩/٣ وما بعدها.

فإذا اعتراه السَّهْوُ سَبَّح خلْفه صوتُ القِيان ورَنَّةُ المزمارِ

وكانت فى الأبيض جرأة شديدة، وأفحش فى بعض هجائه للزبير فاستدعاه وقال له: ما دعاك إلى هذا الهجاء؟ حتى إذا أخذ يقرِّعه ويوجعه باللوم قال له هازئا به: إننى لم أر أحق بالهجو منك ولو علمتَ ما أنت عليه من المخازى لهجوتَ نفسك إنصافا ولم تَكِلها إلى أحد. وقامت قيامة الزبير حين سمع منه ذلك وأمر بقتله، وهو حق منه ما بعده حق. وكان معاصره البَكّىُ يهجو المرابطين مثله، غير انه لم يبلغ مبلغه فى الإقذاع وهو من كبار الهجائين، وسنخصه بكلمة. وكانت بين المتفلسفين أبى العلاء بن زهر وابن باجة - بسبب المشاركة فى مهنة الطب كما يقول المقرى - ما يكون بين النار والماء، والأرض والسماء، فقال فيه ابن[1] باجة:

ياملكَ الموت وابنَ زُهْرٍ جاوزتما الحدَّ والنهايَهْ
ترفَّقا بالوَرَى قليلاً فى واحدٍ منكما الكِفايَهْ

وهى فى رأينا دعابة وممازحة، لا هجاء ذميم كما ظن المقرى، مما جعله يعقِّب لأبى العلاء بن زهر ببيتين يصف فيهما شخصا بالزندقة وأنه لابد أن يصلب والجذع والرمح حاضران، إلا أن يكون ذلك بقصد الدعابة. ومن الهجائين المخضرمين الذين عاشوا فى عصر المرابطين، ولحقوا عصر الموحدين الأعمى[2] المخزومى أبو بكر محمد، وأنشد له ابن سعيد فى المغرب هجاء كثيرا، من ذلك قوله فى إحدى مقطوعاته يهجو قوما لقوه لقاء قبيحا:

وأنتم سَنَنْتُمْ كلَّ مُحْدَثِ سُبَّةٍ ولم تتركوا فيها لحَاقًا لآخرِ

فقد جمعوا - غير مسبوقين - كل مسبَّة وكل مذمَّة وكل قبيحة، وقطعوا الطريق فيها على كل لاحق، حتى استحقوا لعنة تزرى سوءًا وعارًا بلعنات كل من فى المقابر كما يقول. ولم يسلم أحد من هجائه حتى تلميذته الشاعرة نزهون[3] - وكانت من بيت فضل وعلم - هجاها قائلا:

ألا قُلْ لنَزْهونةٍ مالها تجرُّ من التِّيهِ أذْيالَها

---

(١) نفح ٤٣٤/٣ وما بعدها.
(٢) انظر فى ترجمة الأعمى المخزومى وشعره المغرب ٢٢٨/١ والإحاطة ٤٢٤/١ ٢١٦/٣.
(٣) تأتى فى الفصل التالى مراجع نزهون.

فردّت عليه بهجاء موجع أخرسه. وكما هجا تلميذته التى كانت حرية بكل ثناء على الأقل لخصب ملكتها الشعرية هجا ابنًا له بقوله:

الحقُّ أبلجُ لستَ أنت وحقِّ مَنْ　　أحْيا بك الأجْلافَ مِمَّنْ يُفْلِحُ[1]
لا تهتدى بفضيلةٍ لا تَرْعَوِى　　بمــلامةٍ لا أنت ممن يَصْلح
يزدادُ عقلك ما كَبِرْتَ تناقصا　　وتَلِجُّ فى صَمَمٍ إذا ما تُنْصَحُ[2]

وبدلا من أن يتعاطف مع ابنه فلذة كبده ويصوغ له النصح برفق يجرح مشاعره بهذه السهام المصمية. ويقول ابن سعيد عنه فى مطلع ترجمته نقلا عن الحجارى: «بشار الأندلس انطباعا ولسنا وأذاة، وهو الذى أحيا سيرة الحطيئة بالأندلس فمُقت، وكان لا يسلم من هجوه أحد». ويروى ابن سعيد أن جده عبد الملك كان يبرُّه ويكرمه وأنه قصده مرة فأنزله فى دار تلطفا، وقال لغلام له: اسأل فى الموضع الذى نزل فيه المخزومى متى يرحل وكان يريد أن يرسل إليه حين يهم بالرحيل زادا وينظر له فى دابة تحمله، وأساء الغلام الطريقة إذ ضرب على المخزومى فخرج إليه، فقال له: يقول لك صاحبك متى ترحل؟ فقال له انتظر حتى أكتب لك الجواب وكتب له أبياتا منها:

لا ترجونَّ بنى سعيدٍ للنَّدَى　　فـالظلُّ أفْيَدُ منهمُ للسائـلِ
قـومٌ مصيبتهُم بـطلعـة وافـدٍ　　وسرورُهم أبدًا بخيبةِ راحلِ

ومن كبار الهجائين فى عصر الموحدين على بن حزمون وسنفرد له ترجمة، وكان يعاصره محمد[3] بن الصفار الأعمى القرطبى المتوفى سنة ٦٣٩ وكان قد أخذ نفسه بالوقوع فى الأعراض، وكان لا يزال يتناول أعراض الأمراء ووجوه القوم، ويروى ابن سعيد أنه لما قال أبو زيد الفازازى كاتب أبى العلاء المأمون الموحدى (٦٢٤ - ٦٢٩ هـ) ابن يعقوب المنصور قصيدته التى أولها: «الحزم والعزم منسوبان للعرب» يشير بذلك إلى أنصاره من عرب جشم ناقضه ابن الصفار بقصيدة فى مديح يحيى بن الناصر الموحدى أخى المأمون مخاصمه على إمارة الموحدين، أشار فيها إلى عمه المأمون هاجيا له بقوله:

وإن ينازعك فى المنصور ذو نسبٍ　　فنَجْلُ نوحٍ ثَوَى فى قِسْمة العَطَبِ
وإن يَقُلْ أنا عَمُّ فـالجوابُ لـه　　ـمُ النبىِّ بـلا شَكٍّ أبــو لَهبِ

(١) أبلج: مضىء.
(٢) تلج: تتمادى.
(٣) انظر فى ترجمة ابن الصفار الأعمى وشعره ١١٧/١، واختصار القدح المعلى ص ٢٠٣ ص ٢١٣.

وشاعت القصيدة وبلغت المأمون فحرَّض على قتله، وفرَّ ابن الصفار إلى أبي زكريا بن عبد الواحد أمير تونس وأجرى عليه راتبا شهريا إلى أن بارح دنياه. ويظل شرر الهجاء يتطاير في إمارة بني الأحمر، ويكثر الشعراء حينئذ من ذم الزمان والناس، على نحو ما يلقانا عند البَسْطي محمد بن عبد الكريم القيسي بأخرة من زمن تلك الإمارة، وقد صبَّ كثيرا من هجائه على القضاة والمشرفين على الأحباس، ومن هجائه لقاضي بلدته[1]:

تبًّا لقاضي بسطةَ ابنِ مفضَّلٍ   تبًّا له فيه يروح ويَغْتدي
إذ غيَّر الأحكام عما أُصِّلتْ   تغييرَ جبَّارٍ عنيدٍ مُعْتدي

وحري بنا أن نتوقف قليلا بإزاء أربعة من كبار الهجائين في الأندلس على مر عصورها هم يحيى الغزال والسُّمَيْسر واليكّي وعلي بن حَزْمون.

يحيى[2] الغزال

هو يحيى بن الحكم البكري الجيَّاني المعروف باسم الغزال، وُلد حوالي سنة ١٥٦ للهجرة وتوفي حوالي سنة ٢٥٠ وإذا صحَّ ذلك يكون قد عاش أكثر من تسعين سنة، ويؤكد ذلك ما ذكره في أرجوزته التاريخية من قوله:

أدركتُ بالمِصْرِ ملوكًا أربعَهْ   وخامسًا هذا الذي نحن معَهْ

فهو قد أدرك زمن عبد الرحمن الداخل المتوفى سنة ١٧٢ وابنه هشام وحفيده الحكم الربضي وابنه عبد الرحمن وحفيده محمد، وكان جميل الصورة لذلك لُقِّب بالغزال وهو ممن رحلوا إلى المشرق وأفادوا منه أدبا وعلما. ويبدو أنه كان يتولى أحيانا بعض أعمال للدولة وخاصة في زمن الأمير عبد الرحمن الأوسط، إذ تولى له قبض الأعشار من المحاصيل وخزنها، ويقال إن سعرها ارتفع في بعض الأعوام فباع كل ما لديه من مخزون، وغضب الأمير حين علم بصنيعه لأنها كانت معدة للجند، وأمره أن يرد ثمنها ويشتري

---

(١) انظر كتاب البسطي آخر شعراء الأندلس للدكتور محمد بن شريفة (طبع بيروت) ص ١٩٤.

(٢) راجع في ترجمة يحيى الغزال المقتبس: الجزء الخاص بالأمير عبد الرحمن وابنه محمد (تحقيق د. مكي - طبع بيروت) ص ١١ - ١٣، ٦٤ - ٦٥، ٦٩، ٧٠، ١٣٤ والحميدي رقم ٨٨٧ والبغية للضبي رقم ١٤٦٧ والمغرب ٥٧/٢ والمطرب ص ١٣٣ وما بعدها والبيان لابن عذارى ٩٣/٢ والنفح ٢٥٤/٢ واليتيمة للثعالبي ٥٦/٢ وكتاب القضاة للخشني ص ٨٣. ونشر ديوانه د. محمد رضوان الداية بدار قتيبة.

للدولة منها حاجتها وكان السعر قد هبط، فرأى أن يكتفى برد ما يماثلها من الطعام دون رد المال جميعه، فأمر عبد الرحمن بسجنه. وكان شاعرا فذا فاستعطفه ببعض منظومه أو بعبارة أدق بقصيدة من قصائده فعفا عنه. وكان الأمير عبد الرحمن يعجب به، ولذلك نراه يكلفه بسفارتين سفارة لتيوفيل ملك بيزنطة، ولنجاحه فيها كلفه بعد القضاء على غارة النورمان الداغاركيين بغربى الأندلس سنة ٢٢٩ بسفارة ثانية إلى ملكهم، ونجح فيها كما نجح فى السفارة الأولى وعاد بذخائر ملوكية.

ويبدو من مدائح الغزال للأمراء الأمويين ولشغله لبعض الوظائف ولسفارته المتكررة للأمير عبد الرحمن الأوسط أنه عاش فى غير قليل من لين العيش وأنه كان فى أكثر حياته - إن لم يكن فيها جميعا - على حظ غير قليل من اليسر والرخاء وسعة ذات اليد، ولذلك نعجب أن نجد نفسه مطوية على غير قليل من المرارة مما دفعه إلى أن يكثر من الهجاء، فهو يهجو المرأة ويرميها بعدم الوفاء، ويهجو زرياب فى أول قدومه على قرطبة، ويهجو الناس جميعا حاكمين ومحكومين، يقول:

ما أَرَى هاهنا مِن الناسِ إلا	ثَعْلَبًا يطلبُ الدَّجاجَ وذِيبا
أو شبيهاً بالقِطِّ ألقى بعينيـ	ـه إلى فَأْرَةٍ يريدُ الوثوبا

فالناس بين ثعلب ماكر وذئب مفترس وقطٍّ ينتظر فرصة من فأرة، وجميعهم متحفز للوثوب والتقاط صيد ثمين ما وسعهم الصيد. ومن أهم من سلط عليه سهام هجائه قاضى الجماعة بقرطبة يُخامر بن عثمان الجذامى الجيانى مواطنه، ولّاه عبد الرحمن قضاء الجماعة سنة ٢٢٠ فأكثر من هجوه وذمه ووصفه بالجهل والبله مع السخرية المرة منه ومن أحكامه، كقوله فى شعر استهله باعتذاره لشخص كلفه عملا لا يحسن أداءه على نحو ما كُلِّف القاضى يخامر بالقضاء وهو لا يحسنه:

فقلتُ لـه كلَّفتني غيـرَ صَنْعتى	كما قلَّدوا فَضْلَ القضاء يُخامرا
وقلتُ لو استعفيتَ منه فقال لي	سأفضحُ ما قد كـان منكَ مُغـايرا
فقلت لـه: رأسُ الفُضُوح إقـامةٌ	علينا كذا من غَيْرِ عِلْمٍ مُكابرا
وخَبْطُك فى دين الإله على عَمىً	خِبـاطـةَ سكـرانٍ تكلَّم سَـادِرا[1]
فلن يَحْمل الصَّخْرَ الذُّبابُ ولن ترى الـ	سَّلاحِفَ يُزْجِينَ السُّفْن مَوَاخِرا[2]

---

(١) سادرا: غير مبال.

(٢) مواخر: تمخر البحر أى تشقه.

وهو هجاء مقذع ليخامر إذ يصفه بأنه يخبط فى قضائه وأحكامه على الناس خبط أعمى لا يبصر، بل خبط سكران فقد عقله ورشده، ويمثله فى حمله للقضاء ومهمته الثقيلة التى لا يؤتاها إلا أولو العزم بذباب يُطْلب إليه أن يحمل صخرا ضخما وبسلاحف يطلب إليها أن تدفع سفنا تشق مياه البحار شقا. وما يزال يهوّن منه ويزرى به حتى عزله الأمير عبد الرحمن عن القضاء. وكان نصر الصقلى الخصىّ تمكن من الأمير عبد الرحمن غاية التمكن وكان ذلك يؤذى الغزال وكثيرين غيره من الحاشية وكان نصر يسكن بالقرب من مقابر قرطبة، فقال يتوعده عذاب الله وجحيمه على ما قدّمت يداه:

أيا لا هيًا فى القَصْر قُرْبَ المقابرِ ... يَرى كلَّ يوم واردًا غير صادرِ
تراهم فتلْهو بالشّراب وبعضِ ما ... تَلَذُّ به من نَقْرِ تلك المَزَاهِرِ[1]
سترحلُ عن هذا وإنك قادمٌ ... - وما أنت فى شَكٍّ - على غير غافرِ

وكان الأمير عبد الرحمن ولّى ابنه عبد الله من حظيته طروب ولاية العهد، وأخذ فى سنة ٢٣٦ يفكر فى صرفها عنه إلى أخيه محمد لاستهتاره وانهماكه فى اللذات، فأغرت طروب نصرا أن يسقيه شربة سم حتى يعجله الموت عن تنفيذ فكرته، وصدع نصر لمشيئتها، ونبّه الأمير عبد الرحمن إلى ذلك، فشكا وعكة فى معدته، فأحضر له دواء، فأمره بشربه، ولم يستطع أن يعصى له أمرا، فشربه، ومات، فقال الغزال ملقّبا له بأبى الفتح ومتشفيا فيه من قصيدة طويلة:

أغْنَى أبا الفتح عما كانَ يأمُلُهُ ... حُفَيْرَةٌ حُفِرَتْ بين المقابيرِ
فصار فيها كأشقى العالمين وإنْ ... لُفُّوه بالنَّفْح فى مِسْكٍ وكافورِ

وأمر عبد الرحمن بإنزال زرياب مغنيه فى قصر نصر بعد موته، فنظم الغزال قصيدة يذكر فيها تقلب الدنيا بأهلها وأن نصرا قد ترك قصره إلى مسكن ليس عليه حجاب سوى التراب، ولم يأخذ معه من كل ما جمعه سوى كفنه أو كما يقول سوى ثلاثة أثواب. ولعل فيما أسلفنا ما يدل بوضوح على أن الغزال كان صاعقة من صواعق الهجاء المقذع الموجع فى زمنه.

---

(١) المزاهر جمع مزهر: العود.

السُّمَيْسِر[1]

هو خلف بن فرج الإلبيرى، من أعلام الشعراء فى زمن أمراء الطوائف، اشتهر بالشعر وخاصة إذا هجا وقدح، وكأنما تخصص بالقدح والهجو فى أهل زمنه، حتى ليكتب فى هجائهم كتابا فى مجلدات سماه «شفاء الأمراض فى أخذ الأعراض». وكانت كورته إلبيرة وعاصمتها غرناطة بيد الأمير عبد الله بن بلقين الصنهاجى منذ سنة ٤٦٧ وكان السميسر ينظر حوله، فيجد أمراء الطوائف غارقين فى ملاهيهم بين الكاس والطاس متنابذين متخاصمين، بينما أفواه ألفونس وملوك النصارى فاغرة تريد أن تلتقم بلدانهم، وإنهم ليرهبونهم حتى ليدفعون لهم الإتاوات، مما جعله يهتف بهم قائلا:

نادِ الملوكَ وقل لهم ماذا الذى أحدثتمُ
أسلمتُمُ الإسلام فى أسْرِ العِدا وقَعَدْتُمُ
وجَبَ القيامُ عليكمُ إذْ بالنَّصارى قمتمُ
لا تنكروا شَقَّ العَصَا فعَصَا النبىِّ شَقَقْتُمُ

فهو يدعو أهل الأندلس إلى الثورة - أو إلى القيام كما يقول - على أمرائهم الذين أحدثوا أحداثا منكرة مسلمين أموال البلاد إلى العدو، واضعين أيديهم فى يده، بل إنهم لَيَسْتَعْدون به بعضهم على بعض متخذين منه العون والنصير فى حكم إماراتهم، شاقين بذلك عصا الإسلام ورسوله. ويهتف بأمير غرناطة وقبيلته صنهاجة أن يتداركوا الأمر، ولكن لا حياة لمن ينادى، فعبد الله بن بلقين غارق فى تشييد قلعة يتحصَّن بها عند نزول كارثة فيقول فيه ساخرا:

يَبْنِى على نفسه سَفاهًا كأنه دودةُ الحريرِ

فهو - فى رأيه - كدودة القزّ لاتزال تنسج حولها معقلا لها وهو ليس معقلا بل عقالا تلفّه حولها وتموت فيه، ويكرر هتافه بالأمير وقبيلته، ولا سميع ولا مجيب، فيهجو صنهاجة والبرابر جميعا بمثل قوله:

---

(١) انظر فى ترجمة السميسر وشعره الذخيرة ٨٨٢/١ وما بعدها، ونفح الطيب ٢٢٧/٣، ٢٩١، ٤١٢، ١٠٨/٤ والحميدى ص ١٩٣ والخريدة ١٦٧/٢ والمطرب لابن دحية ص ٩٣ والمغرب ١٠٠/٢

رأيتُ آدم فى نَوْمى فقلتُ له ... أبا البريّة إنّ الناسَ قد حكموا
أنّ البرابرَ نَسْلٌ منك قال إذنْ ... حوّاءُ طالقةٌ إن كان ما زعموا

ولما كثر منه مثل هذا الهجاء الموجع المؤلم توعده الأمير عبد الله بسَفْك دمه، ففر إلى المعتصم بن صُمادح أمير المريّة مستجيرا به، فأجاره، وأقام عنده حتى استولى المرابطون على إمارته سنة ٤٨٤. وكان السميسر سيئ الظن بالناس سوءا شديدا، حتى لينشد:

رأيتُ بني آدمٍ ليس فى ... جموعهمُ منه إلا الصُّوَرْ
ولما رأيتُ جميعَ الأنامِ ... كذلك صِرْتُ كطيرٍ حَذِرْ
فمهما بدا منهمُ واحدٌ ... أقولُ أعوذُ بربِّ البَشَرْ

فقد أصبح من الناس جميعا مثل طير حذر لايزال يتلفت يمينا ويسارا خشية أن يقع فى شبكة من شباكهم رصدوها له، وإنه ليستعيذ منهم ومن شرهم بربه لاجئا إليه ضارعا. وعلى شاكلة ظنه السيئ بالناس ظنه بأهل صنعته من الشعراء إذ يقول فيهم:

أنا أحبّ الشعرَ لكنني ... أُبغِضُ أهلَ الشعرِ بالفِطْرَهْ
فلستَ تلقي رجلا شاعرًا ... إلا وفيه خَلّةٌ تُكْرَهْ
والعُجْبُ والنُّوكُ إلى الجهل فى ... أكثرهم إلا مَعَ النُّدْرَهْ

وطبيعى أن يعجب كل شاعر بشعره، أما النوك أو الحمق وكذلك الجهل اللذان يسجلهما على أكثرهم فمبالغ فى وصمهم بهما. ويعلن مرارا أنه هجر اللذات، ويبدو أنه هجرها بأخرة من حياته، مما جعله يكثر من أشعار طريفة فى الزهد والقناعة والحياة والموت.

اليَكّى[1]

هو أبو بكر يحيى بن سهل اليكى من قرية يكّة شمالى مُرْسِيَة، قال فيه الحجارى: «هو ابن رومى عصرنا وحُطيئة دهرنا، لا تجيد قريحته إلا فى الهجاء، ولا تنشط به فى غير ذلك من الأنحاء» عاش فى زمن المرابطين ولحق دولة الموحدين إلى أن توفى حوالى سنة ٥٦٠

---

(١) انظر فى ترجمة اليكى وشعره زاد المسافر لصفوان ص ٧٧ والمغرب ٢/٢٦٦ والخريدة ٣/٥٨٠ والضبى فى البغية ص ١٨٨.

وكان المرابطون يضعون اللثام على وجوههم، ولذلك سموا الملثمين، ونراه يعلل لاتخاذهم اللثام بمثل قوله:

لمّا حَوَوْا إحرازَ كلِّ فضيلةٍ غَلب الحيــاءُ عليهمُ فتلثّمــوا

فى مدحة بلغ بها غاية رضاهم، ثم عاد إليه طبعه وما فُطر عليه من الهجاء المقذع، فهجاهم وقدح فى أخلاقهم ولثامهم راميا لهم بالدناءة ونقص العفاف قائلا:

فى كلِّ مَنْ ربط اللِّثامَ دَناءةٌ ولـو أنه يَعْلُو على كَيْـوانِ[1]
لا تــطلُبَن مُــرابِــطًا ذا عفّــةٍ واطلبْ شعاعَ النار فى الغُدْرانِ

وفى نفس هذه المقطوعة ومقطوعة ثانية ما هو أكثر بذاءة، وكأنه نسي - كأندلسى - أن الملثمين هم الذين أنقذوا الأندلس من وقوعها فى براثن النصارى الشماليين، ولم تكن موقعتهم المظفرة بالزلّاقة التى سحقوهم فيها سحقا ببعيدة. وربما هجاهم بعد زوال دولتهم وقيام دولة الموحدين، غير أن ذلك لا يشفع - إن صح - له. وعلى شاكلته هجاؤه لأهل فاس بعد أن أكرموه بمثل قوله:

يا أهلَ فاسٍ لقد ساءتْ ضمائرُكم فــأصبحتْ فيكُمُ الآراءُ متّفِقــه
وربما اجتمعتْ فى بَعْضِ سادتكم نقائصٌ أصبحتْ فى الناس مُفْترقه

ويتمادى فى البذاءة بهذه المقطوعة ومقطوعات أخرى، وكأنما يحصى عيوب نفسه، وبالمثل ما أحصاه من خصالٍ عشرة ذميمة للفقيه وزوجته، وما وصم به قاضى بلدته: مرسية من جَوْره وأكله أموال اليتامى وأموال المساجد سرقة وغصبا، يقول:

يطالبه الأَيْتامُ فى جُلِّ مالهم ويطلبه فى حقِّه كلُّ مسجدِ[2]

والهجاء حين ينزل إلى هذا الدَّرْك أو إلى هذا المنحدر لا يصبح من الفن والشعر فى شىء، إذ يصبح سَبًّا وقذفا مذموما. وربما كان أخفَّ ما هجا به أهل فاس قوله:

قصــدتُ جِلَّةَ فــاسٍ أسترزقُ الله فيهمْ[3]
فمــا تيــسّــر منهم دفــعــتـــه لــمِــيــهِــم

---

(١) كيوان: كوكب زحل وهو كوكب نحس وشؤم.
(٢) جل: معظم.
(٣) جِلّة: أجلاء.

وإنما نقول إنه هجاء خفيف لأن فيه شيئا من الدعابة، إذ يقول إن ما يأخذه منهم من النوال بيمينه يدفعه لأبنائهم بيساره. ومن هجائه المقذع اللاذع قوله فى بعض مهجويه:

أَعِدِ الوضوءَ إذا نطقتَ بهِ   متذكِّرًا من قبلِ أن تنْسَى
واحفظْ ثيابك إن مررت به   فالظِّلُّ منه ينجِّس الشَّمْسَا

وكأنه يصفه بدنس لا يماثله دنس وقذارة لا تشبهها قذارة، وهو غلو فى الإقذاع والإيلام. وفى أهاجيه فحش كثير. وتردد ابن سعيد فى المغرب فى نسبة موشح له وقال إنه لابن المرينى ويروى لليكى مما يدل على أنه شارك فى نظم الموشحات.

على[1] بن حَزْمون

هو أبو الحسن على بن عبد الرحمن بن حزمون، من المَرِيَّة، يقول فيه ابن سعيد: «صاعقة من صواعق الهجاء» ويقول ابن عبد الملك المراكشى: «كان شاعرا مفلقا ذاكرا للآداب والتواريخ أحد بواقع[2] الدهر، بذىء اللسان مقذع الأهاجى». ومر بنا فى حديثنا عن شعراء المديح أنه كان أحد من مدحوا المنصور يعقوب الموحدى بعد قفوله من غزوة الأَرَك المظفرة سنة ٥٩١ وقد وقعت قصيدته من المنصور موقع استحسان، وأنشدنا منها قطعة هناك. ويذكر ابن عبد الملك المراكشى أنه وفد على المستنصر الموحدى (٦١٠ - ٦٢٠ هـ) بمراكش مادحا له ومتظلما من واليه المجريطى على مرسية لضربه بالسياط لما بلغه من هجائه له، وتبرأ للمستنصر مما نُسب إليه من ذلك، فأمر بتمكينه من الوالى وتحكيمه فيه حتى ينتصف منه، غير أن ابن حزمون لم يكد يصل إلى الأندلس حتى توفى المستنصر فلم يتم له أمله من القصاص من الوالى واشتدّ أسفه. ويبدو أنه عاش فترة غير قصيرة بعد وفاة المستنصر. وله مرثية رائعة لقائد الأعنة بمرسية سنعرض لها فى غير هذا الموضع، وجرَّه هجاؤه إلى التعرض لأحد قواد الأندلس، واسمه محمد بن عيسى، بهجاء لاذع، زاعما أنه فرَّ فى إحدى المواقع مع النصارى قائلا:

يودُّ بأن لو كان فى بَطْنِ أمِّهِ   جَنِينًا ولم يسمع حديثًا عن الغَزْوِ

---

(١) انظر فى ترجمة ابن حزمون وشعره المعجب ص ٣٧٠ وما بعدها وزاد المسافر ص ٦٤ والمغرب ٢/٢١٤ وما بعدها وأزهار الرياض ٢/٢١١.

(٢) بواقع جمع باقعة: داهية.

ثقيلٌ ولكنْ عقلُه مثلُ ريشةٍ تطيرُ بها الأَرْوَاحُ فى مَهْمَهٍ دَوِّ(١)
تميل بشِدْقَيْه إلى الأرض لِحْيَةٌ تظنُّ بها ماءً يفرِّغ من دَلْوِ
وقد حدَّثوا عنه بكلِّ نقيصةٍ ولكنَّ مثلى لا يروِّى ولا يَرْوِى

وهو تجنٍّ على هذا القائد الذى كان مشهورا فى قومه بالشجاعة والنجدة، ويبدو أنه بدر منه ما أسخطه عليه، فمضى يصفه بالجبن، وهو برىء منه، وبثقل الروح وخفة العقل وضخم اللحية التى لا تزال تميل بشدقيه السائلين إلى الأرض. وهى مبالغة فى هجاء مقذع كان حريا به أن ينحيه عن مثل هذا الفارس الشجاع. وحين وفد على المستنصر رأى أن يلتقى بالوزير الموحدى أبى سعيد بن جامع، فقصد داره وكان لها بابان، فوقف بأحدهما ينتظر لقاءه، فقيل له إنه خرج من الباب الآخر، فأنشد:

نعوذُ بالله من وَجْدٍ ومن بَيْنٍ ومن وقوفٍ على دارٍ ببابين
ومن زيارةِ أرباب بلا عَدَدٍ لا يملكون حياتى لا ولاَ حَيْنى(٢)
إنى وجدتهمُ لماَّ رَجَوْتُهم كالرِّيحِ تطلبها ما بين كَفَّيْنِ

وكان أبو سعيد بن جامع أديبا وغيثا مدرارا وممدَّحا للشعراء، ولكنها نزعة الهجاء فى ابن حزمون إذ جعلته يهجو متسرعا لأول بادرة ممن يستحقون منه المديح والإطراء. وبلغ من تعلقه بهذا الفن أن هجا نفسه، وكأنما أراد أن يقتصَّ منها لكل من رماه بسهام هجائه، فقال:

تأمَّلتُ فى المرآة وَجْهِي فخِلْتُهُ كوجه عجوزٍ قد أشارتْ إلى اللَّهْوِ
إذا شئتَ أنْ تهجو تأمَّلْ خَلِيقَتِي فإنَّ بها ما قد أردتَ من الهَجْوِ
كأنَّ على الأَزْرار منىَ عَوْرَةً تنادى الوَرَى غُضُّوا ولا تنظروا نَحْوِى
فلو كنتُ مما تنبتُ الأرضُ لم أكُنْ من الرَّائقِ الباهى ولا الطَّيِّبِ الحُلْوِ

وفى الحق أنه كانت فى ابن حزمون مرارة كثيرة، وربما كانت هى التى دفعته إلى أن يسلك طريقة ابن حجاج البغدادى الماجنة المفحشة فى كثير من شعره. وكان وشاحا مجيدا ودفعته نزعته الماجنة إلى أن لا يدع موشحة تجرى على ألسنة الناس - كما يقول صاحب المعجب - إلا نظم فى عروضها ورويها موشحة ماجنة مكثرا فيها من الفحش. وينهى المراكشى حديثه عنه بقوله: «ونال ابن حزمون عند قضاة المغرب وعماله وولاته جاها وثروة خوفا من لسانه» وبعبارة أخرى خوفا من هجائه البذىء المقذع.

---

(١) الأرواح: الرياح. مهمه: مفازة. دَوّ: واسع. (٢) حين: هلاكى وموتى.

٥

الشعراء والشعر التعليمى

ذكرنا فى كتاب العصر[١] العباسى الأول أن رقى الحياة العقلية فى هذا العصر دفع الشعراء إلى استحداث فن الشعر التعليمى، وكان من أوائل السابقين إليه أبان بن عبد الحميد فترجم كتاب كليلة ودمنة عن الفارسية إلى العربية فى ١٤ ألف بيت من الشعر المزدوج المؤلف من وزن الرجز، وفيه تختلف القافية من بيت إلى بيت بينما تتحد فى الشطرين المتقابلين. وبجانب ترجمته لكليلة ودمنة فى هذا الفن الجديد نظم مزدوجات طويلة فى تاريخ ملوك الفرس وفى الفقه وأحكام الصوم والزكاة. وممن نظم فى هذا الفن الجديد محمد بن إبراهيم الفزارى، إذ نظم فى علم الفلك مزدوجة طويلة استغرقت عشرة مجلدات، ونظم الأصمعى فيه قصيدة فى ذكر الملوك والجبابرة الهالكين والأمم البائدة، وكان بشر بن المعتمر يكثر من النظم فى هذا الفن التعليمى، وساق الجاحظ له فيه بكتابه الحيوان قصيدتين طويلتين تحدث فيهما عن الحشرات وأصناف الحيوان، ولعلى بن الجهم منظومة تاريخية تحدث فيها عن بدء الخليقة والأنبياء والإسلام والخلفاء حتى سنة ٢٤٨ للهجرة.

ومن أوائل شعراء الأندلس الذين حاكوا العباسيين فى هذا الفن الجديد – إن لم يكن أولهم السابق إليه – الشاعر يحيى الغزال الذى مرت ترجمته بين شعراء الهجاء، إذ نظم فى فتح الأندلس أرجوزة طويلة ذكر فيها السبب فى غزوها وتفصيل الوقائع بين الفاتحين من المسلمين وأهلها وعدد أمرائها وأسماءهم مستقصيا محسنا[٢]. ونلتقى بعده بتمام بن عامر وزير الأمير محمد وابنيه المنذر ثم عبدالله إلى أن توفى فى حدود سنة ٢٨٠ ويقول ابن الأبار: له الأرجوزة المشهورة فى ذكر افتتاح الأندلس وتسمية ولاتها والأمراء فيها ووصف حروبها من وقت دخول طارق بن زياد مفتتحها إلى آخر أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم[٣]، ويقول ابن حيان إنها تشتمل على كتاب ضخم[٤] وفى ذلك ما يؤكد أنها كانت مفرطة فى الطول.

---

(١) العصر العباسى الأول ص ١٩٠ وما بعدها
(٢) نفح الطيب ١/٢٨٢.
(٣) الحلة السيراء تحقيق د. حسين مؤنس (طبع القاهرة) ١/١٤٤.
(٤) المقتبس تحقيق الدكتور محمود مكى (نشر دار الكتاب العربى بلبنان) ص ١٧٩.

وإذا استمررنا فى تتبع الشعر التاريخى التعليمى وأراجيزه التقينا بأرجوزة[١] ابن عبد ربه التى سجّل فيها انتصارات عبد الرحمن الناصر من سنة ٣٠٠ إلى سنة ٣٢٢ موزعا لأبياته فيها على تلك السنوات وهى فى نحو ٤٥٠ بيتا، وقد استهلها بقوله:

سبحانَ مَنْ لم تَحْوِهِ أقطارُ ... ولم تكنْ تدركُه الأبصارُ
ومَنْ عَنَتْ لوجهه الوجوهُ ... فما له نِدٌّ ولا شَبِيهُ

ومضى يصف الله ببعض صفاته القدسية حامدا له على آلائه التى أسبغها على الأندلس، ويشيد بعبد الرحمن الناصر وانتصاراته الباهرة وجمعه لعقد الأندلس بعد أن كانت حَبَّاته قد تناثرت وعمَّت الفتن فى كل الأنحاء وكثر الثوار فى كل مكان، وإذا عبد الرحمن بغزواته المتوالية سنويا يعيد إلى الأندلس وحدتها ويقضى قضاء مبرما على الثوار والمرَّاق ويأخذ فى منازلة نصارى الشمال حتى يلقوا له عن يَدٍ وهم صاغرون، ونكتفى من أرجوزة ابن عبد ربه بالوقوف عند غزوة[٢] السنة الأولى من غزوات الناصر وهى سنة ثلاثمائة، وكان قد أعدَّ جيشا ضخما خرج به من قرطبة فى السابع من شهر رمضان فى تلك السنة، وبدأ بثوار كورة جيَّان واتجه إلى حصن المنتِلون وثائره سعيد بن هذيل ونازله واستسلم ولاذ بالأمان، ورحل إلى حصن شمنتان وثائره عبيدالله بن الشاليه، فبادر بالاستسلام متنازلا له عن جميع معاقله وحصونه وكانت تقارب المائة، ورحل إلى الحصون التى كانت موالية لعمر بن حفصون فى جيَّان ثم فى البُشَرَّات وافتتحها جميعا، ثم تقدم إلى ما كان بيد ابن حفصون فى إقليم إلبيرة من الحصون فافتتح أكثرها ولم يدع فيها مخالفا. ورأى أن يريح جيشه وكان قد فتح سبعين حصنا من أمهات الحصون سوى حصون وبروج ومعاقل تبلغ نحو الثلاثمائة، وهى فتوح لم يسمع بمثلها – كما يقول ابن حيان – لملك واحد من ملوك الأرض فى غزوة واحدة، وقفل منها عائدا إلى عاصمته قرطبة بعد ثلاثة أشهر وأيام، وفيها يقول ابن عبد ربه فى أرجوزته مشيدا بالناصر وما أذاق الثائرين من بأسه واستسلامهم له صاغرين خانعين:

وجَمَّعِ العُدَّةَ والعَديدا ... وكتَّف الأجنادَ والحُشودا
ثم انتحَى جيَّانَ فى غَزاتِهِ ... بِعَسْكر يَسْعَرُ من حُماتِهِ[٣]

---

(١) انظر الأرجوزة فى العقد الفريد ٤/٥٠٠ وما بعدها.

(٢) راجع هذه الغزوة فى الجزء الخامس من المقتبس ص ٥٨ وما بعدها.

(٣) يسعر: يتقد. حماة: جمع حام.

فأذعنتْ مُرَّاقُها سِراعا وأقبلَتْ حُصونها تَداعي
وافتتح الحصونَ حِصْنًا حِصْنا وأوسع الناسَ جميعًا أَمْنا
ثم انتحى من فَوْرِه إلبيره وهْىَ بكل آفةٍ مَشْهوره
ولم يَدَعْ من جِنِّها مَرِيدا[1] بها ولا من إنسها عَنِيدا
إلا كساهُ الذُّلَّ والصَّغَارا وعَمَّه وأهلَه دمارا
وانصرف الأميرُ من غَزَاتِهِ وقد شفاه الله من عُدَاتِهِ

والأبيات ليس فيها الحرارة التى ينبغى أن تموج بها إزاء هذه الغزوة التى ليس لها مثيل فى تاريخ الأندلس. وربما كان ذلك بسبب أنها صيغت فى أرجوزة من الشعر التاريخى التعليمى الذى تفتر فيه الحرارة ويصبح أشبه بالسرد منه بالشعر الغنائى المتوهج حرارة. ولابن عبد ربه مدائح كثيرة فى الناصر تشتعل فيها الحماسة، بل فى نفس هذه الغزوة إذ ينشد ابن حيان له فيها قوله فى مدحه للناصر[2]:

فى نصف شَهْرٍ تركتَ الأرض ساكنةً من بعد ما كان فيها الجَوْرُ قد ماجا
لما رأوا حَوْمَةَ الشَّاهين فوقهمُ كانوا بُغَاثًا حواليها ودُرَّاجا[3]

ويقول فى وصف عدله فى رعيته:

أحيا لنا العدلَ بعد مِيتَتِهِ وردَّ روح الحياة فى جَسَدِهْ

ونلتقى فى عصر المرابطين بأهم ناظم للشعر التعليمى التاريخى، ونقصد أباطالب عبدالجبار الملقب بالمتنبى، وسنفرده بكلمة عما قليل، وكان يعاصره ابن أبى الخصال الكاتب المشهور وله قصيدة فى نسب الرسول ﷺ سماها «معراج المناقب». وأهم من نظموا بعده فى هذا اللون التاريخى من الشعر لسان الدين بن الخطيب الذى ستأتى ترجمته فى الفصل الخامس، فله فيه أرجوزة طويلة سماها «رَقْم الحلل فى نظم الدول» وهى تاريخ شعرى للدول الإسلامية، عرض فيها بإيجاز الخلفاء الراشدين فالأمويين فالعباسيين فبنى الأغلب بإفريقيا فالعبيديين (الفاطميين) فبنى أمية بالأندلس فأمراء الطوائف فالمرابطين فالموحدين فبنى نصر بغرناطة وبنى مرين بإفريقيا، وطُبع جزء من هذه الأرجوزة بتونس بأخرة من القرن الماضى، ويسوق ابن الخطيب فى تضاعيفها نثرا لتوضيح الأبيات. وفى كتابه «الإحاطة» اقتباسات منها كثيرة. من ذلك عرضه لتاريخ الحكم الربضى وما كان

---

(١) مريدا: خبيثا شريرا.

(٢) الجزء الخامس من المقتبس ص٦٢.

(٣) الشاهين: من جوارح الطير وسباعها. البغاث والدراج: طائران صغيران والاستعارة واضحة.

من ثورة الفقهاء وأهل الربض عليه وسفكه لدماء كثيرين وهدمه لدورهم وقضائه السريع على الثورة مع رباطة جأشه فى حينها رباطة أذهلت من كانوا محيطين به، وكان من شدة الجبروت بحيث لم يرع لأحد فى الثورة عليه عهدا ولا ذمة. يقول لسان الدين مشيرا إلى توليه الحكم بعد وفاة أبيه هشام[١]:

حتى إذا الدهرُ عليه احتكما قام بها ابنُه المسمَّى الحكَما
واستشعرَ الثورةِ فيهـا وانقبضْ مستوحشا كاللَّيْث أقْعَى وَرَبَضْ[٢]
حتى إذا فُرْصَتُه لاحتْ نَفَضْ فأفحشَ الوقعةَ فِى أهل الرَّبَضْ
وكـان جبَّـارا بعيـدَ الهمـةِ لم يَرْعَ من إلٍّ بها أو ذِمَّةْ[٣]

وإذا تركنا التاريخ وشعره التعليمى إلى العلوم الدينية واللغوية قابلتنا كثرة من الأراجيز والقصائد العلمية، وهى أكثر من أن تحصى فى الأندلس أو تستقصى، إذ لم يكادوا يتركون علما دون أن ينظموا فيه أراجيز أو قصائد مطولة، وطائفة منها ذاعت شهرتها فى العالم العربى وكتبت عليها شروح كثيرة وأصبحت محور الدراسة فى العلم الذى نظمته مهما شرقنا أو غربنا فى البلدان العربية والإسلامية، من ذلك منظومة القاسم بين فِيرُّه الشاطبى الذى مر ذكره بين القرَّاء فى الفصل الثانى، وقد سماها - كما مر بنا - حرز الأمانى ووجه التهانى فى القراءات، واشتهرت باسم الشاطبية نسبةً إليه، وعدَّتها -كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع- ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتا، وقد شرحت مرارا، شرحها العلم السخاوى وغيره، وظلت المرجع الأساسى للقراء منذ عِصر الشاطبى إلى اليوم. وذكرنا معه من القراء أبا حيان الغرناطى وقلنا هناك إن له فى القراءات منظومة فى ألف بيت وأربعة وأربعين وقد سماها: «عقد اللآلى فى القراءات السبع العوالى»، ويقول ابن حجر إنها أخصر وأكثر فوائد من الشاطبية غير أنها لم ترزق حظها[٤] من الشهرة والذيوع. ودوَّت شهرة ابن عبد البر حافظ الأندلس وإمام مذهبها المالكى لعصر أمراء الطوائف بكتاب نفيس فى الفقه والحديث ألفه على هدى كتاب الموطَّأ لمالك وسمَّاه: «التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد» ويقول ابن حزم - كما مر بنا - «لا أعلم فى الكلام على فقه الحديث مثله أصلا» ولعل ذلك ما جعل الشاطبى ينظم قصيدة فى

(١) الإحاطة ٤٨٢/١
(٢) الليث: الأسد. أقعى: جلس على إليتيه ونصب ساقيه وفخذيه. ربض: طوى قوائمه ولصق بالأرض.
(٣) إل بتشديد اللام: عهد.
(٤) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٧٣/٥.

خمسمائة بيت تحيط علما بهذا الكتاب إحاطة دقيقة، غير أنها لم ترزق حظ أختها الشاطبية. ويلقانا غير عالم أندلسى حتى آخر أيام العروبة هناك يؤلف أراجيز ومنظومات فى العلوم الدينية المختلفة على نحو ما يلقانا عند أبى بكر بن عاصم المتوفى سنة ٨٢٩ تلميذ لسان الدين بن الخطيب وله فى القراءات[1] منظومة باسم «إيضاح المعانى فى القراءات الثمانى» ومنظومة ثانية فى علم الفرائض (الميراث) باسم: «كنز المفاوض فى علم الفرائض» ومنظومة ثالثة فى علم الأصول باسم: «مهيع الوصول إلى علم الأصول» وله فى الفقه المالكى أرجوزة فى نحو ١٦٩٠ بيتا نشرت فى باريس منذ القرن الماضى وكانت تدرس فى جامعة فاس إلى عهد قريب. وكثيرا ما كانوا ينظمون قصائد ومقطوعات لضبط بعض المسائل المتصلة بالقرآن أو بالقراءات أو بالفقه وأحكامه على نحو ما نجد فى رائية[2] أبى الحسن بن الحصار، وهى اثنان وعشرون بيتا فى بيان المدنى والمكى من سور الذكر الحكيم، وذكر فيها أن المدنى باتفاق عشرون سورة والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة وما عدا ذلك فمكى.

وكان طبيعيا أن تشارك الأندلس المشرق فى نظمه لفنون البيان والبديع، وابن المعتز هو أول من جمع بينها فى كتابه «البديع» إذ أحصى فيه ثمانية عشر محسّنا وضم إليها صور البيان الأساسية وهى الاستعارة والتشبيه والكناية، وأخذت الحقب التالية تضيف إلى محسناته محسّنات جديدة إلى أن بلغ بها ابن أبى الإصبع المصرى مائة واثنين وعشرين محسنا. وتأخذ فى الظهور منذ على بن عثمان الإربلى المتوفى سنة ٦٧٠ منظومات البديعيات[3]، وهى منظومات يتضمن كل بيت فيها محسنا من محسنات البديع والبيان، حتى إذا كان صفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ رأيناه ينظم بديعيه من وزن البسيط فى ١٤٥ بيتا موضوعها مديح الرسول صلى الله عليه وسلم، وكل بيت فيها يتضمن محسنا من محسنات البديع، وبلغت المحسنات فيها مائة وخمسين. ونرى معاصره أبا حيان الغرناطى ينظم قصيدة فى علمى البديع والبيان، ويبدو أنه لم يتجه بها وجهة الحلى والإربلى فى أن يجعل من كل بيت إشارة إلى لون معين من ألوان البيان والبديع، ولذلك لم يعد العلماء له هذا العمل بين قصائد البديعيات. وأول أندلسى أسهم فى تلك القصائد ابن جابر الوادى آشى المترجم له بين شعراء المديح النبوى، إذ نظم بديعية من بحر البسيط

---

(١) انظر فى أسماء هذه المنظومات لابن عاصم النفح ٥/١٩.

(٢) راجع الذيل والتكملة للمراكشى: القسم الأول من السفر الثامن ص ٢١٠.

(٣) انظر كتابنا البلاغة: تطور وتاريخ ص ٣٥٨ وما بعدها.

فى مائة وسبعة وعشرين بيتا وجعل موضوعها مديح الرسول صلى الله عليه وسلم وسماها: «الحلة السِّيَرا فى مدح خير الورى» واستهلها بقوله:

بِطَيْبَةَ انْزِلْ ويَمِّمْ سيِّدَ الأممِ وانْثُرْ له المدحَ وانْشُرْ أطيبَ الكَلِمِ[1]

وسرعان ما شرحها مواطنه ومعاصره أبو جعفر الرُّعينى، ويقول فى مقدمته لها إن ابن جابر اتبع فى سرد المحسنات البديعية الخطيب القزوينى فى كتابيه الإيضاح والتلخيص، ولعل ذلك ما جعله يكتفى فيها بنحو ستين محسنا.

ولعل الأندلس لم تكثر من النظم فى علوم كما أكثرت من نظم علوم النحو والتصريف واللغة، ويكفى أن نرجع إلى ترجمة ابن مالك الطائى الجيَّانى المتوفى سنة ٦٧٢ بدمشق، ويعد أشهر نحاة القرون العربية المتأخرة لا فى الأندلس فحسب بل فى العالم العربى جميعه، وكان نظم الشعر التعليمى سهلا عليه سهولة مفرطة مع التعبير الناصع عن أدق الدقائق فى النحو والصرف واللغة، وتشهد بذلك كثرة أراجيزه ومنظوماته فيها المصوغة صياغة بديعة، وفى مقدمتها نظمه المفصل للزمخشرى فى النحو باسم «الموَصِّل فى نظم المفصل» ومنظومته المطولة «الكافية الشافية» فى النحو، وتقرب من ثلاثة آلاف بيت، وله فى الصرف منظومة لامية فى أبنية الأفعال باسم «المفتاح أو اللاميات» وهى فى مائة وأربعة عشر بيتا من وزن البسيط، ومنظومة ثانية فى ٤٩ بيتا من وزن الكامل ضمنها الأفعال الثلاثية المعتلة بالواو أو الياء احتفظ بها السيوطى فى الجزء الثانى من كتابه المزهر. وله فى اللغة منظومة واوية فى ١٦٢ بيتا سماها «تحفة المودود فى المقصور والممدود» وهى تتضمن الألفاظ التى تنتهى بألف مقصورة أو ممدودة مع اختلاف معانيها وقد طبعت فى القاهرة مع شرح موجز لها، ومنظومة ثانية فى ٦٢ بيتا من وزن البسيط سماها: «الاعتداد فى الفرق بين الزاى والصاد» ضمنها الكلمات المتماثلة التى تنتهى بهما. وأهم منظوماته جميعا الألفية فى النحو والصرف وهى أرجوزة فى ألف بيت اختصر فيها أرجوزته الكبرى الكافية الشافية، وقد رزقت من الشهرة ومن المدارسة وإكباب الشيوخ والطلاب عليها فى جميع البلاد العربية منذ تأليفها إلى اليوم ما لم ترزقه أى منظومة أخرى فى النحو والصرف واللغة، ومن أجل ذلك كثرت شروحها وحواشيها مثل شرح الأشمونى وحاشية الصبان عليه وشرح ابن عقيل وحاشية الخضرى عليه. ولحازم القرطاجنى المتوفى سنة ٦٨٤

---

(١) طيبة: المدينة. يمم: اقصد.

منظومة نحوية تضمنها ديوانه وسنعرض لها فى حديثنا عنه عما قليل، ولأبى حيان المتوفى سنة ٧٤٥ أرجوزة فى النحو سماها «غاية[١] الإغراب فى علمى التصريف والإعراب» أى النحو، ولم تحظ -كأرجوزته فى القراءات- بشىء من الشهرة، وبالمثل الأراجيز النحوية التى نظمت بعد عصره، إذ سلبتها الشهرة جميعا ألفية ابن مالك. ويذكر ابن حجر فى كتابه الدرر أن ابن جابر الوادى آشى نظم كتاب فصيح ثعلب فى اللغة.

وكان قد شاع نمط لغوى من وزن الرجز يتضمن كثيرا من الألفاظ المقصورة الشائعة والمهجورة بغرض أخذ المتأدبين بمعرفتها وحفظها، وبدأ ذلك ابن دُرَيْد فى القرن الرابع بمقصورته التى تقع فى نحو مائتين وخمسين بيتا من الشعر والتى مدح بها عبد الله بن محمد ابن ميكال والى الأهواز وابنه. وأخذ بعض الشعراء فى المشرق يحاكونه بصنع مقصورات مماثلة لمقصورته غير أنه ظل لمقصورته القدح المعلى فى عناية الشعراء بها وفى تخميس بعضهم لها. ونجد شعراء الأندلس - وخاصة منذ القرن السادس - يحاولون محاكاته فى هذا اللون من الشعر التعليمى اللغوى، ونذكر منهم على بن حريق المخزومى، إذ ذكر المراكشى أن له مقصورة[٢] عارض بها ابن دريد، وأضاف أن له أرجوزة لغوية بديعة عارض بها أرجوزة لغوية لابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨ وذكر المراكشى أن لمعاصره عامر بن هشام المتوفى سنة ٦٢٣ مقصورة[٣] جعلها فى ثلاثة أقسام: الأول فى الزهد والتضرع إلى الله واستغفاره، والثانى فى الحديث النبوى: بُنِى الإسلام على خمس، والثالث فى الشكوى من الزمان والإخوان ورثاء أبى محمد عبد الله بن أبى حفص بن عبد المؤمن، وعدتها نحو مائة وخمسة وستين بيتا أنشأها لابن أخيه وشرحها له شرحا مفيدا. ولحازم القرطاجنى مقصورة نالت حظا من الشهرة وسنلم بها فى حديثنا عنه وموضوعها مديح المستنصر صاحب تونس. وبدأ بالمقصورة ابن جابر الوادى آشى موضوعا جديدا هو مديح الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد أنشدها المقرى فى النفح[٤] مسميا لها باسم المقصورة الفريدة، وهى فى أكثر من ثلاثمائة بيت من وزن الرجز، وجعل لقافية كل حرف من حروف الهجاء فيها عشرة أبيات وتلى الحرف دائما الألف المقصورة واستهلها بالنسيب على العادة التى شاعت فى قصائد المدح النبوى، مع تضمينها بعض

---

(١) ذكرها أبو حيان فى كتابه منهج السالك فى الكلام على ألفية ابن مالك ص٤٥.

(٢) الذيل والتكملة: القسم الأول من السفر الخامس ص٢٧٦.

(٣) نفس المصدر ص١٠٧.

(٤) راجع نفح الطيب ٣٠٦/٧.

الحكم الطريفة والإفاضة فى سيرة الرسول العطرة وذكر بعض معجزاته الخارقة والتنويه بمراجه إلى السماء وقُرْب جبريل منه، وازدياده قربا حتى كان منه قابَ قوسين أو أدنى وكيف أن الله ارتضاه للأمة رسولا هاديا منذ نشأة الخليقة. ومع أن المقصورة تكتظ فى قوافى أبياتها بالألفاظ الغريبة تشيع فيها السهولة مع حسن الأداء، إذ كان شاعرا بارعا. وحرى بنا أن نخص كلا من أبى طالب عبد الجبار وحازم القرطاجنى بكلمة.

أبو[1] طالب عبد الجبار

لم تُعْنَ كتب التراجم الأندلسية بإعطائنا معلومات وافية عن حياة أبى طالب عبد الجبار، وحقا عُنى ابن بسام بالترجمة له وإنشاد أرجوزته التاريخية كاملة، غير أنه اكتفى بقوله إنه من أهل جزيرة شُقْر بين شاطبة وبلنسية، ونهرها يحيط بها من جميع جهاتها. وهو بذلك يشترك مع ابن خفاجة شاعر الطبيعة فى مسقط رأسه. ويقول ابن بسام إنه كان يُعْرَف بلقب المتنبى، ويضيف أنه كان «أبرع أهل وقته أدبا، وأعجبهم مذهبا، وأكثرهم تفننا فى العلوم، وأوسعهم ذَرْعا (طاقة) بالإجادة فى المنثور والمنظوم». ويذكر أنه كان يسرف فى المجون، وأنشد له خمرية اقتطفنا منها أبياتا فى الفصل التالى، ويقول إنه كان قانعا بما يسدّ حاجته من العيش، فلم يمدح أميرا ولا غير أمير بشعره، وينوه بأرجوزته التاريخية، ويقول إنها تدل على رسوخ قدمه فى العلم والمعرفة. وتدل مقدمته لها على أنه قدمها إلى أحد الرؤساء، ونظن ظنا أنه أحد ولاة دولة المرابطين على شرقى الأندلس. ولا يذكر لنا ابن بسام شيئا عن الحقبة التى عاش فيها، غير أنه أرخ فى أرجوزته ليوسف بن تاشفين سلطان المرابطين وذكر عقبه ابنه عليا السلطان بعده (٥٠٠ - ٥٣٧ هـ) وانه يقتفيه ويهتدى به فى حكمه، مما جعل العماد الأصبهانى يستنتج فى ترجمته له أنه عاش بعد سنة خمسمائة أى بعد السنة الأولى من حكم على، ومن يرجع إلى أرجوزته وحديثه فيها عن الخلفاء العباسيين يلاحظ أنه ختمهم بالخليفة المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩ هـ) قائلا عنه:

وهْوَ إلى الآنَ إمامُ الخَلْقِ ... والملكُ لله الإلـهِ الحقِّ

وفى قوله): «إلى الآن» ما يدل على أنه عاش فترة فى مدة حكمة، قد تكون سبع سنوات أو أقل أو أكثر.

---

(١) انظر فى ترجمة أبى طالب عبد الجبار الذخيرة ٢١٠/٢ وما بعدها والمغرب ٣٧١/٢ وما بعدها. ٩١٦/١ - ٩٤٤ والخريدة للعماد الأصبهانى

والأرجوزة فى أربعمائة وخمسين بيتا، وقد وضع بين يديها مقدمة نثرية ذكر فيها أنه قدمها - كما أسلفنا - إلى أحد الرؤساء قاصدا بها استمناحه ونواله، ويصفه بأنه غيث مدرار وبحر فياض بالجود والكرم، ثم يذكر أنه رجع فى أرجوزته إلى كتب التاريخ قاطفا عيون زهرها وملتقطا مكنون دررها، مع الإجمال والإيجاز. ويقول إنه ذكر فى فاتحتها مقدمات من أصول الاعتقادات، ويبدؤها باسم الله والصلاة على رسوله وآله الطيبين، ويأخذ فى حمد الله مبتدع السماء والأرض والبريّة ابتداعَ خالق مهيمن منفرد بوحدانيته منزّه عن قول جَهْم بن صَفْوان وغيره من المجسّمة، ويدعو إلى التأمل فى ملكوت العالم وتدبيره وإحكام خلقه وأيضا إلى التأمل فى خلق الإنسان وأطواره وما وهبه الله من الحواس والحياة والرزق إلى الممات والعقل والعلم بالقلم علم التاريخ وغيره من العلوم. وينتقل من حمد الله وإبداعه للكون والإنسان إلى الاستدلال على أنه الصانع للكون فكل ما فى الكون أجسام، والأجسام لا تصنع الأجسام، بل لابد من صانع هو الذات العلية، وينشد:

أُفٍّ لقـول الفِئـةِ البَصْـرِيَّـهْ　　أهلِ الهوى والفِرْقة الغَوِيّهْ
واحذَرْ هداك الله ياذا الفَهْم　　قـولَهُمْ واحذرْ مقـالَ جَهْمِ
وقُـلْ بما يقـولُ أهلُ الحقِّ　　من مُثبتى صفاتِ ربِّ الخلقِ

وهو يريد بالفئة البصرية المعتزلة ويشتد به الضجر من قولهم بأن صفات الله ليست زائدة عن الذات الربانية كما يشتد به الضجر من جهم وأنداده المجسمة، ويعلن أنه يقول بما يقول به أهل الحق، يريد أهل السنة ممن يثبتون له صفاته القدسية، ولعله كان يدين بعقيدة الأشعرية أتباع أبى الحسن الأشعرى. ويقول إنه يؤمن - بجانب العقل - بالنقل المتواتر للأخبار الذى ينقله الجم الغفير عن الجم الغفير أو الجماهير عن الجماهير، وهو بذلك سنى أو قل أشعرى، ولا يلبث أن يحدثنا عن الجوهر والعرض، مما يؤكد صلته بالفلسفة، يقول:

وكلُّ شىء جَوْهَرٌ أو عَرَضُ　　إلا الذى الطَّوْعُ له مُفْتَرَضُ
فإن فحصتَ قائلا ما الجوهرُ　　وما هو العَرَضُ إذ يُفَسَّرُ
فالجوهرُ الحاملُ للأعـراض　　وَهْو الذى ليسَ بِذِى أبعاض
والعَرَضُ المحمول كالألوانِ　　وحـركاتِ الجِـرْمِ والإسْكان

فكل ما فى الكون إما جوهر وإما عرض إلا رب البرية فإنه لا جوهر ولا عرض إذ

هو منزّه عن التجسيم وعن كل ما يتصل بالتجسيم. والجوهر - ويريد الجوهر الفرد - لا يتجزأ، والعرض لاحق به إذ يحمله كالألوان ويلابسه بملابسة الحركة والسكون. وينتقل إلى مقدمة ثالثة فى بيان العلم ويوصى بأن يعرف الإنسان فرق ما بين المعلوم والموهوم وأن لا يهمل العقل ويأخذ بالتقليد، ويتخذ العلم للعلم لا للمباهاة به ولا لغلبة الخصوم، ويعرِّفه بأنه معرفة الشيء على ما هو به، ثم يتحدث عن أنواع العلم قائلا:

العلمُ علمانِ أيا مَنْ يبحثُ ... علمٌ قديمٌ ثم علم مُحْدَثُ
إن القديمَ علمُ ربِّ العرشِ ... بارى البريَّة الشديدِ البَطْش
ومُحْـدَثٌ فذاك علمُ الخَلْقِ ... من ناطقٍ وغيرِ ما ذى نُطْقِ
وكل علمِ محدثٍ عِلْمانِ ... علمٌ ضروريٌّ بلا برهانِ
وبعده فعلمُ الاستدلالِ ... والمنطقُ الباحث عن أحوال

فالعلم علمان: علم قديم أزلى خاصٌّ بالذات العلية وعلم محدث هو علم الخلق من ناطق وغير ناطق، ثم العلم المحدث علمان أو قسمان: علم ضرورى بدون برهان وهو البديهيات كالعلم بأن اثنين ضعف الواحد وعلم يقوم على الاستدلال والمنطق وبراهينه ومقدماته الصحيحة. ويستمر قائلاً: إن صانع العالم فرد صمد لا شريك له. وينْعَى على النصارى قولهم بالتثليث، واعتقادهم مع اليهود فى الذات العلية بالتجسيم، ويقول: جَلَّ جلاله عن شريك وأن يكون جسما له حد وانتهاء. ويتحدث فى مقدمة رابعة عن التفكر فى ملكوت السموات والأرض، ويقول إن كل ما فى الأرض من نبات وحيوان يدل على أن له صانعا يدبِّره، وكذلك النجوم والبروج، فجميعها شواهد ناطقة بوحدانية الصانع، ويذكر أن النفس ليس لها إرادة وأنها تنقاد لقوة العقل إذ هو أعلى رتبة وأشرف، ومع ذلك قد تلحقه الآفات من غيره أو من ذاته، فدلَّ ذلك على أن ربًّا فوقه هو الكمال المطلق الذى ليس له نهاية تحدده. وفى مقدمة خامسة يتحدث عن بدء الخليقة وخلق البرية مهتديًا بأضواء من الذكر الحكيم منشدا:

قد خلقَ اللّهُ السمواتِ العُلا ... كما عَنِ الرَّسولِ فى الذِّكْرِ تَلا
أخرجَ من ماءٍ دُخانا فسَما ... ثم دَحَا الأرضَ ليَبْلُوَ الأُمَما
وآدمٌ صُوِّرَ من صَلْصالِ ... فكان منه جُمْلَةُ الأنسالِ
ثم بَرَا لآدمٍ حَوَّاءَ ... فسكنَا جنَّتَه العَلْياءَ

وهو يشير فى الأبيات إلى ما جاء فى الذكر الحكيم من خلق السموات فى مثل قوله

تعالى بسورة النازعات: ﴿السماءُ بناها رفع سَمْكها فسوَّاها وأغطش (أظلم) ليلها وأخرج ضحاها﴾ وقوله عزَّ شأنه فى سورة فصِّلت: ﴿ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طَوْعا أو كَرْها قالتا أتينا طائعين﴾ وقوله سبحانه فى سورة النازعات: ﴿والأرضَ بعد ذلك دَحاها﴾ أى بسطها للإنسان ووسع رقعتها إلى أبعد حد. ويقول إن آدم صُوِّر من صلصال وهو الطين اليابس بشهادة مثل قوله تعالى فى سورة الحِجْر: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صَلْصال﴾ وقوله فى سورة الرحمن: ﴿خُلق الإنسان من صَلْصال كالفَخَّار﴾. ويذكر أبو طالب أن الله برأ أو خلق لآدم حواء وأسكنهما الفردوس. ويستمر فى الأرجوزة متحدثا عن عصيانهما لربهما وأكلهما من الشجرة وهبوطهما للأرض ويتحدث عن قتل ابنهما قابيل لأخيه هابيل، وعن تكاثر نسلهما وانتشار الفساد فيه وما كان من إرسالُ الله لنوح، وعن الأنبياء المنصوص على قصصهم فى القرآن الكريم. ويستغرق ذلك نحو مائة وستين بيتا، دلَّ فيها على ثقافة واسعة وخاصة ثقافته بالفرق الإسلامية وبالفلسفة وما يتصل بها من المنطق. ويترك تلك المقدمات إلى التاريخ الخالص، فيتحدث عن الخلفاء الراشدين ومن تلاهم من خلفاء بنى أمية وخلفاء بنى العباس حتى عهد المسترشد كما أسلفنا. ثم يؤرخ لدولة بنى أمية فى الأندلس وما كان من الفتنة بقرطبة والقضاء على الحكم الأموى فى تلك الديار قضاء مبرما. ويستقصى أمراء الطوائف وبلدانهم استقصاء دقيقا، ويصور فساد حكمهم بمثل قوله الغاضب عنهم:

قد أهملوا البلادَ والعبادا ... وعطَّلوا الثغورَ والجِهادا
واشتغلتْ أذهانهم بالخمرِ ... وبالأغانى وسماع الزُّمَّرِ
وزادهم فى الجهل والخِذْلانِ ... أن ظاهروا عِصابة الصُّلْبانِ

فهم قد أهملوا الرعية والجيوش المقاتلة عن الثغور والحمى وعاشوا للهو والخمر والغناء والزمر، وداخلوا طوائف النصارى فى الشمال حتى قويت أطماعهم وخاصة أذفونش ففرض الجزية على المعتمد بن عباد وعلى غيره والتقم طليطلة واسطة القِلادة سنة ٤٧٨ واشتعلت فى كل جهة ناره. وفزعت الأندلس إلى يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين فعبر إلى الأندلس، واستنقذها من أذفونش ونصارى الشمال بسحقه لجنوده سحقا وبيلا فى موقعة الزلاقة على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع، وفيها وفى استصراخ أهل الأندلس لابن تاشفين يقول أبو طالب:

وإذْ أراد اللّهُ نَصْـرَ الـدينِ   اسْتَصْرَخَ الناسُ ابنَ تاشفين
فجاءهم كالصُّبْحِ فى إثرِ غَسَقْ   مستدركا لما تبقَّى من رَمَقْ
وواصـل السَّيْرَ إلى الـزلَّاقَـه   وشـاقَـه ليـومهـا مـا شـاقـه
لله دَرُّ مِثْلِهـا مـن وَقْعَـهْ   قامت بنصر الدين يومَ الجُمعه
وثُـلَّ للشِّرْك هنـاك عـرشُـه   لم يُغْنِ عنـه قومُـه أذْفُنْشُه

وهو يقول إن الله حين أراد نصر الدين الحنيف فى الأندلس استصرخ أهلها ابن تاشفين، وكان ذلك فى صدر سنة ٤٧٩ فلبَّاهم كالصُّبحِ المضىء فى إثر ظلامٍ مطبق، مستدركا لما بقى فى الأندلسِ من رمق يوشك أن يزهق ونفس يوشك أن يضمحل، وبادر عجلا متلهفا إلى الزلاقة بأُسْد وَغًى والنصر يحف بركابه، ونازل العدو يوم جمعة، وكان يوما فاصلا إذ حاقت فيه الهزيمة القاضية بألفونس السادس وجنوده وثُلَّ عرشه وسلطانه.

والأرجوزة رائعة فى نسجها وصياغتها الجزلة الرصينة ونسقها المحكم فى اختيار الألفاظ والقوافى دون تكلف ودون محسنات بديعية تستر المعانى أو تضفى عليها شيئا من الإبهام. وهى تدل - بوضوح - على تعمق أبى طالب فى الثقافات الكلامية والفلسفية والإسلامية، كما تدل على بصره الواعى بتاريخ حكام العرب شرقا وغربا منذ أقدم الحقب فى الدول الإسلامية حتى زمنه.

حازم[1] القرطاجّنى

مرَّ بنا فى الفصل الثانى حديث عن كتاب منهاج البلغاء لحازم، وهو من أفذاذ علماء الأندلس وأدبائها، رُزق به أبوه محمد بن الحسن الأوسى الأنصارى قاضى قرطاجنة سنة ٦٠٨ للهجرة، وعُنى بتربيته فحفظ القرآن الكريم، وشبَّ فأخذ يتلقى الآداب والعلوم فى بلدته الواقعة على البحر المتوسط فى الجنوب الشرقى للأندلس، ورحل منها إلى مدينة مرسية ليأخذ عن شيوخها، ومدَّ رحلاته غربا إلى إشبيلية ولزم حلقات أستاذه الشلوبين بها مدة، وكانت فيه نزعة إلى الفلسفة فأوصاه بقراءة كتب ابن رشد، ولعل اطلاعه على

---

(١) انظر فى حازم وترجمته وشعره اختصار القدح المعلى ص ٢٠ وبغية الوعاة للسيوطى وأزهار الرياض ١٧١/٣ وما بعدها وشذرات الذهب لابن العماد ٣٨٧/٥ ومقدمة كتابه منهاج البلغاء (طبع تونس) للدكتور محمد الحبيب بن الخوجة وما بها من مصادر، ودراسة الدكتور مهدى علام بعنوان «أبو الحسن حازم القرطاجنى وفن المقصورة فى الأدب العربى مع تحقيقها» وجمع شعره ونثره ببيروت عثمان الكعاك مع تعريف به.

تلخيصه لكتابي الخطابة والشعر لأرسطاطاليس هو الذى وصله بالثقافة اليونانية النقدية مما يتضح أثره فى كتابه منهاج البلغاء. وهاجر فى أواخر العقد الثالث من حياته إلى مراكش لعهد الرشيد الموحدى وله فيه أمداح ونال منه صلات سنية. وأحسّ أن سلطان الموحدين يوشك على نهايته وأن لا أمل فى دفعهم لمنازلة نصارى الشمال، فاتجه – مثل كثيرين من معاصريه الأندلسيين – إلى أبى زكريا الحفصى صاحب تونس، فعرف له فضله وقرّبه، وتوفى فقرّبه منه ابنه المستنصر (٦٤٧ – ٦٧٥ هـ) ووظفه فى دواوينه، واتخذ تونس موطنا له حتى وفاته سنة ٦٨٤. وذاع صيته فقصده طلاب العلم من كل مكان، فكان وقته موزعا بين العمل فى ديوان المستنصر وبين محاضراته للطلاب والتأليف ونظم الشعر. وعُنى الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة بالحديث عن شعره فى مقدمته لكتابه منهاج البلغاء ملاحظا أنه يتناول فى المقاطيع المأثورة له موضوعات الزهد ووصف الطبيعة والخمر والنسيب وأنه قد يتصنع لذكر بعض المصطلحات العلمية فى شعره أو لذكر بعض المحسنات البديعية. ويذكر له قصيدة ومقطوعة فى رثاء الحسين رضوان الله عليه، كما يذكر له طائفة من المدائح فى أبى زكريا الحفصى وابنه المستنصر، ويذكر له مدحة فى الرسول الأعظم ﷺ ضمنها أعجاز معلقة امرئ القيس على نحو ما يقول فى فاتحتها:

لعينيك قُلْ إن زرتَ أفضلَ مُرْسَلِ   قِفانَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ

وأهم مدائحه مقصورته التى مدح بها المستنصر. وحاول الإسهام فى صنع مختصر شعرى للنحو على نحو ما نرى فى ميميته النحوية التى نظمها من وزن البسيط وهى فى مائتى بيت وتسعة عشر، وهو يستهلها بإطراء المستنصر الحفصى لإكرامه الوافدين على عاصمته من الأندلس، ويشيد بعدله وحسن سياسته وانتصاراته على أعدائه، ثم يأخذ فى عرض المختصر الشعرى للنحو، ويعرض فيه طائفة من مباحثه بادئا بتعريف النحو والكلام وتقسيمه إلى اسم وفعل وحرف ثم يذكر أحكام الإعراب والبناء والعوامل والفعل وأحكامه ونواصب الأفعال ونواصب الأسماء والنداء والاستثناء والخفض وأحرف النصب وعلامات الإعراب والابتداء وعنده تتوقف القصيدة. وكأنه كان يريد أن يصنع ألفية مثل ألفية ابن مالك ووجد الطريق شاقا فانصرف عنه. وأروع قصائد حازم الشعرية – دون ريب – مقصورته التى مدح بها المستنصر، وهى أرجوزة طويلة بل مسرفة فى الطول، إذ تبلغ ألف بيت وستة، وقد استهلها بالغزل منشدا:

لله ما قد هِجْتَ يا يومَ النَّوَى   على فؤادى من تَباريح الجَوَى

ويطيل فى غزله إلى خمسين بيتا ناسجا فى أبياته أكثر المعانى التى ألمَّ بها الغزلون من الحديث عن جمال صواحبهن وتصوير لحظات الفراق والتألم من الوشاة وما يثير فى نفوسهم هديل الحمام من شجى. ويتحول إلى مديح أسلاف المستنصر ومديحه فى مائة وعشرين بيتا ذاكرا انتسابه إلى الفاروق عمر بن الخطاب، وهو انتساب يسمو إلى أعلى مرتقى، وينشد:

مستنصرٌ بالله منصورٌ بهِ ... مؤيَّدٌ بعونـهِ على العِدا
مُلْكٌ حكى مُلْكَ سليمانَ الذى ... لم ينْجـه لغيره ولا ابْتغى

ويشيد بعاصمة تونس ويشبهها بجنَّة الخُلْد كما يشبه قناتى المياه اللتين تحملانه من جبل زغوان إلى تونس واللتين جددهما المستنصر، بنهرين كبيرين، وكأن كل قناة إنما هى نفس الكوثر: نهر الفردوس. ويطيل فى وصف جنات أبى فهر والقصبة بتونس، ويتحدث عن بأس المستنصر وخيله وجيشه وفتكه بأعدائه، ويقول إنه ليث كفاح وغيث سماح وبحر جود فياض، قد طابت به الأيام، ويعدد فواضله عليه ومآثره منشدا:

بلغتُ آرابَ المنى فى دولـةٍ ... أولتْ يَدِى أَسْنَى الأيادى واللُّهَا[1]
والـدَّهْرُ عِبدٌ والليالى عُـرُسٌ ... والدَّهْرُ أحلامٌ كأحلامِ الكَرَى[2]

وكأنما تَهيج تونس بمباهجها فى نفسه الذكرى لمرابع شبابه ومراتع لهوه، ويتغنى بالحب، ويصف الكواكب والشهب كما يصف لهوه ومتاعه بالصيد، وكل ذلك فى نحو ثلاثين بيتا. ويعود بذاكرته إلى ماضيه متحدثا فى نحو ثلاثمائة بيت عن المدن التى نهبها النصارى والتى كانت تكتظ بالعلماء والسادة الأعلام، مصوِّرا كم نَعِم فيها مع خِلّانه من الشباب متنقلين بين قصور وجسور على شواطئ الأنهار وقرى ورُبى ومروج وبطاح، ويتغنى بمشاهد مدينة مرسية ونسائها الجميلات وكأنما يصف فردوسا مفقودا كان ملء عينيه وسمعه وقلبه، ومن قوله:

نَصيف من مُـرْسيةٍ بمنـزلٍ ... ضَفَا به الدَّوْحُ على ماءٍ صَفَا[3]
نقطع دُنْيانا بوَصْلِ الأنس فى ... مُغْتَبَقٍ فى رَوْضـه ومُغْتَدَى[4]

(١) الأيادى: النعم. اللها: العطايا.

(٢) الكرى: النوم

(٣) نصيف: نقضى الصيف. ضفا الدوح: نما الشجر وكثر.

(٤) مغتبق: مكان الغبوق وهو شرب العشى، مغتدى: مكان الغدوّ فى الصباح.

وتتناجي بالمنى أنفسنا	حيث تداعى الطَّيْرُ منها وانتجى[١]
تقسّم الناسُ بها قسمين من	بين خليٍّ قلبه ومُصْطَبِى[٢]
إذا اجْتَنى زَهْرَ الجمال وامقٌ	فيها اجْتَنَى خِلْوٌ بها زَهْرَ الرُّبى[٣]
وكم أغانٍ كنظيم الدُّرِّ فى	تلك المغانى قد وَشَاها مَنْ وَشَى[٤]
وكم حديثٍ كنثير الزَّهْر فى	تلك المبانى قد حكاه مَنْ حكى

وهذه خطوط من اللوحة الباهرة التى رسم فيها مرسية وجناتها العطرة ونجوى الشباب هناك بالمنى فى أنس موصول، والناس قسمان محب وقع فى شرك الهوى وخال منه يوشك أن يقع فيه، وبينما يجتنى المحبُّ أزهار حبه من النظر أو من القُبل يجتنى الخلىُّ من مشاهد الطبيعة الخلابة، والناس هناك كأنما لا يقضون أياما، بل يقضون أعيادا تكتظ بالغناء والموسيقى وبأحلى سمر تهواه الأفئدة. ويطيل حازم فى رسم تلك اللوحة ووصف كل ما وقف به من عشرات الأماكن التى كانت تلتقى فيها الأرواح والأدواح، حتى إذا ودّع تلك الجنان ارتسمت فى خياله قرطاجنة وخليجها ونزهاته مع صحبه فى فلكها، متساقين فيها كئوس الأنس فى حدائق، منتشين فيها بأكؤس الأحداق والعيون الساحرة. ويرسم للأماكن فيها لوحة لا تقل فتنة وجمالا عن لوحة مرسية. ويطيل فى وصف حدائقها وأزهارها من بنفسج وسوسن وورد وشقيق وخِيرِىّ ونرجس وياسمين، ويصف كل ما يطوف بها من جبال ورياض ومنازل أو مغان يقول من يراها تفديها مغانى الشعب: شعب بَوّان التى تغنى بها المتنبى، ويدعوها بالسقيا ويندبّ جَدُّها العاثر وما عفا فيها وفى أخواتها من رسوم الهدى ومعاهد الدين الحنيف. وقد استغرق ذلك كله من حازم نحو ثلاثمائة بيت، وكأنما أراد بما صور من تلك الفراديس أن يستثير المستنصر ليحاول إنقاذ الأندلس ويسترجع ما ضاع منها. ويشبب بمحبوبة له هناك باعدت بينه وبينها الأيام، وكأنما يتخذ من حبها الذى ضاع رمزا للأندلس الضائعة. ويلم بمديح المستنصر وكأنما استرد بإكرامه له شيئا مما ضاع منه. ويتحدث فى نحو مائتى بيت عن هجرته من الأندلس إلى تونس وما لقى فيها من المتاعب والمشاق التى احتملها فى جلد وصبر، ويفكر فى شئون الحياة وفى نفسه وخصاله وتسيل على لسانه عشرات من الحكم من مثل قوله:

---

(١) انتجى: تناجى.
(٢) خلىّ: خال من الحب. مصطبى: محب مغرم.
(٣) وامق: محب. خلو: خلىّ.
(٤) وشى: زين وزخرف.

ما أحدثتْ حادثةٌ لى روعةً ... ولا اعتَرانى جَزَعٌ لما اعتَرَى
والعيشُ طَوْرًا مُشتهىً مُستَمْرَأُ ... وتارةً مُسْتَوْبَلٌ ومُجتَوَى
والعيشُ محبوبٌ إلى كل امرئٍ ... لا فرقَ بين الشيخِ فيه والفتى
قد يُدرك الحاجةَ مَنْ لم يَسْعَ فى ... طِلابها وقد تفوت مَنْ سَعَى
إنَّ احتياطَ المرء فى أفعاله ... رأىٌ يؤدِّيه إلى سُبْل الهُدَى

ويطيل فى الكلام عمن ضلوا نهج الرشد فكان فى ذلك هلاكهم ممن تحدث عنهم التاريخ الجاهلى من مثل قصة النعمان وقتله لعدى بن زيد تسرعا، وقصة زرقاء اليمامة وتكذيب قومها لها حين حذرتهم أن جيشًا قادمًا ولم يصدقوها فكان فى ذلك حتفهم، وقصة الزبَّاء فى حصنها وكانت أمنع من عُقاب فى أعلى ذروة شاهقة، وكانت قد احتالت على جذيمة ملك الحيرة قاتل أبيها فقدم عليها وقتلته، وخلفه ابن أخته عمرو بن عدى، فدسَّ لها أحد أتباعه، فجدع لها أنفه وشكا إليها عمرا فوثقت به ووعدها أن يفد عليها بتجارة كبيرة محملة على إبل كثيرة. وعاد مع إبل تحمل رجالا فى جواليق أو صناديق، وفتحت له الحصن وهى تظنه يحمل بعض عروض التجارة، ودخلت الإبل ولفتها أنها تمشى مثقلة كأنها تحمل حديدا. ولم تتنبه. وخرج الرجال من الجواليق واستولوا على المدينة وقتلوها. هكذا تقول الأسطورة العربية، ومعروف أنها حاربت الرومان وظفروا بها فأخذوها أسيرة إلى روما حيث قضت بقية أيامها، وحازم إنما يروى الأسطورة العربية ليبين ما حدث فيها من تغرير بالزباء وقصر نظرها وعدم احتياطها حين رأت الإبل تسير وئيدة من ثقل ما تحمل، يقول:

وغَرَّها جَدْعُ قَصيرٍ أنفَهُ ... فأمِنَتْهُ وهْوَ مرهوبُ الشَّذَا[١]
وأوْقَرَ العِيسَ رِجالاً وعَبَا ... بُؤْسًا لها وأبْؤُسًا فيما عَبَا[٢]
وارتابَ فى مَشْىِ الجمال لحظُها ... ولم تحقِّق عندما قالت: عَسَى[٣]
وما درتْ ما فوقها حتى غدتْ ... مُقْصَدَةً بسهمِ دَهْىٍ ما خَبَا[٤]

ويتحدثُ عما تروى الأساطير والتاريخ عن رجالات العرب وملوكهم الجبابرة فى الجاهلية، وينصح بالحزم فى الأمور مع العزم، ويعرض كثرة من الأحداث عمن شبوا

---

(١) الشذا: الحدّ، شبه قصيرا بالسيف القاطع.
(٢) أوقر العيس: حمّل الإبل. عبأ: هيأ.
(٣) قالت عسى أى أنها شكت ولم تتحقق من شكها وريبتها ولا ظنت بعض الظنون.
(٤) دهى: دهاء ومكر. خبا هنا: أخطأ.

نيران الحروب ومن أخطأهم الحظ مثل امرئ القيس فى ثأر أبيه حُجْر. ويسوق أخبارا كثيرة عن رجالات الإسلام من مثل الجحّاف وإيقاعه بتغلب فى معركة البِشْر ومصعب بن الزبير وقضاء عبد الملك بن مروان عليه وفقدان الخنساء لأخيها صخر ومراثيها فيه، ويتذكر حاله وغربته عن وطنه وينشد:

إنَّ ثَواءَ المَرْءِ فى أوطانِهِ ‌ ‌ ‌ ‌ عِزٌّ وما الغُرْبَةُ إلا كالتَّوَى[1]

ويذكر طائفة من الجاهليين والإسلاميين الذين فارقوا أوطانهم وحنّوا إليها حنينا ملتاعا، راجين أن يشتفوا بجرعة أو جرعات من مياهها. ويعود إلى ذكر الأحداث فيذكر جيش أبرهة حين غزا مكة قبيل الإسلام وكيف أن الله قضى على كيده فأرسل على جيشه طيرا جماعات دمرته تدميرا. ويذكر قصة هدهد سليمان وبلقيس ملكة سبأ وسدّ مأرب وانقضاضه وكيف أن الله أنقذ البشرية بإرساله نبىّ الهدى الذى أضاءت بنوره الآفاق، ويشيد بخلفائه وبفتح الأندلس، وبانتصار الموحدين فى موقعة الأَرَك سنة ٥٩١. ويقول إن الأندلس أصبحت بعد هذا التاريخ فريسة للثوار، وعمَّ طوفان فتنة انجلى عن ضياع جواهر الأندلس الكبرى: قرطبة وإشبيلية ومرسية، وأصبحت لسانُ الحال تملى شجوها، وبكى كلُّ ما هنالك وبكت حتى الأنهار بمدمع هام وأنّت الوديان وبثّت شكواها الثغور والمدن، وانتثرت الأندلس كحبّات عقد فى حجور نصارى الشمال، واحتووا كل ما بتلك الديار من ذخائر الدين الحنيف، ويستثير بكل ذلك حفيظة المستنصر ويهيب به أن ينجد الأندلس ويسترجعها من براثن الإسبان منشدا:

ولـو سَمـا خليفـةُ الله لهـا ‌ ‌ ‌ ‌ لافْتَكَّها بالسَّيْف منهم وافْتَدَى

ففى ضمانِ سَعْدِه مِنْ فَتْحِهـا ‌ ‌ ‌ ‌ دَيْنٌ على طَرْف العَوَالى يُقْتَضى[2]

فقد أشادتْ أَلْسُنُ الحـال به ‌ ‌ ‌ ‌ حَىَّ على اسْتِفْتاحِها حَىَّ على

أَثْأى العِدا ما كان مرءوبًا بها ‌ ‌ ‌ ‌ وهو الذى يُرْجَى به رأْبُ الثَّأَى[3]

مـا زال يُمْلِى المَلَوان نَصْرَهُ ‌ ‌ ‌ ‌ وسَيْفُهُ يختطُّ ما يُمْلى المَلاَ[4]

ويمضى فى استصراخه لإنقاذ الأندلس بكل ما يستطيع من كلم مثير، ويهتف بهتاف

---

(١) ثواء: إقامة. التوى: الهلاك.

(٢) العوالى: الرماح.

(٣) أثأى العدا: أكثر من القتل فيهم والجراحات.. مرءوبا: ملتئما. رأب الثأى: إصلاح الصدع والفتق.

(٤) الملوان: الليل والنهار. الملا هنا: الخلق الكريم.

المسلمين فى كل أذان: «حىَّ على» استفتاحها أى أقدم أقدم وياخيلِ الله اركبى الطريق، فقد فتق الأعداء ما كان ملتئما بها، وهو الذى يُرْجَى به لأْمُ ما انفتق، وإنه لمعوَّد النصر. وما تزال انتصاراته تتوالى وما يزال يمليها على الأيام، ويستبشر حميته، ويتصور كأن جيشه يوشك أن ينقض على الأعداء فيسحقهم، ويقول إن طاعته من طاعة الله، ويتمنى على ربه العفو والرضا، وينصح الإنسان أن لا يغتر بعمره وأن يعمل لآخرته قائلا:

لا تَلْهُ فى وجودك الأوَّلِ عن ... وُجُودِك الثانى ونَهْنِهْ مَنْ لَهَا[1]

ويقول إن للنفس وجهين: وجها يشدّها إلى عالم القدس والنور أو عالم الكمال الأعلى ووجها يشدُّها إلى عالم الدنيا وشهوات الحياة، والعاقل من حرص على التمسك بسُنن السنة والاقتداء بأهلها وأن لا يأخذ من الآراء إلا ما وافق أقوال الله فى فرقانه وأن يحرص على صنع الخير والعمل الصالح. ويتحدث عن قصيدته أو مقصورته وما بذل فيها من جهد فى تخير الألفاظ والمعانى، وهى - كما رأينا - مجموعة من لوحات بديعة تخلب القارئ بروعتها البيانية.

---

(١) نهنه: ازجر.

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

لا نبالغ إذا قلنا إن الغزل أهم موضوع شغل شعراء العرب فى جميع عصورهم وأقاليمهم، وقد ظلوا يصورون فيه عاطفة الحب الإنسانى الخالدة، ويضيفون فيه من الأحاسيس والخواطر ما يملأ مجلدات فى كل عصر على حدة، بل أيضا فى كل إقليم. ودائما الشاعر موزع بين وصال ولقاء وبين وداع وفراق، تارة هانئٌ بحبه وتارة شقى محروم يشكو الهجران، ويتمنى لمحة خاطفة ولو من بعيد، حتى إذا أقبلت عليه صاحبته أحسَّ بفرحة لا تماثلها فرحة، فإذا انصرفت عنه أظلمت الدنيا فى عينيه، واحتمل ما لا يطاق من الآلام والعذاب، ومضى يئن بالشكوى ويتضرع ويستعطف. والغزل من قديم يتفرع عند العرب فرعين كبيرين: فرعا ماديا حسيا، يصدر فيه الشاعر عن الغريزة النوعية أحيانا، إذ مأربه منه اللذة الحسية، وهو لذلك قد يعنى بتصوير متاعه المادى فيه تصويرا مزريا وفرعا ثانيا عذريا عفيفا يتسامى فيه الشاعر عن الحس والمادة إلى النقاء والصفاء والطهر، وكأنه يحب صاحبته لمعانى الحب والوجد فى ذاتها، لا لشيء حسى وراءها، وهو الفرع الذى نمتلئ به إعجابا عند شعراء العرب، ممن أحبوا واستأثر الحب بقلوبهم وأفئدتهم، حتى كأنما أصبح نارا فى صدورهم لا يمكن إطفاؤها، وهم يتعذبون بتلك النار وما تذيقهم من العذاب واجدين فيها متاعا لا يفوقه متاع، متاع يرافقه دائما الحرمان والدموع والآلام. وهذان الفرعان من الحب العذرى والحب المادى يكتظ بهما الشعر الأندلسى ولأولهما دائما الغلبة والرجحان، ونشعر كأنما أصبح الناس جميعا شعراء ينظمون فى الغزل والحب وبيان دقائقه ومشاعره، سواء فى ذلك أمراء البيت الأموى وحكامه أو أبناء الشعب عربا وبربرا ومسالمة ومولدين، من ذلك قول الحكم الربضى فى جَوارٍ غاضَبْنه وهَجَرْنه[1]:

---

(١) انظر فى مقطوعة البيتين الحلة السيراء ١/٥٠ والبيان المغرب لابن عذارى ٢/٧٩.

قُضُبٌ من البانِ ماسَتْ فوق كُثْبانِ أعرضْن عنى وقد أزمعْنَ هجرانى
مَلَكْنَنِي مِلْكَ من ذلّت عزائمهُ للحب ذُلَّ أسيرٍ موثَقٍ عانِ

وهو يشكو من هجر هؤلاء الجوارى، ويعترف بأنهن يملكنه، بل يأسرنه بأغلال الحب، ويستعطفهنّ متذللا. وكانت طروب زوجة ابنه الأمير عبد الرحمن الأوسط قد شغفت زوجها حبا، غير أنه كان يعرف واجبه من قيادة الجيش فى الدفاع عن الأندلس ضد أعدائه الشماليين، مما جعله يمزج غزله فيها ببيان شجاعته مثل قوله[1]:

إذا ما بدتْ لىَ شمسُ النها رِ طالعةً ذكّرتْنى طَروبا
عَدانِىَ عنكِ مَزارُ العِدَا وقَوْدى إليهم لُهامًا مهيبا[2]
سموتُ إلى الشِّرك فى جَحْفَلٍ ملأتُ الحُزُونَ به والسُّهُوبا

وقد استهل القصيدة بستة أبيات فى الغزل بطروب ثم خلص إلى بيان بأسه وقوة جيشه واقتحامه معه للحزون والسهوب أو للمرتفعات والفلوات وكيف ظل طويلا يَدَّرع غبار القتال حتى استحالتْ نضرة وجهه شحوبا ابتغاء ما عند الله من ثواب المجاهدين عن حِمى الإسلام، ويفتخر بنسبه الأموى وأنه لا يزال يضرم ويطفئ حروبا فى سبيل نصرة الدين الحنيف واستئصال أعدائه من أهل الصليب. وحسبنا ذلك من أمراء البيت الأموى فى القرنين الثانى والثالث للهجرة على لسان الحكم وابنه عبد الرحمن. وللمؤمن بن سعيد شاعر عبد الرحمن[3]:

حُرِمْتُكِ ما عدا نظرا مُضِرًّا بقلبٍ بين أضلاعى مقيمِ
فعينى منك فى جَنّات عَدْنٍ مخلّدة وقلبى فى الجحيمِ

والبيتان تلاعبًا بالمقابلة بين جنات عدن والجحيم أكثر منهما غزلا يعبر عن عاطفة حارة. وللقلفاط الهجّاء غزلٌ يُرْوَى فى ترجمته بالكتب الأدبية من مثل قوله[4]:

يا غزالاً عنَّ لى فابـ ـتزَّ قَلْبى ثم ولّى
أنتَ منى بفؤادى يا مُنَى نفسىَ أولى

وهما بيتان رقيقان ولغتهما عذبة. ولابن عبد ربه شاعر الأمير عبد الله وحفيده

---

(١) راجع فى قصيدة هذه الأبيات الحلة السيراء ١/١١٤. والمغرب ١/٤٧ والبيان المغرب ٢/٨٥.

(٢) لهاما: جيشا كثيفا.

(٣) المغرب ١/١٣٣.

(٤) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ص ٣٠٢ ومرت فى الحديث عن الهجاء مصادر ترجمته.

عبد الرحمن الناصر غزليات فيها جمال فى التصوير ورشاقة فى التعبير كقوله [١]:

يـالؤلؤا يَسْبِى العقـولَ أنيقـا ورَشًا بتعـذيب القلوب رفيقـا
ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثلهِ دُرًّا يعـودُ من الحيَـاء عَقيقـا
وإذا نظرتَ إلى محاسنِ وَجْهِهِ أبصرتَ وجهك فى سَنَاه غَرِيقا
يـامَنْ تقطَّع خَصْرُهُ من رِقَـةٍ ما بالُ قلبك لا يكون رقيقا

والصور متناسقة تناسقا بديعا فاللؤلؤ الأبيض تتضرج الخدود منه بحمرة الحياء فيصبح عقيقا أو ياقوتا، والبصر يغرق فى محاسن الوجه وسناها أو ضوئها المتوهج جمالا وفتنة، والخصر رقيق رقة شديدة، واللغة فيها انسياب وصفاء وسلاسة، وللحكم المستنصر [٢]:

عجبتُ - وقد ودَّعتُها - كيف لم أَمُتْ وكيف انثنتْ بعد الوَداع يدى معى
فيامُقْلتى العَبْرَى عليها اسْكُبِى دَمًا ويـاكَبِدى الحَـرَّى عليهـا تَقَطَّعى

والبيتان ينمان عن شعور مرهف رقيق، ولغتهما سلسة. ومن كبار الشعراء لعهد الحكم المستنصر الرمادى وسنفرد له كلمة، ومنهم أحمد بن فرج الجيانى وقد زَجَّ به المستنصر فى سجن ببلدته جَيَّان لما رُفع له من أنه هجاه، فسجنه ومات فى سجنه، ولم يشفع له تأليفه كتاب الحدائق الذى تحدثنا عنه فى غير هذا الموضع، وهو يعد بحق حامل لواء الشعر العذرى فى الأندلس، كما يتضح فى قوله [٣]:

وطـائعةِ الـوِصالِ عَفَفْتُ عنهـا ومـا الشيـطانُ فيهـا بـالمطاعِ
بدتْ فى الليل سَافِرَةً فبـاتتْ دَياجِى الليل سَافرةَ القِناعِ [٣]
ومـا من لحـظَةٍ إلا وفيهـا إلى فِتَنِ القلوب بهـا دَواعِ
فملَّكْتُ النُّهى جَمَحـاتِ شـوقى لأجرى فى العفافِ على طباعى
وبتُّ بهـا مبيتَ السَّقْبِ يَظْمَا فيمنعه الكِعامُ من الرَّضاعِ [٤]
كـذاك الروضُ مـا فيه لمثلى سـوى نَظَرٍ وشَمٍّ من مَتـاعِ

---

(١) النفح ٣/٥٦٤.
(٢) مغرب ١/١٨٧.
(٣) انظر فى ترجمة أحمد بن فرج الجيانى وشعره الحميدى ص ٩٧ والقلائد ص ٧٩ والبغية ص ١٤٠ والمغرب ٢/٥٦ والمطرب ص ٤ ومعجم الأدباء ٤/٢٣٦.
(٤) السقب: ولد الناقة. الكعام: ما يجعل على فمه لمنعه من الرضاع.

ولستُ من السَّوائم مُهمَلاتٍ ... فأتخذَ الرِّياضَ من المراعي[1]

وابن فرج الجيانى يصف لنا جمال صاحبته الخلاب وأنها كانت طوع وصاله وحبه، وكيف أنه أمضى معها ليلة سافرة فاتنة فؤاده، وفى كل لحظة تتجدد فتنتها، ومع ذلك ظل معتصما بالعفاف المفطور عليه، يردُّ بعنفٍ جمحات عواطفه وغرائزه، ساميا بنفسه عن عالم الحيوانية والغَريزة النوعية إلى عالم كله سمو وصفاء ونقاء وطهر ما وراءه طهر. ويصور نفسه مثل سقب يظمأ والكمام على فمه، بل إنه ليكفيه من صاحبته النظر، يشفى به غليله إذ ليس كغيره ممن حوله المشبهين للحيوانات المرسلة فى المراعى ترعى كل ما تلقاه. ولا نشك فى أن هذا التسامي اقترن بالحب والغزل فى الأندلس منذ أول الأمر، غير أن ابن فرج الجيانى عبرً عنه فى لوحة بديعة، وكأنما رسمه فيها وجسّده تجسيدا قويا. ولجعفر المصحفى وزير الحكم المستنصر[2]:

كلَّمتْنى فقلتُ: دُرٌّ سَقِيطٌ ... فتأمَّلتُ عِقْدَها هل تَناثَرْ
فازْدهاها تبسُّمٌ فأرَتْنِي ... عِقْدَ دُرٍّ من التبسُّمِ آخَرْ

واستعارة الدر للكلام وللثغر قديمة، غير أن المصحفى عرف كيف يحورها ويعرضها عرضا بديعا، حتى ظن من حسن كلام صاحبته أنها تلفظ دررا حقيقية أو أن عقدها تناثرت درره وحباته. وللشريف الطليق حفيد الناصر غزليات كثيرة، وسنخصه بكلمة.

وتنشب الفتنة وتموج الأمور وتضطرب اضطرابا شديدا، ويتولى الخلافة ما يقرب من سبع سنوات سليمان الملقب بالمستعين أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر، وكان يحسن نظم الشعر، وضاع شعره مع ما ضاع زمن الفتنة، إلا قصيدة نظمها معارضة لقصيدة هرون الرشيد: «ملك الثلاث الآنسات عنانى» وفيها يقول المستعين[3]:

عجبًا يهابُ اللَّيْثُ حدَّ سِنانِي ... وأهابُ لَحْظَ فَواترِ الأجْفانِ
وتَملَّكتْ نفسى ثلاثٌ كالدُّمَى ... زُهْرُ الوجوه نواعمُ الأبدانِ
فأبحْنَ من قلبى الحِمَىَ وترَكْنَنِي ... فى عِزِّ مُلْكى كالأسيرِ العانى
لا تَعْذِلُوا مَلِكا تذلَّل للهَوَى ... ذلُّ الهوى عِزٌّ ومُلْكٌ ثانِ

---

(١) السوائم: الحيوانات المخلاة فى المراعى.

(٢) رايات المبرزين لابن سعيد (طبع القاهرة) ص ٦٩ وانظر فى جعفر وشعره المطمح ص ٤ والحلة السيراء ١/٢٥٧ - ٢٦٧ والذخيرة ٤/٥٨ وما بعدها.

(٣) الذخيرة ١/٤٧.

والقصيدة غزلية بديعة. ولم يهنأ المستعين بخلافته إلا نحو سبع سنوات، وفتك به بنو حمود واستولوا على الخلافة، وعادت إلى أحفاد عبد الرحمن الناصر بعد سبعة أعوام، وتولاها عبد الرحمن بن هشام الملقب بالمستظهر سنة ٤١٤ لمدة شهرين إذ فتك به ابن عمه المستكفى. وكان المستظهر شاعرا وشغف بابنة عم من أعمامه، وروى له ابن بسام فيها أربع مقطوعات تصور حبه لها ومدى تعلقه بها من مثل قوله [١]:

غزالٌ براه الله من نورِ عَرْشِهِ ... لتقطيع أنفاسى وليس من الإنْسِ [٢]
وهبتُ له مُلْكى وروحى ومُهْجَتِى ... ونَفْسِى ولا شىءٌ أعزُّ من النَّفْسِ

وكثيرون من أبناء البيت الأموى تترجم لهم كتب الأدب وتذكر لهم غزليات وأشعارًا مختلفة. ومن الشعراء المهمين الذين عاشوا بقرطبة زمن الفتنة عبادة بن ماء السماء الخزرجى الأنصارى الذى أعطى الموشحة صيغتها النهائية، ومن غزلياته قوله [٣]:

إذا رُمْتُ قَطْفَ الوَرْدِ ساورَنى الصُّدْغُ ... بعقربِ سِحْرٍ فى فؤادى له لَدْغُ [٤]
غزالٌ بجسمى فَتْرَةٌ من جُفُونِهِ ... وفى أَدْمعى من لون وَجْنَته صِبْغُ
زيارتُه أَخْفَى خفاءً من السُّهَا ... ودون فراغى من محبته الفَرْغُ [٥]

وهو يقول إنه إذا رام قطف الورد من خدود صاحبته ساوره أو وثب عليه ومنعه عقرب الصدغ، وإنه ليشعر بلدغاته فى فؤاده. وزعم أنها أعْدت دموعه بلون خدودها الوردية كما أعْدت جسمه بفتور جفونها وانكسارها البديع، ويقول إن زيارتها تتعذر عليه حتى لتصبح كأنها نجم السُّها الذى تتعذر رؤيته. ويقول ابن شهيد معاصره، وكان شاعرا بارعا وكاتبا مبدعا، وسنترجم له بين الكُتّاب، ومن غزلياته قوله [٦]:

ولما فشا بالدمع من سرِّ وَجْدنا ... إلى كاشِحينا ما القلوبُ كواتمُ [٧]
أمرنا بإمْساك الدُّمُوع جفونَنا ... ليَشْجَى - بما تَطْوِى - عَذولٌ ولائمُ
فظلَّتْ دموعُ العَيْن حَيْرَى كأنها ... خِلالَ مآقينا لآلٍ توائمُ

وتصويره لدموعه ودموع صاحبته وإمساكها بها تترقرق فى جفونها ولا تسقط باللآلئ التوائم تصوير بديع.

---

(١) الذخيرة ١/ ٥٧.
(٢) براه: خلقه.
(٣) الذخيرة ١/٤٧١.
(٤) ساوره: وثب عليه.
(٥) السها: نجم خفىّ. الفرغ هنا: الموت والهلاك.
(٦) ديوان ابن شهيد (تحقيق يعقوب زكى) طبع القاهرة ص ١٥٤.
(٧) الكاشحين جمع كاشح: العدو المبغض.

وتتكاثر سيول الغزل فى عصر أمراء الطوائف، عصر الغناء واللهو ومجالس الأنس، ونجده متداولا شائعا على ألسنة جميع الأمراء والوزراء والشعراء والفقهاء، وكأنه تمائم يضعونها جميعا الى صدورهم وفى مقدمتهم الفقيه ابن حزم، وسنفرد له ترجمة بين الكتّاب، وكان شاعرا وله غزليات كثيرة منها قوله[1]:

وددتُ بأن القلب شُقَّ بمُدْيةٍ وأُدْخلْتِ فيه ثم أُطْبِقَ فى صَدْرى
فأصبحتِ فيه لاتَحُلِّين غيره إلى مُقْتَضَى يوم القيامة والحَشْرِ
تعيشين فيه ما حييتُ فإن أَمُتْ سكنتِ شِغافَ القلب فى ظُلَم القَبْرِ

وقوله متحولا بمحبوبه، أومحبوبته، إلى إدراك مجرد وراء صورته الحسية[2]:

أمِنْ عالم الأملاك أنت أم آنْسِيُّ أبِنْ لى فقد أزرى بتمييزىَ العِيُّ
أرى هيئةً إنْسِيَّةً غير أنه إذا أُعْمل التفكير فالجِرْمُ عُلْوِىّ
عدمنا دليلًا فى حدوثك شاهدا نقيسُ عليه غير أنك مَرْئِىّ
ولولا وقوعُ العَيْن فى الكَوْن لم نَقُلْ سوى أنك العقلُ الرفيعُ الحقيقىّ

فهو لا يدرى أمحبوبه إنسى أم ملاك طاهر، ويحار، وتعظم حيرته، فالهيئة إنسية، والجسد علوى، بل لكأنه تخلص من جسديته، ولولا أن العين تبصره وتشاهده لظن أنه العقل الرفيع الذى لا يحده مكان حسى. ونلتقى بابن برد الأصغر، وسنخصه أيضا بترجمة بين الكتاب، وكان مثل ابن حزم شاعرا، وله غزل بديع مثل قوله[3]:

لما بَدَا فى لازَوَرْ دِئّ الحَرير وقد بَهَرْ
كبَّرتُ من فَرْط الجما لِ وقلتُ: ماهذا بَشَرْ
فأجابنى: لا تُنْكِرَنْ ثَوْبَ السماءِ على القَمَرْ

والأبيات تنم عن شعور رقيق مرهف مع عذوبة الألفاظ والصياغة وجمال الخيال والتصوير. ولأبى جعفر الخولانى أحد شعراء المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية:[4]

بَدْرُ ألَمّ وبدرُ التّمّ مُمْتَحِقٌ والأُفْقُ مُحْلَوْلِكُ الأرجاءِ من حَسَدِ[5]
أردتُ توسيدَه خَدّى وقلُ له فقال: كفُّك عندى أفضل الوُسُدِ

---

(١) طوق الحمامة (تحقيق د. الطاهر مكى) طبع دار المعارف ص ٩٢.
(٢) طوق الحمامة ص ٢٥.
(٣) المغرب ١/٩٠.
(٤) الذخيرة ٢/١٣٦.
(٥) بدر التم: البدر فى تمامه واكتماله. ممتحق: مختف نوره. محلولك: شديد السواد.

فبات فى حَرَمٍ لا غَـدْرَ يَذْعَـرُهُ ... وبتُّ ظمـآنَ لم أَصْدُرْ ولم أرِدِ

فكأنما بات بجوار صاحبته فى حرم مقدس ملتزما للعفاف لا ينقع غُلَّة حبِّه برِئٌ منها ورشف والمنهل طوع يده وهو لا يَرِدُه ولا يصدر عنه، بل يكتفى بتكرار النظر للخدود والوجنات. وينشد له ابن بسام قطعا أخرى مماثلة فى العفاف مع ما يحمل من ألم الحب وأثقاله.

وشاع فى الأندلس - كما مر بنا فى الشواهد السابقة، وكما يلى فى شواهد مماثلة - هذا الغزل العذرى أو الروحى السامى الذى تُعَدّ العفة مقومه الأساسى والذى يجرى فيه هيام ليس بعده هيام مع الإجلال للمرأة والشعور بقدسيتها حتى ليشرد لبُّ المحب والمحبوبة معه ويغيب عن حسه، مكتفيا منها - وهى طوع يديه - بنظراته وكأنه فى حلم - أو - كما يقول الخولانى - فى حرم مقدس.

وهذا الحب الأندلسى العذرى أو الروحى النقى تطاير شرر كثير منه إلى الأدبين الإسبانى والفرنسى، وهو يتضح عند الإسبان أشد الوضوح فى قصة دون كيشوت لسرڤانتس (١٥٤٧ - ١٦١٦م) وهو يذكر فى سطورها الأولى أنه يقصُّها عن عربى، وكأنه مترجم لها فحسب. ونمضى فى قراءتها فنشعر كأنما تجسد فى بطلها الفارس العاشق: دون كيشوت الحب الروحى السامى الأندلسى، وهو يخرج فى حبه عن طوره ويصيبه الجنون أو ما يشبه الجنون، إذ يهيم - ومعه تابعه سانشو - على وجهه متنقلا فى إسبانيا مقتحما فى أوقات جنونه كل ما يصادفه - أو يظنه - من أخطار أملا فى رضا محبوبته. وكلما تغلب على خطر تذكرها، إذ هى مثله الأعلى، وهو لذلك لا يزال يقدم إليها حبَّه وشجونه فيه. وعلى نحو ما يتألق شعر الحب الروحى الأندلسى عند الإسبان فى قصة دون كيشوت يتألق عند الفرنسيين فيما نظمه شعراء التروبادور فى القرن الثانى عشر الميلادى، إذ تتشابه أشعارهم من حيث الشكل وطريقة النظم والعروض والأغصان والأقفال والقوافى مع الموشحات الأندلسية[١]. وأيضا فإنها تتشابه معها ومع الغزل الأندلسى العفيف فى المضمون: فى عذاب الحب وحرقة القلب والخشوع أمام المحبوبة والطاعة والتذلل بين يديها وأيضا فيما يجرى فى هذا الغزل من ذكر خداع المحبوبة أحيانا وذكر الرقباء والوشاة. ويقول عبد الرحمن بن مُقانا[٢]:

---

(١) انظر الدكتور مكى فى كتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية (طبع الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر) ص ٥٧ وما بعدها.

(٢) الذخيرة ٧٨٨/٢.

لمن طَلَلٌ دارسٌ بـالُّلوَى كحاشية البُرْد أو كالـرِّدَا
رمادٌ ونُؤْىٌ ككُحْلِ العروسِ ورَسْمٌ كجسم بَـراه الهَـوَى
غدا مَوْسمًا لوفـود البِلَى وراح مَراحًا لِسِرْب المَهَا
عجبتُ لطيفِ خيالٍ سَرَى من السِّدْر أنى إلىَّ اهتدى
وكيف تجاوز جَوْزَ الحجازِ وجَوْزَ البحار وسِدْرَ المُنَى
ولم يُثْنِه حرُّ نارِ الضلوعِ وبَحْرُ الدموع وريحُ النَّوَى
فـذكـرَ أيامنا بالعَقيقِ ولَيْلتنا بهضاب الحِمَى

وقد ضمن الحديث عن الأطلال وطيف الخيال صورا وخواطر جديدة. فالطلل الدارس باللوى أو منقطع الرمل يشبه فى عين المحب الواله الرداءَ المعلَم أو حاشيته المنمنمة، والرماد كأنه كحل العروس سوادا والتماعا. وقد أصاب الرسم أو الطلل - لفراق أحبائه - ضنا المحبين، ولم يكتف بأن جعله مسرحا لبقر الوحش مثل امرئ القيس فى مطلع معلقته فقد جعله أيضا موسما لوفود البِلَى، وأيضا لم يكتف فى ذكر المواضع بموضع شجر السدر فى حمى صاحبته، فقد أضاف اليه مواضع أخرى من الجزيرة: جوز (وسط) الحجاز والعقيق أحد وديانه. وكل ذلك ليجلب إلى قصيدته جوَّ بوادى الحجاز وحبَّها العذرى الملتاع، وصوَّره مضطرما فى حنايا ضلوعه. وعجب أن يصل إليه طيف الخيال ولا تثنيه النار الصاعدة من صدره ولا بحار الدموع المنهمرة من عينيه، ولا ريح النَّوَى العاصفة، وبذلك مزج الغزل الأندلسى بروح الغزل العذرى الظامئ المتلهف أبدا.

ويقول محمد بن البَيْن وزير يحيى الوالى على يابُرة لأبيه المظفر أمير بطليوس (٤٣٠ - ٤٦٠ هـ) فى إحدى قصائده[١]:

غَضَبوا الصَّباحَ فقسَّموه خُدودا واستوهبوا قُضُبَ الأَراك قُدُودا
ورأوا حَصَى الياقوت دون محلِّهم فاستبدلوا منه النجومَ عُقودا
واستودعوا حَدَقَ المَهَا أجفانَهُمْ فَسَبَوْا بهنَّ ضَرَاغِماً وأُسُودا
لم يَكْفِ أن سَلَبُوا الأسنَّةَ والظُّبَا حتى استعانوا أعينًا ونهودا
وتضافروا بضَفائِرٍ أَبْدَوْا لنا ضَوْءَ النهارِ بِلَيْلِها مَعْقودا

وهى قطعة من الغزل الفريد بروعة تصاويره، وهى مثل سابقتها من أطرف ما يصور تواصل الشعر الأندلسى مع أصوله الشعرية العربية، فكل ما فى القطعة من صور طالما

(١) الذخيرة ٢/٨٠٢ والمغرب ١/٣٧٠.

كرره العرب فى غزلياتهم، فقالوا إن الخدود مشرقة كالصباح، والقدود أو القامات كغصون الأراك، وجواهر العقود على الترائب كالنجوم، والحدق تسبى الضراغم والأسود، وكأنما الأعين والنهود أسنّة وظبا سيوف، وكأنما الضفائر ليال حالكة السواد. وكل ذلك صاغه ابن البين هذه الصياغة الرائعة، فإذا كل هذه الصور تأخذ نسقا أندلسيا جديدا، ينعش الفكر بعبقه. ومن أصحاب الغزل المبدعين المعاصرين لابن البين ابن زيدون وسنفرد له ترجمة مع صاحبته ولادة.

ونلتقى بابن الحداد الذى ترجمنا له بين شعراء المديح، ويقول ابن بسام فى ترجمته[1] له: «كان قد مُنِى فى صباه بصبية نصرانية ذهبت بلبه كل مذهب.. وكان يسميها نُوَيرة كما صنع الشعراء الظرفاء قديما فى الكناية عمن أحبوه».. وكان اسمها الحقيقى جميلة» وإنما اختار لها هذا الاسم تصغيرا لكلمة «نار» التى أشعلها حبها فى قلبه» وأنشد ابن بسام له فيها إحدى عشرة منظومة بين قصيدة ومقطوعة، وفيها يعرض مرارًا لعقيدة التثليث المسيحية وللقسس والصلوات فى الكنائس، وهو يستهلها بثانية يذكر فيها حضوره لرؤية فتاته المسيحية الاحتفالَ بعيد فصحٍ فى إحدى الكنائس وقد تراءى الأسقف ممسكا بمصباح وعَصًا ومن حوله القسس وعينه تسرح - كما يقول - فى الحسناوات المسيحيات، والجميع يتلون صحف الإنجيل، ويخلص من ذلك إلى وصف مشاعره تلقاء فتاته فيقول[2]:

الشمسُ شمسُ الحسنِ من بينهم	تحت غَماماتِ اللُّثاماتِ
وناظِرى مختلِسٌ لَمْحَها	ولَمْحُها يُضرِمُ لَوْعاتى
وفى الحَشا نارُ نُوَيْرِيَّةٌ	عُلِّقْتُها منذ سُنَيّاتِ
لا تنْطِفى وقتًا وكم رُمْتُها	بل تَلْتظى فى كل أوقاتى

وفى ذكر ابن الحداد لغمامات اللثامات فى البيت الأول ما قد يشير إلى أن فتاته كانت راهبة، ويؤكد ذلك أنه دائما فى أشعاره لها لا يراها إلا فى الكنائس وبين القسس فى أثناء التراتيل والصلوات مع تكراره لذكر الصلبان وعقيدة التثليث. وكان حبا فى صباه كما يقول ابن بسام - أو فى بواكير شبابه، وكان من جانب واحد إذ لا وصف فيه للقاء ولا لوداع.

---

(١) الذخيرة ٦٩١/١ وما بعدها.

(٢) الذخيرة ٧٠٥/١.

وكان فى هذا العصر كثيرات من الحرائر والجوارى يحسنَّ نظم الشعر، إذ كان الآباء - أمراء ووزراء وعلماء وأدباء - يعنون بتثقيف فتياتهم، كما مر بنا فى غير هذا الموضع، وبالمثل كانت هناك عناية واسعة بتثقيف الجوارى، وكانت تستيقظ فى أثناء هذا التثقيف ملكات بعضهن الشعرية، واشتهرت من دانية «العبادية»[1] التى أهداها أميرها مجاهد العامرى إلى المعتضد أمير إشبيلية بأنها كانت أديبة ظريفة كاتبة شاعرة مع معرفة دقيقة باللغة، واقترن بها المعتضد، وتصادف أن سهر ليلة لأمر شغله، وكانت نائمة، فقال:

تنامُ ومُدْنفها يَسْهَرُ　　وتَصْبر عَنْه ولا يَصْبِرُ

فأجابته بديهة بقولها:

لئن دام هذا، وهذا بهِ　　سيهلك وَجْدًا ولا يَشْعُر

وكانت لا تقل عنها إجادة للشعر مع سرعة البديهة «اعتماد»[2] الملقبة بالرُّمَيْكيَّة زوجة المعتمد ابنه، وهى إشبيلية، ويقال إن سبب معرفته بها أنه ركب نهر إشبيلية فى نزهة مع ابن عمار وزيره، وقد أحالت الريح سطح النهر إلى ما يشبه زَرَدَ الدِّرْع: فقال المعتمد لابن عمار: أجِزْ

صَنَعَ الريحُ من الماءِ زرَدْ

فأطال ابن عمار التفكير ولم تسعفه بديهته، فقالت فتاة من الغسَّالات على حافَّة النهر:

أىّ دِرْعٍ لقتالٍ لو جَمَدْ

فعجب ابن عباد من حسن ما أجازت به الفتاة الشطر الذى صاغه، مع عجز ابن عمار الشاعر النابه، والتفت إليها، فأعجبته، فسألها: أأنت متزوجة؟ فقالت: لا. فتزوجها وهى أم أولاده النجباء: الراضى وإخوته وأختهم بثينة وكانت شاعرة. وعلى شاكلة الرُّميكية والعبادية «غاية[3] المنى» جارية المعتصم بن صمادح أمير المرية، وكانت قينة مغنية وتجيد نظم الشعر، وعُرضت عليه، فلما مثلت بين يديه قال لها: ما اسمك؟ قالت: غاية المنى، فقال لها: أجيزى:

سَلْ هَوَى غايةِ المُنَى

---

(١) انظر فى العبادية والخبر المذكور عنها نفح الطيب ٢٨٣/٤

(٢) راجع فى اعتماد الرميكية النفح ٢١١/٤.

(٣) انظر فى غاية المنى القسم الثانى من السفر الثامن للمراكشى ص ٤٨٨ وما بعدها.

فقالت بديهة:

مَنْ كَسَى جِسْمِىَ الضَّنَا
وأرانى مذلَّها سيقول الهوى أنا

وأعجب بها، واستبقاها بين جواريه، وربما كانت أم ابنته أم[1] الكرم، وكان أبوها المعتصم قد اعتنى بتأديبها، لما رأى من ذكائها، حتى نظمت الشعر والموشحات وأحبَّت - كما يقول ابن سعيد - الفتى المشهور بالسمار، وأنشد لها:

ألا ليت شِعْرِى هل سبيلٌ لخلوةٍ ينـزَّهُ عنهـا سَمْـعُ كـلِّ مـراقـبِ
ويـاعجبًا أشتـاق خَلْوَةَ مَنْ غدا ومَثْـواه مـا بين الحَشَـا والتَّـرائِبِ

والصورة فى البيت الثانى تدل على أنها كانت شاعرة تجيد نظم الشعر، ولعلها كانت تجيد أيضا نظم الموشحات.

ونمضى إلى عصر المرابطين، ويلقانا غزل كثير على ألسنة الشعراء، إذ لا يكاد يوجد شاعر فذ إلا وهو ينظم فيه معبرا عن مشاعره الوجدانية، من ذلك قول الأعمى التطيلى[2]:

أريقُ ثَغْـرِك أم بنتُ الزَّراجينِ وعَرْفُ نَشْرِك أم مسكٌ لدَارِينِ[3]
جسمٌ بَـرَاه الإلهُ حين صـوَّرهُ من ماء لؤلؤةٍ والناسُ من طينِ
وحاش لله أن يُعْزَى إلى بَشَرٍ أو أن يضافَ لِحُسْنِ الخُرَّدِ العِينِ[4]
يُديرُ لى مُقَلًا مَرْضَى بـلا سَقَمٍ يُميتنى تـارةً فيـهـا ويُحْـييـنـى
كم زَفْرَةٍ تستعيرُ النـارُ وَقْدَتَهـا ولـوعـةٍ طَىَّ أضـلاعى تنـاجينى

وهو يقرن ريق صاحبته إلى الخمر ورائحتَها الطيبة الذكية إلى مسك دارين: مرفأ لسفن الهند على الخليج العربى كانت تُحْمَل إليه أنواع المسك والطيب، طالما أشاد بطيبه ومسكه شعراء العرب. ويجعل صاحبته ملاكا صوَّره الله - حين خلقه - من ماء لؤلؤة

(١) راجع فى أم الكرم المغرب ٢/٢٠٢ وما بعدها.
(٢) الديوان ص ٢١١.
(٣) الزراجين جمع زرجون: شجرة العنب. بنت الزراجين: الخمر. العرف والنشر: الرائحة الذكية الطيبة.
(٤) الخرد جمع خريدة: الحسناء. العين جمع عيناء: واسعة العين الفاتنة.

إشادة بجمالها الخلاب الذى لا يقاس به - ولا يمكن أن يُقْرن به - جمال الخُرَّد العين أو الفاتنات ساحرات العيون من البشر، ويشعر فى حرارة زفراته كأنها أنفاس نار متقدة وتكتظ أضلاعه بلوعات محرقة ممضة. وسنخص معاصره ابن الزقاق بكلمة أو ترجمة مختصرة. ولابن عبدون[١]:

وما أنسَ لَيْلَتنا والعِناقُ قد مَزَجَ الكلَّ منا بكُلّ
إلى أن تقوَّس ظَهْرُ الظلامِ وأَشْمَط عارضُه واكْتَهَلْ[٢]
ومسَّ رداءَ رقيقِ النَّسيمِ على عاتق الفَجْر بعضُ البَلَلْ

وقد صوَّر هرم الليل وشيخوخته وهو يكاد يلفظ أنفاسه لتفلُت أضواء الفجر وحواشيه بعجوز تقوس ظهره ووهنت عظامه من الهرم والشيخوخة، واشتعلت صفحة خدِّه شيبا. والتفت إلى ما يحدث من برودة الجوفى أخريات الليل، فتخيل النسيم العليل حينذاك رداء رقيقا على منكب الفجر مسَّه بعض البلل، وهى صورة بديعة. ويقول ابن خفاجة فى وصف صاحبة له[٣]:

غزاليَّةُ الألحاظ رِيميَّةُ الطُّلَى مُدامِيَّةُ الأَلْمى حَبابيَّةُ الثَّغْرِ[٤]
تَرَنَّحُ فى مَوْشيَّةٍ ذهبيَّةٍ كما اشتبكتْ زُهْرُ النجوم على البَدْرِ[٥]
تلاقَى نسيبى فى هواها وأدمعى فمن لؤلؤ نظمٍ ومن لؤلؤ نَثْرِ
وقد خلعتْ ليلا علينا يَدُ الهَوَى رداءَ عِناقٍ مزَّقَتْهُ يَدُ الفَجْرِ

والأبيات - مثل أشعار ابن خفاجة - تكتظ بالصور، فصاحبته مثل الغزال فى سحر عيونه والظَّبْى فى طول جيده أو عنقه وجماله، أما شفتاها فَمَبْسِمُ دَنِّ خمرى، وأما ثغرها فعلى حِفافيه حَبابُ هذا الدنّ المسكر، ومن حولها وَشْى ثوبها الذهبى يتجمع كنجوم مشرقة مضيئة حول القمر المنير. ويبدع ابن خفاجة حين يتصور - فى البيت الأخير - يد الحب والهوى تنسج حوله هو وصاحبته رداء غريبا، هو رداء العناق، ويأسى لأن يد الفجر امتدت له ممزقة إيذانا بالوداع. ويقول يحيى[٦] بن بقى المارة ترجمته بين الوشاحين:

---

(١) الذخيرة ٢/٧١٥ والمغرب ١/٣٧٥.
(٢) أشمط العارض: شابت صفحة الخد.
(٣) الديوان ص ٢٤.
(٤) الريم: الظبى خالص البياض. الطُّلى: العنق. المدام: الخمر. الألمى: الشفة تضرب خفيفا إلى السمرة. الحباب: الفقاقيع على وجه الكأس.
(٥) زهر النجوم: النجوم المشرقة المضيئة.
(٦) الذخيرة ٢/٦٣٦ والمغرب ٢/٢١.

بأبي غزالٌ غازلتْه مُقلتى بين العُذَيْبِ وبين شَطَّىْ بارقِ[١]
وسألتُ منه قُبْلَةً تَشْفِى الجوَى فأجابنى فيها بوعدٍ صادقِ[٢]
بِتْنا ونحن من الدُّجى فى لُجَّةٍ ومن النجوم الزُّهْر تحت سُرادقِ
حتى إذا مالتْ به سِنَةُ الكرَى زَحْزَحْتُهُ شيئا وكان مُعانقى[٣]
باعدتُه عن أضلعٍ تشتاقه كيلا ينامَ على وِسادٍ خافقِ

وهو يتخيل أنه لقى صاحبته بين موضعين من المواضع التى طالما لقى فيها شعراء الغزل العربى محبوباتهم، وهما العذيب وبارق، ويقول إنها واصلته ومدَّت له فى الوصال واللقاء، وأنها باتت معه فى ليلة تحت سرادق النجوم المضيئة، معانقة له، حتى إذا ألم النوم بمعاقد أجفانها دفعه حنوُّه عليها إلى أن يزحزحها قليلا عن صدره الذى توسدته، حتى لا تنام - كما يقول على وِسادٍ خافق بحبها نابض نبضا شديدا. ويقول ابن باجة المتفلسف[٤]:

همُ رحلوا يومَ الخميسِ غُدَيَّةً فودَّعْتُهم لما استقلُّوا وودَّعوا[٥]
ولما تولَّوا ولَّت النفسُ إثْرَهمْ فقلت: ارْجِعى قالتْ إلى أينَ أرجِعُ
ولى جسدٌ ما فيه لحمٌ ولا دمٌ ولا هو إلا أعْظُمٌ تَتَقَعْقَعُ[٦]
وعينان قد أعْماهما كثرةُ البُكا وأُذْنٌ عَصَتْ عُذَّالَها ليس تسمع

وهو يقول إن صاحبته وأهلها رحلوا يوم الخميس صباحا فودَّعوه وودَّعهم ورحلت نفسه فى إثرهم، وعبثا يدعوها إلى الرجوع وهى تردد إلى أين أرجع؟ وقد ضنى جسدى ونحل حتى لم يبق فيه لحم ولا دم، إذ أصبح أعظما فوق أعظم. وحين تتحرك أى حركة تسمع قعقعتها وأصواتها، فقد صار جلدا على عظم كما يقولون، وابيضت عيناه من كثرة البكاء وصارت أذنه صماء لا تسمع ما يقوله العذال من لغو وهراء.

ومن الشاعرات البارعات اللائى أظلَّهن عصر المرابطين ولحقن - فى أغلب الظن - عصر الموحدين نَزْهون وحمدة الغرناطيتان. أما نزهون[٧] فيقول ابن الأبار أحسب أن

(١) العذيب: ماء. بارق: جبل. وهما بنجد.
(٢) الجوى. الوجد. (٣) الكرى: النوم.
(٤) الخريدة ٢/٣٣٣. (٥) استقلوا: رحلوا.
(٦) تتقعقع: تتحرك مع صوت.
(٧) انظر فى نزهون وأخبارها وشعرها المغرب ١٢١/١ وتحفة القادم لابن الأبار رقم ١٠٠ مكررًا والذيل والتكملة للمراكشى (القسم الثانى من السفر الثامن، نشر بنشريفه بالمغرب ص ٤٩٣ والبغية ص ٥٣٠ والنفح ٢٩٥/٤ والإحاطة وانظر ٤٢٤/١، ٣٤٤/٣ وراجع فى أبيها التكملة رقم ٥١٥.

أباها محمد بن أحمد الملقب بالقليعى قاضى غرناطة إلى أن توفى سنة ٥١٠ وإذا صح ذلك كانت من بيت فقه وقضاء. وعلى كل حال تدل أخبارها أنها كانت من بيت نابه، إذ نجد أهلها يلاحظون ذكاءها، فيعنون بتخريجها فى الأدب. ويقال إنه كان بين من قرأت عليهم - كما مر بنا - المخزومى الذى مر ذكره بين شعراء الهجاء. ونجد لها مطارحات ونوادر مع الشعراء، مما يدل - من بعض الوجوه - على أنها اتخذت لنفسها ندوة كانت تلقى فيها الشعراء. ويقال إن الكتندى الشاعر الغرناطى دخل يوما مجلسا كانت تقرأ فيه بعض الشعر على المخزومى فقال له - وكان أعمى - أجِزْ:

لو كنت تبصر من تكلِّمُهُ

فأُفحم الأعمى ولم تسعفه بديهته، فبادرت نزهون قائلة ومثنية على نفسها فى سرعة خاطفة.

لغدوتَ أخرسَ من خلاخلِهِ

البدرُ يَطْلُعُ من أزِرَّتِهِ والغُصْن يَمْرَحُ فى غَلائلِهِ

ويروى أنه لقيها ابن قزمان الزجال وعليه غفارة صفراء، وكان قبيح المنظر، فقالت له: أصبحت كبقرة بنى إسرائيل ولكن لا تسرُّ الناظرين، تشير إلى وصف القرآن الكريم لبقرتهم: بأنها (صفراء فاقع لونها تسر الناظرين). ومر بنا فى حديثنا عن المخزومى بين شعراء الهجاء أنه لم يسلم منه أحد، حتى تلميذته نزهون، وأنها ردت عليه وألقمته حجرا أخرسه. وأما حمدة[1] فكانت ابنة مؤدب فاضل يسمى زياد بن بقىّ ربَّاها هى وأختها زينب تربية فاضلة تثقفا فيها ثقافة أدبية واسعة، حتى أحسنتا نظم الشعر وصوغه. ويترجم ابن الأبار لحمدة فى التكملة وفى التحفة ويقول: من أهل مدينة وادى آش (بالقرب من غرناطة) وإحدى الأديبات المتظرفات العفيفات، وفى كتاب المُغرب أنها حسناء المَغرب وشاعرة الأندلس. وينقل المقرى عن ابن سعيد أنها هى وأختها زينب من نساء غرناطة المشهورات بالحسب والجلالة. ويذكر الرواة أنها خرجت مع صواحب لها إلى النهر فى مدينة وادى آش، وهو يجرى بين بساتين ورياض، ولما خلعن

---

(١) راجع فى ترجمة حمدة بنت زياد وأختها زينب المغرب ١٤٥/٢ وتحفة القادم رقم ١٠٠ والتكملة رقم ٢١٢٠ والمطرب ص ١١ والذيل والتكملة للمراكشى ٤٨٥/٨/٢ والإحاطة ٤٨٩/١ ونفح الطيب ٢٨٧/٤.

ثيابهن ونظرت إلى صاحبة لها من بينهن كانت تهواها، وألقين بأنفسهن فى النهر سابحات متلاعبات قالت فى محبوبتها:

أباح الدَّمْعُ أسْرارِي بوادى ... له فى الحسن آثارٌ بَوَادِى[1]
فمن نَهْرٍ يطوفُ بكلِّ رَوْضٍ ... ومن روضٍ يَرِفُ بكل وادى
ومن بين الظباءِ مَهاةُ إنسٍ ... لها لُبِّى وقد سلبتْ فؤادى[2]
لها لَحْظٌ ترقُّدُه لأمرٍ ... وذاك الأمرُ يمنعنى رُقادى
إذا سَدَلتْ ذوائبها عليها ... رأيت البَدْرَ فى جُنْحِ الدآدى[3]
كأنَّ البدر مات له شقيقٌ ... فمن حُزْنٍ تَسَرْبل بالسَّوادِ

والأبيات بالغة الروعة، وبدون ريب كانت صاحبتها فى منتهى الفتنة والحسن والجمال، وكانت السباحة فى النهر والأشجار مصطفة من حوله متحلية بالورود عبقة بالرياحين، وصاحبتها التى خلبت لبها تلعب معها ومع صواحبها فى المياه، ولطالما سهرت الليالى تفكر فى سحر عينيها، وها هى تسدل أحيانًا ضفائرها على جوانب من وجهها، ويطل وجهها من خلالها، وكأنما ترى قمرا يطل فى جنح الليالى الحالكة أو كأنما مات له شقيق فهو يلبس السواد عليه. وتقول أختها زينب[4]:

ولما أبَى الواشون إلا فِراقَنا ... ومالهمُ عندى وعندك من ثارِ
وشنُّوا على أسْماعنا كلَّ غارةٍ ... وقلَّ حُماتى عند ذاك وأنصارى
غزوتهمُ من مُقْلتيك وأدمعى ... ومن نَفَسى بالسَّيْف والماء والنارِ

وواضح ما فى البيت الأخير من تشبيه للمقلة والدموع والنفس الحار على الترتيب بالسيف والسيل والنار، وهى مقابلة بديعة، ويسمى البلاغيون هذا الصنيع باسم اللف والنشر، وهو كثير فى الشعر العربى من قديم، ومنه أمثلة كثيرة فى الشعر الأندلسى قبل زينب.

وتظل سيول هذا الغزل الرائع تتدفق من كل بلدة أو مدينة أندلسية فى عصر الموحدين، ويلقانا فى صدره محمد بن عياض صاحب المقامة العياضية، وهى مقامة غزلية،

---

(١) بوادى الأخيرة: ظاهرة.
(٢) المهاة: بقرة الوحش واسعة العينين.
(٣) الدآدى: الليالى الأخيرة فى الشهر القمرى، وهى حالكة السواد. جنح الليل: ظلامه.
(٤) نفح ٢٠٨/٣ وفى المغرب أن الأبيات لأختها حمدة.

ولذلك تتضمن بعض مقطوعات فى الغزل، ومن أروعها قوله[١]:

أنكرتُ إلا سَقَامَ طَرْفٍ وأىُّ سيفٍ بلا ذُبابِ[٢]
إن أنا لاحظتُه تَوارَى من دَمْعةِ العين فى حِجابِ
أبْصَرْتُهُ جدولا ووُرْقًا من دَمْعِ عَينىَّ وانتحابى[٣]

وتشبيه العين بالسيف القاتل تشبيه متداول فى الشعر العربى من قديم، ولكن ترقرق الدموع فى عينيه بالبيت الثانى حتى لتصبح حِجابا بينه وبين رؤية صاحبته تشبيه طريف لم يسبق إليه. أما تشبيه الدموع بالجدول وتشبيه انتحابه بهدير الحمام فكلاهما متداول قديما، وإن كان قد أخرجهما إخراجا طريفا. والغزل فى الأندلس يتشابك بقوة مع الغزل العربى الطاهر العفيف، ومن أهم ما يلاحظ فيه الارتباط الوثيق بالعناصر البدوية القديمة على نحو ما يلقانا فى غزلية لمتفلسف الأندلس أبى بكر محمد بن طُفَيْل الذى تحدثنا عنه فى نشاطها الفلسفى، إذ يستهلها على هذا النمط[٤]:

ألمّتْ وقد نام الرقيبُ وهَوَّما وأسْرَتْ إلى وادى العَقيق من الحِمَى[٥]
وجرّتْ على تُرْب المحصَّب ذَيْلَها فما زال ذاك التُّرْبُ نَهْبًا مقسَّما[٦]
تناقلَه أيدى التِّجارِ لَطِيمةً ويَحْمله الدارىُّ أنَّى يَمَّما[٧]
ولما رأتْ أن لا ظلامَ يُجِنُّها وأن سُرَاها فيه لن يتكتَّما[٨]
أزاحتْ غَمامَ العَصْب عن حُرِّ وَجْهِها فأبدتْ شُعاعا يَرْجِع الطَّرْفَ مظلما[٩]
فكان تَجَلِّيها حِجابَ جمالِها كشمس الضُّحىَ يَعْشَى بها الطَّرْفُ ساهما

ولو أننا لم نعرف صاحب هذه الأبيات وأنه أندلسى لظنناه أمويا من شعراء نجد العذريين أو عباسيا ممن كانوا يتمثلون العناصر البدوية مثل أبى تمام متخذين منها رموزًا لإسباغ العذرية والعفاف الملتاع على غزلهم، وها هو الشاعر الأندلسى بدوره يتخذ تلك العناصر

---

(١) مغرب ١/٣٤٥.
(٢) ذباب السيف: حده القاطع.
(٣) ورق جمع أورق: ما لونه رمادى من الحمام.
(٤) مغرب ٢/٨٥ والمعجب ص ٣١٦ وتحفة القادم رقم ٤٣.
(٥) هوم: مال رأسه فى النعاس. أسرت: سارت ليلا. وادى العقيق: مواضع كثيرة بالمدينة وبالطائف ونجد.
(٦) المحصب: موضع رمى الجمار بمنى.
(٧) اللطيمة: وعاء المسك. الدارى: العطار نسبة إلى دارين: فرضة أو مرفأ كان يحمل إليه قديما المسك من الهند. يمم: قصد.
(٨) يجنها: يسترها. سراها: سيرها ليلا.
(٩) العصب: العصابة على الرأس وطرف الوجه. حر ظاهر.

رموزا تصور كيف أن جذوة الحب العذرى الطاهر لا تزال متقدة فى نفوس الشعراء هناك، مما جعل ابن طفيل يستعير من المدينة وادى العقيق ومن مكة المحصَّب، وجعل التراب الذى يمر عليه ذيل ثوب صاحبته مسكا، يتقاسمه الناس وينهبونه، ولمعت فى ذهنه ذكرى العطار الذى ذكره الغزلون القدماءُ مرارا فى مثل قول الشاعر العربى القديم متحدثا عن ولع صاحبته بالمسك والتعطُّر به:

إذا التاجرُ الداريُّ جاءَ بِفَأْرَةٍ من المسكِ راحتْ فى مَفارِقها تَجْرِى[1]

ويفضى إلى الحديث عن جمال صاحبته الذى بهره، ويقول إنها بلغت من إشراقها ما جعلها ترى الظلام لا يسترها مهما صنعت، فأزاحت العصابة عن رأسها وجوانب وجهها فأبدت من أشعة ضوئها ما يفوق أشعة الشمس فى الصباح، بل إن ضوء الصباح ليبدو مظلما بالقياس إلى ضوئها، ولعله فى ذلك نظر إلى قول أبى تمام:

بيضاء تَسْرِى فى الظلام فيكتسى نورا وتَبْدُو فى الضياء فيظلمُ

وما يلبث ابن طفيل أن يحلق فى خياله، إذ يتصور جمال صاحبته حجابا لها يُعْشى الناظرين فيدفعهم عن النظر إليها، وهو حجاب أروع من حجاب الدموع المار بنا آنفا عند محمد بن عياض. وكان يعاصر ابن طفيل أبو جعفر بن سعيد وسنفرد له كلمة مع صاحبته حفصة الركونية. ونلتقى فى مدينة الجزيرة الخضراء بشاعر من بيت نباهة وثراء هو ابن أبى روح، وله يصف ليلة[2] قضاها مع صاحبته فى متنزه على ضفة نهر الجزيرة الخضراء المسمى وادى العسل لحلاوته[3] كما يقول ابن سعيد:

عَرِّج بوادى العَسَلِ وقِفْ عليه واسْأَلِ
عن ليلةٍ قطعتُها صُبْحًا برغم العُذَّلِ
أرشُف خمرَ الرِّيقِ أو أقطفُ وردَ الخجَلِ
وقد تعانقنا اعتنا قَ القُضْبِ فوق الجدولِ[4]

---

(١) فأرة المسك: وعاؤه. الداري: العطار.

(٢) رايات المبرزين لابن سعيد (تحقيق د. النعمان القاضى طبع القاهرة) ص ٥٤.

(٣) المغرب ١/٣٢٠ إذ يقول ابن سعيد عندما يخرج الإنسان من باب الجزيرة الخضراء يجد المياه الجارية والبساتين النضرة. ونهرها يعرف بوادى العسل لحلاوته وعليه حاجب مشرف على النهر والبحر فى نهاية من الحسن يسمى الحاجبية، ومن متنزهاتها النقا.

(٤) القضب: الغصون.

والشَّمْعُ فى دِرْعِ الغَديرِ كَعَوالى الأَسَلِ[1]
بِتْنا إلى أنْ خَشَنا إلى النَّوى بَرْدُ الحُلى

وابن أبى روح يتمثل فى البيت الأخير من المقطوعة ما جاء فى كتاب الأمالى من أن عربية سُئلت كيف تعرفين الفجر؟ فقالت: أعرفه ببرد الحلى. وهو يصور ليلة هنيئة له قضاها مع صاحبته متعانقين يقطف من ورد الخجل ويجنيان معا من زهرات حبهما، وكأنما كانت ليلة من ليالى العرس، فالشموع متقدة متلألئة على سطح الغدير وعادة يشبهه العرب بالدرع لما تحدثه الرياح فيه من غضون. ويقول محمد بن سفر المترجم له بين شعراء الطبيعة[2]:

واعدتُها والشمسُ تَجْنَحُ للنَّوى بزَوْرتِها ليلا وبَدْرُ الدُّجىَ يَسْرى
فجاءتْ كما يمشى سَنَا الصُّبْحِ فى الدُّجىَ وطورًا كما مرَّ النسيمُ على النَّهْرِ
فعطَّرتِ الآفاق حولى فأشْعَرَتْ بمَقْدَمِها والعَرْفُ يُشْعِرُ بالزَّهْرِ[3]
فتابعتُ بالتَّقبيلِ آثارَ سَعْيِها كما يتقصَّى قارئٌ أَحْرُفَ السَّطْرِ
فبتُّ بها والليلُ قد نام والهوَى تنبَّه بين الغُصْنِ والحِقْفِ والبَدْرِ[4]
أعانقُها طورًا وألْثِمُ تارةً إلى أن دعتْنا للنَّوى رايةُ الفجْرْ
ففَضَّتْ عقودًا للتعانق بيننا فيا ليلةَ القَدْرِ اتركى ساعةَ النَّفْرِ

والمعانى والأخيلة بديعة، فقد زارته وتارة كأنها سنا الصبح يتخلل الظلام أو كأنها النسيم العليل الذى يحيى النفوس، وعطرت الأرجاء بعرفها أو نشرها، وكأنما استحال الثرى تحت أقدامها طيبا ذكي الرائحة وهو ما ينى يقبِّل مواضع خَطْوِها، وكانت ليلة سعيدة نام فيها الليل واستيقظ الحب حتى كان الفجر وحتى كان الوداع، بل لكأنما كانت ليلة القَدْرُ المنيئة، وإنه ليهتف بها أن لا تنفر وتقبض أجنحتها عن الكون، حتى يؤجِّل الوداع ولو إلى حين.

ونلتقى بصفوان بن إدريس المتوفى سنة ٥٩٨ قبل إكماله الأربعين صاحب كتاب زاد المسافر فى شعراء زمانه المتردد ذكره فى الهوامش، وله يصف ليلة أنس عفيفة وصفا

---

(١) الأسل: الرماح: عواليها: أطرافها القاطعة.
(٢) النفح ١٩٩/٣.
(٣) العرف: الرائحة العطرة.
(٤) الحقف: الكثيب من الرمل.

بديعاً[١]:

يا حُسْنَهُ والحسْن بعض صفاتِهِ	والسِّحْرُ مقصورٌ على حركاتِهِ
بَدْرٌ لو آنَّ البدرَ قيل له: اقترِحْ	أملاً لقال أكون من هالاتـِهِ
صاحبتهُ واللَّيْـلُ يُذْكِي تحتـه	نارَيْن من نَفَسى ومن وَجنَاتِهِ[٢]
وضَمَمْتُهُ ضمَّ البخيل لمـالـهِ	أحْنو عليه من جميع جِهاتِهِ
أوثقتُـه فى سـاعِـدىَّ كـأنّـه	ظبىٌ أخافُ عليه من فَلَتاتِهِ
وأبِى عفافى أن أقبِّل ثغـرَهُ	والقلبُ مطوىٌّ على جَمَراتِـهِ
فاعجبْ لملتهبِ الجَوانح غُلَّةً	يَشْكُو الظَّما والماءُ فى لَهَوَاتِهِ[٣]

وصفوان يقول إن محبوبته جميلة جمالا خلب لُبّه، حتى ليتصور أن كل أمل للبدر أن يكون من هالات جمالها الفاتن. ويكون لقاء ذات ليلة، وهو يكاد يحترق من حبه المتقد فى جوانحه، كما يقول، ويأخذها بين ساعديه ويضمها إلى صدره ويعف عن تقبيلها، وهى طوع يديه، وهو ظامىء ظمأ شديدا، والماء فى أعالى حلقه، ويجاهد حتى لا ينزلق إلى صدره الملتهب ويطفىء غلته. وعلى هذا النحو يردُّنا غَزِلون أندلسيون إلى نجد وغزلها العذرى عند مجنون ليلى وأضرابه بمثل هذا التصوير الرائع للعفاف الملتاع، بجانب ما استشعروه من العناصر البدوية وعرض صورها البديعة على نحو ما رأينا عند ابن طفيل. ونلتقى فى عهد الناصر الموحدى (٥٩٥ - ٦١٠ هـ) بشاعره أحمد بن شَطْرِيّة الذى اختطفه الموت فى ريعان شبابه، ومن غزله الطريف[٤]:

سَتَـرَ الصُّبْـحَ بِـطُرَّهْ	وجَـلاَ الـليـلَ بِغُـرَّهْ
كـعبـةٌ لـلحُسْـنِ فى كـلِّ	فـؤادٍ منـه جَـمْـرَهْ
جـاءنى كالـظَّبْىِ فى أشْـرَاكـهِ	إذ حَـلَّ شَمْـرَهْ[٥]
ومَـضَـى عـنِّـى ولـكـنْ	بعـد ما خلَّفَ نَشْـرَهْ[٦]

ويقول على بن حريق[٧]:

(١) انظر فى ترجمة صفوان وشعره المغرب ٢٦٠/٢ ورايات المبرزين ص ١١١ والتكملة ص ٤٢٩ والتحفة رقم ٥٢ الإحاطة ٣٤٩/٣ ومقدمة كتابه زاد المسافر لعبد القادر محداد.

(٢) يذكى: يضرم ويوقد.

(٣) لهوات جمع لهاة: أعلى الحلق.

(٤) انظر المغرب ٢٤٠/١.

(٥) أشراك جمع شَرَك: حبالة الصائد.

(٦) نشره: عطره.

(٧) المغرب ٣١٩/٢.

كلَّمْتُه فاصفرَّ من خجَلٍ ... حتى اكْتَسَى بالعَسْجد الوَرِقُ
وسألتُه تقبيلَ وَجْنتِهِ ... فأبى وقال: أخاف أحترِقُ
حتى زَفيرى عاقَ عن أملى ... إن الشقىَّ بِريقِهِ شَرِقُ

وهو يشبه صفرة الخجل التى كست خد صاحبته بالعُسجد أو الذهب ووجنتها بالورِق أو الفضة، ويقول إن أنفاسه بلغ من حرارتها أن صاحبته خشيت لو قبَّلها أن يحترق خدها من زفيره، ويقول إن الشقىَّ بريقه شَرِقٌ أو غاصّ. ومن الغزلين بأخرة من عصر الموحدين سهل بن مالك الذى مر ذكره بين شعراء الفخر، وله متغزلا[1]:

ولما بدا ضوء الصَّباح رأيتُها ... تنفُضُ رَشْحَ الطلِّ عن ناعمٍ صَلْتِ[2]
فقلتُ: أخاف الشمسَ تفضح سِرَّنا ... فقالتْ: معاذَ الله تفضحُنى أختى

وسهل يتصور صاحبته زهرة جميلة تنفض عن وجهها الناعم المضىء فى الصباح نَدى العرق، ويخوِّفها من إذاعة الشمس لسرهما، وتطمئنه، فهى أختها ولن تذيع لها سرا. ويقول ابن سعيد[3] صاحب كتاب المغرب المبثوث فى الهوامش المتوفى سنة ٦٨٥ بتونس[4]:

وهبتُ فُؤادِى للمَباسم والحَدَقْ ... وحَكَّمْتُ فى جَفْنى المدامعَ والأرَقْ
ولم أستطع إلا الوفاءَ لغادر ... ويا ليتنى لما وَفيتُ لـه رَفَقْ
ومن أجله قد رقَّ جسمى صَبَابَةً ... ويا لَيْتَهُ لما رآهُ عليه رَقّ

ومنذ أواسط القرن السابع الهجرى - بل منذ هزيمة العقاب سنة ٦٠٩ نشعر أن نبع الغزل الذى كان متدفقا فى بلدان الأندلس أخذ يغيض وتغيض معه البهجة عن نفوس الأندلسيين لسقوط مدنهم واحدة إثر أخرى فى حجر نصارى الشمال، ولم يبق لهم سوى إمارة غرناطة التى ظلوا ثابتين فيها ثبوت الجبال الراسية، ولكن مع غير قليل من الأسى والإحساس بمستقبل مفجع ملبد بالغيوم. وطبيعى أن يعم الغزل فى تلك الإمارة غير قليل من التكلف وأن يُصاغ كثير منه للتعبير عن جناس أو تورية أو غيرهما من محسنات البديع، ومع ذلك لا يزال هناك من يتخففون من هذه المحسنات محاولين التعبير عن شىء من الوجد، ونشعر دائما عندهم بغير قليل من التصنّع وأنهم يبدئون ويعيدون فى خواطر

---

(١) رايات المبرزين ص ٨٦.
(٢) الجبين الصلت: الجبين الوضىء المشرق.
(٣) انظر مصادر ترجمة ابن سعيد بين المؤرخين فى الفصل الثانى.
(٤) المغرب ١٧٨/٢.

الغزلين قبلهم وأخيلتهم، على نحو ما سنرى فى الكلمة التى سنسوقها للحديث عن ابن خاتمة وغزله. ويشيد ابن الخطيب بما فى قصيدة لابن جُزَىّ من وجد قائلا إنها من الغراميات التى سلك فيها مسلك مجنون ليلى، وربما كان أجمل ما فيها قوله:[1]

تباعدتُ لما زادنى القُرْبُ لوعةً لعل فؤادى من جَوَاه يُفيقُ
ولا سلوةٌ تُرجَى ولا الصبْرُ ممكنٌ وليس إلى وَصْل الحبيب طريقُ
شجونٌ يَضِيقُ الصَّدْرُ عن زَفَراتها وشوقٌ نطاقُ الصبر عنه يَضِيقُ
فيا غائبًا عن ناظرىَّ أما يُرى لشَمْسك من بعد الغروب شُرُوق

وواضح أن الأبيات ليس فيها لوعة أمثال مجنون ليلى من أصحاب الحب العذرى، ولا فيها حرارة هذا الحب ولا ما يتّقد فى أفئدة العذريين من نيرانه. ويلقانا ركام هائل فى الغزل من زخارف البديع وكأنما أصبحت هى - لا الغزل ووجد المحب - الغاية فى هذا الغرض القديم من أغراض الشعر على نحو ما نرى فى قول ابن جُزَىّ[2]:

أبِحْ لىَ يا روضَ المحاسن نظرةً إلى وِرْدِ ذاك الخدُّ كنتُ لك الفِدَا
وبالله لا تَبْخَلْ علىَّ بِقَطْفَةٍ فإنى عهدتُ الروضَ يوصَفُ بالنَّدَى

وليس المراد بالندى المعنى القريب وهو قطراته الملائمة للروض وإنما المعنى البعيد وهو الكرم والسماح بما يريد، وهو - فى الواقع - لا يريد بالبيتين التعبير عن عاطفة حب، وإنما يريد التعبير عن تورية وهو لذلك يتكلف لها استعارة الروض والورد كما يتكلف طلب الإباحة، وكأنه بإزاء مسألة فقهية!

ويموج ديوان يوسف الثالث أمير غرناطة - المترجم له فى الفصل السابق - بالغزل، بل إنه محوره، إذ كثرة قصائده ومقطوعاته تدور عليه، وهو يكثر فيه من ذكر العفاف والعناصر البدوية كبارق وسَلْع والجَرْعاء والعُذَيْب والرقمتين والغزال والرِّيم والقِباب والخيام والإبل المودَّعة. وحقا هذا كله يطبع به الغَزِلون الأندلسيون أشعارهم وصلا محكما لها بالشعر العذرى ودقائقه الشعورية، غير أن حب يوسف الأمير حب سطحى متكلف أو هو حب مترف لا ينبع من القلب، مع أنه يكثر من ذكر الشريف الرضى ومهيار غير أن غزله ينقصه ما عندهما من الرقة والوجد واللوعة وأيضا ما عندهما من صفاء التعبير وعذوبته، ومن أجمل ما نقرأ له فى غزلياته قوله:

---

(١) الكتيبة الكامنة للسان الدين بن الخطيب ص ٢٢٥.

(٢) الكتيبة الكامنة ص ٢٢٧.

هل البانُ يحكى من معاطفكِ القَدَّا أو الوَرْدُ فى توريده يُشْبه الخَدَّا
لقد أخطأ التشبيه مَنْ حَسِبَ السُّهَا يقـاوم فى آفاقـه القمر السَّعْـدا
وهل لحُلَى ليلى نظيرٌ وإن هُمُ يظنون منها الثَّغر قد أشبه العِقْدا
هى الغايةُ القصوى محاسِنُ لم تجد شبيهًا لها فى الغانياتِ ولا نِدًّا

وهو يريد أن يقول إن قدَّ ليلى أرشق من قَدِّ البان وحمرة خدها تفوق حمرة الورد جمالا وبهاء، ومَثَلُ أترابها منها مثل نجم السها الخافت الذى لا يكاد يبين سَناه بالقياس إلى ضوء البدر الذى يملأ الآفاق نوره، وثغرها فى بياضه وصفائه يشبه درر العقد المتلألئة. وكل هذه التشبيهات مرت بنا فى أخيلة بديعة تصور انبهار الغزلين بجمال صواحبهن، وقد أضعفها عنده أيضا عرضها فى صور من الاستفهام واقترانها بالحسبان والظن.

ولعله يحسن بنا أن نتوقف قليلا عند نفر من شعراء الغزل الأندلسيين المبدعين وهم: الرمادى، والشريف الطليق، وابن زيدون وولادة، وابن الزقاق، وأبو جعفر بن سعيد وحفصة الركونية، وابن خاتمة.

الرَّمادى[1] الكندى

هو أبو عمر يوسف بن هرون الكندى المعروف بالرمادى، ويقول مترجموه إن نسبته إلى قبيلة كندة جعلت كثيرين من شيوخ الأدب فى زمنه، يقولون: فُتح الشعر بكندة وختم بكندة يعنون امرأ القيس الكندى فى الجاهلية والمتنبى والرمادى القرطبى الكنديين. أما لقبه الرمادى فيقول ابن بشكوال فى الصلة إنه تعريب لكنية إسبانية هى: «أبوجنيس» ويبدو أنه كناه بها أحد معاصريه على نحو ما مرَّ فى كُنيات وألقاب شعراء آخرين مثل البَلِّينة أى الحوت. وقال ابن سعيد فى المغرب إنه منسوب إلى رمادة من قرى مدينة شلب فى الجنوب الغربى للأندلس، وربما كان قول ابن سعيد أكثر دقة لأنه أعرف بشلب وقراها، ولو كانت الكلمة نقلا لكنية: «أبى جنيس» الإسبانية أو

---

(١) انظر فى ترجمة الرمادى وشعره الجذوة ص ٣٤٦ والمطمح ص ٦٩ والبغية ص ٤٧٨ والصلة ص ٦١٣ والمغرب ٣٩٢/١ والمطرب لابن دحية ص ٦٦ وما بعدها وابن خلكان ٢٢٥/٧ واليتيمة ١٤/٢ ، ٩٩ وما بعدها ومعجم الأدباء ٦٢/٢٠ والذخيرة ٣٢٢/١ و ١٤١/٢ و ٣٤٦/٣، ٨٢١ و ١٢٠/٤ وانظر تاريخ الأدب الأندلسى عصر سيادة قرطبة للدكتور إحسان عباس ص ١٥٥.

الرومانثية لقيل: «أبو الرماد» لا الرمادى. وقد تتلمذ لأبى على القالى وروى عنه كتاب النوادر الملحق بالأمالى، وله فيه مدحة بديعة. ويبدو أنه درس كتبه بعده للطلاب إذ يذكر ابن سعيد بين طلابه بقرطبة أميرًا من بنى ذى النون الطليطليين. وأخذ يشتهر فى الشعر منذ عصر الحكم المستنصر، ويقول الفتح بن خاقان فى المطمح إنه: شاعت عنه أشعار فى دولة الحكم ورجالها سدَّد إليهم سهاما فأوغرت عليه الصدور،وسجنه الحكم دهرا، ثم رُدَّت إليه حريته بعد وفاته، وفى سجنه ألف كتابا عن الطير ختم كل حديث له فى طائر بأبيات فى مديح الحكم ولكنها لم تُلن قلبه، ويبدو أنه بدأ اللمز له ولرجاله حين أمر بإراقة الخمور فى جميع الجهات بالأندلس، إذ نرى للرمادى قصيدة يتوجع فيها متألما لشاربيها. وفى أشعاره بعض خمريات وبعض غزل فى الغلمان ولا ندرى أكان ينظم فى ذلك عن عاطفة حقيقية أو محاكاة لأبى نواس وأضرابه من المشارقة، إذ نراه يصرح مع خمرياته وغزلياته فى السقاة بمثل قوله:

فُتِّحتِ الجنَّةُ من جَيْبِهِ فبتُّ فى دَعْوةِ رضوانِ[1]
مروَّةٌ فى الحبِّ تَنْهى بأنْ يجُـاهَـرَ اللَّهُ بعصيـانِ

وقوله:

ومابىَ فخرٌ بـالفجور وإنمـا نصيبُ فجورى الرَّشْفُ والشَّفَتانِ

وأكبر الظن أنه لم يكن ماجنا. ويقال إنه كما مدح الحكم المستنصر مدح المنصور بن أبى عامر حاجب ابنه المؤيد، ولم يصلنا شىء من مدائحه لهما، وعاش عشر سنوات بعد ابن أبى عامر إذ توفى سنة ٤٠٣. وقد سقط ديوانه من يد الزمن غير أن الذخيرة والجذوة والمغرب واليتيمة للثعالبى تحتفظ جميعا بغزل له غير قليل، وهو يطبع بطابعين: طابع الرقة البيِّن فى مثل قوله:

هُـوَ ظـالمى لكنْ أرقُّ عليـه مـن أن أُجِيـلَ الـلحظَ فـى خَـدَّيْـهِ
أَغْفَيْتُ رِقَّـةَ وجْنَتَيْـهِ مـن أذَى عَيْنى ومـا أُغْفِـيتُ مـن عَيْـنيـه

ومع ما يحمل البيتان من رقة متناهية إذ يقول إنه يخاف على خدود صاحبته من نظراته أو كما يسميها أذى عينه يحملان أيضا الخاصة الثانية فى غزله، وهى البعد فى التصور حتى ليصبح وهما من الأوهام على نحو ما أصبحت نظراته أذى يوشك أن يلم بالخدود، ولعله

---

(١) جيب الثوب: فتحته العليا.

يشير بذلك إلى الحياء والخجل الذى يلم بصاحبته فتحمر وجنتاها حين تلاحظ نظراته. ومن ذلك ما أنشده الحميدى فى الجذوة من قوله:

غـدًا يرْحَلون فيـا يومُ رِسْلَـ ـكَ كُنْ بالظلام بطىءَ اللّحاقِ[1]
ويـا دَمْعَ عينىَ سُـدَّ الـطّريقَ وأفرغْ عليهم نَجيعَ المـآقى[2]
ويـا نَفَسِى جِئْهُمُ من أمـام وقـابلهمُ بـنسيمِ احـتـراقِ
ويـاهمُّ نفسى بهمْ كُنْ ظلامـاً وقَـيِّـدهمُ عن نَـوًى وانـطلاقِ
ويـاليـلُ من بعد ذا إنْ ظَفِرْ تَ بالصُّبْح فاقذفْ به فى وَثاقِ

فصاحبته سترحل مع أهلها غدا، وهو يتضرع لليوم أن يتريث فى مسيرته، حتى يتأخر ليل الغد المؤذن بالفراق، ويتجه لدموعه يأمل أن تستحيل جدولا من الدم القانى، فتسد الطريق على هذا الركب، كما يتجه إلى نَفَسه الحارّ بالحب وشراره أن يلفح الركب بلهيبه المشتعل حتى لا يستطيع مسيرا، وبالمثل يتجه إلى هموم نفسه مبالغا فى وهمه إذ يطلب إليها أن تنشر ظلامها، بحيث لا يستطيع الركب انطلاقا، وحتى الليل يبالغ فى وهمه إزاءه، فيطلب إليه إن ظفر بالصبح أن يأسره ويشد من حوله الوثاق. وكل ذلك إغراق فى الوهم ما بعده إغراق، وعلى شاكلته قوله:

على كَمَدى تَهْمِى السحابُ وتَذْرِفُ ومن شَجَنِى تَبْكى الحمامُ وتهتفُ

فالسحاب إنما يذرف دموعه لما يرى من كمده وهمِّه وضناه، والحمام إنما يبكى وينوح لما يرى من شجنه وحزنه، ومن طريف صوره الغزلية قوله:

وإذا أراد تنـزُّهًا فى رَوْضَـةٍ أخذَ المِراةَ بكفِّـهِ فأدارهـا[3]

وهى مبالغة واضحة فى الوهم. إذ صاحبة هذا الوجه الفاتن فى رأيه لا تحتاج إلى روضة. تقضى فيها نزهة تمتع به نفسها، إذ حسبها أن تنظر فى مرآتها فترى أروع روضة، ومن الممكن أن يكون قد أراد أن وجه صاحبته بالقياس إليه كأنه مرآة بديعة لروضة فاتنة. وكل ذلك شاهد على أن الرمادى الكندى كان شاعرا متفننا. فلا غرو أن يتفنن فى الموشحة الساذجة عند القبرى، ويتيح لها - كما مر بنا - تطورا جديدا بالغ الأهمية.

---

(١) رسلك: تمهل.
(٢) نجيع: دم.. مؤق العين: طرفها من جهة الأنف، وهو مجرى الدمع.
(٣) المراة: المرآة.

الشريف[1] الطليق المرواني

هو أبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر، قيل إنه كان يعشق جارية رباها أبوه معه، فنشأ يصبو إليها، وكانت تصبو إليه، وذكر ذلك لأبيه، ولم يحترم رغبته، فاستأثر بها من دونه، واشتدت غيرته من أبيه، فانتضى يوما سيفا وانتهز فرصة منه، فقتله، وكانت سنه إذ ذاك ست عشرة سنة، فزجَّ به المنصور بن أبى عامر فى السجن وظل به ست عشرة سنة، ثم أطلقه، فسمى الطليق لذلك، وعاش بعد إطلاقه ورد حريته إليه ست عشرة سنة ثالثة، وهو من نادر الاتفاق، وتوفى قريبا من سنة أربعمائة. ويقول ابن حزم فى كتاب الحلة السِّيَراء: «أبو عبد الملك هذا فى بنى أمية كابن المعتز فى بنى العباس ملاحة شعر وحسن تشبيه». ويقول فى جمهرة أنساب العرب: «مروان هذا من الشعراء المفلقين المحسنين». ويروون له أشعارا نظمها فى السجن وينقصها الإحساس بالمرارة، وكأنما يشعر بعظم ذنبه تلقاء أبيه. وله وراءها أشعار كثيرة فى الغزل والخمر ووصف الطبيعة، وهو فيها يعبر عن مشاعر صادقة، وتتضح فيها ثقافته بالشعر العربى، وتمثله للصياغة الشعرية الرصينة المونقة، مع العناية بالأخيلة والتصاوير، من ذلك قوله متغزلا فى قافيَّة له مشهورة:

غُصُنٌ يهتزُّ فى دِعْصٍ نَقَا　　يَجْتَنِى منه فؤادى حُرَقا[2]
أطلعَ الحسنُ لنا من وَجْهِهِ　　قمرًا ليس يُرَى مُمَّحِقا
ورَنا عن طَرْفِ ريمٍ أحْوَرٍ　　لحظُهُ سَهْمٌ لقلبى فُوِّقا[3]
باسمٌ عن عِقْدِ دُرٍّ خِلْتُه　　سلبتْه لِثَتاهُ العُنُقا
سال لامُ الصُّدْغ فى صَفْحتِهِ　　سيلانَ التِّبْر وَافَى الوَرِقا[4]

ونشعر بجمال موسيقاه وعذوبة ألفاظه وأنه يعرف كيف يضم اللفظة إلى اللفظة فى نسق صوتى يلذ الأسماع والألسنة، وحقا تشبيه قامة المرأة بالغصن النابت فى كثيب نقا أو رملة متداوَلٌ وكذلك تشبيهها بالقمر وبظبى أحور، وهى تسدِّد السهام إلى قلوب

---

(١) انظر فى ترجمة الشريف الطليق وشعره الحلة السيراء ١/٢٢٠ والمغرب ١/١٩١ والحميدى ص ٣٢١ والبغية ص ٤٤٧ والمعجب ص ٢٨٥ وما بعدها ونفح الطيب ٣/٥٨٦ وما بعدها والذخيرة ١/٥٦٣ وما بعدها وجمهرة الأنساب لابن حزم ص ١٠٢.

(٢) دعص: كثيب. نقا: رملة.

(٣) ريم: ظبى. فوِّق: سُدِّد.

(٤) الصدغ: الشعر المسدل بين الأذن والعين. الورق: الفضة.

المفتونين بها وأيضا تشبيه الأسنان فى اللثة بعقود در وصدغ الشعر المسدل بين الأذن والعين باللام وأن الأشقر منه يسيل سيلان التبر على الورق أو الفضة. كل ذلك ردده الشعر قبل الطليق ولكنه عرف كيف يصوغه ويحوّر فيه تحويرات تروع قارئه. ومن غزله قوله:

ودَّعتُ مَنْ أهوى أصِيلًا ليتني	ذُقْتُ الحِمام ولا أذوقُ نَواهُ
ووجدتُ حتى الشمسَ تشكو وَجْدَهُ	والوُرْقُ تندب شَجْوها بِهَواه[1]
وعلى الأصائل رِقَّةٌ من بُعْده	فكأنها تلقى الذى ألقاهُ
وغدا النسيمُ مبلِّغا ما بيننا	فلذاك رَقَّ هَوًى وطاب شَذاه[2]
ما الرَّوضُ قد مُزِجتْ به أنداؤهُ	سَحَرًا بأطيبَ من شَذَا ذِكْراه
ولذاك أولَعُ بالرياض لأنها	أبدًا تذكِّرني بمن أهْواهُ

وهو يصور وجده والتياعه بذكرى من يهواها من خلال عناصر الطبيعة. فالشمس فى وداعها للأفق أصيلا وما يصيبها من شحوب وصفرة كأنما تشكو وجدها بحبها. وبالمثل تندب الورق الرمادية من الحمام لوعتها بهواها، وكأنما سُكبت على الأصيل والنسيم رقة الوجد وأريجه العطر، وإن شذى ذكراه لصاحبته ليفوق شذى أى روض تتفتح أزهاره الندية سحرا، وهو ما يجعله صبًّا بالرياض إذ تمثل عناصرها صاحبته له وتجسمها بكل ما فيها من حسن وجمال وفتنة. ودائما نشعر عند الطليق بروعة الموسيقى مع ما تمتاز به صياغته ولغته من صفاء وسلاسة.

ابن[3] زيدون وولّادة[4]

هو أبو الوليد أحمد بن عبدالله بن زيدون المخزومى الأندلسى ولد بقرطبة سنة ٣٩٤ فى بيت علم وفقه، لأب فقيه كان من هيئة الفقهاء المشاورين لعهد الخليفة المستعين

---

(١) الورق: الحمام الرمادى اللون

(٢) الشذى: رائحة الطيب والمسك.

(٣) انظر فى ترجمة ابن زيدون وشعره الذخيرة ٣٣٦/١ وما بعدها والحميدى ص ١٢١ والقلائد ص ٧٠ والمطرب ص ١٦٦ والمعجب للمراكشى ص ١٦٢ والمغرب ٦٣/١ والخريدة ٤٨/٢ وابن خلكان ١٣٩/١ والبغية رقم ٤٢٦ ومقدمتى سرح العيون وتمام المتون لرسالتيه الهزلية والجدية وكتابنا عنه طبع دار المعارف وديوانه وقد نشر مرات آخرها سنة ١٩٥٧ بتحقيق الدكتور على عبد العظيم.

(٤) راجع فى ولادة وأخبارها مع ابن زيدون وشعرها الذخيرة ٤٢٩/١ وما بعدها والصلة ص ٦٥٧ والمغرب ٦٥/١، ٦٦، ١٤٣، ١٨٠ والمطرب ص ٧ والوافى للصفدى ٢٥١/٤ ونفح الطيب ٢٠٥/٤ وما بعدها.

(٣٩٩ - ٤٠٧ هـ) وكان جده لأمه صاحب الأحكام بقرطبة، فهو من بيت حسب ونسب وثراء، وعُنى أبوه بتربيته إلى أن توفى سنة ٤٠٥ وظل بعده ينهل من العلوم والمعارف بقرطبة وخاصة من الآداب العربية. وليس لدينا أخبار واضحة عنه فى شبابه إلا ما انعقد بينه وبين ولادة بنت الخليفة المستكفى من حب، وقد توفى أبوها سنة ٤١٦ وما توالى سنة ٤٢٢ حتى تسقط دولة الخلافة الأموية فى قرطبة، ويتولى أبو الحزم جهور مقاليد الحكم وجعله حكما شوريا ديمقراطيا من خلال مجلس كان يرجع إليه فى سياسته وتدبير شئون حكمه. وأكبر الظن أن ابن زيدون كان ممن انتظموا حوله فى حاشيته، ودُسَّ عليه حوالى سنة ٤٣٠ أنه يشترك فى مؤامرة ضد أبى الحزم جهور، وتصادف أن اتُّهم بالاستيلاء على عقار لبعض مواليه، وزج به أبوالحزم فى السجن، واستعطفه برسالته الجدية وبقصائد مختلفة، غير أنه ظل يُصِمّ أذنيه عنه إلى أن توسط له ابنه أبو الوليد - وكان صديقا له - فرد إليه أبو الحزم حريته. ويتوفى سنة ٤٣٥ ويخلفه ابنه أبو الوليد فيعهد لصديقه ابن زيدون بالنظر على أهل الذمة، ثم يتخذه وزيرا له، ويوفده فى عدة سفارات إلى أمراء الطوائف، وتدبَّر فى سنة ٤٤٠ مؤامرة ضد أبى الوليد وتفشل المؤامرة، ونجد ابن زيدون بعدها مضطربا ويرسل إلى المعتضد عباد أمير إشبيلية أن يلجأ إليه، ويرحب بمقدمه عليه سنة ٤٤١ ويتخذه وزيرا له حتى وفاته سنة ٤٦١ ويظل وزيرا لابنه المعتمد إلى أن يلبى نداء ربه سنة ٤٦٣.

وابن زيدون من أعلام الشعر والنثر فى الأندلس، وله مدائح رائعة فى أبى الحزم بن جهور وابنه أبى الوليد والمعتضد عباد، وله أيضًا مراث بديعة. غير أن القطعة الأرجوانية فى حياته وشعره هى كلفه بولادة وما نظمه فيها من غزل، وكانت أديبة شاعرة، واتخذت لها مجلسا أو ندوة بقصرها تخالط فيها الشعراء وتساجلهم وتفوق أحيانًا البارعين منهم، وفيها يقول ابن بسام: «كانت فى نساء أهل زمانها واحدة أقرانها حضور شاهد، وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفِناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر، يَعْشُو أهل الأدب إلى ضوء غُرَّتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتّاب على حلاوة عشرتها، إلى سهولة حجابها، وكثرة منتابها، تخلط ذلك بعلو نِصاب، وكرم أنساب، وطهارة أثواب».

وولادة - بذلك - تكون قد سبقت سيدات الصالونات الأدبية فى فرنسا اللائى نسمع بهن بعدها بستة قرون أو سبع ممن كن يتخذن - على شاكلتها - ندوات يختلف

إليها بعض الشباب والكهول من الأدباء والمتفلسفة لما يمتزن به من رجاحة العقل وخفة الروح والقدرة على إدارة الحديث والمشاركة فيه مع شىء من الحسن والجمال. ولو أن الأمور والأحوال السياسية استقامت واطردت استقامتها فى الأندلس لوجدنا كثيرات مثل ولادة، لهن مثل مجلسها ومنتداها على نحو ما مرَّ بنا من حديث عن السيدة حواء زوجة حاكم إشبيلية المرابطى سير بن أبى بكر وممدوحة الشاعر الأعمى التطيلى، وكما سنرى عما قليل مثيلتها حفصة الرُّكونيَّة فى عهد الموحدين، ومن المؤكد أن كثيرات من الشاعرات اللائى ترجم لهن المقرى واللائى يبلغن أربعا وعشرين كان لهن مجالس ومنتديات على شاكلة ولادة. وهى ثمرة الحرية التى استمتعت بها المرأة فى الأندلس والتى أشرنا إليها مرارًا. وينبغى أن نفرق دائما بين الحرية والمجون، فلم تكن ولادة ومثيلاتها فى الأندلس ماجنات إنما كن سيدات فضليات قُدْنَ فى المجتمع الأندلسى نهضة أدبية وفكرية، وقد أشار ابن بسام إلى عفة ولادة فقال «مع طهارة أثواب»، كما أشار إلى استشعارها لكرامتها بقوله: «مع علو نِصاب، وكرم أنساب» وكذلك كانت مثيلاتها من ذوات الحسب والنسب، على نحو ما صورنا ذلك عند السيدة حواء فيما أسلفنا من حديث.

وكان ممن اختلف إلى مجلس ولادة أو منتداها الفتى الشاعر النابغ ابن زيدون، وظل مواظبا على ذلك أيامًا وشعر أنها تؤثره، فوقعت فى قلبه كما وقع فى قلبها، واتصل بينهما الود، ويروى أنها كتبت إليه بعد طول تمنع لما أولع بها:

ترقَّبْ إذا جَنَّ الظلامُ زيارتى فإنى رأيتُ الليلَ أكتَمَ للسِّـرِّ
وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلُحْ وبالبَدْرِ لم يَطْلُعْ وبالنجم لم يَسْرِ

واتصل بينهما اللقاء فى منتداها وفى حدائق قرطبة، تغمرهما نشوة الحب، وتارة ينشدها من أشعاره فيها وتارة ينشدها من أشعار الغزلين من أمثاله، وحدث أن غاب عنها لأمر عرض له، فكتبت إليه:

ألا هَلْ لنا من بعد هذا التفرُّقِ سبيلٌ فيشكو كلُّ صبٍّ بما لَقِى
تمرُّ الليالى لا أرى البَيْنَ يَنْقَضِى ولا الصبرَ من رِقِّ التشـوُّق مُعْتِقِى

غير أنها لم تلبث أن تبدلت، فأذاقته بعد نعيم حبها وقربها جحيم هجرها وبُعْدها، ويقال إن سبب هذا الهجر أنها لاحظت مغازلته لإحدى جواريها، ويقال: بل لأنه نقد لها بعض

شعرها، وسواء كان هذا أو ذاك هو السبب فإن ابن زيدون أخطأ فى حقها أو فى حَقِّ شعرها خطأً كبيرا. ويقال إنها صَبَتْ إلى أديب نابغ ثرى ممن كانوا يختلفون إلى منتداها هو ابن عبدوس وصبا إليها، فطار صواب ابن زيدون، وكتب إليه رسالته الهزلية ساخرًا منه كما كتب إليه قصائد مهددا متوعدا، غير أن ولادة لم تصفح عنه، وظل مبعدا محروما. وغزله فيها- كما صورنا ذلك فى كتابنا عنه- يصور ثلاث مراحل: مرحلة وصله، ومرحلة هجره، ومرحلة يأسه، وغزل المرحلة الأولى فيه بهجة وفرحة، إذ ينعم بقرَّة عينه ويسعد سعادة لا حدود لها. أما غزل المرحلة الثانية ففيه الشكوى والحرقة والالتياع العميق والحسرة على فردوسه المفقود. بينما غزل المرحلة الثالثة غزل المبتئس الباكى النادب لحظه. وغزله يعدُّ فى الذروة من الغزل العربى وخاصة غزل المرحلتين الثانية والثالثة، لما يصور فيهما من لوعاته المحرقة الممضة، ومن أروع قصائده الغزلية فى صاحبته قافيته التى يستهلها بقوله:

إنى ذكرتُكِ بالزَّهْراءِ مُشْتاقا ... والأُفْقُ طَلْقٌ ومَرْأَى الأرضِ قد رَاقَا

وهو يذكر منتداها فى قصرها بضاحية الزهراء وما تموج به من رياض وبساتين، وتغمره اللوعة واللهفة على لقائها ويُشْرِك الرياض التى طالما جاسا معا خلالها وتجوَّلا بين أشجارها وأزهارها وطيرها ومياهها فى أحاسيسه ومشاعره، وكأنها تشاركه همومه، وأروع من هذه القصيدة قصيدته:

أَضْحَى التَّنائى بديلا من تَدانينا ... ونابَ عن طيب لُقْيانا تجافينا
حالَتْ لبُعْدكُمُ أيامُنا فغدتْ ... سودًا وكانت بكم بيضًا ليالينا
بالأمس كنا وما يُخْشَى تفرُّقُنا ... واليومَ نحن وما يُرْجَى تلاقينا
يا جَنَّةَ الخُلْد أُبْدِلْنا بِسَلْسلِها ... والكَوْثَرِ العَذْبِ زَقُّومًا وغِسْلينا[1]

والقصيدة تكتظ بالحنين وبلوعات قلب محترق وزفراته، ولعل يأسه من ولادة هو الذى دفعه إلى مغادرته قرطبة مسقط رأسه إلى إشبيلية، لعله يستطيع أن ينسى حبه أو يسلوه، ويقول صاحب الصلة إنها عمرت عمرا طويلا ولم تتزوج قط، وتوفيت سنة ٤٨٤ بعد أن خلدت اسمها فى تاريخ الشعر العربى وتاريخ المرأة الأندلسية.

---

(١) السلسل: الماء العذب. الكوثر: نهر فى الجنة. الزقوم والغِسْلين: طعامان من أطعمة أهل النار.

ابن الزَّقاق[1] اللُّخمى

هو أبو الحسن على بن إبراهيم بن عطية اللخمى البلنسي المعروف باسم ابن الزَّقاق، وهو ابن أخت الشاعر الأندلسى المشهور ابن خفاجة، رُزق به أبوه فى أواخر العقد التاسع من القرن الخامس الهجرى، ويصل بعض مترجميه بين أبيه وبين أسرة المعتمد بن عباد أمير إشبيلية فى عصر أمراء الطوائف، ويقولون إنه حين خلع يوسف بن تاشفين المعتمد من إمارة إشبيلية اختفى الأب وهاجر إلى بلنسية، واستوطنها، وعمل بها مؤذنا بمسجدها الكبير. وفى نفح الطيب رواية تزعم أن أباه كان فقيرا جدا وأنه كان صاحب حانوت يكبّ فيه على صناعة الزَّقاق، وأنه كان يتلوم ابنه لسهره ليلًا يشتغل بالآداب، لما يكلفه ذلك من الزيت الكثير لمصباحه، ويقال إنه نال بأولى قصائده فى أمير بلنسي ثلاثمائة دينار، فأتى بها إلى أبيه ووضعها فى حجره، وقال له: اشتر بها زيتا، ونظن ظنا أن هذا الخبر غير صحيح وأن صاحبه حاول به تفسير لقب أبيه المتصل باسمه: ابن الزقاق. ولا نعرف أهذا اللقب كان لأبيه أو لأحد أجداده، ويغلب أن لا يكون له أى صلة بزِقاق الخمر وأن هذا الأب أوالجد لقب «زقّاقا» لسمنه الزائد وانتفاخ كرشه، كما أشارت إلى ذلك عفيفة ديرانى محققة ديوانه. وعُنى الأب بتربية ابنه لما رأى فيه من مخايل الذكاء حتى إذا شبَّ لزم دروس ابن السيد البطليوسى وعلى يديه درس العربية والآداب. وتفتحت موهبته مبكرا، وأخذ يلفت نظر الشعراء والأدباء فى بلدته. وامتدح بعض الكبراء من بنى عبد العزيز أمراء بلنسية قديما قبل مولده وبعض القضاة ويحيى بن غانية أمير بلنسية ومرسية لعهد على بن يوسف بن تاشفين. وكان قليلا ما يمدح أميرا أو كبيرا، إذ كان يترفع عن المديح، ونوه بذلك مرارا فى شعره من مثل قوله:

أنا من تمنّته الملوك فلم أُعُجْ ... منها على ذى طارفٍ وتِلادِ[2]

فالملوك لزمنه كانت تتمنى أن يصوغ لهم شيئا من مدائحه، وكان يتمنّع عليهم لإباء نفسه وشعوره العميق بكرامته. وفى الديوان مراث مختلفة وبينها مرثية حارة فى سيدة

---

(١) انظر فى ترجمة ابن الزقاق وشعره المغرب ٢/٣٢٣ والتكملة ص ٦٦٣ والمطرب ص ١٠٠ وما بعدها. والنفح ٣/١٩٩ و٢٨٩. والديوان تحقيق عفيفة محمود ديرانى (طبع دار الثقافة بيروت) ومقدمتها له وما بها من مصادر.

(٢) أعج من عاج: التفت. تلاد: قديم ضد طارف.

لعلها زوجته كما ترجح محققة الديوان، وقد رزق منها بنجلين: محمود وإبراهيم، ويصور حبه لهما وعاطفته الأبوية نحوهما بإحدى قصائده. والديوان موزع بين موضوعين كبيرين هما الغزل وحب الطبيعة، والغزل تارة يقدم به إحدى قصائد المديح، وتارة ثانية يخلطه بالطبيعة مضيفا إلى النشوة بها النشوةَ بالخمر، ومن بواكير غزله قوله فى مقدمة إحدى مدائحه:

يا شمسَ خِدْرٍ ما لها مَغْربُ ... أرامةٌ خِدْرُكِ أم يثربُ[1]
ذهبتِ فاستعبر طَرْفى دَمًا ... مفضَّضُ الدَّمْع به مُذْهَبُ
ناشدتُكَ اللَّهَ نسيمَ الصَّبا ... أنى استقرَّتْ بعدنا زينبُ
لم تَسْرِ إلا بشَذَى عَرْفِها ... أولا فماذا النَّفَسُ الطيِّب[2]
إيهِ وإن عذَّبنى حُبُّها ... فمن عذابِ النفسِ ما يَعْذُبُ

وتتضح فى هذه الأبيات المبكرة - كما يقول الرواة - الخاصة الفنية الرائعة التى أشار إليها أبو الوليد الشقندى فى بيانه براعةَ الأندلسيين فى الشعر، وهى أن ابن الزقاق يتناول فى أشعاره الصور والأخيلة التى تداولها الشعراء قبله مرارًا وتكرارًا حتى غدت كالثوب الخلَق البالى، فإذا هو يبث فيها حياة وحيوية فتصبح جديدة نضرة مغربا فى ذلك أحسنَ إغراب وأطرفه، على نحو ما يتضح فى تلك الأبيات، فقد أخذ عن الشعراء استعارة الشمس لصاحبته فى البهاء والجمال، وأضاف إليها أنها شمس لا تغرب، إذ ما تنى طالعة فى خدرها مشرقة، ويناشد نسيم الصبا أين مستقر صاحبته؟ ويذكر أن شذاها يفوح لا من حولها فحسب، كما يقول الشعراء، بل فى النسيم ذاته بدليل أنفاسه المحملة بأريج هذا الشذى، ويقول:

سَلِ الرِّيح عن نَجْدٍ تخبِّرْك أنها ... معطَّرةُ الأنفاس مُذْ سكنتْ نَجْدا
وأنَّ الغَضَا والسِّدْرَ مذ جاورتْهما ... بِطِيبِ شَذاها أشبها البانَ والرَّنْدا

فصاحبته منذ سكنت نجداً أحالت الريح فيها إلى أنفاس معطرة، بل لقد أحالت الغضا والسدر من أشجار البادية العادية إلى أشجار البان والرند التى طالما ذكرها الغزلون واستدارت من حولها فى أخيلتهم هالات الجمال لمحبوباتهم. ومن قوله فى مقدمة إحدى مدائحه:

---

(١) الخدر: البيت. رامة: موضع بنجد. يثرب: المدينة.
(٢) شذى العرف: رائحة الطيب العطرة.

ولقد مررتُ على الكثيب فأرْزَمَتْ إبلى ورجَّعتِ الصَّهيلَ جيادى[١]
ما بين ساحاتٍ لهم ومعاهدٍ سُقِيتْ من العَبَرات صَوْبَ عِهادِ[٢]
والوُرْق تهتف حولهم طربًا بهم وبكل مَحْنِيةٍ ترنُّم شادى[٣]

والبيت الأول يكتظ بالحنين لصواحبه وراء الكثيب وحوله، حتى الإبل جدت فى مكانها ولا تريد أن تفارقه، وتجاوبت الخيل بصهيلها، فهى لا تريد أن تبرحه. ويدعو لساحاتهن ومعاهدهن أن تظل تُسْقَى بعبرات المحبين، ويسوق الحمام الورق لا ليصور فيه حنينه وأنينه لفراق صواحبه على عادة الشعراء، بل ليصور بهجته، فهو يشدو لهن طربا. وتكثر فى غزله مثل هذه الصور الطريفة من مثل قوله فى وصف دقة الخَصْر:

أسائلها أين الوشاحُ وقد أتتْ مُعَطَّلَةً منه معطَّرَةَ النَّشْرِ
فقالتْ وأوْمَتْ للسُّوار نقلتُه إلى مِعْصَمِى لما تقلقل فى خَصْرِى

وقوله:

وقفتُ على الربوع ولى حنينٌ لساكنهنَّ ليس إلى الرُّبوعِ
ولو أنى حَنَنْتُ إلى مَغانى أحِبَّائى حَنَنْتُ إلى ضُلوعى

وقوله:

تحاذرُ من عمود الصبح نورًا مخافةَ أن يُلِمَّ بنا افتضاحُ
ولم أر قَبْلَهـا والليْـلُ داجٍ صَباحًا بات يَذْعَرُهُ صَباحُ

والتعبير عن نحول الخصر بنقل السوار إليه تعبير طريف، وبالمثل تعبيره عن أضلاعه بأنها غدت معاهد وربوعا لمحبوباته، وتصويره لما جال فى نفس صاحبته من خوف بل من ذعر حين أخذت تتفلت فى الأفق تباشير الصباح، ويعجب لفزع صباح إنسى من صباح كونى. وقد توفى ابن الزقاق سنة ٥٢٨ ولم يبلغ الأربعين من عمره، ولعل فيما قدمنا ما يكفى للدلالة على خصب شاعريته وأخيلته.

---

(١) أرزمت: حنَّت.
(٢) العهاد: المطر فى أول الشتاء. وصوبه: الساقط منه.
(٣) الورق: الحمام. مَحْنية: منعطف.

أبو جعفر[1] بن سعيد وحَفْصة الرُّكونيَّة

هو أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد، من سلالة عمار بن ياسر، نزل أسلافه قلعة فى إقليم غرناطة نُسبت إليهم، وحين نشبت فتنة قرطبة فى نهاية القرن الرابع وظلت إلى نحو الربع الأول من القرن الخامس الهجرى استقلت بها هذه الأسرة، وعادت إلى الاستقلال بها فى نهاية عصر المرابطين حين نشبت عليهم الفتنة فى الأندلس. ثم دان زعيمهم عبد الملك بن سعيد للموحدين وكان قبل إعلان ولائه لهم حاول أن يتخذ من ابنه أبى جعفر أحمد وزيرا له يدبر معه شئون القلعة، وكان شاعرا وفى ريعان شبابه فاعتذر له بأنه صاحب لهو وطرب، ولا يصلح لوزارته، فأعفاه، ومضى يعيش للهوه مع رفاقه، حتى إذا نزل عبد المؤمن بجبل الفتح سنة ٥٥٦ وأقبلت إليه وفود الأندلس تعلن ولاءها له رأيناه يفد عليه مع أبيه ويقدم إليه بعض مدائحه. وولّى عبد المؤمن على بلدان الأندلس بعض أبنائه وقواده، وكانت غرناطة من نصيب ابنه أبى سعيد عثمان، وكانت فيه صرامة مع محبته للآداب وإسباغ المكافآت والنوال على الشعراء. وطلب وزيرا أديبا من أهلها يستعين به ووُصف له أبو جعفر وحسبه وأدبه فاستوزره، وحاول أن يستعفيه، فأبى، وتقلد وزارته.

وكان أبو جعفر قد كلف بفتاة شاعرة ذات جمال وحسب وثراء هى حفصةِ الرُّكونيَّة، وكان أبوها قد لفته ذكاؤها، فعُنى بتربيتها، وأتاح لها من الحرية ما جعلها تلقى الأدباء والشعراء وتحاورهم، وتأخذ سريعا مكانة رفيعة فى بلدتها، ويبلغ من مكانتها أن تفد على عبد المؤمن بجبل الفتح وأن تنشده متلطفة:

يا سيِّد الناس يامن ... يؤمِّل الناسُ رِفْدَهْ
امنُنْ علىَّ بِطِرْسٍ ... يكون للدَّهر عُدَّه
تخطُّ يُمْناك فيه ... الحمدُ لله وَحْدَه

مشيرة بالشطر الأخير إلى العلامة السلطانية عند الموحدين، إذ كان سلطانهم يكتب

---

(١) انظر فى ترجمة أبى جعفر بن سعيد وشعره المغرب ١٦٤/٢ والإحاطة ٢١٤/١ والنفح ١٧٣/٤ - ٢٠٤. وراجع فى ترجمة حفصة وأشعارها المغرب ١٣٨/٢ - ١٣٩ و ١٦٦/٢ والمطرب ص ١٠ والإحاطة ٤٩١/١ وانظر ص ٢٢٠ والتحفة رقم ١٠٠ ومعجم الأدباء ٢١٩/١٠ والنفح ١٧١/٤ - ١٧٩.

بخط يده فى رأس كل منشور: الحمد لله وحده. وأعجب بها عبد المؤمن واستنشدها من شعرها وأنشدته ما زاده إعجابا، ويبدو أن ابنه عثمان الذى تولى غرناطة بعد ذلك رآها حينئذ وبهره جمالها. فلما ولى غرناطة حاول القرب منها عن طريق وزيره أبى جعفر، ولابد أنه عرف ما كان قد انعقد بينهما من حب وهو ليس حب مجون، بل حب طهارة وعفاف على نحو ما عُرف عن فتيات الأندلس وسيداتها من تحرر ومن لقاءات بينهن وبين الشعراء فى قصورهن، وفى الحدائق والرياض، إذكن أحيانا يمضين فيها بعض الليالى مع من يهواهن وظلت ذكرى ليلة قضاها أبو جعفر مع حفصة فى بستان بمتنزه يسمى «حَوْر مؤمّل» عبقة فى نفسه حتى ليكتب إليها:

رَعَى الله ليلا لم يَرُحْ بِمَذمَّمٍ ... عشيَّة وارانا بحَوْرِ مؤمَّل
وقد خفقتْ من نَحْوِ نجدٍ أَريجةٌ ... إذا نفحتْ هَبَّتْ بريَّا القُرُنْفُلَ
وغرَّد قمريٌّ على الدَّوْح وانثنى ... قضيبٌ من الريحان من فوق جدْولِ

فهو يدعو لليل الذى نعم فيه مع حفصة باللقاء بين نسيم الرياض ونفحاتها التى تحيى القلوب أن يسبغ الله دائما عليه رعايته. وتجيبه:

لعمرك ما سُرَّ الرياضُ بوصْلِنا ... ولكنَّما أَبْدَتْ لنا الغِلَّ والحسَدْ
ولا صفَّق النَّهرُ ارتياحًا لقربنا ... ولا غرَّد القُمْرِىُّ إلا لِما وجَدْ

وكأنها تحدث عن حسد الناس لهما وأنهما لن يتركوهما ينعمان بحبهما، ويقطفان من أزهاره ما يعنّ لهما وما يمتعان به روحاهما، واتصل بينهما الحب واللقاء فكتبت إليه وقد استبطأت لقاءه:

أزورُك أم تزورُ فإنَّ قلبى ... إلى ما تَشْتهى أبدًا يميلُ
فعجِّلْ بالجواب فما جميلٌ ... أَناتُك عن بُثَيْنَةَ ياجميلُ

وهى تشير إلى حب جميل لبثينة حبا عذريا شاع ذكره فى بوادى نجد والحجاز لعصر بنى أمية. وأجابها مصورا ولعه بها وتوقيره لها:

أُجِلُّكُمْ مادامَ بى نهضةٌ ... عن أن تزوروا إن وجدتُ السَّبيلْ
ما الرَّوْضُ زوّارا ولكنما ... يَزُورُهُ هَبُّ النسيمِ العَليلْ

فالروض لا يزور ومثله الفاتنة التى ملكت قلب صاحبها وخلبت لبه، وإنما يزوره

النسيم العليل يستشفى بشذاه وأريجه. ويبدو فى أشعارها له أنه استأثر بقلبها وأنه لم يدع فيه مكانا لسواه حتى لتنشده ملتاعة بحبه ناعمة به سعيدة، غير منكرة غَيْرتها عليه:

أغار عليكَ من عَيْنِي وَمِنِّى ومنك ومن زَمانك والمكانِ
ولو أنى خبأْتكَ فى عيونى إلى يوم القيامةِ ما كفانى

فهى تغار عليه غيرة لا تماثلها غيرة، حتى لتغار منه هو ومن كل ما يحيطه به من زمان ومكان، وتقول لو أنها خطفته ووضعته وراء جفونها فى عيونها إلى يوم القيامة ما كفاها. وبينما هى تنعم بهذا الحب مع أبى جعفر إذا عثمان بن عبد المؤمن صاحب السلطان فى غرناطة ومن له كل الأمر والتدبير يعترض طريقها المفروش بالورود والرياحين، وتخشى حفصة العاقبة، وتحاول أن تناوره وتداوره فتستأذن عليه فى يوم عيد كاتبة إليه:

يا ذا العُلا وابنَ الخَليـ ـفةِ والإمامِ المُرْتَضَى
يَهْنِيكَ عِيدٌ قد جَرَى منه بما تَهْوَى القَضَا
وافاك من تَهْواه فى طَوْعِ الإجابة والرِّضا

ويمتلىء قلب عثمان على كل من العاشقين موجدة وغيظا، وتزيده الوشاياتُ موجدة على موجدة وغيظا على غيظ، إذ يقال له إن أبا جعفر قال لحفصة عنه: ما تحبين فى ذلك الأسود - وكان لون بشرته مائلا إلى السواد - فأسرَّها فى نفسه، ونقلوا إليه أنه قال:

فقُلْ لحريصٍ إذْ يرانى مقيَّدًا بخِدْمته لايُجْعَلُ البازُ فى القَفَصْ

وواتت عثمان الفرصة للانتقام، فإن أخا أبى جعفر عبد الرحمن فرَّ إلى ابن مردنيش الثائر فى شرقى الأندلس على الموحدين، ويبدو أن أبا جعفر فكر فى الانضمام إلى أخيه، فأمر عثمان بقتله، وقُتل صبْرًا فى مالقة سنة ٥٥٩ للهجرة. وبكتْه حفصة طويلا وندبته ندبا حارًّا ولبست عليه السواد. وهجرت غرناطة لغريمها عثمان إلى مراكش ولقيت أخاه سلطان الموحدين يوسف، وأنشدته من الشعر ما جعله يعطف عليها ويفسح لها فى قصره معلمةً لفتياته، وتظل معززة مكرمة فى عاصمة الموحدين إلى أن لبت نداء ربها سنة ٥٨٦ للهجرة.

ابن خاتمة[١]

هو أبو جعفر أحمد بن على بن خاتمة الأنصارى المريِّى، ولد فى نهاية القرن السابع أو مطلع القرن الثامن إذ يقال إنه توفى سنة ٧٧٠ أو قبلها بقليل عن سبعين عاما. وليس بين أيدينا ما يوضح نشأته وثقافته، غير أن فى نهوضه بالإقراء للقرآن الكريم فى مسجد المرية الجامع ما يشهد بأنه كان متعمقا فى الثقافة الإسلامية من قراءات الذكر الحكيم ومن الفقه والحديث النبوى، وتؤكد ذلك مؤلفاته وأشعاره وما تحمل من إشارات ثقافية إسلامية وأخرى لغوية. ونرى فى أخباره زيارات كثيرة لغرناطة وانعقاد صلات بينه وبين أعلامها وخاصة وزيرها لسان الدين بن الخطيب، مما يدل على أنه اتصل بالأعمال الديوانية لأمير غرناطة، ولعله عمل كاتبا مدة فى دواوين المرية بلدته التى كانت تتبع أمير غرناطة، إذ يُذْكَر فى ترجمته أنه تخلَّى عن الكتابة، حتى إذا طُلب إليه أن يعود إليها أنشد:

تقضَّى فى الكتابة لى زمانٌ　　　كشأنِ العَبْدِ ينتظرُ الكتابه

وكتابة العبد التى يشير إليها هى أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه إليه مقسَّطا، فإذا أدَّاه صار حُرًّا، وهو يقول إننى قضيت فى الكتابة زمانا غير قصير. مما يدل على أنه ظل يعمل فى الكتابة لأولى الأمر ببلدته فترة وأنه استُعْفى منها فأعفى، وبذلك رُدَّت إليه حريته ولن يعود إلى حمل نير الكتابة أبدا. وتدل مؤلفاته أوضح دلالة على اتساع ثقافته وأنه لم يقف بها عند الثقافة الدينية واللغوية، بل اتسع بها لتشمل الطب من علوم الأوائل كما يتضح فى كتابه: «تحصيل غرض القاصد فى تفصيل المرض الوافد» وفيه يتحدث عن وباء الطاعون الذى اجتاح المرية فى عامى ٧٤٩ و ٧٥٠ ويفصل القول فيه وفى أسبابه. وله فى التاريخ الأدبى كتاب مزية المريَّة على غيرها من البلاد الأندلسية، وله فى اللغة كتاب سماه: «إلحاق العقل بالحس فى الفرق بين اسم الجنس وعلم الجنس» وكتاب

---

(١) انظر فى ترجمة ابن خاتمة وشعره الإحاطة ٢٣٩/١ وما بعدها والكتيبة الكامنة ص ٢٣٩ ونثير فرائد الجمان لابن الأحمر (تحقيق رضوان الداية) طبع بيروت - رقم ٢٠ ودرة الحجال لابن القاضى (طبع الرباط) ٤٠/١ ونيل الابتهاج لأحمد بابا (طبع القاهرة) ص٧٢ ونفح الطيب فى مواضع مختلفة (انظر الفهرس) وديوانه حققه وقدم له د. رضوان الداية. وراجعْ دراسة عنه للمستشرقة الإسبانية سولهداد خيبرت فى كتاب دراسات أندلسية للدكتور الطاهر أحمد مكى (طبع دار المعارف) ص٩٧.

«إيراد اللآل من إنشاد الضوال وإرشاد السؤّال». وله فى الأدب رسالة صغيرة فى «الفصل العادل بين الرقيب والواشي والعاذل» وكتاب «رائق التحلية فى فائق التورية» وليس دراسة فى التورية وإنما هو أشعاره الذى صاغها للتورية، وبها توريات عن مصطلحات علمية متنوعة.

وديوان ابن خاتمة فى نحو مائتى صفحة، وهو موزع على أربعة أقسام: قسم فى المدح والثناء، وقسم فى التشبيب والغزل، وقسم فى الملح والفكاهات، وقسم فى الوصايا والحكم، ونبذة كبيرة من الموشحات استغرقت نحو أربعين صحيفة، وتليها مستدركات المحقق على الديوان. وأكبر الأقسام قسم التشبيب والغزل وهو فى نحو خمسين صحيفة تضم تسعا وأربعين منظومة بين قصيدة ومقطوعة. ونشعر منذ أول قصيدة نقرؤها فيه أن منظوماته ليست ثمرة تجارب حقيقية فى الحب، إنما هى محاولات لمحاكاة شعراء الغزل والنسيب السابقين، إذ يختار ابن خاتمة لنفسه وزنا من أوزان الشعر، وينظم فيه أبياتا تتحدث عن الحب حديثا كله تكلف وتصنع لبيان قدرته على النظم فى هذا الغرض القديم من أغراض الشعر العربى، وفيه تتجمع العناصر البدوية من أسماء المواضع والأشجار والأزهار والآرام وغير الآرام من مثل قوله:

تهبُّ نُسَيْماتُ الصَّبا من رُبَى نَجْدِ ... فيَنْفَحْنَ عن طيب ويَعْبقن عن نَدِّ[1]

ومـا ذاك إلا أنهنَّ يَجُلْنَ فـى ... معـاهدنـا بين الأُثَيْلات والـرَّنْدِ[2]

معـاهدُ نهـواهـا وتَهْـوى لقـاءنـا ... بها قد مضى حكمُ العفاف على الوُدِّ

وفي القُبَّةِ البيضاءِ بيضاءُ لو بدتْ ... لشمس الضحى يوما لحارتْ عن القَصْدِ[3]

تطلَّع عن صُبْحٍ من الوجه نيِّرٍ ... وتَغْرُبُ عن ليلٍ من الشَّعْر مُسْوَدِّ

ونسيج الصياغة فى الأبيات به غير قليل من الضعف، والمعانى والصور مكررة معادة دون تحويرات فيها - على نحو ما رأينا عند ابن الزقاق - تعيدها خلقا جديدا، ودائما الخد كالورد والريق كالشهد والمبسم كالعِقْد والصدغ كالعقرب. وقد يختلط الغزل بالحماسة ولكن دون حرارة ومع غير قليل من التكلف كأن يزعم أن مقلة صاحبته تغير على الورى وأن أناملها النواعم مخضبة بدمائهم. ولا نظلم ابن خاتمة فهو من أنبه الشعراء فى زمنه، غير أن الشعر حينئذ نضب معينه، واستحال فى كثير من جوانبه إلى

---

(١) الند: عود عطر الرائحة.

(٢) الأثيلات تصغير الأثلات: من أشجار البادية. ومثلها الرند وهو شجر طيب الرائحة.

(٣) حارت: رجعت.

صور من التكلف الشديد، وقد أصبح التصنع بدع العصر للإتيان بمحسنات البديع من جناس وطباق ولف ونشر وتوريات وبذلك لم يعد الشعر فى جمهوره يعبر عن عواطف ومشاعر صادقة للشاعر، وربما كانت أجمل مقطوعة غزلية لابن خاتمة قوله:

زارتْ على حَذَرٍ من الرُّقباءِ والليلُ ملتفٌ بفضلِ رداءِ
تَصِلُ الدُّجى بسواد فَرْعٍ فاحمٍ لتزيد ظلماءً إلى ظَلْماء
فوَشَى بها من وجهها وحليِّها بَدْرُ الدُّجَى وكواكبُ الجوزاءِ
أقسمتُ لولا عفةٌ عُذْرِيَّةٌ وتُقىً علىَّ له رقيبٌ رائى
لنَقَعْتُ غُلَّةَ لَوْعتى بِرُضَابِها ونضحتُ وَرْدَ خدودها ببكائى

ومع ذلك فإننا نشعر بغير قليل من التكلف فى المقطوعة على نحو ما نرى فى الشطر الثانى من البيت الثانى، والصور فى البيت الثالث متراكمة، وقسمه الذى مهَّد به لعفته وتقاه الذى يراقبه فى حبه، كل هذه صور من التكلف الشديد فى الغزل. ويخف هذا التكلف فى موشحاته بحكم القصر الشديد فى شطورها، وبذلك لا تظهر فيها هلهلة النسيج التى تلاحظ بوضوح فى كثير من أبيات شعره.

٢

شعراء الطبيعة والخمر

تتميز الأندلس بطبيعة فاتنة فى سهولها ووديانها وأنهارها وجبالها وغاباتها وأشجارها وأزهارها وبساتينها ومتنزهاتها، وهى طبيعة خلبت ألباب الشعراء هناك فتغنوا بمفاتنها ومشاهدها دائما بائين فيها عواطفهم ومشاعرهم. وكان مما زادهم شغفا بها ما مرَّ بنا من اختلافهم إلى المتنزهات والحدائق المحيطة ببلدانهم مع صواحبهم، ولذلك كثر عند شعراء الأندلس المزج بين الطبيعة والغزل، وأيضا كثر عندهم المزج بين الطبيعة والخمر. ونظن ظنا أن إقبالهم على الخمر إنما كان بسبب مزاجهم الحاد العنيف الذى ولدته فيهم حربهم الدائمة لنصارى الشمال، إذ تقوم حياة المحارب دائما على الحدة والعنف والإقبال على فنون المتاع. وكان من آثار ذلك أن كثر عندهم شعر الخمر مقرونا بالطبيعة أو بها وبالحب، وكثيرا ما يسوقون ذلك فى مقدمات مدائحهم، ولا نستطيع الحديث عن شعراء الطبيعة والخمر فى قسمين متقابلين كما صنعنا فى حديثنا عن شعراء الفخر والهجاء، إذ هما

ممتزجان، مما يجعلنا نسوق الحديث عنهما معا. وقد يكون من الطريف أن نلتقى عند عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية فى تلك الديار بمقطوعة له فى وصف نخلة ببستان قصره فى قرطبة المسمى منية الرُّصافة، وهى تمضى على هذا النمط [١]:

تبدَّتْ لنا وَسْطَ الرُّصافة نخلةٌ ... تناءتْ بأرض الغَرْبِ عن بَلَدِ النَّخْلِ
فقلتُ: شَبيهى فى التغرُّب والنَّوَى ... وطولِ التنائى عن بَنِىَّ وعَنْ أَهْلِى
نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ ... فمثلُكِ فى الإقصاء والمُنْتأَى مثلى

وكأن هذه النخلة رمز العرب هناك، وكأن هذه القطعة الشعرية أيضا بدورها رمز لهم بما تحمل من حنين لا ينقطع إلى الوطن البعيد، حنين مبثوث فى هذه النخلة الغريبة التى نقلها العرب إلى تلك الديار النائية القاصية البعيدة. وكما نقلوا النخلة معهم نقلوا إلى أشعارهم كل العناصر البدوية النجدية من أطلال وغير أطلال، ونقلوا ما استحدثه العباسيون فى وصف الطبيعة وسكبوا عليه من بيئتهم ومشاعرهم وأخيلتهم مابث فيه الحياة والحيوية على نحو ما نجد فى هذه الأبيات البديعة المبكرة، وكأنها إرهاص لما يستشعره الشاعر الأندلسى من تمثل عناصر الطبيعة لمشاعر الإنسان. ونقلوا - بجانب ذلك - ما استحدثه العباسيون فى الخمر وخاصة أبا نواس، وممن حاول محاكاته مبكرا يحيى الغزال الذى ترجمنا له بين الهجائين، وله قصيدة على طريقة أبى نواس تصور مغامرة له فى حان من حانات الخمارين وفيها يقول [٢]:

ولما أتيتُ الحانَ ناديتُ ربَّه ... فثابَ خفيفَ الروح نحو نِدائى
فقلتُ أَذِقْنِيهــا فلمــا أذاقهــا ... طرحتُ عليه رَيْطَتِى ورِدَائى [٣]

وهو يقول إنه حين ذاق خمر صاحب الحان بلغ من نشوته بها أن خلع ملابسه. وحرى بنا أن لا نأخذ مثل هذه الخمرية عند الغزال مأخذ الجد، فكثير من شعر الخمر - لا فى الأندلس وحدها بل فى كل البلدان العربية - كان يقال محاكاة لأبى نواس على سبيل الفكاهة فى المجالس، ومثل ذلك ما يقال فى وصف سقاتها والغزل بهم، فأكثر ذلك وجمهوره، إنما كان يقال على سبيل التندير والمداعبة، ولا يمثل حقيقة ولا ما يشبه

---

(١) الحلة السيراء ١/٣٧.
(٢) الديوان ص ٤٣.
(٣) الريطة: الثوب الرقيق تحت الرداء.

الحقيقة. ويقول عباس بن ناصح فى قطع مفازة ليلا[١]:

ومخــوفَـةٍ تَنْفِى مخــافتُهــا ... نومَ الفتى ذى المِرَّةِ النَّدْبِ[٢]
للجنِّ فى أجْــوَازِهــا لَغَطٌ ... بالليل مثلُ تنازعِ الشَّــرْبِ
وتَرَى بها جُونَ النَّعام إذا ... أشْرَفْن كالمَهْنُوءَةِ الجُرْبِ[٣]

وهو يصف سُرَى الليل فى فلاة مخوفة حتى ليخاف السرى فيها الشجاع شديد المضى. ويستلهم ما كرره طويلا ذو الرمة فى وصف الفلوات ليلا وعزيف الجن بها الذى يشبه كما يقول عباس بن ناصح لغط الشُّرْب، ويشبّه ما بها من النعام الأسود بالإبل الجرب المطلية بالقطران، وكأننا لا نقرأ لشاعر أندلسى فى القرن الثالث الهجرى وإنما نقرأ لشاعر نجدى من أمثال ذى الرمة. ويقول ابن عبد ربه فى وصف نهار ممطر[٤]:

نهارٌ لاح فى سِرْبالِ ليلٍ ... فما عُرِفَ الرَّواحُ من البُكورِ
وعَيْنُ الشمس تَرْنُو من بعيدٍ ... رُنُوَّ البِكْر من خَلْف السُّتورِ

فالسحب منعقدة فى السماء والجو مظلم، ولا يدرى ابن عبد ربه هل الناس السائرون فيه باكرون أو مبكرون صباحا قبل طلوع الشمس أو هم رائحون أو راجعون، وأحيانا تتراءى عين الشمس رانية من بعيد، ولكن سرعان ما تختفى وراء السحب اختفاء الفتاة الرانية خلف الستور خجلا واستحياء. ونتقدم فى القرن الرابع الهجرى ونلتقى بيحيى بن هذيل وله أشعار كثيرة فى الربيع وأزهاره. وله فى وصف حمامة وأنينها محزونةً لفراق صاحبها أو هديلها[٥]:

ومُرِنَّةٍ والـدَّجْنُ يَنسِجُ فَـوْقَها ... بُـرْدَيْنِ من طَلٍّ ونَـوْءٍ باكِ[٦]
مالتْ على طَيِّ الجناحِ وإنما ... جَعَلَتْ أرِيكَتَهـا قضيبَ أراكِ[٧]
وتـرنَّمتْ لَحْنَيْنِ قـد حلّتهمـا ... بغِنـاء مُسْمِعَـةٍ وأنّـةِ شـاكِ
ففقدتُ من نفسى لفرطِ تلهُّفى ... نَفَسَ الحياةِ وقلتُ من أبكاكِ

وهو يقول إن الحمامة ترن وتصدح والغيم يملأ أقطار الأرض والسماء ناسجا فوقها

---

(١) كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لابن الكتانى (تحقيق د. إحسان عباس) ص ١٧٣.

(٢) ذو المرة: القوى الشجاع. الندب: الماضى.

(٣) جون: سود. المهنوءة: الإبل المطلية بالهناء وهو القطران.

(٤) الذخيرة ١/٧٧٩.

(٥) الذخيرة ٣/٣٤٦.

(٦) الدجن: الغيم يعم أطباق الأرض والسماء. النوء: المطر.

(٧) الأريكة: المقعد. قضيب: غصن.

رداءين من طل ومطر تذرفه السحب، وهي محزونة قد مال رأسها على طي الجناح متخذة من غصن الأراك أريكة لها ومقعدًا، وشجاها فراق صاحبها فهي تترنم بغناء ممزوج بأنين، مما جعله يذكر حبه وعلوه تلهفا لرؤية صاحبته حتى لكأنما يوشك أن يفقد الحياة. ويبكي من حُرَق هواه بصاحبته، ويسأل الحمامة سؤال العارف من أبكاك؟ فنحن في الهوى سواء. وتكثر أشعارهم في الأزهار، وكثيرون منهم يردون على ابن الرومي في تفضيله النرجس على الورد، ولسعيد بن فرج في الرد عليه قصيدة يقول فيها:[١]

أزعمت أن الوَرْدَ من تفضيلِهِ خَجِلٌ وناحلُه الفضيلةَ عانِدُ
إن كان يَسْتحيي لفضل جَمالِه فحياؤُهُ فيهِ جمــالٌ زائــدُ

فهو يجعل خجل الورد لاحمرار وجنته من جوهر حسنه يزيده جمالا على جمال، فهو ليس احمرارا ولا خجلا عارضا أمام النرجس، بل هو جزء لا يتجزأ من جماله. ونزل الرمادي ضيفا على صَحب له في مدينة وادي آش إلى الشمال الشرقي من غرناطة، وكان الوقت شتاء، وقدموا له احتفالا به باقة من الورد كانوا اجتلبوها من بجّانة في الجنوب الشرقي، فتعجب من وجود الورد في وادي آش شتاء. فقالوا له إنه من بجّانة، فأخلد إلى الصمت ولم يلبث أن لثمها وأنشد[٢]

ياخُدودَ الحُورِ في إخْجالها قد علتْها حمرةٌ مكتسبهْ[٣]
اغتربنا أنتِ من بجّـانةٍ وأنا مغتربٌ من قُـرْطبه
واجتمعنا عند إخوانٍ صفًا بـالنَّدى أمـوالُهم مُنْتهَبـه
إنَّ لَثْمي لــك قُـدَّامَهم ليس فيه فِعْلةٌ مستغرَبَـهْ
لاجتماعٍ في اغترابٍ بيننا قَبَّـلَ المغتربُ المغتـربَـه

والمقطوعة مع سهولة ألفاظها تفيض بالعاطفة، وكأنه أعاد لنا حديث عبد الرحمن الداخل السابق إلى النخلة، فهو والوردة متماثلان في الغربة، وأضاف إلى ذلك حبا للوردة ولثما وتقبيلا عند إخوان صفاء كرام كرما فيّاضا. وكان للمنصور بن أبي عامر الحاجب ثلاث جوارٍ سماهن بأسماء الأزهار: بهارَ ونرجس وبنفسج، ونرى عبد الملك بن إدريس

(١) الحميدي ٢١٢.
(٢) البديع في وصف الربيع لأبي الوليد إسماعيل بن عامر الحميري (تحقيق هنري بيريس - طبع الرباط) ص١٢٢.
(٣) الحور جمع حوراء: المرأة البيضاء.

الجزيرى يجعل كلا منهن تخاطب مولاها متمثلة زهرتها ومحاسنها بين الأزهار فى مقطوعات[١] شعرية بديعة. ويقول الشريف الطليق فى نفس قصيدته الفريدة السالفة فى ترجمته[٢]:

وغَمـامٍ هَـطِلٍ شُؤْبُـوبـهُ ... نادمَ الروض فغَنَّى وسَقَى[٣]
فى ليالٍ ضلَّ سارى نَجْمِها ... حائرًا لا يَسْتبين الطُّرُقا
أوقد البرقُ لها مِصْباحَهُ ... فانثنى وَجْهُ دُجاها مُشْرِقا
وشَدا الرَّعْدُ حنينًا فجرتْ ... أكْوسُ المُزْنِ عليه غَدَقا[٤]
وغدتْ تَحْنُو له الشمسُ وقد ... ألحفتْه من سَناها نُمْرُقا[٥]

وقد بثَّ الشريف الطليق فى الغمام الممطر والروض مشاعر مجلس أنس وطرب بما فيه من مغن وساق فى ليلة داجية، أمسى النجم فيهاحائرا لا يتبين طريقه، وسرعان ما أشعل البرق لها مصابيحه، فاستحال وجهها الداجى المظلم مشرقا مضيئا، وأخذ الرعد يشدو ويغنى، فجرت أكوس المزن غزيرة حتى انتشى الروض، وأَصْبَحَ، فرأت الشمس ما أصاب الغصون وبعض الأزهار من المطر المنهمر ليلا، فعطفت على الروض وأشفقت عليه وكسته من سناها وضوئها طنافسها الذهبية، حتى يسرى فيه الدِّفء.

ولم نقف حتى الآن عند الخمريات لا لأنها كانت قليلة، فلم يكد يخلو شاعر ممن سميناهم فى هذا العصر الأموى من أشعار له فى الخمر، غير أنها فى جملتها تعد محاكاة وتقليدا لما قال المشارقة فيها. وربما كان الشريف الطليق أول شاعر نقرأ له فى الخمر أشعارا فيها شىء من الطرافة لملكاته الخيالية الخصبة من مثل قوله فى نفس القصيدة السالفة:

رُبَّ كأسٍ قد كستْ جُنْحَ الدُّجَى ... ثوبَ نورٍ من سَناها يَققا[٦]
بتُّ أَسْقيها رَشًا فى طَـرْفِـه ... سِنَـةٌ تُـورث عينى أرَقـا[٧]
خَـفِيَـتْ للعين حتى خِـلْتُهـا ... تـتَّقـى من لَحْـظِه مـا يُتَّقَى

---

(١) راجع هذه المقطوعات فى الذخيرة ٤/٤٧ وانظر فى ترجمة الجزيرى الجذوة ٢٦١ والمطمح ١٣ والصلة ٣٥٠ والمغرب ١/٢٢١.
(٢) الحلة السيراء ١/٢٢٣.
(٣) شؤبوب المطر: أول دفعة منه.
(٤) المزن: السحاب. غدقاء: غزيرة.
(٥) النمرق: الطنفسة من القطيفة أوالصوف.
(٦) الأبيض اليقق: الناصع البياض جنح: ظلام.
(٧) الرشأ: ولد الظبية.

أشرقتْ فى ناصعٍ من كفِّه كشُعاع الشمسِ لاقى الفَلَقا[1]
طلعَتْ شمسًا وفُوهُ مَغرِبًا ويدُ الساقى المحيِّى مَشْرِقا
فإذا ما غربتْ فى فَمِهِ تركتْ فى الخدِّ منه شَفَقا

والاستعارات فى الخمرية جيدة. فالكأس كست ظلام الدجى ثوب نور من ضوئها ناصع البياض، وقد بات يسقيها رشأ عيناه ذا بلتان كأن بهما سنة من النوم، وإن فتورهما وجماله ليؤرقه. ويقول إنها خمر روحانية، حتى إنها لا تكاد تُرى، وكأنها تتوارى من لحظ هذا الرشأ خشية أن تصيبها سهامه، ويجعل يد الساقى مشرقا لتلك الشمس أو تلك الخمر، كما يجعلها تغرب فى فم الرشأ أو فم صاحبته. وكل ذلك فيه أصداء من خمريات أبى نواس، وقد نفذ إلى إضافة حين جعل يد الساقى مشرقا وجعل الخمر حين تغرب فى فم صاحبته تتحول فى الخد منها شفقا. ويتصور معاصره الفقيه سليمان بن محمد البطليوسى الأرض فى الربيع كأنها مجلس أنس كبير، يقول[2]:

تبدتْ لنا الأرضُ مزهوَّةً علينا ببهجة أثـوابها
كـأنَّ أزاهِـرَهـا أكْؤسٌ حَـوَتْها أنامِلُ شُـرَّابها
كأن الغصونَ لهـا أذرعٌ تنـاولها بعضُ أصحـابها
كـأنِ تَعَانُقَهـا بـالجَنُوب تعـانقُ خَـوْدٍ لأتْـرابها
كـأنَّ تَـرَقْـرُقَ أجفـانها بُكـاها لفُـرْقـةِ أحبـابِها

فالأرض قد ازدهت بأبهج أثوابها لهذا الاحتفال الكبير، وكأنما أزهارها تحولت إلى كئوس فى أنامل الشاربين تمدها لهم أذرعها من الغصون، مبتهجة فرحة بلقائهم، وريح الجنوب تعانق الغصون عناق خَوْد أو شابة فاتنة لأترابها الفاتنات، ويتلفت فيجد النَّدَى على وجنات الأزهار وفى عيونها فيقول إن الدموع تترقرق فى أجفانها لفرقة أحبابها. ونلتقى بعده بعبادة بن ماء السماء، وسنخصه بكلمة. وكان يعاصره ابن شهيد بأخرة من العصر الأموى، وله فى زيارة دَيْر أيام شبابه مع صحبه فى طلب الخمر واللهو:[3]

ولَرُبَّ حانٍ قد شَرِبْتُ بِدَيْرِهِ خَمْرَ الصِّبا مُزِجتْ بِصَفْوِ خُمورِهِ
فى فتيةٍ جعلوا الزِّقاق تِكاءَهم مُتَصـاغرين تخشُّعـا لكبيـره

---

(١) الفلق: الصباح.
(٢) ابن الكتانى ص ٤١ والبديع فى وصف الربيع ص ١٤ وانظر فى ترجمة الفقيه الحميدى ٢٠٦ وبغية الملتمس رقم ٧٦٢.
(٣) الديوان ص ١١٥.

يُهْدِي إلينا الرّاحَ كلُّ مُعَصْفَرٍ كالخِشْفِ خفَّره التماحُ خَفيره[1]
وترنم الناقوسُ عند صلاتهم ففتحتُ من عينى لرَجْع هديره

وهو يقول إنه بات مع بعض رفاقه فى حانة دير اصطفت فيها الدنان وأخذوا يعبُّون من الخمر متخذين من زقاقها متكئا لهم، كأنما يريدون أن لا يتركوا فيها بقية، وغلمان الدير يدورون عليهم بكئوسها وعين القسيس ترصدهم وترعاهم. وأخذتْهم سنة من النوم، ودقّ ناقوس الكنيسة فى الصباح فأيقظهم من رقادهم. وحرى بنا أن نشير هنا إلى كتاب التشبيهات لابن الكتانى المتوفى حوالى سنة ٤٢٠ للهجرة، فكل ما فيه من عرض للشعراء مع طرائف تشبيهاتهم هو من إنتاج العصر الأموى بالأندلس، وقد خص شعر الطبيعة بنحو ستين صفحة وشعر الخمر بنحو عشرين صفحة، تتوالى فيها جميعا تشبيهات طريفة لكثرة من الشعراء الذين أظلهم هذا العصر ونالوا شيئا من الشهرة فيه، وقد بلغوا فى الكتاب جميعه نحو مائة شاعر، مما يدل بحق على أن الشعر نشط فى الأندلس لعصر بنى أمية - كما قلنا فى غير هذا الموضع - نشاطا عظيما.

ونمضى إلى عصر أمراء الطوائف ونلتقى فى أوائله بأبى عبد[2] الله محمد بن السراج شاعر بنى حمود بمالقة فى الجنوب الشرقى للأندلس على البحر المتوسط، وكان صَبًّا بمن اسمها حُسْن الورد وله فيها وفى الورد وفى الطائر المسمى حَسُّونًا ويسمى عندهم أم الحسن أشعار كثيرة نذكر منها قوله:

ذكرتُ بالورد حُسْنَ الوَرْدِ شِقَّتَهُ حُسْنًا وطِيبًا وعهدًا غير مضمونِ
هيفاءَ لو بعتُ أيامى لِرؤيتها بساعةٍ لم أكن فيها بِمَغْبُونِ
فاشربْ على ذكرها خَمْرًا كِريقَتِها وخُصَّنى بهواها حين تَسْقِينى

فورد الربيع على أغصانه يذكِّره باسم صاحبته وبالورد المطبوع على خديها، ويقول إنها صِنْوٌ للورد طيبا وحسنا وقصرًا إذ أيامه قليلة. ويذكر لقاءات له معها، فيطلب إلى الساقى كأسا يشربه على ذكرها، وذكرى الأيام التى نعم فيها بقربها. وكان يزامله فى مديح بنى حمود أصحاب مالقة عبد الرحمن بن مُقانا وسنخصه بكلمة ونلتقى

---

(١) معصفر: مصبوغ بالعصفر وهو صبغ أحمر. ويريد السقاة من غلمان القسس. الخشف: ولد الظبية. خفره: حماه. خفيره: حارسه.

(٢) انظر فى ترجمة ابن السراج وشعره الذخيرة ٨٧٠/١ وما بعدها والحميدى ٥٦ والبغية رقم ١٤٤ والمغرب ٤٣٤/١.

بأبى عامر بن مسلمة صاحب كتاب حديقة الارتياح فى وصف حقيقة الراح الذى ألفه للمعتضد عباد أمير إشبيلية، وله فى وصف الخمر[1]:

خمرةٌ ماتتْ زماناً ... بحجابٍ يَحْتويها
لبثتْ فى بَطنِ أمٍّ ... غَيَّبَتْها عن بَنِيها
ألْحَدَتْها الدَّنُّ دَهْرًا ... ثم عاد الرُّوحُ فيها
فانبرى منها سراجٌ ... رائقٌ مَنْ يجتليها

وهو يقول إنها ماتت زمانا طويلا وراء حجاب دَنِّها أو سِداده، ويزعم أنها ظلت فى بطن أمها حقبا لا تبرزها لبنيها من الكئوس، وما زالت الدن مدفونة، أو بعبارة أدق ما زالت الخمر مدفونة لا حياة فيها ولا روح، ثم قُدِّر لها أن يعيد الماء لها روحها وحياتها حين وُضع فيها وامتزج بها، ولم تلبث أن بدا فيها سراج يروق الناظرين. وكان يعاصره فى إشبيلية أبو الوليد إسماعيل بن عامر الحميرى الملقب بحبيب المتوفى سنة ٤٤٠ عن اثنين وعشرين عاما، وله كتاب البديع فى وصف الربيع الذى تحدثنا عنه فى الفصل الثانى، وهو أحد مصادرنا المبثوثة فى الهوامش، وقد جمع فيه روائع مما للأندلسيين فى صفة الربيع وأزهاره ونواويره، وهو دليل واضح على كثرة ما نظم الأندلسيون فى الطبيعة مما أتاح له أن يؤلف فيها منتخباته البديعة فى مائة وستين صفحة، مما نظموه فيها. ولابن عمار أبيات فى الخمر والطبيعة اشتهرت قدَّم بها مدحة للمعتضد عباد، وهى تمضى على هذا النمط[2]:

أدِرِ الزُّجاجةَ فالنسيمُ قد انْبَرى ... والنَّجْمُ قد صَرَفَ العِنانَ عن السُّرَى
والصُّبْحُ قد أَهْدَى لنا كافورَهُ ... لما استردَّ الليلُ مِنَّا العَنْبرا
والرَّوْضُ كالحَسْنا كساهُ زهرُه ... وَشْيًا وقلَّده نَدَاه الجوهرا
روضٌ كأن النهرَ فيه مِعْصَمٌ ... صافٍ أطلَّ على رداءٍ أخضرا

وموسيقى القصيدة وصياغتها وصورها على هذه الشاكلة من التفنن، وكأنما تحولت الدنيا والطبيعة إلى محفل راقص، حتى النجم كأنما ثبت فى مكانه لا يريم، واسترد الليل المرح الذى قضوه عنبره وسواده منهم، فأهداهم الصباح كافوره وضياءه المشرق، وتبرَّج الروض فى وشيه وجواهره، وكأن النهر الذى يجرى فيه معصم صاف متلألئ بمياهه يشرف

---

(١) الذخيرة ١٠٨/٢.

(٢) الذخيرة ٣٨٤/٢ ومغرب ٣٦١/١.

على بساط بل على رداء سُنْدسى أخضر. وتتداخل صور الطبيعة فى مديح القصيدة ومعانيها مرارا كقوله السالف فى المعتضد:

أنْدَى على الأكباد من قَطْر النَّدَى   وألَذّ فى الأجفان من سِنَةِ الكَرَى

وكان يعاصره بإشبيلية على بن حصن الماجن، وسنفرد له كلمة. ونمضى إلى عصر المرابطين، ونلتقى بعبد الله بن سارة، وله أشعار كثيرة فى الأزهار: النرجس وغيره وفى الخمر ومجالسها، ومن قوله فى النارنج[1]:

أجَمْرٌ على الأغصانِ زادتْ نضارةً   به أم خدودٌ أبْرَزَتْها الهوادِجُ
كُراتُ عَقيقٍ فى غُصونِ زَبَرْجَدٍ   بكفِّ نسيمِ الرِّيحِ منها صَوالجُ
نقبِّلها طورا وطورا نَشُمُّها   فهنّ خدودٌ بيننا ونوافِجُ

وابن سارة لا يدرى أيرى على الأغصان جمرا ناضرا أم خدودًا لحسان تومض من بعيد على الهوادج، بل هى كرات من عقيق أحمر تتوّج غصونا من زبرجد أخضر، بل هى صوالج يرسلها النسيم بكفه إلى أعالى أشجارها حتى إذا تناولها بيده مضى يقبل فيها خدود الحسان ويشم أريجها العطر. وكأنها طورا خدود وطورا نوافج مسك ذكى الرائحة. ولهم شعر كثير فى الفواكه والثمار نكتفى منه بهذا المثال. ولأبى طالب عبد الجبار المترجم له بين أصحاب الشعر التعليمى خمرية نواسية، وصف فيها زيارته لإحدى الحانات، يقول فيها[2]:

وخمّارٍ أنختُ به مَسيحى   رَخيمِ الدَّلِّ ذى وَتَرٍ فَصيحِ[3]
سقانى ثم غنّانى بصوتٍ   فداوَى ما بقلبى من جُروحِ
وفَضَّ فَمَ الدِّنان على اقتراحى   ففاحَ البيتُ منها طِيبَ رِيحِ
فقلتُ له لِكَمْ سَنَةٍ تراها   فقال: أظُنُّها من عهد نوحِ
ولما أن شَدَا الناقوسُ صَوْتا   دعانى: أن هَلُمَّ إلى الصَّبوحِ

فهو قد نزل بخمار مسيحى يحسن الغناء على العود بصوت رقيق ، وسقاه وغناه وشفى - كما يقول - ما بقلبه من جروح، وأخذ يفضّ له باقتراحه دَنًّا وراء دن، وسأله عن عمرها فقال له إنها عتيقة وأظنها من عهد نوح، ودقّ الناقوس، فنبّهه إلى الصبوح أو

---

(١) الذخيرة ٢/٨٤٠ ومغرب ٤٢٠/١.
(٢) الذخيرة ٩١٨/١ والمغرب ٣٧٢/٢.
(٣) رخيم: رقيق.

شُرْبها فى الصباح. ولابن الزقّاق يصف أمسية وقد غربت الشمس وخلّفت وراءها على أفق السماء الغربى الشفق البهيج[١]:

وعَشِيَّةٍ لبستْ رِداءَ شَقِيقِ ... تَزْهُو بلونٍ للخدود أنيقِ
أبقتْ بها الشمسُ المنيرةُ مثلما ... أبقى الحياءُ بِوَجْنَةِ المعشوقِ
لو أستطيع شربتُها كَلَفًا بها ... وعدلتُ فيها عن كُئوسِ رَحِيقِ

وهو يتصور العشية كأنما أعارها زهر شقائق النعمان الأحمر رداء أو كأنما اكتست بحمرة الخدود الفاتنة أو كأنما خلّفت الشمس المضيئة عليها ما يخلّفه الخجل على وجنة المعشوق. وإنه ليفتن بتلك العشية وما يلابس الأفق من أضواء الشفق الوردية والياقوتية التى تفوق نشوته برؤيتها نشوته بالكئوس من رحيق الخمر، حتى ليتمنى - لو استطاع - أن يشربها هانئا بها هناءة ما بعدها هناءة. وابن الزقاق ينتشى دائما بمناظر الطبيعة الساحرة وله بجانب شعره فيها خمريات كثيرة، ولكن تظل نشوته بالطبيعة أشد أو أكثر شدة. وكانت فتنة خاله ابن خفاجة بالطبيعة أعمق أو أكثر عمقا وسنخصه بكلمة عما قليل.

ونظل فى عصر الموحدين نلتقى بكثيرين مفتونين بمناظر الطبيعة الأندلسية الخلابة، وفى مقدمتهم الرصافى الذى ترجمنا له بين شعراء المديح، وله يصف نهر الوادى الكبير الذى يمر أمام إشبيلية وما يحيط به من أشجار ونباتات قائلا[٢]:

ومهدَّلِ الشَّطَّيْنِ تحسب أنه ... مُتَسايِلٌ من دُرَّةٍ لِصَفائهِ
فاءتْ عليه معَ الهَجِيرَةِ سَرْحَةٌ ... صَدِئتْ لفَيْئَتِها صَفِيحةُ مائهِ[٣]
وتراه أزرقَ فى غِلالة سُنْدسٍ ... كالدَّارعِ اسْتلْقَى بِظلِّ لِوَائهِ

فالنهر تتهدلُ على شطيه أغصان الأشجار، وهو يجرى تحتها صافيا متلألئا كأنه يسيل من درة أو درر نفيسة وقد بسطت شجرة ضخمة على مائه ظلها، وكأنما ألقت صدأ على صفيحته أو وجهه العريض، وهى صورة بديعة. ولم يلبث النهر أن تراءى له مع جفافيه من النباتات والزروع كأنما يرتدى غِلالة سندسية، وأيضا تراءى له مع ما تلقى عليه السرحة

---

(١) الديوان ص ٢٠٦ والمغرب ٣٣٤/٢.

(٢) رايات المبرزين (طبع القاهرة) ص ١١٩ والإحاطة ٥١٤/٢.

(٣) فاءت سرحة: بسطت ظلها. السرحة: الشجرة الضخمة. الهجيرة: نصف النهار عند اشتداد الحر.

من ظل كدارع محارب استلقى يستريح مستظلا بلوائه. والرصافى لا يبارى فى روعة تصاويره، وله يصف أمسية قضاها مع بعض رفاقه منتشيا بشرب الخمر وبرؤية مغرب الشمس والطير تصدح من حوله، يقول[١]:

وعَشِيٍّ رائقٍ منظرُهُ ... قد قطعناهُ على صِرْفِ الشَّمولْ[٢]
وكأن الشمس فى أثنائه ... ألصقتْ بالأرض خدًّا للنزول
والصَّبا ترفعُ أذيالَ الرُّبَى ... ومُحيَّا الجوِّ كالسَّيف الصَّقيل
حبَّذا منزلُنا مُغتبَقًا ... حيث لا يُطْرِبُنا غيرُ الهَدِيل
طائرٌ شادٍ وغُصْنٌ مُنثَنٍ ... والدُّجى يَشْرَبُ صَهْباءَ الأصيل[٣]

وهو يقول إنه ظل فى هذه الأمسية يتمتع بشراب الخمر الصافى وبمنظر الطبيعة الخلاب والشمس تودع الأرض وتلصق بها خدها إعزازا ومحبة، ونسيم الصَّبا العليل يحرك النباتات والغصون أو كما يقول أذيال الربى والمرتفعات، ويثنى على منزلهم واغتباقهم أو احتسائهم للخمر فيه مساء على سماع الهديل وهديره وما يحمِّله من أنغامه وأشجانه. ويُبَلْور روعته بالمنظر فى طائر شاد وغصن منثن، ويحلق خياله، إذ يجعل الدجى ينتشى مثله ومثل رفاقه بما يشرب من صهباء الأصيل ورحيقه الهنىء. وكانوا كثيرًا ما يتنزهون فى الأنهار والخلجان ويركبون لها الزوارق ذات الأشرعة والأخرى ذات المجاديف، وأحيانا كانوا يُجْرون فيها سباقا على نحو ما كانوا يصنعون بسباق الخيل، ويتحدث الفقيه أبو الحسن على بن لبَّال قاضى شَرِيش عن أحد هذه السباقات فى نهرها قائلا[٤]:

بنفسىَ هاتيك الزوارقُ أُجْرِيتْ ... كحَلْبَةِ خَيْلٍ أولاً ثم ثانيا
وقد كان جِيدُ النَّهْر من قبلُ عاطلا ... فأمسى بها فى ظُلْمة الليل حَاليا
عليها لزُهْرِ الشَّمْع زُهْرُ كواكبٍ ... تُخَالُ بها ضِمْنَ الغَدِير عَوَاليا[٥]
وربَّ مُشارٍ بالجناح وآخرٍ ... برجلٍ يحاكى أرْنباً خاف بازِيا

وهو يقول إن الزوارق أُجريت فى النهر على دفعات تزينها شموع أصبح بها جيد النهر

---

(١) رايات المبرزين ص ١١٩.
(٢) صرف الشمول: خالص الخمر.
(٣) الصهباء: الخمر.
(٤) رايات المبرزين ص ٥٣ وانظر فى ترجمة ابن لبال وشعره المطرب ص ٩٧ والمغرب ٣٠٣/١ والتكملة ص ٦٧٣ وصلة الصلة ص ١٠٩. توفى سنة ٥٨٣.
(٥) العوالى: الرماح. زُهْر جمع أزهر: مشرق مضىء.

حاليا بعد أن كان عاطلا من الحلى والزينة. ويخال الشموع فى النهر كأنها رماح مشرعة، بينما الزوارق منها ذات الشراع أو الجناح ومنها ذات المجاديف، وتسرع كأنما هى أرانب تخاف أن يصيدها البزاة والصقور. ومن شعراء الطبيعة المبدعين حينئذ محمد بن سفر، وسنخصه بكلمة. ونلتقى بأخرة من أيام الموحدين بالهيثم بن أبى الهيثم حافظ إشبيلية بل الأندلس جميعها فى عصره، وكان أعجوبة دهره، كان يحفظ ديوان ذى الرمة الشاعر الأموى، ومن عجائبه أنه كان يملى على شخص شعرا - كما يقول ابن سعيد - وعلى ثان موشحة وعلى ثالث زجلا، وكل ذلك يمليه ارتجالا دون توقف، وله فى فرس أصفر[1]:

أطِرْفٌ فات طَرْفِى أم شِهابُ هفا كالبرق ضَرَّمه التهابُ[2]
أعارَ الصُّبْحُ صَفْحتَه نِقابًا ففرَّ به وصَحَّ له النِّقابُ
فمهما حُثَّ خال الصُّبحِ وَافَى ليطلب مااستعار فما يُصابُ
إذا ماانْقَضَّ كلَّ النَّجْمُ عنه وضَلَّتْ عن مَسالكه السَّحابُ

وللأندلسيين شعر كثير فى وصف الخيل لأنهم كانوا يحاربون عليها دائما، وكانوا يعقدون أحيانا بينها سباقات. ويتشكك الهيثم حين رأى هذا الفرس يعدو عدوا سريعا كأنه يبارى به الرياح، فيقول أهذا طِرْف أى حصان أو هو شهاب سقط من أحد أركان السماء، وكأنه برق مضطرم لهيبا. ويظن كأن الصبح أعاره نقابا أصفر، ففرَّ به، وهو دائما لا يتوقف كأنه يظن الصبح فى إثره يطلب نقابه الذى اقترضه منه. ويقول إنه إذا انقضَّ وراء فريسة أعيا النجم أن يلحق به وضلَّت السحب عن معرفة مسالكه. ويلقانا أبو جعفر أحمد بن طلحة، وله[3]:

أدِرْها فالسماءُ بدت عَروساً مضمَّخَةَ الملابس بالغَوَالِى[4]
وخَدُّ الروض خفَّره أصِيلٌ وجَفْنُ النهرِ كحِّلَ بالظلال
وجِيدُ الغُصْنِ يُشْرف فى لآلٍ تضيءُ بهنَّ أكنافُ الليالى

وهو يقول لصاحبه: دعنا نتناول خمر الغبوق المسائية، فالسماء قد بدت عروسا

---

(١) الرايات ص ٤٧ وانظر فى الهيثم وترجمته وشعره المغرب ٢٦٣/١ واختصار القدح المعلى ص ١٥٨ والتكملة ص ٧١٦. توفى سنة ٦٣٠.
(٢) طرف بكسر الطاء: حصان. هفا: أسرع.
(٣) اختصار القدح المعلى ص ١٤ وانظر فى ترجمة ابن طلحة أيضا المغرب ٣٦٤/٢ والتحفة رقم ٩٦.
(٤) الغوالى: جمع غالية: المسك.

مبتهجة مضمخة أو معطرة بالمسك فى منظر الروض البهيج، وكأنما سكب الأصيل على خد الروض حياء وخفرا فاصفرَّ لونه، بينما كُحِّلَ جَفْن النهر بالظلال، وقد أضاءت على جيد الغصن أزهار كاللآلئ تضيء الليالى المظلمة.

ويلقانا مَرْج الكُحْل: محمد بن إدريس الذى نشأ بائعا متجولا فى الأسواق يتعيش ببيع السمك ثم ترقت به همته إلى الأدب قليلا قليلا - كما يقول ابن سعيد - إلى أن نظم الشعر ثم ارتفعت فيه طبقته، وله خمرية يمزج فيها بين نشوته بالطبيعة ونشوته بالخمر يقول فيها[1]:

عَرِّجْ بمُنْعَرَجِ الكَثِيبِ الأعْفَرِ ... بين الفُراتِ وبين شَطِّ الكَوْثَرِ[2]
ولْتَغْتَبِقْهَا قَهْوةً ذهبيةً ... من راحتَىْ أَحْوَى المَراشفِ أَحْوَرِ[3]
والروضُ بين مُفَضَّضٍ ومذَهَّبٍ ... والزَّهْرُ بين مُدَرْهَمٍ ومُدَنَّرِ[4]
والوُرْقُ تَشْدُو والأراكةُ تنثنى ... والشمسُ تَرْفُلُ فى قميصٍ أصْفَرِ[5]
ما اصفرَّ وَجْهُ الشمسِ عند غروبها ... إلا لفرقة حُسْنِ ذاك المنظرِ

وهو يدعو صاحبه أن ينزل معه بطريق الكثيب المشرب بحمرة فى تلك الجنَّة البعيدة بين الفرات والكوثر ليتمتعا هناك بالغَبوق أو خمر المساء، وبمناظر الأزهار المفضضة والمذهبة، والورق أو الحمام يشدو ويهدر وأغصان الأراكة تنثنى، يثنيها النسيم العليل والشمس تتبختر فى قميصها الأصفر الرقيق، ويقول إن صفرتها عند الغروب بسبب فراقها ووداعها لمنظر هذا الروض الفاتن. ويقول أبو الحجاج يوسف بن عتبة الإشبيلى المتطبب فى خاتمة موشح له يصور شرب الخمر والصباح يطل على الطبيعة[6]:

فَقُمْ نباكِرْها للاصطباحِ
والشُّهْبُ تُنْثَرُ من خَيْطِ الصباحِ

---

(١) مغرب ٣٧٣/٢ وانظر فى ترجمة مرج الكحل وشعره أيضا زاد المسافر ص ٢٧ والوافى بالوفيات ١٨١/٢ والتكملة ص ٣٤٤ والاحاطة ٣٤٣/٢ حمل عنه ديوان شعره وتوفى سنة ٦٣٤.

(٢) منعرج الكثيب الأعفر: طريق الكثيب المخالط لونه حمرة. الكوثر: نهر بالجنة ولعله يريد دجلة.

(٣) القهوة: الخمر. اغتباقها: شربها فى المساء. المراشف: الشفاه.

(٤) المدرهمة: المفضضة من الدرهم. والمدنرة: المذهبة من الدينار.

(٥) ترفل: تتبختر.

(٦) مغرب ٢٨٢/١ وانظر فى ترجمة أبى الحجاج وشعره أيضا اختصار القدح المعلى لابن سعيد ص ١٦١.

والقُضْبُ ترقصُ في أيدي الرِّياحِ

على غنـاء الحمـامِ   والكاسُ ذاتُ ابتسـامِ
والـظلام قـتـيـلٌ   والصُّبْحُ دامى الحسامِ

وإنما ذكرنا هذا الدور الختامى لإحدى موشحات أبى الحجاج لنشير بوضوح إلى أننا إذا كنا قد أغفلنا فى حديثنا عن أغراض الشعر ذكر الموشحات فليس معنى ذلك أنها انفصلت فى أغراضها عن الأغراض العامة للشعر فقد كانت هى نفسها أغراض الموشحات ولهم فيها ما لا يحصى من الأخيلة البديعة، على شاكلة ما نرى فى هذا الدور من تمثيل غياب النجوم مع تباشير النهار، فقد جعلها أبو الحجاج تنثر من خيط الصباح وكأنها دنانير تنثر فى عُرْس والغصون راقصة متشابكة ومتلاعبة مع الرياح،والحمام يشدو ويغنى والخمر فى كئوسها تبتسم ثغورها. ولا يلبث أبو الحجاج أن يعرض علينا هذا المشهد الدرامى البديع فالظلام طريح قتيل، إذ سفك الصبح دمه، ولا تزال حمرته القانية تلطِّخ سيفه. ويقول ابن الأبار مستلهما الرصافىَّ فى وصف نهر[١]:

ونهرٍ كما ذابتْ سبائكُ فضَّةٍ   حكى بمحانيه انعطافَ الأراقمِ[٢]
إذا الشَّفَقُ استولى عليه احمرارُه   تبدَّى خَضِيبًا مثل دامى الصَّوارمِ[٣]
وتحسبـه سُنَّتْ عليـه مُفاضَـةٌ   لإرهابِ هَبَّات الرياح النواسمِ[٤]
وتُـطْلعه فى دُكْنـةٍ بعد زُرْقـةٍ   ظـلالٌ لأدواحٍ عليـه نَـوَاسم

وهو يجعل ما فى النهر سبائك فضة سائلة، ويشبهه فى انعطافاته يمينا ويسارا بانعطافات الأفاعى، حتى إذا سقط عليه الشفق تصوَّره سيفا داميا، وسقط عليه الظل فتصوره درعا لبسه النهر لإرهاب الرياح، وإنها لتُحيل لونه داكنا بعد أن كان أزرق صافيا. ويقول إبراهيم[٥] بن سهل الإشبيلى:

الأرض قد لبستْ رداءً أخضرا   والـطلُّ ينثرُ فى رُبـاها جـوهـرا

---

(١) أزهار الرياض ٣/٢٢٣.
(٢) الأراقم: الأفاعى.
(٣) خضيبا: ملونا. الصوارم: السيوف.
(٤) سُنت: صُبَّت. مفاضة: درع.

(٥) انظر فى ابن سهل وترجمته وشعره المغرب ١/٢٦٩ واختصار القدح ص٧٣ والفوات ١/٢٣ والمنهل الصافى ١/٥١ وهو يهودى أسلم فى شبابه توفى سنة٦٤٦. طبع ديوانه محققا ببيروت.

فاحتْ فخِلْتُ الزهر كافورا بها وحسبتُ فيها التُّرْبَ مِسْكًا أذْفَرَا[١]
وكأن سَوْسَنها يصافحُ وَرْدَها ثَغرٌ يُقَبِّل منه خدًّا أحمرا

وهو يقول إن الأرض لبست خضرة الربيع، وكأنما الطل ينثر فى رباها كل ما فى حجره من جوهر، وسطعت رائحة كافور زهرها الأبيض حتى خلت التراب فيها مسكا أذفر أو عاطرا، وكأن سوسنها الأبيض الجميل حين يصافح وردها ثغر يقبل خدا ياقوتيا.
ويقول أبو الوليد[٢] بن الجنان:

هات المُدامَ وقد ناح الحمامُ على هذا الظلامِ وجيشُ الصُّبحِ فى الطلَبِ
والسُّحْبُ قد بَدَّدَتْ فى الأرض لُؤْلُؤها تضمُّهُ الشمسُ فى ثَوْبٍ من الذهبِ

وقد جعل ابن الجنان الحمام ينوح على الظلام وجيش الصبح فى إثره، وهو ينسحب بسرعة أمامه، بينما السحب تمطر لآلئها وقطراتها الفضية، ولم تلبث شمس الصباح أن التقطت كل هذه اللآلئ: ولمتها أو جمعتها فى ثوبها الذهبى. ولابن خاتمةفى بلبل وردية اللون تغنى فى روض مكتظ بالورود والأزهار[٣]:

ووردِيّة الجلبابِ أعجبَها الوَرْدُ فغنَّتْ وما بالغانيات لها عَهْدُ
أتتْ وبطاحُ الأرضِ تُجْلىَ عرائسًا وفى كل غُصْنٍ من أزاهرهِ عِقْدُ
وقد أبْدَت الدنيا محاسِنَ وَجْهِهَا فمنٍ زهرةٍ ثَغْرٌ ومن وردةٍ خَدُّ
فَغَنَّتْ غناءَ الشَّرْبِ أنْشَتْهمُ الطِّلا وحَنَّتْ حَنين الصبِّ باح بهِ الوَجْدُ[٤]

وهو يصور البلبل الوردية قد أعجبها ورد الروض وخليها، فتغنَّتْ له غناء ساحرا لم تعهده الغانيات الجميلات، ويقول إنها أتت الروض فى وقت الربيع، وقد ازدانت بطاح الأرض حتى لكأنها عرائس وازدانت غصون الأشجار بعقود الأزهار وأبدت الدنيا محاسن وجهها فمن زهرة - مثل زهرة الأقحوان - ثغر، ومن وردة - وما أكثر الورود - خد. وأسكر البلبل المنظر الرائع فانتشت وغنت وحنت حنين الصب المغرم الولهان.
ولابن زَمْرَك فى وصف زهر القَرَنْفل بجبل الفتح أو جبل طارق[٥]:

---

(١) أذفرا: عطرا.
(٢) راجع فى ابن الجنان وترجمته وشعره المغرب ٣٨٣/٢ واختصار القدح ص ٢٠٦.
(٣) الديوان ص ٩٨ .
(٤) الطلا: الخمر.
(٥) أزهار الرياض ٤٠/٢.

رَعَي اللهُ زَهْرًا ينتمي لقَرَنْفُلٍ حكى عَرْفَ مَنْ أهوى وإشراقَ خَدِّهِ[١]
ومَنبِتُـهُ في شاهقٍ متمنعٍ كما امتنعَ المحبوبُ فى تِيه صَدِّهِ
أميل إذا الأغصان مالتْ بروضةٍ أعانقُ فيها القُضْبَ شوقًا لقَدِّهِ[٢]
وأهفو لخفَّاقِ النسيمِ إذا سَرَى وأَهْوَى أريجَ الطِّيب من عَرْفِ نَدِّهِ[٣]

وهو يدعو لزهر القرنفل أن يرعاه الله لأنه يحكي عرف من يهواها وطيبها. ويقول إن منبته فى أعالى جبل الفتح الممتنع على غزاته امتناع المحبوب فى صَدِّه وتيهه وخُيَلائه. كما يقول إنه كلما رأى الأغصان فى روضة عانقها شوقا لعناق محبوبه. ويقول أيضا إنه يحنّ إلى خفّاق النسيم مساء يظنه من قِبَل محبوبه. ويهوى أريج الطيب يظنه من أريجه الذكيّ العطر. وحرى بنا أن نلم إلمامات قصيرة بمن وعدنا بالحديث المجمل عنهم من شعراء الطبيعة والخمر، وهم عبادة بن ماء السماء وعبد الرحمن بن مقانا وعلى بن حصن وابن خفاجة ومحمد بن سفر.

عبادة[٤] بن ماء السماء الأنصارى

هو عبادة بن عبد الله الأنصارى من ذرية سعد بن عبادة الخزرجى أحد النقباء الذين اختارهم رسول الله ﷺ فى العقبة الثالثة، وقيل له عبادة بن ماء السماء انتهاء إلى جد الخزرج الأول، ولسنا نعرف شيئا واضحا عن نشأته إلا ما يذكر مترجموه من أنه تلميذ الزبيدى تلميذ أبى على القالى وأهم اللغويين بعده. ولم تلبث موهبته الشعرية - على ما يبدو - أن تفتحت، ومدح المنصور بن أبى عامر الحاجب (٣٦٦ - ٣٩٢ هـ) فأعجب به وأسبغ عليه جوائزه، وسُجِّل اسمه فى ديوان الشعراء وأُعليت مرتبته فيه وأُعلى عطاؤه. وتدور الأيام وتكون فتنة قرطبة التى ظلت نحو عشرين عاما، ويعتلى عرش الخلافة على بن حمود من سلالة الحسن بن على بن أبى طالب سنة ٤٠٧ ويدور العام فيقتل ويخلفه أخوه القاسم حتى سنة ٤١٢ ويخلعه يحيى ابن أخيه على. وعاد القاسم فانسحب يحيى إلى مالقة، ولم تلبث الخلافة أن عادت إلى الأمويين بقرطبة سنة ٤١٤. ولعبادة مدائح فى هؤلاء الحموديين الثلاثة، وفى مديحه لهم غير قليل من مبالغات الشيعة فى مديح

---

(١) العرف: الشذا وطيب الرائحة.
(٢) القضب: الغصون.
(٣) سرى: سار ليلا. أريج: فائح. الند: عود طيب الرائحة.
(٤) انظر فى ترجمة عبادة وشعره الذخيرة ٤٦٨/١ وما بعدها والجذوة ٢٧٤ والمطمح ٨٤ والبغية رقم ١١٢٣ والصلة رقم ٩٦٣ والفوات ٤٢٥/١.

أئمتهم، غير أنهم جميعا لم يكونوا يستظهرون شيئا من العقيدة الشيعية. ويبدو أن عبادة تبع يحيى إلى مالقة يمدحه ويسبغ عليه يحيى من نواله، حتى إذا كانت سنة ٤١٩ ضاعت منه عطايا يحيى وأهل بيته له، وكانت مائة مثقال ذهبا فاغتم غما شديدا، وكان ذلك سبب وفاته.

ويشيد ابن بسام بعبادة، ويقول إنه كان شيخ الصناعة وإمام الجماعة بزمنه فى قرطبة معللا ذلك بأنه سلك إلى الشعر مسلكا سهلا، فقالت له غرائبه: مرحبا وأهلا. ولم يكن شاعرا فحسب، بل كان أيضا مؤرخا أديبا إذ كان له كتاب فى أخبار شعراء الأندلس، وعنه ينقل ابن سعيد فى المغرب بعض أخبارهم. وأهم من ذلك ما ذكره ابن بسام - على نحو ما مر بنا فى حديثنا عن الموشحات - من أنه هو الذى «نهج لأهل الأندلس طريقتها - وكأنها لم تُسْمَع بالأندلس إلا منه ولم تؤخذ إلا عنه». ومر بنا أن مقدَّم بن معافى القَبْرى - وهو عربى - أول من ابتكرها وأن الرمادى الكندى - وهو أيضا عربى - تطور بها بعض التطور، ثم خلفه عبادة الخزرجى الأنصارى فأعطاها شكلها النهائى. ومرَّ بنا نقض دعوى أنها نشأت على غرار أغان رومانسية إسبانية فقد نشأت وتطورت وأخذت صيغتها النهائية على أيدى عرب تطويرا منهم - كما ذكرنا فى حديثنا عن الموشحات - لفن المسمطات المشرقية.

وكان عبادة - بحق - إمام الشعراء فى زمنه، وما رواه ابن بسام له منه - يتميز بمتانة العبارة ونصاعتها وبحسن الأداء الموسيقى وبجمال الأخيلة، وله مبهورا بجمال صاحبته وجمال أناملها التى شبهها بالعنَّاب:

سقى الله أيّامى بِقرطبةِ المُنَى ... سُرورا كرىِّ المُنْتَشِى من شَرابِهِ

وكم مُزِجَتْ لى الراحُ بالرِّيق من يَدَىْ ... أغرَّ يُرينى الحسنَ ملءَ ثيابه

تعلِّلنى فيه الأمانى بوعدها ... وهيهات أن أُرْوَى بورْد سَرابِهِ[١]

سَلِ العَنَم البادى من السَّجْف دَالِفًا ... لتعذيب قلبى هل دَمِى من خضابِهِ[٢]

وهو يذكر أيام شبابه الماضية بقرطبة، ويدعو لها أن تُسْقَى سرورا ترتوى به وتنتشى كانتشاء صاحب الخمر من شرابه، ويذكر كم شرب الخمر فيها من يد حسناء وكيف كان يعلل نفسه بلقائها ووعدها، غير أنه كان دائما سرابا لا يتحقق، ويتساءل هل خضاب

---

(١) الورد: الماء الذى يرده الناس، وقد أضافه إلى السراب تخيلا.

(٢) العنم: الخضاب الأحمر وأراد به الأنامل. السجف: ستر الخيمة بجانب بابها. دالفا: مقبلا.

أناملها البادى من الستر لتعذيب قلبه من دمه. كأنه قتيل هواها وقد سفكت دمه وعلق منها بالأنامل. ويقول:

اجْلُ المدامة فهى خيرُ عَروسِ ... تَجْلُو كروبَ النَّفسِ بالتَّنفيسِ
واستغنمِ اللذاتِ فى عَهْد الصِّبا ... وأوانِه لا عِطْرَ بعد عَروسِ

وهو يتصور المدامة عروسا تهفو لها نفسه. ويزعم أنها تذهب كروب النفس وهمومها، ويدعو إلى اغتنامها فى عهد الصبا. فهو عهدها، وبعده لا يأبه الإنسان بها، ويتمثل بقول العرب: «لا عطر بعد عروس» فالعطر إنما تحتاجه العروس وقت زفافها. وأكبر الظن أن عبادة انصرف عن الخمر بعد شبابه أو لعله كان ينظم هذه الأبيات وما يماثلها تقليدا ومحاكاة للمجان وإلا ما استطاع أن يدَّخر المثاقيل الذهبية المائة التى ضاعت منه بمالقة.

عبد[1] الرحمن بن مُقانا

هو أبو زيد عبد الرحمن بن مُقانا، من قرية القَبْذاق من قرى أُشبونة (ليشبونة الحالية بالبرتغال) ولسنا نعرف شيئا عن نشأته وهل ثقف الآداب العربية فى أشبونة وحدها أو أنه اختلف إلى الأدباء والعلماء فى مدن سواها. ونلتقى به فى أوائل عصر أمراء الطوائف مترددا على سرقسطة لمديح أميرها منذر بن يحيى التجيبى المتوفى سنة ٤٣٠ وعلى دانية لمديح أميرها مجاهد المتوفى سنة ٤٣٦ ويذكر ابن بسام أنه «جال أقطار الأندلس على رؤساء الجزيرة». وأهم من مدحهم من هؤلاء الرؤساء أو الأمراء وأسبغوا عليه نوالهم إدريس بن يحيى بن على بن حمود الحسنى أمير مالقة الذى خلف أباه عليها سنة ٤٢٧ وظل بها حتى سنة ٤٤٧. ورأى ابن مقانا حين أصبح شيخا أن يكفَّ عن تطوافه بأمراء الجزيرة وأن يعود إلى قريته وأن يمضى فيها بقية حياته معنيًّا بضيعة له فيها وما تحتاج إليه من حرث وزرع وغَرْس. ولا يعرف بالضبط تاريخ وفاته.

ويعرِّف ابن بسام بابن مقانا قائلا: «من شعراء غربنا المشاهير، وله شعر يعرب عن أدب غزير، تصرَّف فيه تصرُّف المطبوعين المجيدين فى عنفوان شبابه وابتداء حاله، ثم تراجع طبعه عند اكتهاله» وكأن ابن بسام يجعل وفوده على أمراء الطوائف فى أيام

---

(١) انظر فى ابن مقانا وترجمته وشعره الذخيرة ٧٨٦/٢ وما بعدها والحميدى ٢٦٠ والبغية رقم ١٠٤٤ والمغرب ٤١٣/١.

الشباب وحدها. ويبدو أن هذا الوفود امتد به حتى بدء كهولته بل ربما حتى بدء شيخوخته إذ ينقل ابن بسام عن بعض مواطنيه أنه إنما انصرف إلى قريته شيخا لا كهلا. وأمُّ قصائده التى طارت شهرتها فى الآفاق مدحته النونية لإدريس بن يحيى الحمودى، وهو يستهلها بغزل طريف ولا يلبث أن يمزجه بنعته للخمر قائلا:

قد بَدَا لى وَضَحُ الصُّبْحِ المبينْ ... فاسْقِنِيها قبلَ تكْبِيرِ الأذِينْ[(١)]
مُزَّةً صافيةً مشمولةً ... عُتِّقَتْ فى دَنِّها بِضْعَ سِنينْ[(٢)]
مَعَ فتيانٍ كرامٍ نُجُبٍ ... يتهادَوْنَ رياحينَ المجونْ
وعليهم زاجرٌ من حِلْمِهم ... ولديهم قاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينْ[(٣)]
ويُسَقَّوْنَ إذا ما شربوا ... بأباريقَ وكأسٍ من مَعِينْ[(٤)]

وابن مقانا يتراءى له ضوء الصبح فى السحر، فيهتف بالساقى أن يملأ كأسه قبل تكبير الأذان، ويقول إنها مزة الطعم صافية باردة معتقة، كما يقول إنه يشربها مع فتيان كرام نجب يتهادون أزهار المجون الأرجة وعليهم زاجر من عفاف مع ما معهم من حسان غاضات البصر فاتنات العيون، ويقول إنهم يسقون الخمر بأباريق وكأس من عين جارية. وينتقل من وصف خمر الصَّبوح أو الصباح إلى نعت الطبيعة من حوله سماء ونجوما ورياضا وأزهارا ويبدع خياله بمثل قوله:

ومصابيحُ الدُّجَى قد أُطْفِئتْ ... فى بقايا من سَواد الليلِ جُونْ[(٥)]
والثريَّا قد علتْ فى أُفْقِها ... كقضيبٍ زاهرٍ من ياسَمينْ
وانبرى جُنْحُ الدُّجَى عن صُبْحِهِ ... كغرابٍ طار عن بيْضٍ كَنِينْ[(٦)]
وجَناحُ الجوِّ قد بلَّله ... ماءُ وَرْدِ الصُّبْحِ للمصطبحينْ
والنَّدَى يقطرُ من نَرْجِسهِ ... كدموعٍ أسبلتهنَّ الجفونْ[(٧)]

وهو يقول إن مصابيح الدجى من الكواكب والنجوم أخذت تنطفئ واحدة إثر أخرى فى بقايا من سواد الليل، وتعالت الثريا فى السماء كأنها غصن مزهر من ياسمين، وأوشك

---

(١) الأذين: نداء الأذان للصلاة.
(٢) مزة الطعم: بين الحلو والحامض. مشمولة: باردة.
(٣) قاصرات الطرف: يغضضن من أبصارهن. عين جمع عيناء: واسعة العين جميلتها.
(٤) معين: عين جارية.
(٥) جون: سوداء.
(٦) جنح: ظلام. كنين: مستتر.
(٧) أسبلتهن: أرسلتهن.

الياسمين بدوره على التوارى والانطفاء، وأخذ ظلام الليل ينبرى وينكشف عن أضواء الصباح وكأنه غراب حالك السواد اضطره إلى مفارقة بيض له ظل يستره، وورْد الصبح بل ماؤه بلّل جناح الجو تحية للمصبطحين والندى يقطر من النرجس والأزهار والورود وكأنه دموع أسبلتها الجفون. وهى صور بديعة متلاحقة. وقد تداول القصيدة أدباء الكُدْية والشحاذة الأدبية فى الأندلس ممن يسميهم ابن بسام باسم القوّالين، وكانوا يقفون على الأبواب منشدين الشعر لقاء بعض الدراهم، وإنما اختاروها لما يجرى فيها من عذوبة وسلاسة وروعة فى الموسيقى والتصاوير.

على[1] بن حِصْن

هو أبو الحسن على بن حصن الإشبيلى، من شعراء أمير إشبيلية المعتضد، نشأ معه، وكان يعجب به وبشعره فاستوزره حين أصبح له صولجان إمارتها بعد أبيه إسماعيل. وظل الجوله صافيا إلى أن لحق ابن زيدون بالمعتضد، واتخذه وزيرا له معه، وكان فى ابن زيدون شىء من الدهاء استحوذ به على قلب المعتضد، فنفِس ذلك عليه ابن حصن. وكان المعتضد يدعوهما أحيانا إلى المساجلة بالشعر بين يديه، فكان ابن حصن يتفوق عليه لسرعة بديهته ورضاه بالعفو من طبعه، غير أن ابن زيدون كان يعلوه بحلمه ووقاره. وكان فى ابن حصنٍ تهور وطيش فزلّت قدمه وأدّياه إلى أن يسفك المعتضد دمه، وكان سفاحا للدماء قتَل كثيرين من وزرائه وخواصه.

ويشيد ابن بسام بشاعرية على بن حصن قائلا عنه: «أحد من راشَ سهام الألفاظ بالسحر الحلال،وشَقَّ كمائم المعانى عن أفتنَ من محاسن ربّات الحِجال، بين طبع أرقّ من الهواء، وأعذب من الماء، وعلم أغزر من القطر،وأوسع من الدهر». ويعجب ابن بسام من قوم أضربوا عن ذكره، وزهدوا فى شعره ويعلل ذلك بأشعار له كثيرة كان يعبث بها بين مجونه وسكره، ويقول إن إحسانه أكثر وفضله أشهر، وينوه بروعة تصاويره، ومن قوله فى إحدى خمرياته الماجنة:

خَضَبَتْ بنانَ مديرها بشُعاعها فِعْل العَرارة فى شفاه الرَّبْرَبِ

والربرب: القطيع من بقر الوَحْش، يقول إن الخمر خضبت بنان الساقى بشعاعها

---

(١) انظر فى على بن حصن وترجمته وشعره الذخيرة ١٥٨/٢ وما بعدها والحميدى ص٢٩٦ والبغية ص١٤٣ والمغرب ٢٥٠/١.

كما يخضب نبات العَرار الصحراوى شفاه قطعان البقر الوحشى. وهى صورة طريفة لأنه يجلبها من بعيد من الجزيرة العربية وحديث شعرائها عما يتراءى لهم فى البقر الوحشى هناك من جمال. ويقول فى خمرية أخرى:

إذا بدتْ لك فى قِطْـ ـعةٍ من البـلّارِ
حسبتها شفقًا صُبْـ ـبَ فى زجاج نهار

وهو يتخيل الخمر الحمراء كأنها الشفق الأحمر، ويتسع به الخيال فيقول إنها تُصَبُّ لا فى زجاج بِلَّورى أو مصوغ من بلور بل فى زجاج مصوغ من نهار مضىء. ويخاطب إشبيلية موطنه والنهر يتهادى أمامها والشمس جانحة للغروب:

كأنكِ والشمسَ عند الغروبِ عروسٌ من الحسن منحوتَهْ
غدا النهر عِقْدكِ والطَّوْدُ تاجَـ ـكِ والشمس أعلاه ياقوتَهْ

فالنهر وما يحفّ به من أزهار عقدٌ نفيس يتألق فى جيد إشبيلية والجبل من ورائها كأنه تاج معقود على رأسها ترصِّعه فى أعلاه ياقوتة الشمس البديعة. ومن قوله فى وصف هَديل:

وما هاجنى إلا ابنُ وَرْقاء هاتفٌ على فَنَنٍ بين الجزيرة والنَّهْرِ (١)
مُفَسْتَقُ طوقٍ لازَوَرْدِىُّ كَلْكَلٍ مُوَشّى الطُّلَى أَحْوَى القوادم والظَّهْرِ (٢)
أدارَ على الياقوتِ أجفانَ لؤلؤٍ وصاغَ على الأجفان طَوْقا من التِّبْرِ (٣)
حديدُ شَبَا المِنْقارِ داجٍ كأنه شَبَا قلمٍ من فِضَّةٍ مُدَّ فى حِبْرِ (٤)
توسَّد من فَرْعِ الأراكِ أريكةً ومالَ على طَيِّ الجناحِ مع النَّحْرِ (٥)
ولما رأى دَمْعِى مُراقًا أرابَه بُكائىَ فاسْتَوْلَى على الغُصْن النَّضْرِ (٦)
وحثَّ جناحَيْه وصَفَّقَ طائرا وطارَ بقلبى حيثُ طار ولا أدرى (٧)

وابن حصن يتابع شعراء العرب فيما يتخيلونه من ترتيل الحمام المغموم وأنه يبكى

---

(١) ابن ورقاء: الهديل وهو ذكر الحمام. فنن: غصن.

(٢) مفستق طوق: طوقه فستقى اللون. كلكل: صدر. لازوردى: أزرق أو بنفسجى. الطلى: أصل العنق. أحوى: أسود ضارب إلى الحمرة. القوادم: ريش الجناح الطويل.

(٣) التبر: الذهب.

(٤) شبا: حد، سن.

(٥) أريكة: منصة، مقعد. طىّ: جانب.

(٦) أرابه: شككه وحيره.

(٧) صفق الطائر: حرك جناحيه للطيران.

وينوح محزونا لفراق أليفته، وهو يقول فى مطلع مقطوعته إن هدير الهديل هاجه شوقا إلى محبوبته، وتروعه صورته الجميلة فيرسمها رسما دقيقا، فطوقه فستقى اللون وصدره لازوردى أو أزرق بنفسجى وعنقه موشى وظهره وريشه الطويل أسود ضارب إلى الحمرة، وقد أدار فوق طوقه لؤلؤتى عينيه، ومن حولها أهداب ذهبية. وحدُّ منقاره أسود داج كأنه سِنُّ قلم من فضة غُمس فى مداد شديد السواد. وقد توسد من فرع الأراكة منصة، ومال برأسه محزونا على أحد جناحيه وما يحف به من النحر. وأحسَّ الشاعر أنه - مثله - حزين مهموم لفراق صاحبته فانهمرت دموعه، وحانت من الهديل التفاتة فرآه يبكى واحتار ماذا يصنع، ولم يلبث أن بسط جناحيه وحركها طائرا، فطار قلبه معه. وهو تصوير بديع استطاع فيه ابن حصن أن يسوِّى منه لوحة تامة الخطوط والألوان والظلال والأضواء. ومما أعجب به ابن بسام من شعره قوله فى وصف سحابة:

بكرتْ سُحْرَةً قُبَيْلَ الذَّهابِ ... تَنْفُضُ المِسْكَ عن جَناحِ الغُرابِ

واستعارة الغراب لليل معروفة قديما ولكن الرائع أنه جعل السحابة بأمطارها تنفض المسك الأسود عن جناحه. وفى ذلك كله ما يدل على أن ابن حصن كان من شعراء الأندلس المبدعين.

أميَّة[1] بن أبى الصلت

هو أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت الأندلسى، ولد سنة ٤٦٠ بمدينة دانية على البحر المتوسط، وشبَّ - على ما يبدو - بمدينة إشبيلية وكانت تزخر بطائفة من الفقهاء والأطباء والمتفلسفة والشعراء وأصحاب الموسيقى، وتخرَّج على أيديهم طبيبا متفلسفا وشاعرا بارعا يَثْقَف الموسيقى وتلاحينها الأندلسية. وفى أوائل العقد الثالث من حياته هاجر عن مدينته إلى المشرق مصطحبا والدته، وقد تكون الرغبة فى التزود من علماء المشرق أو الرغبة فى الحج من دواعى تلك الهجرة المبكرة عن مدينته. ونزل المهدية بجوار القيروان، ويبدو أنه كان قد وفد عليها لمديح أميرها وأمير إفريقية تميم بن المعز

---

(١) انظر فى أمية وترجمته وشعره معجم الأدباء ٥٢/٧ وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ص ٥٠١ والتكملة ٢٠٣/١ وتحفة القادم ٣ وابن خلكان ٢٤٣/١ والمغرب ٢٦١/١ والبيان المغرب لابن عذارى ٣١٢/١ والخريدة: قسم شعراء المغرب والأندلس (طبع تونس) ١٨٩/١ - ٢٧٠ وتاريخ الحكماء للقفطى (طبعة ليبزج) ص ٨٠ ومرآة الجنان لليافعى ٢٥٣/٣ وشذرات الذهب ٨٣/٤.

الصنهاجى (٤٥٤ - ٥٠١ هـ.) إذ كان مقصدا للشعراء لما يجيزهم به من الجوائز السنية، وامتدحه مرارا، وظل فى حاشيته فترة. ورأى أن يوجه به إلى مصر برسالة، وكانت العلاقة بين تميم وحكام مصر سيئة، فحين وصل أمية برسالته إليهم زَجُّوا به فى سجن خزانة البنود بالقاهرة، وكان فيها خزائن متنوعة فى أصناف الكتب وفنونها المختلفة، فأكبَّ عليها يقرؤها ويلتهم ما فيها من المعارف، ويقال إنه ظل بها ثلاث سنوات قبل صدور العفو عنه، وقيل بل عشرين سنة، وهى مبالغة واضحة. وفى كتاب طبقات الأطباء رسالة طريفة من على بن منجب الصيرفى صاحب ديوان الإنشاء وجه بها إليه فى السجن منوها فيها بأنها رد على رسالة لأمية وهو فى سجنه، ويثنى على قصيدتين أرسل بهما إليه فى مديح الأفضل بن بدر الجمالى وزير مصر حينئذ (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) وقد أنشد العماد فى الخريدة قطعة من مدحة لأمية يمدح بها شفيعه ويسميه عليا وهو ابن الصيرفى كما ذكرنا. وعاد إلى المهدية سنة ٥٠٥ فى عهد يحيى بن تميم (٥٠١ - ٥٠٩ هـ.) وإليه قدم الرسالة المصرية وكتاب الحديقة الآتى ذكرهما وعظم شأنه عنده وكذلك عند ابنه على أمير المهدية بعده (٥٠٩ - ٥١٥ هـ.) وحين أنشأ على مدرسته المشهورة للكيمياء أسند إليه الإشراف عليها وظل يتولاها إلى آخر أيامه. وقد نشرت له بالقاهرة الرسالة المصرية وفيها يذكر ما رآه بمصر من هيئتها وآثارها ومن اجتمع بهم فيها من الأطباء والمنجمين والشعراء وأهل الأدب، وعُنى فيها بذكر مُدَّاح الأفضل الجمالى وألم ببعض من هجوه. ويقول ابن سعيد فى المغرب: «عنه أخذ أهل إفريقية (تونس) الألحان التى هى الآن بأيديهم». ويبدو من هذه العبارة أنه لحن هناك لهم أغانيهم الإفريقية على أسس الألحان الأندلسية. وألف لهم كتابا فى الموسيقى أهداه إلى الأمير على بن يحيى. وإشادة ابن سعيد بصنيعه فى هذا الجانب لها أهمية كبيرة، إذ ختم رحلاته بتونس وظل بها إلى أن توفى سنة ٦٨٣ للهجرة، ويقول إن أمية جَلَّ قدره عند الحسن بن على خليفة أبيه كما جَلَّ عند أبيه وجده، وظل ينزل هناك منزلة جليلة إلى أن توفى سنة ٥٢٩. وله مصنفات مختلفة فى التنجيم والطب والهندسة تدل على واسع علمه، من ذلك كتاب الوجيز فى علم الهيئة وكتاب الأدوية المفردة وله كتاب فى المنطق سماه: «تقويم الذهن» وبجانب ذلك له الرسالة المصرية السالفة وهى أهم نص عن شعراء مصر فى فواتح القرن السادس الهجرى، وله أيضا كتاب الحديقة فى شعراء عصره على نهج كتاب اليتيمة للثعالبى وكتاب الملح العصرية فى شعراء الأندلس والطارئين عليها. وهو يعد فى النابهين من شعراء زمنه، وكان له ديوان كبير سقط من يد الزمن، غير أن العماد فى الخريدة انتقى منه طائفة كبيرة بترتيب الحروف الهجائية امتدت

فيه إلى أكثر من ثمانين صفحة مهّد لها بقوله: «كل شعره منقح مستملح، صحيح السبك، محكم الحَوْك، نظيم السلك» وهو موزع بين مديح ورثاء وغزل وهجاء ووصف للقصور والخيل ومن قوله فى الهرمين:

بِعَيْشك هل أبصرتَ أعجبَ منظرا على طول ما أبصرتَ من هَرَمَىْ مِصْر
أنـافَا بـأعنـان السمـاءِ وأشـرفـا على الجوِّ إشرافَ السِّماكِ أو النَّسْرِ[1]
وقد وافيا نَشْزًا من الأرض عاليا كأنهما ثَدْيانِ قاما على صَدْرِ[2]

وفى هذه الصورة ما يدل على أنه كانت لأمية ملكة خيالية خصبة، ومن أهم ما يتميز به كثرة خمرياته وتصاويره للطبيعة، وتتداول الكتب التى ترجمت له وصفه لبركة الحبش بمدينة الفسطاط (مصر القديمة الآن) وكانت جنات وبساتين تحتها مَشْرَبٌ من مياه النيل يصبُّ فى قنوات تتخللها، وكان أهل الفسطاط يخرجون للنزهة فيها وللمتاع بمناظرها، وفيها يقول أمية:

لله يـومى ببـركـة الحبَشِ والأُفْقُ بين الضياءِ والغَبَشِ
والنيلُ تحت الرياحِ مضطربٌ كصارمٍ فى يَمين مُرْتَعِشِ[3]
ونحن فى روضـةٍ مفـوَّفـةٍ دُبِّج بالنَّوْر عِطْفُها ووُشِى[4]
قد نسجتْها يَدُ الربيعِ لنا فنحنُ من نَسْجِها على فُرُشِ
فعـاطِنى الرَّاحَ إنَّ تـاركها من سَوْرَة الهمِّ غير مُنْتَعِشِ[5]

وهى نزهة ببركة الحبش فى يوم من أيام الربيع الجميلة، وتتوالى الأخيلة فى الأبيات بديعة، فاضطراب النيل تحت الرياح كاهتزاز السيف فى يد مرتعش لا يهدأ ولا يسكن أبدا، وهو وصحبه فى روضة أنيقة وُشيت جوانبها وزينت بالنور، ومدَّ الربيع من تحتهم بساطا سندسيا. وفى هذا الموكب الرائع الذى ملأ قلبه فتنة بالطبيعة وجمالها يسأل صاحبه أن يناوله كأس الخمر، حتى يزول - كما يزعم - كل هم فى طوايا نفسه. ويعلن مرارا أنه مولع باحتساء الخمر وسط الرياض ومباهج الطبيعة، ويفتنُّ فى مزجها بالغزل إذ يجتمع عليه صبابته بالخمر وبجمال المرأة وينشد مثل قوله:

قـامتْ تديـر المُدام كفُّـاها شمسٌ ينير الدُّجى مُحَيَّـاها

---

(١) أناف: ارتفع وأشرف. السماك: نجم نيرِّ.
(٢) النشز: المرتفع من الأرض.
(٣) صارم: سيف.
(٤) مفوفة: مزخرفة.
(٥) سورة: شدة.

للمسك ما فاح من مَرَاشِفها والبَرْقِ ما لاح من ثناياها
غـزالـةٌ أخجلتْ سَبِيَّتهـا فلمْ تشبّه بها وحاشاهـا[1]
هَبْهـا لها حُسْنهـا وبَهْجتها فهـل لها خَـدُّها وعَيْنـاهـا

والأبيات تملك القلوب والأسماع بعذوبتها وتمكن ألفاظها وقوافيها فى سياقها، وأيضا برقتها ولطف معانيها ودقة التقابل فيها بين القامة والغصن والرِّدف والكثيب والمراشف وما يلمع وراءها من الثغر وصاحبته والشمس، وهَبْ للشمس حسنها وبهجتها فهل لها خدها الجميل وعيناها الفاتنتان. وله وراء ذلك أشعار بديعة.

ابن[2] خفاجة

هو أبو إسحق إبراهيم بن أبى الفتح بن عبد الله بن خفاجة، ولد سنة ٤٥٠ للهجرة بجزيرة شُقْر بين شاطبة وبلنسية، وماء نهرها يحيط بها من جميع جهاتها، ولذلك سميت جزيرة وفى المغرب: أنها «عروس الأندلس المقلدة من نهرها بسلك، المتلفعة من جناتها بسندس، روض بسام، ونهر كالحسام، وبلبل وحمام». وفى هذه الجنة الفيحاء نشأ ابن خفاجة فى أسرة علم وأدب وغير قليل من الثراء، وأقبل على الدرس والتزود بالآداب العربية، وتفتحت موهبته الشعرية، وغذاها غذاء شعريا رفيعا بأشعار عبد المحسن الصورى والشريف الرضى ومهيار والمتنبى كما يقول فى مقدمة ديوانه، ويضرب لتأثره بهم أمثلة تدل على أنه تأثر بالصورى فى مزج الغزل بالطبيعة وبالشريف الرضى ومهيار فى ذكر الظعائن والعيس والأماكن الحجازية والنجدية والطيف والخيال ونسيم الصبا وأنفاس الخزامى، أما المتنبى فيقول إنه تأثر به فى لف الغزل بالحماسة. ويقول أيضا فى مقدمة ديوانه إنه ظل فى شبابه يتمثل هؤلاء الأربعة فى شعره، متغنيا فيه بحب وجدانى وبمتاعه من الخمر والطبيعة الجميلة التى نشأ فى حجرها. ولم يحاول حينئذ أن يفد على أمراء الطوائف مادحا، كما كان يصنع الشعراء من حوله لأنه كان مكفول الرزق

---

(١) غزالة: يريد صاحبته، وتسمى بها الشمس.

(٢) انظر فى ابن خفاجة وترجمته وشعره الذخيرة ٥٤١/٣ ومابعدها والقلائد ص٢٣١ والمغرب ٣٦٧/٢ والمطرب ص١١١ وابن الأبار فى التكملة (البقية المطبوعة فى الجزائر) ص١٧٥ ومعجم الصدفى ص٥٩ والمطمح ص٨٦ وبغية الملتمس ص٢٠٢ وابن خلكان ٥٦/١ والخريدة ١٤٧/٢ ومقدمة ابن خلدون (طبع نهضة مصر) ص١٣٠٨. ومقدمة ديوانه بتحقيق د. السيد مصطفى غازى (طبع منشأة المعارف بالإسكندرية). وراجع ترجمته فى كتابنا الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة الحادية عشرة بدار المعارف) ص٤٤٤ ومابعدها وتاريخ الأدب الأندلسى: عصر أمراء الطوائف والمرابطين للدكتور إحسان عباس ص٢٠٤ وما بعدها.

بضيعة ورثها عن آبائه. وفى الديوان مقطوعة سينية نظمها فى زيارة للمعتصم بن صُمادح دعت إليها مناسبة طارئة فنظمها، وليس فى الديوان وراءها مدحة لا فى ابن صمادح ولا فى غيره من أمراء الطوائف. ويذكر أن فترة الشباب وما له فيها من منظومات فى الغزل والطبيعة والخمر أعقبتها فترة انقطع فيها عن نظم الشعر. ويقول إنها كانت فترة طويلة، وأكبر الظن أنها كانت سنوات معدودة انتهت بانتهاء عصر أمراء الطوائف، وكأن هذا العصر كان عبئا غليظا على نفسه، كما كان عبئا غليظا على نفوس كثيرين من أهل الأندلس لانغماس أمرائه فى الترف والمجون، حتى ضاعت طليطلة سنة ٤٧٨. ونظن ظنا أن هذا الحادث الخطير هو الذى جعله يتوقف عن الشعر فترة، وأخذ يعود إليه الأمل فى إنقاذ الأندلس حين دخلها المرابطون وانتصروا فى الزلاقة انتصارهم الحاسم، ولعل إعجابه بهم هو الذى جعله يزور المغرب ومراكش ويعود منها سنة ٤٨٣ كما جاء فى ديوانه، ولايلبث يوسف بن تاشفين أن يجمع الأندلس تحت لوائه فى نفس السنة فينتعش الأمل فى نفس ابن خفاجة ويعود إلى نظم الشعر. وتلك هى الفترة الثالثة فى حياته، وفيها ظل يدبج المدائح فى أمراء المرابطين وقوادهم ورجالاتهم مستهلا ذلك - كما يقول فى مقدمة ديوانه - بمديح إبراهيم بن يوسف بن تاشفين أول ولاة المرابطين على شرقى الأندلس. وتوالت بعد ذلك مدائحه فيه وفى أخيه تميم والى غرناطة ثم مرسية بشرقى الأندلس لفترة قليلة وزوجته السيدة الحرة مريم وفى على بن يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين وفى أبى بكر بن تيفَلْويت ممدوح ابن باجة. وفى كل هذه المدائح وغيرها فى تلك الفترة الثالثة من حياته لم يكن طالب نوال أوعطاء، وإنما كان - كما قال فى مقدمة ديوانه «مصطنعا، لامنتجعا، ومستميلا، لامستنيلا اكتفاء بما فى يده من عطايا منّان وعوارفِ جوادٍ وهّاب». ونظن ظنا أنه عاش فترة فى حياته الطويلة بأخرة، إذ امتدت إلى أكثر من ثمانين عاما، مفكرا فى مصيره وفى متاع الحياة الزائل وما ينتظر الإنسان من العقاب والثواب، وفى هذه الفترة نظم طائفة من شعره فى العظة والاعتبار والتوبة والابتهال والاستغفار، وفيها جمع ديوانه، وعُنى كما يقول فى مقدمته بتنقيحه وإصلاح بعض أشعاره «إما لاستفادة معنى، وإما لاستجادة مبنى» وعُنى بجانب ذلك بكتابة بعض كتب الحديث والسنن - كما ذكر فى بعض شعره - تقربا لله ورسوله. وكان فى هذه الفترة الرابعة من حياته يخرج من جزيرته ويسير بين الوديان والجبال وينادى بأعلى صوته: يا إبراهيم تموت، فيجيبه الصدى ويخرُّ مغشيا عليه. ويتوفى سنة ٥٣٣ عن اثنين وثمانين عاما.

ويشيد به ابن بسام وغير ابن بسام إشادة رائعة، وأهم موضوع استنفد أكثر شعره واشتهر به وصف الطبيعة حتى سماه الأندلسيون الجنان نسبة إلى جنان الأندلس وتصويره لها تصاوير بديعة، وعلل هو نفسه لهذه النزعة فى ص ٢٩٠ بديوانه قائلا: «إكثاره فى شعره من وصف زهرة ونعت شجرة وجَرْية ماء ورنة طائر ما هو إلا [إما] لأنه كان جانحا إلى هذه الموصوفات لطبيعة فُطر عليها وجِبِلّة، وإما لأن الجزيرة كانت داره ومنشأه وقراره، وحسبك من ماء سائح، وطير صادح، وبطاح عريضة وأرض أريضة،[1] فلم يعدم هنالك من ذلك ما يبعث مع الساعات أنسه، ويحرّك إلى القول نفسه، حتى غلب عليه حب ذلك الأمر، فصار قوله فيه عن كَلَفٍ[2] لا تكلف، مع اقتناع، قام مقام اتساع، فأغناه عن تبذل وانتجاع». ومن قوله فى وصف روض صباحا:

وكِمامةٍ حَدَرَ الصباحُ قِناعهَا ... عن صَفْحَةٍ تَنْدَى من الأزهارِ[3]
فى أبْطَحٍ رَضعتْ ثغورُ أقاحِهِ ... أخْلافَ كلِّ غمامةٍ مِدْرارِ[4]
وحللتُ حيث الماءُ صفحةُ ضاحِكٍ ... والطَّلُّ يَنْضَحُ أوْجُهَ الأشجارِ
متقسِّمَ الألحاظِ بين محاسنٍ ... من رِدْفِ رابيةٍ وخَصْرِ قرارِ[5]

والصور تتراكم فى القطعة، فالصباح يكشف قناع الظلام عن الأكمام فتبدو أزهارها النديّة وثغور الأقاح ترضع من أخلاف الغمام الدارّ والماء يضحك والطل يرش أوجه الأشجار، وألحاظه موزعة بين النظر إلى ردف جميل بأزهاره لرابية وخصر بديع برياحينه لقرار. ويقول فى وصف عشية:

وعَشِيٍّ أنسٍ أَضْجعتنِي نَشْوَةٌ ... فيهِ يُمهِّد مَضْجعى ويُدَمِّثُ[6]
خَلَعتْ عليَّ به الأراكةُ ظِلَّها ... والغُصْنُ يُصْغِى والحمامُ يحدِّثُ
والشمسُ تَجْنَحُ للغروب مَرِيضَةً ... والبَرْقُ يَرْقِى والغمامة تَنْفُثُ[7]

وهو يقول إنها عشية جميلة انتشى فيها بمنظرها، إذ كان يستظل بأراكة فى مقعد ممهد لطيف، والحمام يحدّث والغصن يرهف السمع إليه، والشمس تجنح للوداع وقد اصفرّ

---

(١) أريضة: كثيرة النبات.
(٢) كلف: هيام.
(٣) كمامة: أكمام وهى جمع كم بكسر الكاف: برعوم الزهرة.
(٤) أخلاف جمع خلف بكسر الخاء: حلمة
(٥) الردف: العجز بضم الجيم. خصر الإنسان: وسطه. قرار: منخفض من الأرض.
(٦) يدمث: يمهد ويوطأ بتشديد الطاء.
(٧) تنفث: تنفخ.

وجهها وشحب لفراق هذا المنظر، وشُعَل البرق كأنها رُقىً تريد أن ترقيها والغَمامة تنفث كما ينفث الراقى فى العقد. ومن قوله فى إحدى خمرياته:

وأراكةٍ ضربتْ سماءً فوقنا ... تَنْدَى وأفلاكُ الكئوسِ تُدارُ
حَفّتْ بدَوْحتِها مجَرّةُ جَدْوَلٍ ... نثرتْ عليه نجومَها الأزهارُ
وكأنها وكأنّ جدول مائها ... حسناءُ شُدَّ بخَصْرِها زُنّارُ[1]
زفَّ الزجاجُ بها عروسَ مُدامةٍ ... تُجْلَى ونُوّارُ الغُصونِ نِثارُ[2]

وقد جعل ابن خفاجة الأراكة التى جلس مع ندمانه تحتها سماء، ومضى يستتم الصورة، فالكئوس تدار وكأنها النجوم تدار فى الأفلاك، والجدول وما حوله من الأزهار كأنه المجرة بما حولها من النجوم، وكأن الأراكة وما بجانبها من الجدول حسناء شدت حزاما إلى خصرها. وهذا زجاج الكئوس يزفُّ المدامة إلى الشاربين ويجلوها عليهم، وما النوار والأزهار إلا نثار الدراهم والدنانير يلقى به المحبون فى هذا العرس الكبير. وواضح ما يتميز به شعر الطبيعة عند ابن خفاجة من بث العواطف والمشاعر فى عناصر الطبيعة، بحيث يصبح لكل عنصر أحاسيسه التى يشترك بها مع غيره من العناصر. وتتراكم هذه الأحاسيس فى شعره وتتراكم معها تصاوير الطبيعة، مما جعل بعض الأندلسيين من موطنه يعيب عليه كثرة معانيه وازدحامها فى البيت الواحد، وهى ليست كثرة معان إنما هى كثرة تصاوير، وهى ليست عيبا بل هى حسنته وفضيلته، إذ أحس بعناصر الطبيعة إحساسا عميقا، وهو إحساس تفرَّد به لا بين شعراء الأندلس وحدهم بل بين شعراء العربية جميعا، بحيث يعد أكبر شعراء الطبيعة عند العرب فى مختلف عصورهم، وجعله إحساسه بها ينقل أوصافها إلى المديح فيقول فى أبى بكر بن تيفلويت والى سرقسطة:

وجَلا الإمارةَ فى رَفيفِ نَضارةٍ ... جَلَتِ الدُّجىَ فى حُلّةِ الأنوارِ
متقسِّمٌ ما بين شمسِ دُجُنّةٍ ... طلعتْ وبين غمامةٍ مِدْرارِ
أرِجَ النَّدِىُّ بذكره فكأنه ... متنفِّسٌ عن رَوْضةٍ مِعْطارِ

فهو قد جلا الإمارة فيما يشبه رفيف البساتين من الرى والنضارة، حتى لكأنما أُسبغت على الليل الداجى حلة من الأنوار، وما أروع طلعته كأنها طلعة شمس من دجنّة مظلمة

---

(١) زنار: حزام يشد فى الوسط.

(٢) النثار: ما ينثر على العروس فى الزفاف من الدراهم والدنانير.

تضيء للأبصار، وكأنما يداه غمامة ما تزال تهمى بالنوال على العفاة والزوار، وإن ذكره فى النَّدِىِّ ليملؤه بأريجه العطر، حتى لكأنه يتنفس عن روض فائح العطر. وكما يمزج الطبيعة بالمديح يمزجها بمراثيه كقوله فى رثاء صديق عزيز:

فى كلِّ نادٍ منك رَوْضُ ثناءِ ... وبكل خَدٍّ فيك جَدْوَلُ ماءِ
ولكل شخص هِزَّةُ الغُصْنِ النَّدِى ... تحت البُكاء ورَنَّةِ المُكَّاءِ

وهو يقول - مخاطبا صديقه - إن كل ناد تحول إلى روض ثناء عليك وكل خد هطلت عليه الدموع الكثيرة حتى استحال كل شخص بأنينه وانهمار دموعه إلى ما يشبه هزة الغصن الندىّ ورنة طائر المكاء الصغير يبكى أليفته.

ولم نتمثل حتى الآن بشىء من شعر الطبيعة الذى نظمه فى الفترة الأخيرة من حياته، فترة التأمل فى مصيره وما ينتظره، مثل أقرانه الذين رثاهم مرارا، من الموت والعدم، ولعل خير قصيدة تصور هذه الفترة قصيدته البائية المعنونة فى الديوان بأنه قالها فى الاعتبار، وهو يفتتحها بوصف سُراه فى الليل وكيف أن وجوه الموت كانت تتجلى له دائما، وكأنما يصف رحلته الطويلة فى الحياة، ويلتقى فى سراه بجبل ضخم شاهق شامخ ويقيم معه حوارًا ينطقه فيه بما يدور فى نفسه، إذ يقول له: كم آوى إلىَّ واستوطننى من فُتّاك ونُسّاك وكم مرَّ بى من غادين ورائحين وراكبين وراجلين، وكلهم عصف بهم الموت، يقول:

وما كان إلا أن طَوَتْهم يَدُ الرَّدَى ... وطارتْ بهم ريحُ النَّوَى والنَّوائبِ
وما خَفْقُ أيكي غيرُ رَجْفَةِ أضلعٍ ... ولا نَوْحُ وُرْقِى غيرُ صَرْخة نادبِ
فحتى متى أبْقَى ويَظْعَنُ صاحبٌ ... أوَدِّعُ منه راحلاً غيرَ آيبِ
فسلَّى بما أبْكَى وسَرَّى بما شَجَى ... وكان على لَيْل السُّرَى خيرَ صاحبِ

فالجبل مثله محزون لما يرى من مصير الناس جميعا صالحين وطالحين إلى الموت والفناء وفقدان الحياة. وكل شىء يشترك مع الجبل ومع ابن خفاجة فى الإحساس بهول هذا المصير حتى ليرتجف الأيك والشجر وينوح الورق أو الحمام فزعا لهذا المصير المفجع لكل الناس. ويستطيل الجبل وابن خفاجة بقاءهما بعد رحيل كل الصحاب. ويقول إن الجبل سرَّى عن نفسه لأنه وجد عنده نفس الحزن ونفس الشجا إزاء ما يشعر به من تلاحق الفواجع بالناس وأن كل من على الأرض كركب واقفين ينتظر كل منهم دوره للرحيل إلى الدار الباقية.

محمد[1] بن سفر

هو أبو الحسين محمد بن سفر، من شعراء عصر الموحدين فى المائة السادسة، ويقول ابن الأبار عنه، منسوب إلى جده وأصحابنا يكتبون اسمه بالصاد، كان بإشبيلية. ويقول ابن سعيد فيه: «شاعر المرية (بشرقى الأندلس) فى عصره الذى يغنى ما أنشده من شعره عن الإطناب فى التنبيه على قدره» وأشاد به المقرى فى النفح مرارا بمثل قوله: «الإحسان له عادة» وقوله: «أحد الشعراء المتأخرين عصرًا المتقدمين قدرا». ويقول ابن سعيد: «أعجب ما قيل فى مد نهر إشبيلية وجَزْره (لتأثره بجَزْر المحيط الأطلسى ومَدِّه) قوله:

جئتُ الجزيرةَ والخليجُ يَحُفُّها ... يشكو إليها كى تجيبَ حِوارَهُ
شقَّ النسيمُ عليه جَيْبَ قميصِه ... فانساب من شَطَّيْهْ يطلب ثارَهُ
فتضاحكتْ وُرْقُ الحمام بِدَوْحِهِ ... هُـزُءًا فضمَّ من الحَيـاء إزارَهُ

وهو يجعل الخليج شاكيا إلى جزيرة هناك بقرب إشبيلية، فتعرض له النسيم شاقا جيب قميصه أو بعبارة أخرى فَتْحَة مصب النهر، فانساب المحيط من شطيها يطلب ثاره، وهو يكنى بذلك عن المد، فتضاحك الحمام الذى كان رابضا على الدوح هزءا به، فاستحيى الخليج أو المحيط وضم من الحياء إزاره، وهويكنى بذلك عن الجزر. وهو خيال بديع، وله يصف نزهة لبعض الشباب فى زورق شراعى بنهر، وربما كان أيضا نهر إشبيلية المسمى بنهر الوادى الكبير:

لو أبصرتْ عيناك زورقَ فتيةٍ ... يُبْدِي لهم بَهَجُ السُّرور مِراحَهُ
وقد استداروا تحت ظِلِّ شِراعِهِ ... كـلٌّ يمدُّ بكـأسِ راحٍ راحَهُ
لحسبته خوفَ العواصفِ طائرا ... مدَّ الحَنانُ على بَنيه جَناحَـه

وهو أيضا خيال بارع لابن سفر، إذ يقول إن فتية ترافقوا فى زورق مرحين مسرورين ولم يلبثوا أن تجمعوا فى ظل شراعه يتهادون كئوس الخمر وكل منهم يمد بها لصاحبه، ويشطح به الخيال، فيقول لكأن الزورق وهم متجمعون تحت شراعه خشية الريح الشديدة طائر فى عشه دفعه الحنان إلى أن يمد جناحه على أولاده خوفا عليهم من

---

(١) انظر فى محمد بن سفر وترجمته وشعره المغرب ٢١٢/٢ والرايات ص١٠٦ والتحفة رقم ٦٦.

العواصف المباغتة. ويقول:

يامن رأى النهر استثارَ به الصَّبا خَيْلًا لإرهاب الغُصُونِ المُيَّدِ[1]
لمـا رأتهـا سُـدِّدَتْ تِلْقـاءَهُ قرنتْ به خَيْلًا تروحُ وتَغتَدِى
وغَدَتْ تُدَرِّعُه ولم تبخَلْ لهـا شمسُ الضُّحَى بمسامرٍ من عسجد

وهو يجعل ريح الصبا كأنها خيل تهبّ لإرهاب الغصون المتمايلة، ولقيته الغصون بخيل ما تزال غادية رائحة وذاهبة آتية، وأخذت تلبس النهر دروعا من ظلالها للقاء خيل الصبا، وأهدتها شمس الضحى مسامر ذهبية كي تحكم تلك الدروع على النهر، وهو خيال بديع. ويقول فى وادى المرية بلدته:

اشربْ على شَدْوِ الحمام فإنهُ أشْهَى إلىَّ من الغَرِيضِ ومَعْبَدِ
أتُراه أطْرَبه الخليجُ وقد رأى تَصْفِيقَـه تحت الغُصون المُيَّـدِ
وكـأنهنَّ رواقصٌ من فـوقـه وبها من الأزهار شِبْهُ مُقَلَّدِ[2] .

وهو يجعل شدو الحمام فى سمعه أروع من غناء مغنِّيَىْ مكة والمدينة: الغريض ومعبد المشهورين فى العصر الأموى، ويقول: كأنما أطربه شدو المياه وخريرها تحت الغصون الراقصة المطوقة لجيدها بالأزهار الجميلة، ولعل فى ذلك كله ما يشهد لابن سفر بروعة أخيلته وتصاويره.

٣

شعراء الرثاء

(أ) رثاء الأفراد

يتخذ رثاء الأفراد فى الشعر العربى منذ الجاهلية ألوانا ثلاثة، هى الندب أو النواح لموت ذوى الرحم، والتأبين بذكر فضائل الميت تبيانا لخسارة المجتمع فيه، والعزاء بتصوير الموت وأنه سنة من سنن الكون لا مفر منه ولا نجاة. ونجد هذه الألوان الثلاثة ماثلة فى الشعر الأندلسى، ونبدأ بعرض نصوص من ندب الشعراء لبعض أقربائهم من الأبناء

---

(١) الميد: المتمايلة.

(٢) مقلد: موضع القلادة من العنق.

والزوجات والإخوة، ونلتقى بابن عبد ربه ملتاعا لفقد ابنين له هصَر الموت غصن أكبرهما وهو فى ريعان شبابه، أما الثانى فكان صبيا لم يبرح زمن الطفولة، وله فيهما مراث مختلفة، ومن قوله فى الشاب ملتاعا بعد فترة من موته[1]:

بَلِيَتْ عظامُك والأسَى يتجدَّدُ ... والصَّبْرُ يَنْفَدُ والبُكا لا يَنْفَدُ
يا غائبًا لا يُرْتَجَى لإيابِهِ ... ولقائِهِ دون القيامةِ موعد
ما كان أحسنَ مَلْحدًا ضُمِّنْتَهُ ... لو كان ضَمَّ أباك ثَمَّ المَلْحَدُ
باليَأسِ أسْلُو عنك لا بتجلُّدِى ... هيهاتَ أين من الحزين تجلُّدُ

وهو يقول إن حزنه يتجدد وصبره ينفد والبكاء لا ينفد لغياب ابنه غيابا لا أوبة بعده إلى يوم القيامة، ويتمنى لو كان دفن معه. ويقول إنه يسلو عنه باليأس من لقائه، لا بتجلده، فلم يعد له تجلد ولا صبر. وكثير من الزوجات الأندلسيين كن قُرَّة أعين لأزواجهن، ونرى كثيرين من الشعراء يلتاعون لوعة شديدة حين يختطف الموت منهم زوجاتهم، من مثل قول أبى إسحق الإلبيرى يبكى زوجته[2]:

عُجْ بالمطىِّ على اليَبابِ الغامرِ ... واربَعْ على قبرٍ تضمَّن ناظرى[3]
واقرَا السلامَ عليه من ذى لَوْعَةٍ ... صَدَعَتْه صَدْعًا ما له من جابر
ولـو آننى أنصفتُـه فى وُدِّهِ ... لقضيتُ يومَ قضى ولم أستأخِرِ[4]
وشققتُ فى خِلْبِ الفؤادِ ضَريحَه ... وسقيتُهُ أبدًا بماءِ محاجرى[5]

وهو ينادى صاحبه أن يقف الركبَ على قبر محبوبته ويقرأ عليه السلام من ملتاع صدعت بفراقها قلبه صدعا لا يمكن أن يلتئم، ويقول إنه كان من الإنصاف أن أُلْحَدَ معها فى قبر واحد، فإن لم أمت شققت لها فى سويداء الفؤاد ضريحا وسقيته أبدا بدموعى المنهلّة. ومات لمعاصره فقيه الأندلس المشهور أبى الوليد الباجى ابنان مغتربان فندبهما ندبا حارًّا بقوله[6]:

---

(١) اليتيمة للثعالبى ٢/٧٦.

(٢) الديوان (تحقيق د. محمد رضوان الداية – طبع دمشق) ص ٧٤.

(٣) عج: اعطف. اليباب: القفر. الغامر: المغمور بالتراب. اربع: قف.

(٤) قضيت هنا: مت.

(٥) خلب الفؤاد: حجابه. محاجر العينين: ما يحيط بهما.

(٦) المغرب ١/٤٠٥ وانظر أيضا فى ترجمة أبى الوليد الذخيرة ٢/٩٤ ومعجم الأدباء ١١/٢٤٦ وابن خلكان ٣/٤٠٨ والقلائد ١٨٨ والصلة ١٩٧.

رَعَى الله قَبْرَيْن استكانـا ببلدةٍ هما أَسْكَناها في السَّوادِ من القلبِ
يَقَـرُّ بعيني أن أزورَ ثَـراهمـا وأُلْصِقَ مكنونَ التَّرائبِ في التُّرْبِ[1]
وأبكي - وأبكي - ساكِنِيها لعلَّني سَأَنْجَدُ من صَحْبٍ وأُسْعَدُ من سُحْبِ[2]
وما ساعدتْ وُرْقُ الحمام أَخَا أَسىً ولا روَّحتْ ريحُ الصَّبا عن أخي كَرْبِ
ولا استعذبتْ عيناىَ بعدهما كَرًى ولا ظَمِئَتْ نفسى إلى الباردِ العَذْبِ

وهو يدعو الله أن يرعى قبرى ابنيه اللذين يسكنان فى السواد من قلبه، ويقول إنه يُسَرُّ بزيارة قبريها واحتضان ثراهما، وإنه ليبكى آملا فيمن ينجده ويساعده فى بكائه، ولكن هيهات، فلا منجد لا من الإنسان ولا من ورق الحمام، ولا مروِّح عنه لا من ريح الصبا ولا من غيرها. وإنه يبيت مسهدا وقد زهد فى كل متاع الحياة من بارد عذب وغير بارد عذب. وللأعمى التطيلى مرثية بديعة لزوجته آمنة تكاد فيها نفسه تذوب أسى وحسرات، وفيها يقول[3]:

أآمِنَ إن أَجْـزَعْ عليـكِ فـإننى رُزِئتكِ أَحْلَى من شبابى ومن وَفْرى
برغمىَ خَلِّى بين جسمِك والثَّرَى وإن كنتُ لا أَخْشى التُّرابَ على التِّبْرِ[4]
هنيئـا لقبـرٍ ضَمَّ جِسْمَـكِ إنـه مَقَرُّ الحَيا أو هالةُ القَمـرِ البَدْرِ
إذا جئتِ عَـدْنًا فـاطلبينا فقلَّما تَقَـدَّمْتِنى إلا مشيتُ على الإثْرِ[5]
ولا تعـذُلينى إن أقمتُ فـرُبَّمـا تـأخـر بى سَعْيِى وأثقلَنِى وِزْرِى

والمرثية تكتظ بخواطر وصور بديعة، وهو يتمنى فى مطلعها أن لو واروا جسد زوجته فى صدره مع ما يحتدم فيه من لظى فرقته لها، ويسألها هل احتملت الصبر على الفراق. أما هو فقد ضعف عن الصبر. ويقول لزوجته لا ترسلى إلىَّ بطيفك فدونه سدود من كتائب السهد عليك، كما يقول لها أُخْبِرْتُ إن جيدك أصبح عاطلا من الحلىّ فخذى أدمعى مكانها إن كنت غاضبة على الدر، إن محارتها أوصدفتها عينى ولجتها أو يمُّها صدرى. ويبكى ابن خفاجة ابن أخت له توفى فى عنفوان شبابه بصحراء المغرب فيما يبدو، وجاءه نعيه، وفيه يقول[6]:

---

(١) الترائب: عظام الصدر.
(٢) أسعد: من أسعد إذا أعان على البكاء.
(٣) راجع ديوان الأعمى التطيلى ص ٧٠.
(٤) التبر: فتات الذهب.
(٥) ... : الفردوس.
(٦) ... ان ص ٢٦٧.

أرقتُ أكفُّ الدمعَ طورا وأسفحُ ... وأنضحُ خدّى تارةً ثم أمسحُ[١]
فيا لغريبٍ فاجأته منيّة ... أتته على عهد الشباب تجلّحُ[٢]
ترى بى - إذا أعولتُ حزنا - حمامةً ... ترنّ وطورا أيكةً تترنّحُ
وما أتلقّى الركب أرجو تحيّةً ... توافى له أورقعةً تُتصفّحُ
فعرِّجْ على مَثْوى الحبيب بنظرةٍ ... تراه بها عنى هناك وتلمح

وهو يقول إنه يقضى الليل مسهدا تارة يكفكف دمعه وتارة يرسله مدرارا، وطورا يفيض فوّارا وطورا يمسحه. ويأسى لابن أخته أن أسرع إليه الموت غريبا شابا، بل لقد اختطفه اختطافا. ويرقّ له كل ما حوله، فالحمام يرن بهديله والشجر يترنح ويتمايل بأغصانه. ويقول إنه لن يعود يتلقى القادمين ممن كانوا معه ليسألهم هل أرسل إليه معهم تحية أو رسالة وينادى كل من حوله أن يعرج على مثوى الحبيب، ويلقى نظرة عليه، لعله يراه بها عنه أو يلمحه. ويقول أبو عامر بن الحمارة الفيلسوف تلميذ ابن باجة فى زوجته زينب[٣]:

أَزَيْنَبُ إن ظَعَنْتِ فإنّ ظهرًا ... أقلّك سوف يَرْكَبُه المُقِيمُ[٤]
بأيةِ حجّةٍ أَسْعَى لأنثى ... سواكِ وأنتِ هامدةٌ هشيمُ
ولما أن حللتِ التُّرْبَ قلنا ... لقد ضَلّتْ مَواقِعَها النُّجومُ
ألا يا زَهْرَةً ذَبُلَتْ سريعًا ... أضَنَّ المُزْنُ أم رَكَدَ النَّسِيمُ

وهو يقول لها إن الدابة التى حملتك إلى المقابر سوف تحملنى قريبا، وسأظل وفيا لك على العهد لا أتزوج بعدك أبدا. والصورة بديعة فى البيت الثالث، فقد تعجّب لهذا النجم الثاقب أن يحل فى التراب ومكانه السماء فى أعلى علّيين، ويعجب أيضا لهذه الزهرة العطرة أن تذبل فى إبّانها وشبابها سريعا، ويتساءل أبخل المزن بقطره أم ركد النسيم، وهى أيضا صورة بديعة.

ويكثر التأبين عندهم لكثرة رجالات الأندلس من أمراء وخلفاء وحكام ووزراء وقواد وفقهاء وعلماء من كل صنف وأدباء من الكتاب والشعراء، وعادة يذكرون مناقبهم

---

(١) أكف: أكفكف. أسفح: أصبّ. أنضح: من نضحت العين إذا فارت.
(٢) تجلح: تسرع.
(٣) الرايات ص ١٢٨ وانظر فى ترجمته المغرب ٢/١٢٠ والبغية ص ٥١٧ والمطرب ص ١٠٩ والوافى ٢/٢٤٢.
(٤) ظهرا: دابة، ويريد النّعش أقلك: حملك.

ويعددون محامدهم وخصالهم الكريمة، ومن أوائل من أبّنوهم عبدالرحمن الأوسط المؤسس الحقيقي للحضارة العربية فى الأندلس على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع، وفيه يقول شاعره طاهر[١] بن حزم:

وياحَسْرَتا إذ أُظْفِرَ الموتُ بَغْتَةً	بمن لم يكن إلا به الموتُ يَظْفَرُ
تداعتْ إلى النَّعْشِ السحابُ فظلَّلَتْ	سريرا عليه السيِّد المتخيَّرُ
سَقَى الله قَبْرًا بالنُّخيلِ غمامَةً	تكادُ إذا حُلَّتْ عُراها تَفَطَّرُ[٢]
كأنَّ ثَراه مُذْ به سَكَن النَّدَى	إذا لاَعَبَتْه الريحُ مِسْكٌ وعَنْبَرُ[٣]

وهو يتحسر على عبد الرحمن إذ ظفر به الموت، وكان الموت إنما يظفر به لأنه عدته وسلاحه، ويقول إن السحاب ظلل نعشه فى مسيرته، ويدعو لقبره فى النخيل (مقبرة الأمويين بقرطبة) أن تسقيه غمامة، وتظل هاطلة. ويقول إن ثرى القبر مذ سكنه جثمان عبد الرحمن تفوح منه رائحة المسك والعنبر. ويتوفى سعيد بن جودى زعيم العرب بغرناطة فيؤبّنه مقدَّم بن معافى القَبْرىّ مبتكر الموشحات بقوله[٤]:

مَنْ ذا الذى يُطْعِمُ أو يكسو	وقد حَوَى حِلْفَ النَّدَى رَمْسُ[٥]
لا اخضرَّتِ الأرضُ ولا أورق الـ	ـعودُ ولا أشرقتِ الشَّمْسُ
بعد ابنِ جوديٍّ الذى لن تَرَى	أكرمَ منه الجِنُّ والإنْسُ
دموعُ عَيْنِى فى سبيل الأسى	على سعيدٍ أبدًا حُبْسُ[٦]

فقد دفن الجود مع سعيد ولم يعد هناك من يطعم أو يكسو، فلا عمت الأرض خضرة ولا أورق الشجر ولا أشرقت الشمس بعد سعيد الذى لن يرى الجن والإنس من يفوقه جودا وكرما. ويقول إنه سيظل يبكيه ملتاعا وستظل دموعه محبوسة عليه أسى وحزنا ولوعة. وكان سعيد يقود العرب ضد ثورة عليهم فى إقليم غرناطة من المسالمة والمولدين والنصارى، ووقوف مقدم معه يدل بوضوح على أنه عربى من سلالة عربية، كما أشرنا إلى ذلك فى حديثنا عن الموشحات. ولابن الحنّاط الكفيف يرثى أبا الحزم بن جهور أمير

---

(١) المقتبس (تحقيق د. مكى - طبع بيروت) ص ١٢٥.

(٢) حلت عُرا الغمامة: هطلت كثيرا. تفطر: تشقق، كناية عن غزارة المطر.

(٣) الندى: الجود والكرم.

(٤) المقتبس: الجزء الخاص بالأمير عبد الله بن محمد (انظر الفهرس).

(٥) رمس: قبر.

(٦) حُبُس جمع حبيس: محبوس وموقوف.

قرطبة ويهنئ بالإمارة بعده ابنه أبا الوليد[١]:

إنَّا إلى الله فى الرُّزْءِ الذى فَجَعا   والحمدُ لله فى الحكم الذى وَقَعا
أبٌ كريمٌ غَدَا الفِـرْدَوْسُ مسكنَه   وابنٌ نجيبٌ تولَّى الأمرَ واضْطَلعا[٢]
لله شمسُ ضُحىً فى اللَّحْدِ قد غربتْ   فـأعقبتْ قَمرًا بـالسَّعْد قـد طلعا

وهو يستسلم لله فيما فجع به من موت أبى الحزم جهور ويستبشر بولاية ابنه أبى الوليد، ويقول إن جهورا أصبح فى الفردوس ونهض ابنه بالحكم، ويقول إن أبا الحزم شمس غربت فطلع سريعا قمر يحمل السعد بعده. ولابن مُعَلَّى الطرسونى يرثى عالما من علماء العربية فيما يبدو[٣]:

رُزْءٌ بَكَتْ منـه العُلا ومصـابُ   شَقَّتْ عليـه جُيُوبَهـا الأحْبابُ
وطفقتُ ألْتَمِسُ العزاءَ فخانَنى   نَفْسٌ تـذوبُ وأدمعٌ تنسـابُ
وتلجلج النَّـاعى بـهِ فسـألتُهُ   عَـوْدَ الحـديث لعله يَـرْتـابُ
أنَعى إلى الإعرابِ منك مُعِيدَه   غَضًّا كما نَطَقَتْ به الأعْرابُ
ناحتْ بك الأقلامُ غايةَ وُسْعِها   وبكتْ بـأبْلَغِ جُهْدهـا الآدابُ

وهو يقول إن موت هذا العالم مصاب جَلَلٌ بكت منه العلا وشقت عليه الأحْباب جيوبها حزنا، ويقول انه التمس العزاء فخانته نفسه الذائبة ودمعه المنساب، وتلجلج الناعى فأمَّل أن لا يكون النعى صحيحا. وينعيه إلى العربية التى أعادها غضة ناضرة كما نطق بها الأعراب فى القديم، ويقول إن الأقلام والآداب تنوح عليه نواحا لا ينقطع. ونلتقى بابن سوار وسنخصه بكلمة مفردة. ويتوفى أبو بكر بن تِيفَلْويت المرابطى حاكم سرقسطة سنة ٥١٠ وكان بحرا فياضا وبطلا مغوارا ويرثيه صديقه الفيلسوف ابن باجة بمثل قوله[٤]:

سـلامٌ وإلمـامٌ ورَوْحٌ ورحمـةٌ   على الجسَدِ النائى الذى لاأزورُهُ
أحقًّا أبو بكرٍ تقضَّى فمـا يُـرَى   تردُ جماهيـرَ الوفود ستورُهُ[٥]
لئن أنستْ تلك القبـورُ بقبرِه   لقد أُوحِشَتْ أمصارُه وقصـورُهُ

---

(١) الذخيرة ٤٤٩/١ وانظر فى ترجمة ابن الحناط الذخيرة ٤٣٧/١ وما بعدها والحميدى ٥٣ والصلة ٦٤٠ والتكملة ٣٨٧ والمغرب ١٢١/١ والخريدة ٢٩٧/٢ والوافى ١٢٤/٣.

(٢) اضطلع: نهض

(٣) الذخيرة ٨٤٤/٣ والمغرب ٤٥٧/٢

(٤) المغرب ١١٩/٢

(٥) تقضى: مات

وابن باجة، وقد يئس من زيارته لأبى بكر بن تيفلويت يتمنى له سلاما ورَوْحا أوراحة ورحمة. وإنه لفى ذهول فيتساءل أحقا أنه لم يعد يغدو إلى قصره ولم يعد يُرَى ما كان على أبوابه ونوافذه من ستور كانت تردّ الجماهير؟ ويقول إن كانت القبور وجدت أنسا بقبره فقد خلفت وحشة فى قصوره وأمصاره التى كان يمد عليها سلطانه، وفيه يقول أيضا راثيا مؤبِّنا باكيا[1]:

يا صَدًى بالثَّغر جاورَهُ رِمَمٌ بوركْن من رِمَمِ[2]
صبَّحتْكَ الخيلُ غاديةً وأثارتْك فلم ترِم
قد طَوَى ذا الدَّهْرُ بِزَّتَهُ عنك فالبس بِزَّةَ الكَرمِ[3]

وهو يقول أيها الجثمان الثاوى بثغر سرقسطة الأعلى بوركت رمم الأموات الذين جاورتهم، ويلتفت إليه قائلا: لقد صبَّحتك الخيل التى تعوَّدت أن تقودها لمنازلة الأعداء وأثارتك كى تنهض معها، غير أنك لم تبرح مكانك. ثم يقول - وقد أمضَّه الحزن - إن يكن الدهر طوى عنك شارة الحياة فالبس شارتك الرائعة شارة الجود المنهلّ المدرار. ولابن الزقّاق مرثية فى شهيد تقطر لوعة وأسى وهو يبكى فيه شبابه ومضاءه وتنكيله بحملة الصليب شر تنكيل، وهو يستهلها بأن الشهب ناحت عليه وبكى الغيم وانحسر ظل الأنس واغبرّ ضوء الشمس وبكاه حزب الله والإسلام، ويقول لحامليه: قفوا نودعه ونقض حقه من الدموع ولا تسلموه إلى الثرى، بل ادفنوه فى جوانحنا وأحشائنا، ويهتف ملتاعا[4]:

أعززْ علىَّ بضَيْغَمٍ ذى سَطْوَةٍ أَجَمَاتُهُ بعد الرِّماح رِجامُ[5]
أعززْ علىَّ بزهرةٍ مَطْلُولَةٍ أمستْ ولا غيرُ الضَّريحِ كِمام
إن راح مهجورَ الفِناء فطالما هجرتْ به أرواحَها الأجسامُ
الليلُ بعدك سَرْمَدٌ لا ينقضى فكأنما ساعاتُه أعوامُ
يا حاملين النَّعْشَ أين جيادُهُ يا مُلْبِسيه التُّرْبَ أين اللامُ[6]

وهو يقول ونفسه تتقطع على هذا الشهيد حسرات تلذع حرقها فؤاده لذعا: إنه يعزّ

---

(١) المغرب ٢/١١٩.
(٢) الصدى: جسد الإنسان بعد موته.
(٣) بزة: شارة.
(٤) الديوان ص ٢٦٣ والمغرب ٢/٣٣٦.
(٥) أجمات جمع أجمة: الغابة والشجر الكثيف الملتف وهى مخبأ الأسد. الرجام جمع رجمة: الحجارة تنصب على القبر.
(٦) اللام: الدروع.

عليه أن يصبح غيل هذا الأسد الضرغام وغابه الملتف حجارة ملقاة على قبره تندبه. ولقد كان زهرة غضة أرجة فى عنفوان شبابه، فصهرها الموت، وأبدلها من كمام الزهر حيطان ضريحه. ويقول إن كان قصره أصبح مهجور الفناء فطالما هجرت به أجسام أعدائه أرواحها وسحق ضلوعهم سحقا ذريعا، ويخال كأن الدنيا أصبحت بعده ليلا داجيا لا ينقضى أبدا وطالت ساعات السهد والغم والضيق والحزن العميق، وكأنما يذهل عن موت هذا الشاب البطل الذى تعود أن يراه ممتطيا جواده ممتشقا حسامه لحرب الأعداء، فيتساءل أين جياده، ويعجب أن يلبسه ملحدوه الترب وعادته أن يلبس الدرع ولأمة الحرب لمنازلة الأعداء منازلة ضارية. ومن أروع المراثى الأندلسية مرثية على بن حزمون للبطل أبى الحملات قائد الأعنة ببلنسية وقد استشهد فى بعض معاركه الضارية مع النصارى بعد أن أبلى بلاء عظيما، وجعل ابن حزمون مرثيته موشحة كأنما أراد أن تكون ندبا ونواحا على البطل الصريع، وفيها يقول[1]:

نَضَا لِباسَ الزَّرَدْ	وخاضَ مَوْجَ الفَيْلَقِ[2]
ولم يَرُعْهُ عَدَدْ	ذاك الخَمِيسِ الأَزْرَقِ[3]
والحورُ تَلْثِمُ خَدّ	أَدِيمِهِ المُمَزَّقِ
وكان ذاك الأسَدْ	فى كل خَيْلٍ يَلْتَقِى
إذا رأى الأعلاجْ وكبَّرا	ثم انْبَرَى يُماصِعْ[4]
رأيتهم كالدُّجاجْ منفَّرَا	وَسْطَ العَرَا الواسِعْ

والموشحة من بحر الرجز وهو يقول إن البطل خلع عنه الدِّرْع وخاض دماء الكتيبة الباسلة وسط موجها المتلاطم يتقدم الصفوف مدافعا ذائدا غير مكترث بأعداد النصارى من الإسبان ولا برماحهم تنوشه، وأخذ يمزّقهم شرَّ ممزَّقٍ حتى تكاثروا عليه فخرَّ صريعا، وحفّت به الحور العين تزفه إلى الفردوس تقبّله وتلثِم مواضع الطعنات فى جسده. وكم كان هذا الأسد المغوار يقود الخيل العاديات إلى النصارى يمحقهم محقا، وكان إذا نازلهم فرّوا فى غير نظام كأنهم دجاج منفّر، متناثرين فى كل صَوْب فزعا وهلعا، وكأنما كان قفلا كبيرا لبلنسية، يصدّ عن حماها العلوج النصارى منزلا بهم صواعق الموت صاعقة من بعد صاعقة إلى أن استشهد مشتريا بجهاده الفردوس ورضوان ربه. ونلتقى بمحمد بن

(١) المغرب ٢/٢١٧.

(٢) الزرد: الدروع. الفيلق: الكتيبة.

(٣) الخميس: جيش الإسبان، ووصفه بالزرقة لزرقة عيونهم.

(٤) يماصع: يجالد بالسيف ونحوه.

عبد الله بن أبي القاسم يرثى عالم العربية ابن الفخار الغرناطى قائلا[١]:

قَضَى من بنى الفَخَّار أفضلُ ماجِدِ ... جميلُ المساعى للعُلا جِدُّ شائدِ[٢]
أمولاىَ مَنْ للمشكلات يُبينُهـا ... فتَجْلُو عَمَى كلِّ القلوب الشواهد
ومن ذا يَحُلُّ المُقْفَلاتِ صِعابَها ... ومن ذا الذى يَهْدِى السبيلَ لحائدِ[٣]

وهو يصف أستاذه ابن الفخار بجده فى السعى للمعالى وحله لمشكلات النحو ومغلقاته، ملحا فى ذلك حتى تذلّل وتستبين معمياتها وصعابها. وكلما ذلل مسألة معياة أو مشكلة صعبة أخذ يذلل مشاكل ومسائل أخرى أشد عسرا. ويقول أبو عبد الله اللوشى فى رثاء سلطان غرناطة أبى الوليد إسماعيل بن فرج المتوفى لسنة ٧٢٥ للهجرة:[٤]

كادتْ نجومُ الأُفق تَسْقط فى الثَّرَى ... لما شكتْ شمسُ العلاءِ أُفُولَا
لا صَمْتَ إلا وهْو نارٌ فى الحَشا ... لا نُطْقَ إلا ما يعودُ عَوِيلا
ضاقتْ صدورُ الخلق عن أنفاسهم ... إذ ضمَّ بَطْنُ الأرض إسماعيلا

وهو يبالغ مبالغة مفرطة إذ يقول إن النجوم فى السماء كادت تسقط فى الثرى حين أفلت شمس أميره إسماعيل، وإن الحزن عليه استحال نارا فى الحشا واستحال كل نطق عويلا له وأنينا وضاقت الصدور عن أنفاسها لوعة وأسى.

واللون الثالث من ألوان رثاء الأفراد العزاء، وهو فى أصله الصبر على الموت فى الأقرباء وغير الأقرباء، ومن قديم يدعو الشعراء إليه مصورين كيف أن الموت سنة من سنن الكون، فهو الغاية والنهاية لكل إنسان، إذ الناس جميعا لابد أن يرحلوا عن دنياهم، مما دفع الشعراء - وخاصة من أخذوا بحظ من الفلسفة - إلى التفكير فى حقائق الحياة والموت والوجود والعدم، ونلتقى بابن شهيد وقد هدّه فالج أو شلل، وطال ألمه وتزايد سقمه، فنظم رثاء لنفسه، ومما قاله فيه متعزيا متقبلا للموت عن رضا:[٥]

يقولون قد أَوْدَى أبو عامرِ العُلا ... أَقِلُّوا فقِدْمًا مات آباءُ عامرِ[٦]
هو الموتُ لم يُصْرَفْ بأسجاعِ خاطبٍ ... بليغٍ ولم يُعْطَفْ بأنفاسِ شاعرِ
ولم يجتنبْ للبطش مُهْجةَ قادرٍ ... قوىٍّ ولا للضَّعْف مهجةَ صابرِ

---

(١) الكتيبة الكامنة لابن الخطيب ص ٢١٢.
(٢) قضى: مات. شائد: بان.
(٣) حائد هنا: ضال.
(٤) الكتيبة الكامنة ص ١٧٦.
(٥) الديوان ص ١١٣ والذخيرة ٣٣٢/١.
(٦) أودى: مات. أقلوا: لا تتكلموا.

يَحُلُّ عُرَى الجبّار فى دارِ مُلْكِه ... ويَهْفُو بنفسِ الشارب المتساكرِ[١]

وهو يقول لمن سيبكونه من إخوانه: لا تبكوا ولا تقولوا مات، فالناس - مثل آبائه - جميعا يرحلون عن دنياهم. إنه كأس الموت لابد للجميع من احتسائه، ولا يستطيع شيء أن ينحّيه عن الناس لا أسجاع خطيب ولا أنفاس شاعر، ولا يفلت من شباكه قوى ولا ضعيف، ولا ملك جبار ولا أحد سكران أو غير سكران. ويقول جعفر حفيد مكى بن أبى طالب المقرئ المشهور فى رثاء عبد الملك بن سراج عالم العربية المتوفى سنة ٤٨٩ للهجرة[٢]:

المَوْتُ حتمٌ والنفوسُ ودائعٌ ... والعيشُ نَوْمٌ والمنى تَضْليلُ
لا يَعْصِمُ العَضْماءَ منه شاهقٌ ... صَعْبٌ ولا الوَرْدُ السَّبَنْتَى غِيلُ[٣]
يَهْوَى الفتى طولَ البقاء مؤمِّلا ... وله رحيلٌ ليس عنهُ قُفُولُ
يَلْهو ويَلْعبُ مطمئنًا ذاهلا ... وله رَسِيمٌ نحوه ونَمِيلُ[٤]

وهو يقول إن الموت حتم لا مفر منه، وما النفوس إلا ودائع له يسترجعها واحدة فى إثر أخرى، وما الحياة إلا برهة قصيرة كبرهة النوم، وما المنى إلا خُدَع يضلل بها الإنسان نفسه، ولن ينجو منه أحد لا العقاب المعتصم بجبل شاهق ولا الأسد القوى الجرىء فى غيله أو غابه، وإن الفتى ليهوى طول البقاء مؤملا آمالا كبارا غير مفكر فى رحلته الكبرى التى ليس منها قفول ولا رجوع. وإنه ليلعب ويلهو مطمئنا ذاهلا عن حركته المستمرة بين عدو وإبطاء نحو الموت. واغتيل بإشبيلية ذات ليلة شاب من شبابها المأمولين يسمى محمد بن البناقى كان من المعجبين بالأعمى التطيلى وشعره، وكان يكثر من الافتقاد له، فحزّ فى نفسه اغتياله ونظم نونية بديعة يعزى بها أخاه أبا الحسن، استهلها على هذه الشاكلة[٥]:

خذا حدّثانى عن فُلٍ وفلانِ ... لِعلى أرى باقٍ على الحدَثانِ[٦]
وعن دول - جُسْنَ الديار - وأهلِها ... فَنِينَ، وصَرْفُ الدهر ليس بفانِ[٧]

---

(١) المتساكر: متعاطى السكر والمتظاهر به.
(٢) الذخيرة ٨١٤/١.
(٣) العصماء هنا: العقاب. شاهق: جبل سامق. الورد السبنتى: الأسد الجرىء.
(٤) رسيم: عدو سريع. ذميل: سير دون السريع.
(٥) الديوان ص٢٢٤.
(٦) الحدثان: الليل والنهار.
(٧) جُسْنَ: وَطِئْنَ. صرف الدهر: أحداثه ونوائبه.

وعن هَرَمَىْ مصر - الغداةَ - أُمتِّعا بشرخِ شبابٍ أم هما هَرِمانِ

فالناس والدول جميعا لا يبقى منهم باق على الزمان، فالكل يفنى ولا تفنى كوارث الدهر ومصائبه. ويتساءل عن الهرمين الباقيين بمصر هل مُتِّعا بشباب حي ناضر أو هما نشآ هرمين عجوزين لم يعرفا شبابا ولا متاعا بالحياة، ويقول إن كل شيء - حتى في الكواكب - إلى فراق، ويعود بالذكرى إلى أعزاء العرب في الجاهلية الذين طحنتهم الحروب، ثم يقول:

فذلَّتْ رقابٌ من رجالٍ أعزَّةٍ إليهم تناهى عزُّ كلِّ مكانِ
وأيّ قبيلٍ لم يصدَّع جميعُهم ببِكْرٍ من الأرزاء أو بعَوانِ[1]
ونبَّهني ناعٍ مع الصبح كلَّما تشاغلتُ عنه عنَّ لي وعناني
أغمِّض أجفاني كأنيَ نائمٌ وقد لجَّت الأحشاءُ في الخفقانِ
أقول كأني لست أحفلُ وانبرتْ دموعي فأبدتْ مايُجِنُّ جَناني[2]

فكل أعزاء العرب واراهم التراب، وكل قبائلهم تصدعت بأرزاء لا مثيل لها أو مكررة أو معادة، ويقول إنه حين سمع نعي هذا الشاب كان يتشاغل عنه أملا في أن يكون غلطا وكان ما يلبث أن يتراءى له، وهو بين الظن واليقين وأحشاؤه تخفق، ويحاول أن يكتم حزنه، غير أن دموعه انهملت فأظهرت ما يستره جنانه من الهم والغم والحزن.
ويقول ابن الزقاق معزيا[3]:

هُوَ القَدرُ المحتومُ إن جاء مُقْدِمًا فلا الغلبُ محروسٌ ولا اللَّيْثُ وَاثِبُ
تساقُ أبيَّاتُ النفوسِ ذليلةً إليه وتنقاد القرومُ المَصاعب[4]
وما الناسُ إلا خائضو غَمْرةِ الرَّدَى فطافٍ على ظَهْرِ التُّراب وراسبُ

وهو يقول إن الموت قدر حتمي للإنسان، ولذلك حين ينزل به لا يستطيع أن يرده غِيل ولا أسد متأهب للنزال، وإن الناس جميعا سادة وغير سادة ليساقون إلى ورده، ويخال ابن الزقاق كأن الناس جميعا يخوضون ماء غمرا، فطافٍ منهم لابد أن ينشب الموت فيه أظفاره، وراسب سبق صاحبه إلى قاع الموت وقراره. ويقول ابن خفاجة في صديق مات شابا متعزيا[5]:

---

(١) بكر: لم تسبق. عوان: مكررة.
(٢) الجنان: القلب والعقل.
(٣) الديوان ص ١٠٩.
(٤) القروم المصاعب: السادة العظام.
(٥) الديوان ص ٢١٧.

إذا ارتجعتْ أيْدى الليالى هِباتِها ... فغايةُ هاتيك الهِبات نِهابُ
تخبُّ بنا فى كلِّ يومٍ وليلةٍ ... مَطايا إلى دار البِلى وركابُ[1]
وهل مُهْجَةُ الإنسان إلا طَرِيدَةٌ ... تحومُ عليها للحِمام عُقابُ[2]

وهو يقول إن الليالى إذا أعادت إلينا هبة سرعان ما تستردها، وكأننا غافلون، فتلك مطايا الموت تعدو بنا فى كل يوم مسرعة إلى دار الفناء، وما أشبه روح الإنسان بطريدة صيد تحوم عليها عقبان الموت ونسوره. ويقول أبو الحسن سهل بن مالك راثيا ومعزيا فى ابن رشد فيلسوف الأندلس المشهور[3]:

مَضى عَلَمُ العِلْمِ الذى ببيانِهِ ... تبيَّن خافيه وبانَ طَرِيقُهُ
رجوعًا إلى الصَّبْرِ الجميلِ فحَقُّهُ ... علينا قَضَى أن لا تُؤدَّى حُقوقُهُ
أُعزِّيكُمُ فى البُعْدِ عنه فإنني ... أُهَنِّيه قُرْبا من جِوارٍ يروقُه
وما كان فينا منه إلا مكانُهُ ... وفى العالم العُلْوِىِّ كان رفيقُهُ

وهو يقول إن علَم العلم الذى طالما أوضح خفياته وذلّل مشكلاته مات، وليس أمامنا إلا الصبر على هذه الفجيعة الموجعة: الصبر الجميل الذى دعا إليه الذكر الحكيم بقوله: ﴿وبشّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ وإن التمسك بِعُرَى هذا الصبر وحقوقه ليحول بيننا وبين أن نؤدى لهذا العالم العظيم ما ينبغى من العويل والبكاء. ويقول لرفاقه من تلاميذ ابن رشد: إذا كنت أعزيكم فيه فإنى أهنئه بالجوار الذى يروقه، جوار الملائكة المصطفين الأخيار، وهل كان معنا منه إلا مكانه وجسده، أما روحه فكانت فى العالم الأعلى الذى صعدت إليه. ويقول ابن زَمْرك فى رثاء سلطان غرناطة الغنى بالله صفيّه وخليله حين توفى لسنة ٧٩٣ معزيا ابنه وخليفته يوسف[4]

عزاءً أميرَ المسلمين فإنها ... مقاديرُ ربِّ الخَلْق فى الخلْق يُجْريها
هو الموتُ وِرْدٌ للخليقة كلِّها ... أواخرُها تَقْفو سَبِيلَ أواليها[5]
وما بيننا حَىٌّ وما بين آدمٍ ... ألا هكذا سَوَّى البَرِيَّةَ باريها
وفى موت خير الخَلْقِ أكبرُ أُسْوَةٍ ... تصبِّر أحرارَ النفوسِ وتُسْليها

(١) تخب: تعدو. ركاب: مطايا معدة للركوب.
(٢) الحمام: الموت.
(٣) اختصار القدح المعلى ص ٦٣.
(٤) أزهار الرياض ٢/١٥٥.
(٥) تقفو: تتبع.

وهو يعزى ابن الغنى بالله بأن الله قَدَّر الموت على الخلق جميعا، فالكل لابد أن يردوا حياضه، يتبع الآخر الأول منذ آدم إلى اليوم، وقد مات رسول الله خير البريَّة، وفى ذلك أكبر عزاء لك عزاء لا يماثله عزاء. وآن أن نخص محمد بن سوار، وبالمثل ابن وهبون، بكلمة موجزة.

محمد[1] بن سوار

هو أبو بكر محمد بن سوار الأشبونى، ولد ونشأ فى أُشْبونة بغربى الأندلس، ولا نعرف شيئا واضحا عن نشأته وتعلمه غير أن ابن بسام يقول إنه نظم عدة قصائد فى أمراء الطوائف قالها فيهم «تحبُّبًا لا تكسبا، وعمر بمجالسهم بها وفاءً لا استجداء» مما يدل على أنه نشأ فى يسار ونعمة أغنته فى شبابه عن التكسب بأشعاره. ويستمر ابن بسام قائلا إنه بعد أن خلع ابن تاشفين أمراء الطوائف لسنتى ٤٨٣، ٤٨٤ حالت بابن سوار الحال وتوزعه الإدبار والإقبال، إلى أن وقع فى أسر النصارى وسجن بقورية على أحد فروع نهر تاجُه غربى طليطلة، وظل يستغيث بمن يفتديه وينقذه من هذا الأسر وعذابه ولا مغيث إلى أن سمع باستغاثته على بن القاسم بن عشرة قاضى سَلا فى المغرب على المحيط، فأغاثه وافتداه، ورُدَّت إليه حريته بعد عام طويل من الأسر والعذاب، وعبر إليه الزقاق، فأظله برعايته وأسبغ عليه من نواله الغَمْر على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع، وظل الشاعر يدبج فيه المدائح، وكان القاضى من المقربين ليوسف بن تاشفين، ونظن ظنا أنه وصل ابن سوار به، إذ نراه حين توفى ابن تاشفين فى المحرم سنة ٥٠٠ للهجرة ينشد مرثية على قبره، قائلا:

اسمعْ أميرَ المسلمين وناصرَ الـ	دِّينِ الـذى بنفوسنا نَفْدِيـهِ
جُوزِيتَ خَيْرًا عن رَعِيَّتكَ التي	لم تَرْضَ فيها غيرَ ما يُرْضيه
فى كـلِّ عامٍ غـزوةٌ مبرورةٌ	تُرْدِى عَدِيدَ الرُّومِ أو تُفْنِيه[2]
تصلُ الجهادَ إلى الجهاد موفقا	حَكَمَ القضاءُ بكل ما تَقْضِيهِ
متـواضعاً لله مُـظْهِـرَ دينـهِ	فى كل ما تُخْفيـه أو تُبْديـهِ

---

(١) انظر فى محمد بن سوار وترجمته وشعره الذخيرة ٨١١/٢ والمغرب ٤١١/١ والمحمدون من الشعراء للقفطى ٣٥٩ والوافى ١٤٣/٣ وراجع أسرة بنى عشرة للدكتور محمد بن شريفة: فصلة من مجلة تطوان، العدد العاشر سنة ١٩٦٥.

(٢) تردى: تهلك.

وهو يشيد بابن تاشفين صاحب موقعة الزلاقة التى أجّلت استرداد الإسبان للأندلس العربية مئات السنين. ويقول إنه ناصر الدين الذى يفديه كل مسلم بروحه ودمه، ويدعو الله أن يجزيه خير الجزاء عما بذل لرعيته فى جهاده المستميت للإسبان وغزواته المتعاقبة واصلا الجهاد بالجهاد إعلاء لكلمة الله فى تواضع حميد. ويتوفى القاضى على بن القاسم بعد ابن تاشفين بعامين، فيقول فيه من مرثية طويلة:

العيشُ بعدك ياعلىُّ نَكالُ ... لا شىءَ منه سوى العناءِ يُنالُ
ياعِصْمَةَ الفقراءِ بل يامالَهم ... هيهات ما للناسِ بعدك مالُ
قد كنتَ آمالى التى أنا طالبٌ ... جَهْدِى ومتَّ فماتتِ الآمالُ
لا الظلُّ ظلٌّ بعد فَقْدك ياأبا ... حَسَنٍ ولا الماءُ الزُّلال زُلالُ

وهو يقول إن العيش بعد ابن عشرة نكال وعقاب وعناء وعذاب، ويسميه عصمة الفقراء بما كان ينثر عليهم من أمواله، كما يقول إن آماله ماتت بموت ابن عشرة. ولم يعد الظل ظلا باردا بل أصبح يحموما، ولم يعد الماء الزلال زلالا عذبا، بل أصبح مرا لا يُساغ. وخلف القاضى فى القضاء ابنه أبو العباس أحمد، فرعاه ووالى عليه نواله، ووالى ابن سوار له مديحه. وينشد ابن بسام له قطعة من مرثيته فى صبى يسمى محمدا لعله كان ابنا لأبى العباس، كما ينشد له أبياتا فى رثاء قاضيين، وربما كانا من بنى عشرة. ولعل فيما قدمنا ما يدل بوضوح على موهبته الشعرية الخصبة..

ابن[1] وهبون

هو أبو محمد عبد الجليل بن وهبون، مولده ومنشؤه بمُرْسية على البحر المتوسط، وهى من بنيان الأمير عبد الرحمن الأوسط وكانوا يسمونها بستان شرقىّ الأندلس، واشتهرت بما كان يصنع فيها من أصناف الحرير والديباج. وكانت بها حركة علمية وأدبية نشطة، ويكفى أن تكون هى التى أنتجت ابن سيدة أكبر لغوى أندلسى صاحب المخصص والمحكم المتوفى سنة ٤٥٨ للهجرة وكان مع إتقانه للعربية متوفرا على علوم الحكمة والفلسفة، وأكبر الظن أن ابن وهبون تتلمذ له، وقد يكون هو الذى دفعه للقراءة فى كتب

---

(١) انظر فى ابن وهبون وترجمته وشعره الذخيرة ٤٧٣/٢ والقلائد ص ٢٤٢ والخريدة ٩٥/٢ والمطرب ١١٨ وبغية الملتمس رقم ١١٠١ والمعجب للمراكشى ١٥٩ وفوات الوفيات لابن شاكر ٥١٣/١.

الفلسفة. وكانت شهرة المعتمد بن عباد قد طبقت الآفاق برعايته للشعراء، ونراه يفد على إشبيلية يريد أن يحظى بشيء من هذه الرعاية، ويلزم الأعلم الشنتمرى ويختلف إلى حلقته، ويعجب به ابن وهبون، وكان فيه - مثل ابن سيده - نزوع إلى الفلسفة، فلعله أيضا كان من أسباب اهتمامه بها. وقدّم الأعلم قصيدة له إلى المعتمد بن عباد فطار بها وزيره ابن عمار، ووصله بالمعتمد، وأعجب به بدوره، فقصره على هواه، ولم يرحل إلى أمير من أمراء الطوائف سواه، وظل عنده إلا أياما كان يرحل فيها كل سنة إلى مرسية مسقط رأسه يتعهد فيها أهله، حتى إذا استنزل يوسف بن تاشفين أمير المرابطين المعتمد من عَرْش إمارته ونفاه إلى أغْمات خرج من إشبيلية متجها إلى مرسية، وبالقرب منها سنة ٤٨٤ للهجرة لقى قطعة من خيل النصارى فاشتبك معهم، وكُتبت له - على ايديهم - الشهادة. ويتميز شعره بمسحة التأمل والبعد فى الفكر والعمق فيه بتأثير قراءاته الفلسفية، وتوفى أستاذه الأعلم الشنتمرى سنة ٤٧٦ فبكاه بمرثية حارة استهلها بتأملات عميقة فى الحياة والموت منشدا:

نَفْسِى وجِسْمى إِنْ وصفتُهما معا ... آلٌ يَـذُوبُ وصخـرةٌ خَلْقـاءُ[1]
لو تعلم الأَجْبالُ كيف مـآلُها ... عِلْمى لما امتسكتْ لها أَرْجاءُ
إنـا لنعلمُ مـا يـرادُ بنـا فلِمْ ... نَعْيـا القلوبُ وتَغْلبُ الأهـواءُ
طُيُفُ المنايا فى أساليب المُنَى ... وعلى طـريقِ الصحّـة الأدْواءُ

وهو يقول ما الحياة؟ إن نفوسنا فيها سراب يذوب وأجسامنا صخرات ملساء لا تلبث أن تمسّها يد الفناء، وحتى صخرات الجبال لو علمت حقيقةَ أنها لابد أن تتداعى يوما لما تماسكت لها أرجاء، ويقول إنا نعلم مصيرنا إلى الموت والفناء فلم نكلف قلوبنا ما تعيا به وتشقى؟ ولم تغلبنا الأهواء والشهوات؟، وتلك أطياف الموت وأشباحه تتراءى لنا فيما نحاول ونحقق من أمانى، وتلك الأدواء والأمراض كأنها تنتظر الأصحّاء. ويستمر فى إنشاده:

ماذا على ابن الموتِ من إبصاره ... ولقـائِـه هـل عُقّت الأبنـاءُ
لِمَ ينكرُ الإنسانُ ماهو ثابتٌ ... فى طَبْعـه لـو صَحّت الآراءُ
دَنِفٌ يبكى للصحيـح وإنمـا ... أمواتُنا - لو تَشْعُرُ - الأحياءُ
ما النفسُ إلا شُعْلَةٌ سقطتْ إلى ... حيثُ استقلّ بها الثّرَى والماءُ

---

(١) خلقاء: مصمتة ملساء.

حتى إذا خلصتْ تعودُ كما بدتْ ومن الخـلاصِ مشقَّـةٌ وعنـاءُ

وهو يقول إن الإنسان ابن الموت فلماذا يفزع من لقائه؟ أهو ابن عاقٌّ لأبيه؟ ولماذا يتنكر الإنسان لما هو ثابت فى كيانه؟ ولو أنصف الأحياء لعرفوا أنهم مرضى مرضا ثقيلا يُشْفى بهم على الموت، وكأنهم هم الخليقون بالبكاء لهم، وفيم إذن يبكون على من لبّوا نداء الموت المسكن فيهم؟ إنهم الأموات الحقيقيون الجديرون بالبكاء عليهم. وما النفس إلا شعلة هبطت - كما يقول ابن سينا - من العالم العلوى إلى الجسد أو بعبارة أخرى إلى التراب والماء، وما الموت إلا خلاص لها من هذا الأسر الطويل، ورب خلاص فيه مشقة وعناء. ومضى ابن وهبون بعد هذا العزاء يقول بأن ليس فى الدنيا بقاء وأن الكل إلى فناء،مؤبِّنا الأعلم الشنتمرى أستاذه تأبينا رائعا، وهو - بحق - من شعراء الأندلس المبدعين.

(ب) رثاء الدول

هذا اللون من رثاء الدول قديم فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى، إذ نجد الأسود بن يَعْفُر يرثى دولة آل محرِّق فى الحيرة وحضارتهم وما شادوا من قصور الخَوَرْنَق والسَّدير وسِنْداد، حيث كانوا يعيشون فى ظل ملك ثابت ونعيم رافه، فزال ذلك كله، وأصبح باليا مندثرا. وحين قضى العباسيون على الدولة الأموية بكاها الشاعر أبو العباس الأعمى المكى طويلا. وسينية البحترى فى إيوان كسرى حين زار أطلاله مشهورة إذ خلبت لبه نقوشه وما على حيطانه من تصاوير، فوصفه وصفا بديعا، وبكى فى تضاعيف وصفه دولة الفرس ومجدها الحضارى. وحين أقنع فقهاء الأندلس يوسف بن تاشفين بعد موقعة الزلاقة المشهورة بأن عليه واجبا أن ينقذ الأندلس من أمراء الطوائف بها المتعادين المتحاربين المفضين فى حياتهم إلى اللهو والقصف متناسين مسئولياتهم إزاء نصارى الشمال لبَّاهم مقتنعا بأنه يجب أن تجتمع الأندلس تحت لواء واحد، حتى تستطيع مدنها الصمود أمام نصارى الشمال، بل حتى تذيقهم وبال غاراتهم فى مواقع لا تقل عنفا عن موقعة الزلاقة. حينئذ رأى بنافذ بصيرته أنه لا بد من القضاء على حكم هؤلاء الأمراء بالأندلس وعبر الزقاق إليها سنة ٤٨٣ وبدأ الجيش بغرناطة ثم بالمعتمد بن عباد أمير إشبيلية، فقاوم قليلا ولم تغنه مقاومته، واستسلم، ونفاه ابن تاشفين إلى أغمات بقرب مراكش وكانت قرطبة تتبعه وعليها ابنه المأمون، وقاوم المرابطين وقتل، واستولى المرابطون على المدينة، كما استولوا على قلعة رندة من يد يزيد الراضى بعد أن لقى

مصير أخيه المأمون. واستولى المرابطون على بقية مدن الأندلس ما عدا سرقسطة إذ رأى ابن تاشفين أن تُترك لأمرائها البواسل الذين ينازلون مجاوريهم من نصارى الشمال وينكّلون بهم. وأبَى أمير بطليوس المتوكل عمر بن المظفر تسليم مدينته للمرابطين، وحاربهم ودارت عليه الدوائر فقتل من دونها هو وولدان له، وكان مثل المعتمد بن عباد أديبا كاتبا شاعرا، وأحالا مدينتيهما: إشبيلية وبطليوس إلى كعبة للقصاد من الأدباء والشعراء وقبلة لآمالها، فاجتمع عندهما من الشعراء ما لم يجتمع عند أحد من أمراء الطوائف، وبذلك أعادا سيرة سيف الدولة فى حلب والرشيد فى بغداد، وكُتب للمعتمد أن يعيش بِضْع سنين، فبكى دولته، وأهم شاعر بكاها مثله ابن اللبانة، وحرىّ أن نخص كلا منهما بكلمة، وبالمثل بكى ابن عبدون شاعر المتوكل دولته ببطليوس، وسنخصه مثلهما بكلمة موجزة.

المعتمد[1] بن عباد

هو المعتمد محمد بن المعتضد عباد أمير إشبيلية، من سلالة النعمان بن المنذر اللخمى أمير الحيرة فى الجاهلية رُزق به المعتضد سنة ٤٣١ ونشأ فى الحلية والزينة والترف، وكان المعتضد أديبا مثقفا، فكان طبيعيا أن يعنى بتربيته وأن يحضر له المعلمين من فقهاء وعلماء بالعربية وكانت فيه فطنة وذكاء، وشبَّ وتفتحت ملكته الشعرية. ورأى أبوه وهو لا يزال فى بواكير شبابه أن يعهد إليه بحكم شِلْب فى الجنوب الغربى للأندلس وكانت تتبعه، ونزل المعتمد فيها بقصر الإمارة المسمّى بقصر الشراجيب، وتعرَّف عليه سريعا ابن عمار الشلبى، وكان شابا مثله وفيه مجون، فأغواه وأغراه بالخمر والمجون والسماع، وترامت إلى أبيه أنباء لهوه، فاستدعاه فى نحو العشرين من عمره إلى إشبيلية، وأخذ يدربه على الحكم. وتصادف أن تعرَّف سريعا على فتاة تسمى اعتماد مولاة لرُمَيْك من أهل إشبيلية، فاستهوته بجمالها وبداهتها الشعرية على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع، فاقترن بها، وهى أم أبنائه، وله فيها كثير من أشعاره، وكان أبوه قد استطاع أن يستولى بجانب شلب على مدينة الجزيرة الخضراء الواقعة على زقاق جبل طارق وقَرْمونة فى الشمال الشرقى لإشبيلية ولَبْلة وباجة فى غربيها، وطمح إلى الاستيلاء على مالقة سنة ٤٥٩ من يد باديس

---

(١) انظر فى المعتمد بن عباد وترجمته وأشعاره الذخيرة ٢/٤١ وما بعدها والقلائد ٤٠ والحلة السيراء ٢/٥٢ والخريدة للعماد الأصبهانى ٢/٢٥ والمعجب ١٥٨ والمطرب ١٤ وما بعدها والإحاطة ٢/١٠٨ وما بعدها وأعمال الأعلام ١٥٧ والبيان المغرب ٣/٢٥٧ والوافى ٣/١٨٣ وابن خلكان ٥/٢١ وما بعدها. وديوانه نشره بالقاهرة الدكتوران: أحمد بدوى وحامد عبد المجيد.

الزيرى الصنهاجى أمير غرناطة، وأرسل إليها جيشا بقيادة المعتمد فاستولى عليها سريعا، وغرَّه ذلك فأفضى إلى لهوه وخمره، وأرسل باديس إليه جيشا باغته وتشتت جيشه وعاد إلى إشبيلية مدحورا. وتوفى المعتضد سنة ٤٦١ فأمسك المعتمد بزمام الحكم، وجاءه ابن عمار فاستوزره واستطاع الاستيلاء على قرطبة فى العام التالى لحكمه. وأخذ يكثر مع ابن عمار من مجالس الأنس ولياليه، كما أخذ يكثر من الإغداق على الشعراء فاجتمع ببابه منهم كثيرون عُنى ابن بسام فى الذخيرة بالترجمة لغير شاعر منهم. وبينما كان يغاور جيرانه من أمراء الطوائف المسلمين أبناء دينه كان يسالم ألفونس السادس ملك قشتالة ويؤدى إليه الجزية صاغرا كل عام، وحاول ألفونس أن يسلبه بعض ممتلكاته. وكان ضغط النصارى يشتد أيضا على المتوكل صاحب بطليوس فى الغرب وعلى أمير غرناطة عبد الله بن بلقين، فأجمع أمرهم - مع الفقهاء - على استدعاء يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، ولبَّاهم وكُتب لهم معه النصر المؤزر فى الزلاقة، وعاد يوسف إلى بلاده، وعاد المعتمد وغيره من أمراء الطوائف إلى اللهو والقصف والانغماس فى اللذات. فاستغاث الفقهاء وأهل الأندلس بابن تاشفين ثانية كى يخلص الأندلس من حكم هؤلاء الأمراء الذين مزَّقوها فى يد كل منهم مِزْقة مع ما يستنزفونه من طيباتها فى الخمر والمجون. وعبرَ يوسف الزقاق، واستسلم سريعا أمير غرناطة. أما المعتمد فأبى الاستسلام وطلب من ألفونس السادس المهزوم فى الزلاقة النجدة ضد ابن تاشفين والمرابطين. وكان ذلك جُرْمًا فظيعا وخطئا كبيرا لا يحق له بعده أن يظل أميرا فى موطنه، وقاوم ولم تنفعه مقاومته فاستسلم، وأمر ابن تاشفين بنفيه مع أهله إلى المغرب، فنقلوا بالسفن من إشبيلية إلى طنجة، ومنها إلى مدينة مكناس، وأخيرا إلى أغْمات بالقرب من مدينة مراكش، وظل بها مع أسرته، وفيها توفيت زوجته اعتماد الرميكية، ولم يلبث أن توفى سنة ٤٨٨ للهجرة بعد نحو أربع سنوات قضاها فى منفاه. وطبيعى لشاعر مثله أن يبكى إمارته ودولته وما كان فيه من عز وسلطان وأبهة وحياة مرفهة، واسمه ملء الآذان فى الأندلس، والشعراء يغدون عليه ويروحون بفرائد من أمداحهم، وهو يسبغ عليهم عطايا كأنها سحب غدقة منهلّة. وكل ذلك امَّحى وزال، وكأنه كان حلما واستيقظ منه على اليأس والبؤس، ويبكى ويظل يبكى ويذرف الدمع مدرارا، منشدا:

غريبٌ بأرضِ المَغْرِبَيْن أسِيرُ	سيَبْكى عليه مِنْبَرٌ وسريرُ
وتَنْدُبُهُ البِيضُ الصَّوارِمُ والقَنَا	وينهلُ دمعٌ بينهنَّ غَزيرُ
فياليت شِعْرِى هل أبيتَنَّ ليلةً	أمامى وخَلْفى رَوْضَةٌ وغَديرُ

بِمُنْبَتَةِ الزَّيْتون مورثةِ العُلا | تَغَنَّى قِيانٌ أو تَرِنّ طيورُ
بزاهرها السَّامي الذُّرَى جاده الحَيَا | تُشِيرُ الثريَّا نحونا ونُشيرُ

لقد أصبح غريبا وأسيرا منفيا في المغرب وإن منبر خطابته وعرش إمارته ليبكيانه وتبكي شجاعته السيوف والرماح، ويتقاطر دمع غزير، ويتساءل هل يمكن أن ينعم ليلة بما كان فيه من بساتين ورياض بإشبيلية بلدة الزيتون والعز والعلا والقيان المغنيات الجميلات والطيور الصادحات حول قصوره: الزاهر والثريا وغيرهما مما تأنق في بنيانه. لقد تحولت كل هذه المباهج التى نعم بها المعتمد فى إشبيلية إلى متاعسَ فى أغمات، وحانت منه التفاتة فرأى قُمْرِيَّة تنوح بِفَنَنِها وأمامها وكر أوعشّ به حمامتان، وكأنها تبكي أليفها فقال:

بكتْ أنْ رأتْ إلْفَيْنِ ضَمَّهما وَكْرُ | مَساءً وقد أخْنى على إلْفِها الدَّهْرُ
بكتْ لم تُرِقْ دَمْعًا وأَسْبَلْتُ عَبْرَةً | يُقَصِّر عنها القَطْرُ مهما هَمَى القَطْرُ
وناحتْ وباحتْ واستراحتْ بسِرِّها | وما نطقتْ حَرْفًا يبوحُ بهِ سِرُّ
فمالىَ لا أبكى؟ أم القلبُ صَخْرَةٌ | وكم صخرةٍ فى الأرض يَجْرِى بها نَهْرُ
بكتْ واحدًا لم يُشْجِها غيرُ فَقْدِهِ | وأَبكى لألَّافٍ عـديـدُهُـمُ كُثْـرُ

وهو يقول إن القمرية بكت حين رأت إلفين فى وكر، بينما هى فقدت إلفها، فهى تبكيه بدمع مترقرق فى جفونها لا يبلغ تعبيرَه فى الحزن والشجا القطرُ مهما همى وسال. ويقول كأنما نواحها أراحها من سرها الدفين سر حزنها على إلفها الذى فقدته، ويخاطب نفسه لماذا لا أبكى؟ هل أنا صخرة؟ ومع ذلك فالصخر تنشقق منه - وتجرى به - الأنهار والمياه الغزيرة، ولقد بكت واحدا شجاها وأحزنها فقده، وحرى بى أن أبكى الألَّاف وخِلَّانى الذين يخطئهم العد. ويمر به سِرْب قَطا فيهيج وجده ويحرّك شوقه، ويتمنى لو كان مثله حرا ينطلق كما شاء، ويدعو له منشدا:

ألا عَصَمَ الله القَطَا فى فِراخِها | فإنَّ فراخى خانها الماءُ والظِّلُّ

فهو يدعو لكل قطاة أن يعصمها الله فى فراخها فلا تصاب بظمأ ولا بسغبة ولا بعناء كما أصيب أولاده من بنين وبنات. وللمعتمد أشعار أخرى كثيرة تصور لوعته لفقده ملكه وحرقة فؤاده على فلذات كبده.

ابن اللبانة[1]

هو أبو بكر محمد بن عيسى اللَّخْمى الدانى، من دانية على البحر المتوسط، إحدى المدن الأندلسية التى كانت مليئة بالعلماء والكتاب والشعراء، وهو منسوب إلى أمه، وكانت امرأة صِدق، تشتغل ببيع اللبن، حتى غلب اسمه عليها، ونُسب أولادها إليها، وعنيت به وبتربيته، فثقف الآداب العربية وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة، فتردد على أمراء الطوائف، وكلهم أعجبوا بشعره. واستقر أخيرا عند المعتمد بن عباد، إذ كان أكثرهم نوالا، وظل عنده حتى استنزله ابن تاشفين من إمارته، وأخذ بعده يتنقل فى البلاد، وزاره بأغمات فى منفاه، وعاد إلى الأندلس، وألف كتابه «سقيط الدرر ولقيط الزهر» وتدل نقولُ ابن سعيد عنه أنه كان فى أخبار الشعراء، وحاضر به فى المريَّة بجنوبى الأندلس على المتوسط - كما يقول ابن الأبار - سنة ٤٨٦ ولا ندرى هل عاد إلى زيارة المعتمد فى أغمات أو لم يعد، غير أنه لما توفى رثاه رثاء حارا. ونراه يلحق بناصر الدولة مبشر بن سليمان بميورقة، ويبدو أن كلا منهما أهدى صاحبه خير ما عنده، أهداه ناصر الدولة الأموال وأهداه ابن اللبانة الأشعار والمدائح البديعة، وما زال ابن اللبانة يعيش فى رعايته حتى توفى فى الجزيرة سنة ٥٠٧. وضرب ابن اللبانة مثلا رائعا فى الوفاء للمعتمد بن عباد، فقد بكى دولته مرارا وتكرارا، ومن أروع ما قاله من ذلك دالية، وهو يفتتحها على هذه الشاكلة:

تبكى السماءُ بِمَدْمعٍ رائحٍ غادِى ... على البَهاليلِ من أبناء عَبَّادِ[2]

على الجبالِ التى هُدتْ قواعدُها ... وكانت الأرض منهم ذاتَ أوتاد[3]

عِرِّيسةٌ دخلتْها النائباتُ على ... أساودٍ منهمُ فيها وآسادِ[4]

إنْ يُخْلَعوا فبنو العبَّاس قد خُلعوا ... وقد خلتْ قبل حِمصٍ أرضُ بَغْدادِ[5]

ياضَيْفُ أقْفر بيتُ المكرماتِ فخُذْ ... فى ضَمِّ رَحْلِك واجْمع فَضْلَةَ الزادِ

ويا مؤمِّلَ واديهم لِتَسْكُنَهُ ... خَفَّ القطينُ وجَفَّ الزَّرْعُ بالوادِى[6]

---

(١) انظر فى ابن اللبانة وترجمته وشعره الذخيرة ٦٦٦/٣ والقلائد ٢٤٥ والمغرب ٤٠٩/٢ والمعجب ٢٠٨ والمطرب ١٧٨ والخريدة ١٠٧/٢ والتكملة رقم ٥١١ والفوات ٢٧/٤ والوافى بالوفيات ٢٩٧/٤ وبغية الملتمس رقم ٢١٣.

(٢) رائح غادى: راجع ذاهب. البهاليل: السادة.

(٣) أوتاد: جبال.

(٤) أساود جمع أسود: الأفعى الكبير. العريسة: غيل الأسد والآساد.

(٥) حمص: إشبيلية.

(٦) خف القطين: رحل السكان.

وهو يقول إن السماء تبكى بسحبها على السادة من بنى عباد الذين كانت الأندلس ترسو بهم كما ترسو الأرض بالجبال وإن قصورهم بإشبيلية لغابة اقتحمتها الكوارث على أسد مفترسة وحيّات ضخمة سامة. ويعزّى ابن اللبانة نفسه وأهل إشبيلية بأن لهم أسوة فى خلع آل عباد بمن خُلعوا قبلهم من الخلفاء العباسيين. ويلتفت إلى من كانوا ينزلون بالمعتمد وآبائه طالبين القِرَى والضيافة، فيقول لهم إن بيت الكرم والجود أغلقت أبوابه، فاستعدوا للرحيل واجمعوا بقايا الزاد إن كانت هناك بقايا، ويقول لمن كانوا يأوون إلى ظلالهم رحل السكان وجف الزرع بالوادى الذى كان خصبا ممرعا. ويصوِّر مشهد المعتمد وأهله، وقد هبطوا من قصورهم لركوب السفن فى نهر إشبيلية الكبير متجهين إلى طنجة وقد تجمع أهلها يودِّعونهم، يقول:

نسيتُ إلا غَداةَ النَّهْرِ كونَهُمُ ... فى المنشآت كأمواتٍ بألحادِ
والناسُ قد ملأوا العِبْرين واعتبروا ... من لؤلؤ طافياتٍ فوق أزبادِ[1]
حُطَّ القِناعُ فلم تُسْتَرْ مخدَّرةٌ ... ومُزِّقَتْ أوجُهٌ تمزيقَ أبرادِ[2]
حانَ الوَداعُ فضجَّتْ كل صارخةٍ ... وصارخٍ مِنْ مفدَّاةٍ ومنْ فادِى
سارتْ سفائنُهم والنَّوْحُ يَصْحَبُها ... كأنها إبِلٌ يَحْدُو بها الحادى
كم سال فى الماء من دَمْعٍ وكم حملتْ ... تلك القطائعُ من قِطْعاتِ أكبادِ[3]

يقول إننى مهما نسيت فلن أنس رحيل المعتمد وآله فى السفن، وكأنها مقابر نزلوها والناس قد ملأوا الشاطئين متعجبين لتلك اللآلئ من النساء تطفو على الماء فوق زَبده ولا ترسب فى القاع. ويقول إنهن سِرْنَ من قصورهن سافرات لحزنهن يلطمن ويخمشن وجوههن بأظافرهن لفجيعتهن. وضج الرجال والنساء على الشاطئين، وضجَّ من فى السفن وضج المفدَّون الملوحون لهم بأيديهم، وسارت السفن يصحبها الندب والنواح كما يصحب الحداء الإبلَ السائرة فى الصحراء، وكم سال فى ماء الوادى الكبير من دمع وكم حملت تلك السفن من فلذات أكباد. والمرثية طويلة. ووفد ابن اللبانة على المعتمد فى أغمات - كما يقول ابن بسام - وفادة وفاء لا وفادة استجداء، وانقطع إليه انقطاع وداد لا انقطاع استرفاد، ويقول إنه مدحه للوفاء بأحسن مما مدحه به للعطاء، وبذلك ملأ قلوب العرب فى كل مكان - إلى اليوم - عطفا على المعتمد. وكأنما غسل بدموعه عليه

---

(١) العبرين: الشاطئين.
(٢) المخدرة: السيدة ملازمة الخدر أو البيت.
(٣) القطائع مثل المنشآت: السفن.

سيئات حكمه من أدائه الجزية للملك النصرانى فى الشمال ومحاربته لجيرانه من الأمراء المسلمين أبناء دينه وإنفاقه الأموال بسخاء على مجونه وملذاته كأنه يملك خزائن قارون ثم موقفه بأخرة من ابن تاشفين بطل الزلاقة منذ سنوات تعد على أصابع اليد الوحدة، إذ استنجد ضده بألفونس السادس عدو الإسلام والمسلمين. كل هذه السيئات استطاع ابن اللبانة أن يمحو دنسها عن المعتمد بعويله وتفجعه الملتاع على دولته. وكما كان ابن اللبانة شاعرًا كبيرًا كان وشاحا كبيرًا أيضا، وله موشحات كثيرة مدح بها المعتمد بن عباد، وهو أحد أربعة من وشاحى الأندلس أدار عليهم ابن سناء الملك اختياراته من موشحات الأندلسيين فى كتابه «دار الطراز»

ابن عبدون[1]

هو أبو محمد عبد المجيد بن عبد الله بن عبدون الفهرى اليابُرى، من يابُرة غربى بطليوس، عُنى أبوه بتربيته، وطمحت نفسه إلى التلمذة على أعلام العربية من مثل الأعلم الشنتمرى المتوفى سنة ٤٧٦ وعبد الملك بن سراج المتوفى سنة ٤٨٦ وأبى بكر عاصم بن أيوب البطليوسى المتوفى سنة ٤٩٤. وفى الصلة لابن بشكوال أنه كان عالما بالخبر والأثر ومعانى الحديث وأن الناس أخذوا عنه. واستيقظت ملكته الشعرية مبكرة، فمدح المتوكل عمر بن المظفر أمير بطليوس وكان كاتبا شاعرا مع شجاعة وفروسية، وكان مثل أبيه ملاذا لأهل الأدب والشعر، وكانت إمارته تشمل مدن يابرة وشَنْترين وأُشبونه إلى المحيط. وأعجب المتوكل بالشاعر الشاب الناشىء فى إمارته، ونفاجأ بوفود الشاعر على المعتمد ومديحه، ولم يجد لديه قبولا لما كان بينه وبين المتوكل أمير بلدته، فربما ظن أنه أرسله عَيْنا عليه، ولو كان يعرفه ويعرف خلقه الكريم ما داخله هذا الظن. وعاد الشاعر من لدنه، فلم يَفِدْ بعد ذلك على أحد من أمراء الطوائف، واستغرقه المتوكل بنواله وبمودته، إذ اتَّخذه جليسا ورفيقا له فى زياراته لمدن إمارته، وأسبغ عليه من الود حللا ضافية، جعلته يلهج بمديحه ويقصر شعره عليه، حتى إذا غاضب المرابطين، وقاتلهم وقُتل هو وابناه: الفضل والعباس رثاه ورثى دولته برائية مشهورة سنعرض لها عما قليل. ونراه يعلن بعد ذلك فى شعره أنه لن يقدِّمه إلى أمير، وكأنما مات

(١) انظر فى ابن عبدون وترجمته وشعره الذخيرة ٦٦٨/٢ والقلائد ١٤٥ والمغرب ٣٧٤/١ والخريدة ١٠٣/٢ والصلة رقم ٨٣١ والتكملة: ٤٠٧ والمطرب ص ١٨٠ والمعجب للمراكشى ص ١٢٨، ١٤١، ٢٢٨، ٢٣٤، ٢٣٧ والفوات ١٩/٢ والنفح فى مواضع مختلفة (انظر الفهرس).

الأمراء جميعا فى شخص المتوكل ومات معهم المديح. ويقول صاحب المعجب إنه كان يكتب للمتوكل أمير بطليوس ثم يقول إنه كتب بعد ذلك للأمير سير بن أبى بكر بن تاشفين الذى ولى إشبيلية بعد استنزال المعتمد منها مدة طويلة، ويذكر له رسالة كتب بها عنه إلى سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين بفتح مدينة شنترين، ويقول المراكشى إن ابن عبدون كتب ليوسف بن تاشفين أولابنه لا يدرى والصحيح أنه إنما كتب لابنه على بعد سير بن أبى بكر، ويؤكد ذلك قول المراكشى فى موضع آخر: «لم يزل أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين من أول إمارته يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس، وصَرَف عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لُم يجتمع لملك» ثم يُعدّدهم ويذكر من بينهم أبا محمد عبد المجيد بن عبدون. ويبدو أنه ظل كاتبا عنده إلى آخر حياته إذ يقول صاحب الصلة إنه انصرف إلى يابُرة لزيارة من له بها، فتوفى فيها سنة ٥٢٩ للهجرة. ويشيد ابن بسام والفتح بن خاقان وكل من ترجموا له بأشعاره، وخاصة برائيته التى رثى فيها دولة المتوكل ببطليوس وقد نالت شهرة واسعة مما جعل كثيرين ممن ترجموا له ينشدونها فى ترجمته، وعنى بشرحها عبد الملك بن عبد الله الشلبى من أدباء القرن السابع الهجرى فشرحها. ونشرها مع شرحها دوزى ثم طبعت مع الشرح بالقاهرة، وهو فيها يسوق العبرة بمن ماتوا واندثروا من عظماء الأمم وحكامها الكبار ودولها الغابرة وحيواناتها الفاتكة وطيورها الجارحة، يقول ابن بسام: «اقتفى فيها أبو محمد أثر فحول القدماء من ضربهم الأمثال فى التأبين والرثاء بالملوك الأعزة وبالوعول الممتنعة فى قُلَل الجبال والأسود الخادرة[1] فى الغياض وبالنسور والعقبان والحيّات فى طول الأعمار».[2] وهو يستهلها بقوله:

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بعدَ العَيْنِ بالأثَرِ ... فما البكاءُ على الأشْباحِ والصُّوَرِ

أنْهاكَ أنهاك - لا آلوكَ موعظةً - ... عن نَوْمةٍ بين نابِ اللَّيْثِ والظُّفُرِ[3]

ما لِلَّيالى أقالَ الله عَثْرَتَنا ... من الليالى وخانَتْها يدُ الغِيَرِ[4]

فى كلّ حينٍ لها فى كلّ جارحةٍ ... منّا جراحٌ وإن زاغَتْ عن النَّظَرِ

تَسُرُّ بالشىء لكنْ كى تَغُرَّ بهِ ... كالأيْمِ ثارَ إلى الجانى من الزَّهَرِ[5]

---

(١) الخادرة: الساكنة. الغياض جمع غيضة: الأجمة.

(٢) راجع الذخيرة ٨١٨/١.

(٣) لا آلوك موعظة: لا أقصر فى وعظك.

(٤) أقال: تجاوز وصفح. الغير: أحداث الدهر.

(٥) الأيم: الأفعى.

وهو يتحدث عن الدهر وأنه دائما يرسل فواجعه على المحسوس وما وراء المحسوس، ففيم الحزن على من يموتون، وهم ليسوا إلا أشباحا وصورا، ويقول إنني لا أقصِّر في وعظك ونهيك عن الاستنامة إلى الدهر، وهو قد أنشب فيك نابه وظفره. ويدعو الله أن يُقيلنا وينقذنا من عثرات الليالى وأن يسلط عليها الأحداث حتى تنهكها ولا تبقى فيها بقية، إذ في كل حين تصيبنا في عضو منا عزيز علينا بجراح، منها ما نراه، ومنها ما يزيغ عن البصر، وإنها إن سرَّت بشيء - وهيهات - فلكى تخدعنا به، بل لكى تلسعنا من خلاله اللسعة القاضية، كالأفعى المختبئة في الزهر تلسع يد قاطفه اللسعة السامة المميتة. ويأخذ في العظة بذكر من أبادتهم الليالى والأيام من الدول العظيمة منشدا:

كم دولةٍ وَلِيَتْ بالنَّصـرِ خِدْمَتَهـا ... لم تُبْقِ منها - وسَلْ دُنْياك - من خَبَرِ
هَـوَتْ بِدَارا وفَلَّتْ غَـرْبَ قـاتِلِه ... وكان عَضْبًا على الأَمْلاك ذا أُثُرِ[١]
واسترجعتْ من بني ساسانَ ما وَهَبتْ ... ولم تَـدَعْ لبنى يونـانَ من أَثَـرِ
وأتبعتْ أُخْتَها طَسْمًا وعـادَ على ... عادٍ وجُرْهُمَ منها ناقضُ المِرَرِ[٢]
ومـزَّقَتْ سَبَـأً في كـل قـاصيـةٍ ... فما التقى رائحٌ منهم بمبتكـرِ[٣]

وهو يقول: دول كثيرة أتاحت الليالى لها الظفر والرفعة، ثم عادت فهوت بها من حالق، هوت بدارا ملك الفرس، فقتله الإسكندر المقدونى، ولم تلبث أن هدَّتْ منه، وكان سيفا قاطعا ساطعا فثلَّمته وحطمته. وقد استرجعت من بنى ساسان ملوك الفرس كل ما وهبتهم من عز ومجد، ولم تدع لليونانيين شعب الإسكندر من أثر كأن لم يكونوا شيئا مذكورا. وبالمثل صنعت بقبيلتى طسم وأختها جديس في اليمامة، وكرُّ الدهر على عاد وجرهم نكباته حتى محاها محوا، ومزقت الليالى سبأ كل ممزق، فتفرق أهلها في الأرض ولم يلتق منهم رائح بغاد مبكر. ويمضى ابن عبدون في الحديث عمن أهلكتهم الليالى من أعاظم العرب في الجاهلية والإسلام مشيرا معهم إلى كثير من الأحداث في العصر الجاهلى وصدر الإسلام والعصرين الأموى والعباسى مما يدل بوضوح على اتساع ثقافته وكيف يتحول التاريخ إلى شعر وفن، ثم يخاطب المتوكل عمر وآباءه بنى المظفر أمراء بطليوس:

بنى المظفَّر والأيامُ ما بَرِحَتْ ... مراحلًا والوَرَى منها على سَفَرِ
سُحْقًا ليومكمُ يوما ولا حملتْ ... بمثله ليلةٌ في مُقْبِـلِ العُمُـرِ

---

(١) العضب: السيف القاطع. أثر: فرندورونق.

(٢) المرر جمع مرة: القوة. ناقض المرر: الدهر.

(٣) مبتكر: مبكر في الذهاب ضد رائح: راجع.

مَنْ لـلأسِـرَّة أو من لـلأعِـنَّـةِ أو … من لـلأسنَّة يُهْـديهـا إلى الثُّغَـر[١]
وَيْـحَ السماحِ وَوَيْـحَ البأس لـو سَلما … واحسـرةَ الـدِّين والـدنيـا على عُمَـرِ

وهو يقول لبني المظفر بعد أن عدد لهم ما أبادته الليالى من الدول والعظماء تلك هى الأيام مراحل، وما أشبه الناس فيها بقوافل راحلة إلى عالم الموت والفناء. ويقول: سحقا وبعدا لليوم الذى زالت فيه دولتكم ولا حملت بمثله ليلة تمسة من الليالى. ويبكيهم لعرش بطليوس وخيلها العادية وسيوفها الباترة، ويتوجع للسماح وللشجاعة، ويتحسر على ما خسر الدين من جهاد المتوكل للأعداء وخسرت الدنيا من مجده وأبهة إمارته. والمرثية تعد من فرائد الشعر الأندلسى، بل الشعر العربى بعامة، وبدون ريب يُعَدّ ابن عبدون من أفذاذ الشعراء الأندلسيين.

٤

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

(أ) شعراء الزهد

الزهد من جوهر الدين الحنيف ومنذ عصر الرسول ﷺ تتألق أسماء زهاد كثيرين، زهدوا فى متاع الحياة الدنيا، مؤثرين عليه ما عند الله من متاع الآخرة، مع وصلهم زهدهم بالعمل والكسب، حتى لا يعيشوا عالة على المجتمع. وتلقانا - على مر التاريخ - طوائف من هؤلاء الزهاد، وكثيرون منهم استحال زهدهم - على ألسنتهم - إلى مواعظ وأشعار كثيرة. وشركهم فى أشعارهم الزاهدة كثيرون من علماء التفسير والفقه والحديث النبوى وعلماء العربية، فضلا عن الشعراء الذين طالما حانت منهم التفاتات إلى مصيرهم وما ينتظرهم من الموت. ومن أجل ذلك كله أصبح الزهد غرضا كبيرا من أغراض الشعر العربى فى كل عصر وفى كل بلد عربى، وتلقانا منه سيول كثيرة فى الأندلس، ولن نستطيع أن نعرض منها إلا شيئا يسيرا وخاصة ما جاء على ألسنة الزهاد الحقيقيين الذين قصروا حياتهم - أو شطرا كبيرا منها - على النسك والعبادة. وأول من نذكره من هؤلاء الزهاد أبو وهب[٢] عبد الرحمن العباسى القرطبى المتوفى سنة ٣٤٤ لعهد عبد الرحمن الناصر،

---

(١) الثغر: جمع ثغرة: أعلى الصدر. يريد: طعنه بالأسنة صدور الأعداء.

(٢) انظر فى أبى وهب وترجمته وشعره المغرب ١/٥٨ والتكملة ص٧١٨ والنفح ٣/٢٠٧، ٢٢٦.

ويقول ابن بشكوال: كان منقطع القرين فى الزهد والورع، ويذكر ابن سعيد أنه كان لا يكلم - ولا يجالس - أحدا، وكان أكثر دهره مفكرا وجهه على ركبته، ومن شعره:

أنا فى حالتى - التى قد ترانى　　إن تأملتَ - أحسنُ الناس حالا
منزلى حيثُ شئتُ من مستقَرِّ الـ　　ـأرض أسْقَى من المياه زُلالا[١]
ليس لى كُسْوَةٌ أخاف عليها　　من مُغيرٍ ولا ترى لىَ مالا
أجعلُ الساعدَ اليمينَ وِسادى　　ثم أَثْنى - إذا انقلبتُ - الشِّمالا

وهو لا يملك منزلا يقيه البرد وينام فيه ليلا ولا ثوبا غير الثوب الذى يستر جسده ولا مالا يكنزه، ويرى نفسه بذلك أسعد الناس لأنه لا يملك شيئا يخاف عليه من مغير أو ناهب، وحسبه جرعات من ماء عذب، وإذا نام اتخذ يمينه وساده، فإن تعب ثَنى الشمال وسادا. ويقول ابن سعيد: كان إذا أصبح ونظر إلى استيلاء النور على الظلمة رفع يديه إلى السماء قائلا: اللهم إنك أمرتنا بالدعاء إذا أسفرنا[٢]، فاستجب لنا كما وعدتنا، اللهم لا تسلِّط علينا فى هذا اليوم من لا يراقب رضاك ولا سخطك، اللهم لا تشغلنا فيه بغيرك، اللهم لا تجعل رزقنا فيه على يد سواك، اللهم امحُ من قلوبنا الطمع فى هذه الفانية كما محوت بهذا النور هذه الظلمة، اللهم إنا لا نعرف غيرك فنسأله، يا أرحم الراحمين، يا غياث من لا غياث له. ومن قوله:

تنامُ وقد أُعِدَّ لك السهادُ　　وتوقن بالرحيل وليس زادُ
وتُصبح مثل ما تُمسى مُضيعًا　　كأنك لست تدرى ما المُرادُ
أتطمعُ أن تفوز غدًا هنيئا　　ولم يَكُ منك فى الدنيا اجتهادُ
إذا فرَّطْتَ فى تقديم زَرْعٍ　　فكيفَ يكون من عدمٍ حَصادُ

وهو يقول مخاطبا: كيف تنام وقد هُيِّئ لك سهاد، كى تعبد الله حق عبادته، وكيف توقن بأنك راحل عن دُنياك وأنت لم تهيئ لنفسك زادا لرحلتك، وتصبح وتمسى لا تدرى من أمرك شيئا فكيف تطمع فى الفوز بقبول الله لك ورضاه عنك وأنت لم تؤد حقه من العبادة والنسك، وهل يمكن لشخص قصَّر فى رعاية زرعه أن يحصد منه شيئا. ونلتقى فى عصر أمراء الطوائف بأبى إسحق الإلبيرى، وسنخصه بكلمة، وكان يعاصره الطُّليطل[٣]

---

(١) زلالا: عذبا.
(٢) أسفرنا: أصبحنا.
(٣) انظر فى الطليطل وترجمته وشعره الذخيرة ٧٩٧/٢ والجذوة ٢٩٤ والبغية رقم ١٢١٢ والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى القسم الأول من الجزء الخامس ص ١٩٥.

على بن إسماعيل الفهرى القرشى الأشبونى، وفيه يقول ابن عبد الملك المراكشى، قرأ العلم بقرطبة ودرس على طائفة من علمائها وأكثر من حفظ الآداب والأشعار، وكان من الأدباء النبلاء والشعراء المحسنين سمح القريحة، مشاركا فى الحديث والفقه، أمضى فى ذلك صدرا من عمره، ثم مال إلى النسك والتقشف ونظم فى معانيهما أشعارا رائقة وضروبا من الحكم تناقلها الناس وحفظوها عنه. واتخذ لنفسه رابطة[1] فى رقعة من بستان له على بحيرة شقبان عُرفت برابطة الطُّيطَل ولزم بها العبادة والنسك إلى أن توفى. ويقول ابن بسام: إن أهل أوانه كانوا يشبهونه بأبى العتاهية فى زمانه، ويذكر إنه نظم الدرّ المفصَّل فى الزهد، ومن نظمه:

إذا سُدَّ بابٌ عنك من دون حاجةٍ ... فَدَعْهُ لأخرى ينفتحْ لك بابُها
فإنَّ جِرابَ البَطْنِ يكفيك ملؤهُ ... ويكفيك سَوْءاتِ الأمور اجتنابُها[2]
ولاتك مِبْذالاً لِعرْضِك واجتنبْ ... ركوبَ المعاصى يَجْتَنِبْك عِقابُها

وهو يوصى صاحبه بأن لا ييأس أبدا، فإذا سُدَّ عنه باب فى الرزق فليتركه إلى باب آخر ينفتح له، وليكفه كفاف القوت فإن وعاء البطن حسبه أن يمتلىء، وما زاد عن ذلك لا يحتاجه الإنسان، وليغنه عن الأمور السيئة أن يجتنبها، حتى لا يعرِّض نفسه لعقاب، ولْيَصُنْ عرضه وشرفه ويجتنب المعاصى حتى لا تصيبه أى عقوبة. ويقول:

الموتُ يرعاك كلَّ حينٍ ... فكيف لم يَجْفُك المِهادُ
ما حالُ سَفْرٍ بغير زادٍ ... والأرضُ قَفْرٌ ولا مَرادُ[3]
فابْنِ بها للتُّقى بُروجًا ... تَأْمَنْ إذا رُوِّع العِبادُ

وهو يقول إن جرس الموت يدق فى كل حين، فكيف لا تُحْيى الليل بالعبادة، وإنك لراحل مسافر إلى ربك، وهل يستطيع مسافر أن يسافر بغير مئونة وزاد، إنه يكون أشبه بمن يسافر فى صحراء مجدبة ولا مرعى ولا قوت، فاتخذِ التقى والورع عُدَّتك تأمن حين يعصف بك الموت الذى لا بد منه للعباد. وله وصف دقيق للنملة يصور فيها خصرها الضامر، وكأنما آخرها قطرة من قطران أو حبر أسود، تحمل قوتها مدخرة له مهتدية فى ظلمة الليل إلى خرق كثقب الإبرة، لا يسمع لها أحد حركة، مسبِّحة ربها، وسبحانه العالم وحده بتسبيحها.

---

(١) الرابطة: بيت للعبادة.
(٢) الجراب: وعاء الزاد.
(٣) مراد بفتح الميم: مَرْعى.

وُلد فى عصر الطوائف سنة ٤٤٠ بكار[١] بن داود المروانى، ولحق عصر المرابطين وعاش فيه فترة غير قصيرة، مولده فى شنترة من بلدان أُشبونة بغربِىِّ الأندلس، درس فى قرطبة ثم استوطن أشبونة. ويروى ابن سعيد عن أبى عمرو بن الإمام صاحب سفط اللآلى فى أخبار شعراء عصره المتوفى بعد سنة ٥٥٠ أنه لقيه وكان غاية فى الزهد مطَّرِحا لنفسه واستشهد فى جهاد العدو، ويقول إنه استنشده من شعره فأنشده:

ثِقْ بـالـذى سـوَّاكَ من ... عَـدَمٍ فـإنَّـك مِن عـدَمْ
وَانْـظُرْ لنفسك قبـل قَـرْ ... عِ السِّنِّ من فَـرْط النَّدَمْ
واحْذَرْ - وُقيت - من الورَى ... واصْحَبْهُـمُ أعـمى أصَمّْ
قـد كنتُ فى تِيـهٍ إلى ... أن لاحَ لـى أهْـدَى عَلَمْ
فـاقْتَدْتُ نحـو ضيـائـهِ ... حتى خـرجتُ من الظُّلَمْ

وهو يقول: ضع ثقتك فى الله الذى سوَّاك وخلقك من عدم، وفكر فى نفسك وما ينبغى أن تنهض به من عبادته قبل أن تعض على أصابعك نادمًا على ما فرطت فى جَنْب خالقك. واحذر الناس واصحبهم كأنك لا تراهم ولا تسمعهم. ويقول إنه كان فى تيهِ ضلال وظلام حالك إلى أن لاح علم الهدى فاهتدى بضيائه. ومن الزهاد لعصر الموحدين أبو الحجاج يوسف[٢] المَنْصفى، من قرية المَنْصَف من قرى بلنسية فى شرقى الأندلس، ويقول المقرى: كان صالحًا وله رحلة حجَّ فيها، ومال إلى علم التصوف، وله أشعار حُملت عنه، منها قوله:

قالتْ لِيَ النَّفْسُ: أتاك الرَّدَى ... وأنتَ فى بَحْرِ الخطايا مُقيمْ[٣]
هلا اتخذْتَ الزاد قلت: اقْصِرِى ... هل يُحْمَلُ الزاد لدار الكريم

فنفسه قالت له: أتاك الموت وأنت غارق فى الذنوب فهلا اتخذت زادًا للمعاد؟ فقال لها إن الزاد لا يحمل لدار الجواد الكريم. ومن طريف ما قيل حينئذ فى الزهد والدعوة إلى العمل الصالح قول الفيلسوف أبى بكر بن طفيل[٤]:

يا باكيًا فُرْقَةَ الأحباب عَنْ شَحَطٍ ... هلا بكيتَ فِراقَ الروح للبدنِ[٥]

---

(١) راجع فى بكار وترجمته وشعره المغرب ٤١٥/١ والنفح ٣٣٤/٣.
(٢) انظر فى أبى الحجاج المنصفى وترجمته وشعره المغرب ٣٥٤/٢ والتحفة رقم ٣٧ والنفح ٢٣٦/٣.
(٣) الردى: الموت.
(٤) المعجب للمراكشى ص ٣١٣.
(٥) شحط: بعد.

فانحاز عُلْوًا وخَلّي الطينَ للكَفَنِ نورٌ تردَّدَ فى طينٍ إلى أجلٍ
أظنُّها هُدْنَةً كانتْ على دَخَنِ[١] ياشدَّ ما افْتَرَقا منْ بعدما اعتَلَقاً
فيالَها صَفْقَةً تَمَّتْ على غَبَنِ[٢] إن لم يكنْ فى رِضا الله اجتماعُهما

وهو يقول لمن يبكى على أحبابه حين يختطفهم الموت أتبكى لفراقهم ولا تبكى لما ينتظرك من فراق الروح للبدن، وكأنما كانت الروح نورًا تردد وقتًا فى طين الجسد، ثم تسامى عنه عُلْوًا وخلاه للكفن، وإنها لفرقة شديدة بعد امتزاجها طول الحياة، وكأنما كانت بينهما هدنة غير صافية، ويقول إن اجتماعهما وامتزاجهما إن لم يكن فى رضا الله كان صفقة أو بيعة خاسرة.

وتكاثر الزهاد لعهد يعقوب الموحدى وكوَّن منهم فرقة كبيرة جعلها بمقدمة جيشه فى غزوة الأرَك المشهورة لسنة ٥٩١ وكان يشير إليهم فى الغزوة. ويقول: هؤلاء هم الجند، لا أولئك ويشير إلى العسكر. ويقول صاحب المعجب إنه حين رجع من المعركة أمر لهؤلاء الزهاد الصالحين بأموال عظيمة، ومنهم من رأى قبول العطية، ومنهم من ردَّها، وتساوى عنده الفريقان وقال: لكلٍ مذهب[٣]. ومن كبار الزهاد حينئذ أبو عمران[٤] موسى بن عمران المارْتُلى وهو من مارْتُلة، حصن من حصون باجة، وعنه قال ابن الأبار فى التكملة: كان منقطع القرين فى الورع والزهد والعبادة والعزلة، وله فى ذلك آثار معروفة مع الحظ الوافر من الأدب والتقدم فى قرض الشعر فى الزهد والتخويف، وكان ملازمًا لمسجده بإشبيلية، توفى سنة ٦٠٤ عن اثنتين وثمانين سنة، ومن شعره:

إلى كم أقولُ ولا أفعلُ وكم ذا أحُومُ ولا أنزلُ
وأزجرُ عَيْني فلا ترْعَوِى وأنْصَحُ نفسى فلا تَقْبَلُ
وكم ذا أؤمِّل طولَ البَقَا وأغْفُلُ والموت لا يَغْفُلُ
وفى كل يومٍ يُنادى بنا مُنادى الرحيلِ ألا فارْحَلُوا
كأنْ بى وَشِيكًا إلى مَصْرعى يُساق بنعشى ولا أُمْهَلُ

وهو يتلوم نفسه فكم ينوى الخير ولا يفعل وكم يروم العمل الطيب ولا يعمل، وكم يزجر عينه أن لا تنظر إلى المحرمات ولا تزدجر، وكم ينصح نفسه أن ترعوى

---

(١) هدنة على دخن: هدنة على فساد وعدم صفاء.
(٢) الغبن فى البيع: الوكس والخسارة.
(٣) المعجب للمراكشى ص ٣١٣.
(٤) انظر فى ترجمة أبى عمران المارتلى المغرب ٤٠٦/١ والنفح ٢٢٥/٣، ٢٩٦ والتكملة ص ٤٥٧ وتحفة القادم رقم ٥٨ والغصون اليانعة ص١٣٥.

ولا تنتصح، وكم يؤمل فى البقاء غافلاً عن الموت والموت لا يغفل، وكأنه لا يسمع منادى الرحيل، مع أنه قريبًا سيرحل، ويُحْمَل فى نعشه ولا يهل.

ومنذ عصر المرابطين نجد كثرة الزهاد تتحول إلى التصوف وعالمه، وتظل أسراب شعر الزهد الذى كان يجرى على ألسنة العلماء والشعراء تنطلق فى مجراها الذى بدأت مسيرتها فيه منذ عصر الدولة الأموية، من ذلك قول حازم القرطاجنى[١]:

لم يَدْرِ مَنْ ظَنَّ الحياة إقامةً ... أنَّ الحيــاةَ تنقُّـلٌ وتــرحُّــلُ
فى كل يوم يَقْطَعُ الإنسان مِنْ ... دُنْيَـاه مَرْحلةً ويـدنـو المَنْهَـلُ
يَحْظَى السعيدُ به بطول سعادةٍ ... وأخـو الشقاوة للشقـاوة يُنْقَـلُ
لاتَبْـكِ إشفاقًـا لما اسْتَـدْبَرْتَـه ... ولْتَبْـكِ إشفـاقًـا لمـا تَسْتقبـل

وهو يقول: من الخطأ أن يظن الإنسان أن الحياة دار إقامة، فإنها دار تنقل وارتحال، فى كل يوم يقطع الإنسان فيها مرحلة من حياته إلى أن تكون المرحلة الأخيرة، وينتقل إلى حياته الثانية فينتقل إما إلى سعادة ونعيم وإما إلى شقاوة وجحيم، ومن عجب أن يبكى المرء إشفاقًا على ما خلَّف منها وراء ظهره وحقه أن يبكى إشفاقًا على ما يستقبله فى آخرته من مصير غير معروف: شقى أو سعيد. ويقول ابن خاتمة منشبثًا بعفو الله ورحمته فى أول قصيدة بديوانه:

لقد فَتَحَ الرَّحْمنُ أبوابَ عَفْوِهِ ... لمنْ راجعَ الذِّكرى وأَقْبَل خاشيا
إلهِىَ لا تَفْضَحْ عُوارًا سَتَرْتَهُ ... فما لىَ مأمـولٌ سواكَ إلهيـا[٢]
هلكتُ رَدًى إن لم أَنَلْ منك رحمةً ... تبـعِّـد رَوْعـاتى وتُـدْنِى أمـانيـا
لعلَّ الذى قام الوجودُ بجوده ... يُعِيدُ بحسْنِ اللُّطْفِ حالىَ حاليا[٣]

وهو يقول إن الله - جلَّ شأنه - فتح أبواب عفوه على مصاريعها لمن راجع نفسه وأقبل خاشيا منيبا، ويدعو الله أن يستر عيوبه ويرحمه رحمته الواسعة، ويرجوه بجوده الفياض على الوجود أن يعيد حاله حاليا مزدانا. ويستغيث لسان الدين بن الخطيب بربه منشدًا[٤]:

---

(١) الديوان ص ٩٧.
(٢) العوار: العيب.
(٣) حاليا: مزدانا.
(٤) أزهار الرياض ١/٢٧١.

إلهىَ بـالبيت المقـدَّسِ والمَسْعَـى | وجَمْـعٍ إذا ما الخلقُ قـد نزلـوا جَمْعـا[١]
وبالموقف المشهودِ - يارَبِّ - فى مِنى | إذا ما أسالَ الناسُ من خوفك الدَّمْعا
وبالمصطفى والصَّحْبِ عجِّلْ إقالتى | وأنجحْ دُعائى فيك يا خَيْرَ من يُدْعَى[٢]
صَـدَعْتُ وأنتَ المستغاثُ جَنـابـهُ | أَقِلْ عَثْرتى يا مَأْملِى واجْبرِ الصَّدْعـا[٣]

وهو يتوسّل إلى الله بمقدساته: ببيت القدس والمسعى بين الصفا والمروة فى الحج وبجمع أو المزدلفة مجتمع الحجاج، وبموقفهم فى مِنىً متبتلين إلى ربهم، وبالرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه أن يتجاوز عن سيئاته وأن يقبل منه دعاءه، فقد جهر بذنوبه ولاذ بجنابه، وإنه ليستغيث به ضارعًا إليه أن يُقيله من عثرته ويجبر الصدع أو الشقَّ البيِّن فى أعماله. وحرىٌّ بنا أن نتحدث عن الزاهد الكبير الإلبيرى.

أبو إسحق[٤] الإلبيرى

هو أبو إسحق إبراهيم بن مسعود بن سعد التُّجيبى، من أهل حصن العقاب بالقرب من إلبيرة، ولزم فى نشأته فقيهها ومحدثها ابن أبى زمنين المتخلق بأخلاق الصالحين المتوفى سنة ٣٩٩ ويقول بعض من ترجموا له إنه كان من البكّائين الورعين الخاشعين، ويقول ابن الأبار فى التكملة إن أبا إسحق روى مصنفاته عنه مما قد يدل على أنه جلس بمجلسه لإفادة الطلاب فى إلبيرة. وخُرِّبت سريعًا فى عهد زاوى بن زيرى الذى اتخذ غرناطة دار إمارة له (٤٠٣ - ٤١٠ هـ) مما جعل كثرة أهلها تهاجر إلى غرناطة، وهاجر إليها أبو إسحق، غير أنا لا نعرف تاريخ هجرته إليها بالضبط، ونظن ظنا أنه ظل بها يروى لطلاب العلم كتب أستاذه ابن أبى زمنين. ونرى أبا الحسن على بن محمد بن توبة حين يتولى القضاء لباديس بن حبوس أمير غرناطة (٤٢٩ - ٤٦٧ هـ) يتخذ أبا إسحق كاتبًا له. واصطحبه معه إلى المرية حين طلب إليه باديس حمل رسالة إلى أحمد بن عباس وزير

---

(١) جمع: المزدلفة.
(٢) الإقالة للشخص: العفو عنه والصفح والإعفاء.
(٣) صدعت: جهرت. الصدع: الشق والكسر.
(٤) انظر فى أبى إسحق وترجمته وشعره الحميدى فى الجذوة والضبى فى البغية ص ٢١٠ والتكملة لابن الأبار (البقية المطبوعة) ص ١٦٧ والمغرب ٢/١٣٢ وفهرسة ابن خير ٤١٨. وقد نشر الديوان فى مدريد غرسية غومس وأعاد نشره وتحقيقه مع كتابة مقدمة له الدكتور محمد رضوان الداية (طبع دمشق).

زهير الصقلبى أميرها، مما يدل على حسن منزلته عند القاضى وأنه ظل كاتبًا له إلى أن أخذ يحمل بعنف على إسماعيل بن النغريلة اليهودى وزير الأمير باديس لتسلطه- مع من عهد إليهم بالعمل معه من اليهود - على شئون الحكم. واستطاع إسماعيل أن يستصدر أمرًا من باديس بنفى أبى إسحق من غرناطة إلى إلبيرة، وربما عاد حينئذ إلى مسقط رأسه فى العقاب. وتوفى إسماعيل بن النغريلة، وخلفه فى وزارة باديس ابنه يوسف فزاد الطين بلة، وضج الناس، وكان أبو إسحق قد عاد إلى غرناطة، فألقى فى أهلها قصيدة كانت أشبه بقنبلة، طالب فيها بقتل يوسف، وردّدها الناس فى الشوارع، وسرعان ما نشبت لسنة ٤٥٩ ثورة ضارية على اليهود ألممنا بها فى حديثنا عن الهجاء، وكان أبو إسحق قد بلغ العقد التاسع من عمره فلبّى نداء ربه فى نحو سنة ٤٦٠ للهجرة. ولم يحمل أبو إسحق عن أستاذه ابن أبى زمنين مصنفاته فى الفقه والحديث فقط. بل حمل عنه أيضًا مصنفاته فى الوعظ وأخبار الصالحين. ولا يقل عن ذلك كله أهمية حمله عنه أشعاره الزهدية، مما غرس الزهد فى نفسه مبكرًا، وأتيحت له ملكة شعرية خصبة، فاستغلها فى نظم أشعار زهدية كثيرة، ويقول ابن الأبار: «كان من أهل العلم والعمل شاعرًا مجودًا وشعره مدون وكله فى الحكم والمواعظ والأزهاد» ويقول ابن سعيد: «له ديوان ملآن من أشعار زهدية، ولأهل الأندلس غرام بحفظها» وهو غرام مرجعه إلى ما تمتاز به زهدياته من لغة ناصعة وخواطر منوعة تمس القلوب بما تحمل من فيض المشاعر الدينية، وكأنما يستمد من نبع حماسى يتدفق فى عذوبة. والديوان يستهل بتائية فى مائة بيت وسبعة يفتتحها بقوله:

تفتُّ فؤادَك الأيامُ فَتّا ... وتَنْحَتُ جِسْمَك الساعاتُ نَحْتا
وتدعوك المَنُونُ دُعاءَ صِدْقٍ ... ألا ياصاحِ: أنتَ أُريد أنتا

ويمضى أبو إسحق فى القصيدة بهذه الصياغة والمعانى التى تؤثر فى الأفئدة تأثيرًا يملك على قارئه وسامعه كل شىء من أمره، فالدنيا عروس غادرة، والعاقل يفصل نفسه منها دون رجعة، وويح الإنسان ينام ويستغرق فى نومه حتى إذا وافاه الموت انتبه بعد انخداعه. ويقول إلى كم ينخدع ولا يرعوى، وكان أولى به أن يرفض متاع الحياة الدنيا وكل ما يتصل به من طعام وشراب، فالقوت الحقيقى هو قوت الروح، وحرى به أن لا يحفل بجاه ولا بمال ولا بقصور مشيدة. ولن يضره الفقر إذا ما عرف ربه، ويقول: ما الدنيا إنها تسوء حقبة وتسر وقتًا، ويحبها الإنسان مع أنه مسجون فيها وهل يحب أحد سجنه، ولا يغره طعامه فيها فستأكله حطامًا، وكل يوم يشهد فيها دَفينًا، وهو لم يخلق ليعمرها،

إنما خلق ليعبرها، وحرى به أن لا يحزن على ما فات منها وأن يفرح لما فاز به فى أخراه، وينصحه أن يلازم قرع باب الله فسَيُفتح له يومًا، وينشد:

فلو بكتِ الدِّما عَيْناك خَوْفًا ... لِذَنْبِك لم أقلْ لك قد أمِنْتا
ومَنْ لك بالأمان وأنت عبدٌ ... أُمِرْتَ فما ائتمرْتَ ولا أطعتا
وتُشفق للمصرّ على المعاصى ... وتَرْحَمُهُ، ونفسَك مارَحِمْتا
تَفِرُّ من الهَجِيرِ وتتقيهِ ... فهلَّا عن جهنم قد فرَرْتَا

فلو أن الإنسان لم يعمل الصالحات الباقيات وبكى وبالغ فى بكائه حتى بكى دما فإن ذلك لن يتيح له الأمان مادام لم يطع أوامر ربه. ومن عجب أن يشفق الإنسان على عاصى ربه ويرق له قلبه وقلبه لا يرق لنفسه، وعجبٌ عجابٌ أن يفر من حرارة الهاجرة ولا يتخذ العدة للفرار من جهنم ولظاها المشتعل. وفى قصيدة كافية يقول للدنيا: لقد عهدنا الأم تعطف على أبنائها وأنت تعاملييننا بكل قسوة ودون أى شفقة، وفرضٌ على الأبناء أن يبروا أمهاتهم إلا أنت، فواجب عقوقُك وبغضك أشد البغض. ودائما ينصح بعمل الخير والإحسان إلى الفقراء ويخوِّف أشد التخويف من عذاب النار، وله قصيدة: خمسة وثلاثون بيتا ختمها جميعا بكلمة النار وفيها يقول:

ويلٌ لأهلِ النَّارِ فى النَّارِ ... ماذا يُقاسون من النَّارِ
تنقدُّ من غَيْظٍ فَتَغْلِى بهمْ ... كمِرْجَلٍ يَغْلِى على النارِ

ويستمر قائلا: لا تقبل التوبة فى النار، والشقى يفر من النار إلى النار، وويل له من النار، إذ لا راحة له فيها وكيف يرتاح وهو يشرب المُهْل فيها، ويطعم الزقوم، وتتدافع سيول النار فى القصيدة حتى نصل إلى نهايتها فنطلب من الله مع أبى إسحق المعافاة والعتق من النار. ومن أروع قصائد الديوان قصيدة من ثلاثة وخمسين بيتا ختمها جميعا بلفظ الجلالة على هذا النحو:

ياأيها المُغْتَرُّ بالله ... فِرَّ من الله إلى الله
ولُذْ به واسألْه من فَضْلِه ... فقد نَجا مَنْ لاذ بالله
وقُمْ له والليلُ فى جُنْحِهِ ... فحبَّذا من قام لله
واتْلُ من الوَحْىِ ولو آيةً ... تُكْسَى بها نُورًا من الله
وعَفِّرِ الوَجْهَ له ساجِدًا ... فعزَّ وَجْهٌ ذلَّ لله

وهو يقول: يا أيها الغافل عن ذكر ربه، فِرَّ من عقابه إلى ثوابه والجأ إليه واسأله من فضله تنج من عذاب النار، وتهجَّد فى آناء الليل، واتل من القرآن ولو آية يسبغ الله نورها عليك، ومَرِّغ وجهك فى العَفَر ووجه الأرض ساجدا لربك متذللا له، فعزُّ وجه يتضرع إليه ويخضع وينقاد. وتمضى القصيدة بهذه الروعة فى الصياغة، وكل بيت يدل دلالة جديدة، ومعه جوهرة لفظ الجلالة تضىء جوانبه، وتنزل منه منزلا محكما.

(ب) شعراء التصوف

ألممنا فى الفصل الأول بنشأة التصوف فى الأندلس وأنها ترتبط بمحمد بن عبد الله بن مسرة المتوفى سنة ٣١٩ وكان يجمع فى عقيدته بين التصوف على طريقة ذى النون المصرى كما يقول ابن الفرضى وبين آراء المعتزلة فى القول بخلق القرآن الكريم وإنفاذ الوعد والوعيد والاستطاعة مع التأويل لبعض آى الذكر الحكيم والأحاديث النبوية.[١] وقاوم عبد الرحمن الناصر هذه العقيدة، كما مرَّ بنا، كما قاومها ابنه الحكم والمنصور بن أبى عامر حاجب ابنه هشام المؤيد، وظلت مكتَّنة فى كثير من الصدور وظل لها أنصار فى عهد أمراء الطوائف، ويذكر ابن حزم منهم - كما مرَّ فى غير هذا الموضع - إسماعيل الرُّعَيْنى.

ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن أول شاعر صوفى استظهر فى وضوح عقيدة التصوف مقترنة بعقيدة الاعتزال هو أبو عمر[١] أحمد بن يحيى بن عيسى الإلبيرى الأصولى المتوفى سنة ٤٢٩ للهجرة، ويقول عنه تلميذه أبو المطرف الشعبى الذى روى عنه تآليفه «إنه كان متكلما دقيق النظر عارفا بالاعتقادات على مذاهب أهل السنة». ويذكر ابن بسام أن أمر مدينة إلبيرة كان دائرًا عليه مع زهده وورعه، بينما يذكر أبو المطرف أنه لقيه بغرناطة وفيها أخذ عنه مصنفاته، وأكبر الظن أنه ظل بإلبيرة حتى خرَّبتها قبيلة صنهاجة فى عهد الزيريين كما مر بنا، فانتقل عنها - مع أكثر سكانها إلى غرناطة. وأشاد ابن بسام بنثره

---

(١) راجع تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى رقم ١٢٠٢ والجزء الخامس من المقتبس لابن حيان (طبع مدريد) ص ٢٠ وما بعدها.

(١) انظر فى أبى عمر أحمد بن عيسى الإلبيرى وترجمته وشعره الذخيرة ٨٤٧/١ وما بعدها والمغرب ٩٥/٢ والصلة رقم ٨٩ وقد أسنَّ تلميذه أبو المطرف عبد الرحمن ابن قاسم الشعبى واشتهر بالعلم والفضل، توفى سنة ٤٩٧. انظر الصلة: ٣٢٩.

وشعره وروى له رسالة كتبها سنة ٤١٩ إلى بعض إخوانه وفيها نزعة صوفية واضحة، وسنلم بها فى الفصل التالى، وينشد له ابن بسام:

شربتُ بكأس الحُبِّ من جَوْهَرِ الحُبِّ رَحِيقًا بكفِّ العَقْل فى رَوْضَةِ الحبِّ
وخامَرَ ماءَ الرُّوحِ فاهتزَّتِ القُوَى قُوَى النَّفسِ شوقا وارتياحا إلى الرَّبِّ
ونـادى حَنِيئًا بـالأنين حنينهـا إلهى إلهى مَنْ لعبـدك بالقُـرْبِ
وخـاطبه وحْيًـا إليـه مليكـهُ: سأكشفُ - ياعَبْدى لعَيْنك - عن حُجْبى
فأعلن بالتسبيح: مثلك لم أجِدْ تعاليتَ عن كفءٍ يكافيك أوصَحْبِ

وهو يقول إنه شرب فى روضة الحب الإلهى رحيقا مصفًّى من جوهر الحب امتزج بروحه، فحنت قوى نفسه شوقا إلى مشاهدة ربه، ونادى - وأنَّ فى ندائه - متلهفا على قربه من ربه، وتجلَّى له الله رافعا ما بينه وبين عبده من حجبه، فسبَّح بحمده منزها له عن أن يكون له كفء أو صحب، وكأنه يشير إلى الآيتين: ﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾ - ﴿أنَّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾. والتصوف فى الأبيات - كما ذكر تلميذه أبو المطرف - تصوف سنى، فيه إشارة إلى وحدة الشهود، وليس فيه إشارة إلى الاتحاد بالذات العلية الذى يؤمن به أصحاب التصوف الفلسفى. وكان يقرن إلى تصوفه إيمانه بعقيدة الاعتزال فى مثل قوله:

يا مُحْدِثاً للكلِّ كنتَ ولم تَزَلْ وكـذاك رَبِّى لايزالُ بـلا مكانْ

وقوله:

جَلَّت صفـاتُ جلالِـه، فجلالُـهُ قد جَلَّ عن تَحْديدِ كَيْفَ ومَنْ وما

وهو يشير بذلك إلى ما يؤمن به المعتزلة من تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين فلا يحدُّه مكان ولا زمان ولا تحصره كيفية ولا جوهر ولا عرض، تعالى جلال الله عن ذلك علوا كبيرا.

ويذكر آسين بلاسيوس - ويتابعه بالنثيا - أن مدينة المرية على البحر المتوسط فى الجنوب الشرقى للأندلس أصبحت فى القرن الخامس الهجرى - بتأثير آراء ابن مسرة - مركزا مهما من مراكز الصوفية القائلين بوحدة الوجود، فظهر فيها محمد بن عيسى الإلبيرى الصوفى وأبو العباس بن العريف[1]. وما ذكرناه آنفا عن أحمد بن

(١) انظر فى ذلك بالنثيا ص ٣٢٩ وما بعدها وكتاب ابن سبعين وفلسفته الصوفية للدكتور أبى الوفا التفتازانى طبع دار الكتاب اللبنانى ص ٧٦.

عيسى الإلبيرى المتوفى قبل ابن العريف بأكثر من قرن يدل على أن اسمه حُرِّف عند بلاسيوس، فأصبح محمدا بدلا من أحمد، ونفس لقبه الإلبيرى يدل بوضوح على أنه ليس من أهل المرية إنما هو من إلبيرة بجوار غرناطة، وفيها قضى حياته كما مرَّ بنا، وكان من أصحاب التصوف السنى بشهادة أشعاره وتلميذه أبى المطرف الشعبى.

أما أبو العباس بن العريف المتوفى سنة ٥٣٦ للهجرة فكان من أهل المرية حقا غير أنه لم يكن من أصحاب التصوف الفلسفى على نحو ما سيتضح فى ترجمتنا له عما قليل. وكان يعاصره فى إشبيلية ابن[١] بَرَّجان عبد السلام بن عبد الرحمن اللخمى المتوفى سنة ٥٣٦ وفيه يقول ابن الأبار: «كان من أهل المعرفة بالقراءات والحديث والتحقق بعلم الكلام والتصوف مع الزهد والاجتهاد فى العبادة وله تآليف مفيدة، منها تفسير للقرآن لم يكمله وشرح الأسماء الحسنى» وله فى التصوف كتاب عين اليقين. وكان يعاصره أبو القاسم[٢] أحمد بن قسى، ويقول ابن حجر فى لسان الميزان إنه رحل إلى ابن العريف فى المرية، وعاد إلى موطنه فى مارتُلة بقرب باجة فى غربى الأندلس وكثر أتباعه من المريدين. وحين احتدمت الثورة على المرابطين فى أواخر العقد الرابع من القرن السادس الهجرى ثار عليهم مع مُريديه وغلب على شِلْب ولبْلة، وكاتب عبد المؤمن سلطان الموحدين ودخل فى طاعته وانقلب على واليه، وحاول الاستعانة بالنصارى، وشعر بحركته بعض من معه فقتل سنة ٥٤٦. وينسب ابن حجر إليه - كما ينسب إلى ابن بَرَّجان - تحريفهما لمعانى النصوص القرآنية وتأويلها بخلاف الظاهر. وله كتاب خلع النعلين وشرَحه فيما بعد ابن عربى. وكان تصوفه هو وابن بَرَّجان - مثل تصوف ابن العريف - تصوفا سنيا، إذ لم ينسب إليهم جميعا مترجموهم كلاما فى وحدة الوجود. وفى رأينا أن اعتناق بعض المتصوفة الأندلسيين لهذه الوحدة تأخر إلى عصر الموحدين. وممن اعتنقها حينئذ أبو عبدالله الشوذى الإشبيلى الملقب بالحلوى، ولى القضاء بإشبيلية فى دولة الموحدين، ثم خلص للتصوف ومزجه بالفلسفة، وقال بوحدة الوجود[٣]. وأهم تلاميذه ابن دهاق إبراهيم بن يوسف الأوسى المالقى المتوفى سنة ٦١١ وفيه يقول ابن الأبار: «كان فقيها مشاورًا غلب عليه علم الكلام، فرأس فيه واشتهر به، وله تآليف منها شرح الإرشاد فى علم الكلام

---

(١) انظر فى ابن برجان التكملة ص ٦٢٥ وابن شاكر فى الفوات ٥٦٩/١ ولسان الميزان لابن حجر (طبع حيدر آباد) ١٣/٤. وبالنتيا ص ٣٣٢، ٣٧٣.

(٢) راجع فى ابن قسى لسان الميزان ٢٤٧/١

(٣) انظر فى الشوذى وطريقته الصوفية وقوله بوحدة الوجود كتاب ابن سبعين ٧١ - ٧٥.

لأبى المعالى الجوينى إمام الحرمين، وكتاب فى مسائل الإجماع وشرح على محاسن المجالس لابن العريف، سكن مرسية وتجول فى غير بلد، وكان يعتنق رأى أستاذه فى وحدة[١] الوجود.

ونلتقى بمحيى الدين بن عربى، وهو أشهر متصوفة الأندلس، وسنخصه بترجمة قصيرة، وظهر فى إثره ابن سبعين[٢] عبد الحق العكى المولود بمرسية سنة ٦١٤ لأسرة كانت على حظ من الجاه والنعمة، وأكب فى بدء حياته على علم المنطق والفلسفة الإلهية والعلوم الطبيعية والرياضية ونظر فى أصول الدين على طريقة الأشعرية كما نظر فى كتب التصوف لابن دهاق وغيره، وانتقل إلى سبتة سنة ٦٤٠، وبها أخذ يدعو لعقيدته الصوفية، وتبعه كثير من الفقراء والعبّاد، وتصادف أن أرسل فردريك الثانى صاحب صقلية إلى علماء سبتة أسئلة فلسفية آملا منهم فى الإجابة عليها، وانتدب ابن سبعين للرد عليها، وكانت ردوده مقنعة حاسمة، مما جعل فردريك يشكره عليها، وظل علماء الغرب يهتمون بها اهتماما واسعا، وأكبَّ حينئذ على كتب المتصوفة يستوعبها، واستقامت له فى التصوف عقيدة ظل يدافع عنها بقية حياته، دافع عنها أمام علماء سبتة، حتى إذا ضيّقوا عليه الخناق غادر سبتة إلى بجاية وأقام بها فترة ثم نزل تونس وجادله علماؤها حتى اضطر إلى مغادرتها. ونزل القاهرة، ولم يطب له المقام - على ما يبدو - فى مصر، فغادرها فى أوائل العقد السادس من القرن السابع، ونزل مكة وجاور بها بقية حياته إلى أن توفى سنة ٦٦٩ وبها عُقدت صلة وثيقة بينه وبين حاكمها الشريف أبى نُمَىّ محمد الأول (٦٥٤ - ٧٠٢ هـ). وألف ابن سبعين مصنفات ورسائل متعددة، وأهم مصنفاته: الإحاطة وبدّ العارف وسماه صاحب الفوات: «ما لابد للعارف منه» وكأنه أراد أن يشرح المراد بالعنوان، وله بجانب ذلك مصنفات فى آداب السلوك والرياضات العملية، ومن أهمها رسالة العهد ورسالة الفقيرية التى يصور فيها معانى الفقر الصوفى وآدابه، وله رسائل فى علم الحروف. وهو بدون ريب صاحب عقيدة صوفية تابعه فيها فرقة صوفية نسبت إليه فسميت السبعينية، وتهمنا عقيدته فيما يتصل بوحدة الوجود إذ غالى فيها غلوا مفرطا بإيمانه بالوحدة المطلقة، بمعنى أنه لا وجود سوى وجود الله فهو عين الخلق وهو عين

---

(١) راجع فى ابن دهاق التكملة (البقية المطبوعة فى الجزائر) ص ٢٠٠ والإحاطة وراجع كتاب ابن سبعين (انظر الفهرس) ومقدمة ابن خلدون ٣/١١٠٦

(٢) انظر فى ابن سبعين فوات الوفيات ١/٥١٦ والبداية والنهاية ١٣/٢٦١ ولسان الميزان ٣/٣٩٢ والنفح ٢/١٩٦ والعقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين للفاسى ٥/٣٢٦ وشذرات الذهب ٥/٣٢٩ وكتاب ابن سبعين وفلسفته الصوفية للدكتور أبى الوفا التفتازانى.

الكون والسموات والأرض، وهو صورة كل موجود. وهو ما جعل الفقهاء والعلماء فى كل مكان يأخذون على يده إذ يجعل حقيقة الوجود بين الله وعباده واحدة، فالله فقط وليس فى الكون سواه، وفى ذلك يقول فى كتابه الإحاطة:

من كان يبْصِر شأنَ الله في الصُّوَرِ … فإنَّه شاخصٌ فى أنْقَص الصُّوَرِ
بل شأنُهُ كَوْنُهُ، بَلْ كَوْنُهُ كُنْهُهُ … لأنُّه جملةٌ من بَعْضِها وَطَرِى
إيهِ فـأبْصـرَنى إيـهِ فـأبصِـرُهُ … إيهِ فلِمْ قلتَ لى: ذا النَّفْعُ فى الضُّرر

والأبيات تحمل فكرته، فالله تُرى صوره فى كل شيء: جميل وقبيح وضخم وصغير، وشأنه أو وجوده الكون، والكون كونه وحقيقته، وابن سبعين صورة منه، وكل ما فى الكون من نفع وضرر وخير وشر من صور الله المنبثة فى الوجود وكل موجود. وهو غلو مفرط يباعد بين صاحبه وبين الدين الحنيف مما جعل العلماء والفقهاء فى عصره وبعد عصره يردون عليه ردودا عنيفة مثبتين عليه الإلحاد والزندقة. وحاول كثيرون من أتباعه الدفاع عنه وأن لكلامه ظاهرا وباطنا وأنه ينبغى أن لا يحكم عليه بظاهر أقواله. وممن اشتهر بأنه من أتباعه أبو الحسن الششترى الصوفى المعروف، وسنرى فى ترجمتنا له أنه ينفصل عنه فى اعتقاده بوحدة الوجود. وكأنما بلغت هذه النظرية الذروة عند ابن سبعين، وأخذت سريعا فى الانكسار، فإننا نجد كثرة المتصوفة – وخاصة فى الأندلس والمغرب – تعتنق التصوف السنى.

ومن أهم المتصوفة الأندلسيين بعده ابن عباد[١] الرُّندى أبو عبد الله محمد بن إبراهيم النفزى المولود بُرُندة سنة ٧٣٣ وبها منشؤه ومرباه. ورحل منها مبكرا وتجوَّل فى بلدان المغرب، وأقام فى سلا على المحيط سنوات طويلة ملازما للشيخ الزاهد الصوفى ابن عاشر أحمد بن عمر، وتحول عنه إلى فاس فاختير فيها إماما وخطيبا لجامع القرويين، ويقول صاحب نفح الطيب إنه كان صوفيا على طريقة الشاذلية، وهى من طرق التصوف السنى، وفى الجزء السادس من هذه السلسلة بمصر حديث مفصل عن هذه الطريقة وأستاذها أبى الحسن الشاذلى وتلميذه أبى العباس المرسي ومريده أو تلميذه ابن عطاء الله السكندرى. ومن أكبر الدلالة على أن ابن عباد الرندى كان شاذليا أن أهم مصنفاته شرحُه كتابَ الحِكَم لابن عطاء الله السكندرى، وهى أقوال وخواطر وعظية بليغة. وكان يعاصره لسان الدين بن الخطيب، وله كتاب روضة التعريف بالحب الشريف، وفيه يعرض

---

(١) انظر فى ابن عباد الرُّنْدِىّ الإحاطة ٣/٢٥٢.

الاتجاهات الصوفية ومسائل التصوف الكبرى من وحدة الوجود والاتحاد والحلول ونظرية المعرفة والمحبة الإلهية وغير ذلك. ونشعر أن نفسه أُشْرِبتْ منازع التصوف السنى، وينعكس ذلك عنده فى بعض القصائد وبعض المقطوعات، وهى جميعا إلى أن تكون خواطر صوفية أقرب منها إلى أن تكون تصوفا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، ولا ينطبق ذلك على أشعاره فى الكتاب وحدها بل أيضا على ما يماثلها فى ديوانه: «الصيِّب والجهام والماضى والكهام». وبالمثل ينطبق على ما نجد عند ابن خاتمة معاصره وغيره من قصائد وأبيات تحمل أصداء صوفية، لاتساع رنين التصوف منذ أواسط القرن السابع الهجرى فى كل بلد وكل دار. وحرىٌّ بنا أن نقف قليلا عند ابن العريف وابن عربى والششترى.

ابن[1] العريف

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى الصنهاجى الأندلسى، ولد بالمرية على البحر المتوسط سنة ٤٨١ وبها كان منشؤه ومرباه حفظ القرآن الكريم - مثل أترابه - فى صباه، وعكف فى شبابه على قراءات الذكر الحكيم والأخذ عن الشيوخ فى التفسير والحديث النبوى والفقه والدراسات اللغوية والأدبية. وأقرأ الطلاب فى المرية ثم فى سرقسطة، ووَلِىَ الحسبة ببلنسية ويقول ابن بشكوال: «كانت له مشاركة فى أشياء من العلوم وعناية بالروايات وجَمْع القراءات واهتمام بطرقها وحَمَلتها». وأكبَّ على قراءة كتب التصوف، وإذا هو يصبح صوفيا كبيرا، ولا يكتفى بتصوفه، بل يؤلف فيه بعض كتب[2]، لم يبق منها إلى اليوم سوى كتابه: «محاسن المجالس» وقد نشره آسين بلاسيوس سنة ١٩٣١ وفى نفس السنة نشر عنه دراسة فى مجلة جامعة مدريد، وأعيد نشرها فى أعماله المختارة، وعُنى الدكتور الطاهر مكى بنقلها إلى العربية، وهو فيها يتحدث عن حياة ابن العريف وكتابه «محاسن المجالس» ويحلله تحليلا دقيقا ملاحظا أن طريقته الصوفية تقوم على الزهد فى كل ما عدا الله ومحبته، بما فى ذلك الزهد فى المنازل الصوفية العشرة، وهى المعرفة والإرادة والزهد والتوكل والصبر والحزن والخوف والرجاء والشوق والشكر، فلا معرفة سوى معرفة الله، ولا إرادة مع إرادته. ولا زهد فى شىء، لأن الصوفى لا يتعلق

---

(١) انظر فى ترجمة ابن العريف وشعره الصلة لابن بشكوال ص ٨٤ والبغية ص ١٥٤ والمطرب ص ٩٠ والتحفة لابن الأبار رقم ٨ ومعجم الصدفى ١٤ والمغرب ٢/٢١١ والنفح ٣/٢٢٩ و ٤/٣٣١ وراجع كتاب دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة للدكتور الطاهر مكى (طبع دار المعارف) وترجمته فيه لدراسة آسين بلاسيوس عن ابن العريف وكتابه محاسن المجالس.

(٢) ذكر المقرى من كتبه كتاب مطالع الأنوار ومنابع الأسرار.

إلا بربه غير مفكر فيما سواه، ولا توكل، لأنه يتخلص من كل تدبير لنفسه راضيا بكل ما يكون من تدبير ربه، ولا صبر لأنه ليس هناك ما يحتاج إلى صبر، إذ كل ما يسوقه الله تصحبه الرأفة والرحمة، ولا حزن لأنه لا يوجد شيء مما قدّره الله يوجب الحزن، ولا خوف من عذاب أو عقاب، ولا رجاء فى تحقيق شيء، ولا شوق إلى أى شيء، إذ الصوفى لا يرجو ولا يشتاق إلا ربه: ولا شكر إذ الصوفى لا يميز بين المنحة والمحنة أو النعمة والشدة. ومنزل واحد يتعلق به الصوفى هو المحبة للذات العلية والخلوص لله، بحيث لا يكون هناك أى شيء سواه، يقول: «إنما عين الحقيقة عند القوم أن يكون الصوفى قائما بإقامة الحق له، محسا بمحبته له، ناظرا بنظره له، من غير أن تبقى منه بقية تقف على رسم أو تُناط باسم، أو تتعلق بأثر، أو توصَف بنعت أو تنسب إلى وقت». وابن العريف بذلك كله يصور مدى اتصال الصوفى الحق بربه، بحيث لا يكون فيه أى شيء من فكر أو جسم سوى الفناء فى الله، وهو بكل ذلك صوفى سنى، ومن الخطأ الظن بأن فى تصوفه شبية من وحدة الوجود أو الاتحاد بالله، ومن طريف شعره الصوفى قوله:

سَلُوا عن الشَّوْقِ مَنْ أَهْوَى فإنَّهُمُ ... أَدْنى إلى النَّفْسِ من وَهْمى ومن نَفَسِى
مازلتُ - مذ سكنوا قلبى - أصونُ لهم ... لَحْظِى وسَمْعى ونُطْقى إذ هُمُ أُنسِى
فمَنْ رسولى إلى قلبى ليسألَهُم ... عن مُشكلٍ من سؤالِ الصَّبِّ مُلْتبِسِ
حَلُّوا الفؤاد، فما أَنْدَى! ولو وَطِئوا ... صَخْرًا لجاد بماءٍ منه مُنْبَجِسِ[١]
وفى الحَشَا نزلوا والوهمُ يَجْرَحُهُمْ ... فكيف قَرُّوا على أَذْكَى من القَبَسِ[٢]
لأنهضَنَّ إلى حَشْرِى بحبِّهِمُ ... لا باركَ الله فيمن خانهم فَنَسِى

وابن العريف يتحدث عن شوقه لربه، مع أنه أقرب إلى نفسه من وهمه وأنفاسه، ويقول إنهم مذ نزلوا قلبه يقصر عليهم لحظه وسمعه ونطقه، فهم كل أنسه. ويتساءل هل هناك من يبلغهم ما فى قلبه من صبابته وحبه ويقول: ما أروحهم على فؤاده، ولو وطئوا صخرا لتفجر منه الماء، وقد سكنوا فى حشاه المضطرم بحبهم، ويعجب منهم - والوهم يجرحهم - أن يسكنوا فى ناره المتقدة، ويقول إنه سيظل - إلى الحشر - وفيا بعهدهم وحبهم لا ينساهما أبدا. ويقول:

قِفَا وقفةً بين المحصَّبِ والحِمَى ... نُصافحْ بأجْفان العيونِ المَغَانيا[٣]

---

(١) منبجس: منفجر.

(٢) قرّوا: سكنوا واستراحوا.

(٣) المحصب: موضع رمى الجمار بمنى. المغانى: المنازل.

ولا تَنْسَيَا أن تَسْألا سَمُرَ الهَوَى ... متى بات من سُمْرِ الأسِنَّة عاريا[1]
فعهدى به والماءُ ينسابُ فوقَهُ ... سماءً وماءُ الوَرْدِ ينسابُ واديا
أقامَ على أطْلالهم ضوءَ بارقٍ ... من الحسن لا يُبْقى على الأرض ساليا

وهو يطلب من صاحبيه الوقوف بمنازل محبوبه القدسية: بالمحصب فى منى والحمى المكى ليصافح ببصره المغانى والمنازل وشجر الهوى والمحبة من الطلح الذى تعرَّى من سهامه وأسنته. ويقول إن عهده به والمطر ينسكب عليه من فوقه وماء الورد يجرى من تحته والنفوس معلقة بما فى الأطلال من ضياء الحسن الذى لا يستطيع أحد أن يسلوه. ويقول:

تمشَّى والعيونُ لـه سـوامٍ ... وفى كلِّ النفوس إليه حاجَه[2]
وقـد مُلئتْ غـلائلُه شُعـاعًـا ... كما مُلِئَتْ من الخمر الزُّجَاجه[3]

وهو يتغزل بمحبوبه مستخدما لغة الحب الإنسانى كما استخدمها فى الأبيات السابقة، فقد رحل والعيون كلها متطلعة إليه، والنفوس جميعا مفتقرة إلى رؤيته، وقد ملئت غلائله الكونية بأشعته. ولابن العريف بجانب ذلك مدائح فى الرسول الكريم سننشد منها أطرافا. وقد توفى سنة ٥٣٦ للهجرة.

ابن[4] عربى

هو أبو بكر محيى الدين محمد بن على بن عربى الطائى، ولد بمرسية سنة ٥٦٠ لأسرة تحظى بشىء من الثراء، وانتقل به أبوه فى صباه إلى إشبيلية، وبها نشأ نشأة علمية حفظ فيها القرآن الكريم، ودرس على أحد تلامذة مدرسة ابن حزم المذهب الظاهرىَّ فى الفقه، كما درس الحديث النبوى على شيوخه والآداب على معلميها وكتب لبعض الولاة، وتزوج بمريم بنت محمدبن عبدون الباجى، وكانت صالحة ورعة، فدفعته نحو الزهد والتقشف

---

(١) السُّمر: شجر الطلح.
(٢) سوام: شاخصة ومتطلعة.
(٣) الغلائل: جمع غلالة: الثوب الرقيق.
(٤) انظر فى ابن عربى التكملة رقم ١٠٢٣ وميزان الاعتدال للذهبى ١٠٨/٣ ونفح الطيب ١٦١/٢ والبداية والنهاية لابن كثير ٤٩/١٤ والعقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين (طبع القاهرة) ١٦٠/٢ والكتاب التذكارى لمحيى الدين بن عربى فى ذكراه المئوية الثامنة لميلاده (نشر وزارة الثقافة المصرية) وابن عربى: حياته ومذهبه لأسين بلاسيوس ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى (طبع القاهرة) وبالنثيا ص ٣٧١ وما بعدها.

والتصوف، فأخذ يجتمع بزهاد ومتصوفة كثيرين، فى مقدمتهم الزاهد أبو عمران موسى بن عمران المارتلى الذى مرّ ذكره بين الزهاد وأبو العباس العريانى المتصوف، ولزم نونة «فاطمة بنت ابن المثنى» الصوفية سنتين تابعا ومريدا، حتى إذا أشربت روحه كثيرا من الرياضات الصوفية خرج من إشبيلية يتجول فى الأرض، وهو فى نحو الثلاثين من عمره، واتجه إلى مرسية والمرية وهناك كتب رسالته الصوفية «مواقع النجوم» ثم رحل إلى المغرب واستقر فى فاس مدةً سنة ٥٩١ منصرفا إلى رياضته الصوفية. وقام بسياحات متعددة فى نواحى المغرب فى مراكش وغير مراكش، ونزل بجاية ولزم أبا مدين الصوفى فترة معجبا بطريقته الصوفية. وألم بتونس وفيها صنف كتابه: «الدوائر الإحاطية فى مضاهاة الإنسان للخالق». وفى سنة ٥٩٨ رحل لأداء فريضة الحج ونزل مكة وتعرف فيها على مكين الدين أبى شجاع زاهر بن رستم الأصفهانى إمام مقام إبراهيم بالمسجد الحرام، وحضر دروسه وسمع عليه الجامع الصحيح فى الأحاديث النبوية للترمذى، وتوثقت بينهما العلاقة، وكانت لهذا الشيخ فتاة جميلة اسمها نظام، فشغف بها ابن عربى حين رآها ونظم فيها ديوانه «ترجمان الأشواق» متخذا منها ومن غزله فيها رمزا لحبه الربانى ومواجده الصوفية، وكتب حينئذ كتابه: «الدرة الفاخرة» فى تراجم شيوخه من الصوفية، وفيه أشاد بشيخه أبى مدين وطريقته. وبارح مكة إلى بغداد والموصل سنة ٦٠١ وأخذ يتجول فى البلدان، ونجده بالقاهرة سنة ٦٠٣ وجادله فقهاؤها فيما يفهم فى أقواله من فكرة وحدة الوجود واتهموه بالمروق من الدين، غير أن السلطان العادل الأيوبى حماه منهم. ويتجه إلى الأناضول ويعجب به كيكاوس ملك قونية، ويؤلف مصنفيه: «مشاهد الأسرار» و«رسالة الأنوار». وينزل بغداد سنة ٦٠٨ ويلتقى بشهاب الدين السهروردى الصوفى السنى، ويتوجه إلى مكة للحج سنة ٦١٠ ويؤلف شرحا على ديوانه ترجمان الأشواق يسميه ذخائر الأعلاق، وفيه يوضح المعانى الصوفية التى تضمنتها أبيات الديوان. ويعود إلى الأناضول وينزل حلب ويحتفى به سلطانها الظاهر غازى، ويؤلف كتابه: «الحكمة الإلهامية». وفى سنة ٦٢٠ يختار دمشق دار إقامة له حتى وفاته سنة ٦٣٨ وفيها ألف «فصوص الحكم» و«الفتوحات المكية» وأذاع ديوانا له، وظل مشغولا بالتأليف حتى الأنفاس الأخيرة من حياته.

وكان ابن عربى مكثرا من التأليف حتى يقال إن مؤلفاته ورسائله بلغت نحو أربعمائة، وعنده أن العلوم ثلاثة أنواع: علم العقل ويشمل العلوم المعروفة، وعلم الأحوال ويدرك بالذوق، وعلم الأسرار وهو فوق العلمين السابقين مما ينفث به الروح القدس فى الروع

ويختص به الأنبياء والأولياء. وأهم من ذلك عقيدته فى وحدة الوجود، وهى التى ملأت كتاباته وأشعاره بالألغاز، واختلف إزاء عباراتها العلماءُ من معاصريه ومن جاء بعدهم، فمنهم من قال إن لها باطنا سوى ظاهرها وتأوَّلها، ومنهم من قال بمروقه من الدين الحنيف لمثل قوله: «إن الحق المنزَّه (أى الله) هو الخلق المشبَّه» و «إن العالم صورة الله وهوية الله». وربما كان ابن تيمية أكثر خصومه إنصافا له إذ قال إنه أقرب الصوفية القائلين بوحدة الوجود إلى الإسلام، فإنه يفرق بين الظاهر والمظاهر ويقر الأمر والنهى والشرائع على ما هى عليه ويأمر فى السلوك بكثير مما أمر به المشايخ من الأخلاق والعبادات»[1]. ويمكن أن تؤوَّل العبارتان السالفتان اللتان جعلتا كثيرين يحملون عليه حملات شعواء بسببهما أنه إنما يريد أن الله المنزَّه عن الشبه بالخلق يتجلَّى فيهم كما يتجلى فى العالم بتكوينه له وخلقه. وبالمثل عباراته الأخرى الموهمة التى إن أُخذت على ظاهرها ظُنَّ به المروق من الدين والضلال، بينما لو أخذت بباطنها حُملت على الإيمان والعرفان، وهو ما جعل كثيرين من معاصريه ومن جاء بعدهم يدافعون عنه. وقد سمع على الشيوخ بجانب صحيح الترمذى السالف صحيح مسلم وصحيح البخارى، وأجاز له السلفى فى الإسكندرية أن يحدث عنه، وأجازه ابن الجوزى فى بغداد وابن عساكر فى دمشق، وهم جميعا من كبار المحدثين فى عصره سوى شيوخ كثيرين. وبجانب هذه الشعبة الكبيرة فى عقيدته: شعبة وحدة الوجود تتراءى شعبة ثانية كبيرة هى شعبة المحبة الإلهية، وقد صورها مبكرا فى ديوانه: «ترجمان الأشواق» ومن يقرؤه حسب ظاهره يظن أنه غزل صَبٍّ عاشق لنظام - كما يقال - فتاة الشيخ مكين الدين إمام مقام إبراهيم فى الحرم المكى، إذ يصف جمالها وفتنته به ودارها والأطلال والمنازل ودلالها ومراشفها ولوعته وحرقة فؤاده بحبها وسهام عيونها وفتور أجفانها وكأننا بإزاء شاعر من شعراء الغزل العذرى على شاكلة قوله:

مَرضِى من مَرِيضة الأَجْفانِ ... عَلِّلانى بِذِكْرِها عَلِّلانى

بأبِى طفلةٌ لَعُوبٌ تَهادَى ... من بنات الخُدُورِ بين الغَوانى

طلعتْ فى العِيانِ شمسًا فلمَّا ... أَفَلَتْ أَشْرَقَتْ بأُفْقِ جَنانِى

بِأبِى ثُمَّ بِى غزالٌ رَبِيبٌ ... يَرْتَعِى بين أضْلُعِى فى أمانِ

فهو محب موجع الفؤاد أو هو مريض مرضا لا يرجى له منه شفاء لما وقع فى قلبه من

---

(١) انظر مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية (طبع دار المنار) ١/١٧٦.

حب هذه الفتاة أو هذه الطفلة اللعوب التى رآها تتبختر بين الغوانى الجميلات. وحين رآها ظنها شمسا فقد ملأت كل ما حوله وكل ما فيه من جَنان أو عقل وغير عقل واستقر حبها فى قلبه وملك عليه كل شيء من أمره. وإنه ليفدى بروحه هذا الغزال المصون الذى يرعى بين أضلعه فى قلبه وسويداء فؤاده. والديوان كله - على هذا النحو - غزل وصبابة لا سبيل إلى إطفائها إذ تستمد من وجد ملتاع مايزال ابن عربى يذوق ناره المحرقة، وليست نار الفتاة نظام، وإنما هى نار المحبة الربانية، وإلى ذلك يشير فى الديوان منشدا:

كلُّ ما أذكرهُ من طَلَلٍ   أو ربوعٍ أَوْ مَغانٍ كلُّ ما
أو نساءٍ كاعِباتٍ نُهَّدٍ   طالعاتٍ كشموسٍ أَوْدُمَى
صفةٌ قُدْسِيَّةٌ عُلْوِيَّةٌ   أعلمتْ أَنَّ لصدقى قَدَمَا
فاصْرِفِ الخاطرَ عن ظاهِرها   واطلبِ الباطنَ حتى تَعْلَما

وهو لا يذكر فى القصيدة الطلول والربوع والمغانى أو المنازل والنساء المشرقات كالشموس والدمى فحسب، بل يذكر أيضا: نجدًا وتهامة والسحب تبكى والزهر يبتسم والمواضع النجدية مثل الحاجر وورق الحمام وأنينها والبروق والرعود والرياح والطرق والجبال والتلال والعقيق والنُقا والرُّبى والرياض والغياض، وكل ذلك حين يذكره صفات قدسية علوية يتخذها رموزا لبيان حبه الربانى وأسراره وأنواره فى فؤاده، وهو حب يتسع به حتى ليشمل أصحاب الديانات جميعا، إذ يقول:

لقد صار قَلْبِى قابلا كلَّ صُورَةٍ   فَمَرْعىً لِغِزْلانٍ وَدَيْرٌ لرُهْبانِ
وبيْتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائفٍ   وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قرآنِ
أدينُ بدين الحُبِّ أَنَّى تَوَجَّهَتْ   رَكائبُهُ فالحبُّ دِينى وإيمانى

فدينه الحب الذى يسع جميع الديانات السماوية والوثنية، ولعل هذه شطحة من شطحاته الصوفية، إذ لا يمكن أن يصبح الناس أمة واحدة فضلا عن أن يكون دينها المحبة. وله بجانب أشعاره موشحات صوفية، وتميزها نفس العذوبة والسلاسة اللتين نجدهما فى شعره كقوله فى إحدى موشحاته:

يقول والوَجْدُ   أضناه والبُعْدُ   قد حيَّرهْ
وهيَّم العَبْدُ   والواحد الفَرْدُ   قد خَيَّرَهْ
فى البَوحِ والكتمان   والسرِّ والإعْلانِ   فى العالَمين

وفى الحق أنه كان صوفيًا كبيرًا، وقد لقبه تلاميذه ومريدوه بالشيخ الأكبر، وسميت طريقته الطريقة الأكبرية.

الششترى[1]

هو أبو الحسن علي بن عبد الله النميري، ولد بقرية شُشْتر من عمل مدينة وادى آش فى إقليم غرناطة لأسرة ذات جاه وثراء. بدأ حياته بحفظ القرآن الكريم وجوَّده، وعُنى بتفسيره والوقوف على معانيه، كما عنى بدراسة الفقه المالكى، حتى نُعت بالفقيه وعروس الفقهاء. وأخذ يكبُّ فى شبابه على دراسة التصوف ولقَاء المتصوفة، حتى استوعب وتمثل كثيرا من الرياضات الصوفية، وسرعان ما أخذ بمبادئهم فى السياحة والتجول فى البلدان، فطاف ببعض البلاد الأندلسية ثم عبر الزقاق إلى البلاد المغربية، وظل بها متجولا فترة غير قليلة، تلمذ فى أثنائها لأبى مدين المتوفى سنة ٥٩٢ وربما لم يلقه، فأخذ طريقته عن تلاميذه ومريديه. وكان صوفيا سنيا، وشاعت طريقته الصوفية - منذ حياته - فى البلدان المغربية، وملأت - فيما يبدو - نفس الششترى فاعتنقها. ولقى ببجاية ابن سبعين وعرف منه ابن سبعين أنه ذاهب إلى أصحاب أبى مدين فقال له: إن كنت تريد الجنة فسِرْ إليهم وإن كنت تريد رب الجنة فهَلُمَّ إلىّ. وظل طويلا معجبا بابن سبعين حتى كان يعبر عن نفسه فى بعض منظوماته بعبد ابن سبعين، ويقال إن ابن سبعين قال له: لن تدخل فى طريق الصوفية إلا إذا تجردت من متاعك وثيابك ولبست قشبانية الصوفية (يريد رقعهتم البالية) وحملت فى يدك بنديرًا (يريد علم الدراويش) ودخلت السوق بهذه الصورة وبدأت بذكر الحبيب. فصنع كما رسم له ابن سبعين، وظل فى السوق ثلاثة أيام يغنى بخواطر المتصوفة منشدا:

شويخ من أرض مكناسْ   فى وسط الأسواق يغنى[2]
اش علىّ من النــاسْ   واش على الناس منى

واتجه إلى مصر، وأقام بالإسكندرية فترة تعرَّف فيها على الشيخ أبى الحسن الشاذلى

---

(١) انظر فى الششترى وترجمته وأشعاره وموشحاته وأزجاله نفح الطيب ١٨٥/٢، ٢٠٥ والإحاطة ٢٠٥/٤ وعنوان الدراية للغبرينى ص ١٤٠ وما بعدها ونيل الانتهاج للتنبكتى والرسائل الكبرى لابن عباد الرندى (طبع فاس) ص ١٩٧ وراجع فى أشعاره وموشحاته وأزجاله ديوانه بتحقيق د. على النشار (طبع الإسكندرية).

(٢) مكناس: مدينة بالمغرب بينما بجاية مدينة ساحلية بالجزائر.

صاحب الطريقة الشاذلية وتلميذه أبى العباس المرسى وحمل عنهما طريقتهما، وبذلك يعترف فى بعض أزجاله قائلا: «شيوخى هم الشاذليَّه» وحج مرارا وكان كلما حجَّ طوَّف فى العراق والشام ثم عاد إلى مصر. ويذكر مترجموه أنه لقى ابن إسرائيل تلميذ ابن عربى فى الشام سنة ٦٥٠ كما لقى أصحاب عمر السهروردى البغدادى المتصوف السنى المشهور مؤلف كتاب عوارف المعارف. وفى أوبة له من الشام إلى ساحل دمياط سنة ٦٦٨ توفى بقربها ودفن بمقبرتها، وقبره بها. وعليه شاهد يحمل اسمه. وكان لقاؤه لابن سبعين وإعجابه به وذكره لاسمه فى موشحاته وأزجاله مثنيا منوها سببا فى أن يظن بعض معاصريه ومن جاء بعدهم أنه كان - مثله - يؤمن بوحدة الوجود المطلقة، وهو منها براء، إذ بدأ حياته على طريقة أبى مدين المغربى الصوفية السنية، وانتقل منها فى مصر إلى طريقة أبى الحسن الشاذلى الصوفية السنية، فهو صوفى سنى، وفيه يقول الغبرينى: «الشيخ الفقيه الصوفى الصالح العابد، من الفقراء (يريد الصوفية) المنقطعين، له معرفة بالحكمة ومعرفة بطريقة الصالحين الصوفية» ونوَّه به ابن عباد الرندى الشاذلى فى رسائله الكبرى، كما نوه به من صوفية الشاذلية أحمد زروق شارح قصيدته:

أرى طالبًا منا الزيادةَ لا الحُسْنَى   بفكْرٍ رَمَى سَهْمًا فعدَّى به عَدْنا[1]

إذ نقل عنه التنبكتى فى كتابه نيل الابتهاج نعته له بقوله: «الشيخ العارف أحد الصوفية من أبناء الملوك ثم صار من سادات الصوفية، كان يُقْرَأُ عليه القرآن والسنن، عارفا بالحديث، وأما علم الأسرار والأنوار والحكم والأذواق فحاز فيه قصب السبق». ويقول المقرى فيه: عروس الفقهاء وإمام المتجردين وبركة لابسى الخرقة الصوفية.. كان مجوِّدًا للقرآن قائمًا عليه عارفًا بمعانيه، من أهل العلم والعمل، جال فى الآفاق ولقى المشايخ، وحج حجات، وآثر التجرد والعبادات، وصنَّف كتبًا مختلفة، منها: «العروة الوثقى» و«المقاليد الوجودية فى الأسرار الصوفية» و«الرسالة القدسية فى توحيد العامة والخاصة» و«المراتب الإيمانية والإسلامية والإحسانية». ومن شعره قوله:

لقد بَهِتُّ عُجْبًا بـالتجرُّد والفَقْـر   فلم أَنْدَرِج تحتَ الزمانِ ولا الدَّهْرِ
وجـاءتْ لقلبى نَفْحَـةٌ قُـدُسيَّـةٌ   فغبتُ بها عن عالم الخَلْق والأَمْرِ
وصلتُ لمن لم أنفصلْ عنه لحظةً   ونزَّهت من أعنى عن الوصل والهَجْرِ

(١) الحسنى وعدن: الجنة. الزيادة: مقام المحبة الصوفية.

وما الوَصْفُ إلا دونه غيرَ أنني أُرِيدُ به التشبيب عن بَعْض ما أدْرى
وذلك مثلُ الصَّوْتِ أيقظَ نائمًا فأبْصَرَ أمْرًا جلَّ عن ضابطِ الحَصْرِ
فقلتُ له الأسماءُ تبْغى بيانَهُ فكانتْ له الألفاظُ سِتْرًا على سِتْرِ

وهو يتيه عجبًا وزهوًا بالاجتهاد فى العبادة والإمامة لفقراء الصوفية. فلا يهمه أى شىء مما يتعلق به الناس من جاه السياسة ومتاع الحياة، فحسبه نفحة قدسية امتزجت بقلبه، فغاب عن الكون وكل ما فيه من عالم الخلق والتدبير. ويقول وصلتُ إلى رضوان الله ومحبته، ويستدرك فإنه غنىٌّ عن الوصل والهجر ولا وصف يحيط به، وما تشبيبى وغزلى إلا بعض ما أشعر به، وكأنى مثل نائم أيقظه صوت فأبصر من جلال الله ما يجلّ ويعظم عن الحصر، وحتى أسماؤه الحسنى لا تجلو هذا الجلال، إذ لا تحيط به ألفاظ، بل لكأنما الألفاظ تضيف دونه حجابًا إلى حجاب، وله فى إحدى موشحاته:

خلعتُ عِذار عشقىِ فى غرامى وهِمْتُ وقد حَلا عندى هُيامى
بمن أهْوَى وكاسات المُدامِ
مذهبى دنّى لائمى دَعْنِى الهوى فَنّى
ببَذْلى فى الهَوَى روحى ومالِى عَشقتُ _ فما لعُذّالى ومالى

وهو يقول إنه لم يعد يتحفظ أو يتحشم فى غرامه، بل لقد أصبح يتهتك فيه، لا يستحى ولا يخجل، إذ جمع به هيامه بمن يهوى بل لقد حلاله هذا الهيام كما حلاله الإكباب على كاسات المدام حتى ينتشى بشراب المحبة الإلهية إلى أقصى حد ممكن، وهو ليس شرابًا عاديًا بل هو رحيق صاف، وهو يتخذ دنّه مذهبا له حتى يبّهج روحه وقلبه بهذا الحب الربانى الذى بذل فيه روحه وكل ما يملك، فما للعذّال اللائمين وماله. وقد اندلع فى فؤاده هذا الحب وإنه ليشرب رحيقه من دَن قدسى عظيم. ومن قوله فى موشحة ثانية:

يا حبيبى بحياتِك يا حبيبى
رِقَّ لى وانْظرْ لحالى أنتَ أدْرَى بالذى بى
أنتَ دائى ودَوَائى فتلطَّفْ يا طبيبى

وهى كلمات تكاد تطير من الفم طيرانًا لخفتها وعذوبتها وسلاستها. ولهذه السلاسة والعذوبة كان يكثر إنشاد شعره وموشحاته وأزجاله فى حلقات المتصوفة من شاذلية وغير شاذلية، ونوّه بها جميعًا مترجموه، يقول الغبرينى: «شعره فى غاية الانطباع والملاحة،

وتواشيحه ونظمه الزجلى فى غاية الحسن» ويقول ابن عباد الرندى: «فى موشحاته وأزجاله حلاوة، وعليها طلاوة».

(جـ) شعراء المدائح النبوية

طبيعى أن يتغنى شعراء الأندلس بمدائح الرسول صلى الله عليه وسلم، مثلهم فى ذلك مثل الشعراء فى جميع البلدان العربية الإسلامية، إذ هو المثل الكامل لكل مسلم فى تقواه ونسكه وورعه وامتثاله لأوامر ربه. وقد أخذت هذه المدائح تتكاثر فى الأندلس منذ عصر أمراء الطوائف الذى أصبحت فيه الأندلس دولاً وإمارات كثيرة، مما جعل نصارى الشمال ينشطون لاسترداد الأندلس، واستردوا طليطلة وبعض حصون وقلاع، وفرضوا على أمراء الطوائف المتنابذين إتاوات كانوا يؤدونها لهم خانعين. وهو ماجعل غير شاعر أندلسى يفزع إلى مديح الرسول الكريم آملاً أن تستمد الأندلس منه الأيد والقوة فى نضال أعدائها وأعداء الدين الحنيف. واتسع ذلك منذ القرن السادس الهجرى حتى أصبح المديح النبوىّ غرضًا كبيرًا من أغراض الشعر الأندلسى، ونحن نجده فى هذا القرن على لسان ابن السيد البطليوسى المتوفى سنة ٥٢١ وله فى مخاطبة مكة مهبط الوحى النبوى ورسولها الكريم شعر[١] طريف، وبالمثل نجده على لسان أبى عبدالله بن أبى الخصال كاتب يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، وله مع مديح الرسول مرثيتان[٢] فى مقتل الحسين بكربلاء. ويسوق المقرى فى الجزء الأخير من كتابه نفح الطيب لابن العريف الصوفى أشعارًا نبوية يذكر أنه نقلها عن كتابه: «مطالع الأنوار ومنابع الأسرار» ومن قوله فى إحداها:[٣]

وحَقِّـكَ يـامُحَمَّـدُ إنَّ قَلْبِى ... يحبُّك قُرْبَـةً نَحْـوَ الإلٰـهِ
جَرَتْ أمْواهُ حُبِّك فى فُؤادِى ... فهامَ القلبُ فى طيبِ المياهِ

فهو محب والهٌ للرسول عليه السلام، ويستمر قائلا إنه نال به فى دنياه فرحة وسرورًا، وسينال به فى أخراه جاهًا ونعيمًا إذ يحب محبوب الإله وصفيَّه، ويتذلل له فى بعض مدحه قائلاً إنه عبد مسترق له ويطلب منه العتق والرضا وأن يكون له ملاذًا وملجئًا. ويختم

---

(١) أزهار الرياض ١٤٧/٣ وما بعدها.
(٢) فهرست ابن خير ٤٢١.
(٣) انظر فى هذه القصيدة وتاليتها نفح الطيب ٤٩٧/٧.

المقرى اختياراته من كتابه بقصيدة له تفتتح جميع أبياتها بصلاة الله على النبي الهادى العظيم على هذا النمط:

صَلَّى الإلهُ على النبيِّ الهادى ... ما لاذت الأرواحُ بالأجسادِ
صلَّى عليه اللَّهُ ما اسودَّ الدُّجىَ ... فكسَا مُحيَّا الأفقِ بُـرْدَ حِدادِ
صلَّى عليه اللَّهُ ما انبَلَج السَّنا ... فابيضَّ وَجْهُ الأرضِ بعد سَوادِ

ويظل يدعو الله أن يصلى على رسوله ما هطلت السحب بالغيث وتغنى الطير على الأغصان، إذ خصَّه بالنور والإرشاد وخَتَم النبوةَ كتابُه الهادى. ولا تتضح عند ابن العريف فيما ساقه له المقرى من مديح نبوى فكرة الحقيقة المحمدية التى وجدت منذ الأزل ودارت حولها الأفلاك ودار الوجود، مما ردده بعض المتصوفة وبعض مداح الرسول فى المشرق، مما يؤكد ما قلناه من أن ابن العريف كان صوفيًّا سنيًّا. ونلتقى بأبى الحسن بن لبَّال وتشوقه[1] الحار إلى الروضة المقدسة الطاهرة لزيارة سيد ولد آدم، واشتهر صفوان بن إدريس بقصره[2] أمداحه على آل البيت وإكثاره من تأبين الحسين، ولابن المناصف محمد بن عيسى المتوفى سنة ٦٢٠ أرجوزة[3] فى مئات من الأبيات فى مديح الرسول. ونلتقى بمعاصره أبى زيد الفازازىّ وسنخصه بكلمة.

وحين اشتد الضعف بدولة الموحدين وأخذت المدن الأندلسية الكبيرة تسقط مدينة وراء مدينة فى حجر النصارى الإسبان الشماليين تكاثر المديح النبوى إذ اتخذه الشعراء الأندلسيون أداة للاستغاثة والاستنجاد بالرسول الكريم لإنقاذهم من محنتهم، وكانوا لا يكتفون بنظم الأشعار النبوية إذ كانوا يرفقونها برسائل إلى القبر النبوى الشريف واصفين ما يعانيه وطنهم من محن خطيرة، وسنلم بطرف من هذه الرسائل فى الفصل التالى مع الترجمة لابن الجنان المتوفى فى عشر الخمسين وستمائة، وقد أنشد له المقرى فى الجزء السابع من نفح الطيب طائفة رائعة من مدائحه النبوية، ويستهلها بمخمس[4]، بديع جعل شطره الخامس: «صَلُّوا عليه وسلِّموا تسليما» وفيه عرض عرضًا رائعًا سيرته المنيرة ومعجزاته الباهرة. وكان يعاصره إبراهيم[5] بن سهل الإشبيلى، وكان يهوديًّا

---

(١) المطرب ص ٩٠.
(٢) المغرب ٢/٢٦٠.
(٣) سماها الدرة السَّنية فى المعالم السُّنية. انظر التكملة ص٣٢٥.
(٤) نفح الطيب ٧/٤٣٢.
(٥) انظر فى ابن سهل مصادره فى ص٣٠٦ ومقدمة ديوانه لإحسان عباس طبع دار صادر ببيروت.

كما أسلفنا، ونشأ يقرأ ويدرس مع الشباب الإشبيلى المسلم ويختلط به، وشرح الله صدره للإسلام فأعلن فى بواكير شبابه إسلامه. وكان شاعرًا ماهرًا، وله ديوان طبع مرارًا، وبه قصيدة عينية تحمل تشوقًا إلى يثرب والحجاز، وأنشد له المقرى منظومة[1] نبوية بديعة لعله استلهم فيها مخمس ابن الجنان إذ جعل شطرها الخامس الذى تدور عليه نفس شطر ابن الجنان السالف وقد ختمها بقوله:

يا شوقىَ الحامى إلى ذاك الحِمَى
فمتى أقضّيــه غرامًــا مغــرمــا
ومتى أعــانقه صعيــدًا مكــرمــا

بضميرِ كل موحِّدٍ مُلْثِوما   صَلُّوا عليه وسلموا تسليما

ولأبى الحسن الرُّعَيْنى الإشبيلى المتوفى سنة ٦٦٦ قصيدتان حجازيتان وأخريان ربّانيتان[2]. ولحازم القرطاجنى المترجم له بين أصحاب الشعر التعليمى مدحتان[3] نبويتان بَنَى أولاهما على شطر له ثان من معلقة امرئ القيس وبنى الثانية بنفس النظام: شطر له وشطر من لامية امرئ القيس: «ألاعم صباحًا أيها الطلل البالى». ويلقانا فى كتاب الكتيبة الكامنة فى شعراء المائة الثامنة مدائح نبوية[4] لغير شاعر مثل ابن الصائغ وأبى جعفر بن جُزَىّ، وله مدحة على غرار مدحة حازم القرطاجنى الثانية.

وكان قد أصبح تقليدًا فى غرناطة أن يُحْتَفل بالمولد النبوى احتفالاً رسميًا كل عام وأن تُلْقَى فيه مدائح نبوية. وتسمى مولدية، وللسان الدين بن الخطيب طائفة من تلك المولديات، وهى مسجلة فى ديوانه والجزء الأول من أزهار الرياض والجزء الأخير من نفح الطيب، ودائمًا يبدؤها بالحنين إلى الحجاز، ثم يتغنى بفضائل الرسول ومعجزاته الباهرة، وينهى المولدية غالبًا بمديح السلطان الذى أقيم الاحتفال النبوى فى عهده، ومن تصويره لحنينه الملتاع إلى الاكتحال برؤية القبر الطاهر قوله:

إذا أنت شافهتَ الديار بطَيْبَةٍ   وجئتَ بها القبرَ المقدَّسَ واللَّحْدا
فَنُبْ عن بعيد الدار فى ذلك الحِمَىَ   وأذْرِ به دمعًا وعَفِّرْ به خَدًّا

(١) النفح ٧/٤٤٥.
(٢) الذيل والتكملة للمراكشى القسم الأول من الجزء الخامس ص ٣٦٤.
(٣) أزهار الرياض ٣/١٧٨ وما بعدها.
(٤) راجع الكتيبة الكامنة ص ٨٨، ١٣٤، ١٣٩، ٢٥١، ٣٠٣.

وكان يعاصره ابن جابر الأندلسى وسنخصه بكلمة ، وعاصرهما ابن خاتمة وفى ديوانه مدائح نبوية بديعة، وأنشد المقرى لابن زمرك مَوْلديات له فى الجزء الثانى من أزهار الرياض، ومن قوله فى إحداها مخاطبًا الرسول صلى الله عليه وسلم:

وأنت حبيبُ الله خـاتَمُ رُسْلِهِ — وأكرمُ مخصوصٍ بزُلفى ورضوانِ
وأنت لهذا الكون علة كَـوْنِهِ — ولولاك ما امتاز الوجود بأكوانِ
ولولاك للأفلاك لم تَجْلُ نَيِّرًا — ولا قُلِّدتْ لبَّـاتُهنَّ بِشُهْـبـانِ

وواضح أنه يقتبس من البوصيرى وأمثاله فكرة الحقيقة المحمدية وأن الله اصطفاه قبل نشأة الكون وأنه علة الوجود ومطلع النور فى الأفلاك. ولولاه ما سطعت فى لبَّاتها ومواضع القلائد من جيدها شهبانه وشعله النيرة. وحرى أن نتوقف قليلًا بإزاء أبى زيد الفازازى وابن جابر الوادى آشى.

أبو زيد[1] الفازازى

هو أبو زيد عبد الرحمن بن أبى سعيد بن يَخْلُفْتن، وُلد بقرطبة، وبها منشؤه، وبمجرد أن حفظ القرآن الكريم أكبَّ على حلقات الشيوخ يتزود من الحديث النبوى وروايته والفقه وأصوله وعلم الكلام واللغة والنحو والأدب والشعر، وتفتحت موهبته الأدبية مبكرة، وسال ينبوع الشعر متدفقا على لسانه، وعمل فى الدواوين الحكومية، وحظى بمكانة رفيعة عند أبى إسحق والى إشبيلية لأخيه الناصر الخليفة بمراكش (٥٩٢ - ٦٠٩ هـ) ولابن أخيه المستنصر (٦٠٩ - ٦٢٠ هـ) وعمل بدواوين عمه أبى العلاء إدريس فى ولايته على إشبيلية وقرطبة، وتطورت الظروف ونودى بأبى العلاء - وهو فى الأندلس - خليفة للموحدين بمراكش. وجاز الزقاق إلى عاصمته سنة ٦٢٦ واستقدم أبا زيد للعمل فى دواوين مراكش ولباه راضيا، ولم تكد تمضى بضعة أشهر حتى لبى نداء ربه سنة ٦٢٧ ويقول لسان الدين بن الخطيب فى ترجمته إنه كان فاضلا سُنيا شديد الإنكار والإنحاء على أهل البدع، وكان متلبسا بالكتابة عن الولاة والأمراء ملتزما بذلك مع كره له وحرصه على الانقطاع عنه..

ويقول لسان الدين أيضا عن أبى زيد إنه كان آية الله فى سرعة البديهة وارتجال النظم

---

(١) انظر فى ترجمة أبى زيد الفازازى التكملة رقم ١٦٤١ والإحاطة ٥١٧/٣ ونفح الطيب للمقرى ٥٠٧/٧ وما بعدها.

والنثر وفورَ مادة وموالاةَ استعمال. وله فى الزهد عملان: عمل طُبع بدار إحياء الكتب العربية فى القاهرة باسم «القصائد العشرية فى النصائح الدينية والحكم الوعظية» ولعلها هى التى سماها لسان الدين المعشرات الزهدية. ويقول إنه افتتحها بقوله: «المعشرات الزهدية، والمذكرات الحقيقية الجدية ناطقة بألسنة الوجلين المشفقين، شائقة إلى مناهج السالكين المستبقين، نظمها متبركا بعبادتهم، متيمنا بأغراضهم وإشاراتهم، قابضا عنان الدعوى عن مداناتهم ومجاراتهم..». والمعشرات قصائد تشتمل كل منها على عشرة أبيات فأكثر، منظومةً على جميع الحروف الهجائية. وكان له بجوار هذا الديوان ديوان ثان بنفس النسق نظمه فى العبادة والنسك وسماه: «المعشرات الحبِّيَّة» وافتتحها بقوله: «النفحات القلبية، واللفحات الشوقية، منظومة على ألسنة الذاهبين وجدا، الذائبين كمدا، نظم مَنْ نسج على منوالهم» وله يناجي ربه ويدعوه ضارعا:

إليكَ مددتُ الكفَّ فى كلِّ شِدَّةٍ ... ومنكَ وجدتُ اللُّطْفَ فى كل نائبِ
فحقِّقْ رجائى فيك يارَبِّ واكْفِنِى ... شماتَ عدوٍّ أو إساءةَ صاحبِ
وكم كُرْبَةٍ نَجَّيْتَنى من غِمارِها ... وكانتْ شَجًا بين الحَشَا والتَّرائبِ
فيامنجىَ المُضْطَرِّ عند دعائِهِ ... أغِثْنى فقد سُدَّتْ علىَّ مَذاهِبى

وسمَّى مجموعته فى المدائح النبوية «الوسائل المتقبِّلة» وأضاف: «والآثار المسلَّمة المقبَّلة مودَعة فى العشرية النبوية» نَظْم من اعتقدها من أزكى الأعمال، وأعدَّها لما يستقبله من مدهش الأهوال، وفرَّغ خواطره لها على توالى القواطع وتتابع الأشغال، ورجا بركة خاتم الرسالة، وغاية السؤدد والجلالة.. والله - سبحانه - ولىُّ القبول للتوبة، والمنَّان بتسويغ هذه المنة المطلوبة، فذلك يسير فى جنب قدرته، ومعهود رحمته الواسعة ومغفرته» ولعل هذه المجموعة هى نفسها المطبوعة فى دار إحياء الكتب العربية باسم «الوسائل المتقبلة فى مدح النبى ﷺ». وهى مخمسات على الحروف الهجائية من الهمزة إلى الياء، والمخمس قد يشتمل على عشرين دورا، وقد يقل عدد الأدوار فيه حتى أحد عشر، ومن قوله فى المخمس النونىّ عن رسول الله:

بدا قمرًا مَسْراهُ شرقٌ ومغربُ ... وخُصَّتْ بمَثْواهُ المدينةُ يثربُ
وكان له فى سُدَّة النورِ مَضْرِبُ ... نجِىٌّ لربِّ العالمينَ مقرَّبُ[1]
حبيبٌ فيدنو كلَّ حينٍ ويُسْتَدْنَى

---

(١) سدة النور: يريد بها سدرة المنتهى المذكورة فى سورة النجم وأن عندها الجنة التى تأوى إليها أرواح الشهداء والملائكة.

من العالَم الأعلى وماهو منهمُ ... شبيهٌ بهم فى الوصفِ زاكٍ لديهمُ
رحيمٌ بكلِّ الخَلْق دانٍ إليهمُ ... نَصيحٌ لأهل الأرض حانٍ عليهمُ
أضاء لهم صُبْحًا وصابَ لهم مُزْنا[١].

وهو يقول إن الرسول ﷺ قمر استضاءت بأشعة نوره المشارق والمغارب، وخُصَّت به داره يثرب، شرف لها ما بعده شرف، ونزل فى السماء، حين صعد إليها بمعراجه، عند سِدْرة المنتهى، نجيًّا لرب العالمين مقربا إليه حبيبا، بل أقرب محبوب إليه. وإنه لمن عالم الملائكة الأعلى وإن لم يكن منهم، لشبهه بهم فى الوصف وطهارته وإنه للرحمة المسداة إلى الخلق مع النصح الخالص لوجه ربه ومع الحنو والعطف، بل إنه شمس يضيء الوجود صبحا وينسكب عليه غيثا غدقا. ولأبى زيد وراء هذا الديوان نبويات كثيرة أنشد منها المقرى فى النفح شذورًا، من ذلك قوله فى الرسول:

تقدَّم كلَّ العالمينَ إلى مَدًى ... تظلُّ به الأوْهامُ ظالِعَةً حَسْرَى[٢]
وعفَّى رُسُومَ الكافرين وأهلَها ... فلا قَيْصَرٌ من بَعْد ذاكَ ولا كِسْرَى
وخُصَّ بتشريفٍ على الناسِ كلِّهم ... بنورِ سماءٍ ناقلوه عن الإسْرا
ترقَّى إلى السَّبْع الطِّباقِ ترَقِّيًا ... حَقِيقًا ولم يَعْبُرْ سَفِينا ولا جِسْرا
فسبحان مَنْ أسْرَى إليه بِعَبْدِه ... وبُورك فى السارى وبُورك فى المَسْرَى

وهو يقول إن الرسول ﷺ تقدم عند ربه إلى مدى لا تستطيع الأوهام أن ترتفع إليه مهما صعَّدت ومهما تلهفت. وقد محا رسوم الكفار كأن لم تكن شيئا مذكورا، فلا كسرى إذ سُلبت منه كل بلاده وأصبحت من ديار الإسلام، ولا قيصر فقد سُلبت الجوهرتان المتلألئتان فى تاجه: مصر والشام. وخصَّه الله بتشريف على الناس ما بعده تشريف، خصه بالإسراء ليلا إلى بيت المقدس وترقيه إلى السموات السبع ونزوله عند سدرة المنتهى يناجى ربه، فسبحان الذى أسرى بعبده. مرددا بذلك ما جاء فى أول سورة الإسراء. ويقول بورك فى الرسول السارى وفى المسرى والإسراء. ويردد أبو زيد فى مديحه النبوى معجزات الرسول المادية ومعجزته الكبرى الخارقة معجزة القرآن الكريم وبلاغته التى ليس لها سابقة ولا لاحقة، ودائما يذكر أنه خير الأنبياء وأفضلهم، وأكثرهم برا بأصحابه، ويحمل مرارا على أعدائه من الملحدين، ويقول إنهم انحرفوا عن شاطئ النجاة فترَدَّوا فى بحار هلاك ما بعده هلاك.

---

(١) المزن: السحاب الغدق الممطر.

(٢) ظالعة: عرجاء. حسرى: متلهفة.

ابن[1] جابر الأندلسى

هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن جابر الهوارى، من أهل المرية ولد بها سنة ٦٩٨ وحفظ القرآن واختلف إلى الشيوخ من مثل ابن أبى العيش فى العربية ومحمد بن سعيد الرندى فى الفقه وأبى عبدالله الزواوى فى الحديث. وكان كفيف البصر، ورأى أن يستتم ثقافته بالرحلة إلى الديار المصرية والشامية، وصحبه صديقه أبو جعفر أحمد بن يوسف الغرناطى، فكان ابن جابر ينظم وأبو جعفر يكتب. وحجا وعادا إلى الشام، وسمع ابن جابر بدمشق على شيوخ عصره، واتجه مع صاحبه فى سنة ٦٤٣ إلى حلب وتغلغلا شماليها حتى ماردين[2]، إذ يذكر ابن بطوطة فى رحلته عن سلطان ماردين ابن الملك الصالح أنه كان بحرا فياضا فى الكرم، يقصده الشعراء والفقراء من الصوفية فيجزل عطاياهم، ويقول إنه قصده أبو عبدالله محمد بن جابر الأندلسى الهوارى الكفيف مادحا، فأعطاه عشرين ألف درهم. وعاش طويلاً فى حلب وتوفى بإلبيرة سنة ٧٨٠. وقد أكثر من النظم فى المديح النبوى، وله فيه ديوان سماه «العقدين فى مدح سيد الكونين» وبالمكتبة التيمورية مخطوطة منه. وله بجانب ذلك مشاركة خصبة فى الشعر التعليمى إذ نظم فيه فصيح ثعلب وكفاية المتحفظ وغير ذلك، وله بديعية اشتهرت بين البديعيات، وهى قصائد فى المديح النبوى، عارض بها أصحابها - منذ صفى الدين الحلى - بردة البوصيرى الميمية، وأودعوا كل بيت فيها لونا - وأحيانا لونين - من ألوان البديع، وشرحها رفيقه فى رحلته أبو جعفر الغرناطى، واشتهرت باسم بديعية العميان وقد سماها: «الحلة السيرا[3] فى مدح خير الورى» وفى النفح طائفة كبيرة من نبوياته، منها مقصورة فى نحو ثلاثمائة بيت نقتطف منها قوله:

إنَّ رسولَ الله مصباحُ هُدًى ... يُهْدَى بِهِ مَنْ فى دُجَى الليل مَشَى
إنْ تَحْسَبِ الرُّسْلَ سماءً قد بَدتْ ... فإنَّه فى أُفْقِها نَجْمُ هُدَى
وإن يكونوا أنْجُمًا فى فَلَكٍ ... فإنَّه من بينهم بَدْرٌ بَدَا

---

(١) انظر فى ابن جابر وترجمته وشعره نكت الهميان ص ٢٤٤ والإحاطة ٣٣٠/٣ والدرر الكامنة لابن حجر ٤٢٩/٤ وشذرات الذهب ٢٦٨/٦ ونفح الطيب ٦٦٤/٢ - ٦٩٠، ٣٠٢/٧ - ٣٧٠.

(٢) ماردين: قرية بتركيا الآن.

(٣) السِّيرا: المخطَّطة خطوطا بديعة.

أحسنُ أخلاقًا من الرَّوْضِ إذا ما اختالَ فى بُرْدِ الصَّبا أوِ ارْتَدى
تَفْدِيه نَفْسى من شَفِيعٍ للوَرَى وقَلَّتِ النفسُ لَـهُ منِّى فِـدَا

وقد بدأ ابن جابر المقصورة بالغزل وضمنها فى تضاعيف المديح النبوى كثيرا من الخواطر والحكم، وفصَّل القول فى شمائل الرسول ومعراجه ومعجزاته، وتحدث عن الدهر وسطواته بأولى البأس والدول، كما تحدث عن حجه إلى البيت الحرام وزيارته بعده للرسول واكتحال عينيه بنور قبره، ويقول إنه ملاذه وعُدَّته وذخره لربه. وأنشد له المقرى مدحة من غرر مدائحه للرسول ورَّى فيها بسور القرآن الكريم، ويقول المقرى: لو لم يكن له فى مديحه سواها لكفى، وهى تمضى على هذا النحو:

فى كـلِّ فاتحةٍ للقول مُعْتَبرِه حقُّ الثَّناءُ على المبعوثِ بالبَقَرهْ
فى آل عِمْرانَ قِدْمًا شاع مَبْعَثُهُ رجالُهم والنساءُ استوضحوا خَبَرَه
من مدَّ للناس من نُعماه مائدةً عمَّتْ فليستْ على الأنْعام مُقْتَصِرَه
أعْرَافُ نُعْماهُ ماحلَّ الرَّجاءُ بها إلا وأنْفَالُ ذاك الجودِ مُبْتَدِرَه

والطريف أنه يُحْكم وضع اسم السورة فى مديح البيت ويلتحم بمعناه التحاما رائعا على نحو ما نرى من ذكره فى هذه الأبيات لسور الفاتحة والبقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال. وآل عمران آل السيدة مريم كما جاء فى السورة، والأنعام اسم السورة وهى الإبل، والأعراف كذلك اسم السورة، وهى فى البيت جمع عرف بمعنى المعروف. والأنفال اسم السورة وهى العطايا. واطردت هذه الدقة فى استظهار أسماء السور الكريمة فى جميع أبيات القصيدة. ويُهْدى فى نهايتها أزكى صلواته للرسول وعِتْرته وصحابته، وخصوصا عشرة منهم، ويسميهم، كما يهدى أزكى تحيتين للسيدتين الكريمتين خديجة وعائشة زوجتى الرسول ﷺ ولابنته فاطمة الزهراء وابنيها الحسن والحسين، ويقول انه سيظل يهدى كل من سماهم مدائحه. وله قصيدة مطولة فى فضائل الصحابة العشرة وآل البيت، ولكل علَمٍ منهم فى أبياتها حظ مقسوم. ونشعر دائما عنده أنه يستمد من نبع فياض لا يتوقف ولا ينقطع، بل يتدفق تدفقا غزيرا.

٥

شعراء الاستنفار والاستصراخ

أخذت قصائد الاستنفار والاستصراخ وطلب الغوث والعون تتكاثر فى الأندلس منذ عصر أمراء الطوائف، إذ انقسمت الأندلس الشامخة فى عصر الدولة الأموية إلى أندلسات ودول وإمارات كثيرة، وأخذ أولئك الأمراء يعيشون للهو والقصف، وقلما فكروا فى مصير الأندلس، وكثير منهم كانوا يحملون السلاح ويسدّدونه إلى صدور جيرانهم الأندلسيين وما يلبثون أن يغمدوه حين يشهر الحرب على أحد هؤلاء الجيران أعداؤهم من نصارى الشمال. وأكثر من ذلك كانوا يفدون أنفسهم وإماراتهم منهم بإتاوات سنوية يدفعونها لهم راغمين. وانتهز أولئك النصارى الفرصة وهذه الفرقة بين أمراء الطوائف فتنادوا باسترداد الأندلس، وكان أول ما حاولوا استرداده حصن بُرْبُشْتَر سنة ٤٥٦ الواقع بين مدينتى لاردة وسرقسطة ركنى الثغور الشمالية. فقد حاصره النورمانديون واستولوا عليه ونكّلوا بأهله ونسائه وفتياته تنكيلا بشعا، زلزل الأندلس وأطار من أهلها الأفئدة، وكان ممن أفزعه هذا الحادث الجلل، فقيه طليطلة الزاهد عبد الله العسال، فنظم قصيدة ملتهبة يستصرخ بها أهل الأندلس وفيها يقول[1]:

ولقد رمانا المُشركون بأسْهُمٍ	لم تُخْطِ لكنْ شأنُها الإصْماءُ[2]
كم موضعٍ غنموه لم يُرْحَمْ بهِ	طِفْـلٌ ولا شَيْـخٌ ولا عَـذْرَاءُ
ولكم رضيعٍ فرّقـوه من أمّه	فلَهُ إليهـا ضَجّـةٌ وبُغَـاءُ[3]
ولـربَّ مولـودٍ أبـوه مُجَـدَّلٌ	فوقَ التراب وفَرْشُهُ البَيْـدَاءُ
ومصونةٍ فى خِدْرها محَجْـوُبَةٍ	قد أبْرَزُوها ما لهـا اسْتِخْفَاءُ

وهو يقول إن المشركين رمونا بأسهم قاتلة، وغنموا مغانم ضخمة، لا تأخذهم شفقة ولا رحمة على طفل ولا على فتاة ولا على رضيع ينشد أمه ويصيح بها، ولقد هُتكت الحُرَم ونُهبت الفتيات، والدماء هناك مطلولة، وقد رُوّع سِرْب الله وفُلّ غَرْبه، وإن العين لتدمع وإن النفس لتتقطع. وكان ممن استثارتهم هذه النكبة وأقضّت مضاجعهم الفقيه أبو حفص

---

(١) الروض المعطار (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٤٠.

(٢) الإصماء: القتل.

(٣) بغاء: نشدان.

عمر بن الحسن الهوزنى ترْب المعتضد أمير إشبيلية ورفيقه فى شبابه، فكتب إليه يستصرخه[١]، ليرأب الصدع ويداوى الجروح، ونظم أشعارا يحض فيها الأندلسيين على جهاد العدو قبل أن يستفحل الخطب ويُعضل الداء من مثل قوله[٢]:

بَيَّتِ الشرُّ فلا يَسْتَنْزِلُ ... طَرَقَ النُّوَّامَ سِمْعٌ أزلُّ[٣]

فثبوا واخْشَوْشنوا واحْزَئلُوا ... كلُّ مارُزْءٍ سوى الدِّين قُلّ

بَدْءُ صَعْق الأرضِ نَشْءٌ وطَلٌّ ... ورياحٌ ثم غَيْمٌ أبَلُّ[٤]

يَدُنا العليا، وهم - وَيْكَ - شَلٌّ ... فلِمَ استرعى الأعزُّ الأذلّ[٥]

عجبُ الأيامِ ليثٌ صُمُلٌّ ... ذَعَرَتْهُ نَعْجَةٌ إذْ تَصِلُّ[٦]

وهو يصرخ فى كل أندلسى أن يعزم - بقوة - على الشر، فقد صكَّ مسامع النوام ذئب فاتك. وعليهم أن يثبوا بأعدائهم ويخشوشنوا ويتجمعوا لهم حتى يضربوهم الضربة القاضية. وإنه لينذر قومه فبدء الصواعق سحاب ينشأ وطل خفيف ورياح لينة، ثم غيم كثيف ورعود وبروق وعواصف مدمرة. ويحاول أن يملأ روح الأندلسيين حماسة ملتهبة، فيقول إننا كثرة غالية ولنا العز والبأس والمنعة، وأعداؤنا قلة ذليلة، فكيف دَهَى الأذلاء الأعزاء واستباحوا ديارهم، ويعجب أشد العجب من أن تفزّع نعجة لا حول لها ولا قوة بصوتها اللين الرخيم أسدا ضاريا بالغ الصلابة مفرط القوة. واستطاع أبو حفص الهوزنى وأضرابه من شعراء الأندلس أن يملئوا نفوس أهل سرقسطة غضبا لإخوانهم من أهل بربشتر، فلم يدر عام حتى انقضوا على النورمانديين ونكلوا بهم، واسترجعوا بربشتر، وغسلوها من وضرهم ورجسهم.

وكان فردناند ملك قشتالة قسم دولته بين أولاده الثلاثة: شانجه بقشتالة وألفونس بليون وأشتوريش وغرسية بجليقية والبرتغال، واختصم شانجه وألفونس وانتصر شانجه ففر ألفونس إلى دير، ثم لجأ إلى المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة، وبدلا من أن ينتهز الفرصة التى أمكنته من عدوه أنزله ببلده فى قصر وأكرمه لمدة تسعة شهور، درس فيها طليطلة ومداخلها ومخارجها. واغتيل شانجه، واستدعى القشتاليون ألفونس وأصبح

---

(١) الذخيرة ٢/٨٩.

(٢) الذخيرة ٢/٨٩.

(٣) سمع أزل: ذئب فاتك.

(٤) غيم أبل: غيم ممطر مطرا شديدا.

(٥) شل: يريد قلة.

(٦) صمل: شديد الخلق. تصل: تصيح بصوت لين رقيق.

ملكا عليهم وعلى ليون وجليقية والبرتغال. وكان أول ما أهمَّه الاستيلاء على طليطلة حتى يردَّ الدَّيْن الذي فى عنقه لبنى ذى النون! يقول ابن الخطيب: «وسُكْناه بطليطلة واطلاعه على عوراتها هو الذى أوجب تملك النصارى لها[1]». ولم يلبث أن استولى عليها - كما مر بنا فى غير هذا الموضع - سنة ٤٧٨ واستولى على جميع المدن والقرى التابعة لها من وادى الحجارة إلى طلبيرة وشنتمرية. وكان لذلك زلزلة ضخمة فى نفوس الأندلسيين. إذ استولى ألفونس لا على مدينة بل على قلعة ضخمة من أكبر قلاعهم. وانبرى شاعر كبير يحرض الأندلسيين على الأخذ بالثأر واسترداد تلك الجوهرة الكبيرة. بقصيدة تقطر غضبا وموجدة. وفيها يقول[2]:

طُلَيْطِلَةٌ أباح الكُفْرُ منها ... حِماها إنَّ ذا نَبأٌ كَبيرُ
ألم تَكُ مَعْقِلاً للدِّين صَعْبًا ... فذلَّله - كما شاءَ - القديرُ
فعادتْ دارَ كُفْرٍ مصطفاةً ... قد اضْطَرَبَتْ بأهليها الأمورُ
مساجدُها كنائسُ أىُّ قَلْبٍ ... على هذا يَقِرُّ ولا يطيرُ؟!
أُذِيلَتْ قاصِرَاتُ الطَّرْفِ كانتْ ... مَصُوناتٍ مساكنُها القصُورُ[3]

والنزعة الدينية قوية فى القصيدة. إذ كانت حرب الشماليين فعلا حربا صليبية. والشاعر جزع أن يسقط هذا المعقل الكبير للدين الحنيف. ولا يهبُّ أبناؤه لحمايته واستعادته. حتى لقد أصبح دار كفر بعد أن كان دار إيمان وهداية. ولم يوف ألفونس بما عاهد عليه بنى ذى النون أمراءها وأهلها من الإبقاء على مساجدهم واحترام شعائرهم الدينية. فقد أحال مسجدها الكبير كنيسة. ويستثير الشاعر حمية المسلمين لا للدين الحنيف فحسب. بل أيضا للعِرْض الذى طالما سُلَّت السيوف من أجله وأذيقت الحتوف. فقد امتهنت النساء العفيفات ربات القصور الحسان ذوات الجمال. وتحوَّلن إلى خادمات فى بيوت العلوج. وإنه لحرى أن يَغْلى لذلك دم كل مسلم وأن يمتشق الحسام للثأر والفتك بأعداء الإسلام. يقول:

خذوا ثأرَ الديانةِ وانْصُروها ... فقد حامَتْ على القَتْلَى النُّسُورُ
ولا تَهِنُوا وسُلُّوا كلَّ عَضْبٍ ... تَهابُ مضارِبًا منه النُّحورُ[4]
وموتوا كلُّكم فالموتُ أولَى ... بكم مِنْ أنْ تجُاروا أو تخوروا[5]

---

(١) أعمال الأعلام ٢/٢٣٠.
(٢) نفح الطيب ٤/٤٨٣ وما بعدها.
(٣) أذيلت: امتهنت. قاصرات الطرف: عفيفات.
(٤) العضب: السيف القاطع.
(٥) تجاروا: من أجاره إذا حماه. تخوروا من خار: ضعف ووهن.

ونَرجُو أن يُتِيحَ الله نَصْرًا عليهم إنَّــه نِعْمَ النَّصِيــرُ

وهو يقول للأندلسيين جميعا ولأمراء الطوائف: هبوا من نومكم للأخذ بثأر دينكم ولا تهنوا بل جالدوا أعداءه بمجالدة ضارية، حتى تذيقوهم وبال عدوانهم الأثيم، وإنه لعار ما بعده عار أن تسالموهم وتقبلوا إجارتهم وحمايتهم لكم فإن فى ذلك هوانًا لكم ما بعده هوان. ويستصرخ كل أندلسى أن ينازلهم حتى الذماء الأخير، عسى أن يُجْبرَ العظم الكسير. ومع روعة القصيدة وامتدادها إلى نحو ستين بيتا لم يذكر معها اسم ناظمها، وأكبر الظن أنها لزاهد طليطلة أبى محمد عبد الله العسَّال، ومرَّ بنا آنفا شعره حين استولى العدو على بَرْبشتر، ولا يعقل أن يستولى ألفونس على طليطلة بلده ولا ينظم فيها قصيدة حارة يستنفر بها الأندلسيين لاستردادها، ونظن ظنا أنه نظم فى نجدتها لا هذه القصيدة فحسب، بل قصائد مختلفة يستثير بها مواطنيه كى ينقذوها من أيدى القشتاليين.

وكان يوسف بن تاشفين - كما مر بنا - حين استولى على إمارات أمراء الطوائف رأى أن يدع سرقسطة فى أقصى الشمال لأمرائها من بنى هود لاستبسالهم المستمر فى حمايتها أمام ملوك أراجون، حتى إذا خلفه ابنه على زيَّن له الملتفون حوله من الفقهاء ورجال دولته أن يأخذها من أيدى بنى هود، فأجبرهم على التنازل عنها، وسرعان ما أزفت الآزفة إذ حاصرها ملك أراجون سنة٥١٢ واستولى عليها من يد المرابطين. وكان ذلك نذير شؤم، فقد استولى النصارى بعدها على الثغور المجاورة، استولوا على كُتُنْده جنوبيها سنة ٥١٤ وعلى تُطيلة وطرّسونة غربيها سنة ٥٢٤. وفى سنة ٥٣٩ انحسر ظل دولة المرابطين عن الأندلس، وانتهز الفرصة كثيرون من شخصياتها فسيطروا على بعض بلدانها، وسيطر من بينهم ابن همشك على جَيَّان واتخذ وزيرا له أبا جعفر الوقَّشى أحد رجالات الأندلس النابهين وكان شاعرا، وما زال يقنع ابن همشك بالدخول فى طاعة الموحدين حتى ارتضى رأيه سنة ٥٦٢ فأرسل به إلى يوسف بن عبد المؤمن فى عاصمته مراكش ليعلن إليه دخوله فى طاعته، وأحسن يوسف استقباله، وله فيه غير قصيدة، ونراه فى إحداها[1] يستصرخه لجهاد النصارى فى الأندلس ورد كيدهم فى نحورهم، وفيها يقول:

ألا لَيْتَ شِعْرى هل يُمَدُّ لىَ المَدَى فأُبْصِرَ شَمْلَ المشركين طَرِيدا[2]

---

(١) انظر القصيدة فى نفح الطيب ٤٧٧/٤ - ٤٧٨.

(٢) يمد لى المدى: تطول حياتى.

وهل - بعدُ - يُقْضَى فى النَّصارى بنُصْرَةٍ تغادرهم للمُرْهَفَاتِ حَصِيدا[١]
ويغزو أبو يعقوبَ فى «شَنْتَ يا قُبٍ» يُعِيد عَمِيدَ الكافرين عَمِيدا[٢]
ويُلْقِى على إفْرِنْجِهِمْ عِبْءَ كَلْكَلٍ فيتركهم فوقَ الصعيد هُجودا[٣]
يغادرهم جَرْحى وقَتْلَى مبرَّحًا ركوعًا على وَجْه الفَلا وسُجودا

والوقَّشى يتمنى أن يُمَدَّ له فى عمره حتى يبصر جموع المشركين مهزومين مدحورين مطرودين إلى أقصى الشمال وقد حصدتهم سيوف المسلمين حصدا بقيادة أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، وهو يتعقبهم منزلا بهم الهلاك والدمار حتى «شنت ياقوب» فى جِلِّيقية بأقصى الغرب من مملكة قشتالة. وقد أصبح عميدهم أو ملكهم قتيلا إثر مواقع تمزِّقهم تمزيقا، حتى لتَمَلأ الأرض بهم جرحى وقتلى كُبُّوا على جباههم، وكأنهم راكعون على وجه الفلوات ساجدون وهم مجرَّحون مصرَّعون. ويمضى قائلا:

ويفتكُّ من أيدى الطُّغاةِ نواعمًا تبدَّلْنَ من نَظْمِ الحُجُولِ قيودا[٤]
وأقبلْنَ فى خُشْنِ المُسوحِ وطالما سَحَبْنَ من الوَشْىِ الرَّقيق بُرودا
وغبَّر منهنَّ الترابُ ترائبًا وخدَّد منهنَّ الهجيرُ خُدودا[٥]
فحقٌّ لدمعى أن يَفيض لأزْرَقٍ تملَّكها دُعْجَ المدامع سُودا[٦]
ويالهفَ نفسى من معاصم طَفْلَةٍ تجاورُ بالقِدِّ الأليم نُهودا[٧]

والوقَّشى يستثير حمية يوسف بن عبد المؤمن بما حدث من هوان النساء المسلمين وفتياتهم الحسناوات إذ تبدَّلن من زينتهنَّ وحلىِّ خلاخيلهن أغلال القيود، بل يا للذل فقد ألبسوهن مسوح النصارى الصوفية الخشنة بعد أن عِشْنَ يلبَسْن الثياب الحريرية الموشاة الرقيقة، بل يا للهول لقد صِرْنَ خادماتٍ يلَطِّخ التراب مواضع القلائد النفيسة فى صدورهنَّ، وقد غاضت من خدودهن النضرة من العمل الشاق فى لفح الهاجرة بعد أن كن

---

(١) المرهفات: السيوف. حصيدا: محصودين كالزرع المحصود.
(٢) يريد بعميد الأولى سيد النصارى وملكهم، وبعميد الثانية قتيلا وأصل معناها القتيل بالعمود.
(٣) كلكل: وقعة مبيرة. الصعيد: وجه الأرض. هجودا: موتى كأنهم نائمون
(٤) الحجول: الخلاخيل.
(٥) غبر: لطخ بالغبار. الترائب جمع تريبة: موضع القلادة فى أعلى الصدر. خدد: أنحل. الهجير: اشتداد الحر.
(٦) يريد بالأزرق الإسبانى لزرقة عينيه. دعج جمع أدعج: شديد السواد.
(٧) معاصم جمع معصم: موضع السوار فى يد المرأة. طفلة بفتح الطاء: المرأة أو الفتاة البضة الناعمة. القد: سير من جلد.

ربّات بيوت وفتيات قصور مخدومات تحفّ بهن الفخامة والجلال. ويقول الوقْشى حقّ لدمعى أن يسيل مدرارا لأولئك الحسان ذوات العيون النجلاء الدُّعج اللائى نشأن فى الحلية والنعيم، فقد بُدِّلت الأساور والحلىّ الذهبية فى معاصمهن أَقُدًّا أو سيورا من جلد. فياللعار! ويا للإسلام! ويا للعروبة

وكان لهذه القصيدة وما يماثلها من استصراخات الأندلسيين ليوسف بن عبد المؤمن أمير الموحدين الأثر العميق فى نفسه، فدخل الأندلس فى سنة ٥٦٦ على رأس مائة ألف فارس شاكى السلاح، وسحق النصارى فى غير موقعة واستردَّ كثيرا من ديار الأندلس والقلاع والحصون، واتسعت بها مملكته. وخلَفه ابنه يعقوب المنصور فمزَّق جموعهم فى موقعة الأَرَك المشهورة سنة ٥٩١ غير أن النصر كُتب لهم فى موقعة العِقاب سنة ٦٠٩ لعهد ابنه الناصر. وثارت الأندلس على الموحدين، وتفككت بلدانها وتحارب أمراؤها، مما آذن سريعا بضياع الشطر الأكبر منها، وما توافى سنة ٦٢٦ حتى يستولى النصارى القشتاليون على مدينة ماردة فى الغرب شرقى بطليوس، وفى السنة التالية يستولى صاحب بَرْشلونة على جزيرة ميورقة، وما تلبث حَبَّات العقد ودرره أن تنفرط واحدة فى إثر أخرى، وتسقط فى سنة ٦٣٣ قرطبة جوهرة الأندلس الكبرى فى حجر القشتاليين، وتنشب بأخرة من سنة ٦٣٤ موقعة أنيشة على بعد سبعة أميال من بلنسية بين رجالها وذوى البأس والشجاعة فيها وبين ملك أرجون وجنوده، واستطاعت الكثرة النصرانية أن تدحر الأبطال الأشداء ومن كان يلهب حماستهم من العلماء أمثال القاضى أبى الربيع الكلاعى الذى استشهد وهو ينازل العدو منازلة ضارية. ولم يلبث ملك أراجون أن حاصر بلنسية أشهرا متعاقبة، وشدَّد الحصار حتى أعوزت شجعانها المؤن، ولم يبق إلا الموت جوعا أو التسليم. ومنذ موقعة أنيشة أخذ أميرها أبو جميل زيان بن أبى الحملات يستصرخ حكام المغرب لإغاثته ونجدة بلدته مرسلا إليهم الوفود تلو الوفود، وكان ممن استغاث به أبو زكريا يحيى بن أبى حفص أمير تونس، إذ أرسل إليه وفدًا على رأسه كاتبه ووزيره المؤرخ الأديب ابن الأبار، وسنترجم له عما قليل ملمين بقصيدته التى أنشدها بين يديه مستنفرًا له قبل سقوط بلنسية فى يد العدو. وتأثر حين سماعه القصيدة فجهَّز أسطولاً من ثمانى عشرة سفينة محمَّلة بالمؤن والسلاح، واتجه الأسطول - مع ابن الأبار والوفد المرافق له - إلى بلنسية، غير أن الأسطول أخفق فى إيصال المؤن إلى المحاصَرين، واضطر إلى إنزالها فى ثغر دانية جنوبى بلنسية. وقد ظلت المدينة تقاوم أشهرا طوالا حتى نفدت الأقوات واضطر أميرها وأهلها إلى التسليم فى صدر سنة ٦٣٦ وكان

ذلك رُزْءًا أليما وخطبا جسيما، مما جعل كثيرين من شرقى الأندلس يستنهضون عزائم أهل المغرب وأمرائهم لاسترداد بلنسية والأخذ بثأرها. من ذلك قصيدة مطولة أنشدها المقرى لشاعر وجّه بها إلى أبى زكريا الحفصى أمير تونس، يقول فيها[1]:

نادتْك أنْدَلُسٌ فلبِّ نِداءَها ... واجْعَلْ طواغيتَ الصَّليبِ فداءَها

رِشْ أيُّها المولى الرَّحيم جَناحَها ... واعْقِدْ بأَرْشِيَةِ النجاة رِشاءَها[2]

إيهِ بَلَنْسِيَةٍ وفى ذِكْراك ما ... يُمْرِي الشئونَ دماءَها لا ماءَها[3]

بأبى مآذِنُ كالطُّلولِ دَوارِسٌ ... نسخَتْ نواقيسُ الصَّليب نِداءها

هُبُّوا لها يا مَعْشَرَ التَّوحِيدِ قد ... آنَ الهُبُوبُ وأحْرِزوا عَلْيَاءَها

والقصيدة تزخر بالعاطفة الدينية، فالأندلس تستجير ضارعة من حملة الصليب الطغاة، ويتوسل الشاعر إلى أبى زكريا أن يريش جناح الأندلس المهيض ويعقد حبلها وخيوطها بحبال النجاة وما يرسل إليها من الجيوش الجرارة. ويبكى بلنسية وما دهاها، مما يُفيض المدامع لا ماء بل دماء ساخنة حارة، ويود لو فدى المآذن الدارسة بروحه، ويتحسر على ندائها: «الله أكبر» الذى نسخته نواقيس الصلبان بل محته محوا. ويستصرخ المسلمين أهل التوحيد أن يهبوا لإنقاذ الأندلس من أهل الصليب وما ينزلون بها من محن وخطوب عظام. وتسقط فى أواخر سنة ٦٣٩ مدينة شُقْر جنوبىّ بَلَنسِيَة: بلدة ابن خفاجة أكبر شعراء الطبيعة فى الأندلس، ويلتاع الكاتب الشاعر ابن عميرة أحد أبنائها لسقوطها التياعا شديدا آملا فى استردادها من حملة الصَّليب بمثل قوله:[4]

قد عاد قَلْبِى من شَرْقِ أنْدلسٍ ... عيدُ أسىً فَتّه وما فتَر[5]

ودون شُقْرٍ ودون زُرْقتهِ ... أزرقُ يَحْكى قَناهُ أو أشقَرْ

الرُّومُ حربٌ لنا وهُمْ وَشَلٌ ... سَالمه الواردونَ فاسْتَبْحَر[6]

إنا لنرجو للدَّهر فَيْأَةَ مَنْ ... أنابَ مما جَناهُ واستغفر[7]

ونرقُبُ الكرَّةَ التى أبدًا ... بها على الروم لم نزلْ نُخْبَرْ

---

(١) نفح الطيب ٤/٤٧٩.

(٢) رش من راش: أنبت الريش. أرشية جمع رشاء: الحبل.

(٣) يمرى من أمرى الناقة: أدرّ لبنها.

(٤) انظر: أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومى للدكتور محمد بن شريفة (طبع الرباط) ص ٢٣٢.

(٥) عيد هنا: ما يعتاد الإنسان من الهموم. فتر: سكن

(٦) وشل: قليلون. استبحر: كثر واتسع.

(٧) فيأة: رجعة.

وهو يقول إنه زار شرق الأندلس، فامتلأ قلبه مما حدث له ولموطنه «شقر» أسًى وَغَمًّا فتته تفتيتا، ولم - ولن - يفتر أو يسكن، وأين شُقْرٌ؟ وأين نهرها بزرقته وحلله السندسية؟ لقد استولى عليه شُقْر من الروم زرق العيون مثل زرقة قناته، ويقول: يا للعجب! لقد كانوا فئة معادية قليلة فسالمهم الواردون على الأندلس، فإذا هم يتكاثرون ويتسع سلطانهم. وإنه ليأمل أن يتوب الدهر مما جناه على أهل الأندلس من عدوان حملة الصليب، ويسترجع طالبا الغفران. ويقول إننا لا نزال نرقب الكرَّة على الروم والنصر الذى وعد الله به الإسلام والمسلمين على الكفار وأهل الشرك. ويتوالى بعد ذلك سقوط المدن الأندلسية، فتسقط دانية على المتوسط سنة ٦٤٣ وجيَّان شرقى قرطبة سنة ٦٤٣ وشاطبة شرقى دانية سنة ٦٤٤. وإشبيلية سنة ٦٤٥ ومرسية سنة ٦٦٤ ويصرخ أبو البقاء الرُّندى فى نونية له مشهورة صرخة مدوية، وحرى بنا أن نتحدث بإيجاز عنه وعن ابن الأبار.

ابن[1] الأبّار

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى، كان أبوه من جِلَّة القرَّاء، من أهل حصن أُنده من أعمال بلنسية، بارحها إليها واتخذها وطنا له ومستقرا، وبها رُزق بابنه محمد سنة ٥٩٥ للهجرة، وعنى به، فحفظ القرآن الكريم، وأخذ عنه قراءة نافع مقرئ أهل المدينة المشهور، وأكبَّ على دراسة الحديث ورجاله والفقه والتاريخ، وأخذ يلتهم كل ما يسمعه عن الشيوخ وخاصة عن إمام بلنسية وقاضيها لعصره أبى الربيع سليمان بن موسى الكلاعى، وكان ابن الأبار يعجب به إعجابا يملأ عليه نفسه، وهو الذى وجهه إلى العناية بالكتابة التاريخية عن أعلام الأندلس، واتخذه الكلاعى صفيًّا له، لما رأى من ذكائه النادر، غير أنه طمح إلى العمل السياسى فى دواوين الحكام، ولم يلبث والى الموحدين على

---

(١) انظر فى ابن الأبار عنوان الدراية للغبرينى ص ١٨٣ واختصار القدح المعلى لابن سعيد ص ١٩١ والمغرب ٢/٣٠٩ وتاريخ ابن خلدون ٦/٢٨٣ وفوات الوفيات لابن شاكر ٢/٤٥٠ وبقية السفر الرابع من كتاب الذيل والتكملة للمراكشى ص ٩٠ وأزهار الرياض للمقرى ٣/٢٠٥ وما بعدها ونفح الطيب ٤/٤٥٧ وفى مواضع مختلفة (انظر الفهرس) وشذرات الذهب ٥/٢٩٥ وراجع كتاب الدكتور عبد العزيز عبد المجيد عنه (طبع بمعهد مولاى الحسن ١٩٥١) وكذلك مادة دائرة المعارف الإسلامية عنه ومقدمة الدكتور مؤنس لتحقيقه لكتابه «الحلة السيراء» وقد عرض فيها جميع من تحدثوا عنه من المستشرقين والمعاصرين.

مدينته محمد بن أبي حفص أن اتخذه كاتبا له، وكتب بعده لابنه أبي زيد عبدالرحمن، ويستخلص منه بلنسية أبوجميل زيّان بن مَرْدنيش صاحب مرسية، ويظل ابن الأبار كاتبا له، وتحدث معركة أنيشة، ويستشهد فيها أستاذه الكلاعي ويندبه ويندب من استشهدوا معه ندبا حارا. وما يلبث صاحب برشلونه أن يحاصر بلنسية، وحينئذ يرسل به أميرها إلى أبي زكريا يحيى بن أبي حفص أمير تونس على رأس وفد لطلب الغوث والمعونة، فجهَّز له أسطولا محمَّلا بالمؤن والأسلحة كما مرَّ بنا، غير أنه لم يستطع إيصال ما يحمله إليها بسبب ما أحاطها به النصارى من حصار شديد، فانسحب الأسطول إلى دانية جنوبيها وسلَّم أهلها ما حمله كما مرَّ بنا. وتطورت الظروف فاستسلمت بلنسية فى صدر سنة ٦٣٦ وحضر ابن الأبار عقد تسليمها وشروطه، ودائما كان أمراء النصارى حين يستولون على بلد أندلسى لا يفون بالشروط المأخوذة عليهم، وكأنما زهد ابن الأبار فى المقام بالأندلس بعد سقوط مدينته، فاتجه إلى البلاد المغربية ونزل بجاية وأقام بها بضعة أشهر، ثم تركها إلى تونس، فألحقه أميرها أبوزكريا بدواوينه، فتولى بها كتابة الإنشاء والعلامة أوشارة الدولة، وهى توقيع يوضع على المكاتبات الرسمية لبيان أنها صادرة عن الدولة الحاكمة، وكان يكتبها بخطه الأندلسى، فرأى الأمير أبوزكريا أن تكتب بالخط المشرقى وأن يختص بكتابتها أحمد بن ابراهيم الغسانى، وغضب ابن الأبار لذلك وظل يكتب تلك العلامة بخطه الأندلسى، مما اضطر أبا زكريا أن يعفيه من عمله فأقام ببجاية فترة حتى إذا توفى أبو زكريا سنة ٦٤٧ وخلفه ابنه المستنصر أبو عبد الله محمد أعاده إلى الكتابة فى ديوانه ورفعه إلى مرتبة الوزارة، وكانت فيه حدة لسان تنفِّر الناس منه، ويقول ابن خلدون: «كان فيه أنفة وَبَأْوٌ (عظمة) وضيق خلق» فأوجد له أعداء ألداء، واستطاعوا أن يقنعوا المستنصر باشتراكه فى مؤامرة ضده، فأمر بقتله وإحراق أشلائه وكتبه، وهكذا قُتل سنة ٦٥٨ مظلوما مأسوفا عليه من معاصريه وكل من جاء بعدهم.

ويعد ابن الأبار فى الذروة من مؤرخى الأندلس وعلمائها البررة الموثوق بهم ثقة لا تدانيها ثقة، وهو فى مقدمة من مكَّنوا الباحثين المعاصرين من الكتابة عن الأندلس وأعلامها النابهين بفضل كتبه النفيسة، وهى: التكملة فى مجلدين - المعجم فى أصحاب القاضى الصدفى المتوفى سنة ٥١٤ هـ - الحلة السيراء فى مجلدين وتشتمل

على تراجم الأمراء والأعيان في الأندلس والمغرب - تحفة القادم فى شعراء عصره - إعتاب الكتاب: عن الكتاب الذين فقدوا مكانتهم وحظوتهم عند الحكّام ثم استعادوها، وبهذا الكتاب استعاد مكانته عند المستنصر، ثم غضب عليه.

وكان ابن الأبار شاعرا مجيدًا، وحين حدثت وقعة أنيشة أظلمت الدنيا فى عينيه لمن استشهدوا فيها من الشيوخ الجلة وخاصة شيخه أبا الربيع الكلاعى، وكان قد بلغ السبعين من عمره، وحين سمع النفير بادر لقتال أعداء الإسلام، ولم يزل متقدما أمام الصفوف زاحفا إلى الأعداء مرغبا فى قتالهم مناديا فيمن ينهزمون: أعن الجنة تفرُّون؟ وظل يُعمل السيف فى الأعداء حتى استشهد مع من استشهدوا من شيوخ بلنسية وشجعانها البواسل، وندبهم معه ابن الأبار بقصيدة، تشعل الحمية فى قلب كل مسلم، وفيها يقول:

أَلِمَّا بأشْلاءِ العُلا والمكارِمِ	تُقَدّ بأطراف القَنَا والصَّوَارمِ[١]
مَضَوْا فى سَبيلِ الله قُدْما كأنما	يَطِيرون من أَقْدامهم بِقَوَادِمِ[٢]
مواقِفُ أبرارٍ قَضَوْا من جهادهمْ	حقوقًا عليهم كالفُروضِ اللَّوَازِمِ
أَبيتُ لها تحتَ الظلامِ كأنني	رَمِيُّ نِصالٍ أو لَدِيغُ أراقمِ[٣]
فوا أَسَفِى للدِّين أعْضَلَ داؤهُ	وآيَأْسَ من آسٍ لِمَسْراهُ حاسمِ[٤]

وهو يهيب بكل مسلم أن يلمَّ بتلك الأشلاء الطاهرة التى قطَّعتها ومزقتها رماح النصارى وسيوفهم ويقول إنهم مضوا إلى الجهاد فى سبيل الله مسرعين، كأنهم طير وأقدامهم قوادمه، حتى يؤدوا حقوق دينهم أداءَ المجاهدين الأبرار. وإن ذكرى الواقعة وشهدائها لتحز فى نفسه، بل لكأنما رمى منها بنصال تنزف الدم من فؤاده، أو كأنه لديغ حيات ما تزال سمومها تسرى فى شرايينه. ويتحسر للدين الحنيف فى الأندلس فكأنما أنزل النصارى به داء عُضالا، لا يمكن لطبيب أن يشفيه منه أو يحسمه. وذكرنا آنفا أنه حين قدم مع وفد بلنسية على أبى زكريا صاحب تونس أنشده قصيدة يستصرخه بها لإنقاذ بلنسية ويقول ابن سعيد: عارضها كثير من الشعراء ما بين محظىّ ومحروم، ووَلِعَ الناس

---

(١) تقد: تشقق. القنا: الرماح. الصوارم: السيوف.

(٢) قدما: مسرعين. القوادم: الريشات الكبيرة فى مقدم الجناح.

(٣) نصال جمع نصل: حد السيف. الأراقم: الحيات.

(٤) أعضل الداء: لم يكن البرء منه. آس: طبيب.

بحفظها وَلَع بنى تغلب بقصيدة عمرو بن كلثوم، ويقول المقرى فى أزهار الرياض إنها من «غرر القصائد الطنانة» ويقول فى النفح: إنها «قصيدة فريدة فضحت من باراها، وكبا[١] دونها من جاراها» وفيها يستغيث:

أدرِكْ بخَيْلِك خيلِ الله أَنْدلُسَا ... إنَّ السبيلَ إلى مَنْجاتِها دَرَسا[٢]
يا للجزيرةِ أضحى أهلُها جَزَرًا ... للحادثاتِ وأمسى جَدُّها تَعِسَا[٣]
وفى بَلَنْسيةٍ منها وقُرْطُبَةٍ ... ما يُنْسِفُ النَّفْسَ أو ما يَنْزِفُ النَّفَسَا
يا لَلْمساجدِ عادتْ للعِدَا بِيَعًا ... ولِلنِّداء غدا أثناءها جَرَسا[٤]
طَهِّرْ بِلادَكَ منهمْ إنهم نَجَسٌ ... ولا طهارةَ ما لم تَغْسِلِ النَّجَسَا
واملأْ- هنيئًا لك التأييدُ- ساحتَها ... جُرْدًا سَلاهِبَ أو خَطِّيَّةً دُعُسَا[٥]

وهو يقول لأبى زكريا: أدرك الأندلس بخيلك: خيل الدين الحنيف فقد تعس حَظُّها وأصبح أهلها جزرًا لسيوف النصارى. وإن ما حدث لقرطبة ويوشك أن يحدث لبلنسية لما يروع النفوس ويخنق الأنفاس، إذ أصبحت المساجد كنائس وغدا الأذان والنداء للصلاة أجراسا لنواقيس النصارى، ويقول له إنهم نجاسة ينبغى أن تطهر بلادك منهم بما تسفك من دمائهم، إذ لا طهارة ما لم تغسل النجاسة وتَمْحُها محوا، واملأ الأرض وساحاتها عليهم بخيلك وأسلحتك القاضية. وأثارت القصيدة أبا زكريا وملأت قلبه حفيظة وحمية وموجدة، فأمر - كما أسلفنا - بإعداد أسطول محمل بالمؤن والذخائر، وأرسل به مع ابن الأبار والوفد البلنسى المرافق له لإغاثة بلنسية المحاصرة، غير أن النصارى كانوا قد ضربوا حولها حصارا لم يستطيعوا اجتيازه، وسقطت فى أيديهم المدينة.

أبو[٦] البقاء الرُّندىّ

هو صالح بن أبى الحسن يزيد بن صالح بن شريف يكنى كنية مشهورة بأبى البقاء

---

(١) كبا: تعثر.
(٢) درس: أخلق وتقادم عهده.
(٣) جزرا: قطعا وذبائح. جدها: حظها.
(٤) بيع: كنائس. النداء هنا: الأذان. جرسا أى للنواقيس.
(٥) جردا: خيلا سابقة. سلاهب: عادية. خطية: رماحا. دعسا: طاعنة.
(٦) انظر فى ترجمة أبى البقاء وشعره بقية السفر الرابع من كتاب الذيل والتكملة للمراكشى ص١٣٦ ومابعدها والإحاطة لابن الخطيب ٣/٣٦٠ ونفح الطيب للمقرى ٤/٤٨٦ ومابعدها وأزهار الرياض ١/٤٧ ومابعدها ومجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ٦/٢١١ وكتاب تاريخ النقد الأدبى فى الأندلس للدكتور محمد رضوان الداية ص٤٣٣-٤٦٠.

وكنية أخرى بأبى الطيب، ومسقط رأسه رُنْده إلى الغرب من مالقة، على قمة جبل سامق يشقها نهر وينابيع وتحفّها وديان، مما جعلها - كما فى المغرب - تُعَمَّم بالسحاب وتوشّح بالأنهار العذاب. وقد رُزق أبوه به سنة ٦٠١ وكان من أهل العلم، ولذلك سلكه المراكشى بين أساتذته، وذكر منهم على بن جابر الدباج الإشبيلى الذى ظل يتصدر للإقراء بإشبيلية خمسين سنة، كما ذكر مواطنَ الدبّاج أبا القاسم بن الجد نزيل تونس. ولم يتتلمذ لهذين العالمين فقط بل تتلمذ أيضا لابن الفخار الشريشى ولابن زرقون الغرناطى. ويذكر ابن الخطيب عن ابن الزبير صاحب كتاب صلة الصلة أنه تتلمذ له، وكل ذلك يدل على نهم فى طلب العلوم والآداب، واتضح ذلك فى جانبين عنده هما التأليف ونظم الشعر. أما التأليف فله فيه كتاب: «روضة الأنس ونزهة النفس» ويبدو أنه كان كتاب محاضرات وطرف أدبية، وسبق أن ذكرنا فى الفصل الثانى أن له أيضا كتاب الوافى فى نظم القوافى، وأن منه مخطوطة بالمكتبة التيمورية، وأنه فى أربعة أجزاء أولها فى فضل الشعر وطبقات الشعراء وعمل الشعر وآدابه وأغراضه، وثانيها فى محاسن الشعر وفنونه البديعية، وثالثها فى الإخلال والسرقة والضرورة، ورابعها فى حد الشعر وعروضه وقوافيه وأخباره تدل بوضوح على صلته الوثيقة بمحمد بن الأحمر مؤسس إمارة غرناطة، وهى صلة جعلته يكثر من مدائحه. وكان له بجانب هذين الكتابين المتصلين بالأدب شعره ونثره كتاب فى علم الفرائض، وهو يدل - كما قال المراكشى - على أنه كان بجانب ثقافته الأدبية «فقيها فرضيا حافظا» أى محدثا ويقول إنه كان متفننا فى معارف جليلة.

ويقول المراكشى إنه «كان خاتمة الأدباء بالأندلس بارع التصرف فى منظوم الكلام ومنثوره» وإنه كتب إليه بإجازة ما رواه وألّفه، ويذكر أن له فى النثر مقامات بديعة فى أغراض شتى، كما يذكر أن كلامه نظما ونثرا مدون، مما يدل على أنه خلف ديوان شعر كان معروفا فى زمنه. وقد طارت شهرة أبى البقاء الرندى شرقا وغربا لقصيدته النونية التى نظمها بعد سقوط مدن الأندلس الكبرى فى يد النصارى: قرطبة وإشبيلية وبلنسية وجيان ومرسية سوى ما فى حيِّز كل منها من مدن ومعاقل وحصون مما تنخلع له القلوب والأفئدة أسى وحزنا لهذا المصير المفجع، لا مصير المدن فحسب بل أيضا مصير السكان المسلمين من رجال ونساء وأطفال ووقوعهم أسرى فى أيد لا ترحم، أيد استعبدتهم وأنزلت بهم أهوالا من العذاب لا تطاق. وكأنما ندب أبو البقاء نفسه عن أهل الأندلس يستصرخ المسلمين لنصرة إخوانهم فى الدين وإنقاذهم من يد الكافرين الآثمين، وهو يستهل قصيدته بالحديث عن الدول التى دالت، وكأنما يتأثر فى هذا الجزء من قصيدته بابن

عبدون آملا أن تدول دولة النصارى الشماليين، ثم ما يلبث أن يتمثل الفواجع التى نزلت بقرطبة وأخواتها الأندلسيات، ويهتف:

دَهَى الجزيرةَ أمرٌ لا عَزاءَ له هَوَى لَهُ أُحُدٌ وانهدَّ ثَهْلانُ[1]
فاسْأَلْ بَلَنْسِيَةً ما شَأْنُ مُرْسِيةٍ وأينَ شاطبةٌ أم أينَ جَيَّانُ
وأينَ قُرْطُبَةٌ دارُ العلومِ فكم من عالمٍ قد سَمَا فيها لَهُ شانُ
وأينَ حِمْصٌ وما تَحْوِيهِ من نُزَهٍ ونَهْرُها العَذْبُ فيَّاضٌ وملآنُ[2]
قواعدٌ كنَّ أركانَ البلادِ فما عَسَى البقاءُ إذا لم تَبْقَ أَرْكانُ
إن المساجدَ قد صارَتْ كنائسَ ما فيهنَّ إلا نواقيسٌ وصُلْبانُ

إن ما نزل بالأندلس ودهاها من الخطوب أمر يجلّ عن العزاء فيه، إنه لكارثة تهوى لها الجبال وتنهدّ فى كل أرض إسلامية، فتلك مدن كبرى برمّتها ضاعت وضاعت معها قرطبة دار العلوم وإشبيلية دار الغناء والموسيقى، لقد سقطت أركان البلاد الأندلسية وقواعدها الأساسية، فهل يؤمل بعد ذلك بقاء لغرناطة وغيرها مما لا يزال فى أيدى المسلمين، لقد أصبحت المساجد وما كان يتلى فيها من قرآن كنائس تكتظ بالنواقيس والصلبان، ويصرخ مستنفرا:

يا راكبين عِتاقَ الخيلِ ضامِرَةً كأنها فى مجال السَّبْق عِقْبانُ
وحاملين سيوفَ الهند مُرْهَفَةً كأنها فى ظلام النَّقْعِ نيرانُ[3]
وراتعين وراءَ البحر فى دَعَةٍ لهم بأوطانهم عزٌّ وسُلْطانُ
أعندكم نبأٌ من أهْلِ أندلسٍ فقد سَرَى بحديث القوم رُكْبانُ
ماذا التقاطعُ فى الإسلام بينكمُ وأنتمْ يا عبادَ الله إخْوانُ

وهو يصيح فى فرسان المسلمين وأبطالهم من حملة السيوف المرهفة أن يسارعوا لنجدة الأندلس، ويعجب أن يرى المسلمين راتعين فى ديارهم يعيشون فى دعة وعزة وقوة، كأن ليس عندهم خبر عن الأندلسيين وما أصابهم من محن وكوارث، لا تصيبهم وحدهم بل تصيب أيضا الحنيفية البيضاء فى الصميم، فما هذا التقاطع والتنابذ وأنتم إخوان فى الدين أخوّة أقوى من أخوة ذوى الرحم، إذ ليست أخوّة دم بل أخوة روح وقلب وفكر وفؤاد، ويصيح جزعا:

(١) أحد: جبل بالمدينة مشهور. ثهلان: جبل بنجد.
(٢) حمص: إشبيلية.
(٣) النقع: غبار الحرب.

يا مَنْ لذلّةِ قومٍ بعْد عِزِّهِمُ أحال حالَهمُ كُفْرٌ وطُغْيانُ
بالأمس كانوا مُلوكًا فى منازلهم واليومَ هُمْ فى بلاد الكفر عُبْدانُ
ولو رأيتَ بُكاهم عند بيْعهمُ لهالك الأمرُ واستهوتْك أحْزانُ
يا رُبَّ أمٍّ وطِفْلٍ حِيلَ بينهما كما تفرّقُ أرواحٌ وأبدانُ
وطفْلةٍ مثل حُسْن الشمس إذ طلعتْ كأنما هىَ ياقوتٌ ومَرْجانُ
يَقُودُها العِلْجُ للمكروه مُكْرَهةً والعين باكيةٌ والقلبُ حَزْنانُ

وهو يلتاع لوعة محرقة لهؤلاء المسلمين الذين استذلهم الكفر والطغيان بعد أن كانوا فى الذروة من العز والكرامة، لقد كانوا ملوكا وأمراء، فأصبحوا عبيدا، وإنهم ليبكون بكاء مرا، حين يرون أنفسهم - وقد فقدوا أعز شىء على نفوسهم، فقدوا حرياتهم - يباعون بيع العبيد. وياللهول فكم من طفل فرّقوا بينه وبين أمه كما يفرّق بين الروح والبدن، إذ لن ترى ضناها وفلذة كبدها أبدا، وكم من سيدة فائقة الحسن فاتنة كأنما هى ياقوت ومرجان يرغمها إسبانى جاف غليظ على المكروه البغيض، وهى محزونة تذرف الدمع مدرارا.

والقصيدة درة يتيمة رائعة، ولروعتها أخذت الأجيال التالية تزيد عليها أبياتا تندب بها البلاد التى سقطت فى أيدى النصارى الشماليين بعد وفاة أبى البقاء الرندى سنة ٦٨٤ للهجرة. وتنبه لذلك المقرى فى نفح الطيب، إذ ذكر بعد إنشاده لها من رواية وثيقة أن بأيدى الناس منها زيادات نُدبت فيها مدن الأندلس التى ظلت تسقط حتى عهد العرب الأخير وحتى استسلام غرناطة مع غروب الشمس العربية نهائيا فى تلك الديار بعد أن ظلت ساطعة فى سمائها ثمانية قرون طوال.

الفصل الخامس

النَّثْرُ وكُتَّابه

١

الرسائل الديوانية

كان طبيعيا أن يعنى عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية فى الأندلس بديوان الرسائل، كما عُنى به خلفاء أسرته الأمويون فى دمشق، وخاصة جده هشام بن عبد الملك، وقد أسند الكتابة فى ديوانه بقرطبة إلى أمية بن يزيد بن أبى حَوْثرة، وأسندها ابنه الأمير هشام إلى محمد[1] بن أمية المذكور، وتولى مقاليد الحكم بعده ابنه الحكم الربضى، وأسندها إلى حجاج[2] المغيلى، وفُطَيْس بن سليمان وفى كتاب الحلة السِّيَراء أن راتبه كان خمسمائة[3] دينار. وخلفه ابنه عبد الرحمن الأوسط مؤسس الحضارة الأندلسية ونُظمها الإدارية التى استقرت منذ عهده، كما ذكرنا فيما أسلفنا. إذ اتخذ مجلس وزراء وقسم شئون الدولة فى القضاء والمال والحرب وغير ذلك إلى خطط، واقتضى ذلك تعدد الكُتَّاب مع الوزراء وأصحاب الخطط مما كان له أثره فى نهضة الكتابة الديوانية. ويذكر ابن حيان كتَّابه، ويسميهم أصحاب الكتابة العليا، وهم - على التوالى - عبد[4] الكريم بن عبد الواحد بن مغيث مع ما كان له من الحجابة، وتوفى سنة ٢٠٩، فخلفه فيها محمد بن[5] سعيد الزجالى، حتى إذا توفى سنة ٢٢٨ خلفه فيها عبد الله[6] بن محمد بن أمية، وتوفى عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٣٨ فظل يليها - مع مرض كان ينتابه - فى عهد

---

(١) انظر فى محمد بن أمية وأبيه وتوليهما الكتابة المقتبس لابن حيان (تحقيق د. محمود مكى - طبع لبنان) ص ٣١ والمغرب ١/٧١.

(٢) راجع فى تولى المغيلى وفطيس الكتابة للحكم الربضى المغرب ١/٤٤.

(٣) انظر الحلة السيراء لابن الأبار (تحقيق د. مؤنس) ٢/٣٧٣.

(٤) المقتبس ص ٣٢ وانظر الحلة السيراء ١/١٣٥.

(٥) المقتبس ص ٣٢ والمغرب ١/٢٣٠.

(٦) المقتبس ص ٣١ والحلة السيراء ٢/٣٧٣

محمد بن عبد الرحمن الأوسط حتى وفاته سنة ٢٤٦ وكان يخلفه فى الكتابة أثناء مرضه قومس[١] بن أنتنيان النصرانى وكان بليغا بصيرا بصناعة الكتابة فأسلم وحسن إسلامه، وولاه الأمير محمد الكتابة العليا، وكان قد استنَّ فى أثناء اعتناقه للنصرانية - كما ذكرنا فى غير هذا الموضع - الإجازة يوم الأحد. فتبعه فى ذلك جميع الكتاب فى ديوان الأمير محمد، وأصبحت تلك الإجازة - كما يقول ابن حيان - سنة عامة فى الأندلس. وعجلت المنية بقومس، فتقلد الكتابة العليا بعده حامد[٢] بن محمد بن سعيد الزجالى مع ما تقلد من الوزارة إلى وفاته سنة ٢٦٨. وحين أصبح صولجان الحكم بيد ابنه الأمير عبد الله اتخذ على الكتابة العليا عبيد[٣] الله بن محمد بن أبى عبدة، ومنذ سنة ٢٨٧ يقلدها عبد[٤] الله بن محمد بن عبدالله الزجالى، ويظل يتقلدها سنتين زمن عبد الرحمن الناصر حتى وفاته سنة ٣٠٢ فيعهد بها الناصر إلى عبد[٥] الملك بن جهور فعبد الحميد بن بَسِيل فعبد الرحمن بن بدر فعيسى بن فُطَيس بن أصبغ بن فطيس، ونراه يحرر عن عبد الرحمن الناصر رسالة سنة ٣٢٧ فيخليها من السجع[٦]، مما يدل على تأخر استخدامه فى الكتابة الديوانية بالأندلس، ويؤكد ذلك أننا نرى عبد الرحمن الناصر يعهد بالكتابة العليا بعد ابن فُطَيْس إلى عبد[٧] الرحمن بن عبد الله الزجالى سنة ٣٢٩ حتى إذا كلفه فى سنة ٣٤٥ بكتابة منشور[٨] - على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع - يُقْرأ فى المساجد الجامعة بقرطبة وغيرها من مدن الأندلس ضد ابن مسرَّة وأتباعه أخلاه من السجع. وظلت الكتابة الديوانية تخلو من السجع فى عهد ابنه الحكم المستنصر، حتى إذا كان عهد هشام ابنه وحاجبه المنصور بن أبى عامر وابنيه الحاجبين بعده المظفر والناصر رأينا السجع يشيع على ألسنة كتابهم، على نحو ما يلقانا عند ابن[٩] بُرْد الأكبر صاحب ديوان الإنشاء لعهد المنصور بن أبى عامر وابنيه وفى زمن الفتنة للمستعين (٤٠٠ - ٤٠٧ هـ) ثم لبنى حمود بعده، وتوفى سنة ٤١٨ وقد نيِّف على الثمانين، وله من

---

(١) المقتبس ص ١٣٨ والقضاة للخشنى ص ١١٠.

(٢) المقتبس ص ٣٢، ٣٧ والمغرب ١/٢٣١.

(٣) راجع فى ابن أبى عبدة الحلة السيراء ١/١٤٦.

(٤) المقتبس ص ٣٢ وإعتاب الكتاب لابن الأبار ص ١٧٢.

(٥) راجع فى ابن جهور وغيره من كتاب عبد الرحمن الناصر فهرس المقتبس الجزء الخامس الخاص بالناصر طبع مدريد.

(٦) المقتبس ٥/٤٣٨.

(٧) المقتبس ٥/٤٧١.

(٨) المقتبس ٥/٢٥.

(٩) انظر فى ابن برد الأكبر الذخيرة ١/١٠٣ والمغرب ١/٨٦ والحميدى ١١١ والصلة لابن بشكوال ص ٤٠.

رسالة[١] ديوانيه عن الحاجب المظفر بن المنصور بن أبى عامر، يبرِّر فيها قتله لصهره ابن القطّاع:

«إنا أخذناه من الحَضِيض الأَوْهَدِ، وانتشلناه من شظف العيش الأنْكد، ورفعنا خَسِيسَتَه، وأتممنا نقيصَته.. فلا أقرَّ لنا بحق، ولا قابل إحساننا بصِدْق، ولا عامل رعيَّتنا برِفْق، ولا تناول خدمتنا بِحذْق، بل أعلن بالمعاصى ونَبذ عهودنا، وخالف سُبلنا، وكدَّر على الناس صَفْونا»

وينتهى عصر الدولة الأموية، وندخل فى عصر أمراء الطوائف: عصر التنافس السياسى الحاد بينهم والتنافس الأدبى الحاد بين الأدباء من كتّاب وشعراء، ويصبح السجع أشبه بقانون عام فى جميع الرسائل الديوانية الصادرة عن هؤلاء الأمراء إذ التمسه جميع كتّابهم فى كل ما يكتبونه عنهم، التمسه أحمد[٢] بن عباس كاتب زهير أمير المريَّة على البحر المتوسط المقتول معه سنة ٤٢٩ والتمسه محمد بن أحمد البِزليانى كاتب حبوس صاحب غرناطة وسنترجم له عما قليل كما التمسه أبو عامر[٣] التاكرنى كاتب أمراء بلنسية: المظفر ومبارك حتى سنة ٤١٧ ثم المنصور بن أبى عامر الأصغر أميرها بعدهما. وكان يعاصره ابن برد الأصغر كاتب مَعْن أمير المرية وسنترجم له بين أصحاب الرسائل الأدبية، وعاصرهما أبو محمد بن عبد البر كاتب مجاهد وابنه على أميرى دانية وسنترجم له بعد قليل. ومن الكتاب النابهين فى هذا العصر أبو المطرف[٤] بن مثنى كاتب المأمون بن ذى النون أمير طليطلة (٤٢٩ - ٤٦٧ هـ) وأبو المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ كاتب المقتدر بن هود أمير سرقسطة (٤٣٨ - ٤٧٥ هـ) وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية، وكان يشاركه فى الكتابة للمقتدر أبو عمر الباجى، ومنهم أيضا ابن المعلم[٥] كاتب المعتضد بن عباد أمير إشبيلية، وأبو عبد الرحمن بن طاهر أمير مرسية وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية ومحمد[٦] ابن أيمن كاتب المتوكل بن الأفطس أمير بَطَلْيوس، وله رسالة عنه إلى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين بمراكش

---

(١) الذخيرة ١٢١/١.

(٢) راجع فى أحمد بن عباس الذخيرة ٦٤٣/١ والمغرب ٢٠٥/٢ والإحاطة (طبعة عنان) ٢٦٧/١

(٣) انظر فى التاكرنى الذخيرة ٢٢٦/٣ والمغرب ٣٣٢/١ والحميدى ٥٦ وإعتاب الكتاب ٢٠١.وتاكرنا كانت قصبة رندة.

(٤) راجع فى ابن مثنى الذخيرة ٤٠٩/٣.

(٥) راجع فى ابن المعلم الذخيرة ١١٢/٢، ١١٨.

(٦) انظر فى ابن أيمن الذخيرة ٦٥٢/٢ والمغرب ٣٦٦/١.

يستصرخه لنجدة الأندلس ضد ألفونس ملك قشتالة ونصارى الشمال، وفيها يقول:[١]

«لما كان نورُ الهدى دليلَك، وسبيلُ الخير سبيلَك، ووضحتْ في الصلاح معالمُك، ووقفتْ على الجهاد عزائمك، وصحَّ العلم بأنك لدعوة الإسلام أعزُّ ناصر، وعلى غزوك الشرك أقدرُ قادرٍ، وجب أن تُستدعَى لما أعضَلَ من الداء، وتُستغاثَ لما أحاط بالجزيرة من البلاء. فقد كانت طوائفُ العدو المُطيفةُ بها - أهلكهم الله - عند إفراط تسلُّطها واعتدائها، وشدَّة كَلَبها[٢] واستِشرائها، تُلاطَف بالاحتيال، وتُستنزَلُ بالأموال.. ولم يزل دأْبُها التشطُّطَ والعِنادَ، ودأْبنا الإذعان والانقياد، حتى استُصْفِيَ الطريفُ والتِّلاد، واضطرمت في كل جهة نارهم، ورَوِيتْ من دماء المسلمين أسنتُهم وشِفارُهم[٣]. فيالله! ويا للمسلمين! أيسطو هكذا بالحق الإفْكُ، ويغلب التوحيدَ الشِّرْكُ، ويَظْهر على الإيمان الكفرُ، ولا يَكْتنف هذه الملةَ النَّصْرُ. ألا ناصرَ لهذا الدين المهتضم؟! ألا حاميَ لما استُبيح من حِمَى الحُرَم؟ وإنا لله على ما لحق عَرْش الدين من ثَلٍّ[٤]، وعِزّه من ذُلٍّ!»

وتمضي الرسالة بهذا الاستصراخ المتقد حمية للدين الحنيف وأهله. وتوالى على ابن تاشفين مثلها من المعتمد. وأرسل هو والمتوكل له قاضييهما مستغيثين به، كما استغاث به كثير من فقهاء الأندلس. فخفَّ بجنوده وعبر بهم المجاز خِفافا وثِقالا رجالا ورُكبانا، وأنزل بهم وبمن اجتمع له من أهل الأندلس بألفونس السادس ونصارى الشمال موقعة الزلاقة التي سحق فيها أعداء الدين الحنيف سحقا، على نحو ما مرَّ بنا في الفصل الأول. ويرى ابن تاشفين ببصيرته النافذة أن يرفع عن الأندلس عبء أمراء الطوائف الذين أحالوها مِزَقا بينهم، فجمَع بلدانها تحت لوائه، وكان قد تعرف على أبي بكر بن القصيرة كاتب المعتمد بن عباد، فاستدعاه إلى مراكش بعد ثلاث سنوات وعهد إليه بديوان الإنشاء، وظل يتولاه في عهد ابنه علي إلى وفاته، وسنترجم له عما قليل. وطالت مدة حكم علي بن يوسف (٥٠٠ - ٥٣٧) وممن كتب له أبو القاسم بن الجد وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية، وأبو عبد الله محمد بن أبي الخصال وسنترجم له عما قليل وعبد العزيز بن القبطورنة كاتب المتوكل بن الأفطس مع ابن أيمن المار. وكثر ولاة المرابطين في الأندلس وكان كل منهم يتخذ كاتبا بليغا وممن كتب لتميم بن يوسف بن تاشفين والي غرناطة أبو الحسن

---

(١) الذخيرة ٢/٦٥٣.

(٢) الكلب: شدة الحرص والمعاناة، والاستشراء: تفاقم الاعتداء.

(٣) الشفار جمع شفرة: حد السيف.

(٤) ثل: هدم.

على[١] بن الإمام تلميذ ابن باجة الفيلسوف، وكتب لسير بن أبى بكر والى إشبيلية عبد المجيد بن عبدون، وهو من كتاب المتوكل بن الأفطس ومرت ترجمته مع مرثيته المشهورة لدولة بنى الأفطس، وقد كتب بعدهم للمرابطين، أولا لسير بن أبى بكر -كما ذكرنا- ثم لعلى بن يوسف بن تاشفين إلى وفاته على نحو ما مرَّ فى ترجمته.

وتخلف دولةُ الموحدين فى الأندلس دولة المرابطين، ويذكر صاحب المعجب كتّاب حكامها ويبدأ بكتّاب مؤسسها عبد المؤمن، وهم أبو جعفر أحمد[٢] بن عطية وهو مراكشى وأبو القاسم القالمى من بجاية وعياش بن عبد الملك بن عياش القرطبى، وفى مجموع رسائل موحدية المطبوع بالرباط غير رسالة ديوانية للأولين، وهما جميعا مغربيان. وكتب ليوسف بن عبد المؤمن عياش[٣] والقالمى إلى أن توفى فخلفه ابن محشرة وهو من بجاية مثله. وكتب ليعقوب بن يوسف ابن محشرة كاتب أبيه وأبو عبد[٤] الله محمد بن عبد العزيز بن عياش التجيبى المريى المولود سنة ٥٥٠ استكتبه يعقوب سنة ٥٨٦ فنال دنيا عريضة، وظل يلى ديوان الإنشاء لابنه الناصر ثم لابن ابنه المستنصر حتى وفاته سنة ٦١٨ وفى مجموع رسائل موحدية ثلاث رسائل، له اثنتان منها عن الناصر والثالثة عن يعقوب، وهى فى وصف غزوته الثانية للنصارى سنة ٥٩٢ بعد سحقهم فى موقعة الأَرَك سنة ٥٩١، وكانت وجهته طليطلة، فاستولى على كثير من الحصون حولها، وفيها يقول[٥]:

«فلما صارت البلاد كأن لم تَغْنَ، والمعاقلُ كأن لم تُبْنَ، وعُلم أن من حِيل بينهم وبين المواطن والأموال والأقوات أحياءٌ ولكن فى عِداد الأموات، صوّبْنا على طُلَيْطلة قاعدةِ الصُّفْر، وأم بلاد الكفر.. وأخذهم العذابُ من حيث لا يشعرون. وعرفوا التخاذل من حيث كانوا يُبْصرون، واستقبلتهم العِبَرُ أَفْوَاجًا أفواجا، وجاءتهم النذر تأويبًا وإدلاجا».

وكان أبو عبد الله محمد[٦] بن يَخْلَفْتن الفازازى القرطبى يعمل فى ديوان قرطبة وعُيِّن

---

(١) المطرب ٨٩ والمغرب ٢/١١٦

(٢) المعجب ص ٢٦٧.

(٣) لعله أبو الحسن بن عياش المذكور فى مجموع رسائل موحدية وله فيه عن يوسف رسالتان.

(٤) انظر فى كتّاب يعقوب المعجب ص ٣٢٨ وراجع فى أبى عبدالله بن عياش التكملة رقم ٩٥٢ وزاد المسافر ٩٤ والمعجب ص ٣٩١، ٤٠٥.

(٥) مجموع رسائل موحدية (طبع الرباط) ص ٢٢٨ وما بعدها.

(٦) راجع فى محمد بن يخلفتن المعجب ص٣٩١، ٤٠٦ والتكملة رقم٢١٣٥.

قاضيا فى مدينة مرسية، واستُدْعى للنهوض بالكتابة فى ديوان المستنصر حين توفى ابن عياش، وظل قائما عليه فى عهد العادل (٦٢١ - ٦٢٤) وتوفيا معا فى سنة واحدة. وخلف العادل إدريس بن يعقوب وتلقب بالمأمون (٦٢٤ - ٦٢٩ هـ) وكان يحكم إشبيلية قبل ذلك وثار عليه البياسى بجيّان وقضى على ثورته وكان يكتب له حينذاك أبو زيد[١] عبد الرحمن بن يَخْلُفْتن المترجم له فى الفصل الماضى أخو محمد المذكور آنفا، وقد استقدمه إلى مراكش ولم يكد يمضى بها عدة أشهر - كما مرَّ بنا فى ترجمته - حتى توفى سنة ٦٢٧.

وكان يكتب لولاة الموحدين فى الأندلس كتاب بارعون ويكفى أن نذكر أنه كتب لعثمان بن عبد المؤمن والى غرناطة عبد[١] الرحمن بن مسعدة وأخوه يحيى وابن جبير الرحالة المشهور وابن هَرَوْدس الوشاح المبدع على نحو ما ذكرنا فى حديثنا عن الموشحات. وأخذت الأندلس جميعها تثور على المأمون والموحدين لضعفهم فى مقاومة الأرجونيين فى الشرق والقشتاليين فى الشمال والبرتغاليين فى الغرب. وكان أهل شرق الأندلس أول من ثاروا على الموحدين بزعامة أبى عبد الله محمد بن هود سنة ٦٢٥ تحت شعار الخلافة العباسية إرضاء للعامة، واتخذ مرسية قاعدة له ومدَّ سلطانه على مالقة والمرية وقرطبة وإشبيلية وغرناطة. وثار عليه بإشبيلية الباجى وابن صاحب الرد وابن الجد وتوفى ابن هود سنة ٦٣٥ وثار بمرسية عزيز بن خطاب سنة ٦٣٦ وقتل بعد تسعة أشهر. ومن أكبر الثوار حينئذ ابن الأحمر محمد بن يوسف، وقد واقع ابن هود وانتصر عليه مرارا واستخلص منه غرناطة وأسس فيها دولتهم التى ظلت أكثر من قرنين ونصف. ومن كبار هؤلاء الثوار أبو جميل زيان بن مردنيش الثائر ببلنسية سنة ٦٢٦ وقد حكم أولا تحت شعار العباسيين مثل ابن هود، ثم حول الدعوة منهم إلى الحفصيين فى تونس رجاء أن يمدوا له يد العون ضد ملك أرجون. وقد أخذت تسقط جواهر الأندلس ومدنها الكبرى فى حجور الأرجونيين والقشتاليين والبرتغاليين، وإنما ذكرنا ذلك لأن كل ثائر ممن سميناهم اتخذ كاتبا بليغا. فالبياسى كتب له أبو يحيى[٢] بن هشام القرطبى وأحبطت ثورته سريعا، واعتنق النصرانية مذموما مدحورًا، وكتب لابن هود أبو جعفر[٣] أحمد بن

---

(١) راجع فى عبد الرحمن وأخيه يحيى المغرب ١١٢/٢ - ١١٣.

(٢) انظر فى أبى يحيى بن هشام المغرب ٧٤/١ واختصار القدح المعلى ص ٨٩ وصبح الأعشى ٣١/٧ حيث احتفظ برسالة مهمة له عن ابن هود.

(٣) راجع فى أبى جعفر المغرب ١٦٤/٢ والقدح ١١٤.

طلحة وابن الجنان[١] وأبو المطرف بن عميرة، وسنترجم له، وكتب عن الباجى ابن[٢] البناء الإشبيلى، وكتب لابن الأحمر ابن خطاب[٣] الجيانى وأبو عبد الله[٤] ابن الخيال، وكتب لزيان أبو المطرف بن عميرة، وابن الأبار الذى ترجمنا له فى الفصل الماضى.

ومن الكتاب فى دواوين بنى الأحمر ابن الحكيم[٥] كاتب الحاكم الثانى فى الأسرة محمد بن محمد بن نصر المعروف بالفقيه (٦٧١ - ٧٠١ هـ) وكتب ابن الحكيم أيضا لابنه محمد (٧٠١ - ٧٠٨ هـ) ومن كتاب بنى الأحمر النابهين فى القرن الثامن الهجرى ابن الجيَّاب[٦] ولسان الدين بن الخطيب الكاتب المشهور وسنترجم له، وخلفه على ديوان الإنشاء ابن زَمْرَك، ومرَّت ترجمته بين شعراء المديح، وربما كان أنبه كتابهم فى القرن التاسع الهجرى أبو عبد الله[٧] الشرَّان محمد بن إبراهيم. وحرى بنا أن نتوقف قليلا لنتحدث بكلمات مجملة عن ستة من كتاب الرسائل الديوانية النابهين هم: البِزِلْيانى وأبو محمد بن عبد البر وابن القصيرة وابن أبى الخصال وابن عَميرة ولسان الدين بن الخطيب.

البِزِلْيانى[٨]

هو أبو عبد الله محمد بن عامر البزليانى المالقى، وبزليانة من قرى مالقة، وكانت مالقة تتبع غرناطة وكانت إمارة الإقليم فى عصر أمراء الطوائف لبنى زيرى المغاربة، وأول من تولاها منهم زاوى حتى سنة ٤١٠ وتولاها بعده ابن أخيه حَبُوس بن ماكسن بن زيرى، وطمحت نفس البزليانى للعمل فى الدواوين بغرناطة وسبقت شهرته بإحسان الكتابة إليها فاستكتبه أميرها حبوس وأصبح رئيسا لديوانه وكتابه. وعمل بعده مع ابنه باديس (٤٢٩ - ٤٦٥ هـ) وكانت فيه قسوة وجفوة، فرأى التحول عنه وعن دواوينه، ويقول صاحب الذخيرة إنه «ممن أدار الملوك ودبرها، وطوى الممالك ونشرها» وإنه تقلب فى البلاد، وانتهى به المطاف إلى المعتضد بن عباد سنة ٤٤٣ فألحقه بدواوينه، ووصله بابنه

---

(١) راجع فى ابن الجنان ورسالة له عن ابن هود صبح الأعشى ٣٤/٧.
(٢) انظر فى ابن البناء القدح ص ١١٨.
(٣) راجع فى ابن خطاب الجيانى القدح ص ٢٢.
(٤) انظر فى أبى عبد الله بن الخيال القدح ص ٦٦.
(٥) أزهار الرياض ٢٤٠/٢ والإحاطة ٤٤٤/٢.
(٦) الكتيبة الكامنة ص ١٨٣.
(٧) انظر فى الشران أزهار الرياض ١٣٣/١.
(٨) راجع فى ترجمة البزليانى ورسائله الذخيرة ٦٢٤/١ والمغرب ٤٤٦/١.

إسماعيل، وماتدخل سنة٤٤٥ حتى يأمر المعتضد ابنه إسماعيل بغزو قرطبة، ولم يكن البزلياني - كما سنرى - يرتضى سياسة المعتضد فى غزو جيرانه، بينما يرضخ خاضعا لنصارى الشمال، وأغوى إسماعيل بمخالفة رأى أبيه، وخوّفه من إسراع باديس أمير غرناطة بنجدة بنى جهور فى قرطبة، فيقع بين فَكَّىْ أسدين يعضفانه. وكان المعتضد أبوه يعامله بقسوة وفظاظة فرأى أن ينصرف من طريقه بجيشه إذ تعاظمه الهجوم على قرطبة مع قرب حلي أمرائها باديس أمير غرناطة منهم كما ذكرنا. ويقال إن البزلياني مضى فى استغوائه له وإنه أشار عليه بهربه من أبيه ودبّره، وتطورت الظروف، فقتل المعتضد البزلياني لما وقَر فى نفسه من أنه هو الذى أغواه، وقتل بعده ابنه. هكذا يقول الرواة ونظن ظنا أن المعتضد استدرج البزلياني للعمل فى دواوينه، وهو يبيِّت له هذا المصير المحتوم، لماعرف عنه من إنحائه على أمراء الطوائف باللوم-فى رسائله-منذ كان عند حبوس - على سياستهم وحربهم بعضهم لبعض واستعانتهم فى ذلك بنصارى الشمال، ليغرسوا حِرابهم فى صدور إخوانهم المسلمين. وليس ذلك غريبا على المعتضد فقد كتب إليه أصدق أصدقائه أبو حفص عمر الهوزنى يحضه على جهاد النصارى فاستدرجه، ووضعه بأعلى محل، وعوّل عليه فى العقد والحل، حتى إذا مضى عليه عامان باشر قتله بيده[1]، فكان طبيعيا أن يفتك بالبِزِلْيانى، حتى لو لم يتصل بابنه إسماعيل، لحملته العنيفة على سياسته وسياسة أنداده من أمراء الطوائف، على نحو ما يتضح من رسالة أرسل بها - كما يقول ابن بسام - عن حبوس إلى يحيى بن منذر التجيبى أمير سرقسطة: وفيها يقول:

«اتصل بى ما وقع بينك وبين المؤتمن (المنصور[2] الأصغر عبد العزيز) أمير بلنسية (٤١٧ - ٤٢٥ هـ) والموفق مجاهد (أمير دانية) (٤١٣ - ٤٣٦ هـ) وعضد الدولة (أمير إشبيلية)، وأنكم اضطُرِرْتم إلى إخراج كل فريق منكم النصارى إلى بلاد المسلمين، فعظم قَلَقى، وكثُر على المسلمين شَفَقى، فى أن يطأ أعداؤهم بلادَهم، ويُوتِموُا أولادهم.. ولو لم تكن الفتنة - يا سيدى - إلا بين المسلمين والتشاجر إلا بين المؤمنين لكانت القارعة العظمى، والداهية الكبرى، فإذا تأيدنا بالمشركين، واعتضدنا بالكافرين، وأبحناهم حُرْمتنا، ومنحناهم قوتنا، وقتلنا أنفسنا بأيدينا، وأدَّتنا إلى النَّدم مساعينا، كانت الدائرة

(١) المغرب ١/٢٣٩ وما بعدها. الذخيرة ١/١٩٣، ٢٠٣، ٢٠٥.

(٢) انظر فى تلقيب المنصور الأصغر بهذا اللقب

أمضّ(١)، والحيرة أرمضُ(٢)، والفتنة أشدّ، والمحنةُ أهدّ، والأعمال أحْبَطَ، والأحوال أسْقَطَ، والأوزار أثقلَ، والمضارّ أشمَلَ، والله يُعيذنا من البَوائق(٣)، ويَسْلُك بنا أجمل الطرائق.. وأنت يا سيدى للمسلمين الحِصْنُ الحَصِين، والسَّبَبُ المتين، والنصيح المأمون، فاجْرِ فى جَمْع كلمتهم والمراماة دون حَوْزتهم(٤)».

والبزليانى يصرخ فى يحيى بن المنذر التجيبى أمير سرقسطة فى أقصى الشمال، فإن أمراء الطوائف من أمثال أمير بلنسية وأمير دانية وأمير إشبيلية يوطئون النصارى بلادهم مستعينين بهم فى حرب أهل دينهم وقتل الآباء وتيتيم الأطفال والأبرياء. ويقول لو كانت المحنة محاربة المسلمين بعضهم بعضا فحسب لكانت تلك قارعة عظمى وداهية كبرى، ولكن المحنة أدهى وأمر فإننا نستعين بالنصارى ونبيحهم ديارنا فيا لله ويا للمسلمين. ويستغيث بيحيى بن المنذر أن يجمع كلمة هؤلاء الأمراء، حتى يدافعوا عن حَوْزتهم وحدود أرضهم ويرموا العدو يدا واحدة حتى لا تقوم له قائمة. ومن غريب أن هذه الصرخة دوّت فى العشرينيات من القرن الخامس، وكأنها صرخة فى فلاة ولا حياة لمن تنادى. ويصرخ البزليانى فى رسالة ثانية وجّه بها إلى (المنصور الأصغر أمير بلنسية الذى ذكره فى الرسالة السابقة)، وله يقول - فيما أظن - على لسان باديس:

«اتصل بى ما جزعتُ له من لزومك مع الموفق مجاهد ومَنْ تبعكما من مُعاقديكما لمقاتلة المظفر أبى بكر محمد أمير بطليوس (٤٣٠ - ٤٦٠ هـ) ومنازلته ومقارعته واستجاشة(٥) كل حزب منكم النصارى وطمعكم أن تمنعوا بهم ذِمارًا، وتَقضوا بإخراجهم (معكم) أوْطارا(٦)، وتُدْركوا بأيديهم أوْتارا.(٧) ولم يَخْفَ عليك ما يتسبّب بالفتن، من البلوى والمِحَن.. باخترام(٨) الرِّجال، وإيتام الأطْفال، وإرْمال(٩) النساء، وإحْلال الدماء، وانتهاب الأموال، واعْتِساف(١٠) الأهوال، وإخْلاء الأوطان، وإجْلاء السكان. هذا إذا كانت الدعوة واحدة، والشرعة معاضدة. فأما إذا انساق العدوّ إلينا، وتطرّق علينا،

---

(١) أمض: أكثر ألما.
(٢) أرمض: أوجع.
(٣) بوائق: جمع بائقة: الداهية.
(٤) الحوزة: الحمى.
(٥) استجاشة هنا: استعانة.
(٦) أوطارا جمع وطر: مأرب.
(٧) أوتار جمع وتر: ثأر.
(٨) اخترام هنا: قتل أو موت.
(٩) أرملت المرأة: مات زوجها.
(١٠) اعتساف: ركوب.

وضَرِىَ[1] على أموال المسلمين ودمائهم، وجَرُؤ على قَتْل رجالهم وسَبْى نسائهم، وبانتْ له العَوْرات، وتحققت عندهم الاختلافات، أحدُّوا رَحَاهم[2]، واستمدُّوا مَنْ وراءهم، ولم يكن للمسلمين بهم بعد يد[3]، ولا عن إخلاء هذه الجزيرة بُدّ، والله يحميها من الغِيَر[4]، ويكفيها سوءُ القَدر»

ولا تقل هذه الصرخة عن سابقتها قوة، والبزلياني يهيب فيها بالمنصور الأصغر أن لا يمضى مع مجاهد فى حشد الجيوش ضد أخيهما المظفر بن الأفطس أمير بطليوس مستعينين فى قتال أهلهما المسلمين بالنصارى طامعين أن يحموا لهما حماهما وأن يحققوا لهما آمالهما ويدركوا لهما أثآرهما غير مراعين فى أهل دينهما حقا، إذ تُقَتَّلُ الرجال وتيتم الأطفال وترمَّل النساء وتنهَب الأموال وتخلو الأوطان ويجلو السكان. والطامة الكبرى أن العدو إذا جاس خلال ديارنا وتجرَّأ على نهب أموال المسلمين وعلى سفك دمائهم وقتل رجالهم وسبى نسائهم وانكشفت له فى البلاد العورات، وتحقق مما بين أمراء المسلمين من الاختلافات والمنازعات شحذ أسلحته وأدار رحى حرب طاحنة مستمدا فيها النصارى من ورائه فى أوربا، فجاءوه من كل فج، وأصبح المسلمون ولا طاقة لهم فى نزالهم ولا قدرة، واضطروا اضطرارا إلى مبارحة الجزيرة لا يلوون. وذهبت الصرختان جميعا هباء، وبدلا من أن يعيها هؤلاء الأمراء الذين عاشوا للترف وأعدوا لضياع البلاد جازاه المعتضد الباغى منهم شر الجزاء، فسفك دمه.

أبو محمد[5] بن عبد البر

هو أبو محمد عبد الله ابن الفقيه المشهور أبى عمر بن عبد البر النمرى القرطبى، وقد عُنى به أبوه، فخرجه على يده فى أجمل صورة علمية للشاب الأندلسى فى عصره، وتفتحت فيه مبكرا نزعة أدبية جعلته يؤثر على حلقات العلم والدراسة دواوين أمراء الطوائف، ويقول ابن بسام إنه «حلَّ من كتاب الإقليم محل القمر من النجوم.. وتهادته الآفاق، وامتدت إليه الأعناق.. ففاز به المعتضد (أمير إشبيلية) بعد طول خصام، والتفاف

---

(١) ضرى: اجترأ.
(٢) الرحى هنا: رحى الحرب.
(٣) يد هنا: طاقة، قوة.
(٤) غير الدهر: أحداثه وتقلباته.
(٥) انظر فى ترجمة أبى محمد ورسائله الذخيرة ١٢٥/٣ وما بعدها والمغرب ٤٠٢/٢ والقلائد ١٨١ والصلة رقم ٦٠٦ وبغية الملتمس رقم ٩٦٥ وإعتاب الكتاب ٢٢٠ والخريدة ١٦٦/٢، ٤٥٩/٣.

زحام، فأصاخ أبو محمد لمقاله، وتورط بين حبائله وحباله» وأصبح من كتّاب ديوانه، ولا نعرف الأسباب التى جعلت ابن زيدون يَغَصّ - كما يقول ابن بسام - بمقامه معه فى حضرة المعتضد، إذ أخذ يوغر صدره عليه، ومضت الأيام. وشعر أبو محمد بتغير المعتضد عليه، وكان سفاكا للدماء، فأخذ فى اقتناء الضياع والديار حتى يوهمه بأنه لن يفارق عمله عنده، ويبدو أنه أرسل إلى أبيه يطلعه على موقف ابن زيدون وزير المعتضد - وموقف المعتضد نفسه منه - وأنه يخشى مغبة مكثه عنده، فربما فتك به كما فتك بكثيرين. وكان أبوه قد استوطن دانية وطاب له المقام عند أميرها مجاهد، فخفّ إلى المعتضد، وخلصه من يديه، وانصرف به محفوفا بالتجلة والإكرام، يقول ابن بسام: «وجعل أبو محمد بن عبد البر بعد نجاته من المعتضد يتنقل فى الدول كالبدر يترك منزلا إلى منزل.. وكتب عندنا عن أكثر ملوك الطوائف» وأكبر الظن أن ابن بسام بالغ فى قوله إنه تنقل بين ملوك الطوائف وكتب عند أكثرهم، فإنه هو نفسه لم يَرْوِ له رسائل ديوانيه إلا عن المعتضد وعلى بن مجاهد أمير دانية بعد أبيه مجاهد (٤٣٦ - ٤٦٧ هـ) وكأنه صَحب أباه إلى دانية، فوظفه على بن مجاهد رئيسا لديوانه وكتّابه، وظل يعمل فيه، حتى توفى سنة ٤٥٨ وحزن أبوه لفقده، ولعل ذلك ما جعله يتحول عن دانية إلى شاطبة، شرقيها، وبها توفى.وقد أورد ابن بسام لأبى محمد رسائل ديوانية كثيرة عن المعتضد وعلى بن مجاهد، ومن أطرفها رسالة عن ابن مجاهد وقد زفّ ابنته إلى المعتصم بن صمادح أمير المرية، وفيها يقول:

«أُنفِذت الهديّة (العروس).. وأنا أسأل الله فى متوجَّهها ومُنْقَلبها الرعاية الموصولة بك، والكفايةَ المعهودةَ منك، حتى يَفِيء[1] عليها ظِلُّك، ويبوّئَها[2] مَثْوَى الحفاوة محلُّك، ويحميها حَوْزُك ومكانك، ويؤويها عِزُّك وسُلْطانك، ثم حَسْبى عليها كرمك وكَنَفُك[3]، وخليفتى عليها بِرُّك ولُطْفُك.. وإنك - واللّه يُبْقيك ويُمْليك، ويشدُّ[4] قَبْضتك على رقاب أمانيك وأراجيك - ذُخْرُ الأبَد، وعَتادُ الأهل والإخوان والولد، وعندك ثمرة النفس وفَلْذَةُ الكَبِد، فارقتُها عن شدة ضَنانة، وأسلمتها بعد طول صِيانة، ومازُفَّتْ إلا إلى كريم يحملها محملَ الأمانة، ويقضى فيها حقَّ الديانة، ويَرْعَى لها انقطاعها عن أهلها، واغترابَها عن مَلَئِها ومَنْشَئِها، وهو حُكْمُ الله الواجب، وقَدَرُه الغالب، وسُنّته المشروعة، ومَشِيئته المتبوعة»

---

(١) يفىء: ينبسط.

(٢) يبوئها: ينزلها.

(٣) الكنف: الحفظ والجناح.

(٤) يشد: يقوّى ويحكم.

وحدثت في سنة ٤٥٦ نكبة عظمى، فإن النورمانديين في الشمال الغربي لفرنسا تجمعوا وتجمعت معهم شراذم من فرنسا وأوربا لحرب المسلمين في الأندلس، مكوِّنين حملة صليبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة إذ باركها البابا إسكندر الثاني، واخترقت الحملة جبال البرينيه الفاصلة بين فرنسا وإسبانيا وحاصرت مدينة وَشْقة في أقصى الشمال الشرقي لإسبانيا، ولم تستطع اقتحامها، فاتجهت إلى مدينة بَرْبَشْتر إلى الشمال الشرقي من سرقسطة، وحاصروها أربعين يوما، واضطر أهلها إلى التسليم لنقص القوت والمئونة، ففتكوا بهم فتكا ذريعا وانتهكوا نساءهم وسبوا عشرات الألوف من غلمانهم وفتياتهم، وحملوا من الكسوة والفرش والأمتعة خمسمائة حمل، كل ذلك والمقتدر أمير سرقسطة قد وكلهم إلى أنفسهم وقعد عن النفير لهم. وِزْر لا يماثله وزر، وقد شركه فيه أمراء الطوائف جميعا، إذ لم ينهض أحد منهم للدفاع عن بَرْبشتر. ويعلل ابن حيان تلك الكارثة بعلتين: علة صمت الفقهاء لأكلهم على موائد هؤلاء الأمراء وتقيةً وخوفا منهم، والعلة الثانية، وهي الأفدح، أن الأمراء استناموا إلى التنابذ والتنافر، ويسميهم «أمراء الفرقة الهمل» ويعجب أن لا تنبِّههم هذه اللطمة الضخمة إلى جمع الكلمة ووقوفهم صفا واحدا ضد العدو الكاشر عن أنيابه، وأن يكون كل ما دفعتهم إليه حَفْر الخنادق حول مدنهم وتعلية الأسوار وتوثيق البنيان. وأطارت النكبة أفئدة المسلمين في الأندلس وتزلزلت بهم الأرض، وتجمعوا في السنة التالية بقيادة المقتدر بن هود أمير سرقسطة وكأنما أراد أن يغسل عنه عار نكوله عن إغاثة أهل بربشتر، وسرعان ما أجيل السيف في النصارى المعتدين واستؤصلوا أجمعين وُردَّتْ بربشتر إلى المسلمين فغسلوها من رِجْس الشرك - كما يقول ابن حيان - وجلوها من صدأ الإفك[1]. وإنما قدمنا كل ذلك لتتضح لنا صرخة ضخمة وجَّهها أبو محمد بن عبد البر في شكل منشور وُزِّع في كل مدن الأندلس، مما دفع أهل الجهاد في كل مكان منها إلى حمل سلاحهم واستردادها سريعا هذا الاسترداد المشرف، وقد جعل المنشور على لسان أهل بربشتر وعنوانه - كما يقول ابن بسام -:

«من الثُّغور القاصية، والأطراف النائية، المعتقدين للتوحيد، المعترفين بالوعد والوعيد، المستمسكين بعُرْوَة الدين، المستهلَكين في حماية المسلمين، المعتصمين بعصمة الإسلام، المتألفين على الصلاة والصيام، المؤمنين بالتنزيل، المقيمين على سُنَّة

(١) انظر في تصوير ابن حيان لموقعة بربشتر الذخيرة ٣/١٧٩.

الرسول، محمد نبيّ الرحمة، وشفيع الأمة، إلى مَنْ بالأمصار الجامعة، والأقطار الشاسعة، بجزيرة الأندلس من وُلاة المؤمنين، وحُماة المسلمين، ورُعاة الدين، من الرؤساء والمرءوسين»

والمنشور كان طويلا مما جعل ابن بسام يقتطف منه فصولا، وقد مضى أبو محمد يصور ما نزل بأهل بربشتر من الأهوال التي تقشعر لها الأبدان وتشيب لها الولدان، ومن قوله في بعض فصوله مستثيرا مستنفرا بما يوجع القلوبَ سماعُه من انتهاك النساء والدين:

«إنا لله وإنا إليه راجعون - على ما رأت منا العُيون - من انتهاك النِّعم المدَّخرات، وهَتْك سِتْر الحُرَمِ المحجَّبات، والبنات المخدَّرات، ولو رأيتم - معشر المسلمين - إخوانَكم في الدينِ، وقد غُلبوا على الأموال والأهلين، واستحكمتْ فيهم السيوفُ، واستولت عليهم الحتوف، وأثخنتهم الجراح، وعبثت بهم زُرْقُ الرِّماح، وقد كثر الضَّجيج والعَويل والنَّواح... ومصاحف تمزَّق، ومساجد تحرَّق، ولا الأخ يلبِّي أخاه، ولا الابنُ يدعو أباه، ولا الأب يدني بنيه، (لكل امرئٍ منهم يومئذ شأنٌ يُغْنيه) ولا المرضعة تَلْوِي (تعطف) على رضيعها، ولا الضجيعةُ ترثي لضجيعها.. وقد سِيقت النساءُ والوِلدان، ما بين عاريةٍ وعُرْيان، ومشيخةُ الرجال مُقَرَّنين في الجِبال، مصفَّدين في السلاسل والأغلال.. والجوامع، والصَّوامع، بعد تلاوة القرآن، وحلاوة الأذان، مُطْبقةٌ[1] بالشرك والبهتان، مشحونة بالنواقيس والصلبان، عوضا من شِيعَةِ الرحمن، والكفر يضحك ويَنْكِي[2]، والدين ينوح ويَبْكي، فيا ويلاه! ويادُلاه! وياكَرْباه! ويا قُرْآناه! ويا محمداه! ولو شهدتم - معشر المسلمين - ذلك لطارت أكبادكم جَزَعا، وتقطَّعت قلوبكم قِطَعا، واستعذبتم طَعْمَ المنايا، لموضع تلك الرَّزايا، ولهجرتْ أسيافكم أغْمادَها، وجَفَتْ أجفانكم رُقادَها، امتعاضًا لعبَدة الرحمن، وحَفظة القرآن، وضَعَفة النساء والوِلْدان، وانتقامًا من عَبَدة الطُّغيان، وحَمَلة الصُّلْبان»

والرسالة - بهذا النمط - تشعل الحماسة في النفوس الخامدة حميةً للدين الحنيف وما حُرِّق من مساجده وصوامعه وما مُزِّق من قرآنه ومصاحفه، ولنساء المسلمين وما انتهك من حرماتهم وما ساموهم به من أسر وسباء، بل من عُرْيٍ وعذاب أليم، ومن بقي من الرجال أُوثِقوا في السلاسل والأغلال. ويقول أبو محمد: إن

---

(١) مطبقة: مغطاة.　　(٢) ينكي: يقهر.

ما دهي بربشتر إنما هو رمز لما أصاب الأندلسيين في عهد أمراء الطوائف من تقاطع وتنابذ ويدعو إلى التواصل والألفة، حتى يتدارك الأندلسيون ما يوشك أن يصيبهم من هلاك مدمر، يقول متحسرا:

«ولو كان شملنا منتظمًا، وشعبنا ملتئما، وكنا كالجوارح في الجسد اشتباكا، وكالأنامل في اليد اشتراكا، لما طاش لنا سَهْم، ولا سَقط لنا نَجْم[١]، ولا ذَلّ لنا حِزْب، ولا فُلّ لنا غَرْب، ولا رُوّع لنا سِرْب، ولا كُدّر لنا شِرْب[٢]، ولكنّا عليهم ظاهرين، إلى يوم الدين، فالحذرَ الحذرَ! فإنه رأس النظر، من بركانٍ تطاير منه شَرَرٌ مُلتهب، وطوفانٍ تساقط منه قَطْرٌ مُرْهب، فلما يُؤْمَنُ من هذا إحراق، ومن ذلك إغراق، فتنبهوا قبل أن تُنبَّهوا، وقاتلوهم في أطرافهم قبل أن يقاتلوكم في أكتافكم، وجاهدوهم في ثغورهم قبل أن يجاهدوكم في دوركم»

ولم تذهب صرخة أبي محمد أدراج الرياح، فسرعان ما حمل الأندلسيون أسلحتهم كما ذكرنا، وهاجموا العدو في بربشتر وردوا كيده في نحره مستأصلين له إلا ما باعوه بيع الرقيق من الأبناء والعيال. وكان حريًا بأمراء الطوائف بعد تلك الكارثة المروعة أن يأتلفوا ويتحدوا ضد نصارى الشمال، ولكنهم عادوا إلى فرقتهم كما عادوا إلى استخذائهم من دفع الإتاوات السنوية لأولئك النصارى مع تسديدهم الرماح والسيوف إلى صدور إخوانهم من المسلمين إلى أن ضاعت طليطلة، ولولا أن تدارك يوسف بن تاشفين الأندلس لسقطت مدنها في حجور النصارى واحدة إثر أخرى.

أبو بكر[٣] بن القصيرة

هو أبو بكر محمد بن سليمان الكُلاعي الوَلْبي الإشبيلي المعروف بابن القصيرة، نشأ في إشبيلية، وتفتحت موهبته الأدبية في عهد المعتضد أمير إشبيلية، وفطن له - كما يقول ابن بسام - ابن زيدون وزيره، فنبه عليه المعتضد آخر دولته، فألحقه بديوانه، وتعرّف

---

(١) يقال لم يسقط لهم نجم كناية عن غلبتهم وظفرهم الدائم.

(٢) الشرب: مورد الماء.

(٣) انظر في ترجمة ابن القصيرة ورسائله الذخيرة ٢٣٩/٢ والمغرب ٣٥٠/١ والقلائد ١٠٤ والصلة رقم ١١٣٧ والمطرب ٨١ والمعجب ٢٢٧ والإحاطة ٥١٦/٢ وإعتاب الكتاب ٢٢٢ والوافي ١٢٨/٣ والخريدة ٣٨٣/٣ والذيل والتكملة ٢٢٧/٦ ووثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين في المجلد السابع من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد وما بها من رسائل ابن القصيرة مع تحليل د. محمود مكي لها.

حينئذ بالمعتمد وأعجب كل منهما بصاحبه، حتى إذا استولى على صولجان إشبيلية بعد أبيه رفعه إلى مرتبة الوزارة، مع إسناد الكتابة إليه، وله عنه فى الذخيرة غير رسالة، وعهد إليه غير مرة بالسفارة بينه وبين جيرانه من أمراء الطوائف، حتى إذا استولى ألفونس ملك القشتاليين على طليطلة، وشدّد عليه فيما كان يأخذ من المعتمد من إتاوات سنوية استصرخ - وبالمثل المتوكل أمير بطليوس - يوسف بن تاشفين أمير المرابطين لكى يقدم بجيشه إلى الأندلس نجدة لها ضد ألفونس ومطامعه، وكان أبو بكر بن القصيرة هو الرسول أو السفير الذى حمل رسالته إلى يوسف واستغاثته. ولبَّاه ولبَّى المتوكل وفقهاء الأندلس، فعبر بجنوده المجاز، وأنزل - يعاونه الأندلسيون وأمراؤهم : المعتمد وغيره - بألفونس وقعة الزلاقة المشهورة فى رجب سنة ٤٧٩ وفيها سحق جيش ألفونس سحقا كاد لا يبقى منه ولا يذر. وتطورت الظروف فاستولى ابن تاشفين - نزولا على إرادة الأندلسيين وفقهائهم - على إمارات الطوائف جميعا ماعدا سرقسطة فى الشمال إذ تركها لبنى هود، لما رأى من إحسانهم لحمايتها ودفاعهم عنها ضد النصارى، وأخذ المعتمد معه أسيرا إلى أغمات كما مر بنا فى غير هذا الموضع. وطبيعى أن يبتعد أبو بكر بن القصيرة عن حكام إشبيلية الجدد من المرابطين، ويظل على ذلك نحو ثلاث سنوات، ويفاجأ فى سنة ٤٨٧ باستدعاء يوسف له كى يتولى ديوان الإنشاء عنده بمراكش وكان كاتبه عبد الرحمن بن أسباط قد توفى، ويبدو أنه كان يعجب بابن القصيرة والرسائل التى حملها إليه على لسان المعتمد، وأصبح منذ هذا التاريخ رئيس ديوان الإنشاء ليوسف بن تاشفين حتى وفاته سنة ٥٠٠ وظل قائما على هذا الديوان زمن على ابنه حتى وافاه القدر سنة ٥٠٨ بمراكش.

وتحتفظ الذخيرة - كما ذكرنا آنفا - بكثير من الرسائل التى كتبها على لسان المعتمد بن عباد، ولعل أهمها الرسالة التى فصَّل فيها القول فى هزيمة ألفونس بالزلاّقة، وكان جيشه قد دُمّر، وبلغ من كثرة قتلاه أن كان الناس يتخذون من رءوسهم صوامع يؤذّنون عليها ويشكرون الله على حسن صنيعه، ومن قول ابن القصيرة فى الرسالة المذكورة ببعض فصولها بلسان المعتمد.

«قد عُلم ما كنا - قبلُ - مع عدوّ الله أذْفونش قَصَمه الله - من تَطَأْطُؤنا واستعلائه، وتقامئنا وانْتِخائِه[1]، وأنا لم نجد لدائه دواءً، ولا لبلائه انقضاءً، ولا لمدة الامتحان به

---

(١) تقامؤ: تصاغر وتذلل. انتخاء: تعاظم.

فَناءً، إلى أن سَنّى[١] الله تعالى من استصراخ أمير المسلمين وناصر الدين، أبى يعقوب يوسف بن تاشفين - أيده الله - ما سَنى، وأدْنى من نَأى ديارِه وشَحَطَ[٢] مزاره ما أدنى.. ثم أجاز - على بركة الله وعونه - يَرِيش[٣] ويَبْرِى، وسار قُدُماً[٤] يَخْلُقُ ويَفْرِى[٥]. واتفق رأينا بعد تشاور على قصد قُورِيَة (بالقرب من ماردة شرقى بَطَلْيوس) - حَرسها الله - وسمع العدو - لعنه الله - بذلك فقصد بمُحْتَشِدِه إليها فى جيوش تملأ الفضاءَ، وتسدّ الهواءَ، وتمنع أن تقع على ما تحت راياته ذُكاء[٦]، قد تحصّنوا بالحديد من قُرونهم إلى أقدامهم، واتخذوا من السلاح ما يزيد فى جرأتهم وإقدامهم، ودعاه تعاظمه إلى مواجهة سبيلنا، وحَمَلَهُ نَفْجُه[٧] وتهوّره على السلوك فى مَدْرَج سيولنا، ودَنَوْنا إليه بمحلّاتنا، وأظْلَلْنا عليه براياتنا، وتنادَى المسلمون بشعارهم[٨] المنصور، وأقبلوا عليه وعلى من معه فى حالٍ مؤذنةٍ بالظهور والوفور، وتواقف قليلًا الجمعان، وتجاولَ مَلِيًّا[٩] الفريقان، ثم صدق أميرُ المسلمين، وناصرُ الدين - أيدّه الله - الحملةَ، وصدَمَ فى جمعٍ لم يكثر عدد الجملة، فلم يلبث أعداءُ الله أن وَلّوا الأدبار، واتبعتهم خيلُ المسلمين تقتلهم فى كل غَوْر ونَجدْ[١٠]، وتقتضى أرواحهم على حالين من كالئٍ ونَقْد[١١]، ولم يخلص منهم على أيدى المتبعين - آجرهم الله - إلا من سيلتهمه البُعْد، ويأتى على حُشاشته[١٢] الجَهْد.. ولم يُصَبْ بحمد الله من المسلمين - وفَّرهم الله على هول المقام، وشدة الاقتحام، كثير، ولامات من أعلامهم تحت تلك الجولة إلا عدد يسير، وإن كان أذفونش - لعنه الله - لم يمت تحت السيوف بِدَدا[١٣]، فسيموت لا محالة أسفًا وكَمَدا، ونحمد الله على ما يسّر من هذا الفتح الجليل وسناه، ومنحه من هذا الصُّنْعِ الجميلِ وأولاه».

وليت ابن بسام روى هذه الرسالة كاملة حتى تتراءى وقعة الزلاقة المجيدة بكل تفاصيلها، والمعتمد يعترف فى مقدمتها باستخذائه[١٤] أمام ألفونس وتصاغره وشعوره

---

(١) سنىّ: فتح.
(٢) شحط: بعد.
(٣) يريش ويبرى: يضر وينفع.
(٤) قدما: مسرعا.
(٥) يخلق ويفرى. يقرر الأمر ويمضيه.
(٦) ذكاء: الشمس.
(٧) نفجه: فخره بما ليس عنده.
(٨) شعارهم: الله أكبر.
(٩) مليا: زمنا غير قليل.
(١٠) الغور: المنخفض من الأرض. النجد: المرتفع منها.
(١١) الكالئ: المؤجل. النقد: الحالّ. يقصد القتل السريع والقتل المؤجل مشيرا بذلك إلى أسراهم.
(١٢) الحشاشة: بقية الروح.
(١٣) بددا: قطعا.
(١٤) الاستخذاء: الخضوع والذل.

بالمذلة والهوان مع التزامه بما كان يدفعه له سنويا من إتاوات. ويقول إنه كان دأبه ودأب أمراء الطوائف من حوله الإذعان لنصارى الشمال، بينما كان دأب النصارى التسلط ونهب الحصون والقلاع، بل لقد نهب ألفونس طليطلة الجوهرة الكبرى، والمعتمد وأمثاله من أمراء الطوائف فى غفلة يعمهون. وقيض الله للمسلمين هناك ابن تاشفين، فقلّم أظفار ألفونس وردّ كيده فى نحره ونحر أتباعه مذمومين مدحورين على نحو ما يصور ابن القصيرة فى رسالته. واحتفظت الذخيرة برسالة لابن القصيرة على لسان يوسف بن تاشفين وجّه بها إلى أبى عبد الله محمد بن على بن حمدين حين ولاه القضاء بقرطبة سنة ٤٩٠ وله يقول:

«اسْتَهْدِ الله يَهْدِكَ. واستعنْ بالله يُعِنْك، وتولَّ القضاءَ الذى ولَّاكه الله بجدٍّ وحَزْم، وجلَدٍ وعَزْم، وأَمْضِ القضايا على ما أمضاها الله تعالى فى كتابه وسنة نَبِيه، ولا تُبالِ برغم راغم، ولا تشفق من ملامة لائم.. وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلّموا لك فى كل حقٍّ تمضيه، ولا يعترضوا عليك فى قضاء تقضيه، ونحن أولا وكلُّهم آخرا مذ صرتَ قاضيا سامعون منك، غيرَ معترضين فى حق عليك، والعمالُ والرعيةُ كافّةً سواءٌ فى الحق».

وواضح أن ابن تاشفين يجعل القاضى فوقه وفوق الرعية جميعا، ويقول إنه ليس لجماعة المرابطين فى الأندلس من أولى العقد والحل الحق فى أى اعتراض يوجهونه إليه أو إلى قضائه، ويوسف بن تاشفين نفسه أولا ثم المرابطون جميعا مذ صار قاضى الجماعة فى قرطبة قد أصبحوا خاضعين له ولأحكامه. وهو جانب مشرف فى القضاء الإسلامى، نجده فى كل مكان، ونقصد استقلاله وأن مكانة القاضى فوق مكانة الحاكم مهما بلغ من السلطان. وقد نشر الدكتور محمود مكى مجموعة من رسائل كتاب الديوان المرابطى فى عهد على بن يوسف بن تاشفين فى المجلد السابع من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد بينها تسع رسائل لابن القصيرة من الرسالة الخامسة فى المجموعة إلى الثالثة عشرة، والسابعة فى ترتيب المجموعة أشبه بمنشور وجهه إلى أهل الأندلس بلسان على بن يوسف، وكان فى زيارة لقرطبة، وفيه ينصح الأندلسيين بطاعة الوالى وأن لا يعصوا له أمرا قائلا:

«إنه النائبُ عنا فى تدبيركم، وإقامة أموركم، وسياسة صغيركم وكبيركم، وقد فوَّضْنا

إليه ذلك وأفردْناه بالنظر في دِقّه وجُلّه[١]، وقُلّه وكُثْره[٢].. وما فعل من ذلك كلّه فنحن فعلناه، وما قال فيه فكأننا نحن قلناه، ولا نوقف ما أمضاه، ولا نمضى ما وقفه وأباه، ولا نرى في أحد منكم إلا ما يراه، ولا نتولّاه كائنا ما كان إلا أن يتولّاه، ولا نرضى من أحواله ما لا يرضاه، بلساننا يتكلم، وعما في جَنَاننا[٣] يترجم، وعلى ما يوافقنا يُسْدِى ويُلْحم[٤]».

وفي رأينا أن هذه قسوة في معاملة الرعية، وواجب الحاكم الأعلى مثل على بن يوسف أمير المرابطين أن يأخذ الرعية بالحلم، وأن يوصى ولاته بمعاملتها بالعدل الذى لا تصلح حياة الناس بدونه وأن يسمعوا إلى شكواهم وأن يفتحوا أبوابهم لكل متظلم أو مظلوم في الرعية. وتخلو بعض السطور في رسائل ابن القصيرة من السجع، وهو ما جعل عبد الواحد المراكشي يقول عنه: «كان ابن القصيرة على طريقة قدماء الكتاب من إيثار جزل الألفاظ وصحيح المعانى من غير التفات إلى الأسجاع التى أحدثها متأخرو الكتّاب، اللهم إلا ما جاء في رسائله من ذلك عفوا من غير استدعاء». وهذا الحكم إنما يصدق فقط على بعض سطور تتخلل أحيانا رسائله المسجوعه.

ابن أبى الخصال[٥]

هو أبو عبد الله محمد بن مسعود الغافقى الشُّقُورى المعروف بابن أبى الخصال، المولود سنة ٤٦٥ بفَرْغليط إحدى قرى شقوره من إقليم جيان غربى مرسية. سكن قرطبة، ودرس على شيوخها، ونهل من حلقاتهم ما جعله متفننا في العلوم مستبحرا في الآداب واللغات، عالما بالأخبار ومعانى الحديث والآثار والسير والأشعار. ويضيف ابن بشكوال إلى ذلك أنه «كان مفخرة وقته وجمال جماعته، حسَن العشرة، واسع المبرة، من

---

(١) دقه: دقيقه. جله: كبيره.

(٢) قله: قليله. كثره: كثيره.

(٣) الجنان: العقل.

(٤) يسدى ويلحم: يصيب ويحكم.

(٥) انظر في ترجمة ابن أبى الخصال ورسائله الذخيرة ٧٨٦/٣ والمغرب ٦٦/٢ والقلائد ١٧٥ والصلة رقم ١١٨٧ والبغية رقم ٢٨٢ والمطرب ١٨٧ والمعجب ٢٣٧ وفهرست ابن خير ٣٨٦، ٤٢٠ ومعجم الصدفى ١٤٤ والخريدة ٤٤٩/٢ والإحاطة ٣٨٨/٢ وصبح الأعشى ٤١٣/٢، ٥٣/٨، ٨٥، ٨٦، ٨٩، ٩١، ٢٢٢، ٢٢٧، ٢٦٣/١٤ وراجع أربع رسائل ديوانية له في وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين في المجلدين السابع والثامن من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد بتحقيق وتحليل د. محمود مكى. وفي معهد المخطوطات بالقاهرة التابع لجامعة الدول العربية مخطوطة له بعنوان ترسل الفقيه الكاتب ابن أبى الخصال.

أهل الخصال الباهرة والأذهان الثاقبة، فصيح اللسان، حسن البيان، حلو الكلام أحد رجال الكمال، وله تآليف حسان» منها كتاب «سراج الأدب» وكتاب «ظل الغمامة وطوق الحمامة» فى مناقب من خصَّه الرسول عليه الصلاة والسلام من صحابته بالكرامة، وأحلّه بشهادته الصادقة دار المقامة. وكان كاتبا بليغا وشاعرا محسنا، وله قصيدة طويلة فى نسب الرسول ﷺ سماها «معراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب». وله بجانب ذلك رسائله الديوانية والشخصية البديعة، ويقول صاحب المعجب: «له ديوان رسائل يدور بأيدى أدباء أهل الأندلس قد جعلوه مثالا يحتذونه، ونصبوه إماما يقتفونه» ويقول صاحب المطرب إن نظمه الرائق وترسله الفائق يقع فى خمس مجلدات.

ولم يلتحق بديوان أحد من أمراء الطوائف، وأول مرابطى التحق بديوانه محمد بن الحاج القائد المرابطى والى يوسف بن تاشفين على قرطبة، وكان يسند إليه أحيانا قيادة الجيوش التى تنازل نصارى الشمال، وولاه فى سنة ٤٩٧ على غرناطة، وعزله عنها فى السنة التالية، إذ أبقاه للجيوش المحاربة. وحين تحولت مقاليد الحكم بعد يوسف إلى ابنه على ولاه على فاس سنة ٥٠١ وعلى بلنسية سنة ٥٠٣ وظل ينازل ألفونس ملكِ أراجون بالقرب من سرقسطة محاميا عنها ومدافعا حتى وفاته سنة ٥٠٨. وإنما ذكرنا ذلك كله عن محمد بن الحاج، لأننا نظن أن ابن أبى الخصال ظل كاتبا له حتى مطالع القرن الخامس الهجرى، وحتى استدعاه على بن يوسف أمير المرابطين للعمل فى ديوانه بمراكش، وسنرى عما قليل أنه كتب عنه رسالة سنة ٥٠٧ ولا نعرف بالضبط متى استدعاه أو متى بدأ العمل فى هذا الديوان. ويقول ابن بسام: إنه كاتبه سنة ٥٠٣ ليرسل له مقتطفات من نثره وشعره يسجلها فى كتاب الذخيرة، ويذكر أنه أرسل له هذه الرسالة وهو مجتاز بإشبيلية فى جملة العسكر، وإذا عرفنا أن على بن يوسف قاد جيشا فى تلك السنة اتجه به إلى طليطلة وفتح عدة مدن وحصون بينها طلبيرة رجحنا أن يكون ابن أبى الخصال رافقه فى جملة هذا العسكر أو هذا الجيش وكان معه ابن حمدين قاضى قرطبة، وربما التحق فعلاً بديوانه فى هذه السُنة أو قبلها بقليل. وظل يحظى عند على بن يوسف بمنزلة أثيرة، وعينَ أخاه أبا مروان معه فى الديوان، وما زالا يكتبان عن على، وهو راض عنهما كل الرضا حتى غزا ألفونس المحارب رذمير صاحب أراجون فى الشمال إقليم بلنسية سنة ٥٢٣ ونهضت له منها حشود ضخمة من الأندلسيين ومن المرابطين، والتقى الجمعان عند قلعة قليرة بمقربة من جزيرة شقر، وكانت الدائرة على المرابطين والأندلسيين، وفقدوا اثنى عشر ألفا بين قتيل وأسير يقول ابن القطان: «وبلغ ذلك على بن يوسف فغاظه، وأمر

بالكتابة إلى جنود لمتونة (المرابطين) فى بلنسية بالخزى، فكتب ابن أبى الخصال عنه إليهم بكل تنكيل وخزى[١]» وأفحش أبو مروان عليهم فى رسالته بقوله فى بعض فصولها: «أى بنى اللئيمة وأعيار الهزيمة، إلام يزيّفكم الناقد[٢]، ويردكم الفارس الواحد؟ فليت لكم بارتباط الخيول ضأنا لها حالبٌ قاعد، لقد آن أن نوسِعَكم عِقابا وأن لا تَلوثوا[٣] على وجه نِقابا، وأن نعيدكم إلى صحرائكم، ونطهِّر الجزيرة من رُحَضَائكم[٤]». وهى مبالغة فى الإفحاش على جيش المرابطين المجاهد فى الأندلس، مما أحنق على بن يوسف، فأخَّر أبا مروان عن كتابته. ويقول صاحب المعجب: إن على بن يوسف راجع أبا عبد الله بن أبى الخصال فيما كتب أخوه وأن أبا عبد الله استعفاه فأعفاه ورجع إلى قرطبة بعد ما مات أخوه أبو مروان بمراكش» وأخوه إنما توفى سنة ٥٣٩ مما يدل - فى رأينا - على أن على بن يوسف لم يقبل استقالتهما من ديوان الكتابة وأنهما ظلا يعملان فيه حتى وفاة على بن يوسف سنة ٥٣٧ على الأرجح، وربما عملا فيه بعد وفاته إلى أن توفى أبو مروان، فعاد أبو عبد الله إلى قرطبة، ولازم داره بها حتى توفى سنة ٥٤٠.

ولأبى عبد الله رسائل شخصية ومواعظ ووصف نثرى للطبيعة ومقامة، وسنعرض لكل ذلك فى غير هذا الموضع، وحسبنا الآن أن نعرض لرسالتين اخترناهما من رسائله الديوانية كتب أولاهما فى سنة ٥٠٧، وهى موجهة إلى أهل الأندلس للحض على الجهاد وإعلامهم أن أمير المسلمين على بن تاشفين عزم على خوض معارك ضارية مع النصارى الشماليين وفى فاتحتها يقول:

«كتابُنا - أعزَّكم الله - بتَقْواه، وكنَفكم بظلِّ ذُرَاه، ووفَّر حظوظكم من حُسْناه، من حضرة مراكش - حرسَها الله - يوم الاثنين منتصف شوال من سنة سَبْع وخمسمائة بين يدى حركتنا يُمْن الله فاتحتها وعُقْباها، وقد قرَعْنا الظَّنَابِيب[٥]، وأشْرَعْنا الأنابيب[٦]، وضمَّرنا اليَعاسيب[٧]، واستنفرنا البعيد والقريب، مستشعرين إخلاصَ نية، وصدق حميَّة،

---

(١) راجع قسما من نظم الجمان لابن القطان تحقيق د. محمود مكى (طبع الرباط) ص ١١٠ وما بعدها.

(٢) الناقد: الصيرفى الذى يميز النقد الحق من الزائف.

(٣) تلوثوا: تضعوا اللثام شعار لمتونة على وجوهكم.

(٤) رحضاء: عرق الحمى، والكناية واضحة.

(٥) قرع الظنابيب: كناية عن الإسراع للحرب.

(٦) الأنابيب: الرماح.

(٧) اليعاسيب: الخيل.

في نصر دين الإسلام، وَمَنْع جانبه أن يُضام، أو يناله من عدوه اهْتِضام[١]. ونحن وإن كنا قد بالغنا في الاحتشاد والاستعداد، واستنهضنا من الأجناد، ما يُرْبى على الحَصَى والتعْداد، فإنا نعتقد اعتقاد يقين، بقول رَبِّ العالمين، في كتابه المبين ﴿قل ما يَعْبَؤُ بكم رَبِّى لولا دعاؤُكم﴾ أن استنفار الدعاء، واستفتاح أبواب السماء، بخالص الثناء، من أنفع الأشياء، وأنجع الدواء، فيما أعضل[٢] من الأدْوَاء».

وكانت هذه السنة حقا من السنوات التى أبلى فيها المرابطون بلاء عظيما فى قتال نصارى الشمال سواء نصارى أراجون أو برشلونة أو القشتاليين. وإنه لما يحمد لهم ولعلى بن يوسف أنهم ظلوا لا يغمدون سيوفهم أبدا وظلوا يواجهون أعداءهم منزلين بهم ضربات قاصمة، وكان النصارى أحيانا ينتصرون فى بعض الوقائع، ولكن سرعان ما كان المرابطون يأخذون ثأرهم، ويكيلون لهم الصاع صاعين. وفى أثناء ذلك كتب المعاهدون من النصارى من أهل الذمة - وخاصة فى غرناطة - إلى الملك النصرانى ألفونس بن رذمير ملك أراجون يدعونه للاستيلاء على ما بيد أهل الأندلس من البلدان، فلباهم فى أواخر شعبان سنة ٥١٩ وقاد جيشا كثيفا اخترق البلاد من سرقسطة إلى غرناطة، وهاجم كل ما فى طريقه من بلدان مثل دانية ومرسية ووادى آش وحاصر غرناطة غير أنه اضطر إلى فك الحصار عنها، وكان قد واقعه المرابطون بجوار اليُسانة بالقرب من قرطبة ولم يكتب لهم النصر، ومضى على وجهه مخترقا إقليم البُشَرَّات ومالقة إلى البحر المتوسط، واتجه إلى الشمال عائدا إلى موطنه[٣]. وكان قد ظل فى هذه الحملة نحو سنة يعيث فى الأندلس مما أغضب أهلها أشد الغضب، وخاصة على المعاهدين من أهل الذمة الذين يعايشونهم لا لأنهم كاتبوا ملك أراجون فحسب بل أيضا لأنهم كانوا يشدون أزره أينما توجه ويدلونه على عورات البلاد ويبذلون له كل عون. وكان يزيد فى غضبهم شىء من تقاعس تميم بن يوسف بن تاشفين والى غرناطة وقرطبة فى تلك السنة. وانتدب أبو الوليد بن رشد الفقيه الكبير جد الفيلسوف ابن رشد نفسه للوفود على أمير المرابطين على بن يوسف بمراكش وإطلاعه على صنيع المعاهدين من أهل الذمة واستدعائهم لملك أراجون وعونهم له فى حملته مما نقضوا به العهد الموثق بينهم وبين

---

(١) اهتضام: ظلم.

(٢) أعضل: أعجز. الأدواء: الأمراض.

(٣) انظر فى هذه الحملة الإحاطة (طبعة عنان) ١١٤/١، والحلل الموشية ٧٥ وتاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشباخ ترجمة عنان ص ١٤٦.

المسلمين «وأفتى بتغريبهم عن أوطانهم[١]» ووعده على بن يوسف أن يأخذ بفتواه، وأمر ابن أبى الخصال أن يكتب إلى أهل الأندلس - وخاصة أهل غرناطة وقرطبة - يطمئنهم بأنه سيتخذ من الإجراءات ما يرضيهم، وصدع ابن أبى الخصال بأمره، وكتب إليهم رسالة ضافية جاء فيها:

«وَفَدَ إلينا، وورد علينا، الفقيهُ الأجَل المشاور أبو الوليد بنُ رُشْد، فبسط لدينا شأن تلك الجزيرة - كلأها الله - وجَلَّاه، ووصف من حالها ما أَصْخنا له حتى استوفاه، وجال بميدان البيان أفسح مجال، وعرض الأمور فى معرضها بأبلغ مقال.. ولن نَأْلُوَ[٢] جهدا مَبْذولا، وجِدًّا حَفِيلا، وعَزْما لا نابيا ولا كَلِيلا[٣]، فيما نَدْرَأ ونَدْفَع، ونذودُ عن حَوْزة[٤] الملة ونمنع، ونَدْأَبُ لذلك الدَّأْبَ الحَثِيث[٥]، نتبع القديم فيه بالحديث، ونَنْصِبُ له النُّصُبَ الذى ليس حَبْلُه السَّحِيلَ[٦] ولا النَّكِيثَ[٧]، ولا يشغلنا عنه شاغل وإن أَهَمّ، بل نصرف نحو جنابكم الحزم الأَتَمَّ الأهم، وجهدَ الكفاية مادهَم حادث وأَلَمّ، فاستَبْشِروا أن أموركم إزاء ناظر اهْتبالنا[٨]، ومن آكد مؤكَّدات أشغالنا، وقد عاين الفقيهُ الأجلُ المتقدمُ الذكر، حقيقةَ الأمر، وسيبلغكم ذلك عنه فلا تكونوا فى ريب منه، والله تعالى يُعيننا على ما نحن بصدده، ويَمْنَحنُا من تأييده ما يُعِزّ الإسلامَ ويقيم من أَوَدِه[٩]، بحوله وطَوْله، وعَدْله وفضله».

وفعلا نفَّذ على بن يوسف فتوى الفقيه ابن رشد، فأمر فى رمضان من سنة ٥٢٠ بإجلاء المعاهدين من النصارى الذين نقضوا العهود الموثقة إلى مكناسة وسَلا وغيرهما من بلدان المغرب، وعزل أخاه تميما عن غرناطة وقرطبة لتقصيره إزاء حملة ابن ردمير. وإذا كان المرابطون قصَّروا - أو أُخذ عليهم شىء من التقصير - فى مواجهة ابن ردمير فإنهم طالما أبلوا فى منازلة النصارى الشماليين وأبلى معهم تميم كما حدث فى موقعة أُقْليش التى انتصروا فيها على جيش ألفونس السادس ملك قشتالة، وفيها كان مصرع ابنه شانجه. وواضح مما اخترناه من كتابات ابن أبى الخصال الديوانية أنه كان كاتبا مجيدا يحسن انتخاب الكلم فى نسق محكم من السجع الرصين.

---

(١) الإحاطة ١١٩/١ - ١٢٠.

(٢) نألوجهدا: نقصر فى جهد.

(٣) كليلا: ضعيفا.

(٤) حوزة الملة: حدودها وجوانبها.

(٥) الحثيث: السريع.

(٦) السحيل: المفتول على قوة واحدة فتلا خفيفا.

(٧) النكيث: المنقوض المشعث، ضد المفتول.

(٨) اهتبالنا: اغتنامنا الفرصة.

(٩) أوده: اعوجاجه.

ابن عَمِيرة المخزومي[1]

هو أبو المطرف أحمد بن عبد الله المخزومى من سلالة خالد بن الوليد، وُلد سنة ٥٨٢ بجزيرة شُقْر بين شاطبة وبَلَنْسِية، ونهرها يحيط بها من جميع الجهات، ولذلك سميت جزيرة، وطالما تغنى أبناؤها - من أمثال ابن خفاجة - بجمال طبيعتها. وعُنى به والده منذ نعومة أظفاره، فأدخله كتابا حفظ فيه القرآن الكريم وبعض الشعر، ثم دفعه إلى حلقات بعض الشيوخ، حتى إذا أيفع وشبَّ أرسل به إلى بلنسية لينهل من حلقات حافظها ونقيبها وقاضيها أبى الربيع الكلاعى، وفيها أخذ يختلف إلى حلقات غيره من العلماء وخاصة حلقة ابن نوح الغافقى شيخ العربية وقواعدها النحوية. ودفعه شغفه بالاستزادة من العلم إلى الرحلة فى طلبه عند بعض العلماء المشهورين لأيامه، فرحل إلى شاطبة ونهل من حلقتى شيخها أبى عمر الشاطبى وقاضيها أبى الخطاب بن واجب، ورحل إلى دانية للأخذ عن ابن حوط الله الأنصارى، ونزل مرسية وأخذ عن شيخها عزيز بن خطاب، وسمع عليه كتاب المستصفى فى علم الأصول للغزالى وبعض كتب الصوفية. وطمحت نفسه مبكرا إلى أن يكون من أصحاب الجاه، وكانت فيه نزعة أدبية هيأته ليكون شاعرا، ولم يلبث أن عمل بديوان أبى عبد الله بن أبى حفص الموحدى حاكم بلنسية حوالى سنة ٦٠٧ وهو فى نحو الخامسة والعشرين من عمره. وظل بهذا الديوان سنوات متعاقبة، ونراه فى سنة ٦١٧ بإشبيلية، ولعله كان يريد العمل بدواوينها، وظل بها فترة اختلف فيها إلى حلقة الشلوبين إمام العربية بالأندلس فى عصره. وعاد إلى بلنسية، وكان قد وليها للموحدين سنة ٦٢٠ أبو زيد بن أبى عبد الله بن أبى حفص فألحقه بديوانه مع صديقه ابن الأبار، حتى إذا كانت سنة ٦٢٦ ثار على أبى زيد زيانُ بن أبى الحملات بن مردنيش واستولى منه على بلنسية، وظل ابن عميرة يعمل فى ديوان زيان حتى أواخر سنة ٦٢٨ وأحسَّ من زيان شيئا من

---

(١) انظر فى ابن عميرة وترجمته ورسائله معجم أصحاب الصدفى ص ١٦٣ وتحفة القادم رقم ٩٢ واختصار القدح المعلى ص ٤٢ والمغرب ٢/٣٦٣ وجذوة الاقتباس لابن القاضى ص ٧٢ وعنوان الدراية للغبرينى ص ١٧٨ والإحاطة ١/١٧٣ ونفح الطيب ١/٢٧٢ وصبح الأعشى ٦/٥٣٤، ٧/٣٧، ٩٤، ٩٨، ١١٠، ١١٦، ٨/١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٦، ٩/٣٠١، ١٠/٣٠٦ وراجع كتاب «أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومى: حياته وآثاره» لمحمد بن شريفة (طبع الرباط) وتحتفظ الخزانة العامة فى الرباط بمخطوطتين من رسائله.

الوحشة، فترك بلنسية إلى بلدته جزيرة شُقْر، وكان سلطان ابن هود أمير مُرْسية قد اتسع، فكتب له فى سنة ٦٢٩ وعيَّنه ابن هود قاضيا فى شاطبة، جامعا له بين القضاء والكتابة كما تدل على ذلك بيعة طويلة كتبها باسم ابن هود عن نفسه وعن أهل شاطبة فى الأندلس للمستنصر العباسى مع بيعة الناس فيها أيضا له ولابنه وليا للعهد من بعده. وابن هود فيها يعلن ولاءه وطاعته للخليفة العباسى استكمالا لثورته على الموحدين وما يدَّعون من خلافتهم. وربما ظل يجمع بين عمله فى الكتابة لابن هود وقضاء شاطبة. وتوفى ابن هود سنة ٦٣٥ وخلفه عمه واستولى منه على الحكم عزيز بن خطاب، واتخذ ابن عميرة كاتبا له، وقُتل ابن خطاب. وكان ملك أراجون قد استولى على بلنسية، وقبله بقليل استولى ملك قشتالة على قرطبة، وشعر ابن عميرة أن مستقبل الأندلس مظلم، فرأى الهجرة منها إلى المغرب، وعبر الزقاق، ونزل سبتة عند واليها ابن خلاص فرحب به، ولم يلبث أن لقى الخليفة الموحدى الرشيد فى مدينة الرباط حين زارها، وصحبه معه إلى حاضرة مملكته: «مراكش» وألحقه بدواوينه، ولبث بها ابن عميرة قليلا، إذ عينه الرشيد قاضيا فى سَلاوالرباط. وتوفى الرشيد سنة ٦٤٠ فأقرَّه أخوه السعيد على عمله، ثم نقله إلى مكناسة، ونراه فيها يكتب باسم أهلها بيعة لسلطان تونس أبى زكريا الحفصى، ويبدو أنه إنما أغراه بذلك أنه رأى بوضوح أن دولة الموحدين تحتضر، وتكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة. وعاد إلى سبتة يكتب لحاكمها. وفى سنة ٦٤٦ تحوَّل إلى أبى زكريا سلطان تونس ودولته الحفصية، ونزل بجاية وأفضال أبى زكريا تتوالى عليه. ولم يلبث أبو زكريا أن توفى سنة ٦٤٧ وخلفه ابنه المستنصر، فاستقدمه إلى تونس، وولاه القضاء فى قسنطينة وغيرها، ثم استخلصه لنفسه مستشارا وأنيسا، وغمره بأفضاله إلى أن توفى سنة ٦٥٨ للهجرة.

وطبيعى أن تكون لابن عميرة رسائل ديوانية كثيرة، إذ كتب لحكام بلنسية من الموحدين وخاصة لأبى زيد الموحدى، وكتب بعده لحكامها: زيان بن مردنيش الثائر عليه وابن هود أمير مرسية وعزيز بن خطاب صاحبها والرشيد الموحدى، ومن أقدم رسائله رسالة كتبها عن أبى زيد الموحدى أمير بلنسية إلى المستنصر الموحدى سنة ٦٢٠ يستأذنه فى وفود أمير نصرانى عليه من أراجون يسمى: «بلاسكو أرطال» كان وصيا على ملكها خايمى . ولما استبد بالملك اختلف معه ونفاه فلجأ إلى بلنسية، واستُقْبل بالترحيب على أمل كاذب أن يكون فيها بعد عونا لحاكم بلنسية فى حروبه ضد ملك أراجون. وصوَّر ابن عميرة هذا الأمل المخطئ وأمر هذا اللاجئ فى رسالته، وقد احتفظ القلقشندى فى الجزء

السادس من صبح الأعشى بشطر كبير منها، وفيها يقول عنه ابن عميرة:

«كان له فى البلاد الأرَغُونِيَّة زعامة فى شَأْوِها[١] بَرَّز، ولغايتها أحْرَز، وكان قد كفل صاحبَ أراجون فى الزمان المتقدم كفالةً دارَ أمرها عليه، وأُلْقِى زمامُها إليه. ثم إنه حُطّ من رتبته، وتأكدت المبالغة فى نكبته.. والظاهر من حَنَقه على أهل أراجون وشدة عَداوته لهم، وما تأكّد من القطيعة بينه وبينهم، أنه إن صادف وَقْتَ فتنةٍ معهم ووجد ما يؤمِّله من إحسان الأمر العالى - أيَّده الله - فينتهى من نكايتهم والإضرار بهم إلى غايةٍ غريبة الآثار، مفضية به إلى درْك الثار، وكثير من زعماء أراجون ورجالها أقاربه وفُرسانه وكلهم - فى حَبْله - حاطب[٢]، ولإنجاده - متى أمكنه - خاطب».

وكأن أبا زيد ومن حوله لم يأخذوا درسا من التجاء ألفونس القشتالى إلى طليطلة حين حاربه أخوه شانجه وانتصر عليه وفرَّ منه إلى دير، ولجأ إلى المأمون أمير طليطلة فرحب به وبالغ فى إكرامه تسعة شهور متعاقبة، عرف فيها مداخل حصن طليطلة العتيد ومخارجه، فلما توفى أخوه وأصبح ملكا على قشتالة لم يكن له هم إلا الاستيلاء على طليطلة، واستولى عليها، وكان ذلك بدء ضياع الأندلس منذ هذا التاريخ، وهو درس كان ينبغى أن لا ينساه أبو زيد، وخطأ أكبر الخطأ أن يفتح حكام بلدة صدورهم وبلدهم لأعدائهم ظانين أنهم يستطيعون أن يحيلوهم أصدقاء أو ما يشبه الأصدقاء، وما أبعده وهما أن يصبح العدو صديقا فما بالك إذا كان العدو محاربا لك، ولكن هكذا قُدِّر لبلنسية أن يحكمها غِرّ ليس عنده بصر بالأمور وأن يجد فى كنفه «بلاسكو» الأرَجونى عدوه الأمان والضيافة لمدة عامين متعاقبين، ويرجع إلى بلده، ويعود منها بعد قليل مع ملكها بجيش يستولى به على بلنسية بعد تنكيله بأهلها تنكيلا شديدا.

ونقف قليلا عند البيعة للخليفة العباسى المستنصر التى أشرنا إليها والتى كتب فيها ابن عميرة رسالة طويلة بعقد ابن هود على أهل شاطبة الولاء لهذا الخليفة والبيعة لنفسه ولابنه وليا للعهد من بعده، وهو يستهلها بحمد الله والصلاة على رسوله بهذا النمط:

«الحمدُ لله الذى جعل الأرضَ قَرارا، وأرسل السماءَ مِدْرارا، وسخَّر ليلاً ونهارا، وقدَّر آجالا وأعْمارا، وخلق الخلق أطْوارا، وجعل لهم إرادةً واختيارا، وأوجد لهم تفكُّرًا

---

(١) شأوها هنا: سلطانها.

(٢) يقال حطب فى حبله إذا أعانه ونصره.

واعتبارًا، وتعاهدهم برحمته صِغارا وكبارا، نحمده حمد من يرجو له وَقارا، ونبرأ ممن عانده استكبارا، وألْحَدَ فى آياته سَفاهة واغترارا، وصلى الله على سيدنا محمد الشريف نِجارا، السامى فخارا، رفع الله من شريعته للأمة مَنارا، وأطفأ برسالته للشِّرْك نارا، حتى علا الإسلام مقدارًا، وعزَّ جارًا ودارا، وأذعن له الكفر اضطرارًا، واستسلم ذلَّةً وصَغارا، فمضى وقد ملأ البَسيطة أنوارا، وعمَّها بدعوته أنجادا وأغْوارا، وأوجب لولاة العهد بعده طاعة وائْتمارا. فجزى الله أفضل ما جزى نبيًّا مختارا، ورسولا اجْتَباه اختصاصًا وإيثارا، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين آثارا واختبارا، وعلى أصحابه الكرام مهاجرين وأنصارا، صلاة نواليها إعلانا وإسرارا، ونرجو بها مغفرة ربِّنا إنه كان غفارا»

وواضح أن ابن عميرة التزم فى سجع هذه القطعة التى استهل بها البيعة حرف الراء، وهو جانب يشيع شرقا وغربا حتى لنجد الرسالة يُخْتار لها أحيانا حرف بعينه، وكان الحريرى قد ابتدأ ذلك برسالتين التزم فى إحداهما السين وفى الثانية الشين، فأخذ الحصكفى وبعض الكتاب فى الشرق يحاكيه فى هذا الصنيع، وبالمثل أخذ بعض الكتاب فى الأندلس يحاكونه فيه ببعض رسائلهم الشخصية دلالة منهم على مهارتهم الفنية، وسنعود إلى الحديث عن هذا الجانب فى عرضنا للرسائل الشخصية عند ابن عميرة وغيره من الكتاب. وله فصول وكلمات وعظية على طريقة ابن الجوزى كما ذكر ذلك ابن عبد الملك فى ترجمته له بكتابه «الذيل والتكملة. وله مؤلفات مختلفة منها تعليقات على كتاب المعالم للفخر الرازى وتعقيب على كتاب التبيان فى البلاغة لابن الزملكانى، ومنها كتاب فى تاريخ ثورة المريدين على دولة المرابطين وكتاب عن كائنة ميورقة واستيلاء ملك أراجون عليها. وبالخزانة العامة بالرباط مخطوطتان من رسائله.

لسان[1] الدين بن الخطيب

أكبر كتاب غرناطة والأندلس فى أزمنتها الأخيرة، وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد، ولد سنة ٧١٣ للهجرة لأسرة يمنية بلوشة على نهر شنيل بالقرب من غرناطة، وكان أبوه من أهل العلم والأدب، فعيِّن بدواوين غرناطة عند أمرائها بنى

---

(١) انظر فى ترجمة لسان الدين التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٥٥ وما بعدها وصبح الأعشى للقلقشندى ٥٣٦/٦ وتاريخ ابن خلدون ٣٣٢/٧ وأزهار الرياض ١٨٦/١ وما بعدها والجزءين الخامس والسادس من نفح الطيب وكتاب الاستقصا للسلاوى (طبع الدار البيضاء) ١٢/٤ وفى مواضع متفرقة وراجع كتابه: أعمال الأعلام:=

الأحمر، وبها نشأ لسان الدين، وعُنى أبوه بتربيته، فبعد حفظه للقرآن الكريم ألحقه بحلقات علماء العربية والدراسات الإسلامية، وطمحت نفسه لمعرفة علوم الأوائل فلزم يحيى بن هذيل أهم علمائها فى زمنه. وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة، وأخذ فى مديح السلطان أبى الحجاج يوسف (٧٣٣ - ٧٥٥) وهو أهم سلاطين بنى الأحمر فى القرن الثامن الهجرى، ويُعَدّ مؤسس قصر الحمراء المشهور بما أضاف إليه من غرفه وأبهائه الفخمة. وأعجب السلطان بأشعار لسان الدين فألحقه بدواوينه، وأخذ يلزم أبا الحسن بن الجياب رئيس ديوان الكتاب وشيخ العدوتين: الأندلس والمغرب فى النثر والنظم وسائر العلوم الأدبية، وعُنى بالأديب الشاب، ومازال يعمل معه حتى توفى سنة ٧٤٩ فولاه السلطان أبو الحجاج رياسة ديوان الكُتَّاب بعده، وتوفى السلطان سنة ٧٥٥ وخلفه ابنه الغنى بالله، فازدادت حظوته عنده ورفعه إلى مرتبة. الوزارة.ونشبت ثورة ضد سلطانه واضطر إلى اللجوء إلى السلطان أبى عنان المرينى بفاس سنة ٧٦٠ وصحبه لسان الدين هناك ولم يلبث أن جال فى بلاد المغرب واستقر بمدينة سَلا زمنا، وعاد سلطانه إلى عرشه بغرناطة سنة ٧٦٣ فاستدعاه وألقى إليه بمقاليد الحكم، ولقَّبه بذى الوزارتين: السيف والقلم، وانفرد بالحل والعقد فترة، ثم أخذ يشعر بدسائس كثيرة من حوله، فخشى على نفسه مغبة ذلك، فجمع حقائبه سنة ٧٧٢ وتوجه إلى السلطان عبد العزيز المرينى بفاس فأكرمه. ولم يهدأ خصومه بغرناطة وفى مقدمتهم تلميذه ابن زَمْرَك وقاضى غرناطة أبو الحسن النباهى ودسُّوا عليه عند الغنى بالله أنه يحرض سلطان فاس على غزو الأندلس وضم غرناطة إليه ووصموه بالزندقة لما ذكر فى كتابه: «روضة التعريف» من عقيدة التصوف الفلسفية وما يتصل بها من الحلول وغير الحلول، ورُفع ذلك إلى السلطان عبد العزيز المرينى فأبى تسليمه مبرِّئا له مما وصموه به.. ولم يلبث السلطان أن توفى سنة ٧٧٤ واضطربت الأمور فى فاس، وتولى سلطنتها - بمساعدة الغنى بالله - أبو سالم المرينى سنة ٧٧٦ ولم يلبث أن أودع ابن الخطيب السجن إرضاء للغنى بالله. ولم يكتف تلميذه ابن زمرك بذلك، إذ قدم إلى فاس وعقد محاكمة لأستاذه فى مجلس السلطان

= القسم الثانى (طبع الرباط) ص٢٦١ وما بعدها وكتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٣٣٣ وللسان الدين أعمال كثيرة منها الإحاطة فى أخبار غرناطة (طبع دار المعارف) والكتيبة الكامنة فى معاصريه بالمائة الثامنة تحقيق د. إحسان عباس (طبع بيروت) ونفاضة الجراب فى كتاب مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى المغرب والأندلس (طبع الإسكندرية) وكتابه فى التصوف: روضة التعريف بالحب الشريف (طبع بيروت) وديوانه الشعرى: الصيب والجهام (طبع الجزائر).

أبى سالم وعرض عليه بعض كلمات كتبها فى مصنفه «روضة التعريف» تتصل بآراء الصوفية المتفلسفة من مثل الحلول والاتحاد، وأعلن النكير عليه موبخا له، ونُقل إلى السجن، وأخذ القوم يتشاورون فيه وأفتاهم بعض الفقهاء قصار النظر بقتله، ودُسَّ إليه فى السجن مَن قتلوه خنقا، وألقيت جثته على قبره، ويقال إنه أضرمت عليه نار فاحترق شعره واسودت بشرته، ووُورِىَ التراب. وعجب الناس فى فاس وفى غرناطة من هذا التمثيل الشنيع، وعدّوه من هنات ابن زَمْرَك تلميذه العاق.

ولم يكن ابن الخطيب متصوفا فضلا عن أن يكون متصوفا فلسفيا كما حاول ابن زمرك أن ينعته بذلك كذبا عليه وافتراء، إنما كان كاتبا موسوعيا كما تشهد بذلك مصنفاته الكثيرة، وقد كتب فى التصوف كتابه «روضة التعريف» لشيوع التصوف فى زمنه بالأندلس وخاصة بالمغرب، ولو كان متصوفا حقا لهجر الدنيا وعاش فى زاوية - أو ضرب فى الأرض - ناسكا مثل ابن عربى وابن سبعين والششترى. ولا نخليه من ميول إلى الزهد والتصوف كما تدل على ذلك أشعاره ولكن هذا شىء والتصوف الحقيقى شىء آخر. وفيه يقول المقرى: «هو لسان الدين وفخر الإسلام بالأندلس فى عصره الطائر الصيت المثل المضروب فى الكتابة والشعر والمعرفة بالعلوم على اختلاف أنواعها» ويقول ابن خلدون فى وصف براعته الأدبية: «كان آية من آيات الله فى النظم والنثر والمعارف والأدب لا يساجَل مداه، ولا يُهْتَدى فيها بمِثل هداه». ومما قيل فيه: «كاتب الأرض إلى يوم العرض». وله - بجانب ديوانه: الصيِّب والجهام - مقامة بناها على المفاخرة بين سلا فى المغرب ومالقة فى الأندلس وثلاث رحلات منها رحلتان فى وصف البلدان وصف فيهما بلدان الأندلس والمغرب هما: «خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف» فى وصف بعض البلدان الأندلسية الشرقية، و «معيار الاختبار فى ذكر أحوال المعاهد والديار» فى وصف بعض البلدان المغربية والأندلسية. وهذه الأعمال منشورة وكذلك رحلته نفاضة الجراب، وسنعرض لكل ذلك فى موضع آخر. ونقف قليلا عند رسائله الديوانية.

وعادة إذا كانت الرسالة الديوانية موجهة إلى أحد السلاطين ممن يلقبون أنفسهم بالخلافة مثل سلاطين تونس أو يكتفون بالسلطنة فقط مثل سلاطين بنى مرين أن تذكر لفظ الخلافة أولا أو يذكر لفظ المقام أو المقر ويطيل لسان الدين فى هذا الوصف، ثم يذكر ألقاب الخليفة أو السلطان المرسل إليه، كما يطيل فى الدعاء له ولدولته ويذكر السلطان

المكتوب عنه، ويتبع ذلك بالتحميد والصلاة على رسول الله والرضا عن صحابته، ويذكر المكان الذى كُتبت فيه الرسالة ثم يأخذ فى بيان المقصود منها ويختمها بالدعاء. ومن خير ما يصور ذلك كله من رسائله الديوانية رسالة له عن سلطانه الغنى بالله إلى سلطان تونس الملقب بالخليفة، جوابا عن كتاب وصل منه مصحوبا بهدية من الخيل والرقيق، ولروعتها البيانية رواها ابن خلدون فى كتابه التعريف والقلقشندى فى صبح الأعشى، وهو يستهلها على هذا النمط:

«الخلافةُ التى ارتفع فى عقائد فَضْلها الأصيلِ القواعدِ الخلافُ، واستقلت مبانى فَخرْها الشائع وعِزِّها الذائع على ما أسَّسه الأسلافُ، وجب لحقِّها الجازم وفَرْضها اللازم الاعتراف، ووسعتْ الآملين لها الجوانبُ الرُّحيبةُ والأكناف، فامتزاجُنا بَعلائها المُنيف وولائها الشريف كما امتزج الماءُ والسُّلاف، وثناؤنا على مجدها الكريم وفضلها العَميم كما تأرَّجت الرياض بالأفواف[1]، لما زارها الغمام الوكَّاف[2]، ودعاؤنا بطول بقائها واتصال عَلائها يسمو به إلى قَرْع أبواب السموات العلا الاستشراف، وحرصُنا على توفية حقوقها العظيمة وفواضلها العَميمة لا تحصره الحدود ولا تدركُه الأوصاف، وإن عَذَر فى التقصير عن نَيْل ذلك المرام الكبير الحقُّ والإنصاف».

ولعل بلاغة لسان الدين قد اتضحت فى هذه القطعة، إذ ينعت فيها الخلافة التونسية نعوتا بديعة، وبدعها لا يأتى من انتخاب ألفاظها ذات الرونق والحسن فحسب، بل يأتى أيضا من أسجاعها الطويلة التى يتلافى طولها بما يجرى فى تضاعيفها من أسجاع داخلية على نحو ما نرى فى تقابل السجعتين: «فخرها الشائع» و «عزها الذائع» فى السجعة الثانية وبالمثل تقابل السجعتين فى السجعة الطويلة الثالثة إذ يقول: «لحقِّها الجازم، وفَرْضها اللازم». وبنفس النمط تلاقى «المنيف والشريف» فى السجعة الخامسة، و «الكريم والعميم فى السجعة السادسة». ويكثر ذلك فى الرسالة طلبا لاكتمال الجرس حتى تلذ الأسماع لذة موسيقية، وهى لذة تقترن بمحسنات البديع، إذ تتوالى الجناسات فى السجعات الداخلية، كما تتوالى التصاوير. ففضل الخلافة أصيل القواعد، ومبانى فخرها وعزها استقلت وارتفعت، وامتزاج السلطان الغنى بالله وحواشيه بشرفها امتزاج الماء بالسلاف، وثناؤهم عَطِرٌ كشذى الرياض فى الأزهار غِبَّ الغيث المدرار. وأخذ بعد ذلك فى نعت الخليفة نفسه وآبائه الأمجاد. وامتد نعته نحو أربعة عشر سطرا، ثم ذكر الغنى بالله مع

---

(١) الأفواف: الزهر. (٢) الوكَّاف: المدرار.

طائفة من النعوت، ومع سلام كريم كما حملت أحاديثَ الأزهار نسماتُ الأسحار، وأطال فى التحميد والصلاة على رسول الله والدعاء للخلافة، كما أطال فى وصف الرسالة وحاملها والهدية النفيسة من الخيل فرسا فرسا، واستطرد إلى ذكر الخيول والأفراس المشهورة عند العرب، ويعود إلى ذكر رسول الخليفة أو سفيره مطريا مثنيا، ثم يأخذ فى وصف جهاد سلطانه الغنى بالله لنصارى الشمال ومنازلته لهم فى مدن كثيرة، من ذلك منازلته لهم فى جيَّان وكانت قد سقطت فى أيديهم سنة ٦٤٣ للهجرة ويصف تلك المنازلة بقوله:

«وهذه المدينة هي الأمُّ الوَلود، والجنَّة التى فى النار لسكّانها من الكفار الخلود، وكُرْسِيّ الملك، ومجنّبتهُ[١] الوسطى من السِّلك،غابُ الأسود، وجُحْرُ الحيّات السود.. ولما أكثبنا[٢] جوارها، وكدنا نلتمح، نارها، تحركنا إليها ووِشاحُ الأفق المرقوم[٣] بزُهْر النجوم قد دارَ دائرُه، واللّيْلُ من خوف الصباحِ على سطحِه المستباحِ قد شابت غدَائِرهُ.. ولما فشا سرُّ الصباح، واهتزَّت أعْطافُ الرايات بتحيات مبشراتِ الرياح، أطللنا عليها إطلال الأسود على الفَرائس، والفحول على العرائس.. ودفعوا من أصْحَر[٤] إليهم من الفرسان، وسبق إلى حَوْمة الميدان، حتى أجحروهم[٥] فى البلد، وسلبوهم لباسَ الجلَد، في موقف يُذْهل الوالد عن الولد، صابت[٦] السهامُ فيه غماما، وطارتْ كأسْراب الحَمام تُهْدِى حِماما[٧]، وأضحت القَنَا قِصَدًا[٨]، بعد أن كانت شهابا رَصَدًا».

والقطعة زاخرة بالجناسات والتصاوير، فجيان أم ولود، وجنة من جنان الأندلس ولساكنيها النار وبئس القرار، وقد دنوا منها فى أخريات الليل ووشاح الأفق المرصع بالنجوم يوشك أن يغيب والليل من خوف الصباح يوشك أن يشيب، ولم يلبث الصباح أن أخذ يذيع أسراره بينما تهتز الأغصان بتحيات الرياح مبشرة لهم بالظفر على الأعداء، وهبطوا عليهم كالأسود الكواسر، ولم يلبثوا أن دخلوا فى جحورهم فرارا من الموت الزؤام وما ينزلون بهم من غمام السهام وصواعق الموت، وتكسرت الرماح التى كانت تحميهم، وخروا صرعى مجدَّلين.

---

(١) مجنبة بواسطة السلك: الجوهرة بجانب الجوهرة الوسطى الفريدة فى العقد.
(٢) أكثبنا: قاربنا.
(٣) المرقوم: الموسوم والمنقوش.
(٤) أصحر: برز.
(٥) أجحر: أدخل.
(٦) صاب: انصبّ.
(٧) الحمام بكسر الحاء: الموت.
(٨) قصد جمع قصدة: قطعة.

ويكثر ابن الخطيب - كعادة أهل الأندلس فى زمنه وقبل زمنه - من الكتابة عن سلطانيه أبى الحجاج وابنه الغنى بالله إلى الرسول ﷺ متوسلين إليه بالشفاعة فى تحقيق أمانيهم الدنيوية فى النصر على الأعداء وأمانيهم الأخروية فى الغفران والرضوان، مع تصوير جهادهما الدائب فى نصرة الإسلام والذب عن حياضه فى الأندلس. ويفيض المقرى بكتابه نفح الطيب فى الحديث عن شيوخه وتلاميذه وأولاده وهو بحق مفخرة من مفاخر الأندلس حُسْنَ أداء وروعةَ بيان.

٢

الرسائل الشخصية

طبيعى أن يعنى الكتاب بهذه الرسائل منذ عنايتهم بالرسائل الديوانية معبرين عن عواطفهم ومشاعرهم من ثناء وشكر وعتاب واستعطاف واعتذار وتهنئة وشفاعة واستمناح وتعزية، وليس بين أيدينا نصوص منها قبل عصر المنصور بن أبى عامر فى أواخر القرن الرابع إذ احتفظ ابن بسام فى الذخيرة بطائفة من الرسائل الديوانية التى صدرت من دواوينه على لسان ابن برد الأكبر وابن دراج شاعره وساق للأخير رسالة شكر لمن أنقذه من ضَنْك حياته، وهو يصف فيها ما كان قد نزل به من الضنك والبؤس بعد أن كان فى ثراء وحال حسنة قائلا[1]:

«كنت قد نشأتُ فى مَعْقل من العَفا[2] والوَفْر، مُحْدَقا بسورٍ من الأمن والسِّتْر، حتى أرسل إلىَّ سلطان الفقر، رسولا من نُوَب الدهر، يريد استنزالى إليه، وخضوعى بين يديه، فأبيت من ذلك عليه، فغزانى بكتائب من النوائب، تسير تحت ألْوِيَةِ المصائب، تُبرِق بسيوف الرَّزايا، وتُشهر أسنَّة المنايا، يرمون عن قِسِىِّ الأوجال، ويضربون طبول الذُّعْر وسوء الحال، بأيدٍ باطشة لا تَكِلّ، وبصائر ثابتة لا تَملّ».

والرسالة مبنية على السجع، مبالغة فى التأنق، وقد اختيرت فيها الألفاظ وامتلأت بالتصاوير، مما يؤكد شيوع التنميق فى الرسائل الشخصية منذ أواخر القرن الرابع الهجرى على نحو ما أخذ يحدث فى الرسائل الديوانية عند ابن دراج نفسه وعند ابن برد

---

(١) الذخيرة لابن بسام (تحقيق د. إحسان عباس) ١/٦٢.

(٢) العفا هنا: كثرة الخير وطيب العيش.

الأكبر، ونلتقى بأخرة من العصر الأموى بابن شهيد الكاتب البارع المتوفى سنة ٤٢٦ وقد ترجم له ابن بسام فى ذخيرته، وذكر له طائفة كبيرة من رسائله الشخصية، وهو يطيل فيها طولا شديدا، ونسوق له قطعة من رسالة أطنب فيها ما وسعه الإطناب كتب بها إلى صاحب بلنسية شاكرًا معتذرا عن الإلمام ببابه لتعلقه بقرطبة مع ما أصابها من الفتنة ومن التخريب والهدم والحرق، يقول[١]:

«قد كان أقلُّ حقوق مولاى أن أقفَ ببابه، وأخيِّم بفِنائه، وأُهْدِى إليه الشكر غضًّا، وأنثر عليه المدح بضًّا[٢]، ولكنى ممنوع، وعن إرادتى مَقْموع، يملكنى سلطان قَدير، وأمير ليس كمثله أمير، شىء غلب صَبْرَ الأتقياء، واستولى على عزم الأنبياء، وهو العشق، باطل يلعب بالحق، ليُبين ضعف البشر، وتلوح قدرةُ مصرِّف القدر، والذى أشكو منه أغربُ الغرائب، وأعجبُ العجائب، بَثّ شاغل، وبَرْحٌ[٣] قاتل، وصَبْر يَغيض[٤]، ودمع يَفيض، لعجوزٍ بَخْراء[٥]، سَهِكة دَرْدَاء[٦]، تُدْعَى قرطبة:

عجوزٌ لعَمْرُ الصِّبا فانيه لها فى الحشا صورةُ الغانيَهْ

طاب لى الموتُ على هواها، ولذَّ عندى سَقْى دمى لثَراها». وله من رسالة يصور فيها أحد الأبطال المنازلين لجيوش الأعداء من نصارى الشمال[٧]:

«واصل الجهاد، واستأصل الكفر والعِناد، واتخذ ظهر الجواد بيْتًا، وظلَّ اللِّواء كُمَيْتًا[٨]، واستبدل من نَقْر الكِران[٩] قَرْعَ الطبول، ومن نغم القيان شَجَا الصهيل، ومن وَجْبَة[١٠] المعازف لجَبَ الخيول، يمشى فى الهَجِير[١١]، ويَسْرِى[١٢] فى الزَّمْهَرِير، ويحنُّ إلى الأذان والتكبير، فى خِطَّة إبليس، ومَضْدح النواقيس».

وسنترجم لابن شهيد فى مطلع الحديث عن الرسائل الأدبية، ونمضى إلى عصر أمراء الطوائف ومن أوائل من نلقاه فى هذا العصر ابن برد الأصغر كاتب مَعْن بن صُمادح أمير

---

(١) الذخيرة ٢٠٧/١.

(٢) بضًّا: ناضرا.

(٣) برح: عذاب.

(٤) يغيض: يغيب.

(٥) بخراء: رائحة فمها كريهة.

(٦) سهكة: كريهة الرائحة. درداء: ساقطة الأسنان.

(٧) الذخيرة ٢٢٧/١.

(٨) الكميت من الخيل: الأشقر ضاربًا إلى السواد.

(٩) الكران: العود.

(١٠) وجبة: صوت.

(١١) الهجير: القيظ وسط النهار.

(١٢) يسرى: يسير ليلا. الزمهرير: البرد الشديد.

المريَّة، وقد أطال ابن بسام فى ذكر تحميداته، وذكرَ طائفة من رسائله فى العتاب والاستزارة وله رسالة فى ذم صديق، ويقول ابن سعيد فى المغرب إنها من أبدع ما قيل فى ذم مؤاخٍ، ومن قوله فيها:[1]

«خلَّيتُ عنه يَدِي، وخلَّدتُ قِلاه خَلَدِى، بَيْضُ الأَنُوقِ[2] من رِفْده أمكن، وصَفَا المُشَقَّر[3] من خَدِّه أَلْيَن، نَزْر النوال، رَثُّ المقال، أحاديث وَعْده لا تعود بنفع، ولا هى من غَرَبٍ ولا نَبْع[4]، على وجهه من التعبيس قُفْلٌ ضاع مِفْتاحه، وليلٌ مات صباحه، غنىٌّ من الجهل، مفلسٌ من العقل، تتضاءل النعم لديه، وتقبح محاسنُ الإحسان إليه، غِرْبال حديث إذا وَعَى سِرًّا قَطر منه، كَبِدُ الزمان عليه قاسية، ونِعَمُ الله له ناسية، قصيرُ عمرِ الوفاء للإخوان، عَوْنٌ عليهم مع الزمان، مربٌّ لأطفال الإِحَن، مُحْيٍ لأموات الدِّمَن[5]، رقدتُ ملء عينى فى فَرْش القِلَى[6] له وشربت زُلالَ[7] ماءِ العَزاء عنه»

ولابن برد رسالة وجَّه بها إلى أبى الوليد بن جهور أمير قرطبة (٤٣٥ - ٤٦١ هـ) جعل موضوعها مجلسا للرياحين وأنوار البساتين أخذت فيه تتفاوض وتتحاور فى أيها أجمل فى صورته وأعبق فى رائحته ثم قام من بينهم خطيب، ففضل الورد على سائر الأزهار لحمرته معللا لذلك بأن الحمرة لون الدم والدم صديق الروح. وكان بالمجلس من رؤساء الأزهار والرياحين النرجس الأصفر والبهار والبنفسج والخيرىّ، فأدوا للورد شهادتهم بتقدمه، ونسوق منها شهادة النرجس إذ يقول[8]:

«والذى مهَّد لى حِجْرَ الثَّرَى، وأرْضَعنى ثَدْىَ الحَيَا[9]، لقد جئت بالشهادة أوضح من لَبَّةِ[10] الصباح، وأسطع من لسان المصباح، ولقد كنت أُسِرُّ من التعبُّد له والشغف به، والأسف على تعاقب الموت دون لقائه. ما أنحلَ جسمى، ومكَّن سَقمى، وإذ قد أمكن البَوْحُ بالشكوى، فقد خفَّ ثِقْلُ البَلْوَى»

وتتوالى شهادة البنفسج والبهار[11] والخيرىّ، ثم تعقد الأزهار العزم على كتابة عقد

---

(١) الذخيرة ١/٥٠٤ والمغرب ١/٨٩.
(٢) واضح أن بيض الأنوق مثل لبيان الاستحالة.
(٣) المشقر: حصن فى البحرين اشتهر صفاه أو صخره بشدة الصلابة، ويريد أن صديقه صفيق.
(٤) الغرب والنبع: شجر تتخذ منه السهام.
(٥) الدمن: جمع دمنة: الحقد.
(٦) القلى: الكراهية.
(٧) الماء الزلال: العذب الصافى السلس.
(٨) الذخيرة ٢/١٢٧.
(٩) الحيا: المطر.
(١٠) اللبة: موضع القلادة من العنق.
(١١) زهر البهار أصفر ويشبه زهر النرجس.

بذلك ويكتبون رقعة بتحالف الرياحين جميعا على أنها أعطت للورد قيادها وملّكته أمرها، واعترفت بأنه أميرها المقدم لخصاله والمؤمّر لسوابقه، وهى لذلك تلتزم له بالسمع والطاعة والرق والعبودية. وربما كنى بالورد عن أمله فى أن يكون وزيرا لابن جهور مفضلا له على كل من حوله. وقد طارت شهرة هذه الرسالة وحاكاها غير كاتب، وممن حاكوها معاصر ابن برد حبيب صاحب كتاب فصل الربيع وسنترجم له عما قليل، أما ابن برد فسنترجم له بين أصحاب الرسائل الأدبية.

ويكتظ كتاب الذخيرة لابن بسام بالرسائل الشخصية يدبّجها كتاب الدواوين والوزراء والشعراء وينمقونها صورا مختلفة من التنميق، وممن روى له كثيرا من رسائله الشخصية أبو محمد بن عبد البر الذى ترجمنا له بين كتاب الرسائل الديوانية، وله رسائل كثيرة فى الشفاعات والوسائل والمودة وفى التهنئة والتعزية، من ذلك تعزيته لأب فى فتى له استشهد فى قتال أعداء الدين الحنيف، وفيها يقول [١]:

«كتبتُ عن قلب يقشعرُّ، ونَفْسٍ بين ضلوعها لا تستقرّ، لخبر الرُّزْء الهاجم، والنبأ الشنيع الكالِم.. فيا لها حسرةً ما أنكاها [٢] للنفوس، وجمرةً ما أذْكَاها [٣] فى القلوب. ورَوْعَةً ما أفتها للأعْضاد، ولوعةً ما أحرَّها على الأكباد:

وما نحن إلا مثلُهم غيرَ أننا ... أقمنا قليلاً بعدهم وتقدّموا

ولقد خرج من بيته مجاهدا، وعن حِمَى الدين ذَائدا، فوقع أجره على الله.. وأنت الطَّوْدُ الموفى [٤] على كل هَضْبة، المعلّى على كل فَرْحة وكَرْبة. واللّهَ - يا سيدى - فى نفسك العزيزة أن يكون فيها كامنُ رزْءٍ [٥] يَقْدح، أو أن يُوهِنَ منها باطن أسًى يَفْدَح»

وكان يعاصر أبا محمد ابنُ حيان مؤرخ الأندلس الكبير المتوفى سنة ٤٦٩ وقد ترجم له ابن بسام ترجمة ضافية، وسنترجم له فى غير هذا الموضع، وروى ابن بسام له رسائل شخصية بديعة، وفى إحداها يقول مهنئا بعض العمال بخلاصه من نكبته [٦]:

«كتابى عن نفسٍ قد أشرق وجْهُ صباحها، وهبّت رياحُ ارتياحها، بما طلع علينا من

---

(١) الذخيرة ٣/٢١٩.

(٢) ما أنكاها: ما أنكأها أى ما أشد جرحها وألمها.

(٣) ما أذكاها: ما أحرّها.

(٤) الموفى: المشرف.

(٥) رزء: مصيبة.

(٦) الذخيرة ١/٥٨٤.

البشائر السارَّة بخلاصك، وجميل انفكاكك، على حين بلغتْ قلوبُ الأوِدَّاء الحناجرَ، وكادت مواردُ الحزن لا تكون لها مصادر، فإن الأيام عمَّت فيك، بإساءتها إليك، كلَّ مُنْتَسِبٍ إلى فضل، مُتَّسِم باسم نُبْل، وإن كانت قد أصابتْ فيك سَوادَ ناظرها الذي تُضيء به وتتجمَّل، وسَخَتْ منك بحَلْيِ جيدها الذي يحقُّ به أن تبخل.. وقد صادفتْ منك الإبريزَ[1] الذى لا يزيده السَّبْك إلا تمحيصا، والمبرِّز الذى لا يُعقبه تحوُّل الأحوال نكوصا، تتلقى الخطوب بصَدْرٍ وَساع،[2] وصَبْر منفسح الباع، وتَسْبُرُ[3] الدهر بمِسْباره، وتعرف من مكنونه حقيقةَ إيراده وإصْداره».

ونلتقى بابن الدباغ كاتب المقتدر بن هود أمير سرقسطة، وسنخصه بكلمة، وكان يكتب للمقتدر أيضا أبو عمر[4] الباجى المتوفى سنة ٤٧٥ وروى له ابن بسام رسالة على لسان زهر البَهار وجَّه بها إلى المقتدر بن هود مزدلفا إليه آملا أن تكون له الحظوة الكبرى بين كتابه ووزرائه كما للبهار بين نواوير الربيع وفيها يقول[5].

«أطال الله بقاء المقتدر مولاى وسيدى ومُعْلِى حالى ومقيم أوَدِى[6]، وأعاذنى من خَيْبة العناء، وعَصَمنى معه من إخفاق الرَّجاء، ولا أشمتَ بى عدوا من الرياض يناصبنى[7]، وحاسدا من النواوير يراقبنى، وقد علم الوَرْدُ موقع إمارتى، وغَنِيَ بلطيفِ إيمانى عن عبارتى.. وقد أتيت فى أوانى، وحضرت وغاب أقرانى، ولم أخلِ من خدمتك رتبتى ومكانى.. فهل لمولاى أن يُحْسن إلىّ صَنيعا، ويكرم النَّوْرَ جميعا، ويُدْنينى فأرْقَى إلى أختى الثريَّا سريعا، فى مجلس قد أخلصتْه سحائبه، وأفرغتِ الحسن عليه والطيب ضَرائبه[8]، وَجْهُكَ بَدْره، وغُرَّتك فَجْره، وأخلاقك زَهْره، وثناؤك دُرُّه وعِطْرُه»

والباجى يجعل البهار فوق الورد وجميع الأزهار مصورا بلسانه مطامحه فى التقدم عند المقتدر فى مجالس تدبيره وأنسه على جميع كتابه ووزرائه. ولمواطنه كاتب المقتدر حَسْداى[9] - وكان يهوديا وأسلم وحسن إسلامه - رسالة مماثلة كتب بها إلى المقتدر على

---

(١) الإبريز: الذهب الخالص.
(٢) وساع: متسع.
(٣) تسبر: تختبر. مسبار: آلة الاختبار.
(٤) انظر ترجمة الباجى فى القلائد ١٠٢ والذخيرة ١٨٦/٢ والخريدة ٣١٣/٢ والمغرب ٤٠٥/١.
(٥) الذخيرة: ١٩٤/٢.
(٦) أودى: اعوجاجى.
(٧) يناصبنى: يعادينى.
(٨) ضرائبه: طبائعه وسجاياه.
(٩) راجع ترجمته فى القلائد ١٨٣ والذخيرة ٤٥٧/٣ والخريدة ٤٨/٢ والمغرب ٤٤١/٢.

لسان الترجس[١]

ومن شعراء العصر الذين عنى ابن بسام برواية طائفة من رسائلهم الشخصية البديعة ابن الحداد الذى مضت ترجمته بين أفذاذ الشعراء فى العصر، وتنم رسائله عن أنه كان مثقفا ثقافة واسعة بالآداب العربية ومايطوى فيها من أعلام وأمثال وأشعار، وبعلوم الأوائل ومايطوى فيها من فلسفة وغير فلسفة، ومن طريف رسائله فى الشكر والإخاء[٢]:

«يا سيدى الذى هو قَسِيمُ ذاتى إن تحققت الذُّوات والنَّحائز[٣]، وشقيقُ نفسى إن تبيَّنت الخلائق والغرائز، ومن أبقاه الله بقاءَ الفَرْقَدَيْن[٤] فى تدبير السَّعْدَيْن. بيننا من التحام المِقة[٥]، واستحكام الثِّقة، ما أُرْبأ[٦] به عن تضمين الصَّحائف، ولو قُدَّتْ من السَّوالف[٧]، وأنزِّهه عن اشتمال المِداد، ولو كان من دم الفؤاد، فصفاؤنا شمسيّ النُّقاء، ووفاؤنا فَلكيّ البقاء، ولا تُضَمَّن الطروس، إلا ما لحقه الدروس. وكتابى هذا إثْر إتحافك لى بكتابين كالنَّيِّرَيْنِ، فإن كان القمر ويُوح[٨]، لإنارة اللُّوح، فهذان، لجلاء الأذهان».

ومن الكتاب المبدعين أبو عبد الرحمن بن طاهر، وسنخصه بكلمة، وكان يعاصره أبو الحسين[٩] سراج بن عبد الملك بن سراج اللغوى الفقيه الكاتب المتوفى سنة ٥٠٨ وله رسالة طريفة بناها على الدعابة فى الشفاعة لشخص يسمى بالزريزير مستغلا اتفاق اسمه مع اسم طائر الزُّرْزور على هذا النمط[١٠]:

«يَصِلُ بالكتاب - وصلَ الله عُلُوَّك، وكَبَتَ عدوَّك - شَخْصٌ من الطيور يُعْرَف بالزُّرَيْزير أقام لدينا أيام التَّحْسِير[١١]، وزمانَ التبلغ بالشَّكير[١٢]، فلما وافى رِيشُه، ونبتْ بأفراخه عُشوشُه، أزْمَع عنا قُطوعا[١٣]، وعلى ذلك الأفق اللَّدْن تدلِّيا ووُقوعا، رجاء أن

---

(١) الذخيرة ٣/٤٧٠.
(٢) الذخيرة ١/٧٠٤.
(٣) النحائز: الطبائع.
(٤) الفرقدان: نجمان قريبان من القطب.
(٥) المقة: المحبة.
(٦) أربأ به: أنزهه.
(٧) السوالف جمع سالفة: جانب العنق.
(٨) النيران: الشمس والقمر يوح: الشمس. اللوح: الهواء بين السماء والأرض.
(٩) انظر ترجمته فى الذخيرة ١/٨٢١ والمغرب ١/١١٦ والصلة ٢٢٢ والمطرب ١٢٣ والخريدة ٢/٤٨٤ ومعجم الأدباء ١١/١٨١.
(١٠) الذخيرة ٢/٣٤٧.
(١١) التحسير: سقوط الريش العتيق.
(١٢) الشكير: صغار الريش. التبلغ: الاكتفاء.
(١٣) قطوعا: طيرانا.

يلْقَى فى تلك البساتين مَعْمَرًا[١] وعلى تلك الغصون حَبًّا وثمرا، وأنت بجميل تأتيك، وكرم معاليك، تصنع له هنالك وُكونا[٢]، وتستمع من نغم شكره على ذلك أغاريدَ ولُحونا، دون أن يلتقط فى فنائك حَبّة، أو يَسْترط[٣] من مائك نُغبَة[٤]».

وطارت الرسالة فى الأندلس وحاول غير أديب محاكاتها لِمَا فيها من دعابة مستملحة، إذ صور سراج ما كان فيه هذا الشخص من ضيق جعله يلتمس منه الشفاعة لصاحبه بالزرزور حين ينحسر عنه ريشه العتيق ولا يبقى له إلا الريش القصير، حتى إذا كثر ريشه صمم على القطوع أو الرحيل آملا أن ينزل على أفق هذا الجواد ويجد عنده منزلا وحبًّا وثمرا ووكونا أو عشوشا يأوى إليها متغنيا بالثناء عليه. وينصحه أن لا يجد فى فنائه حبّة يلتقطها ولا جَرْعة ماء تبلّ ريقه. وممن حاول محاكاة سراج بن عبد الملك فى هذه الدعابة الطريفة أبو بكر عبد[٥] العزيز بن القَبْطورْنة كاتب على بن يوسف بن تاشفين المتوفى حوالى سنة ٥٢٠ للهجرة، ومن قوله فى رسالته[٦]:

«يصل بكتابى - وصل الله سعودك - من الطير نُطّاق، من غير ذوات الأَطْواق[٧].. مهَّدَته العَذارى الحجُور، وألْحَفَتْه الشعور، وربَّته بين الترائب والنُّحور، وعَلّلته بالرُّضاب[٨]، وسقته بأفواهها العِذاب، أقام عندنا زمانا، لا يتألف إلا رَنْدا[٩] أو بَانا، يتدرَّج فى البساتين، يتطلب العِنَب المُنْتَقَى والتِّين، فذكرت له يوما والحديث ذو شُجون، أرضَك المَيْثاء[١٠] ذات الشجر والعيون، فصفَّق جَناحا، واهتزَّ ارتياحا، وسألنى إلى مَجْدك كتابا فأنَلْتُه ما ابتغى، وقلت: سلمتَ أخا البَبَّغا، وبُلِّغتَ المَدَى، وجُنِّبْتَ من حَزّةِ المُدَى[١١] وأخذ الكتاب بِمنقار، وصفَّق بريش الجناحين سُرورا وطار، وأنت بسيادتك تَبْسُطُ له فى بساتينك، وتَفرِش له من وردك وياسمينك»

وكان يعاصر ابن القبطورنة أبا القاسم بن الجد، وسنخصه بكلمة، وعاصرهما ابن عبدون الشاعر الفذ الذى ترجمنا له بين شعراء الرثاء، وقد عمل فى دواوين المتوكل

---

(١) معمرا: منزلا.
(٢) وكونا جمع وكن: عش الطائر.
(٣) يسترط: يبتلع.
(٤) نغبة: جرعة.
(٥) راجع ترجمته فى الذخيرة ٧٥٣/٢ والمغرب ٣٦٧/١ والتكملة رقم ١٧٤٣ والقلائد ١٤٨.
(٦) الذخيرة ٧٥٨/٢.
(٧) ذوات الأطواق: الحمام.
(٨) الرضاب: الريق المرشوف والعسل.
(٩) الرند: شجر طيب الرائحة. البان: شجر يشبّه به الحسان فى الطول واللين.
(١٠) الميثاء: اللينة الطيبة.
(١١) المدى، جمع مدية: السكين.

ببطليوس ثم فى دواوين المرابطين، وله رسائل يخطب فيها ودّ أبي القاسم بن الجد، وفى إحداها يقول[١]:

«إن تعذَّر لِقاء، فقد انتشر ثَناء، امتلأت الأرضُ منه والسماء، ووَصْفٌ عزَّ الأوصافَ وغَلبها، وهزَّ الأعْطاف وجَذَبها، وذِكْرٌ ملأ الآذان حُلِيًّا، والآنافَ رَيًّا[٢]، والأفواه أَرْيًا، ونُبلٌ جَلَتْ مطالعهُ دياجِيَ الأوهام، ورَوَتْ مواقعهُ صَوادِيَ[٣] الأوهام.. ولله دهرٌ أطلعك أفقه، ووقتٌ وَسِعَك طَلَقُه[٤]، ما أكرمَ طبيعته، وأضخم دَسِيعَته[٥]، وأعبقَ فى الآناف شَمِيمَه، وأرقَّ على الأنفاس نَسِيمَه.. وأنا أخطب إلى عِمادى - أدام الله عزَّته - مودَّتَه عقيلةً[٦]، وأجعل رَحِمى[٧]: الأدبَ والنسب وسيلة، وأبذل من تحلية حَمدى وشكرى مَهْرًا، وأبْنى لها بين سَحْرى ونَحرْى[٨] قَصْرا.. والله - جَلَّ وعلا - يُعيننى على فَرْضه أؤديه، وقَرْضِه أقْضيه».

وللأعمى التطيلى الشاعر معاصره رسالة عتاب بديعة لمن خدمه الزمان وأقبل عليه السلطان، وله يقول مترفعا عن بره وعونه: «إنى أبيت ظمآن، ولا أبيت خَزْيان، وأحتمل الحرمان، ولا أحتمل الهوان[٩]». وكان يعاصره ويعاصر ابن الجد ابنُ خفاجة شاعر الطبيعة المبدع الذى مرت ترجمته، وكما كان يبدع فى وصفها شعرا كان يبدع فى وصفها نثرا، وله من رسالة يصف نزهة مع بعض رفاقه غِبَّ مطر[١٠]:

«لما أكبَّ الغَمامُ إكْبابا، لم أجِدْ معه إغْبابا[١١]، واتصل المطر اتصالا، لم آلَفِ معه انفصالا، أذن الله تعالى للصَّحْو أن يُطْلِعَ صفْحته، وينشر صَحيفته، فقَشَعتِ الريحُ السحاب، كما طوى السجلُ الكتاب، وطفقت السماءُ تخلع جِلْبابها، والشمس تحطُّ نِقابَها، وتطلَّعت الدنيا تبتهج كأنها عروس تَجَلَّتْ، وقد تَجلَّت، ذهبتُ فى لُمَّة من الإخوان نستبق إلى الراحة رَكْضا، ونَطْوِى للتفرُّج أرْضا، وننشر أرضا، وتردَّدْنا بتلك الأباطح نتهادى[١٢] تهادىَ أغْصانها، ونتضاحك تضاحك أقْحوانِها، وللنسيم، أثناء ذلك

---

(١) الذخيرة ٦٧٠/٢.
(٢) ريا: شذى.
(٣) صوادى: عطاش.
(٤) طلقه: شوطه.
(٥) دسيعته: طبيعته وشيمه.
(٦) العقيلة: السيدة الكريمة.
(٧) رحم: قرابة.
(٨) السحر: الرئة. النحر: أعلى الصدر.
(٩) الذخيرة ٧٢٩/٢.
(١٠) الذخيرة ٥٤٣/٢.
(١١) إغبابا: انقطاعا.
(١٢) نتهادى: نتمايل.

المنظر الوَسِيم، تراسلُ مَشْيٍ، على بساط وَشْيٍ، وأَجَلْنا النظر فى نهر صافى لُجَيْنِ[١] الماء، كأنه مجرّةُ السماء، مؤتلقِ جَوْهَرِ الحبَاب[٢]، كأنه من ثغور الأحباب. وحضَرنا مُسْمِعٌ[٣] يجرى مع النفوس لَطافة فهو يعلم غرضها وهواها، ويغنى لها مُقْتَرَحَها ومُنَاها:

«يحرِّك - حين يَشْدُو - ساكناتٍ ويَبْتَعِثُ الطبائـعَ للسُّكونِ»

ولابن خفاجة - بجانب ذلك - رسائل فى التهادى وفى العتاب وفى الشفاعة، وفى التهانى وفى التعازى، وهى مبثوثة بترجمته فى الذخيرة، وله يتفجع على شهيد بإحدى رسائله[٤]:

«قَمَرُ فَضْلٍ سار إلى سِراره[٥]، ووُسْطَى عِقْدٍ أخذ فى انتثاره، وصَباح جَذَل[٦] أسرعَ فى انطوائه، ومصباح أمل عُجِّل بانطفائه. فقبحًا لدنيا قَصَفَتْه أنضر ما كان غُصْنا، وكَسَفَته أقمر[٧] ما كان حسنا. وصار مفقودًا، كأنْ لم يكن مشهودا، ومَنْشودا[٨] كأن لم يكن مَوْجودا. وقد وجدتُ لذلك وَجْدًا لا يسعه الصَّدْرُ، ولا يقاومه الصَّبْرُ، وأوارًا[٩] لا تَطْوِيه أحْناءُ الضلوع، ولا تُطْفِئه أحْسَاءُ[١٠] الدموع. وكأنَّ كل ذلك لما انقضى، فمضى، خيال ألَمَّ ثم تولَّى، وغمامٌ أظَلَّ ثم تَجَلَّى».

ومن معاصرى ابن خفاجة أبو عبد الله بن أبى الخصال أهم الكتاب فى دواوين المرابطين بأخرة من أيامهم، وتحتفظ المجلدات الثامن والتاسع والرابع عشر من صبح الأعشى بطائفة من رسائله الشخصية بين شكر وتهنئة بقدوم وتعاز فى وزير وبنت وأخ وزوجة وشفاعة ووصف لغيث بعد جدب وما أعقبه من تغنى الطيور فرحا بجمال الطبيعة وازديانها بروائع الأزهار من نرجس وغير نرجس، واحتفظ له ابن بسام بطائفة أخرى من رسائله فى ذخيرته، من بينها رسالتان وجَّه بهما إلى ابن بسام ردًّا على رسالة كان أرسلها إليه فى طلب بعض شعره ونثره ليضمنه الذخيرة، وهو فى أولاهما يعتذر عن تلبية طلبه فى تواضع جم إذ ليس له من الشعر والنثر - كما يقول - إلا ما يعد من سَقَط المتاع. ويبدو أن ابن بسام ألح عليه فى الطلب فاضطر أن يلبيه بقليل من شعره قائلا إنه

---

(١) اللجين: الفضة.
(٢) الحباب: الفقاقيع تلمع فوق سطح الماء.
(٣) مسمع: مغن.
(٤) الذخيرة ٥٥٧/٣.
(٥) السرار: آخر ليلة فى الشهر.
(٦) جذل: سرور.
(٧) أقمر: أضوأ.
(٨) منشودا: مطلوبا.
(٩) الأوار: حر النار.
(١٠) أحساء هنا: ينابيع.

يربأ بقدر الذخيرة عن مثل هذه النتف الأخيرة، ويعتذر بأنه يخط ما خطه من هذا الشعر في ليلة قاسية البرد، ويمضي في تصويرها قائلا[١]:

«إني خططتُ والنوم مُغازل، والقُرُّ مُنازل، والرِّيح تلعب بالسِّراج، وتصول عليه صَوْلة الحجّاج[٢]، فطَوْرًا تسدّده سِنانا، وتارة تُحرِّكه لِسانا، وآونةً تطويه حَبابَة[٣]، وأخرى تنشره ذُؤابَة، وتقيمه إبرةَ لَهَبٍ، وتعطفه بُرَة ذَهَبٍ، أو حُمَة[٤] عَقْرب، وتقوِّسه حاجبَ فتاة، ذات غمزات، وتستلّ روحه من ذُباله، وتعيده إلى حاله، وربما نصبته أذن جواد أو مسَخَتْه حَدَق[٥] جَراد.. فلا حظَّ منه للعَينْ، ولا هداية في الطِّرْس لليدَيْن، والليلُ زنجيُّ[٦] الأدِيم تِبْرِيّ[٧] النجوم، قد جَلَّلَنا سَاجُه[٨]، وأغرقتْنا أمواجه، ولو نظرتْ فيه الزرقاء[٩] لاكتحلتْ، أو خُضبت به الشَّيبية لما نَصَلتْ[١٠]، والكلبُ قد صافح خَيْشومُه ذنبَهُ، وأنكر البيتَ وطُنُبَه،[١١] والتوى التواء الحُباب[١٢]، واستدار استدارة الحَباب، وجَلَده الجليد، وضَرَبه الضَّريب[١٣]، وصعَّد أنفاسه الصَّعيد،[١٤] فحِماه مباح، ولا هريرَ ولا نُباح، والنار كالصديق أو كالرَّحِيق[١٥]، كلاهما عنقاءُ مُغْرِب[١٦]، أو نجمٌ مغرِّب».

والرسالة وصف شعرى بديع لهذه الليلة من ليالى الشتاء الباردة بردا شديدا في الأندلس والرياح تقصف، والليل داج معتم، والسراج تقبضه الريح وتبسطه، وقد يضيىء ويستعرض، وقد يتضاءل حتى يصبح إبرة أوبُرَة، وقد يستطيل حتى كأنه سنان أو لسان، وقد يتقوس حتى كأنه حاجب أو يتلوّى كأنه عقرب. ويستمر ابن أبي الخصال في وصف الليلة الباردة وما أضفى عليها من أخيلته الرائعة. وليستتم صورة بردها الشديد وصف كلبا مقرورا مدَّ عليه الثلج رواقه، حتى لم يعد يبصر طنب بيته والتف ذنبه على خيشومه

---

(١) الذخيرة ٧٩٢/٣.

(٢) يريد الحجاج الثقفى وفتكاته بأعدائه.

(٣) حبابة: فقاعة الماء.

(٤) البُرَة: الحلقة توضع في أنف البعير، وبها شبَّه الكاتب لسان الشمعة. حمة العقرب: إبرته.

(٥) أذن جواد أى مستعرضا مثلها. حدق جراد أى ضئيلا كنقطة مداد.

(٦) زنجى الأديم: أسود الجلد.

(٧) تبرى: ذهبى.

(٨) جللنا: غطانا. الساج: شجر خشبه شديد السواد.

(٩) زرقاء اليمامة: اشتهرت بحدة نظرها.

(١٠) نصلت: بهتت.

(١١) الطنب: الحبال تشد بها الخيمة والخباء.

(١٢) الحباب بالضم: الأفعى. وبالفتح: فقاقيع الماء.

(١٣) الضريب: الثلج.

(١٤) الصعيد: وجه الأرض.

(١٥) الرحيق: الصافى من الخمر والشراب.

(١٦) عنقاء مغرب: طائر خرافى.

أوخرطومه، وتقرفص وتكوّم كالأفعوان، وكاد يتجمد، فحَشْوُ الجو من فوقه إبر من الثلج اللاسع، وأرضه قوارير من الجليد اللاذع، وجفَّ ريقه فى حلقه فلا هرير ولا نباح، ولا نار لمصطل، فالرياح العاصفة لها بالمرصاد حتى لكأنها الطائر الخرافى المسمى عنقاء مغرب.

ونمضى فى عصر الموحدين، ونلتقى فيه بصفوان بن إدريس المتوفى سنة ٥٩٨ المار ذكره بين شعراء الغزل والمدائح النبوية، وله من رسالة يهنئ بها أبا القاسم بن بقى حين تولى خطة القضاة سنة ٥٩٢ وفيها يقول[١]:

«حُسْنُ الأيام وجمالُها، ومآل الآمال وثِمالُها[٢]، وبَصَرُ المعارف وسَمْعها، وواحدُ الفضائل وجمعها، أبو القاسم بن بقى بن مخلد، بُورِكَ فى والدٍ وما ولد:

نسبٌ كأن عليه من شمس الضُّحىَ نورًا ومن فَلَق الصَّباحِ عَمُودا

.. نفع الحقُّ به عِللَه، ونقع غُلَلَه[٣].. عِمادى الأكرم، ومَلاذى الذى أنفخ من حَدِّه فى ضَرَم[٤]، وأحلّ من الاختصاص به محلِ الحرَم، تخيرتُ عُلاه ومن أَخْصَبَ تخيرُ وما كنت إلا كالغريب ارتاد الجِوار، والمحلى انتقى المِعْصَم حين صاغ السُّوار. والله - تعالى - يديم مدةَ قاضي الجماعة الأَسْرَى[٥]، وكَلِمُ حَمدِه أَسْيَرُ من الأمثال وأَسْرَى[٦]، ونِعمُ الله سبحانه عليه تَتْرَى، وما يريه من نعمة إلا هى أكبر من الأخرى». والتورية واضحة بين الأسرى وأسرى، وهى تكثر فى نثر الأندلس وشعرها منذ هذا التاريخ.

ولسهل بن مالك - بأخرة من عصر الموحدين - رسائل شخصية بديعة، وسنخصه بكلمة، ولأبى عبد الله بن الجنان المترجم له بين شعراء المدائح النبوية من رسالة يعزى بها أبناء سهل حين توفى استهلها بقصيدة أو بمرثية طويلة وفيها يقول[٧]:

«يا له حادثًا، جمع قديمًا من الكُروب وحادثا، ومُصابا، جرَّع أَوْصَابا، وأضحى كلٌ به مُصابا، لا جرم أنى شربت من كأسه مُسْتفظَعها، وشَرِقْتُ[٨] بها وبدمعى الذى ارفضَّ[٩] معها، فغالتْ خَلَدى، وغالبتْ جَلَدى، حتى غبتُ عنى، ولم أدر بآلامى التى تُعَنى.

---

(١) بقية السفر الرابع من كتاب الذيل والتكملة تحقيق د. إحسان عباس ص ١٤١.
(٢) ثمالها: ملجأها.
(٣) نقع غلله: شفاه.
(٤) ضرم: وقود النار.
(٥) الأسرى: الأشرف.
(٦) أسرى: أسير ليلا.
(٧) بقية السفر الرابع المار آنفا ص ١١٥.
(٨) شرقت: غصصت.
(٩) ارفض: تفرق وتبدد.

وبكيتُ حتى خشيت البكاء أنْ يَعْشِينِى[١]، وغُشيت[٢] إذ غَشِيَنى[٣] من ذلك اليَمّ[٤] ما غَشِيَنى، «وظَلِلْتُ لَقىً[٥] أينما شاء التَّرَحُ يلقينى، فتارة يُفْنينى، وتارة يُبْقِينى.. ويا ليت شعرى إذ أفادوا الماء طهارةً زائدة بغسل جلاله، هل حنطوه بغير ثنائه أو كفنوه فى غير خِلاله، ويا ليت شعرى إذ استقلَّ به نَعْشُه الأشرف، تُرَفْرِفُ عليه الملائكةُ ويظلُّه الرَّفْرَف، هل رأوا قبله حَمْلَ الأطْواد[٦]، على الأعواد، وسير الكواكب فى مثل تلك المواكب، ولِمَ آثروا على نفوسهم، ورضوا الأرض مغربا لأنوار شموسهم؟ هلا حفروا له بين أحناء الضلوع، وجعلوا الصَّفِيح ضَرِيحَ الحب والولوع.. وهب الله لكم فى مُصابكم صبرا على قَدْره، وسكب دِيَم مغفرته على مَثْوَى فقيدكم وقبره».

وأخذ الكُتَّاب فى الأندلس منذ القرن السابع الهجرى على لسان أبى المطرف بن عميرة الذى ترجمنا له بين كتاب الدواوين وغيره يتصنعون فى كتاباتهم بالماعات وإشارات إلى الأمثال وإلى مسائل العلوم ومصطلحاتها على نحو ما نقرأ من رسالة لأبى المطرف حين أعلمه صديق نبأ استيلاء الروم على بلنسية، فقال متحسرا[٧]:

«بالله أىَّ نَحْوٍ نَنْحو، أو مَسْطور نُثْبت أو نَمْحو، وقد حُذف الأصل والزائد، وذَهبت الصِّلَة والعائد.. وذهبت علامةُ الرفع، وفُقِدت نون الجمع، والمعتلُّ أعْدَى الصحيح، والمثلَّث أرْدَى الفصيح.. ومالت قواعدُ الملَّة، وصِرْنا جمع القِلَّة، وظهرتْ علامةُ الخَفْض، وجاء بَدَلُ الكل من البَعْض».

وواضح أنه استغل مصطلحات النحو استغلالا واسعا فى التورية عما أراد من تصوير بؤس الأندلسيين إزاء ما يسقط من بلدانهم فى حجر نصارى الإسبان، وأضاف إلى التوريات بمصطلحات النحو توريات ببعض كتب الأندلسيين، وأقصد كتابى الصلة والعائد وهما من كتب التراجم ومن مصطلحات النحو أيضا وأشار معهما إلى تغلب المسيحى على العربى بكلمتى المثلث والفصيح موريا بهما عن كتابين لغويين هما مثلث قطرب وفصيح ثعلب، ومعروف أن من أنواع البدل عند النحاة بدل الكل من البعض. وبجانب هذه الإشارات والإلماعات إلى مصطلحات العلوم وكتبها التى يحاكون بها تملحا

---

(١) يعشينى: يعمينى البكاء.
(٢) غشيت: أغمى على.
(٣) غشينى: غطانى وحوانى.
(٤) اليم: البحر يريد بحر الحزن.
(٥) لقى: مطروحا مهملا.
(٦) الأطواد: الجبال.
(٧) الإحاطة ١٧٣/١.

أبا العلاء المعرى فى نثره وشعره على نحو ما أوضحنا ذلك عنه فى كتابينا عن الفن ومذاهبه فى الشعر والنثر العربيين. وأخذت تشيع فى الرسائل مع المحسنات البديعية - وخاصة التورية - عقد يصعِّب بها الكتّاب المرات إلى صنع الرسائل، على نحو ما صنع المشارقة من ذلك منذ الحريرى صاحب المقامات، إذ كان يلتزم فى بعضها أن تكون كلماتها غير منقوطة أو تكون إحدى الكلمات منقوطة وتاليتها غير منقوطة وكثر مثل ذلك عند المشارقة كما كثر أن يُلتَزم حرف بعينه فى كلمات الرسالة أو كلمات العهد على نحو ما صنع ابن الجنّان إذ التزم فى عهد أن يكون السجع فيه جميعه حاء مع إردافها بالألف مثل صلاحا، فلاحا[1]. والتزم فى رسالة له العينَ فى جميع ألفاظها، ويقول ابن عبد الملك المراكشى إنها «شاعت فى الأندلس، وتنوقلت شرقا وغربا» وراجعه أبو الحسين الرُّعَيْنى برسالة مماثلة، وردَّ عليه ابن الجنّان أيضا برسالة على غرارها، مما دفع أبا المطرف بن عميرة أن يكتب إلى الرعينى برسالة نونية ملتزما النون فى جميع كلماتها[2]. ومن الحق أن كتاب الأندلس كانوا من البراعة فى الكتابة بحيث كانت رسائلهم تسع هذا التصنع وما يشاكله دون أن يجور على إبداعاتهم الأدبية وحيويتها النافذة بما كانت تتوهج به دائما من سجع ومحسنات وتصاوير رائعة مع العناية دائما بجمال الجرس وحسن الأداء. وظل ذلك ماثلا فى كتابات الكتّاب بغرناطة طوال إمارتها من أواسط القرن السابع الهجرى إلى أن خرج منها العرب بأخرة من القرن التاسع، ويزخر كتاب الإحاطة بكثير من الرسائل الشخصية للكتاب الغرناطيين وفى مقدمتهم ابن الخطيب مؤلفه، وقد ختمه برسالتين راسل بهما ابن خلدون صديقه، واحتفظ ابن خلدون له بطائفة من رسائله إليه فى كتابه «التعريف» وفى إحداها يرحب بمقدمه إلى غرناطة قائلا[3]:

«لو خُيِّرْتُ أيها الحبيبُ الذى زيارتُه الأمنيَّةَ السنيَّة والعارفةَ الوارفة[4]، واللطيفة المُطِيفة، بين رَجْع الشباب يقطرُ ماء، ويَرِفُّ نَماء، ويغازل عيونَ الكواكب فضلا عن الكواعب إشارةً وإيماء.. وبين قدومك لما اخترتُ الشباب وإن شاقنى زمنُه وأجرت سحابَ دمعى دِمَنُه[5]. فالحمد لله الذى رَقَّى جنون اغترابى، وملَّكنى أزمَّة آرابى»

وكانت بينهما مودة وثيقة، وآن أن نترجم لبعض كتاب الرسائل الشخصية المبدعين: حبيب وابن الدباغ وأبى عبد الرحمن بن طاهر وأبى القاسم بن الجد وسهل بن مالك.

---

(١) الإحاطة ٢/٣٥٢ - ٣٥٣.
(٢) انظر فى هذه الرسائل المراكشى (تحقيق د. إحسان عباس) ٥/٣٢٧ وما بعدها.
(٣) التعريف بابن خلدون ص ٨٢ وما بعدها.
(٤) العارفة: العطية. الوارفة: الواسعة المبهجة.
(٥) الدمن: آثار الديار، والاستعارة واضحة.

حبيب[1]

هو أبو الوليد إسماعيل بن محمد الملقب بحبيب، من أهل إشبيلية، كانت له ولأبيه قدم فى الرياسة عند المعتضد أميرها، ولقبه الضبى بالوزير الكاتب، وقال فيه ابن بسام: «كان سديد سهم المقال، بعيد شأو الرويّة والارتجال.. ولو تحاماه صرف الدهر، وامتد به قليلا طَلَقُ[2] العمر، لسدَّ طريق الصباح، وغبَّر فى وجوه الرياح، إذ توفى ابن اثنتين وعشرين سنة» وانفرد ابن سعيد بقوله إن المعتضد قتله، والراجح أنه توفى شابا معتبطًا بغير علة قريبا من سنة ٤٤٠ للهجرة، وكان - كما يقول ابن الأبار - آية فى الذكاء والفهم والبلاغة وتجويد الشعر على حداثة سنه. وله كتاب البديع فى وصف الربيع جمع فيه أشعار أهل الأندلس خاصة فى الربيع ومشاهده وأزهاره ورياحينه، قال فى فاتحته:

«فَضْلُ الربيع آرَجُ وأَبْهجُ، وآنَسُ، وأَنْفس، وأَبْدع، وأَرْفع، من أن أَحُدَّ حُسْنَ ذاته، وأعدَّ بديع صفاته.. وهو مع صفاته الرائقة، وسِماته الشائقة، وآلائه الفائقة، لم يُعْنَ بتأليفه أحد، ولا انفرد بتصنيفه منفرد».

وقد جمع حبيب فى كتابه أروع ما للأندلسيين فى وصف الربيع سواء ما نظموه فيه خاصة وما أودعوه مقدمات مدائحهم، وأضاف إلى ذلك بعض ما كتبوا فيه رسائلهم من وصف الأزهار، وأشاد برسالة ابن برد إلى أبى الوليد بن جهور وما بثه من حوار فيها بين خمسة نواوير هى الورد والنرجس الأصفر والبنفسج والبهَار والخِيرىّ النمام واعتراف النواوير الأخيرة بفضل الورد وكتابتها عهدا أو وثيقة بذلك على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع. وأردف حبيب رسالة ابن برد برسالته إلى المعتضد حاكاه فيها مفضلا البهار على الورد مع وصفه لسبعة من نواوير الربيع، وهو يستهل رسالته بإنكاره لتفضيل ابن برد الورد عليها فى رسالته، يقول:

«أولُ من رأى ذلك الكتاب (رسالة ابن برد فى تفضيل الورد) وعاين الخطاب، نواويرُ فصل الربيع التى هى جِيرةُ الوَرْد فى الوطن، وصَحابتُه فى الزمن، ولما قرأْته

---

(١) انظر فى ترجمة حبيب الذخيرة ١٢٤/٢ والجذوة ١٥٢ والبغية رقم ٥٣٤ والتكملة (البقية الجديدة) ص ٢١٩ والمغرب ٢٥٠/١. وراجع كتابه: «البديع فى وصف الربيع بتحقيق هنرى بيريس طبع الرباط سنة ١٩٤٠. وطبع فى السعودية بتحقيق د. عبد الله عسيلان.

(٢) طلق: شوط.

أنكرتْ ما فيه، وبَنَتْ على هَدْم مبانيه، ونقْض معانيه، وعرَّفت الورد بما عليه، فيما نُسِب إليه.. وكتبت إلى الأُقْحُوانِ والخِيرِيِّ الأصفر كتابا قالت فيه: لا ندرى لأى شيء أوْجبت الأزهار تقْديمه، بما غَيْرُهُ أشْكَلُ له وأحقُّ به وهو نَوْرُ البَهار، البادى فَضْلُه بُدُوَّ النهار، والذى لم يزل عند علماء الشعراء، وحكماء البلغاء، مشبَّها بالعيون التى لا يَحُول نظرها، ولا يَحُور حَوَرُها، وأفضل تشبيه للورد، بنضرة الخَدّ، عند من تشيَّع فيه، وأشرفُ الحواسِّ العَيْنُ، إذ هى على كل منوِّلٍ عَوْن، وليس الخدُّ حاسَّةً، فكيف تبلغه رئاسة:

أين الخدودُ من العيونِ نَفاسَةً ورِئاسةً لولا القياسُ الفاسِدُ»

واستمر حبيب فى هذه الرسالة طويلا، وختمها بمبايعة الأزهار للبَهار بتفضيله على الورد. وله من رسالة إلى أبيه:

«لما خُلق الرَّبيعُ من أخلاقك الغُرِّ، وسَرقَ زَهْرَه من شِيَمك الزُّهْر، حَسُنَ فى كل عين منظرُه، وطاب فى كل سمع خَبَرُه، وتاقت النفوسُ إلى الراحة فيه، ومالتْ إلى الإشراف على بعض ما يَحْتويه من النَّوْر الذى كَسَا الأرضَ حُلَلا، لا يرى الناظر فى أثنائها خللا، فكأنها نجومٌ نُثِرتْ على الثَّرَى، وقد مُلِئَت مِسْكًا وعَنْبرا، إن تنسَّمتَها فأَرِجَة، أو توسَّمتها فبَهِجَة، تروق العيونَ أجناسُها، وتُحيِى النفوسَ أنفاسُها.. فأوجِدْ لى سبيلا إلى إعمال بصرى فيها، لأجلوَ بَصِيرتى بمحاسن نواحيها، فالنفوس تَصْدَأُ كما يَصْدَأُ الحديد، ومَنْ أَجَمَّها[1] فهو السَّديد الرشيد».

وواضح فى الرسالة لطف الابن لأبيه، مع حسن تأتِّيه وجمال وصفه للربيع وشغفه بمشاهد نواويره البديعة. وله من رسالة إلى بعض إخوانه يستدعيه للمتعة معه والأنس به فى منظر فاتن من مناظر الربيع، يقول:

«قد علم سيدى أن بمرآه يكمل جَذَلِى، ويدنو أَمَلِى، وقد حللتُ محلًّا عُنِىَ الجوّ بتحسينه، وانفرد الربيع بتحْصِينه، فكساه حُلَلًا من الأَنْوار، بها يَنْجلى صَدَأُ البصائر والأبصار، فمن مَكْموم[2] يَعْبَقُ مِسْكُه، ولا يمنعه مَسْكه، ومن بادٍ يروق مُجْتَلاه، ويفوق مُجْتَباه، فى مرآه ورَيَّاه، فتفضَّلْ بالخفوف[3] نحوى لنجدِّد من الأنس مَغَانِىَ[4] درستْ،

---

(١) أجمها: أراحها.
(٢) مكموم: أى زهر مستور فى كمِّه.
(٣) الخفوف: الإسراع.
(٤) مغانى: منازل. درست: عفت وذهب أثرها.

ونفكّ من السرور معانى أشْكَلَتْ وألْبَسَتْ،[١] ونشكرَ للربيع، ما أرانا من البديع»

والرسالة كسابقتها جمالَ صياغة وحسنَ أداء، وهى تصور - مثلها - تعلقه بالطبيعة فى أعيادها وأعراسها أيام الربيع، مما جعله يصنف فيه كتابه «البديع» متنقلا بين مشاهده وأزهاره ونواويره وما صاغ فيها هو وشعراء موطنه من أوصاف رائعة.

ابن[٢] الدباغ

هو أبو المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ الوزير الكاتب. نشأ بسَرَقُسْطة، وعمل بدواوينها وقرَّبه المقتدر بن هود أميرها (٤٣٨ - ٤٧٥ هـ) حتى أصبح من وزرائه، وأحسَّ منه جفوة، وخشى أن يسطو به ويبطش، فخرج عنه، ونزل بالمعتمد بن عباد فى إشبيلية، فأجزل قِراه، وخصَّه بحظ من دنياه، وجعله مكان سرِّه ونجواه. وسفر بينه وبين المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس حين كان بيابُرة. وحدثت مشادة بينه وبين ابن عمار قرينه فى وزارة المعتمد، وبلغه أنه قُدح فيه بمجلس المعتمد، وخشى مغبّة ذلك، فلحق بالمتوكل أمير بطليوس فرحب به، ويبدو أنه لم يكن موطَّأ الكنف فى العشرة، إذ لم يلبث أن فسد ما بينه وبين وزير المتوكل أبى عبدالله بن أيمن، واشتعلت بينهما نار ملأ الأفق شعاعها، وأخذ بأعنان السماء - كما يقول ابن بسام - ارتفاعها، فكرَّ راجعا إلى سرقسطة، وبعد فترة قليلة قتل ببستان من بساتينها.

ويبدو أن ابن الدباغ كان شديد الضجر بالناس كثير الظنون بهم أو قل سيئ الظنون، فنبا به مقامه عند المقتدر بن هود ثم عند المعتمد والمتوكل بن الأفطس، وربما دفعه إلى ذلك تشاؤم شديد جُبلت عليه نفسه. وهو من كتاب عصر أمراء الطوائف النابهين، وفيه يقول ابن بسام: «فيما انتخبته من نظمه ونثره ما يشهد بفضله، ويدل على نبله». ومضى ابن بسام يعرض طرائف من رسائله امتدت إلى نحو ستين صحيفة، جميعها غُرر ودُرر، وأكثرها فى ذم الزمان ومعاصريه وتعذر آماله فيه، من ذلك قوله فى بعض رسائله:

«كتابى وعندى من الدهر ما يهدُّ أيْسَرُهُ الرَّوَاسِىَ، ويفتِّت الحجرَ القاسىَ.. ومن أقلِّها قَلْبُ محاسنى مساوىَ، وأوليائى أعادىَ، وقَصْدى بالبِغْضَةِ من جهة المِقَةِ[٣]،

---

(١) أشكلت وألبست: اشتبهت وانبهمت.

(٢) انظر فى ترجمة ابن الدباغ الذخيرة ٢٥١/٣ (قسم شعراء المغرب والأندلس - طبع الدار التونسية) ٣٨٧/٣ والقلائد ص ١٠٦ والمغرب ٤٤٠/٢ والخريدة

(٣) المقة: المحبة.

واعتمادي بالخيانة من حيث الثقة.. وقد غُيِّر عليَّ حتى شرابي، وأوحشني حتى ثيابي، فها أنا أتّهم عِياني، وأَسْتَرِيبُ من بَياني، وأجنى الإساءة من غَرْسِ إحساني.. وما أصنع؟ وقد أبى القضاء إلا أن أقضى عمرى فى بوس ولا أنفكّ من نحوس.. لست أشكو إلا زمانى وقُعُودَه بجَدِّى[1]، وقبيحَ آثارِه عندي، يخصُّنى بمزية حِرْمان، ويتوخَّانى بِفَضْلة عُدْوان، ويجعلنى نَصْبَ سَعْيه، وغرضَ رَمْيه، ومكان أذَايَته وبَغْيه.. ما أجد إلا من يَثْلِبُ، ولا أمرُّ إلا بمن يتجهَّم ويقطِّبُ.. وسبحان من جَعل الدنيا دارَ كرْبٍ ومِحْنة، لكل ذى لُبٍّ وفطنة، ومقام تنعُّم وترف، لكل ذى خِسَّةٍ ونَطَف[2].. وما أظن أن لدُجَى حالى انْبلاجا، ولا لكُرْبَةِ نفسى انْفراجا، ولا إخال غَمَرات الهمِّ تَنْجلى، ولا مُدَدَ النحوس تَنْقضي، ومَنْ كانت له من الدنيا حُظْوَة يصطفيها، ومكانة يستقر فيها، فليس لى منها إلا أن أرى كيف تنقسم رُتَبُها وتُتناوَبُ، وتُتنازَع نِعَمُها وتُتجاذَبُ، وتُقْتَسَمُ فوائدُها وتُتناهَبُ، حتى كأنى جئت على العدد زائدا، ولم أكن عند القسمة شاهدا، وما أقول هذا قول ساخط، ولا أيأس من رحمة الله يأس قانط، ولكن ربما استراح العليلُ فى أنَّة، واستغاث المتوجع إلى رَنَّة[3]، وخفَّف عن المصدور نَفْث[4]، ونفَّس من وَجْد المكروب بَثّ[5]».

وهو يطيل فى مثل ذلك صادرا عن قريحة أدبية خصبة، وكأنما سيول الكلام العذب تفد عليه من كل صوب، وهو يختار أسلسَ الألفاظ وأحلاها فى الجريان على الألسنة ومصافحة الأسماع والقلوب، مما يصور براعة أدبية حقيقية، إذ يمتع دائما بألفاظه ومعانيه الألسنة والآذان والأذهان. وله من تهنئة:

«قد كنتُ - أعزّك الله - متمنيا لهذه الأيام، كما يُتمنَّى فى المَحْل[6] صَوْبُ الغمام، ومنتظِرًا لظهورك فيها، كانتظار النفس أعْذَبَ أمانيها، ولما أطلعتْ طلائعَها السعودُ، واستمرَّ بك الارتقاءُ والصعودُ، قلت لنفسى بُشْراكِ. أسْعَفَك الدهرُ بمناكِ، وسرَّك فى بعض أعِزَّتكِ وأرضاكِ، وأُذُنِى فى الإصْغاء، إلى ما يَطْرأ من الأنباء، وكلما قيل فَرَع[7] من الجاه ذروة، واستجدَّ من العِزّ كُسْوة، سَرَتِ العِزَّة فى خَلَدِى[8]، وطالت[9] على النُّوَب يدى»

---

(١) جدى: حظى.
(٢) نطف: عيب.
(٣) رنة: صيحة.
(٤) نفثة المصدور: ما يخفف به عن صدره المريض.
(٥) البث: ما يبثه المكروب والمحزون تخفيفا عنه.
(٦) المحل: الجدب.
(٧) فرع: علا.
(٨) الخلد: البال والفكر.
(٩) طالت: غلبت وتفوقت.

وبهذا البيان الخلاب لانزال نقرأ فى رسائل ابن الدباغ معجبين، ونأسى لمصيره، وكان حريا بأحد الثلاثة: المقتدر بن هود والمعتمد بن عباد والمتوكل بن الأفطس أن يرفق به ويعرف له فضله ومنزلته الأدبية الرفيعة، فيُقيله من أوضار تشاؤمه وعثرات بؤسه بما يُسْدِل عليه من صفو الحياة ورخاء العيش مما يبدِّل قنوطه من معاصريه رجاء ويأسه منهم أملا وخوفه ثقة واطمئنانا، غير أن أحدا منهم لم يحاول إنقاذه من محنته، بل جميعهم تركوه يتجرع غُصَصَ الضَّيْم والحرمان فى غير شفقة ولا رأفة.

أبو[1] عبد الرحمن بن طاهر

هو أبو عبد الرحمن محمد بن أحمد بن طاهر، من بيت ثراء وشرف وفضل بمدينة مرسية فى شرقى الأندلس، وهو بيت كان ينتمى إلى قبيلة قيس بن عيلان فى الجزيرة، وكان يعتز بقيسيته وعروبته. ولما انتثرت الأندلس وتوزعت بلدانها بأيدى أمراء الطوائف دعا أبوه أحمد بن طاهر لنفسه فى بلدته مرسية، فاجتمع أهلها على طاعته، وازدهر إقليم أهلها بجميل سيرته. وكان قد رُزق بابنه أبى عبد الرحمن محمد حوالى سنة ٤٢٠ للهجرة، وشبَّ فأعان أباه فى حكمه إلى أن توفى سنة ٤٥٥ فخلفه على مرسية، وانتهج سيرته، فاستقام له حكم أهلها، وكأنهم لم يفقدوا أباه. وكان من أهل العلم والأدب البارع إذ عنى أبوه بتربيته، وكان يتقدم أمراء الطوائف فى بلاغة الكتابة، وكانت رسائله متداولة لما تتميز به من حسن الأداء، ولابن بسام تأليف خصها به سماه «سلك الجواهر من ترسل ابن طاهر» وترجم له فى الذخيرة ترجمة ضافية.

وكان ابن طاهر جوادا ممدَّحا، ينتجعه الشعراء والأدباء فيجزل لهم العطاء، وانتجعه ابن عمار الذى مرت ترجمته بين الشعراء أيام خموله، فرحَّب به وأكرمه، وجزاه على إكرامه وترحيبه جزاء سنمَّار، إذ عرف فى مقامه بضيافته ضعف جنده وعورات بلده، فلما تطورت به الظروف، وأصبح وزيرا ومستشارا للمعتمد بن عباد أمير إشبيلية زيَّن له الاستيلاء من يد ابن طاهر على مرسية، وما زال يُغريه بفتحها وأن ذلك لن يكلفه مئونة كبيرة حتى استجاب وأعدَّ له جيشا جرارا لفتحها، وفى طريقه إليها اتخذ قائدا لعسكره عبد الرحمن بن رشيق، ولم يلبث أن انتزعها من يد ابن طاهر سنة ٤٧١ وزجَّ به فى سجن

---

(١) انظر فى ترجمة أبى عبد الرحمن بن طاهر الذخيرة ٢٤/٣ - ١٠٣ والقلائد: ٥٨ والمغرب ٢٤٧/٢ وبغية الملتمس رقم ٢٣ والمعجب ١٨٠ والحلة السيراء ١١٦/٢ والذيل والتكملة للمراكشى ٥٩٠/٥ والخريدة ٣٦٣/٣ وأعمال الأعلام لابن الخطيب ٢٣٢.

بحصن قريب من مرسية يسمى «مُنْتْ أقوط» وسوّلت له نفسه أن يخلع ولاءه للمعتمد ويستقل بمرسية، فسلّط عليه قائده عبدالرحمن بن رشيق، فاستخلصها منه. وتوسط لديه أبوبكر بن عبد العزيز الوزير ببلنسية، كي يرد إلى ابن طاهر حريته، فردَّها عليه. وعاش ابن طاهر بقية حياته ببلنسية مبجَّلا معزَّزا، وشهد محنة المسلمين بها سنة ٤٨٧ على يد الفارس الإسباني المغامر السيد الكنبيطور، ووقع - بعد بلاء مبرور في حربه - بأسره، وافتدى وأطلق سراحه، ولم يبرح بلنسية إلى أن استردها المرابطون سنة ٤٩٥. ومدَّ له في البقاء إلى أن توفي ببلنسية سنة ٥٠٨ للهجرة.

وهذه الحياة الطويلة التي امتدت بابن طاهر إلى نحو تسعين عاما أمضى منها فترة معاونا لأبيه في حكم مرسية وفترة ثانية في حكمها وفترة ثالثة قصيرة معتقلا ثم فترة طويلة ببلنسية معززا موقّرا. وهذه الحياة المديدة أتاحت له أن تتكاثر المكاتبات بينه وبين أمراء الطوائف، يخطبون وداده، وهو تارة يثني ويشكر، وتارة يعاتب أويشفع أويعزي أويهنّي، وقد اهتزَّ هزة عنيفة لأوائل حكمه مرسية حين نكل النورمانديون بأهل بربشتر في الشمال الشرقي لسرقسطة سنة ٤٥٦ وأنزلوا بهم مذبحة - كما مرَّ بنا - تقشعر لهولها الأبدان وسبوا منهم خمسة آلاف من النساء والعذارى وباعوهم في الأسواق بيع الإماء، وما إن علم بذلك حتى ضاقت به الأرض بما رحُبت، وأخذ يكتب لأقرانه كي يكيلوا للعدو الغاشم الصاع صاعين، ومن قوله في وصف هذا الحادث المروِّع:

«خطب أطار الألباب، وطأطأ الرقاب، وقطع الآمالَ والهمم، وأسلم من الذلّة والقلّة إلى ما قَصَم، فما شئت من دمع مسفوحٍ مُراقٍ، ونفْسٍ مترددةٍ بين لَهاةٍ وتَراقٍ[1]، وأسّى قد قرع حُصَيَّات القلوب فرضَّها[2]، وعدل عن المضاجع بالجنوب فأقضَّها[3]». ويقول من رسالة أخرى مستنفرا للجهاد:

«لِيَنْدُب الإسلام نادب، وليَبْكِ له شاهدٌ وغائب، فقد طُفِئَ مصباحُه، ووُطِئَ ساحُه، وقُصَّ جَناحُه، وهِيضَ[4] عَضُدُهُ، وغِيضَ ثَمَدُهُ[5]. إلى الله نَفْزَعُ، وإليه نَضْرَعُ، في طارق الخطب ومُنْتابه، ولا حول ولا قوة إلا به، فهو كاشفُ الكروب، وناصرُ المحروب».

---

(١) التراقي: جمع ترقوة: أعلى الصدر. اللهاة: أقصى سقف الحلق.

(٢) رضّها: دقها.

(٣) أقضها: جعلها لا تريح النائم بجنبه فيها.

(٤) هيض: تحطم.

(٥) غيض ثمده: جفّ ماؤه القليل.

وحين رُدَّت إليه حريته وأُطلق من معتقله بفضل وساطة أبى بكر بن عبد العزيز الوزير ببلنسية واستجاب إلى رغبته فى المقام عنده كتب وهو فى طريقه إليه رسالة يقول فى فصل منها:

«كتابى وقد طَفَلَ[١] العَشِىُّ، وسالَ بنا إليك المَطِىُّ[٢]، ولها من ذكرك حادٍ، ومن لُقياك هادٍ، وسنوافيك المساء، ونغتفر للزمان ما قد أساء، ونَرِدُ ساحةَ الأمن، ونشكر عظيمَ ذلك المَنّ، فهذه النفس أنت مُقيلها[٣]، وفى بَرْدِ ظِلّك يكون مَقيلها[٤]، فللّه مجدُك وما تأتيه، لازلتَ للوفاء تُحْييه وتَحْويه»

وكانت فى ابن طاهر دعابة لم تفارقه حتى فى أيام محنته بالاعتقال، وله فى ذلك - كما يقول ابن بسام - عدة نوادر أحر من الجمر وأدمغ من الصخر، ويروى منها أن ابن أخت لعبد الرحمن بن رشيق كان ذا لحية طويلة، وطلعة ثقيلة، وقف عليه يوما فى اعتقاله، فجعل يتفجع له ويتوجع، ويتملّق معه ويتصنّع، فقال له ابن طاهر: خلاصى بيدك إن شئت، فإنك لو أخرجتنى فى لحيتك لتخلصت ولم يرنى أحد. وكتب إليه رجل يتزهد، وأطال الوعظ وردّد، وهو يعرف أنه على الضِّدّ من وعظه، فأجابه:

«ورد كتابك فوعظ وذكّر، ونصح فبَصَّر، ونبَّه من سِنَةِ الغفلة، واغترار المُهْلة، وحذّر من يوم النّدامة، وبَعْثِ يوم القيامة، فيرحمك الله من هادٍ، وخائف مَعادٍ، ومبتغى إرشاد، وداعٍ إلى صلاح وسَداد، لقد حرّكت أنْفُسًا قاسِية، وهززتَ جَنْدَلَةً راسِية، ومِعْوَلُك دونها نابٍ، لا يؤثر فيها بِظُفْرٍ ولا ناب»

ودائما يسيل الكلام على لسان ابن طاهر فى خفة ورشاقة وعذوبة، وفى الذخيرة من ذلك بدائع وروائع يقول ابن بسام بعقبها: «أبو عبد الرحمن أكثر إحسانا، وقد وهب الطروس من ألفاظه ما يفضح العقود الدُّرِّيَّة، وتُمَشْمِس[٥] معه الليالى البَدْرية».

---

(١) طفل العشىّ: مال للغروب العشى وهو آخر النهار.

(٢) المطى: الإبل.

(٣) مُقيلها: منحّيها أى عما كانت فيه من اعتقال.

(٤) مقيلها: مكان راحتها.

(٥) تمشمس: تظلم.

أبو[١] القاسم بن الجد

هو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجد الفهرى، من أسرة بنى الجد، من بيوتات لَبْلة غربى إشبيلية وإشبيلية نفسها، وفى كتاب المغرب ترجمات لغير فقيه وأديب من هذه الأسرة، وقد أكبَّ فى نشأته على كتب الفقه والحديث والأدب، وأخذ اسمه يلمع بين أقرانه فى إشبيلية، فاختاره المعتمد بن عباد أميرها وزيرا لابنه الراضى حين ولاه مدينة الجزيرة الخضراء فى أقصى الجنوب، وظل معه حين ولاه مدينة رُنْدة غربى مالقة إلى أن استنزله منها المرابطون سنة ٤٨٤ وفتكوا به. وعاد أبو القاسم إلى بلدته: لَبْلة فولوه خطَّة الشورى ومقاليد الفتوى، وهو مع ذلك يساجل إخوانه ويراسلهم ويخطب مودتهم، وخاصة أبا بكر بن القصيرة رئيس الديوان بمراكش منذ سنة ٤٨٧ ليوسف بن تاشفين ثم لابنه على. ويبدو أن ابن القصيرة استدعاه ليعمل معه فى هذا الديوان، ولا نعرف تاريخ هذا الاستدعاء، وأكبر الظن أنه استدعاه منذ عهد يوسف بن تاشفين حتى إذا توفى ابن القصيرة سنة ٥٠٨ أسندت إلى ابن الجد رياسة الديوان بمراكش إلى أن توفى سنة ٥١٥ للهجرة.

وقد استهل ابن بسام ترجمته بقوله: «قريع[٢] وقتنا، وواحد عصرنا، ممن اسْتَمرى[٣] أخلاف النظم والنثر، فَدرَّت له بالبيان أو بالسحر.. ورُوَيْدك حتى نرى الصبح كيف يُسْفر، وثَبَج[٤] البحر كيف يزخر. وهو على نباهة الذكر، وعلو القدر، وشرف المحل من فهر[٥]». وتلا ابن بسام ذلك بطائفة من رسائله، ونقرأ من بينها رسالة كتب بها إلى صديقه رئيس دواوين المرابطين، ابن القصيرة، وقد تصادف أن كان على مسافة قريبة منه، ولم يتفق لهما لقاء، وفيها يقول:

«لم أزل - أعزك الله - أستنزل قربك براحة الوهم، من ساحة النجم، وأنصب لك شرك المنى، فى خُلَس الكَرَى. وما ظنك بى وقد نزلت على مسافة يوم، وطالما نفر عن

---

(١) انظر فى ترجمة أبى القاسم بن الجد الذخيرة ٢/٢٨٥، ٣٤٧ والصلة ص ٥١٦ والمطرب ص ١٩٠ والمعجب ص ٢٣٧ والقلائد ١٠٩ والذيل والتكملة للمراكشى ٦/٣٢٦ والمغرب ١/٣٤١ والخريدة ٣/٣٩٣ وإحكام صنعة الكلام لابن عبد الغفور الكلاعى ص ١٨٥.

(٢) قريع: سيد.

(٣) استمرى أخْلاف النظم: احتلب ضَرْعه.

(٤) ثبج البحر: وسطه.

(٥) فهر: قبيلة قرشية.

خيالي نوم، ودنوت حتى هممت بالسلام، وقد كان من خُدَع الأحلام.. وما كان على الأيام لو غفلت قليلا، حتى أشفي بلقائك غليلا.. ولئن أقعدتني بعوائقها عن لقاء حر، وقضاءِ برٍّ فما تحيَّفتْ (تنقصت) ودادي، ولا ارتشفت مدادي، ولا غاضت (نقصت) كلامي، ولا أحْفَتْ (استأصلت) أقلامي، وفي الكتاب بُلْغَة الوطر، وُيسْتدلّ على العين بالأثر.. وإن فرغتَ للمراجعة ولو بحرف، أو لمحة طرف، وصلتَ صديقا، وبَلَّلْتَ ريقا، وأسديتَ يدا، وشفيت صدًى (عطشا)، لا زالت أياديك بيضا، وجاهك عريضا، ولياليك أسحارا، ومساعيك أنوارا».

ويبدو أنه كتب لابن القصيرة هذه الرسالة حين كان يتولى ديوان الإنشاء بمراكش للمرابطين، وقد تولاه منذ سنة ٤٨٧ كما أسلفنا حتى وفاته سنة ٥٠٨ ونراه فيها يشير - من طرف خفي - إلى تمنيه أن يستدعيه صديقه للعمل معه فى ذلك الديوان، ولاتخفى سطور الرسالة مراده وأنه يأمل لو ردَّ عليه بكتاب يحقق له أمنيته. وقد صاغ الرسالة صياغة بديعة، مع لطف الأخيلة ودقة المعانى ومع حسن الأداء. ولانلبث أن نقرأ له رسالة فى وصف مطر بعد جدب شديد، وفيها يقول:

«لما استرابتْ حِياضُ الوِهاد، بعهود العِهاد[١]، وتأهّبَتْ رِياضُ النِّجاد، لبرود الحِداد، واكْتَحَلَتْ أجْفانُ الأزهار، بإثْمِدِ[٢] النَّقْعِ المثار، وتعطَّلت الأنوار، من حُلِيِّ الدِّيمة المِدْرار، أرسل الله تعالى بين يَدَىْ رحمته رِيحًا بليلةَ الجناح، سريعة الإلقاح، فنَظَمتْ عقودَ السَّحاب، نَظْمَ السِّخاب[٣]، ولم تلبث أن انهتك رُواقُها[٤]، وانْبَتَك[٥] وَشِيكا نطاقُها، وانبرت مدامعُها تبكي بأجفان المشتاق، غداةَ الفِراق، فاستغربت[٦] الرياضُ ضحكا ببكائها، واهتزّت رُفاتُ[٧] النَّباتِ طرَبًا لتغريد مُكّائها[٨]، فيا بَرْدَ موقعها على القلوب والأكباد، ويا خلوص رِيِّها إلى غُلَل النفوس الصُّوّاد[٩]، كأنما استعارت أنفاسَ الأحباب، أو ترشّفت رُضَابًا[١٠] من الثَّنايا العِذاب، أو تحمَّلت ماءَ الوصال، أو

---

(١) العهاد: المطر.
(٢) إثمد: كحل. النقع: الغبار.
(٣) السخاب: القلادة من الأزهار.
(٤) الرواق: مقدم البيت
(٥) انبتك: انقطع
(٦) استغرب فى الضحك: بالغ فيه
(٧) رفات: حطام
(٨) المكاء: طائر له تغريد حسن
(٩) ريها: شربها حتى الامتلاء. الغلل: جمع غلة: شدة العطش الصوادى. العطشى.
(١٠) الرضاب: الريق المرشوف.

سَرَتْ على أنداءِ الأسحار ورَيْحان الآصال. فالحمد لله على ذلك ما انْسَكَبَ قَطْرٌ، وانْصَدَعَ فجر، وتوقّد قَبَس، وتردّد نَفَس».

ولعل صوت ابن الجد اتضح، فهو صوت يفيض بألحان عذبة يأخذ بعضها بتلابيب بعض لما تتميز به من عذوبة ورشاقة، وهو صوت يتخايل أو يتجسد فى تصاوير متتابعة، فيمتع النفس بنغماته وأخيلته البديعة. وله من رسالة يخطب فيها وداد أديب وأخوّته:

«إن كانت المداخلة بيننا لم يُفْتَحْ لها باب، ولا علقت بها أسباب، ولا رُمِىَ لنا فى محصَّبها[١] جِمار، ولا عَطف بنا نحو كعبتها اعتمار، فقد جمعتنا فى معرَّف[٢] المعرفة معارف، وضمَّتنا من معالم العلم معاهد ومآلف، ووشجَت[٣] بيننا من أواصر الأدب أنساب، وضُرِبتْ علينا فى مدارج الطلب قِباب، ولا غرو من تدانى القلوب على تنائى الديار، وائتلاف النفوس مع اختلاف النجار[٤]، فربما أُلِّف تشاكل الشيم والأخلاق، بين مستوطن الشام وساكن العراق. على أنى لا أدعى رتبتك فى فنون العلم والآداب، ومن يُضاهى محل الفَرْقد[٥]، بمنبت الغَرْقد، لكنى وإن لم أُعَدّ فى رعيلك، فعندى من بضائع الكلم ما ينفق فى سوقك، بقيتَ حلية للدهر فائقة، وغُرَّة فى وجد الزمن رائقة».

وعذوبة الكلم وحلاوة الصوت وسلاسة الجرس ونعومته، كل ذلك تغرق الآذان فى أنغامه مع ما يسوق من أطياف وخيالات رائعة. وكان فيه ميل إلى الدعابة، مما جعله يعارض أبا الحسين بن سِراج فى رقعته التى مرت بنا والتى شفع فيها عند بعض ذوى الجاه والثراء لرجل يسمى الزريزير مستعيرا له بعض الصفات المتصلة بالطيور كالريش والعش والشُّكير والتحسير، وعلى غِرار رقعة ابن سراج يقول فى رقعته:

«لئن سُمِّى بالزُّرَيْزِير، لقد صُغِّر للتَّكْبير، ولما طار ببلاد الغَرْب وَقَّع، وزَقَا فى أكنافها وصَقَع[٦]، وعاين ما اتفق فيها هذا العام من عدم الزيتون، فى تلك البطون، والمتون، ولم يجد بها قَرارا، أزْمَعَ عنها فِرارا. واستخفّه هائجُ التذكار، نحو تلك الأوْكار،

---

(١) المحصب: موضع رمى الجمار بمنى.

(٢) المعرف: الموقف بعرفات، والاستعارة واضحة.

(٣) وشجت: تشابكت.

(٤) النجار: الأصل والحسب.

(٥) الفرقد: النجم القطبى: الفرقد شجر قصير فروعه شائكة.

(٦) زقا: صاح. صقع: ذهب فى كل وجه.

حيث يكتسي ريشُه حريرا، ويحتشي جَوْفُه بَرِيرا[١]، ويحتسي قَراحا نَمِيرًا[٢]. فخذه إليك، نازلا لديك، ماثلا بين يديك، يترنم بالثناء، ترنم الذُّباب فى الروضة الغَنَّاء. ولن يَعْدَمَ فى جنابك حَبًّا نَثِيرا، وخِصْبًا كثيرا، وعُشا وَثيرا[٣]».

والدعابة لطيفة والصياغة بديعة، ويقول ابن بسام فى ختام ترجمته له إن كلامه أبهى من النجوم وأبهر، وأسْرَى من النسيم وأسير» لما يُشيع به من صياغة تأخذ بمجامع القلوب

سهل[٤] بن مالك

هو سهل بن محمد بن سهل بن مالك الأزدى، من أسرة علمية غرناطية ذات جاه وثراء، وفيه يقول ابن عبد الملك المراكشى: «كان من أعيان مصره وأفاضل عصره تفننا فى العلوم وبراعة فى المنثور والمنظوم، محدِّثا مجودا للقرآن متقدما فى العربية، وافر النصيب من الفقه وأصوله، كاتبا مجيد النظم فى معرب الكلام وهزله ظريف الدعابة مليح التندير» ويقول ابن سعيد فى القدح المعلى: «لو لم تأت غرناطة إلا بهذا الجليل المقدار، لكان حسبها فى العلم والجود والرياسة وجميع أنواع الافتخار، وبرع فى العلوم الحديثة والقديمة وبلغ بين نظرائه مبلغ الكمال»، وصنف فى العربية كتابا مفيدا رتب الكلام فيه على أبواب كتاب سيبويه، وله تعليقات نافعة على كتاب المستصفى فى الأصول للغزالى.

ولما ثار محمد بن يوسف بن هود الملقب بالمتوكل بمدينة مرسية سنة ٦٢٥ وملك قرطبة وإشبيلية وغرناطة بلغه أن سهل بن مالك يتندر به وبرجاله، وكان مطبوعا على النادرة ظريفا خفيف الروح، ولكن ابن هود لم يحتمله فغرّبه عن غرناطة بلدته إلى مدينة مرسية، وظل بها حتى توفى ابن هود سنة ٦٣٥ وصارت غرناطة إلى الغالب بالله محمد بن يوسف بن الأحمر مؤسس دولة بنى نصر أو بنى الأحمر فى غرناطة فعاد إليها، وظل فى جاه بها وبلوغ أمنية حتى توفى سنة ٦٣٩ للهجرة عن سنٍّ عالية ورثاه تلميذه ابن الجنّان رثاء حارا.

وكان سهل شاعرا كما كان ناثرا، ونثره يبذّ شعره ويدل على عمق فكره واصطباغه

---

(١) البرير: ثمر الأراك.

(٢) يحتسى: يتجرع. قراحا نميرا: ماء صافيا زاكيا.

(٣) وثيرا: وطيئا.

(٤) انظر فى ترجمة سهل بن مالك التكملة لتلميذه ابن الأبار ص ٧١٢ واختصار القدح المعلى لابن سعيد ص ٦٠ وزاد المسافر رقم ٢٣ وابن فرحون والذيل والتكملة للمراكشى (بقية السفر الرابع) ص ١٠١ والإحاطة ٢٧٧/٤.

بأصباغ الفلسفة. وكان من تلاميذ ابن رشد، وعنه أخذ العلوم القديمة، وكان شديد الشغف به والإعجاب بفلسفته وفكره. فلما توفى سنة ٥٩٥ أظلمت الدنيا فى عينيه وكأنما طُعن فى كبده فأمسك بالقلم وكتب إلى بنيه يعزيهم - وقد حزّ فى نفسه الجزع وعَضَّها الوجع - تعزية ملتاع أَضْرَمت اللوعةُ نارًا فى فؤاده، وفيها يقول:

«لا أقول كفى ولا أستشعر صَبْرًا، وقد أُسْكن نورُ العِلْم قبرًا، بل أُغْرِقُ الأجفان بمائها، وأستوهب الأشجان غَمْرَةَ[١] غمَّانها، وأتهالك تهالكَ المجنون، وأستجير من الحياة بِرَيْب المَنُون، وأنافرُ السلوَّ منافرة اليقين لوساوس الظنون. وهو الخطبُ الذى نَفَى الهُجُودَ[٢]، وألزم أَعْيُنَ الثَّقَلَيْنِ أن تجود، وبه أَعْظَم الدهرُ المصابَ، وفيه أخطأ سَهْمُ المنية حين أصاب، والدهر يَسْترجع ما وهبَ، كان الصُّفْرَ[٣] أو الذَّهبَ، ولا غرو أن دَهَمَ[٤] الرُّزْءُ، يؤود[٥] الفلكَ الدائر منه الجُزْءُ.. وإنما لله لفظةٌ أوليها، وأُتبعها زَفْرةً تليها، ولقد بحثت الأيام عن حَتْفها بِظِلْفها، وسَعَتْ على قدمها إلى رَغْم أَنْفها، حين أتلفت الواحد يزن مائةَ أَلْفِها، فمَنْ لبثِّ الوَصْلِ ولرَعْى الوسائل[٦]؟ وإلى من يُلْجَأ فى مُشْكلات المسائل؟ ومن المجيب إذا لم يكن المسئول بأعلم من السائل؟ اللهم صَبِّرنا على فَقْد الأُنس بالعلم، وأدِلْنا[٧] من خُفوف الوله بوقارِ الحِلْم، وأَخْلِفه فى بنيه وعامة أهليه بِشَبِيه، ما أوليتَه فى جِوارك المقدَّس وتُوليه»

والتعزية طويلة، وجميعها - على هذا النحو - توجُّع وتفجع لهذا الرزء الفادح الذى نزل بالأندلس لفقد فيلسوفها العظيم منقطع القرين: ابن رشد. وكتب صديق لسهل يعزيه عن محنته بنفيه إلى مُرْسية وغربته، فردَّ عليه برسالة يقول فيها:

«أنا أستوهبُ لك أيها الشيخُ الأخُ الجليلُ عافيةً لا تَعْفُو[٨] بألْسُنِ الحُسَّاد، ولا تَقْفُو[٩] موادُّها أَعْيُنُ السعاة البغاة الذين ما لهم مَقْعَدٌ إلا بالمرصاد، وأُثنِى على كرم طباعك بوصول رسالتك التى طلعتْ على ليلى البَهيم[١٠] صَباحا، وأدارتْ علىَّ من التسلِّى والتعزِّى أقداحا.. ويعلم الله أيها العَلَمُ علما وفهما، أنى لولا مخاطبتك ومِثالك[١١]

---

(١) غمرة غمانها: شدة شدائدها.
(٢) الهجود: النوم.
(٣) الصفر: النحاس.
(٤) دهم: فجأ. الرزء: المصيبة.
(٥) يؤود: يثقل ويجهد.
(٦) الوسائل: الصلات.
(٧) أدلنا: انصرنا.
(٨) تعفو: تنطمس.
(٩) تقفو هنا: تحيط بها.
(١٠) البهيم: المظلم.
(١١) مثالك: يريد مثال مخاطبه وشخصه.

لمتُّ أسَفًا وغمًّا، ولستُ - عافاك الله - بذى سِجْنٍ ولا قيود، ولكن معاشرة من لا يشاكل عَقَبَةٌ كَؤُود[1]، ولعلها ذنوبٌ تمحّصُ، وسَبْكٌ يُصَفّى به الإنسان ويُسْتَخْلَص، وقد شكونا لو أن الشكاة تُسْمَعُ، ودَعَوْنا لو أنَّ الدعاءَ - عند من لا يَقْبله يَنْفع».

وسهل يومئ فى أول رسالته إلى ما صنعه به أهل الحسد والعداوة مما انتهى به إلى النفى عن بلده، ويعبر عن ألمه وحزنه لهذا النفى مع الثناء على صديقه والشكر على رسالته التى أثلجت صدره وفتحت له من التسلى والتعزى أبوابا كانت مغلقة، فخففت من أسفه وغمه. ويقول المراكشى عنه إنه كان كريم النفس فاضل الطبع نزيه الهمة حصيف الرأى وجيها مبرورا معظما عند الخاصة والعامة.

٣

الرسائل الأدبية

مما تميَّز به النثر الأندلسى كثرة الرسائل الأدبية فيه، وكانت تسعف الكتّاب فى ذلك ملكات أدبية خصبة، وهى تلاحظ بوضوح فى كثير من رسائلهم الشخصية إذ نرى الكاتب يتحول برسالته فى المودة والإخاء أو فى العتاب أو فى الرثاء إلى الاتساع والامتداد بها صفحات تلو صفحات. وكان من آثار كثرة الحروب عندهم مع نصارى الشمال كثرة الرسائل الطويلة التى تتخذ الجهاد والاستنفار للحرب وتصوير معاركها العنيفة موضوعات لها، وفى كتاب الذخيرة لابن بسام رسائل كثيرة فى كل ذلك، وخاصة مع موقعتى بَرْبَشْتر سنة ٤٥٦ والزلاقة سنة ٤٧٩. وتكثر عندهم الرسائل الشخصية التى تتخذ الطبيعة موضوعا لها، وألممنا فيما أسلفنا برسائل بارعة على لسان الأزهار عند ابن برد وحبيب وأبى عمر الباجى، ومرَّ بنا أن لابن الجد رسالة بارعة فى وصف مطر بعد قحط شديد، وأن لابن أبى الخصال رسالة فى وصف ليلة شديدة البرد نوَّه بها السابقون، ولابن خفاجة أكثر من رسالة فى وصف الطبيعة، وبالمثل لكتاب غرناطة وفى مقدمتهم ابن الخطيب رسائل متعددة فى وصف الطبيعة. وكان للأندلسيين ميل واضح إلى الدعابة والفكاهة، وهما يتضحان فى كثير من رسائلهم الشخصية، على نحو ما يلقانا عند محمد بن مسعود القرطبى فى أوائل القرن الخامس الهجرى وكان شاعرا يتصعلك فى شعره على

---

(١) كؤود: صعبة.

طريقة الأدباتية أصحاب الكُدْية ممن يصفون فى أشعارهم بؤسهم وحرمانهم ومايسود حياتهم من ضنك وفقر وإقلال طلبا للنوال، وكان له ابن رحل إلى غربى الأندلس وعرف أنه عاش هناك للمجون والشراب فكتب إليه رسالة طويلة حاكى فيها الجاحظ مستمدا من رسالته التربيع والتدوير وما فيها من هزل، وقد ذكر منها ابن بسام فصولا فى ترجمته له[١]. ولأحمد بن عباس وزير زهير صاحب المرية المقتول معه سنة ٤٢٩ رسالة هزلية بديعة فى وصف رسول بكتاب أرسله إليه أبو المغيرة بن حزم، ورد على رسالته أبو المغيرة مستوحيا شيئا من هزله[٢]، وسنلم لابن شهيد برسالته: التوابع والزوابع وما فيها من سخرية وأيضا بالرسالة الهزلية لابن زيدون. ويذكر ابن بسام لابن طاهر الذى ألممنا به طائفة من رسائله فى الدعابة والهزل، ومرت بنا رسالة أبى الحسين سراج بن عبد الملك فى الشفاعة التى بناها على الدعابة لشخص يسمى الزريزير مستغلا فى وصفه طائر الزرزور، وكأنه هو نفس هذا الطائر، وطارت شهرة الرسالة - كما أسلفنا - فى الأندلس وحاكاها كثيرون من أعلام الكتابة بغرض الفكاهة والدعابة. وهو جانب واسع فى الرسائل الشخصية الأندلسية مثل وصف الطبيعة والجهاد والحرب. وحرىّ بكل جانب من هذه الجوانب أن تُجْمَع رسائله مع مقدمة تحليلية توضح روعته الأدبية، وحسبنا الآن أن نلم ببعض رسائل أدبية اشتهرت للأندلسيين.

رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد

ابن شهيد[٣] هو أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن شهيد الأشجعى القرطبى، فهو من أصل عربى، كان جده الأعلى عبد الملك بن شهيد وزيرا للأمير محمد (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) ووز ابنه أحمد لعبد الرحمن الناصر ولقبه بذى الوزارتين ومر بنا فى الفصل الأول ذكر هدية نفيسة له إلى الناصر تدل على أنه كان من أكثر أهل قرطبة ثراء، وولد له فى سنة ٣٢٣ ابنه عبد الملك وأصبح فيما بعد وزيرا للمنصور بن أبى عامر، وولاه على الولايات الشرقية: بلنسية ومرسية مدة تسع سنوات، وعاد مضيفا منها إلى ثرائه

---

(١) الذخيرة ٥٤٩/١.

(٢) الذخيرة ٦٤٥/١ وما بعدها.

(٣) انظر فى ترجمة ابن شهيد اليتيمة ٣٥/٢ والجذوة ١٢٤ والمطمح ١٦ والذخيرة ١٩١/١ - ٢٣٦، ٤٣٧ والبغية رقم ٤٣٧ والخريدة ٥٥٥/٢ ومعجم الأدباء ٢١٨/٢ وابن خلكان ١١٦/١ والوافى للصفدى ١٤٤/٧. ونشر شعره يعقوب زكى بالقاهرة وشارل بلا فى بيروت وللأخير محاضرات عنه بجامعة عمان.

الموروث عن أبيه ثراء واسعا، واصطفاه المنصور بن أبي عامر لنفسه مستشارا وجليسا. ونقل سكناه إلى جواره. وكان قد رُزق بابنه أحمد سنة ٣٨٢ فنشأ فى نعيم نشأة مترفة وضاعف ترفها رعاية ابن أبي عامر وحظياته له، فكان لا يزال يغدو ويروح إلى قصوره مختلطا بأحفاده. وعنى أبوه بتربيته. ومنذ نعومة أظفاره كان عنده نهم للأدب والمعارف، يقول فى فواتح رسالة: التوابع والزوابع: «كنت أيام كُتَّاب الهجاء أحن إلى الأدباء وأصبو إلى تأليف الكلام. فاتبعت الدواوين وجلست إلى الأساتيذ. فنبض لى عِرْق الفهم، ودرَّ لى شِرْيان العلم.. فطعنتُ ثغرة البيان دِراكا، وأعلقت رِجْلَ طيره أشْراكا، فانثالت لى العجائب وانهالت علىَّ الرغائب». ويضيف إلى ذلك فى إحدى رسائله أنه درس ضروب العلم المختلفة من أدب وخبر وفقه وطب وكيمياء وحكمة. وبينما هو غارق فى النعيم وفى تثقيف نفسه إذ النكبة تحل بأسرة ابن أبي عامر سنة ٣٩٩ وكان قد توفى منذ سبع سنوات. وولى الحجابة المظفر ابنه فسعدت الأندلس والرعية به، غير أن القدر لم يمهله، فتوفى سنة ٣٩٩ وخلفه أخوه الناصر عبد الرحمن وكان نحسا على نفسه وانهمك فى الشرب والزندقة والطعن فى الدين الحنيف، فقتل سريعا. وانفتح باب الفتنة التى قضت على الدولة الأموية ودُمِّرت فيها قرطبة وأُحرقت المدينتان المحدثتان بجوارها: الزهراء والزاهرة، وسُفكت الدماء بقرطبة وظلت تنزف طويلا. وترك ذلك آثارا عميقة فى نفس ابن شهيد فقد اندكُت صروح آماله ومطامحه، وداخله أسى عميق لما نزل بمدينته وبأسرة بنى أبي عامر، ولما رأى فى أثناء ذلك من انتهاك القيم واختلال الموازين، فأكبَّ على كئوس الخمر واللذات يغرق فيها همومه محاولا أن ينساها أو يتسلى عنها، وأنَّى له، إذ كانت تتجدد كل يوم. فكيف يحتمل الحياة إنه ليس أمامه إلا أن يسرف على نفسه فى الخمر وما يتصل بها من اللذات، لعلها تخفف عنه محنته وما يُطْبق عليه من أحزان. وتصادف أن أصابه الصمم مبكرا، فتضاعف حزنه وهمه، وتضاعف إقباله على الخمر والمجون حتى ليقول ابن حيان: «غلبت عليه البطالة فلم يحفل فى آثارها بضياع دين ولا مروءة حتى أسقط شرفه ولم يُقْصِر عن ارتكاب قبيحة» ويقول ابن بسام: «كان بقرطبة فى رقته وبراعته وظرفه خليعها المنهمك فى بطالته وأحطُّ الناس فى هوى نفسه وأهتكهم لعرضه وأجرأهم على خالقه». وكان الشعر قد انثال على لسانه مبكرا، كما أخذت تظهر مخايل نبوغه الأدبى، وسرعان ما أصبحت داره منتدى لأترابه من الشباب القرطبيين المتأدبين أمثال ابن حزم وابن عمه أبي المغيرة عبد الوهاب وابن برد الأصغر وأبي عامر بن المظفر بن أبي عامر وابن عمه المؤتمن عبد العزيز. ويقدم غير مدحة

للخليفة المستعين الأموى (٤٠٠ - ٤٠٧ هـ) ويشكو له ممن يتهمونه بسرقة الشعر كذبا وبهتانا. وفتك بالمستعين قائده على بن حمود الحسنى واستولى على صولجان الخلافة وانعقدت صلة بين ابن شهيد وكاتبه أبى جعفر اللمائى، وفتك بابن حمود غلمانه سنة ٤٠٨ وخلفه أخوه القاسم وخلعه ابن أخيه يحيى بن على بن حمود سنة ٤١٢ وكان قد اتخذ وزيرين أبا عبد الله بن الفرضى وابن فتح جعفر بن محمد وأفسدا العلاقة بينه وبين ابن شهيد مما جعله يزجّ به فى غياهب السجن فترة ظل فيها يستعطفه حتى رد إليه حريته.

وكان ابن شهيد يختلف إلى مجالس أبى العباس بن ذكوان المتوفى سنة ٤١٣ وفيها انعقدت صلة بينه وبين ابنه أبى بكر وكان مثله رقاعة وخلاعة، وتعرف على ابن الحناط الكفيف الذى كانت ترعاه أسرة بنى ذكوان، واصطدم به، وربما كان من أسباب ذلك أنه كان يوالى بنى حمود ويقدم إليهم مدائحه بينما كان ابن شهيد يوالى بنى أمية. وأيضا ربما رجع ذلك إلى المنافسة الأدبية، فنشبت بينهما مناقضات نظما ونثرا استمرت طويلا. ولم يكن يؤذيه شىء مثل اتهامه بالسرقة فى شعره ونثره، وبلغه أن أبا بكر محمد بن القاسم إشكمياط (فى كتاب المغرب: إشكنهاط) يتهمه بالسرقة فى نثره، فكتب إليه محنقا رسالة عنيفة، قال فيها: «لأقطعن حبالك هاجرا، ولأتركن ليلك ساهرا». ويصبح صديقه الأمير عبد الرحمن بن هشام الأموى خليفة فى سنة ٤١٤ ويتلقب بالمستظهر، ويتخذه مع صاحبه ابن حزم وزيرين، وأحسَّ ابن شهيد أن الدنيا تبتسم له بعد طول العبوس، غير أن ابتساماتها سرعان ما غاضت بعد سبعة وأربعين يوما، إذ خلف المستكفى الأموى المستظهرَ، وعادت الهموم تطبق عليه. وكان يحيى بن على بن حمود قد انسحب إلى مالقة، ففكر ابن شهيد أن يهاجر إليها كما تدل على ذلك قصيدة فى ديوانه، ونظن أنه زار حينئذ مجاهدا أحد فتيان العامريين الصقالبة وكان قد أسس له إمارة فى دانية بشرقى الأندلس سنة ٤١٢ غير أنه ازورَّ عنه فيما يبدو لاختلاف مسلكهما فى الحياة، إذ لم يكن مجاهد يأخذ نفسه بشىء من اللهو، بل على العكس كان منصرفا إلى الجد والعناية بالعلماء والقراء. وعاد ابن شهيد إلى قرطبة ولم يلبث يحيى بن على بن حمود أن قدم إليها بجنوده من مالقة واستولى على أزمة الأمور بها سنة ٤١٦ وقدَّم إليه ابن شهيد بعض مدائحه غير أن وزيريه ابن فتح وابن الفرضى ظلا يغلقان أبوابه فى وجهه. واستدار العام، فانصرفت قرطبة عن ابن حمود وبايعت لأموى هو الخليفة المعتدّ وظل بعيدا عنها يتنقل فى الثغور نحو ثلاث سنوات. وكان صديق ابن شهيد المؤتمن العامرى أصبح أميرا على بلنسية منذ

سنة ٤١٧ فتراسلا مرارا، وألحّ عليه المؤتمن أن يترك قرطبة إلى بلنسية، فاعتذر إليه بشعر رقيق يصور فيه شغفه بقرطبة مع ما أصابها من المحن والخطوب والدمار وتفجّع لها وتوجع فى أسى مرير. ويقرّبه الخليفة المعتدّ ويتخذه جليسا وسرعان ما يتقوض حكمه وتتقوض معه الدولة الأموية سنة ٤٢٢ ويستولى على مقاليد الأمور بها أبو الحزم جهور. وفى سنة ٤٢٥ يزور أمير المرية زهير الصقلبى - من فتيان بنى عامر - قرطبة ومعه وزيره وكاتبه أبو جعفر أحمد بن عباس وكان فيه عجب شديد، فاصطدم به ابن شهيد وهجاه هجاء مقذعا. ويصاب فى أواخر هذه السنة بفالج ويقاسى منه لمدة سبعة أشهر أهوالا ثقالا حتى ليفكر فى الانتحار كما ذكر فى بعض شعره، ويلبى داعى ربه فى جمادى الأولى سنة ٤٢٦، وصلّى عليه - وأقام مراسم دفنه - أمير قرطبة أبو الحزم جهور، ويَكْثُرُ البكاء والعويل على قبره وتُنْشَد مراث متعددة لصديقه ابن برد الأصغر وغيره.

وهذه حياة ابن شهيد، وهى حياة امتلأت بغيوم الهموم مع ما امتاز به من تفوق فى الأدب نثرا وشعرا، وفيه يقول ابن حيان مؤرخ الأندلس: «إذا تأملته ، وكيف يجرّ فى البلاغة رسَنه، قلت عبد الحميد فى أوانه، والجاحظ فى زمانه.. وله رسائل كثيرة فى أنواع التعريض والأهزال قصار وطوال برّز فيها شأْوه، وأبقاها فى الناس خالدة بعده» وقال عنه الفتح بن خاقان فى المطمح: «عالم بأقسام البلاغة ومعانيها، حائز قصب السبق فيها، لا يشبهه أحد من أهل زمانه، ولا ينسِّق ما نسّق من درّ البيان وجُمانه» وقال فيه ابن بسام: «نادرة الفلك الدوّار، وأعجوبة الليل والنهار، إن هزل فسجع الحمام، أو جَدّ فزئير الأسد الضرغام، نظمٌ كما اتسق الدر على النحور، ونثرٌ كما خُلط المسك بالكافور». وقد سقطت من يد الزمن أعماله ولولا ما احتفظ به ابن بسام وأصحاب الكتب الأدبية من أشعاره لضاع هذا الكنز النفيس من منظوماته. وأيضا لولا ما احتفظ به ابن بسام من رسائله وخاصة من رسالته التوابع والزوابع لفقد النثر الأندلسى دررًا بديعة من لآلئه وروائعه.

وابن بسام لم يحتفظ برسالة التوابع والزوابع جميعها، إنما احتفظ ببعض فصولها، وما جاء فى صدرها من مخاطبة ابن شُهيد لصديق له هو أبو بكر بن حزم، وتصادف أن كان لأبى محمد بن حزم أخ يتفق مع هذا المخاطب فى اسمه توفى سنة ٤٠١ فظن بعض الباحثين أنه هو المخاطب، ورتبوا على ذلك أن ابن شهيد ألف رسالته وهو شاب، ولو أنهم رجعوا إلى الحميدى فى الجذوة لوجدوه ينص على أنه شخص آخر، إذ يقول: «يحيى بن حزم أبو بكر شيخ من شيوخ الأدب.. وهو الذى خاطبه أبو عامر بن شهيد

برسالة التوابع والزوابع التى سماها شجرة الفكاهة، وهو من بيت آخر غير بيت الفقيه أبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم». وإذا أضفنا إلى ذلك أن ابن شهيد أنشد فى الرسالة قطعة من رثائه لوزير الخليفة المستظهر حسان بن مالك المتوفى - كما جاء فى كتاب الصلة - سنة ٤١٦ تعين أن تكون الرسالة كتبت فى هذه السنة على الأقل أو بعدها فى إحدى السنوات التالية القريبة. وبذلك يسقط كل ما ذهب إليه الباحثون من أن الرسالة أُلِّفت قبل هذا التاريخ.

والتابع فى الرسالة الجِنِّىُّ والزوبعة الشيطان، وابن شهيد يذكر فى صدرها لصديقه أبى بكر بن حزم أنه أُرْتِجَ عليه ذات يوم فى شعر كان ينظمه، فتراءى له تابعه من الجنّ على فرس أدهم، فأجازه، واستحلفه من هو فقال: زهير بن نُمَيْر من قبيلة أشجع فى الجن،وكأن فى الجن قبيلة تقابل قبيلة ابن شهيد: أشجع فى الإنس، وتحادثا حينا، ثم علّمه أبياتا إذا أراد استحضاره، وأوثب الفرس جدار الحائط وغاب عنه، فكان كلما أُرْتِجَ عليه أنشد الأبيات المذكورة فمثل تَوًّا. ولما تأكدت صحبته له عرض عليه أن يلقى معه توابع الشعراء والكتاب وزوابعهم فاستأذن له شيخه الجنى، وأذن له، فأركبه معه على متن جواده، وسار بهما كالطائر يقطع الجوَّ فالجوَّ والدَّوَّ (الفلاة) فالدَّوَّ حتى لمح ابن شهيد أرضا لا كأرض الإنس متفرِّعة الشجر عطرة الزهر، وقال له تابعه تلك أرض الجن، وطلب منه ابن شهيد أن يلقى صاحب امرئ القيس «وأمال التابع عِنان الجواد إلى واد من الأودية به دَوْحٌ تتكسر أشجاره وتترنم أطياره، وصاح تابعه على تابع امرئ القيس قائلا: «ياعُتَيْبةبن نوفل، بسقط اللِّوَى فَحَوْمَل (وهما موضعان بمعلقة امرئ القيس) يوم دَارة جُلْجُل (أيضا فى المعلقة) إلا ماعرضتَ علينا وجهك، وأنشدتنا من شعرك، وسمعتَ من الإنسىّ وعرَّفتنا كيف إجازتك له؟ فظهر لهما فارسٌ على فرس شقراء كأنها تلتهب، فقال: حياك الله يا زهير وحَيًّا صاحبك أهذا فَتاهم؟ قال زهير هو هذا. وأى جَمْرة (يشيد بابن شهيد) يا عُتَيْبة، فقال لابن شهيد: أنشدْ، فقال: السيد أولى بالإنشاد، فتطامح (ارتفع) طَرْفه، واهتزَّ عِطْفه، وقبض عِنانَ الشَّقْراء (فرسه) وضربها بالسوط، فسمت تَخْضِر (تثب) طُولاً عنا، وكَرَّ فاستقبلنا بالصَّعْدة (القناة) هازًّالها، ثم رَكَزها، وأنشده إحدى قصائد امرئ القيس حتى أكملها، ثم قال لابن شهيد: أنشدْ، فهمَّ إزاء روعة قصيدة امرئ القيس بالحيْصَة (النكول) ثم اشتدتْ قُوَى نفسه وأنشده قصيدة يعارض بها قصيدته، فلما انتهى منها تأمله تابع امرئ القيس مُعْجَبًا به، ثم قال له: اذهبْ فقد أَجَزْتُكَ وغاب عن بصره. وسأله تابعه زهير: من تريد بعده، فطلب

لقاء صاحب طرفة، فقطع معه وادى عنيبة، وركضا جوادهما حتى انتهيا إلى غَيْضة. ويصف ابن شهيد الغَيْضَةَ وأشجارها ولقاءه فيها بعنتر بن العجلان تابع طرفة، ويحاوره وينشده عنتر قصيدة لطرفة ويعارضها بقصيدة بديعة، ويصيح عَنْتر معجَبا بقصيدته، ويجيزه، ويَغيب عنه. ويلتقى ابن شهيد مع صاحبه بتابع قيس بن الخطيم شاعر يَثْرب ويتحاوران ويتناشدان الشعر ويجيزه. ويترك توابع شعراء الجاهلية إلى شعراء العصر العباسى. ويلتقى بصاحب أبى تمّام، وينشده ابن شهيد أشعارا مختلفة له منها مرثيته للوزير حسان بن مالك. ويلتقى بتابع البحترى، ويتناشدان الشعر ويجيزه.

ويسأل ابن شهيد صاحبه أن يلقاه بصاحب أبى نواس وينقل لنا صورة من منازل خمره وسكره، إذ بوادى الجن منازل مماثلة لمنازل أبى نواس فى دُنْيا الإنس، فهذا دَيْرُ حَنَّة الذى كان كثيرا ما يختلف إليه، ويَشُقُّ سَمْعَ ابن شُهَيد قَرْعُ النواقيس، ويجتاب مع تابعه أديارًا وكنائس وحانات حتى ينتهيا إلى دَير عظيم تعبَق روائحه وتفوح نوافِحُه، ويقف صاحبه زهير ببابه ويصيح سلام على أهل دَيْر حَنّة، ويسأله ابن شهيد هل صِرْنا بذاتِ الأُكَيْرَاح (ساحة يخرج إليها الرهبان فى أعيادهم وطالما تغنى بها أبو نواس) ويجيبه: نعم، وتقبل نحوهما الرهابين وفى أوساطهم الزَّنانير المشدودة وقد قبضوا على العكاكيز، بيض الحواجب واللِّحَى، وقالوا لصاحبه ما بُغْيَتُكَ؟ فقال حُسَيْنُ الدِّنان تابع أبى نواس، فقالوا إنه فى شرب الخمر، منذ أيام عشرة، ونزلوا بابن شهيد وتابعه إلى بيت اصطفَّت دنانه وحولها غزلانه، وفى فُرْجَته شيخٌ طويل الوجه واللحية افترش أَضْغَاثَ (أخلاطَ) زهر، واتكأ على زِقّ خمر، وبيده طاسُ خمر كبير، فصاح به زهير: حيَّاك الله أبا الإحسان، فأجاب بجواب لا يُعْقَلُ لغلبة الخمر عليه، فقال زهير لابن شهيد: اقْرَعْ أُذُنَ نَشْوته. بإحدى خمريَّاتك فإنه ربما تنبَّه لبعض ذلك، فصاح ابن شهيد ينشده إحدى خمرياته، فصاح تابع أبى نواس وسأله الأشجعى كأنه لا يحسن مثل هذه الخمرية إلا ابن شهيد الأشجعى، وأجابه ابن شهيد: أنا ذاك، فاستدعى ماء قَرَاحًا، فشرب منه وغسل وجهه، فأفاق واعتذر إليه مِنْ حاله، وأنشده قصيدة أبى نواس:

يا دَيْرَ حَنَّةَ مِنْ ذاتِ الأُكَيْراحِ مَنْ يَصْحُ عنك فإنى لستُ بالصَّاحِى

وكاد ابن شهيد يخرج من جلده طَرَبًا، وسأله تابع أبى نواس أن ينشده من شعره، وقام حسين يرقصُ ببعض شعر ابن شهيد ويردده، وقال له: هذا والله شىء لم نُلْهَمْه نحن وقبَّل بين عينيه وأجازه. وسأل زهير ابن شهيد مَنْ تريد بعد ذلك؟ فقال له: تابع

أبى الطيب المتنبى، ولقيه فارسا على فرس بيضاء كأنه قضيبٌ على كَثيب، وبيده قناة قد أسندها إلى عنقه وعلى رأسه عمامة حمراء قد أرخى لها عَذَبَةً صفراء، فحيَّاه زهير، فأحسن الردَّ ناظرا من مُقْلة شَوْساءَ مضمومة أجفانها استعلاءً قد مُلئت تِيهًا وعُجْبًا. واستنشد ابنَ شهيد فأنشده بعض أشعاره، ولما انتهى قال لزهير إن امتد به شَوْط العُمر فلا بد أن يَنْفُثَ بدرر، وما أراه إلا سيُخْتَضر (يموت شابا) بين قريحة كالجَمْر وهِمَّة تضع أَخْمَصه (باطن قدمه) على مفرق البدر، ويجيزه. وكأنما كان تابع المتنبى يقرأ فى صفحة القدر، إذ تنبأ له أن يحطم الموت غصنه اليافع بعد سنوات معدودة، وحطمه.

وسأل ابن شهيد زهيرا بعد لقائه بالمتنبى أن يلقاه بتوابع الكُتَّاب - ويسميهم الخطباء - وركضا الجواد طاعِنين فى مطلع الشمس، ومالا إلى توابعهم بمرْج دَهْمان وإذا بنادٍ عظيم جَمعهم، والكلُّ منهم ناظر إلى شيخ أُصْلَع جاحظ العين اليمنى على رأسه قَلَنْسُوَةٌ بيضاء طويلة، فسأل ابن شهيد زهيرا عنه فقال: عتبة بن أرقم صاحب الجاحظ وكنيته أبو عتيبة، فقال ابن شهيد: بأبى هو ليس رغبتى سواه وغير صاحب عبدالحميد الكاتب فقال له إنه ذلك الشيخ الذى إلى جَنْبه. وعرَف عتبة بابن شهيد، فقال له: إنك حائك للكلام مجيد، لولا أنك مُغْرى بالسجع، فكلامك نظم لا نثر. فاعتذر له قائلا إنه يعرف فضل الازدواج والمماثلة (خاصَّة أسلوب الجاحظ وعبدالحميد الكاتب) غير أنه عدم ببلده فُرْسان الكلام. ويسوق حَمْلة عنيفة على كُتَّاب زمنه مستخدما أسلوبهما من الازدواج والمماثلة. ويقرأ لهما رسالة طويلة مسجوعة فى الحَلْواء، يصف فيها طائفة منها، من مثل الخبيص والزلابية، ويستحسنانها قائلَيْن إن لسَجْعِه موضعا من القلب ومكانا من النفس، مع حلاوة اللفظ وملاحة السياق. ويذكران له أنه بلغهما أن من أبناء جنسه من يطعن على أدبه، وسألاه مَنْ أشدهما فى الطَّعْن والإجْحاف بحقك، فيذكر لهما ثلاثة هم أبو محمد وأبو بكر وأبو القاسم، ولا نعرف شخصية أبى محمد، إذ تكنَّى بهذه الكنية لزمنه غيرُ واحد. وأما أبو بكر فأكبر الظن أنه إما أبوبكربن حزم، الذى ذكر فى مطلع الرسالة أنه يتهمه بأن شيطانًا يجرى على لسانه مايخرج عن قدرة الإنس، وإما أبوبكرمحمدبن قاسم المعروف بإشكمياط الذى مر بنا فى حياته أنه اتهمه بسرقة فقر نثره الحسان من سابقيه. وأما أبوالقاسم فذكر ابن شهيد بعد سطور قليلة أنه أبوالقاسم الإفْليلى، ويهتف صاحبا الجاحظ وعبد الحميد بتابعه أنفِ الناقة بن مَعْمر، وينهض لهما جِنِّىٌّ أشْمطَ (دبُّ الشيب فى شعره) رَبْعة وارمُ الأنف (متكبر شامخ بنفسه) يتظالَع (يتعارج) فى مشيته كاسرًا لطرفه، وزاويًا لأنفه.

وكان الإفليلى قد تصدَّر فى قرطبة، يقرئ علم الأدب ويختلف الطلاب إليه، وكان مع علمه باللغة والنحو يتكلم فى معانى الشعر والبلاغة والنقد، واستكتبه المستكفى فى خلافته ثم أعفاه لخلو كلامه من حُسْن البيان والبلاغة. ويتهم تابعُه أنفُ الناقة ابنَ شهيدٍ بنقصِ اطلاعه، ويطلب إليه أن يناظره على كتاب سيبويه وشرح ابن درستويه، فيسخر ابن شهيد منه ويقول الإفليلى بلسان أنف الناقة إنه أبو البيان، فيهزأ به قائلا إنه لا يحسنه. ويطلب إليه أنف الناقة مثالا، فيصف له بُرْغوثا وثَعْلبا وصفا رائعا. ويلتفت إليه تابع بديع الزمان زُبْدة الحقب فيطلب إليه أن يصف جارية ويعجب بوصفه، ويذكر له زبدة الحقب وصف البديع للماء ويقول له إنه من العُقْم أو المعجز، فيعارضه ابن شهيد بوصف رائع للماء، ويمتلىء زبدة الحقب غيظا، فيضرب الأرض برجله، فتنفرج عن هُوَّةٍ يغيب فيها. ويشتدّ غيظُ أنف الناقة تابع الإفليلى، فيطلب إليه أن ينشد بعض أشعاره، وينشد أشعارا بديعة متحدِّيا له، وتَصيح فتيان الجن إعجابا واستحسانا، وتعلو أنف الناقة الكآبة، ويحاول فتى من الجن أن يصلح بينهما، فيأبى ابن شهيد لما يتتبع الإفليلى فى دروسه لزلَّة قد تمر به فى شعره أو نثره، فيهتف بها بين تلاميذه ويجعل وقوفه عليها مفخرة من مفاخره. فيقول له الفتى الجنىّ إن الشيوخ قد تزلُّ أحلامهم فى النُّدْرة، ويقول ابن شهيد: بل إنها المرة بعد المرة. وما يلبث صاحبا الجاحظ وعبد الحميد الكاتب أن يشهدا له بأنه شاعر وناثر، وينفضُّ الجمع، والكل ممتلىء إعجابا به. ويقول ابن بسام إنه امتد بعد ذلك بابن شهيد الكلام فى باب التوابع والزوابع، ومدَّ فيه أطناب (أسباب) الإطناب والإسهاب، ولذلك وقف دون الغاية، وقطع قبل النهاية. وكنا نتمنى أن لا يقطع ابن بسام وأن لا يقف، بل كنا نتمنى أن يورد التوابع والزوابع بحذافيرها، لأنها طرفة رائعة من طرف النثر الأندلسى، وهى طرفة بديعة النسق فى الصياغة والرونق فى العبارة دون سجع ولا ما يشبه السجع إلا ما جاء عفوًا.

وأضاف ابن شهيد فى الرسالة إلى هذا الباب الخاص بلقائه لتوابع الكتاب والشعراء بابا تذاكر فيه مع زهير تابعه ما تعاورتْه الشعراء من المعانى ومَنْ أحسن منهم الأخذ للمعنى ومن قصَّر فيه، ويعرض لبعض المعانى ومن تداولوها، ويتمثل له جنىٌّ يسمى فاتك بن الصُّقْعب ويتحاور معه ويجرى على لسانه بعض أبيات من سينية غزلية له، ويسأله فاتك هل جاذبت أحدا فيجيبه نعم أبا الطيب المتنبى، وينشده من ذلك بعض أشعاره فيصيح فاتك صيحة منكرة من صياح الجن إعجابا واستحسانا. وكان بقربه جنى ضخم هو فرعون بن الجون، أخذ يتحداه بأشعار رائعة للمتنبى، فأنشده ابن شهيد بعض أشعاره

البديعة وبَهَرتْه، فأخذ يسأله عن أشعار لأبيه وأخيه وعمه وجده وجَدِّ أبيه، وابن شهيد يذكر له قائله منهم، حينئذ أقسم أن لايعرض له أبدا، وشهد له بعراقته فى الكلام، وكأنما ألقمه حجرا بشعره وشعر آبائه فتضاءل وغاب عن بصره.

ويُتْبِع ابن بسام ذلك بفصل أخير من فصول الرسالة أو قل بمشهد نرى فيه ابن شهيد مع تابعه زهير بأرض الجن يستعرضان أندية أهل الآداب، وإذا هما يشرفان على أتان من حُمر الجن وبعض بغالهم وتعرَّضت لابن شهيد . الأتان تحكِّمه فى شِعْرين لحمار وبَغْل من عشاقهم اختلفت التوابع من الجن فيهما، وتقدمت إليه بَغْلَةٌ شَهْباء عليها جُلُّها (غطاؤها الصائن لها) وبُرْقعها، وأنشدته الشِّعْرَيْنِ ففضَّل شعر البَغْل وقال: كان أنف الناقة أجدر منى بالحكم، وقالت له البغلة: أما تعرفنى؟ فقال لها: لو كانت بك علامة، فأماطتْ لثامها، فإذا هى بغلة أبى عيسى والخالُ على خدِّها، فتباكيا طويلا، وأخذا فى ذكر أيامهما، وسألته: ما فعل الأحبَّة بعدها؟ أهم لايزالون على العهد؟ فقال: شاخ الفتيان، وتنكرت الخلَّان، ومن إخوانك من بلغ الإمارة، وانتهى إلى الوزارة، وحالوا عن العَهْد، ونَسَوُا أيام الوُدّ. وكانت بقربهم إوزَّة بيضاء شهلاء فى مثل جثمان النعامة، ويسأل ابن شهيد زهير عنها، فيقول له إنها تابعة شيخ من مشيختكم تسمى العاقلة وتكنى أم خفيف، ويتحاور معها مثنيا عليها، فمرة تَسْبَحُ ومرة تطير، ومرة تنْغمس فى الماء ومرة تَخْرج منه، ثم سكنت وأقامت عنقها وعرَّضت صدرها ورفرفت بمجذْافيها (بجناحيها) واستقبلته مع صاحبه جاثيةً (قائمة على مؤخِّرتها) كصدر المركب، ثم سألته ماذا يُحْسن؟ فقال لها من الشعر أو النثر، فقالت له إنما أريد النحو والغريب تريد أن تتهمه بأنه لايحسنهما، ويطيل الحوار معها واصفا لها بالحمق وأنها فى حاجة إلى عقل التجربة إذ عدمت العقل الطبيعى، ويسألها أيهما أفضل: الأدب أم العقل؟ وتجيبه العقل، فيقول لها إذا ظفرت منه بحظ فناظرى حينئذ فى الأدب. وكأن الإوزَّة بذلك تأخذ صفة الإفليلى بشهادة تحديها لابن شهيد بإحسان النحو والغريب اللذين كان الإفليلى يشتهر بهما. وبذلك نفهم كلمة ابن بسام عن الرسالة لابن شهيد وتكرار ذكر الإفليلى فيها بأنه هو الذى به ابن شهيد عرَّض، وجعله الغرض، وكأنما أنشأها من أجل الرد على ما وسمه به فى بعض دروسه من زلات وعثرات، مما جعله يعرض فى الباب الأول من الرسالة روائع شعره ونثره على توابع الشعراء والكتاب النابهين مقارَنة إلى قصائد أصحابهم، وإذا هم يبهرون بشعره ونثره دائما ويجيزونه، محاولا بذلك أن يسقط نقد الإفليلى له. ثم أخذ يعرض جانبا من

تداول المعانى بين الشعراء ومن قدرته على نقد الشعر وتذوقه ليبرهن على أنه يبذ الإفليلى فى انتقاد الشعر وتذوقه والوقوف على المعانى التى يشترك فيها الشعراء ويتداولونها. وكان تابع الكاتب والشاعر فى الشطر الأول من الرسالة يتمثل له بشرا سويا، وتشكّل له فى الشطر الثانى على صورة بعض الحيوانات والطير مستمدا فى ذلك كله من قصص الجن عند العرب.

وقرن كثير من الباحثين[1] هذه الرسالة لابن شهيد إلى رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى، ومنهم من ذهب إلى تأثر أبى العلاء بابن شهيد، ومنهم من ذهب إلى أن ابن شهيد هو الذى تأثر بأبى العلاء، وكلا الرأيين يجانبه الصواب. وحقا الرسالتان رحلتان فيما وراء الواقع، لكنهما بعد ذلك تتباينان فى موضوعيهما، فرحلة أبى العلاء تدور على عقيدة إسلامية هى عقيدة المعاد وما يتصل به من أهوال الحشر والصراط ونعيم الجنة وعذاب النار ولقاء بعض من غُفر لهم من الشعراء واللغويين فى الفردوس ورؤية إبليس وبشار وأضرابه من الزنادقة فى الجحيم. أما رحلة التوابع والزوابع لابن شهيد - كما مرّت بنا - فتدور على ما شاع على ألسنة العرب فى عصرهم الجاهلى الوثنى من تصور شياطين للشعراء يلهمونهم أشعارهم. وواضح من موضوع الرحلتين أنهما لا يلتقيان أى التقاء وأن من الخطأ كل الخطأ أن يحاول باحث تبين أثر لإحداهما فى الأخرى. وذكرنا من قديم فى كتابنا «الفن ومذاهبه فى النثر العربى» ثم فى كتابنا «المقامة» أن الذى أوحى إلى ابن شهيد برحلته فى أرض الجن ووديانها إنما هو بديع الزمان وما قرأه فى مقامته الإبليسية عن لقاء عيسى بن هشام لإبليس فى واد من وديان الجن وتحاورهما وإنشاد إبليس له أشعارا جاهلية، ثم عرض عليه أن ينشده من شعره، فأنشده إبليس قصيدة لجرير، وعجب عيسى من انتحاله قصيدة جرير، ولم يلبث إبليس أن قال له: «ما أحد من الشعراء إلا ومعه معين منا، وأنا أمليت على جرير هذه القصيدة، وغاب عنه، وكأنما ابتلعته الأرض. وفى نفس رسالة التوابع والزوابع ما يؤكد الصلة بين ابن شهيد وبديع الزمان فى مقاماته، إذ نرى ابن شهيد يعرض على تابعى الجاحظ وعبد الحميد الكاتب رسالة طويلة فى ألوان من الحلواء أراد بها محاكاة بديع الزمان فى مقامته المضيرية. وما يلبث ابن شهيد أن يذكر أنه لقى تابع بديع الزمان المسمى زبدة الحقب، ويقترح

---

(١) راجع بلاغة العرب فى الأندلس للدكتور أحمد ضيف (طبع القاهرة) ص ٤٨ والأدب الأندلسى للدكتور هيكل ص ٣٨١.

عليه وصف جارية ويصفها، ويعجب زبدة الحقب بوصفه، ويسأله ابن شهيد أن يسمعه وصفه للماء، ويقول له إنه وصف معجز، ويعارضه ابن شهيد بوصف رائع للماء يبهره. وفي ذلك كله ما يقطع بأن المقامة الإبليسية لبديع الزمان هى التى ألهمت ابن شهيد رسالة التوابع والزوابع وأوحت بها إليه. ويتردد فى كتابى الجذوة للحميدى والمغرب لابن سعيد اسم كتاب لابن شهيد سماه حانوت عطار ويبدو من نقولهما عنه أنه ترجم فيه لأدباء الأندلس فى عصره وقبل عصره ترجمات قصيرة ذكر فيها بعض أخبارهم وما استطرفه من أشعارهم مع بعض نظرات نقدية.

رسائل ابن بُرْد[1] الأصغر

ابن بُرْد الأصغر هو أبو حفص أحمد حفيد أبى حفص أحمد بن بُرْد الأكبر الذى ولى ديوان الإنشاء للمنصور بن أبى عامر، وكتب بعده لابنيه المظفر والناصر. ثم كتب لسليمان المستعين الأموى وللأمراء الحموديين، ويترجم له ابن بسام فى الذخيرة، ويشيد ببيانه وبلاغته قائلا إنه «أسمع الصُّمَّ بيانا، واستنزل العُصْمَ إبداعا واستحسانا» ويتلو ذلك بطائفة بديعة من رسائله. وحين رُزق ابنه محمد بولده أحمد توسم فيه النجابة منذ نعومة أظفاره، فعُنى بتربيته وتخريجه فى الأدب نثره وشعره، وفى ذلك يقول الحفيد ابن برد الأصغر، كما روى ابن بسام عن كتاب له سماه «سر الأدب وسبك الذهب»: «وكان جدى أحمد بن برد - رحمه الله - بطول ممارسته لهذه الصناعة قد اقتعد سَنامها، ورفع أعلامها، وأصبح إمامها، وإنى وافقت أول معالجتى لها آخر أيامه خلا أنه قد كان أقبسنى مصابيح من وصاياه فيها، ووَطأ لى مراكب من دلائله إليها، وضرب لى صُوًى (أعلاما) من هداياته نحوها أفاد الله بها نفعا». ويقول ابن بسام إن بنى برد ينتمون إلى بنى شهيد بالولاء، ولعلنا بذلك نفهم ما كان ينعقد من صلة وثيقة بين ابن برد الأصغر وابن شهيد، ويتضح ذلك فى جوانب من أخبار ابن شهيد، وحين توفى بكاه - كما أسلفنا - بكاء حارا. وليس بين أيدينا أخبار عن نشأة ابن برد الأصغر إلا الخبر السالف عن عناية جده به ورعايته له. ونرى ابن بسام يذكر أنه حين اتخذ المستظهر الأموى فى سنة ٤١٤ ابن

---

(١) انظر فى ترجمة ابن برد الأصغر الجذوة للحميدى: ١٠٧ والمطمح: ٢٤ والبغية رقم ٣٥٤ والمغرب ١/٨٦ ومعجم الأدباء ٢/١٠٦ والذخيرة ١/٤٨٦ - ٥٣٥ وأخبارًا متفرقة عنه فى ١/٣٥٨، ٧٧١، ٧٨٧ وراجع رسالته فى تفضيل الورد على سائر الأزهار فى ٢/١٢٧ وراجع ٣/٨١٩.

شهيد وزيرا كتب له ابن برد ولم يوضح ابن بسام هل هو ابن برد الأصغر أو هو جده ابن برد الأكبر، وبالمثل يقول إن أبا القاسم الإفليلى كتب للخليفة المستكفى بعد ابن برد فى نفس السنة ولا يذكر هو الأصغر أو الأكبر، وأكبر الظن أنه الأصغر، وكأنه كتب للمستظهر فى الأشهر التى تولاها ثم كتب فترة للمستكفى بعده ولم يلبث أن أعفاه. وقد ظل ابن برد الأكبر حيا حتى توفى بسرقسطة عن ثمانين عاما سنة ٤١٨ ويبدو أنه رحل إلى تلك البلدة فى الشمال لما سمع من كرم منذر التجيبى أميرها وهبته لقصاده أموالا عظيمة. ويقول ابن برد الأصغر إن صروف الأيام باكرته بعد مصابه فى جده ويبدو أن الدنيا ظلت لا تبتسم له فترة غير قليلة كما يبدو أن أبواب دواوين قرطبة ظلت مغلقة دونه فى عهد جهور حين أصبح حاكمها المتصرف فى شئونها منذ سنة ٤٢٢ ولعل سبب ذلك عمله فى دواوين الخليفتين الأمويين: المستظهر والمستكفى. ومن المؤكد أنه ظل بقرطبة حتى وفاة ابن شهيد سنة ٤٢٦ ويقول المؤرخون أنه رحل منها إلى مجاهد الصقلبى أمير دانية (٤١٢ - ٤٣٤ هـ) وسنراه يوجه إليه أولى رسائله الأدبية الخاصة بالسيف والقلم وربما حنّ إلى قرطبة ورفاقه فيها وعاد إليها، وقد يدل على ذلك أن نجد ابن زيدون حين سجنه جهور سنة ٤٣٢ يوجه إليه قصيدة كى يشفع له عند جهور أو عند ابنه أبى الوليد. وربما كان بقرطبة حين خلف أبو الوليد أباه سنة ٤٣٥ ومرّت بنا رسالته البديعة إليه بتفضيل الورد على سائر الأزهار، ولعله كان يرمز إليه بالورد وأنه يفضل جميع أمراء الطوائف. وكان المظنون أن يظل بقرطبة، غير أننا نراه يؤثر المقام بالمريّة عند أميرها معن بن صُمادح (٤٣٢ - ٤٤٣ هـ) الذى عرف له فضله، فاتخذه وزيرا له، وإليه قدم ابن برد كتابه: «سر الأدب وسبك الذهب» وافتتح ابن بسام ترجمة ابن برد بصدر هذا الكتاب وقد نوه فيه برعاية جده له وتخريجه كما مرَّ بنا، وأثنى ثناء غامرا على معن بن صمادح ورعايته للعلوم وفنون الآداب، وما أسبغ عليه من شرف المرتبة الرفيعة. وضمَّن الكتاب رسائله السلطانية والإخوانية وطرَّز أبوابه بأبيات من الأشعار المحتوية على الحكم الجارية مجرى الأمثال. ومن المؤكد أنه قضى الشطر الأخير من حياته فى ظل هذا الأمير، ويقول الحميدى فى الجذوة إنه رآه فى المرية مرارا بعد الأربعين وأربعمائة، ولا ندرى هل لحق عصر المعتصم بن معن بن صمادح (٤٤٣ - ٤٨٤ هـ) أو أن القدر لم يمهله حتى عصره، أو حتى إذا كان أمهله فإنما أمهله إلى فترة قصيرة، ويشيد به ابن بسام قائلا:

«كان أبو حفص بن برد الأصغر فى وقته فلك البلاغة الدائر، ومثلها السائر، نفَث

فيها بسحره، وأقام من أَوَدِها (اعوجاجها) بناصع نظمه، وبارع نثره». وأتبع ذلك بفصول من تحميداته ورسائله الديوانية والشخصية وطائفة من أشعاره فى النسيب وغيره. وألحق أديب بترجمته فى الذخيرة من قديم ثلاثا من رسائله الأدبية فى: السيف والقلم، والنخلة، وأَهُب الشاء، وقدم لها بقوله إنها من بدائعه العُقْم (التى لا مثيل لها) المستنزلة للعُصْم (النوادر) ويقول إن ابن بسام لم يتجاف عنها غضا منها، ولكن ربما أعجله القدر أو لم يسمح له بها الزمن، وحرىّ أن نلمّ بها فى إجمال.

(أ) رسالة السيف والقلم

كتب ابن برد بهذه الرسالة إلى الموفق أبى الجيش مجاهد أمير دانية مناظرا بين السيف والقلم متقدما مناظرتها بالثناء عليهما معًا فهما مثل جوادين سبقا فى حلبة أو غصنين نُسِّقا فى تُرْبة، بل هما مثل نَجْمين أنارا فى أفق، وسَهْمين صارا على نَسق، غير أنهما جرَّرا أذيال الخيلاء تفاخرا، وادعى كل واحد منهما أن له الفوز على صاحبه وامتد بينهما الجدال والخصام، فقاما يتباريان فى المقال، ويتساجلان فى الخصال. وبدأ القلم فقال:

﴿نٓ. والقَلمِ وما يَسْطرون﴾ فجلَّ من مُقْسم وعزَّ مَنْ قَسَم، لقد أخذتُ الفضلَ برُمَّته، وقُدْتُ الفخر بأزمَّته. فقال السيف: عُدْنا من ذكر الطبيعة إلى ذكر الشريعة، ومن وصف الخصلة إلى وصف الملة، لا أُسِرّ ولكن أُعلِنُ، قيمةُ كل امرىءٍ ما يُحْسِنُ، إن عاتقا حَمَل نِجادى (حمائل سيفى) لسعيد، وإن عَضُدًا بات وِسادى لسديد، أفصح والبطل قد خَرِسَ، وأبتسم والأجلِ قد عَبَسَ. فقال القلم: الحق أَبْلَجُ (مضىء) والباطل لَجْلَج (أعرج) أَجْلِبُ الغِنَى من ضُروعه، وأَجْتَنِى النَّدى (الجود) من فروعه، وهل أنا إلا قُطْب تدور عليه الدول، وجوادٌ شأْوُهُ (شَوْطه) يدرك الأمل، شفيع كل ملك إلى مطالبه، ووسيلته إلى مكاسبه فقال السيف: ياقه! استنّت الفِصال (أولاد النوق) حتى القَرْعَى[1]، وربَّ صَلَفٍ تحت الرَّاعِدة.[2] لقد تحاول امتدادا بباعٍ قصيرة، وانتفاضا بجَناح كسيرة، أَمُسْتعرب (دخيل فى العرب) والفِلْسُ ثمنك، وكل بقعة وطنك؟ إن الملوك لتبادر إلى دَرْكِى، ولتتحاسد فى ملكى، ولتتوارثنى على النسب، والتغالى فىَّ على الحسب، فتُكَلِّلُنى (فتتوجنى) المرجان، وتُنعِلنى العِقيان[3]، وتلحفنى بحمائل

---

(١) مثل يضرب لمن يفعل ما ليس له بأهل والاستنان هنا: العدو. وهو يشير إلى أن الفصال إذا عَدَتْ حاكتها أخواتها المصابة بالقرع.

(٢) مثل يضرب للبخيل. والراعدة: السحابة. والصلف: قلة المطر أى أنها مَنُوعٌ مع كثرة ما تحمل من المطر.

(٣) العقيان: الذهب. تنعله هنا: تكسو غمده.

كخمائل. فقال القلم: أستعيذ بالله من خطلٍ أرعيتَ فيه سوامَك (إبلك) وزَللٍ افتتحت به كلامك، إن ازدراءك بتمكن وجداني، وبَخْس أثماني، لنقصٌ فى طباعك، وقِصَرٌ فى باعك، ألا وإن الذهب معدنه فى العَفر (التراب) وهو أنفس الجواهر، والنار مكمنها فى الحجر، وهى إحدى العناصر، وإن الماء - وهو الحياة - أكثر المعايش وجْدانا، وأقلّها أثمانا، وقلما تُلْقَى الأعلاق النفيسة إلا فى الأمكنة الخسيسة. فقال السيف: جَعْجَعَةُ رَحًى لا يتبعها طِحْن (دقيق) وجَلْجَلة رَعْد لا يليها مُزْنٌ، وجه لئيم، وجسم سقيم، ودموع سِجام، كأنهن سُخام (فحم) فهُبَّ من نومك، وأَفْطِرْ من صومك، إنى لو انتضيت (سُللت) والشمسُ كاسفة لم ينظر وقت تجلِّيها[1]، أو السِّنون مجدبة أيْقَنِ بالحَيَا (بالغيث) راعيها. أُكْرَعُ (أشرب) يوم الوَغَى فى لَبَّة البطل (أعلى صدره) فأعود كالخدِّ كُسِيَ صِبْغَ الخجل».

ولما كثر تعارضهما، وطال تناظرهما، ولم يَنْثنِ أحدهما كهاما (كليلا) بادرا إلى السلم يعقدان لواءه، قائلَيْن إن من القبيح أن تتشتت أهواؤنا وتتفرَّق آراؤنا وقد جمعنا الله فى المألف الكريم، وقال القلم إن مما نُبرم به عُقْدنا، وننتظم عِقْدنا إن حالت حال، وكان للدَّهْر انتقال، أن نَخُطَّ كتابا مُصيبا، يكون لنا مَنابا وعلينا رَقيبا، فقد يدبُّ الدهر بعقاربه، بين المرء وأقاربه، واختار القلم أن يكون العَقْد شعرا، لأنه شَدْوُ الحادى، وزادُ الرائح والغادى. وسجله فى قطعة شعرية بديعة. وواضح ما امتاز به ابن برد الأصغر فى تلك المناظرة بين السيف والقلم من قدرة على صوغ الأدلة والبراهين فى لسانى الخصمين المتناظرين، إذ ما زال يؤلف لكل منهما حججا يُدْلى بها مع نقضه لحجج منافسه. وطبيعى أن لا ننقل تلك المناظرة بحذافيرها، فقد اجتزأناها مكتفين بما نقلناه منها للدلالة على قدرة ابن برد فى توليد الأفكار والبراهين وفى صوغ الكلام وحوكه حياكة تموج بالعذوبة، إذ كان يعرف كيف يصطفى ألفاظه وكيف يلائم بينها ملاءمات موسيقية بديعة.

(ب) رسالة النخلة

هى رسالة عتاب لصديق سبق أن عاتبه فى العام الفارط على كتمانه لرُطَب نخلة، وهى تُعَد بالأندلس إحدى الغرائب وفريدة العجائب، ويقول إنه سأله من جَناها قليلا، فقال له لو علمت أن لكم به هذا الكلف لأمسكته عليكم، ولكنه فى العام المقبل إن شاء

---

(١) يشير إلى كثرة الغبار فى الحرب حين تسلّ السيوف وتكر الخيل.

الله يكون غلَّتكم وعتاداً نفيسا لكم وذُخْرا حبيسا عليكم، ويمضى ابن بُرْد قائلا له:

«رسمنا تلك العِدَة فى سويداوات قلوبنا، ووكلنا بها حَفَظة خواطرنا، أما أنت فهِلْتَ عليها التراب، وأسلمتَها إلى يد البِلَى، حتى إذا أخذت النخلة زُخْرُفَها وازَّيَّنَتْ زينتها، وبلغت غايتها، وأشبع القمر صِبْغِها، وأحكمتِ الشمس نُضْجَها، جنيتها على حين نامَ السُّمَّار، وغفلت الجارةُ والجار، وُأبْتَ بها إيابة الأسد بفريسته.. ولما رأينا طلائع الرُّطب فى الأسواق، والجنِىَّ من بواكير النخيل على الأطباق، هزَّتْ جوانحنا ذكرى العِدَة، وقلقل أحشاءَنا حذرُ الخيبة، فركضنا الدوابَّ إلى حُرْمتك[1]، وجعلنا نسرع طمعا فى لقائك»

ويذكر ابن بُرْد لصاحبه أنهم حين وصلوا إلى مَحِلَّته لقيهم فتى ظريف، فسألهم عن مقصدهم، فقالوا له: إن جارك وصديقنا وعدنا منذ عام أن يسهم لنا فى جَنَى نخلة لديه، لم تتشقق تربة هَجَر المشهورة على الخليج العربى بتمرها عن مثلها، ولا آوت قمارىُّ (حَمام) البصرة إلى نظيرها، فجاءوها ليأكلوا منها ويعلموا أن قد صَدقهم ويكونوا عليها من الشاهدين. ويقول ابن بُرْد:

«قال الفتى يالإخوانى فى الخيبة أنا ساكنٌ فى المحلة التى مَنْبِتُ هذه النخلة فى ساحتها وقد صَرَمَها (قطعها) منذ خمسة عشر يوما، وقد كنت قبل صَرْمها أمنحها نظر العاشق إلى المعشوق، فإذا رَأتِ الطيرُ وهى على سَعَفها ما أواصلُ إليها من لحظاتى، وأتابع عليها من زَفَراتى، رمتْنى بأفراد من رُطبها أحْلَى من شفاه العَذارى، وأنا اليوم أبكى رَبْعًا خاليا».

ويتجه ابن برد بالحديث إلى صاحبه قائلا: ما هذه الخيانةُ للعهد، ويسأله شيئا مما ادخره منها لأعياده واعدًا له أن يناصبوا عنه أعداءه برا وبحرا وأن لا يعصوا له أمرا. ويصف له شيئا من كلام العرب فى النخل وبدء نَباته والبلح وتلوُّن حالاته وبعض منظومهم فيه لعله يذيب من جموده ويولِّد عَقيم جوده، ويورد عليه ما أُثر من قول الرسول ﷺ: «نعمت العمة لكم النَّخْلة» ويقول: «ليس من حقِّه أن يستبدَّ بخيرها ويمسك معروفها عنهم، ويختم الرسالة بقوله: «نستغفر الله ونسأله أن يبدلنا من بُخْلك نوالا، وبمطلك إعجالا». وهى رسالة طريفة بما فيها من فكاهة ومن قدرة على التصوير ومن سلاسة فى التعبير.

---

(١) الحرمة: ما لا يحل انتهاكه من صحبة أو حق.

(جـ) رسالة أُهُب الشّاء

سمّى ابن برد هذه الرسالة: «البديعة فى تفضيل أهب (جلود) الشّاء على ما يُفْتَرَشُ من الوِطاء» وهو فيها يردُّ على من لامه على استخدام أُهُب (جلود) الشاء فى الجلوس شتاء وصيفا دون وَطِىء الفُرُش ورافهها من قِطَعِ البُسُط والسجاجيد والحَشايا. وهو فى فاتحتها يدعو الله أن يلهمه الرشاد ويمنحه الصواب ويعرِّفه بركة التواضع وينفره من الكبر، ويطيل فى المقدمة، ثم يقول للائمه:

«عِبْتنى - أعزَّك الله - بارتخاص الأشياء فى الشّراء، وقلت لَمْ تؤثر ذلك إلا للؤم الخليقة، والهمة الدقيقة، وربما مالت نفسُ الحريص إلى الرَّخيص.. وسأفسح للكلام ميدانا، وأنثر عليك من الألفاظ مُرْجانا، وأعاطيك من سُلاف (خمر) المعانى أكْوَابًا، وأشِمّك من روض البيان آسًا.. جَلَّ ماله عبتَ وفيه قلت وردَّدت، وبه أبدأت وأعدتَ، من إيثارى فى الصيف والشتاء أُهُبَ (جلود) الشاء، ومُراوحتي منها فى البرد والحر، بين البَطْن والظهر. وأىُّ بساط مثلها أدلّ على التواضع وأعربُ عن القناعة وأدفأ فى السَّبْرَة (الغداة الباردة) وألين فى المَسِّ وأخفُّ فى الحَمْل وأمكن للنُّقْلة وأوفق لمقدار الحاجة وأجدر بطول المتعة وأبقى على حدث الدهر، وأغنى عن تكلُّف التَّبْطين ومراعاة أوقات الترقيع. ولا تحوجك إلى خَيَّاط ينازلك فى السَّوْم (الثمن) ويُخْجلك أمامَ القوم، ويُنْتِحُ جَبينك (يجعله يرشح) بعرق الاختلاف إليه، وذلُّ التكرار عليه، وهو متبجِّحٌ (متمكن) فى دكانه، ومشتغل عن سوء مقامك باستطابة محادثة صبيانه، فتشمت العدوُّ بنفسك، وتبدى ما كان مستورًا من حالك، وهذه (الأهب) بأنفسها مكتفية، وعن سواها مستغنية، مع صيانة المروءة ووقاية ماء الوَجْنَةِ، إن قَلَبْتَها لظهورها شتوت على وِثارة[1]، أو صرفتها لبطونها صِفْتَ فى لُدُونة».

ويذكر ابن برد أن من يطلبها يشتريها فى الأضحية تقرُّبًا إلى ربه وطلبا لكريم ثوابه، ويقول إن رخص ثمنها فضيلة لها مع قلة المئونة والكلفة. ويذكر أن من فضلها أن جعل الله من جنسها كبشا فداء إسماعيل ابن خليله إبراهيم، وسماه فى تنزيله ذِبْحًا عظيما. ويقول لصاحبه إن الصوف زى النسّاك والمنقطعين للعبادة، وقد استخدمها المعلمون لأنها الأرفق والأرخص والأوْفَق. ويختم هذه الرسالة الطويلة بالنصح لعائبه أن لا يستقبل

---

(١) يشير إلى فروة هذه الجلود من الصوف. والوثارة: الفراش الوثير: الوطىء الناعم.

بالذم من يفترشها مغتبطا بها، إذ لا يفترشها إلا الشيوخ الجِلّة من العلماء ذوى المهابة والوقار، يقول:

«لا تجد مفترشًا لها إلا شيخًا رائعَ الوَسَامة، أبيضَ الشَّعْرة، أُنْسَ إخوانه، وجِلْسَ (ملازم) أسطوانه[١]، قد حفظ المسائل وملأ من إجازات الشيوخ الخزائن، تقصده الفتيات والفتيان، وتفدِّيه الجارات والجيران، ويُتنافَس فى حضوره أيَّامَ الزِّفاف، ويختصّ بصدور المجالس وطيِّبات الصحاف، أو معلما.. قد ائتمنتْه الملوك على ثمار قلوبها وعماد ظهورها وقِطَعِ أكْبادها، يقعد عنده الورَّاقون، ويتحاكم إليه فى الخطوط الناسخون، فإذا كانت أيام الأخمسة والجمعات أطال قَلَنْساته[٢]، ووالى الزيارة بِمنْساته[٣]، وسار مُهَيْنما[٤] بتسبيحه وتقديسه وتهليله وتحميده، يزور الإخوان والمعارف، والكل هَشٌ إليه، مقبل عليه. فإن عارضت هذا الجنس ضاقت عليك الأرض، وأخوك من صدقك، ومحبك من نصحك».

والرسالة تصوِّر قدرة ابن برد على صنع الأدلة والبراهين بحيث يأخذ على عائبه فى استخدام جلود الشياه كل المسالك، فهى تدل على فضيلتى التواضع والقناعة بالقياس إلى البسط والسجاجيد الفاخرة والحشايا الثمينة المزدانة. ومما يميزها دفء فروتها فى الشتاء القارس، وليونتها فى المسِّ وخفتها فى الحمل والانتقال من موضع إلى موضع. ثم هى لا تحتاج مثل الحشايا والبسط إلى تبطين كما لا تحتاج إلى ترقيع. ثم يعرض ابن برد صورة الخياط، وهو يساوم صاحب الحشية أوالسجادة فى أجرة الترقيع والتبطين مخجلا له أمام الناس، ويتفقان على الأجر. ومايزال الخياط يرجىء إنجازه لمايراد منه من تبطين أوترقيع، ويظل صاحب الحشية أوالسجادة يتردد عليه، وجبينه يرشح عرقا من ذل التكرار عليه، والخياط - مع إلحاحه عليه - منصرف عنه مع سوء وقفته أمامه، مشغول بمحادثة صبيانه أو عماله وكأنما يجد فى ذلك متعة له. وهى صورة بديعة تدل على روعة خيال ابن برد مع جمال الصياغة، وهو جمال يطرد فى نثره لما يعمه من نقاء فى اللفظ وصفاء وعذوبة.

---

(١) يريد أنه عالم يلازم عمودا فى المسجد يلقى محاضرته عنده ويتحلق حوله الطلاب لشهرته.

(٢) قلنسات: جمع قلنسوة.

(٣) المنسأة: عصا غليظة تكون مع الراعى يهش بها على غنمه.

(٤) مهينما: هامسا.

رسالتا ابن زيدون: الهزلية والجدية

ابن زيدون هو أحمد بن عبد الله بن زيدون المخزومي، القرطبي، وقد مرت ترجمته بين شعراء الغزل فى الفصل الرابع، وقلنا هناك إن حادثين كبيرين أثرا فى حياته، أولهما تبادله فى شبابه الحب مع الشاعرة ولادة بنت الخليفة المستكفى واتصال هذا الحب بينهما فترة ثم هجرها له إلى الأبد بسبب ما لاحظته من مغازلته إحدى جواريها، وقيل بل بسبب نقده لبعض شعرها، وقد يكون للسببين جميعا. وظل ابن زيدون يبكي حبها ووصلها طويلا، وكَلِفَتْ بعده بشخص كان يختلف مع غيره من شباب قرطبة إلى مُنْتداها هو ابن عبدوس، وهو موضوع رسالة ابن زيدون الهزلية. والحادث الكبير الثانى الذى كان له تأثير فى حياته، هو سخط أبى الحزم جهور أمير قرطبة عليه والزجّ به فى غياهب السجون مما جعله يستعطفه مرارا إلى أن عفا عنه وردّ إليه حريته بشفاعة ابنه أبى الوليد، وفى استعطافه كتب رسالته الجدية، وحريٌّ بنا أن نتحدث عن الرسالتين جميعا: الهزلية والجدية.

(أ) الرسالة[1] الهزلية

كتب ابن زيدون هذه الرسالة على لسان ولّادة إلى ابن عَبْدوس منافسه فى حبها متهكما به ساخرا منه سخريات لاذعة، وما يمضى القارئ فيها حتى يشعر بوضوح أنه استوحى فيها رسالة التربيع والتدوير للجاحظ التى سخر فيها من كاتب معاصر له يسمى أحمد بن عبد الوهاب كان يكثر من ذمه وثلبه، فوصفه بأنه مربع مدوَّر، وظل فى نحو خمسين صفحة من القطع الكبير يخلع عليه صورا ساخرة من الجهال وصورًا أخرى ساخرة من المعرفة، تتخذ شكل أسئلة فى تاريخ العرب والأمم القديمة وفى العلوم كيمياء وغير كيمياء وفى الحيوان والجماد وفى الفلسفة والمنطق مع سؤاله عن أسماء كثيرين من الرجال عربا وغير عرب فى ميادين الثقافات المختلفة. وكأن ابن زيدون رأى أن يجاريه فى رسالته، إذ مضى على شاكلته يكثر من أسماء الرجال وما يتصل بهم من التاريخ والأخبار والأحداث، مع محاولته الواضحة فى أن يكون لرسالته سماتها الخاصة لا فى طريقة عرضه لأسماء الرجال بها فحسب، بل أيضا بما أكثر فيها من ضرب الأمثال ونثر

---

(١) انظر هذه الرسالة وتعليقنا عليها فى كتابنا عن ابن زيدون (طبع دار المعارف) وراجع شرح ابن نباتة لها فى كتاب: سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون. ومرت مصادر ابن زيدون فى ترجمته بالفصل الماضى.

الأبيات وجلب الأشطار، مما جعل الرسالة فى حاجة شديدة إلى التعريف بما عدد فيها ابن زيدون من الأعلام وأخبارهم ومن الأمثال والأشعار المنثورة، وتجرد لذلك ابن نباتة فى شرحه لها، وهو يستهلها على هذه الشاكلة:

«أما بعد أيها المصابُ بعقله، المورَّط بجهله، البيِّن سَقَطُه، الفاحش غَلَطُه، العاثرُ فى ذَيْلِ اغتراره، الأعْمَى عن شمس نهاره، الساقط سُقُوطَ الذُّباب على الشراب، المتهافتُ تهافتَ الفَراش فى الشِّهاب (الضوء).. وإنك راسلتنى مستهديا من صلتى ما صَفِرَت (خلت) منه أيدى أمثالك، مرسلا خليلتك مرتادة وقد أعذرتْ (جهدت) فى السفارة لك، وما قصَّرتْ فى النيابة عنك، زاعمةً أن المروءة لفظٌ أنت معناه، والإنسانية اسمٌ أنت جِسْمُه وهَيُولاه (مادته) قاطعةً أنك انفردتَ بالجمال، واستأثرتَ بالكمال، واستعليتَ فى مراتب الجلال، واستوليتَ على محاسن الخلال، حتى خيَّلتْ أن يوسفَ عليه السلام حاسَنَك (باراك فى الحسن) فغَضَضْتَ منه، وأن امرأةَ العزيز رأتْك فسلتْ عنه، وأن قارونَ أصاب بعضَ ما كَنَزْتَ، وكسرى حَمل غاشِيَتَك (مظلَّتك) وقيصَرَ رعى ماشيتك، والإسكندرَ قَتَل دارا فى طاعتك».

ويظل ابن زيدون يورد على ابن عبدوس رجالا وأعلاما تاريخيين عديدين، مدعيا أن جميعهم تصرَّفوا عن إرادته محاولين الزلفى إليه من مثل أردشير ملك الفرس القديم وجَذيمة الملك العربى الجاهلى. ويقول له إن شيرين زوجة أبرويز نافست ابنته بوران فيه وفى حسنه، وكليبا إنما حمى حِماه بعزته، ومهلهلا أخاه إنما طلب ثأره بهمته، وحاتما إنما جاد بأمواله والسُّلَيْك بن السُّلَكة العدَّاء الجاهلى إنما عدا على قدميه، وسحبان البليغ إنما كان يتكلم ببيانه، وأن الحجاج إنما تقلد ولاية العراق بحظه، والمهلب القائد الأموى إنما ظفر بالخوارج الأزارقة بقوته. وليس هناك فيلسوف لليونان أو عالم لهم - ويعددهم - إلا صدر عن فكره، وبالمثل ليس للعرب مفكر ولا فيلسوف مشهور إلا منحه القدرة على ابتداعه، وما بلغاؤهم بالقياس إليه؟ إن عبد الحميد الكاتب بارى أقلامه وسهل بن هرون مدون كلامه والجاحظ مستمليه، وبالمثل الفقهاء الكبار من أمثال الإمام مالك. بل هو الذى أقام البراهين ووضع القوانين وحَدَّ ماهية الأشياء وبيَّن الكيفية والكمية وناظر فى الجوهر والعرض وفرَّق بين الصحة والمرض. حتى إذا بلغ ابن زيدون من ابن عبدوس كل ما أراد من سخرية أخذ يكويه بسياط هجائه معددا صفاته الذميمة، وكأنما جمع كل مثلبة. وتتوالى المثالب، فهو خسيس أرعن مفرط الحمق سيِّئ الإجابة والسمع، ظاهر الوسواس، منتن الأنفاس، كلامه تمتمة وبيانه فهفهة، ودينه زندقة، وباقل المشهور بالعى

عند العرب بليغ بالقياس إليه، ووجوده عدم، والاغتباط به ندم، والخيبة منه ظفر والجنة معه سَقر، وأين هو من ولّادة؟ إن الشرق والغرب لا يجتمعان ولا يتقاربان. ويجعلها تهدده وتتوعده بسوء المصير حتى كأنما يطلب حَتْفه، ويقول له على لسانها مقارنًا فى سخرية شديدة بينه وبين من يختلفون إلى ندوتها من نوابغ الشباب الأفذاذ.

«النارُ، ولا العارُ، والمنيّةَ، ولا الدَّنيةَ، والحُرَّة تَجُوعُ ولا تأكل بثَدْييها، وما كنت لأتخطّى المسك إلى الرَّماد، فإنما يَتَيَمَّمُ من لم يجد ماءً.. ولعلك إنما غرَّك مَنْ علمتَ صَبْوَتِي إليه وشهدتَ مُسعفتى له من أقمار العصر، ورَيْحان المصر، الذين هم الكواكب عُلُوَّهِمَم، والرِّياضَ طيبَ شِيَم.. ما أنت وهُمْ؟ وأين تقع منهم؟ وهل أنت إلا واو عمرو فيهم، وكالَو سِيطَةِ (النتوء) فى العَظْم منهم. وإن كنت إنما عطَّرت أرْدانَكَ (أكمامَك) وجَرَرْت سِرْوالَك. واختَلْتَ فى مِشْيَتِك، وحذفتَ فضول لِحْيَتِك، وأصلحت شارتك، ومططت حَاجبك، ورقَّقت خطَّ عِذارك، واستأنفتَ عَقْد إزارك، رجاءَ الاكتنان فيهم، وطمعا فى الاعتداد منهم. فظننت عَجْزًا، وأخطأتَ الغرض».

وتمضى ولادة قائلة لابن عبدوس فى سخرية مرة: فلو أن عمرو بن هند ملك الحيرة أعطاه بُرْدَيْه وحَلَّته مارية بنت ظالم زوجة أحد ملوك الغساسنة بالقُرْطَيْن اللذين أهدتهما إلى الكعبة، وقلّده عمرو بن معد يكرب الفارس القديم سيفه الصمصامة، وحمله الحارث بن عباد سيد وائل فى الجاهلية على فرسه النعامة، ما شكت فيه ولا أخفى ذلك كله أصله ونسبه، وهل يجتمع لها فيه إلا خَلَّتان سيئتان: كأردأ التمر وسوءِ كَيْله وهل يقترن عليها به إلاما اقترن على عامر بن الطفيل الذى دعا عليه الرسول ﷺ فاقترنت غُدَّه فى رقبته بموته ميتة ذليلة فى بيت سَلُوليَّة. وتقول له هازئة به ساخرة إنه كان أجدر به أن يقدر الأمر تقديرا دقيقا فلا يكلف نفسه ما لا تستطيعه، حتى لا يكون مثله مثل الكلبة بَرَاقِش التى غزا أصحابها قوم فلم يعرفوا مكانهم ونبحت فدلَّتهم، وضَرَب العرب بها المثل فى الشُّؤم، فقالوا «دلَّتْ على أهلها بَرَاقِش». ويختم ابن زيدون الرسالة قائلا على لسانها: «قد أعذرتُ إن أغْنَيْتُ شيًّا، وأسْمَعْتُ لو ناديتُ حَيًّا، وإن بادرتَ بالندامة، ورجعت على نفسك بالملامَة كنتَ قد اشتريت العافيةَ لك بالعافية منك، وإن أنشدت:

لا يُؤْيسنَّك من مخدَّرةٍ ... قَوْلٌ تغلّظه وإن جَرَحا[1]

فعُدْتَ لما نُهِيت عنه، وراجعتَ ما استعفيتَ منه بعثتُ من يزعجك إلى الخضراء

---

(١) البيت لبشار.

(الريف) دفعا ويستحثك نحوها وَكْزًا (ضربا) وصَفْعًا، فإذا صرتَ إليها عبث أكّاروها (فلّاحوها) بك، وتسلّط نواطيرها (متعهدو بساتينها) عليك بما قدّمتْ يداك، لتذوق وبال أمرك، وترى ميزان قدرك».

وبدون ريب بلغ ابن زيدون فى هذه الرسالة الذروة بالسخرية من ابن عبدوس، وقد أصبح فى يده كلُعْبة تارة يعلو به فيرفعه إلى السموات العليا فى القوة والسلطان والعلوم والفلسفة والبيان والبلاغة وتارة يسقط به فيهوى من حالق إلى الحضيض والدرك الأسفل. وهو فى كل ذلك يزدرى عقله وعلمه وأدبه وفكره وهيئته وكل ما يتصل به. ويسوق ابن زيدون للإغراق فى السخرية به أعلام التاريخ القديم والإسلامى وأعلام الفلسفة والعلوم والبيان العربى، وكأنه هو الذى نفث فيهم كل ما امتازوا به. واستكثر فى الرسالة من الأمثال ومن نثر الأشعار، وهو لا يطرف فيها بذلك فقط، بل يطرف أيضا بالألفاظ الجارحة الموجعة الملأى بسموم التهكم.

(ب) الرسالة[1] الجدية

كتب ابن زيدون هذه الرسالة يستعطف بها أبا الحزم جهورًا أمير قرطبة حين ألقى به فى غياهب السجن ووراء قضبانه، لما قيل من نهبه عقارًا لبعض مواليه، وقيل – وهو الأصح – بل لما دُسّ عليه عند جهور من اشتراكه ضده فى مؤامرة فاشلة، وظل يدبج فيه القصائد ويرسل إليه الشفعاء، وهو لا يعفو عنه ولا يصفح، فدبّج له هذه الرسالة الرائعة مستهلا لها بقوله:

«يا مولاىَ وسيدى الذى وِدادى له، واعتمادى عليه، واعتِدادى به، وامتدادى منه، أبقاك الله ماضىَ حَدِّ العَزْم، ثابتَ عَهْدِ النعمة، إن سلبتنى – أعزّك الله – لباسَ إنعامك، وعطّلتنى من حَلْى إينِاسِك، وأظمأتنى إلى برَود (بارد) إسعافِك، ونَفَضْت بى كفّ حياطتك (رعايتك) وغضضت عنى طَرْف حمايتك، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلى لك، وسمع الأصمُّ ثنائى عليك، وأحسّ الجمادُ باستنادى إليك، فلا غَرْوَ قد يَغَصّ بالماء شاربُه، ويَقْتل الدواءُ المستشفىَ به، ويُؤْتَى الحذِرُ من مأمنه.. وإنى لأتجلّد وأرِى الشّامتين أنى لرَيْبِ الدّهر لا أتَضَعْضَعُ، فأقول: هل أنا إلا يَدٌ أدماها سِوارُها، وجَبِينٌ عضّه إكْلِيلُه، ومشرفىٌّ ألصقه بالأرض صَاقِلُه، وسَمْهرِىٌّ[2] عرضه على النار مُثقفه..

(١) انظر فى هذه الرسالة وتعليقنا عليها كتابنا عن ابن زيدون، وراجع شرح الصفدى لها فى كتابه: «تمام المتون شرح رسالة ابن زيدون».

(٢) المشرفىّ: السيف. السمهرىّ: الرمح.

وهذه النكبةُ سحابةُ صَيفٍ عن قليل تقشّع، ولن يَريبَنى - من سيدى - أنْ أبطأ سَيْبُه (عطاؤه).. فأبطأُ الدِّلاء فَيْضًا أملؤها، وأثقلُ السحائب مَشْيًا أحْفَلُها (أملؤها) وأنْفعُ الحَيَا (الغيث) ما صادف جَدْبًا، وألذُّ الشرابِ ما أصاب غِليلاً».

وابن زيدون - فى مطلع رسالته - يسترحم جهورا مستعطفا، فطالما أثنى عليه وطالما ظن أنه سيسبغ عليه نعمه، فإذا هو ينزل به عقابا أليما. ويتجلّد للنكبة، ويحاول أن يسرّى عن نفسه، ويخال كأنه يد أدماها سوارها أو جبين عضّه تاجه أو سيف ركزه صاقله فى الأرض أو رمح سوّاه على النار صانعه. ويمنى نفسه بأن نكبته سحابة صيف ستنجلى ويعود إلى سماء الود الصَّحْوُ والصفاء، وإذا كان عطاء جهور على ثنائه ومديحه أبطأ فإن أبطأ الدلاء فيضًا أغزرها وأثقل السحاب مسيرةً فى السماء أملؤها، وأنفع الغيث ما صادف أرضا مجدبة، وألذ الشراب ما صادف نفسا ظامئة. ويستمر فيهوّن من ذنبه مخاطبا جهورا بقوله:

«ليت شِعْرِى ما هذا الذنبُ الذى لم يَسَعْهُ عَفْوُك، والجهلِ الذى لم يأت من ورائه حِلْمُك.. وما أرانى إلا أُمِرْتُ بالسجود لآدمَ فأبيتُ واستكبرتُ، وقال لى نوحٌ: اركبْ معنا فقلت: (سآوِى إلى جبلٍ يَعْصِمُنى من الماء)، وأُمِرْتُ ببناء الصَّرحِ (لعلّى أطّلِعُ إلى إله موسى) وعكفتُ على العجل، واعتديت فى السَّبْت، وتعاطيتُ فَعَقَرْت، وشربتُ من ماء النهر الذى ابْتُلِىَ به جنود طالوتَ، وعاهدتُ قريشا على ما فى الصحيفة، وانخذلتُ بثلث الناسِ يومَ أُحُدٍ، وتخلَّفتُ عن صلاة العصر فى بنى قُرَيْظَةَ، وجئتُ الإِفْكَ على السيدة عائشة الصِّدِّيقيَّة، وأنِفتُ من إمارة أُسامة، ومزَّقت الأديمَ[1] الذى باركتْ يَدُ الله عليه، وضحيّتُ بالأشْمَط[2]، ورَجَمْتُ الكعبةِ».

وهو يقول كأننى اقترفت كبيرة مثل كبيرة إبليس حين استكبر وأبى السجود لآدم معلنا عصيانه لربه، أو ارتكبت ما ارتكبه ابن نوح حين عصى أمر أبيه فلم يركب معه فى السفينة فكان من المُغْرَقين، أو كأنه ارتكب جريرة فرعون حين أمر وزيرَه هامانَ أن يَبْنى له صرحا لعله يرى إله موسى، أو جريرة بنى إسرائيل حين عبدوا العِجْلَ وحين اعتدوا فى يوم السَّبْت فصادوا فيه، أو جريرة عاقرِ ناقة صالح (فدمدم عليهم ربهم بذنبهم) وأهلكهم، أو جريرة جنود طالوتَ الذى حرَّم عليهم الشرب من نهر فخالفوه، أو جريرة

---

(١) يشير إلى مقتل عمر بن الخطاب.
(٢) الأشمط: عثمان بن عفان.
(٣) راجم الكعبة الحجاج فى حربه لابن الزبير.

من تعهدوا لقريش بما فى الصحيفة التى كتبوها من مقاطعة الرسول وأصحابه، أو جريرة أُبَىّ بن سَلول حين انخذل بمن معه من المنافقين عن رسول الله يوم أُحُد، أو جريرة من تخلفوا عن صلاة العصر مع الرسول فى بنى قُرَيْظة من اليهود، أو جريرة من شاركوا فى حادثة الإفك والبهتان على زوج الرسول السيدة عائشة بنت الصديق، أو جريرة من أنفوا من تولية أسامة الصحابى الجليل على رأس جيش، أو جريرة قاتل عمر بن الخطاب أو جريرة قتلة عثمان بن عفان، أو جريرة رَجْم الحَجَّاج للكعبة، إلى عظائم أخرى ذكرها لا يُعَدّ ذنبه بجانبها شيئا مذكورا. ومضى ابن زيدون يقول إنه لا ذنب له إلا وشاية مشّاء بنميم، ويُشهد الله أنه ما غشّ جهورا ولا انحرف عنه ولا عاداه بعد أن تشيع له وأصبح فى عداد خاصته مما سوّل لحساده أن يوغروا صدره عليه بوشاياتهم وغمائمهم الدنيئة، يقول:

«كيف لا تتضرَّم جَوانحُ الأكفاء (النُّظَراء) حَسَدًا لى على الخصوص بك، وتتقطَّع أنفاسُ النُّظَراء منافسةً فى الكرامة عليك؟ وكيف وقد زاننى رَسْمُ خدمتك، وزهانى وَسْمُ نِعْمتك، وأَبْلَيْتُ البلاءَ الجميل فى سِماطك (صَفّك) وقمتُ المقامَ المحمودَ على بِساطك.. وهل لَبِسَ الصباحُ إلا بُرْدًا طرَّزْتَه بفضائلك، وتقلّدتِ الجوزاءُ إلا عِقْدًا فصَّلته بمآثرك، واسْتَمْلَى الربيعُ إلا ثناءً ملأتَه بمحاسنك، وبَثَّ المسكُ إلا حديثا أذعته فى محامدك؟. ما يومُ حليمة بِسِرٍّ. ولم أَكْسُك سَليبا، ولا حَلَّيتك عُطْلا، ولا وسَمْتك غُفْلًا بل وجدتُ آجُرًّا وجِصًّا فبَنَيْتُ، ومكانَ القول ذا سَعةٍ فقلتُ. حاشَ لك أن أُعَدّ من العاملة الناصبة، وأكون كالذُّبالة المنصوبة تضيىء للناس وهى تحترق، فلكَ المثل الأعلى وهو بك، وبى فيك، أولى».

وهو يقول لجهور إنه من الطبيعى أن تضطرم جوانح النظراء حسدا وتتقطع أنفاسهم غيظا لمنزلتى منك وقد ازدنت بخدمتك وازدهيت بنعمتك، وأبليت البلاء الجميل فى صفك ونصرتك وقمت المقام المحمود على بساطك، أنثر بين يديك خِلَع مدائحى المضيئة بفضائلك، وعقود ثنائى المنظومة بدررِ مآثرك، ولكأنما عطرُ الربيع إنما يفوح بمحاسنك وشذى المسك إنما يُذيع أحاديث محامدك، ويقول: ما يوم حليمة بسر أى أن ذلك كله مشهور، ويصيح إن جهورا لم يكن سليبا أو عاريا فكساه ولا عُطْلا غير مزدان فحلّاه ولا غفلا غير معلم فوسمه وأبداه، بل لقد وجد آجُرًّا وجِصًّا فبنى وشاد قصائده، ويقول حاش لجهور أن أُعَدّ عنده من العاملة الناصبة إشارة إلى آية التنزيل: ﴿وجوهٌ يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى نارا حامية﴾ وأيضا حاش لجهور أن يعده كالذبالة أو فتيلة

السراج تضيء للناس وهي تحترق وتلفظ أنفاسها الأخيرة. وتَعِزُّ على ابن زيدون نفسه، فيقول إنه لن يصبر على الذل والهوان، ويقول إن الأدب خير وطن للأديب وإنه لا يُجْفَىَ فى أى مكان ينزل به فأينما توجّه ورد أعذب منهل وضُوحك قبل إنزال رحله، وأُعطى حكم الصبي على أهله. وكأنه يلمِّح بأنه سيفارق وطنه قرطبة إلى من يعرف له حقه ويقدر أدبه. وتهدأ نفسه فيعود إلى صوابه، ويعلن محبته لوطنه وأنه لا يؤثر عليه أى وطن كما لا يؤثر على أبي الحزم جهور أى أمير، ويأخذ فى استعطافه حتى يعفو عنه ويصفح عن زلته، يقول:

«إن الوطنَ محبوبٌ، والمَنْشَأ مألوفٌ، واللبيبُ يحنُّ إلى وطنه حنينَ النَّجِيبِ (البعير) إلى عَطَنِه (مَبْركه) والكريم لا يجفو أرضا فيها قَوَابِلُه (داياته) ولا ينسى بلدًا فيها مَراضعه. هذا إلى مغالاتى بِعَقْد جِوارك، ومنافستى فى الحظِّ من قربك، واعتقادى أن الطمع في غيرك طَبَعٌ (دناءة) والغنى من سواك عَناء، والبدلَ منك عَوَزٌ (فاقة) والعِوَض لَفَاء (خِسَّة). وما هذه البراءة ممن يتولَّاك؟ والميل عَمَّنْ لا يميلُ عنك، وهلَّا كان هواك فيمن هواه فيك، ورضاك لمن رضاه لك».

ويظل ابن زيدون إلى نهاية الرسالة يستعطف أبا الحزم جهورا كي يرد إليه حريته، ويضيف إليها قصيدة استعطاف بديعة، ويختمها بقوله لجهور: «هَبْ ذَنْبًا لِحُرْمَةٍ، واشْفَعْ نعمةً بنعمة، ليتأتى لك الإحسانُ من جهاته، وتسلكَ إلى الفضل من طُرقاته». والرسالة تكتظ بالأمثال وبالأحداث التاريخية فى عهود الرسل وفى الإسلام، كما تكتظ باقتباسات من القرآن الكريم والأشعار مع حَلٍّ كثير منها، ومع رهافة الشعور ودقة الحسِّ وصفاء الذوق فى انتخاب ذلك كله وفى اختيار الألفاظ والتنسيق بينها تنسيقا بديعا. ولكثرة ما فى الرسالة من أمثال العرب ووقائع التاريخ والأشعار احتاجت إلى الشرح وشرحها الصفدي، وسمى شرحه «تمام المتون شرح رسالة ابن زيدون» وواضح من كلمة المتون التى اختارها اسما لكتابه أنه شَعرَ أن الرسالة تشبه المتون لكثرة ما فيها من الأمثال وغير الأمثال، مما يحتاج إلى تفسير وفضل بيان، وهى - كأختها السالفة - آية بديعة من آيات النثر الأندلسي.

رسالة ابن غرسية فى الشعوبية والردود عليها

ابن غرسية[١] هو أبو عامر أحمد بن غَرْسية، كان من أبناء نصارى البَشْكُنْس فى شمالى إسبانيا، سُبى صغيرا - كما يقول ابن سعيد - وأدَّبه مجاهد مولاه ملك دانية والجزر المقابلة لها فى البحر المتوسط شرقى الأندلس (٤٠٥ - ٤٣٦ هـ) وكان مجاهد من فتيان المنصور بن أبى عامر الصقالبة الذين دان لهم شرقى الأندلس فى أوائل عصر أمراء الطوائف أثناء الفتنة التى أطاحت بالدولة الأموية. ولما رأى براعة ابن غرسية البشكنسى فى العربية والكتابة ألحقه بدواوينه، وأخطأ جولدتسيهر فى مقاله عن الشعوبية الإسبانية، فظن أنه كان فى خدمة المعتصم ابن صُمادح التجيبى أمير المريَّة (٤٤٢ - ٤٨٤ هـ). وله رسالة يذم فيها العرب ويفخر بالعجم كتب بها لا إلى أبى عبد الله بن الحداد شاعر المعتصم بن صمادح كما ظن جولدتسيهر وبروكلمان، وإنما إلى أبى جعفر أحمد بن الجزار كما جاء عند ابن سعيد، وذكره ابن بسام باسم ابن الخراز وهو تصحيف بدليل هجاء ابن غرسية له الذى أنشده ابن سعيد فى ترجمته إذ هجاه بأنه سليل أسرة كانت تحترف الجزارة. ويقول ابن بسام إنه خاطب برسالته الأديب أب جعفر بن الجزار معاتبا له لتركه مدح مجاهد (الصقلبى أمير دانية) واقتصاره على مدائح ابن صمادح التجيبى (العربى) الذى كان أميرا للمرية فى حياة مجاهد المتوفى سنة ٤٣٦ وهو معن بن صمادح مؤسس دولة الصمادحية بالمرية (٤٣٢ - ٤٤٣ هـ) لا ابنه المعتصم كما ظن ابن سعيد ومن ظن ظنه من المستشرقين. والرسالة تشغل فى الذخيرة نحو تسع صفحات، ونقتطف من فِقرِها قوله:

«سلام عليك ذا الرَّوِىِّ المَرْوِىِّ الموقوفَ قريضُه على حَلَلة بَجَّانة أُرْشِ اليمن[٢]، بزهيد الثمن.. ولو أن القوم خلطوك بالآل، لما ألجأوك إلى الخَبْط فى الآل[٣]، مَهْ، مَهْ[٤]

---

(١) انظر فى ابن غرسية ورسالته الذخيرة ٧٠٤/٣ وما بعدها والمغرب لابن سعيد ٤٠٦/٢ وبحثنا لجولد تسيهر عن «الشعوبية عند مسلمى الأندلس فى مجلة الجمعية الألمانية الشرقية المجلد ٥٣ ص ٦٠١ - ٦٢٠ (طبع ليبزج) وتاريخ الأدب الأندلسى عصر أمراء المرابطين للدكتور إحسان عباس ص ١٧٠ وما بعدها وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف) ١٤١/٥ والمجموعة الثالثة من نوادر المخطوطات للأستاذ عبد السلام هرون وبها ملخص لمقال جولد تسيهر المذكور. وراجع فى أبى جعفر أحمد بن الجزار الذى كتب إليه ابن غرسية بالرسالة وأنه من أسرة كانت تحترف الجزارة المغرب ٣٥٥/٢ - ٣٥٦.

(٢) ذا الروى: القصيد. حللة بجانة: سكانها وهى بجوار المرية. أرش هنا: اقليم.

(٣) الآل الأولى: الأهل والأصل. والثانية: السراب.

(٤) مه: كُفَّ.

مَنْ أحْوجك إلى ركوب المَهْمَه[١] وإذا يمَّمت بطن تَبالةَ تتَبَالَه، وصرت ضِغْثًا على إبَّالة[٢].. وأحسبك أن أزْرَيْت، وبهذا الجيل النجيب (يقصد مجاهد أو الصقالبة) ازدريت، وما دريت أنهم الصُّهْبُ الشُّهْب ليسوا بعرب، ذوى أيْنُق جُرْب، بل هم القياصرة الأكاسرة، بُهَمٌ لا رُعاة شُوَيْهاتٍ ولا بهَم[٣]. شُغلوا بالماذِىّ والمُرَّان، عن رَعى البُعْران[٤]، وبجلْب العِزّ عن حَلْب المَعْز، جبابرة قياصِرَة، صُقورة غلبت عليهم شُقورة، صُقورة الخُرْسان[٥]. لكنهم خَطَبَة بالخِرْصان، أرومةٌ روميَّة وجرثومة صُفْرِيَّة.. فلا تهاجُرَ بنى هاجَر، أنتم أرقاؤنا وعَبَدتنا، وعتقاؤنا وحفدتنا، مننَّا عليكم بالعِتْق، وأخرجناكم من رِبْق (كرب) الرقّ، وألحقناكم بالأحرار فغمطتم النعمة، فصَفَحْناكم صَفْحا، يشارك سَفْعًا، اضطرَرْكم إلى سُكْنَى الحجاز وألجأكم إلى ذات المَجاز[٦]. وإذا قامت الحرب على ساق، وأخذت فى اتساق، وقرعت الظَّنابيب، وأشرعت الأنابيب، وقَلَّصت الشِّفاه، وفغر الهِدانُ فاه، وولَّى قفاه، ألفيتهم ذَمَرة الناس[٧] عند احمِرار الباس، الطَّعْنُ بالأسل، أحلى عندهم من العَسَل، تزدان بهم المحافل والجحَافل، كواكبُ المواكب، قُيولٌ، على خيول، كأنهم فيُول، نجومُ الرُّجُم من العجم، ضراغمة الأجَم، تَبَحْبحت عنهم سارةُ الجبال والكمال، ربَّةُ الإياة[٨].. دوَّخوا المشارق والمغارب، فاستوطنوا من المجد الذروة والغارب غَنوا بالإستبرق (الحرير) عن البَتّ (الكساء) المجموع من النُّغَيْجات طعامهم الحَنيذ (اللحم المشوى) لا الهَبيد (الحنظل) بُسُلٌ (شجعان) لاحُرَّاس

---

(١) المهمه: الفلاة.

(٢) تبالة: بلدة صغيرة باليمن يشير إلى أصل الأسرة الصمادحية التجيبية اليمنية. ضغث على إبالة: مثل يضرب للبلية فوق البلية.

(٣) الصهب الشهب: ذوو الوجوه المشربة حمرة يريد العجم من صقالبة وغير صقالبة. بُهَم: بضم الباء فرسان حرب، وبفتحها صغار الغنم.

(٤) الماذى: السيوف. المران: الرماح. البعران: جمع بعير.

(٥) صقورة: جمع صقر. شقورة: حمر. الخرسان: الصقالبة. كانوا يلقبون أيام الدولة الأموية بالخرس لعجمة لسانهم، ويقول إنهم فصاح بالخرصان أى الرماح.

(٦) هاجر زوجة إبراهيم: أم النبى إسماعيل أصل العرب. عبدة وحفدة: عبيد وخدم. سفعا: لطما على الوجوه. ذات المجاز: سوق فى الجاهلية كانت بقرب مكة.

(٧) قامت الحرب على ساق: اشتدت، وكذلك قول العرب قرعت الظنابيب وأشرعت الأنابيب. الهدان: الجبان. ولى قفاه: انهزم. ذمرة: يحثون على القتال. الأسل: الرماح.

(٨) الجحافل: الجيوش الضخمة . قُيولٌ: جمع قيل: ملك. الرجم: الشهب: يتساقطون على الأعداء مثلها. الأجم: جمع أجمة غيل الأسد وهى الشجرة الملتفة. تبحبحت عنهم: ولدتهم فى عزة وسارة زوجة النبىّ إبراهيم أم إسحق. الإياة هنا: الحسن.

مُسُل (جريد النخلَ) ولاغرّاسُ فُسُل (صغار النخل).. فكُفُّ أيها الشّانِ، فلهم عظيم الشّانِ واليَدُ الطُولى إذ تخلّصوكم من يد الحُبْشان.. رَسَخَتْ فى المجد أصولُنا وفروعنا، ومَنْ يطُولنا، وكل الوَرَى قد شمله فضلنا وطَوْلنا[1]، ذوو الآراء الفلسفية والعلوم المنطقية حمَلة الأسترلوميقى والجومطريقى، والعَلَمة بالأرثماطيقى وأنولوطيقى والقَوَمة بالموسيقى والبوطيقا[2]، والنُّهضة بعلوم الشرائع والطبائع، والمهرة فى علوم الأديان والأبدان، ما شئت من تدقيق، وتحقيق، حبسوا أنفسهم على العلوم الدينية والبدنية لا على وصف الناقة الفَدَنية (الضخمة).. فلا فخر معشر العُرْبان الغِرْبان، بالقديم المفْرِى الأدِيم[3]، لكن الفخر بابن عمّنا (يريد الرسول صلى الله عليه وسلم)، الذى بالبركة عمّنا، الإسماعيلى الحسب، الإبراهيمى النسب الذى به إنما انتشلنا الله تعالى وإياكم من الغَواية والعَماية، ولا غَرْوَ أن كان منكم جِبْره وسِبْره، ففى الرُّغام يُلْفَى تِبْرُه».[4] وينوه بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم:

«لله مما قد بَرَا صفوةٌ ... وصفوةُ الخَلْقِ بنو هاشمِ
وصفوة الصّفوة من بينهم ... محمدُ النورُ أبُو القاسمِ

بهذا النبى الأمىّ أفاخرُ مَنْ يفخر، وأكاثر جميعَ من تقدم وتأخّر، المنيف (الرفيع) الطرفين، الشريف السُّلَفَيْن، المتلقىُّ بالرسالة، والمنتقى للأداء والدلالة، أصلّى عليه عددَ الرَّمْل، ومَدَد النَّمْل، وكذلك أصلّى على واصلى جناحه، سيوفِه ورماحه، صحابته الكرام، عليهم من الله أفضل السلام».

وابن غرسية يفتتح رسالته بالسخرية من أبى جعفر بن الجزار الذى يقف قريضه وشعره على نزَلة بجاية والمرية بإقليم اليمن فى شرقى الأندلس مختصًا به عرب الأسرة الصُّمادحية أمراء المرية وما والاها دون مجاهد الصقلبى ذى الأصل الشريف والنسب الرفيع، ويأخذ فى التهكم بابن الجزار والتهجم على العرب، فهو قد تعلق بآل أو بسراب، ويمّم وجهه نحو تبالة اليمنية، فتبًّا له لقد أصابه البله، وأصبحت محنته محنتين. ويعجب أن

---

(١) الفارب: الكاهل يريد مادون الذروة. الشان الأولى: الشانىء: المبغض الحاقد. الطولى: سابغة النعم. ويشير: بالحبشان إلى حكمهم اليمن فترة قبل الإسلام . يطولنا: يفوقنا. الطول: الفضل.

(٢) الأسترلوميقى: علم الفلك. الجومطريقى: الهندسة. الأرثماطيقى: الرياضة. أنولوطيقى: القياس المنطقى. البوطيقا: الشعر.

(٣) المفرى الأديم: الممزق جلده.

(٤) الغواية والعماية: الضلال. جبره وسبره: حسنه وبهاؤه. الرُّغام: التراب. التبر. فتات الذهب.

يزرى ابن الجزار على مجاهد وقومه الصقالبة. ويبدو أنه كان قد هجاه، فأخذ يشيد به وبقومه الصُّهب حمر الوجوه، ويقول إنهم ليسوا بعرب ذوى نوق جُرْب. ويضم إليهم العجم قاطبة، ويقول إنهم ملوك قياصرة وأكاسرة، فرسان لا رعاة أغنام ولا غارسو زروع يعيشون للحرب وحمل السلاح. ويستغلّ ما قيل من أن هاجر أم إسماعيل كانت جارية لسارة زوجة أبيه إبراهيم، فيزعم أنهم منوا على العرب بنعمة العتق ونعمة الحرية، وأسكنوهم الحجاز إشارة إلى نزول هاجر وابنها إسماعيل بمكة. ويطيل فى الحديث عن فروسية العجم وبطولتهم فى الحرب وانشغالهم بالسيوف عن الملاهى وربات الأقراط أو الشنوف. ويقول إن لباسهم الإستبرق لا الصوف وطعامهم اللحم المشوى لا الحنظل ولا الضب، وسكناهم القصور لا الخيام وبيوت الشعر. ويفخر على العرب بأن الفرس من العجم خلصوا اليمن من يد الحبش أيام الجاهلية، كما يفخر بأم العجم سارة ويتغنى بجمالها وكمالها. وأيضا يفخر بأن العجم أصحاب العلوم الفلسفية والفلكية والهندسية والرياضية والمنطقية والموسيقية والشعر، لا أصحاب النوق الفدنية الضخمة. وابن غرسية فى كل ذلك يستمد من أصحاب الشعوبية فى القرن الثانى والثالث بالعصر العباسى، وكانت أهم مطاعنهم على العرب - كما أوضحنها فى كتاب العصر العباسى الأول - أنهم كانوا فى الجاهلية بدوا رعاة أغنام وإبل، ولم يكن لهم ملك ولا حضارة ولا مدنية ولا علوم. فأين هم قديما من ملك الأكاسرة والقياصرة؟ وأين هم من علوم الفرس واليونان والرومان. وكان الشعوبيون يصدرون فى ذلك عن بغض للإسلام، ولذلك اقترنت الشعوبية عند كثير منهم بالزندقة والإلحاد فى الدين الحنيف. وشعوبية ابن غرسية فى رسالته لا تقترن بإلحاد ولا بزندقة، ومع أنه شعوبى ذميم يعلن فى نهاية رسالته تمجيده للرسول ﷺ ولصحابته.

وليس بين أيدينا فى الأندلس أعمال صدرت عن نزعة الشعوبية سوى هذه الرسالة لابن غرسية، وحقا هناك كتاب صُنِّف قبلها سُمِّى: «الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضل الصقالبة». ومن المؤكد أن نزعة الشعوبية فى الأندلس كانت نزعة فردية، ولم تتحول - كما تحولت فى القرنين الثانى والثالث بالعراق - إلى نزعة اجتماعية تقوم على معاداة العرب والإسلام. ولم تكد رسالة ابن غرسية تُشْعلها حتى انطفأت، بل لقد أطفأها هو نفسه فى نهاية رسالته إذ أعلن تمسكه بالدين الحنيف وإشادته بالرسول وصحابته من المهاجرين والأنصار. ومع ذلك نجد ردودا عليه، لكن لا بأبحاث مطولة تهدم الشعوبية، كما نرى عند الجاحظ وابن قتيبة مما عرضناه مفصلا فى حديثنا عن تاريخ الأدب العربى

بالعصر العباسى الثانى وإنما برسائل تنقض مزاعمه نقضا حميَّة للعرب والعروبة. وفى الذخيرة لابن بسام ثلاث رسائل منها رسالة لابن الدودين وثانية لعبد المنعم بن منّ الله القروى، وثالثة لشخص يسمى ابن عباس لم يوضح هويته ابن بسام. وظلت ردود تدبَّج فى القرن السادس الهجرى، منها رد لابن أبى الخصال باسم: «خطف البارق وقذف المارق فى الرد على ابن غرسية الفاسق». وسقط هذا الرد من يد الزمن كما سقط رد الفقيه أبى مروان عبد الملك بن محمد الأوسى، ورد عبد المنعم بن الفرس، ورد عبد الحق بن فرج، ووصلنا رد أبى يحيى بن مسعدة المعاصر لعبد المؤمن بن على مؤسس دولة الموحدين وكذلك رد أبى الحجاج يوسف البلوى المتوفى سنة ٦٠٤ إذ سجَّله فى موسوعته: ألف باء، وهو يكثر فيه من الشعر. ونقف قليلا عند الردود الثلاثة الأولى ورد أبى يحيى بن مسعدة.

وأولى الرسائل الثلاث عند ابن بسام رسالة أبى جعفر[١] أحمد بن الدودين البلنسى، ويقول ابن بسام إنه أملاها عليه بالأشبونة سنة ٤٧٧ وهو يفتتحها بسب ابن غرسية مع تهديد شديد ومع هجاء قومه من العجم هجاء مقذعا أشد الإقذاع رادا كلَّ مثلبة للعرب فى رسالة ابن غرسية إلى محمدة لهم وكل محمدة للعجم إلى مثلبة. ومن قوله فيها:

«اخسأْ أيُّها الجَهُولُ المارق، والمرذولُ المنافق، ثكلتْك أمُّك، حَبْرْتَ بِحبْرِك لذهاب خبرك، ومَشَقْتَ[٢] فى قرطاسك لمشَقْ رأسك، وما حقيقةُ جوابك على خَطَلِ خطابك إلا سَلْبُك عن إهابك (جلدك) وصَلْبُك على بابك، وأُقسم ببارئ النَّسم، وناشر الأمم من رُفاتِ الرِّمَم.. لأخلِّدنَّك سَمَرًا غابرا، ومثلا سائرا، أو تَحْتزِم بزُنَّارك[٣] وتلحق بأدْبارك، مآلك، ومَقَرِّ آلك، أسرتِك الأرْذلين، وعِتْرَتِك الأنْذلين الصُّهب (الحمر) أكَلَةِ الجِيَف.. وأما فخرك بربَّة الإياة (سارة) فياليتها حين ولدتكم ثَكِلتْكم، فلقد سَرْبَلتموها عارا مجدَّدا، وعصبتم بها شَنارًا (عارا) مخلَّدا، حين خِمْتم[٤] عن الكفاح، حَذَر الصوارم والرماح، فأسلمتم لعُداتها، من بَناتها، كل طَفْلَة رداح[٥]، جائلة الوِشاح[٦]، ذات ثَغر

---

(١) انظر فى ترجمة ابن الدودين ورسالته الذخيرة ٣/٧٠٣ وما بعدها وراجع ترجمته فى المغرب ٢/٣٢٢ ورسالته فى مجموعة هرون.

(٢) مشقت: طعنت. مشق: طعن وقطع.

(٣) الزنار: حزام كان يشده النصارى فى أوساطهم تميزا لهم.

(٤) خمتم: جبنتم ونكلتم.

(٥) طفلة: ناعمة. رداح: ضخمة الردف.

(٦) جائلة الوشاح: كناية عن دقة الخصر.

كالأقاح، وغُرّة كالصباح.. ووصفُك قومك بأن ليسوا حَفرةَ أُكر[١]، ولا حَفَرَةَ عَكَر[٢]، الله أجلَ الأُكَرَ أن يَحْفروها، والعَكر أن يَحْفزوها، لكنهم خَفَرَة جِحْشان، وحَفَرةُ كهوفٍ وغِيران[٣]، اتخذوها مَخْبأً من قبائل العُرْبان، ومَلْجأً من وَقْع الصَّوارم والمُرّان، فعل الخِزّان[٤] واليرابيع والجُرْذان. وأما وصفك قومك أنهم مُجُدٌ، نُجُدٌ، فهيهات تلك صفات قومنا العرب أولى اللَّسَن والبيان والإسهاب في الصواب، والحكمة وفصل الخطاب، أنديتهم عِراصُ المنيَّة، وأرديتهم بِيضُ المشرفيَّة، ولَبُوسهم مضاعفةُ الماذِيّة[٥]، مجالسهم السُّروج، وريحانهم الوَشِيج[٦]، مُناهم، تعجيل مَناياهم، أسودُ الأَغْيال[٧]، حُماة الأشبال».

والرسالة الثانية عند ابن بسام في الرد على ابن غرسية رسالة[٨] أبي الطيب عبد المنعم بن منّ الله القرويّ، دخل الأندلس، ودرّس الحديث في شرقيها إلى أن توفى سنة ٤٩٣، وكان أديبا شاعرا، واطلع على رسالة ابن غرسية فاستثارته، وكتب نقضا لها رسالة سماها «حديقة البلاغة ودوحة البراعة، المورقة أفنانها، المثمرة أغصانها بذكر المآثر العربية ونَشر المفاخر الإسلامية والردّ على ابن غرسية فيما ادعاه للأمم الأعجمية» وهى تمتد في الذخيرة إلى نحو خمس وعشرين صحيفة، ويقول له في مطالعها:

«أَخْبِرْني عنك أَمَا كانتْ للعرب يَدٌ تَشْكرها، ومِنَّةٌ تذكرها؟ أما جَبَرتْ نقيصتَك؟ أما رفعتْ خَسِيسَتَك؟ ألم تُرَبِّك فينا وَلِيدا؟ ألم تتخذك بها تَلِيدًا؟[٩] ألم تُعْنَ بتخريجك وتَدْريجك؟ أما أنطقتك بعد العجمة؟ أما أَسْلَقَتْك[١٠] عقبَ اللُّكْنة، حتى إذا اشتدّ كاهلُك، وقوىَ ساعدك، كفرتَ نعمتَها لديك، ونَثَرْت عِصْمتها من بين يديك.. وهات أرنا مفاخرَك نُرِك مساخرَك، أنت صاحبُ الشُّهبْ الصُّهْب أين أنت عن السُّمْر القُمْرِ[١١]، البيضِ غُرَرًا وصِفاحا[١٢]، الدُّعْج عيونًا ورِماحا، البُلْجِ[١٣] وجوها وسماحا؟ سفَروا

---

(١) أكر: حُفَر.

(٢) عكر: إبل.

(٣) جحشان: جمع جحش. غيران: جمع غار.

(٤) الصوارم: السيوف. المران: الرماح. الخزان: أولاد الأرانب. الجرذان: الفئران.

(٥) المشرفية: السيوف. الماذية: الدروع.

(٦) الوشيج: الرماح.

(٧) الأغيال: جمع غيل: بيت الأسد.

(٨) انظر في ترجمة ابن من الله ورسالته الذخيرة ٧٢٢/٣ - ٧٤٦ وراجع فيه الصلة: ٣٧١ وانظر في رسالته المجموعة الثالثة من نوادر المخطوطات لهرون.

(٩) تليدا هنا: مقيما.

(١٠) أسلقتك: أتاحت لك السليقة العربية.

(١١) القمر جمع أقمر: المشرق الوجه.

(١٢) الصفاح: السيوف.

(١٣) البلج: المشرقون.

(أوقدوا) عليكم نارَ الحرب، بتلك الأَيْنُق الجُرْب، فكسَروا أكاسرتكم، وقصَروا قياصرتكم، فسفكوا دماءهم، وأباحوا أحْماءهم[١]، وأخمدوا نارَ صَوْلتهم، ومحوا آثارَ دولتهم، وطهّروا الأرضَ المقدسةَ من أنْجاسكم والمسجدَ الأقصى من أرْجاسكم. وَيْحك بِمَ آثرتَ (فضلت) وبمن كاثرتَ (فخرت) أما استحييتَ مما انتحيتَ؟ هل كانت العرب إلا كنزَ عِزٍّ وذُخْر فخر، وخبيئةٌ ذخرها الله إلى الوقت المحتوم ليختار منها صَفِيَّه، وميزُها ليميز منها حَفِيَّه. يمشى أحدهم إلى الموت ثابتة وَطْأته، فسيحةٌ خُطْوته، شديدةٌ سَطْوَته، لَبِقًا بتصريف القَناةِ بنانُه، بصيرا بمهج الدارعين سنانُه.. أليس شعارُكم: الهربَ، الهربَ، هذه العرب.. وما تركوا من الأعاجم عاجما، ولا ناجما، وساروا يَذْبَحُونَ البرَّ ذبحا، ويَسْبَحون البحر سَبْحا، حتى طَرَقكم طارقُهم[٢] فى هذا الطَّرَف، ورشقكم راشِقُهم فى هذا الهدف، وملكوا أرضَكم بساحتيها، وأحاطوا بها من ناحيتيها، سلبوها بأقطارها وحَلبوها من أشطارها».

ويطيل ابن من الله فى الفخر بدول العرب قبل الإسلام، وبشجاعتهم وفروسيتهم، ومايزال يتتبع مفاخر العجم عند ابن غرسية ناقضا لها حتى فى العلوم. وينوه بعلم العرب فى الفلك والطب وبراعتهم فى الغناء والموسقى. ويضع له أمام عينيه فخر العرب برسولها محمد سيد ولد آدم الذى به بزّت الأمم، ويطلب إليه أن يتوب توبة تهديه وتنجيه. والرد الثالث الذى ساقه ابن بسام يذكر أنه اقتبسه من كتاب[٣] لابن عباس رد فيه على ابن غرسية، ولا يعرِّفنا بشخصية ابن عباس هذا، وحديثه يدور على الهجاء المقذع ولا يخرج عما رأينا فى الرسالتين السالفتين من نقض مزاعم ابن غرسية نقضا يصيب قومه العجم فى الصميم.

ومثل هذه الردود فى الرد المفحم على رسالة الشعوبية لابن غرسية رسالة[٤] أبى يحيى ابن مسعدة، وهو يستهلها بهجاء شديد فابن غرسية غَثيث (لا خير فيه) آبق وَقاح لئيم الجدود. وبعد قَرْع صَفاه، وصَفْع قفاه، ينتقل إلى الحديث عن دين العجم وأقانيمه الثلاثة وعقيدة التثليث وينكر أن يكون إبراهيم الخليل أبا للعجم أو تكون سارة زوجته أمًّا لهم

---

(١) أحماء: جمع حمى.

(٢) تورية لطيفة عن طارق بن زياد فاتح الأندلس.

(٣) انظر الذخيرة ٣/٧٤٦.

(٤) راجع فى أبى يحيى بن مسعدة ورسالته المجموعة الثالثة من نوادر المخطوطات لعبد السلام هرون.

أو تكون هاجر أمةً لسارة. وينقض على ابن غرسية كل ما أشار إليه من خبر أو أسطورة تتصل بالعرب، ويشوّيه ويَشوى العجم معه بسياط من أهاجيه، ويتهكم على ما افتخر به من علوم الأعاجم، ويقول إنه كفخر الجارية بهودج سيدتها، إذ العلوم التى ذكرها إنما هى علوم اليونان والفرس والكلدان. ويتهكم على موسيقاهم التى يندبون بها فى نواحهم ويقصفون عليها فى أعيادهم. ويفخر بانتصار العرب على الفرس والروم فى القادسية واليرموك. ويتمدح بما يجلبه العجم للعرب من القيان والدِّنان، كما يتمدح بشغف العرب بالمرأة وما لهم فيها من الغزل الرقيق مع ما يميزهم من الشجاعة والإقدام حتى ملكوا الأرض، وتلك منازلهم منها بمكان الغُرّة. ويقول ابن مسعدة : كفى ابن غرسية والعجم أن فى العرب رسول الله هادينا ومرشدنا سيد البشر وشفيع هذه الأمة وسفير يوم العرض وإمام أهل السموات والأرض، وبه يفاخر العرب البشر، ويناظرون الشمس والقمر. ويشيد ابن مسعدة فى ختام الرسالة بابن تومرت داعية الموحدين وخليفته عبد المؤمن بن على مؤسس دولتهم فى المغرب والأندلس.

وواضح – مما تقدم – أن الشعوبية فى الأندلس لم تؤيدها إلا رسالة وحيدة لابن غرسية البشكنسى، وكأنها شىء عارض أو كأنها حجر ألقى فى بحر لجى للعروبة، فلم تترك أثرا وراءها سوى ما كان من كثرة الردود عليها طوال القرنين الخامس والسادس للهجرة، وهى كثرة تدل – دلالة بيِّنة – على تعمق نزعة العروبة فى الأندلس وأن الأندلسيين كانوا يستشعرونها دائما بقوة. أما ما نقرؤه أحيانا عن عالم أندلسى أو أديب هناك من أنه كان شعوبيا فإنما كان يوصف غالبا بذلك لنزعة وطنية تجعله يشيد بأبناء وطنه لا لنزعة شعوبية معادية للعرب. وقد ظلت الأندلس بعيدة عن استشعار تلك النزعة كما ظلت بعيدة عن استشعار نزعة الزندقة والإلحاد المعادية للإسلام.

رسائل نبوية ومواعظ

(أ) رسائل نبوية

للأندلسيين كتابات كثيرة فى مناقب الرسول ﷺ، على شاكلة كتاب الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى للقاضى عياض حافظ المغرب والأندلس المتوفى سنة ٥٤٤ ولسنا نريد الحديث عن مثل هذه الكتابات الجليلة إنما نريد أن نتحدث عن رسائل نبوية كثيرة صوَّر فيها الأندلسيون شوقهم الحار لاكتحال عيونهم برؤية الروضة الشريفة

ضارعين إلى صاحبها عليه السلام أن يكون شفيعهم إلى غفران ربهم يوم القيامة، يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه. ومنذ أواخر عصر أمراء الطوائف تتكاثر الرسائل النبوية إذ أخذ الكتاب في الأندلس يستشعرون محنة بلدهم وما يتهدّدها من الأخطار فبثوا شكواهم إلى الرسول ﷺ فى رسائل تفيض بوجد ملتهب لزيارة قبره الشريف وبتوسل ضارع لشفاعته يوم الحشر الأكبر. وأخذوا - مع تقدم الزمن - يضمّنون رسائلهم بعض الأحداث فى الأندلس آملين من الرسول الغوث والعون على أعدائهم وأن تدور عليهم الدوائر. ومن طريف ما نقرأ فى تلك الرسائل رسالة لأبى القاسم بن الجد المتوفى سنة ٥١٥ ومرت بنا ترجمته، وله رسالة نبوية كتبها على لسان صديق صَدر من بيت الله الحرام وزيارة قبر رسوله عليه السلام، وقد امتلأ قلبه شوقا إلى العودة لزيارة الروضة الشريفة، مؤملا فى شفاعته، والحشر فى عداد زمرته وجماعته، وفيها يقول ابن الجد:[١]

«صلوات الله على خاتم الرُّسُل وناهج السُّبُل، وناسخ جميع المِلل.. وعليه من لطائف التسليم ما يُرْبى على عدد النجوم، ويُزْرِى بالمِسْك المختوم، ويَقْتَضِى باتصاله رِضا الحيّ القيوم.. ولما صدرتُ يا رسول الله عن زيارتك الكريمة، وقد ملأتْ هيبتُك ومحبتك أرجاءَ فكرى، وفضاءَ صَدْرى، وغِشِيَنى من نور برهانك ما بَهَرَ لُبِّى، وعمرَ قَلْبى، لحقنى من الأسف لبعد مزارك، والحنين إلى شرف جوارك، ما أَوْدَعَ جَوَانِحِى التهابا، وأَوْسَعَ جَوَارحى اضطرابا، وأشْعَر أملى عَوْدًا إلى محلّك المعظَّم وإيابا، وكيف لا أحِنُّ إلى قربك، وأتهالك فى حُبِّك، وأعفر خَدِّى فى مقدَّسِ تُرْبك، وبك اقتديتُ فاهتديتُ، وكيف لا يتحرَّك نحوك نزاعى، ويتأكَّد انقطاعى، وبك استشفاعى، وإليك مَفْزعى يوم الداعى، فلا تَنْسَ لى - يارسول الله - عِياذى بك ولِياذى، واذكرنى فى اليوم العظيم المشهود، عند حَوْضك المورود، وظِلّك الممدود، ومقامِك المحمود».

والرسالة تصور هذا الشوق المضطرم فى قلب كل مسلم ليسعد بزيارة الروضة الشريفة ويتملّى بنورها الباهر. وما إن يعود زائره إلى موطنه حتى يضطرم شوقه من جديد لينعم بزيارته آملا أن يكون له حظ فى شفاعة صفىّ الرحمن وحبيبه المصطفى من خلقه. ويذكر ابن خير الإشبيلى فى فهرسته أن لابن السيد البطليوسى عبدالله بن محمد المتوفى سنة ٥٢١ رسالة كتب بها إلى قبر الرسول ﷺ، وبالمثل ذكر ابن خير أن لابن أبى الخصال المتوفى سنة ٥٤٠ - ومرت ترجمته - رسالة كتب بها متوسلا إلى قبر الرسول

---

(١) انظر الرسالة بترجمة ابن الجد فى الذخيرة ٢/٢٨٦.

ومعها مقطوعة شعرية، كتبها بلسان أحد الزمنى (المقعدين) آملا فى شفائه، فلما وضعت عند القبر الشريف برئ المقعد بإذن الله وببركة رسوله الأمين. وتظل هذه الرسائل النبوية تكتب من الأندلس وترسل إلى الروضة النبوية طوال الحقب الأندلسية التالية، ويلقانا من كتّاب هذه الرسائل ابن الجنان وسنخصه عما قليل بترجمة. وكان يعاصره أبو الحسن[1] الجيانى على بن محمد الأنصارى الذى تولى القضاء ببعض نواحى إشبيلية، واستكتبه آخر أمراء الموحدين: الرشيد (٦٢٩ - ٦٤٠ هـ) وظل يتولى الأعمال السلطانية حتى توفى سنة ٦٦٣ للهجرة، وله رسالة بارعة كتب بها إلى الروضة الشريفة وفيها يقول[2]:

«إلى سَيِّد المرسلين، ورسولِ رب العالمين، الذى جُعِلَتْ له الأرض مَسْجِدا وطَهورا، وكان - ولم يزل - منتقلا من صلب آدمَ نُورا.. المصطفى المختار الذى انشقَّ له القمر، ودان له الأَسْوَدُ والأحْمر، ولاح النور الإلهى من قَسَماته، وعَرَفَه الكهنة والأحْبار قبل كونه بسِماته، بُشْرَى الكليم[3] الميمون النقيبة[4] والطليعة، المشير إلى الأصنام فخرَّتْ صَرِيعة.. من العبد المذنب الذى ثبَّطَتْه الأقدار، وعاقه الفلك المُدار، عن الحلول بمشاهدك الكريمة، والمُثول فى معاهدك التى هى لِصَادِى الأمل أَنْقَعُ دِيمة[5].. كتبتُه، وأنا أتنفَّس الصُّعَداء[6]، وأناجى بل أَغْبِطُ أهل زيارتك السعداء، وللزَّفرات تصعُّدٌ وانحدار، وللعبرات تردُّد فى الجفن وانهمار، وكيف ألَذُّ حياةً ولم أعبر لزيارتك سَبْسَبًا[7] ولا لُجَّة، ولا أقمت على دعوى الشوق إليك بُرْهانا ولا حُجَّة، لأَلْثِمَ مواطئَ سَعَى فيها بالوحى الرُّوحُ الأمين، وتخطَّى عَرصاتها[8] سيدُ المرسلين كيف لى أن أمرِّغ الخَدَّ فى عَبير ثَرَاها، أو أبلغ الجَدَّ[9] الأعظم عندما أراها، اللهم ياربُّ أَنْجِدْ عبدك المسىء وأعنْه على أداء الفريضة، وطيِّبْ قلبه بانتشاق ريح طَيْبة[10]، ولا تجعل أمله فيك ورجاءه فى كرمك إلى إخفاقٍ وخَيْبة»

والرسالة طويلة، وقد ذكر فيها أبو الحسن الجيانى طائفة من المعجزات النبوية. ويقف

---

(١) انظر فى ترجمة أبى الحسن الجيانى الذيل والتكملة للمراكشى (تحقيق د. إحسان عباس) ٢٨٧/٥ وما بعدها.

(٢) انظر الرسالة عند المراكشى ٢٨٨/٥.

(٣) الكليم: موسى عليه السلام.

(٤) النقيبة: الطبع والسجية.

(٥) صادى: عطشان. ديمة: سحابة هاطلة.

(٦) الصعداء: المشقة. يتنفس الصعداء: يتنفس نفسا ممتدا.

(٧) السبسب: الفلاة.

(٨) عرصاتها: ساحاتها.

(٩) الجد: الحظ.

(١٠) طيبة: المدينة.

على باب الروضة الشريفة مسترحما لذنبه شفيعَ المذنبين يوم الهول الأكبر الذى تغذى بحبه طفلا وشابا وكهلا، وإنه ليأمل فى اللقاء بحبيبه، وفى فؤاده لوعة لا تنطفئ وفى عينيه دموع لا تجف، وإنه ليتمنى لو طُيِّب وجناته بتراب طيبة وتحقق له هذا الأمل العظيم. ويدعو ربه ضارعا أن ينيله أداء فريضة الحج وزيارة الرسول الكريم حتى يفوز بسعادة ما تماثلها سعادة.

وتسقط حينئذ مدن الأندلس العظمى: قرطبة وإشبيلية وبلنسية ومرسية وطليطلة وبطليوس فى حجر حملة الصليب الشماليين. ونرى هذه الرسائل النبوية الموجهة إلى الروضة الشريفة تضم إلى تصوير التعلق بالرسول والشغف بزيارته والتوسل إلى شفاعته تضرعا إليه كى ينصر المسلمين فى الأندلس على أعدائهم الشماليين، ومن خير ما يمثل هذه الرسائل رسالتان[1] للسان الدين بن الخطيب كتبهما إلى الرسول عليه السلام على لسانى سلطانى الأندلس أبى الحجاج يوسف الغالب بالله (٧٣٣ - ٧٥٥ هـ) وابنه محمد الغني بالله (٧٥٥ - ٧٩٣ هـ) وربما كانت رسالته الأولى أروع من أختها الثانية، وقد افتتحها بقصيدة بديعة، يصور فيها الشوق الذى أَضْنَى أبا الحجاج لزيارة قبر الرسول ﷺ، ويفخر بأن جده سعد بن عبادة كان من أنصار دينه الحنيف. ويعتذر بتقصيره عن زيارته باشتغاله بجهاد الجلالقة والقشتاليين حملة الصليب الشماليين، وتلى ذلك الرسالة، وهى طويلة. ويفتتحها لسان الدين على لسان سلطانه أبى الحجاج بقوله:

«إلى رسولِ الحقِّ، إلى كافَّةِ الخَلْق، وغَمَامِ الرحمة الصادق البَرْقِ، والحائز فى ميدان اصطفاء الرحمن قصَب السَّبْق، خاتَمِ الأنبياء، وإمامِ ملائكة السماء، ومن وَجَبَتْ له النبوة وآدم بين الطِّين والماء.. نبيِّ الهدى الذى ختم به الرسالة ربُّه، وجرى فى النفوس مجرى الأنفاس حُبُّه، الشفيع المشفَّعُ يوم العَرْض، المحمود فى ملأ السماء والأرض.. فائدة الكون ومعناه، وسرِّ الوجود الذى بهر سَنَاه، مَنِ الأنوارُ من عنصر نورِه مستمدَّة، والآثارُ تَخْلَق[2] وآثارُه مستجدّة، مَنْ طُوِىَ بِساطُ الوحى لفقده، وَسُدَّ بابُ الرسالة والنبوة من بعده».

وهذه القطعة الرائعة فى تمجيد الرسول يغمسها ابن الخطيب فى فكرة الحقيقة المحمدية

(١) انظر فى الرسالتين الإحاطة (طبعة عنان) ٥٢٧/٤ وما بعدها. وراجع فى الرسالة الأولى صبح الأعشى ٤٦٩/١٤.

(٢) تخلق: تبلى.

التي ردَّدها بعض الصوفية ذاهبين إلى أن الروح المحمدية سبقت فى الوجود صورة محمد الجسدية، وهو بذلك يسبق آدم، بل يسبق جميع الكائنات وكأنه مبدأ الرسل وخاتمهم، بل مبدأ الوجود جميعه، فكل نور فى الكون مستمد من نوره ومستعار منه. ويستمر ابن الخطيب فى هذا التمجيد متحدثا عن معجزات الرسول، قائلا إن الرسالة من عتيق شفاعته وعبد طاعته. ويصور تشوق أبى الحجاج إلى الاكتحال بمشهد روضته الشريفة، حتى يطفئ غلته ويسكن لوعته، ويعتذر بجهاده لحملة الصليب وما يلقى فى هذا الجهاد هو وجنوده من أهوال تعوقه عن أن يشد الرحال إلى الروضة العبقة الطاهرة، يقول:

«عاقتنى عن زيارتك العوائقُ إذْ أصبحتُ بين عدوٍّ تتكاثف أفواجهُ، ويحجبُ الشمسَ عند الظهيرة عَجَاجُه[1]، في طائفة من المؤمنين بك وطَّنوا على الصبر نفوسهم، وجعلوا التوكل على الله وعَليك لَبوسَهُمْ، واستعذبوا فى مَرْضاة الله تعالى ومَرْضاتك بُوسَهم، يطيرون من هَيْعةٍ[2] إلى أخرى، ويتلفتون والمخاوف يُمْنَى ويُسْرَى، ويقارعون - وهم الفئةُ القليلة - جموعًا كجموع قيصرَ وكسرى، قد باعوا من الله تعالى الحياة الدنيا، لأن تكون كلمة الله تعالى هى العُليا، فيالَهُ من سِرْبٍ مَروع، ودعاء إلى الله وإليك مرفوع، وصِبْية حُمْرِ الحواصل[3]، تخفق فوق أوْكارها أجنحة المناصل[4]، والصليب قد تمطَّى ومدَّ ذراعيه.. وما ضعفت البصائر ولا ساءتْ الظنون، وما وُعد به الشهداءُ تعتقده القلوبُ حتى تكاد تراه العيون إلى أن نلقاك غدا إن شاء الله وقد أبْلَيْنا العُذْرَ، وأعملنا فى سبيل الله وسبيلك البِيضَ والسُّمْرَ[5]، وأرْغَمْنا الكُفْرَ».

وهذه القطعة من الرسالة تصور الجهود المضنية التى كان يبذلها مسلمو الأندلس فى جهاد حملة الصليب، وقد جاءوهم - كالذرّ عند انتشاره - من شمالى إسبانيا ومن البلدان الأوربية، يريدون أن يقتلعوهم من البقية الباقية من ديارهم. وتستبسل الفئة القليلة أمام تلك الجموع الغفيرة نحو ثلاثة قرون متطاولة، بائعة أنفسها لربها متزاحمة على حياض الاستشهاد لنصرة دينه حتى تكون كلمته هى العليا، وحملة الصليب ما ينون يغيرون وما تنى سحب سيوفهم تتجمع فوق ديارهم وأوكار أفلاذ أكبادهم، والفئة القليلة تنازلهم مستميتة نزالا ضاريا وكثيرا ما دقَّت أعناقهم دقا. والرسالة الثانية للسان الدين كتبها

(١) عجاجه: غباره.

(٢) هيعة: صيحة.

(٣) حمر الحواصل: تشبيه لأطفال غرناطة بصغار الطير حين تكون حمراء الحواصل ولا تستطيع الطيران.

(٤) المناصل: جمع منصل: السيف.

(٥) البيض: السيوف. السمر: الرماح.

سنة٧٧١ بلسان السلطان الغنى بالله، كما ذكرنا، وفيها يصور للرسول الكريم تنكيله بحملة الصليب فى غير موقعة بعونه وجاهه، مع الاعتذار عن شد الرحال إليه لانشغاله بجهاد الطغاة البغاة. وكانت توجَّه إلى الروضة الشريفة من أطراف العالم الإسلامى رسائل نبوية مماثلة لما قدمناه ممجدة له ومتشفعة إليه فى الأغراض الدنيوية والأخروية، غير أنها كثرت في الأندلس لبعد الديار واتصال الحروب هناك مع أعداء الدين الحنيف، وحرىّ بنا أن نتوقف قليلا عند ابن الجنان.

ابن[1] الجَنَّان

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الأنصارى المعروف باسم ابن الجنان، من أهل مرسية فى شرقى الأندلس نشأ بها وحفظ القرآن الكريم واختلف إلى حلقات شيوخها ونهل منها كل ما استطاع من علوم دينية وآداب عربية، وفيه يقول ابن الخطيب: «كان محمد راوية ضابطا، كاتبا بليغا وشاعرا بارعا» ويقول الغبرينى: «كان من أهل الرواية والدراية والحفظ والإتقان فقيها وكاتبا بارعا وأديبا». وكان مفرطا فى القصر حتى يظن مبصره أنه طفل ابن ثمانية أعوام. ولفضله وأدبه استكتبه المتوكل بن هود حين ملك مرسية سنة ٦٢٥. وضاق بهذا العمل فتركه وحين تمكن العدو من قبضته على مرسية، سنة ٦٤٠ خرج منها واستقر بمدينة أريولة شمالى مرسية. وسمع به ابن خلاص صاحب سبتة على الزقاق، فاستدعاه، ولبىَّ دعوته، وأكرمه وحظى عنده، ونراه يتوجه إلى مدينة بجاية بإفريقية ويستقر بها إلى أن لبَّى نداء ربه فى عشر الخمسين وستمائة.

وكان ابن الجنان شاعرا مبدعا كما كان كاتبا محسنا، ويقول ابن الخطيب «له فى الزهد ومدح الرسول ﷺ بدائع، ونظَم فى المواعظ للمذكرين كثيرا» وأنشد المقرى له فى الجزء السابع كثيرا من مدائحه النبوية، وهو يسترسل فيها متحدثا عن شمائل الرسول وخصاله الكريمة ومعجزاته الباهرة ونبوته وقدسيته ومرتبته العليا بين الرسل وشفاعته لأمته يوم الحشر، وينشد له المقرى مخمسا نبويا طريفا يستهله على هذا النحو:

الله زادَ محمـدًا تكـريمـا ... وَحَبَاهُ فَضْلاً من لَدُنْه عظيما

واختصَّه فى المرسلين كريما ... ذا رَأفـةٍ بـالمؤمنين رحيمـا

صَلُّوا عليه وسَلِّموا تسليما

---

(١) انظر فى ترجمة ابن الجنان ورسائله ومواعظه ومدائحه النبوية الإحاطة ٣٤٨/٢ وعنوان الدراية للغبرينى ٢١٣ ونفح الطيب ٤١٥/٧ وما بعدها.

ويضيف إلى هذا الدور فى المخمس نحو ثلاثين دورا، والمخمس يسيل سلاسة وعذوبة، وأدواره تختتم بقوله: «صلوا عليه وسلموا تسليما». ولا تقل روعة عن مدائح ابن الجنان للرسول عليه السلام رسائله ومواعظه النبوية. ومن أروعها رسالة احتفظ بها المقرى كتب بها من الأندلس إلى سيد الكونين صلى الله عليه وسلم، وفيها يقول:

«السلامُ العميمُ الكريمُ، والرحمةُ التى لا تَبْرَحُ ولا تَرِيمُ[١]، والبركةُ التى أولها الصلاةُ وآخرها التسليمُ، على حضرة الرِّسالة العامَّة الدعوة والنبوَّة، المؤيدة بالعِصْمة والأَيْدِ والقوة، ومَثابةِ البرِّ والتقوى، فهى لقلوب الطيبين صَفًا ومَرْوَة[٢] مقرِّ الأنوار المحمدية، والبركات السَّرْمَدِيَّة، أَمْتَعَ الله الإسلامَ والمسلمين بحراسةِ أضوائِها، وكَلاءَةِ[٣] ظِلالها العليَّة وأَفْيَائِها[٤]، وأقر عَينْ عَبْدِها بِلَثْم تَراها، والانخراط فى سِلْكِ مَنْ يراها. السلامُ عليك يا محمد، السلام عليك يا أحمدُ، السلام عليك يا أبا القاسم سلام مَنْ يمدّ إليك يَدَ الغريق، ويرجو الإنقاذ ببركتك من نَكَدِ المضيق، ويتقطَّع أسفًا ويتنفس صُعُدًا[٥] كلما ازدلف[٦] إليك فريق، وعَمَرتْ نحوك طريق، ولا يَفْتُر صلاةً عليك له لسانٌ ولا يجفُّ رِيق: كتبته يارسول الله وقد رحل المجدّون وأقمتُ، واستقام المستعدون وما استقمتُ، وبينى وبين لَثْم ثَراك النبوىِّ، ولَمْحِ سَنَاك المحمدىِّ مفاوزُ وكلما رُمتُ المَتاب رُدِدْت، وكلما يَمَّمْتُ الباب صُدِدْتُ.. وحقِّك وهو الحق الأكيد والقسم الذى يبلغ به المُقْسم ما يريد، ما وَخَدَتْ[٧] إليك ركابٌ، إلا وللقلب إثْرَها التهاب، وللدمع بعدها سَحٌّ وانسكاب، وياليتنى ممن يزورك معها ولو على الوَجْنَتَيْنِ، ويحيِّيك بين رَكْبِها ولو على المُقْلَتَيْنِ.. ثم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته عليك ياسيدَ الخلق، وأقربَهم من الحق، ومن طَهَّر الله تعالى مَثْواه وقدَّسه، وبناه على التقوى والرضوان وأَسَّسَه، وآتاه من كل فضل نبوى أعلاه وأَسْناه وأنفسَه.. كتبه عبدك المستمسك بعُرْوَتِكَ الوُثْقَى، اللائذ بحرَمك الأمتع الأَوْقى، المتأخر جسما المتقدم نطقا، والسلام عليك يارسولَ الله ﷺ تسليما كثيرا ورحمة الله تعالى وبركاته».

والرسالة تموج بالعذوبة فى اللفظ والصياغة، مع ما تصور من لواعج الشوق المضطرم فى صدر ابن الجنان لزيارة قبر الرسول القدسى ولثم ثراه العطر والإلمام بفنائه السنىّ

(١) تريم: تبرح.
(٢) السعى بين الصفا والمروة من شعائر الحج وفروضه والتشبيه واضح.
(٣) كلاءة: حفظ.
(٤) أفيائها: ظلالها.
(٥) يتنفس صعدا: يتنفس مع مشقة ووجع.
(٦) ازدلف: دنا وقرب.
(٧) وخدت: أسرعت.

وإن قلبه ليتقطع أسى وإنه ليتنفس الصعداء حين يرى الحجاج الأندلسيين من دونه يسيرون فى قوافلهم إلى بيت الله الحرام وزيارة الرحمة المهداة للأمة الذى أرسله الله نورا وضاء للعالمين. ويفضى ابن الجنان إلى أسى ولوعة عميقين، حتى ليشعر كأن الدنيا تحولت من حوله إلى سجن رهيب وأغلال وأصفاد، فلا يستطيع فكاكا ولا لحاقا بالقوافل المتجهة إلى الأراضى المقدسة فى الحجاز. ويذرف الدمع مدرارا، ويتمنى لو زار الرسول ﷺ لا على قدميه بل على وجنتيه، حتى تكتحل عيناه بسنى النور المحمدى. وروى المقَّرى له موعظة بديعة فى فضل الرسول وما أنعم الله به على البشر من رسالته الزكية وما أجرى عليه من معجزات فيها الآيات الكُبَر والدلالات الواضحة الغُرر، ويتلو المقرى هذه الموعظة بموعظة ثانية يتحدث فى نهايتها عن مصاب المسلمين بوفاة الرسول ﷺ وكيف عزَّهم الصبر، يقول: «وهل يسوغ الصبر الجميل فى فقيد بكته الملائكة وجبريل، وكثر له فى السموات السبع النحيب والعويل، وانقطع به عن الأرض الوحى الحكيم والتنزيل؟. ويصور ابن الجنان كيف عمَّ حينئذ الحزن والاكتئاب، وكأنما دموع الصحابة السحاب، ويقول إن الله عز شأنه سينجز وعده له بالشفاعة وقيامه المقام الموعود على الحوض يوم القيامة مناديا فى الناس هلموا إلى لتطفئوا حرارة العطش الملتهب فى الصدور. ويتجه ابن الجنان إلى ربه داعيا:

«اللهم اسْقِنا من حَوْضه المورود، وشرِّفنا بلوائِه المعقود، وشفِّعه فينا فى اليوم المشهود، وارحمْنا به إذا صِرْنا تحت أطباقِ اللُّحود، وانفعنا بمحبته ومحبة آله وصحابته الرُّكَّعِ السُّجود، واجعلنا معهم فى الجنة دارِ السلام ودارِ الخلود».

وبهذه اللغة الصافية التى تموج بالرقة والعذوبة والتى تلذ الألسنة حين تنطق بها والأسماع حين تنصتُ إليها كان ابن الجنان يمتع القلوب والأفئدة.

(ب) مواعظ

كانت الأندلس - مثل غيرها من البلدان الإسلامية - تكثر فيها المواعظ الدينية شفوية ومكتوبة، وكان من أهم البواعث لذلك الخطابة فى المساجد أيام الجمعة والعيدين واستشعار الخطباء هناك لخطابة الرسول والخلفاء الراشدين ومن تلاهم من جِلَّة الخطباء والوعاظ ممن حكى الجاحظ وعظهم وخطابتهم فى كتابه البيان والتبيين، وكثيرٌ هم الأندلسيون الذين تُذْكَرُ فى تراجمهم أن لهم خطبا ومواعظ مدونة، وأشهر خطباء الدولة

الأموية بالأندلس ووعاظها منذر بن سعيد، وسنخصه بكلمة. وكان يحدث كثيرا أن يتأخر المطر الذى يبعث الحياة فى الوديان والسهول والزروع، فكان الناس يجتمعون فى المساجد لصلاة الاستسقاء، ويقف بينهم الخطيب واعظا مذكرا بنعم الله عليهم مفيضا فى الحديث عن الإنابة إلى الله، داعيا الله دعاء مكررا: أن يرسل عليهم الغيث. وفى الكثرة الكثيرة من تلك الصلوات كانوا يغاثون ولا ينصرفون من المساجد إلا وأحذيتهم فى أيديهم من كثرة السيول التى تدافعت من السماء. ويتوقف أصحاب كتاب التراجم مرارا وتكرارا فى ترجماتهم للقضاة ممن كانت تسند إليهم خطابة الجامع الكبير، ليحدثونا عن صلاتهم مع أهل قرطبة لاستنزال الغيث، وبينما الخطباء يلحّون بالدعاء كان الناس يكثرون من الضجيج والابتهال، وتشملهم رحمة الله فتنعقد السحب وتُبرق وتُرعد ويهطل الغيث مدرارا.

وبجانب هؤلاء الخطباء الوعاظ ومواعظهم وأدعيتهم كان هناك زهاد أُثرت عنهم مواعظ وأدعية كثيرة مثل أبى وهب العباسى المعاصر لمنذر بن سعيد المتوفى سنة ٣٤٤ المار ذكره. ويدور بنا الزمن دورة ونصبح فى عصر أمراء الطوائف، ونلتقى فيه بمواعظ كتابية تحبَّر فيها رسائل بديعة. وهى رسائل وعظية تتقدم خطوة - إن لم تكن خطوات - نحو المتاع الروحى والشوق إلى اللقاء الربانى والانقطاع إلى النسك والعبادة للحى القيوم عن كل متاع دنيوى. ونحسُّ كأن الأندلس أخذت تتجه بقوة إلى النزوع الصوفى على نحو ما يلقانا فى رسالة كتبها الفقيه أحمد بن عيسى الإلبيرى سنة ٤١٦ إلى بعض إخوانه، وكان من أفراد الزهاد، وفيها يقول لصاحبه[١]:

«هيَّأتك يَدُ القدرة هَيْئة روحانية، وأحياك رُوحُ القُدُس حياةً إلهية، وألبستْك الشريعةُ لباسَ التَّقْوى، ورَاشَتْكَ الطبيعةُ بِرِيشِ النُّهى[٢]، حتى تطيرَ مع الروحانيين فى مجال الصِّدِّيقين إلى منازل المقرَّبين، فتذوق بَرْدَ عَيْش النعيم، وتلَذُّ بالنظر إلى وَجْه القَيُّوم، وتشتاق إلى لقاءِ الربِّ الرحيم.. وإن لله يا أخى عبادًا أقام أرواحهم بقَيُّوميَّته على صراط مستقيم، فمشت بأقدام الصدقِ إلى الحق، فدنت منه ونظرت إليه على جلاله، فى اتساع كماله، فضعفتْ لكبر سلطانه، ثم أفاقت بالإسلام ونطقت بالإيمان، واتصلت بالقرآن، وعلْمها ففازت بالحكمة، وانقطعتْ إليه بالكلية، ودانتْ له بالحنيفية،

---

(١) راجع فى النص الذخيرة ٨٤٧/١ وما بعدها.
(٢) النهى: العقل.

فآواها إلى كَنَفه، ونعَّمها بطرائف تُحَفه، وأطلع لها السَّرَّ، وأكمل لها البِرَّ، فحَيِيَتْ بقربه، وشربت بكأس حُبِّه».

والنزعة الصوفية ماثلة فى الرسالة، وهى تعد مقدمة لما سيكون من ازدهار التصوف فى زمن المرابطين والموحدين إذ يظهر فيه كثرة ممن أُشْربوا كأس المحبة الإلهية من أمثال ابن العريف وابن عربى والششترى، ومرت لهم فى الفصل الماضى ترجمات تعرِّف بنزعهم الصوفى وأهم آثارهم وفيها وعظ كثير. وإذا تركنا المتصوفة ووعظهم إلى الوعظ العام وأهله وجدنا من أدباء الأندلس الذين يجمعون بين نظم الشعر وكتابة النثر طائفة تحاكى أبا العلاء المعرى فى كتابه الوعظى: «ملقى السبيل» وقد جعله على الحروف الأبجدية، وعادة يذكر سجعات قليلة ويتلوها بأبيات بنفس معناها، وربما كان ابن أبى الخصال الذى ترجمنا له فى هذا الفصل أول من حاول محاكاته فى هذا الاتجاه[١]، وكثر بعد ذلك من عارضوه فيه من مثل أبى القاسم السهيلى المتوفى سنة ٥٨١ وسمَّى معارضته له باسم: «حلية النبيل فى معارضة ملقى السبيل[٢]» وعارضه سليمان بن موسى الكلاعى المتوفى شهيدا سنة ٦٣٤ باسم «مفاوضة القلب العليل ومنابذة الأمل الطويل بطريقة أبى العلاء فى ملقى السبيل»[٣] وغيرهم كثير. ونستطيع أن نقول إن معارضة أبى العلاء فى وعظه بملقى السبيل كانت أشبه بجدول انبثق من نهر الوعظ الكبير. ونلتقى فى عصر المرابطين بأبى بكر الطرطوشى وسنخصه بكلمة.

وكان ابن جبير المتوفى سنة ٦١٤ قد أشاد فى رحلته - كما مر بنا - بابن الجوزى ومواعظه، وحملها عنه بعض الأندلسيين وأكبَّ عليها غير أديب أندلسى يحاكيها على نحو ما يلقانا عند أبى المطرف بن عميرة المترجم له بين الكتاب والمتوفى سنة ٦٥٨ إذ يقول المراكشى: «له فصول وعظية على طريقة الإمام أبى الفرج بن الجوزى» وله قوله من عظة[٤].

«يا أَعْمىَ الهوى غابَ عنك وَضَحُ النهار، طالتْ غيبتُك عنا فأىّ يومٍ تكون فى الزوَّار، العمرُ قد مضى ولم يبق إلا القليل، وأنت تعيش بالمُنَى والتَّعليل،. أين الإخوان

---

(١) انظر تاريخ الأدب الأندلسى: عصر المرابطين للدكتور إحسان عباس ص ٢٨٧.

(٢) الإحاطة ٤٧٩/٣ وصحفت فيها لفظة «ملقى».

(٣) الذيل والتكملة للمراكشى بقية السفر الرابع ص ٨٦.

(٤) كتاب أبى المطرف بن عميرة ص ٣٠٤.

والأتراب، طاحوا[١] واقه وأكلهم التراب، بينما البلبل يغرِّدُ إذ نَعَبَ الغُراب وفجأتِ الفجيعةُ فما لذَّ النومُ ولا ساغ الشراب».

وكان نبعا فياضا فى الوعظ مما جعل بعض الوعاظ يستعينون به فيما يعظون به الناس. ونلتقى بكثير من المواعظ فى دولة بنى الأحمر بغرناطة، ومن كبار الوعاظ فى دولتهم ابن الزيات الكلاعى المالقى المتوفى سنة ٧٢٨ وله فى الوعظ كتاب «شذور الذهب فى ضروب الخطب»، وروى له لسان الدين بترجمته فى الإحاطة عظة أخلى الألف من حروفها وفيها يقول:

قد نُصِحْتم لو كنتم تعقلون، وهُديتم لو كنتم تَعْلمون، ونُصِرْتم لو كنتم تبْصرون، وذُكِّرتم لو كنتم تذْكرون، وظهرت لكم حقيقةُ نَشْركم[٢]، وبرزتْ لكم خبيئةُ حَشْركم، فلِمَ ترْكُضُون فى طَلَق[٣] غفلتكم، وتغفلون عن يوم بعثكم، وللموت عليكم سَيْفٌ مسلول، وحكمُ عزم غير مَفلول[٤]. فكيف بكم يومَ يُؤخَذُ كلٌّ بذنبه، ويُخبر بجميع كَسْبه، ويفرِّق بينه وبين صحبه، ويعدم نُصْرَةَ حِزْبه، ويُشْغَل بهمِّه وكَرْبه، عن صَديقه وتِرْبه».

ويسترسل فى مثل هذا الوعظ البسيط الذى ينزلق عن اللسان لخفته ولعذوبته، ولعله من أجل ذلك كان مجلس وعظه يغص بالناس ويزدحمون عليه لسماع مواعظه. وحرى بنا الآن أن نقف قليلا عند الواعظين الجليلين: منذر بن سعيد وأبى بكر الطرطوشى.

منذر بن سعيد البُلُّوطى[٥]

هو أبو الحكم منذر بن سعيد بن عبد الله، ولد سنة ٢٦٥ بموضع فى نواحى قرطبة يسمى فحص البلوط فنسب إليه، وأقبل منذ نعومة أظفاره على الدراسات الدينية واللغوية وبزَّ فيها أقرانه بقرطبة، وفى سنة ٣٠٨ رحل إلى المشرق للحج والتلقى عن علمائه، وعاد إلى قرطبة يحمل عن محمد بن المنذر النيسابورى كتابه الإشراف المؤلف فى اختلاف الفقهاء سمعه منه بمكة، ويحمل أيضا كتاب معجم العين المنسوب إلى الخليل سمعه على أبى العباس بن ولاد بمصر، غير كتب أخرى فى اللغة والفقه والحديث. وأهم

---

(١) طاحوا: هلكوا.
(٢) نشركم: بعثكم.
(٣) طلق: شوط.
(٤) مفلول: مثلوم الحد.
(٥) انظر فى ترجمة منذر ومواعظه طبقات الزبيدى ٣١٩ وابن الفرضى رقم ١٤٥٢ والبغية رقم ١٣٥٦ والجذوة ٣٢٦ والمطمح ٢٧ ومعجم الأدباء ١٧٤/١٩ وإنباه الرواة ٢٢٥/٣ وأزهار الرياض ٢٧٢/٢ ونفح الطيب (انظر الفهرس).

من ذلك أنه حمل مذهب داود الظاهرى وكتبه وظل يؤثره ويحتج لمقالته، مع أنه كان قاضيا فى بعض مدن الأندلس، والقضاء فيها كان مالكيا يلتزم القضاة فيه بمذهب مالك وفتاويه وفتاوى تلاميذه المصريين، واشتهر منذر بأنه إنما كان يأخذ بالمذهب الظاهرى فى نفسه فإذا جلس للحكومة والقضاء بين الناس قضى بينهم وحكم بمذهب مالك الذى استقر عليه العمل فى الأندلس. وثقف فى رحلته الاعتزال كما ثقف المذهب الظاهرى، وكان يحتج له كما يحتج للمذهب الظاهرى دون إفراط، مع الأخذ بالسنة والورع والرد على أهل الأهواء والبدع. وفى سنة ٣٣٠ أتيحت له فرصة عظيمة عندما أقيم بقصر الناصر فى قرطبة حفل استقبال ضخم لسفير بيزنطة الذى جاءه يحمل إليه بعض الهدايا من لدن الإمبراطور، وتقدم ابنه وولى عهده الحكم إلى أبى على القالى العالم اللغوى المشهور، وكان قد وفد على قرطبة ودوَّت شهرته فى الأندلس، فسأله أن يلقى خطبة أمام أبيه يبين فيها فخامة الخلافة الأموية بالأندلس وما تهيأ للناصر من توطيد الحكم فى بلده، فقام القالى وحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى ﷺ، وأُرْتِج عليه وانقطع عن الكلام، فلما رأى ذلك منذر – وكان حاضرا – قام فوصل افتتاحه بخطبة طويلة بليغة على غير أهبة مفتتحا لها بقوله:

«أما بعد حمد الله والثناء عليه، والتعداد لآلائه، والشكر لنعمائه، والصلاة والسلام على محمد صفيِّه وخاتم أنبيائه، فإن لكل حادثة مقامًا، ولكل مقام مقالًا، وليس بعد الحقِّ إلا الضلال، فافقَهُوا عنى بأفئدتكم، إن من الحق أن يقالَ للمحقِّ صدقتَ، وللمبطل كذبتَ.. وإنى أذكِّركم بأيام الله عندكم وتلافيه لكم بخلافته أمير المؤمنين التى لَمَّتْ شَعَثَكم، وأَمَّنَتْ سِرْبكم».

ومضى يتحدث عن تلافى الناصر للفتن التى كانت عمت آفاق الأندلس، وفصَّل القول فى انتصاراته وفتوحاته وعدالته وما حظيت به الدولة لعهده من مكانة جعلت الروم يخطبون مودتها. وينصح الناس بالتزام الطاعة لخليفتهم وابن عم نبيهم الناصر، ويختم خطبته بالحمد لله والاستغفار. وبهرت الخطبة المجتمعين وخرجوا يتحدثون عن بلاغة منذر وحسن بيانه وثبات جَنانه، وأُعْجب به الناصر إعجابا شديدا، فولاه الصلاة والخطابة بمسجده الجامع فى مدينته الزهراء التى بناها بجوار قرطبة، ثم ولاه قضاء الجماعة، فأصبح قاضى القضاة فى الأندلس جميعا، وظل على ذلك فى حكم الناصر وحكم ابنه الحكم إلى أن توفى سنة ٣٥٥. وكان الناصر قد مضى فى بناء مدينته الزهراء وتأنق فيها

ما وسعه التأنق على نحو ما مرّ بنا فى غير هذا الموضع، فرأى منذر أن يتناوله فى خطبة الجمعة بالموعظة الحسنة رجاء إنابته ورجوعه عن هذا السرف المفرط.

وابتدأ منذر موعظته بقول الله تعالى شأنه: ﴿أتبْنُونَ بكل رِيعٍ[١] آيةً تَعْبَثُونَ وتَتَّخذون مصانع[٢] لعلكم تخلدون﴾ ثم قال: ولا تقولوا: ﴿سواءٌ علينا أَوَعَظْتَ أم لم تكنْ من الواعظين﴾ ﴿فمتاعُ الدنيا قليل والآخرة خَيْرٌ لمن اتَّقى﴾ ومازال يصل ذلك بكلام مؤثر فى ذم تشييد البنيان وزخرفته والإسراف فى الإنفاق عليه، واستشهد بقوله تعالى: ﴿أفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَه على تَقْوى من الله ورِضْوانٍ خَيْرٌ أم من أَسَّسَ بُنْيانه على شَفَا جُرُفٍ هارٍ فانهارَ به فى نار جهنم والله لا يَهْدى القومَ الظالمين﴾ ومضى منذر يدعو إلى الزهد فى الدار الفانية والإعراض عنها وطلب ما عند الله من فراديس الجنان وأسهب فى ذلك حتى تأثر المستمعون وضَجُّوا بالبكاء، ودَعوا الله تائبين مستغفرين وبكى الناصر واستعاذ من سخط الله وغَضَبه. ولمنذر مصنفات من أهمها: «أحكام القرآن» وكان شاعرا، أما العظات فلعل واعظا فى وطنه لم يبلغ فيها مبلغه فى زمنه، وكانت له خطب مجموعة ومتداولة فى الأندلس تحمل وعظا كثيرا، ومن عظاته قوله:

«حتى متى وإلى متى أَعِظُ غيرى ولا أتَّعِظُ وأَزْجرُه ولا أَزْدَجِرُ، أدلُّ على الطريق المستدِلِّين، وأَبْقَى مُقيما مع الحائرين، كلا إن هذا لهو البلاء المبين ﴿إن هى إلا فتنتك تُضِلُّ بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت وليُّنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾. اللهم فَرِّغْنى لما خلقتنى له، ولا تَشْغَلْنى بما تكفَّلتَ لى به، ولا تَحْرِمْنى وأنا أسألك ولا تعذِّبْنى وأنا أستغفرك ياأرحمَ الراحمين».

أبو[٣] بكر الطُّرْطوشى

هو أبوبكر محمد بن الوليد القرشى الطُّرْطوشى الأندلسى ولد فى سنة ٤٥١ بطرطوشة فى أعلى الشرق من الأندلس على البحر المتوسط، ويعرف بابن أبى رَنْدقة، ويبدو أنها كنية شُهر بها فيما بعد، وقد تخرج على يد أبى الوليد الباجى بسرقسطة، أحد

---

(١) ريع: المرتفع من الأرض وكان الناصر قد بنى الزهراء بضاحية قرطبة على جبل العروس.
(٢) مصانع: مبان من القصور والحصون.
(٣) انظر فى ترجمة الطرطوشى ومواعظه الصلة ٥١٧ وبغية الملتمس رقم ٢٩٥ والمغرب ٤٢٤/٢ وابن خلكان ٢٦٢/٤ والديباج المذهب ٢٧٦ وعبر الذهبى ٤٨/٤ وأزهار الرياض ١٦٢/٣ والشذرات ٦٢/٤ وحسن المحاضرة ١٩٢/١.

كبار المالكية فى أواخر عصر أمراء الطوائف إن لم يكن أكبرهم، وقد أخذ عنه مسائل الخلاف وغيره من كتبه الكثيرة وأجاز له روايتها عنه. ورحل إلى المشرق سنة ٤٧٦ وحجَّ ودخل بغداد والبصرة، وسمع من جِلّة الشيوخ فى البلدتين، وسكن الشام مدة ودرَّس بها، ثم سكن مصر واستقر بثغر الإسكندرية إلى أن توفى بها سنة ٥٢٠. وكان وَرِعا متقشفا متقللا من الدنيا راضيا منها باليسير، ودخل على الأفضل بن بدر الجمالى وزير الفاطميين (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) فوعظه حتى بكى، وكان مما وعظه به:

«إن الأمر الذى أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموتِ مَنْ كان قبلك، وهو خارجٌ عن يدكِ بمثلِ ما صار إليك فاتقِ الله فيما خوَّلك من هذه الأمّة، فإن الله - عز وجلّ - سائلُك عن النُّقير[1] والقِطْمير والفَتيل، واعلم أن الله - عز وجل - آتى سليمان بن داود مُلْكَ الدنيا بحذافيرها فسخَّر له الإنسَ والجنَّ والشياطين والطيرَ والوحش والبهائمَ، وسخَّر له الريحَ تجرى بأمره رُخاءً[2] حيث أصاب، ورفع عنه حِساب ذلك أجمع، فقال عزَّ من قائل: ﴿هذا عطاؤنا فأمْنُنْ أو أمْسِكْ بغير حساب﴾ فما عدَّ ذلك نعمة كما عددتموها، ولا حَسِبها كرامة كما حسبتموها، بل خاف أن يكون ذلك استدراجا من الله عز وجَلّ، فقال: ﴿هذا من فضل ربى لِيَبْلُوَنِى أأشكُر أم أكفرُ﴾ فافتح البابَ، وسَهِّل الحِجابَ وانْصُرِ المظلوم».

وللطرطوشى مؤلفات مختلفة منها الكتاب الكبير فى مسائل الخلاف وكتاب مختصر تفسير الثعالبى وكتاب بدع الأمور ومحدثاتها وكتاب شرح رسالة ابن أبى زيد فى الفقه المالكى، وأشهر كتبه كتاب سراج الملوك الذى ألفه للمأمون البطائحى وزير الفاطميين بعد الأفضل بن بدر الجمالى (٥١٥ - ٥١٩ هـ) وهو وعظ للملوك والحكام وبيان لما ينبغى أن يتحلوا به من الأخلاق والسياسة الرشيدة فى الحكم، ويبين فى مقدمته منهجه فيه وغايته قائلا:

«جمعتُ محاسنَ ما انطوى عليه سِيَرُ مُلوكٍ سِتٍّ من الأمم، وهم العرب والفرس والروم والهند والسِّنْد والسندهند، فنظَمت ما ألفيت فى كتبهم من الحكمة البالغة والسِّيَر المستحسنة والكلمات اللَّطيفة والظريفة المألوفة.. إلى ما رَأيْته وجمعته من سِيَرَ الأنبياء عليهم السلام وآثار الأولياء وبراعة العلماء وحكمة الحكماء ونوادر الخلفاء وما انطوى

---

(١) النقير: ما نقر فى نواة التمر، والقطمير: القشرة الرقيقة على النواة، الفتيل: الخيط فى شق النواة والمراد أنه يُسْأل عن أصغر الأشياء.

(٢) رخاء: لينة.

عليه القرآن العزيزُ الذى هو بَحْرُ العلوم وينبوعُ الحكم ومعدنُ السياسات ومَغاصُ الجواهِر المكنونات.. الهادى من الضلالة والحاوى لمحاسن الدنيا وفضائل الآخرة».

وقد جعل الطرطوشى الكتاب فى أربعة وستين بابا خصَّ أولها بمواعظ الملوك وثانيها بمقامات العلماء والصالحين عند الأمراء والسلاطين. وتتوالى الأبواب فى الخصال التى ينبغى أن يتصف بها الحكام والقضاة وغيرهم ممن يلون شئون الناس، ومن قوله فى الباب الأول واعظا للملوك:

«اعتبِرْ بمن مضى من الملوك والأقْيال، وخَلَا من الأمم والأجيال، وكيف بُسطَتْ لهم الدنيا وأُنسِئَتْ لهم الآجال، وانفسح لهم فى المنى والآمال، وأُمِدُّوا بالآلات والعدَد والأموال، كيف طحنهم بِكَلْكَلِه المَنون[١]، واختدعهم بزخرفه الدهر الخَئُون، وأُسكنوا بعد سَعة القصور بين الجنادل والصخور.. أما ترى الدنيا تقبل إقبال الطالب، وإدبارها فجيعة، ولذَّاتها فانية، وتَبِعاتها باقية، فاغتنمْ غفوةَ الزمان، وانتهزْ فرصةَ الإمكان، وخذ من نفسك لنفسك، وتزوَّدْ من يومك لغدك، ولا تنافسْ أهل الدنيا فى خَفض عيشهم ولِين رِياشهم[٢] ولكن انظر إلى سرعة ظَعَنِهم وسوء مُنْقلبهم»

ولم يكد يترك الطرطوشى خبرا أو عظة للرسول عليه السلام والرسل الكرام والخلفاء الراشدين ومن عاصروهم وجاءوا بعدهم من الزهاد والأتقياء البررة والعبَّاد والصالحين الأطهار إلا دوَّنها فى كتابه مع ما ساقه فى تضاعيفه من عظاته التى تموج بها صفحاته. وهو بحق فى الذروة من الوعظ والإرشاد للناس جميعا حكاما وغير حكام.

٤

أعمال نثرية

تتميز الأندلس بنفوذها إلى أعمال نثرية بديعة سقط كثير منها من يد الزمن، وبقيت منها إلى اليوم بقية رائعة، بين اعترافات عاطفية كما فى طوق الحمامة لابن حزم، وكتابات تاريخية كما فى المقتبس لابن حيان والذخيرة لابن بسام، ومذكرات لسيرة ذاتية كما فى مذكرات عبد الله بن بُلُقِّين أمير غرناطة، وقصص خيالية فلسفية كقصة حى بن يقظان لابن طفيل، وحرى بنا أن نلم بهذه الأعمال فى كلمات مجملة.

---

(١) الكلكل: الصدر والمراد الثقل. المنون: الموت.

(٢) الرياش: الأثاث الفاخر.

طوق الحمامة لابن حزم

ابن حزم[1] هو أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم، من أسرة كانت تنتسب إلى جد فارسي من موالى بنى أمية وزعم ابن حيان أن أسرته إسبانية من عجم لَبْلة وأنها حديثة العهد بالإسلام، فجده الأدنى أول من أسلم من آبائه. ويبدو أنه لم يعرف جذور أسرته معرفة دقيقة، إذ تجمع كتب التراجم على سلسلة من النسب له، يتصل فيها أجداد مسلمون حتى ينتهوا به إلى جد فارسي أعلى كان مولى ليزيد بن أبي سفيان، ويقول صاحب المعجب إنه قرأ هذه السلسلة بخطه على ظهر كتاب من تصانيفه، ونَصَّ ابن حزم على نسبته الفارسية وولائه لبنى أمية قائلا:

سَمَا بىَ ساسانٌ ودارا وبعدهم قُرَيْشُ العلا أعْياصُها والعَنابِسُ

وهو فى الشطر الأول ينسب نفسه إلى دارا وملوك الفرس الساسانيين، وفى الشطر الثانى ينتمى بالولاء إلى بنى أمية، وكان لأمية ستة أبناء من العنابسة وخمسة من الأعياص. وسنعرف عما قليل عن ابن حزم كيف كان يأخذ نفسه بالصدق والتدين العميق، مع ما يضاف إلى ذلك من أنه لا يوجد أى مبرر لكى يرجِّح نسبته إلى عجم الفرس على نسبته إلى عجم الإسبان، مع ما ضم إلى ذلك من اعترافه بالولاء لبنى أمية، وظل مشايعا لهم حتى الأنفاس الأخيرة من حياته، وربما كان ذلك ما أثار ابن حيان ضده، محاولا أن يخلعه من ولائه وولاء أبيه للأمويين.

---

(١) انظر فى ترجمة ابن حزم ودراسته الحميدى فى الجذوة ص ٢٩٠ والذخيرة ١٦٧/١ والمطمح ص ٥٥ والبغية للضبى ص ٤٠٣ والصلة ٤٠٨ والمعجب ٩٣ وطبقات الأمم لصاعد ص ١١٧ والمغرب ٣٥٤/١ ومعجم الأدباء ٢٣٥/١٢ والقفطى فى تاريخ الحكماء ص ٢٣٢ وابن خلكان ٣٢٥/٣ والذهبى فى تذكرة الحفاظ ٣٤١/٣ وعبر الذهبى ٢٣٩/٣ وابن شاكر فى الفوات ٢٧١/٢ والشذرات ٢٩٩/٣. وكتبت عن ابن حزم دراسات كثيرة، وراجع فيه تاريخ الفكر الأندلسى لبالنثيا ص ١٤، ٧٤ - ٧٧، ٢١٣ - ٢٣٩، ٤٢٦ وكتابات د. إحسان عباس فى تاريخ الأدب الأندلسى: عصر سيادة قرطبة ص ٢٤٥ - ٢٦٤ ومقدماته لما نشر من رسائله وكتاب ابن حزم: حياته وعصره لمحمد أبى زهرة ودراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة للدكتور الطاهر مكى (طبع دارالمعارف) وابن حزم صورة أندلسية للدكتور الحاجرى وابن حزم الأندلسى: حياته وأدبه للدكتور عبدالكريم خليفة. وفى كتاب طوق الحمامة انظر مقدمته فى تحقيق الدكتور الطاهر مكى (طبع دارالمعارف) وعرضه فيها لآراء المستشرقين وما ذكره فى هوامش تحقيقه للكتاب من تأثيرات موضوعاته فى الأدب الإسبانى. وانظر كتاب ألوان للدكتور طه حسين (الطبعة السادسة فى دار المعارف) ص٩٩ وما بعدها.

وكانت أسرة ابن حزم تعيش فى قرية تملكها تسمى مُنْت ليشَم من قرى مدينة لَبْلة على بعد خمسين كيلو مترًا غربى إشبيلية، وبها وُلد أبوه أحمد، ورحل منها مبكرا إلى قرطبة، ليحرز لنفسه ما استطاع من الثقافة، وسرعان ما لمع بين أقرانه بقدرته الأدبية وبلاغته ومعرفته بالتاريخ. وتعرَّف عليه ابن أبى عامر حاجب الخليفة المؤيد أثناء الطلب والتلمذة، وكان يعجب به، فاتخذه وزيرا له سنة ٣٨١ مما جعله يسكن فى الجانب الشرقى من قرطبة بناحية الزاهرة مدينة أبى عامر ومجمع قصوره. وأقصاه فترة عن وزارته للنظر فى كُوَر غربى الأندلس، ثم أعاده إلى الوزارة. وبلغ من ثقته به أن كان يستخلفه حين مغيبه عن قرطبة، ووزر من بعده لابنه عبد الملك المظفر. ورزقه الله بابنه على سنة ٣٨٤ ووكل تربيته فى صباه إلى جوارى قصره وكنَّ على حظ كبير من الثقافة الأدبية - شأن أمثالهن من الجوارى فى قرطبة ومدن الأندلس - وفى ذلك يقول ابن حزم فى كتابه «الطوق»: «لقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لايكاد يعلمه غيرى، لأنى رُبِّيت فى حجورهن، ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا وأنا فى حَدِّ الشباب وحين أبقل وجهى (نبت الشعر فيه) وهنَّ علَّمْننى القرآن وروَّيننى كثيرا من الأشعار ودرَّبْنَنى فى الخط». وجعلتْه هذه النشأة يستشعر مبكرا عاطفة الحب لمن كن فى سنه من الجوارى، ويقول فى الطوق إنه أحب حينئذ جارية شقراء فما استحسن بعدها سوداء الشعر أبدا. وظل يختلط بهؤلاء الجوارى ويعيش معهن كما يقول إلى حد الشباب وحتى أصبح يافعا فى سن الثانية عشرة أو بعدها بقليل إذ يذكر أن أباه اصطحبه إلى مجلس الحاجب المظفر بن المنصور بن أبى عامر سنة ٣٩٦. ولم يلبث أن أخذ يتتلمذ للشيوخ وفى مقدمتهم ابن الجسور المتوفى سنة ٤٠٠ وعنه أخذ الحديث النبوى وتاريخ الطبرى وكان لايزال فى سن مبكرة. وكثيرا ما كان يرافق أباه فى مجلس وزارته ويستمع إلى مادحيه من الشعراء ويحفظ بعض أشعارهم، وكان أبوه لايزال يسكن الجانب الشرقىّ من قرطبة، حتى إذا بدأت الفتنة الكبرى سنة ٣٩٩ رأى أن يتحول عن دوره المحدثة فى هذا الجانب إلى دورهم القديمة فى الجانب الغربى من قرطبة، وكان الخليفة المؤيد هشام قد عُزل وأعيد سريعا، فاتهمه بمساعدته للثائرين ضده واعتقل وأُغرم إغراما ماليا فادحا، وتوفى سنة ٤٠٢.

وظل الفتى على فى هذه الأثناء يتابع دروسه على الشيوخ وقراءاته. ويتزوج من جارية له كَلِفَ بها تسمى نُعْما كانت غاية فى الحسن خَلْقا وخُلقا، ولم يلبث القدر أن فجعه فيها وهو دون العشرين فالتاع لوعة شديدة، حتى ليقول إنه أقام بعدها سبعة أشهر لا يتجرد

عن ثيابه حزنا عليها ولا تفتر له دمعة، ويقول إنه لم يطب له عيش بعدها. وكانت أحواله المادية قد تمادت فى السوء بعد وفاة أبيه ففارق قرطبة سنة ٤٠٤ إلى المرية عند حاكمها خيران أحد فتيان المنصور بن أبى عامر، ووُشى به إليه فاعتقله أشهرا ثم ردَّ إليه حريته فبارح المرية إلى حصن القصر وظل به أشهرا وغادره إلى بلنسية وأميريها مبارك والمظفر من فتيان العامريين، إذ سمع أنهما يشايعان أمويا بايعاه بالخلافة وتلقب بالمرتضى، فأسرع إليهما، ولم يلبث أن زحف معهما بالمرتضى إلى غرناطة للاستيلاء عليها سنة ٤٠٩ والانقضاض منها على قرطبة التى كانت قد أصبحت فى قبضة القاسم بن حمود. ولم يتحقق الحلم، فقد هُزم المظفر ومبارك وقتل المرتضى. وعاد ابن حزم إلى قرطبة، ورأى دورهم وأكثر دور الأمويين والعامريين أصبحت أطلالا دائرة فبكاها طويلا، وتفرغ لالتهام العلوم من لغوية ودينية وفلسفية. وفى سنة ٤١٤ تولى زمام الخلافة صديقه المستظهر الأموى فاتخذه وزيرا له مع خِدْنه ابن شهيد، وسرعان ما يقتل المستظهر بعد نحو شهر ونصف من خلافته، ويعتقل الخليفةُ الجديد المستكفى ابنَ حزم فترة، وتُرَدّ إليه سريعا حريته.

وعرف ابن حزم أنه لم يخلق للسياسة، ففارقها إلى غير مآب، وانقضَّ على المعارف من كل لون انقضاض الوحش على فريسته، بحيث أصبح أكبر عقل مفكر أهداه عصر أمراء الطوائف إلى الإسلام والعروبة، وفيه يقول ابن حيان: «كان حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وأدب مع المشاركة فى كثير من أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة» ويقول ابن بشكوال فى كتابه الصلة: «كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه فى علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار» ويقول ابنه الفضل: إن مجموع مؤلفاته فى الفقه والحديث والأصول والتاريخ والنحل والملل والنسب والأدب والرد على معارضيه نحو أربعمائة مجلد فى قريب من ثمانين ألف ورقة. وبدأ حياته مالكيا ثم انتقل إلى مذهب الشافعى فترة ثم تركه فى أوائل الثلاثينيات من عمره إلى مذهب داود الظاهرى، وتنقل فى مدن الأندلس يناضل عنه ويكتب فيه بحيث أصبح إمامه الحقيقى، كما كان يناضل عن الإسلام أرباب الملل من اليهود والنصارى. وتتعدد مؤلفاته تعددا واسعا، منها فى الفقه كتاب الإبطال فى مناقشة الأصول الخمسة عند الشافعية والحنفية وهى القياس والرأى والتعليل والاستحسان والتقليد محاولا نصرة مذهبه الظاهرى، وكتاب الإيصال فى فقه الحديث وفيه يورد أقوال الصحابة والتابعين فى مسائل الفقه مع بيان الحجة لكل رأى،

وكتاب المحلّى فى المذهب الشافعى، وكتاب مراتب الإجماع، وكتاب حِجّة الوداع. ومنها فى التاريخ جوامع السيرة النبوية وكتاب جمهرة الأنساب ورسالة نقط العروس ورسالة فضل الأندلس وهى تسجل ما لعلمائها وأدبائها من مصنفات وأعمال. ومنها فى المنطق كتاب التقريب لحدوده. ومنها فى تاريخ الأديان كتابه «الفصل فى الملل والأهواء والنحل» وهو به يعد واضع علم المقارنة بين الأديان الذى لم يعرفه الغرب إلا فى منتصف القرن التاسع عشر. وفيه يبين بأدلة دامغة كيف حُرِّفت الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى مبطلا لآرائهم العقيدية، ويعرض فى تفصيل لأركان العقيدة الدينية القويمة (عقيدة الإسلام) من التوحيد والإيمان والوعد والوعيد والقدر والإمامة، مما انتفع به فيها بعد توماس الإكوينى فى كتابه خلاصة علوم الدين. ومن كتبه النفيسة فى الأصول كتابه الإحكام فى أصول الأحكام» ومرّ بنا فى الفصل الثانى أنه أشار فى مقدمته إلى القرابة اللغوية بين العربية والسريانية والعبرية وأن العربية الشمالية العدنانية لغة مضر وربيعة تخالف العربية الجنوبية لغة حمير اليمنية. وبذلك يعد - كما أسلفنا - واضع الأساس لعلم فقه اللغة المقارن فى العربية كما وضع علم الأديان المقارن قبل أن تعرفها أوربا بقرون. ومن المؤكد أن كتبه كانت فى مقدمة الكتب التى عنيت مدرسة طليطلة منذ القرن الثالث عشر الميلادى بترجمتها إلى اللاتينية. وله رسائل كثيرة نشر منها الدكتور إحسان عباس طائفة، ومن أهم رسائله رسالته فى الأخلاق والسير ومداواة النفوس، وقد حققها الدكتور الطاهر مكى ونشرها بدار المعارف، وبها مبادئ تتصل بسيرته وسيرة الناس فى عصره، وفيها يصور الفضائل والرذائل الخلقية مضيفا إليها بعض اعترافات فى تواضع وإخلاص، ويبدو أنها مما ترجم من آثاره إلى اللاتينية، إذ نجد على مثالها أو قريبا منها مقالات فى الأخلاق لبيكون المعروف بصلته بترجمات طليطلة. وظل ابن حزم يطوف بمدن الأندلس ناشرا علمه ومذهبه الظاهرى فى الفقه، وله مناظرة مشهورة مع الفقيه المالكى أبى الوليد الباجى فى جزيرة ميورقة سنة ٤٥٢. وكان فقهاء المالكية لايزالون ينفرون من كتبه، مما جعل المعتضد بن عباد أمير إشبيلية يأمر بحرق طائفة منها لقصر نظره. ورأى بأخرة العودة إلى قرية آبائه منت ليشم، ويبدو أنه كان يعود إليها قبل ذلك كثيرا وبها توفى سنة ٤٥٦.

وكتابه طوق الحمامة فى الألفة والألاف ألفه فى سكناه بشاطبة سنة ٤١٨ أو ٤١٩ وموضوعه دراسة الحب العذرى ويستهل حديثه فيه بأن الحب ظاهرة إنسانية لم يسلم منها حاكم ولا محكوم، ويعرفه بأنه اتصال بين أجزاء النفوس فى الطبيعة الإنسانية فى أصل

عنصرها الرفيع ويريد به عالم النفوس العلوى قبل حلول النفوس فى الأجساد فى عالم الأرض السفلى. ويحدث هذا الاتصال حين يكون بين النفوس ائتلاف ومشاكلة فيكون الحب، أما إذا كان بينها انفصال وتباين فيكون البغض. والحب بذلك إنما يكون بين النفوس لا بين الأجسام. ويوزع ابن حزم كتابه على ثلاثين بابا، منها عشرة فى أصول الحب وعلاماته وصوره كمن أحب فى النوم أو بالوصف أو من نظرة واحدة أو مع المطاولة أو مع التعريض بالقول أو مع الإشارة بالعين أو بالمراسلة أو بالسفير والرسول. ومنها اثنا عشر بابا فى أعراض الحب المحمود والمذموم، وهى أبواب الصديق المساعد والوصل وطىّ السر والكشف أو الإذاعة والطاعة والمخالفة وحب صفة فى المحبوبة والقناعة والوفاء والغدر والضّنا والموت. ومنها ستة أبواب فى آفات الحب، وهى أبواب العاذل والرقيب والواشى والهجر والبين والسلو، ثم بابان فى قبح المعصية وفضل التعفف. وجميع هذه الأبواب تُعْرَضُ لا فى كلام نظرى بل من خلال الواقع والتجربة والمشاهدة أو بعبارة أدق من خلال اعترافات صريحة منتهى الصراحة لابن حزم ومعاصريه عن الحب دون أى مواربة أو خجل يحجبان الحقيقة، فالحقيقة دائمًا مكشوفة كالشمس. وفى تضاعيف ذلك ما لا يكاد يحصى من حقائق النفس فى الحب وترهاتها، مع أشعار لابن حزم تصور تلك الحقائق. وكأنه كان يريد بالكتاب تربية الفتاة والفتى بالأندلس موطنه ليكون حبهما حبًّا نقيًّا بريئًا من كل دنس. ومن اعترافاته عن نفسه فى الحب قوله فى باب السلو:

«وإنى لأخبرك عنى أنى أَلِفْتُ فى أيام صِباى أُلْفَةَ المحبة جاريةً نشأَتْ فى دارنا، وكانت فى ذلك الوقت بنت ستة عشر عاما، وكانت غايةً فى حُسْن وجهها وعقلها وعَفافها وطهارتها وخَفرها ودماثتها، عديمة الهزل، منيعة البذل، فقيدةَ الذّام[1]، قليلة الكلام، غضيضة البصر، شديدة الحذر، نَقيَّةً من العيوب، دائمة القُطوب[2]، حُلْوة الإعراض، مطبوعة الانقباض.. لا تقف المطامع عليها، ولا معرَّس[3] للأمل لديها.. على أنها كانت تُحْسِنُ العود إحسانا جيدا، فجَنَحْتُ إليها، وأحببتُها حبًّا مفرطا شديدا، فسعيتُ عامين أو نحوهما - أن تجيبنى بكلمة، وأسمع من فمها لفظة، غيرَ ما يقع فى الحديث الظاهر إلى كل سامع - بأبلغ السعى، فما وصلتُ إلى شىء من ذلك البتة فلعهدى بِمُصْطَنَع[4] كان فى دارنا.. تجمعتْ فيه دَخْلتنا[5] ودَخْلَةُ أخى: من النساء، ونساء فتياننا ومن لاث[6] بنا من خدمنا ممن يخفّ موضعه ويلطفُ محله، فلبثْنَ صدرا من

(١) الذام: العيب.
(٢) القطوب: العبوس.
(٣) معرَّس: مكان.
(٤) مصطنع: وليمة.
(٥) الدخلة: من يكثر دخولهم على قوم منهم أو ليسوا منهم.
(٦) لاث: اختلط.

النهار ثم تنقّلن إلى قَصَبةٍ[١] كانت في دارنا مُشْرفة على بستان الدار، ويُطّلع منها على قرطبة وفحوصها[٢] مفتّحةَ الأبواب، فصرنَ ينظرن من خلال الشراجيب[٣] وأنا بينهن. وإني لأذكر أني كنت أقصد نحو الباب الذي هي فيه، أُنْسًا بقربها، متعرِّضا للدنوّ منها، فما هي إلا أن تَراني في جِوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره مع لُطْف الحركة. فأتعمدُ أنا القصدَ إلى الباب الذي صارتْ إليه، فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزَّوال[٤] إلى غيره. وكانت قد علمتْ كَلَفِي بها، ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه، لأنهن كن عددا كثيرا، وكن ينتقلن من باب إلى باب بسبب الاطلاع من بعضِ الأبوابِ على جهات لا يطّلع من غيرها عليها. واعلم أن قيافة[٥] النساء فيمن يميلُ إليهن أنْفَذُ من قيافة مدلج[٦] في الآثار. ثم نزلنَ إلى البستان، فرغب عجائزُنا وكرائمنا إلى سيداتها في سماع غنائها، فأمرتْها، فأخذت العودَ، وسوَّتْه بِخَفَرٍ وخجلٍ لا عهد لي بمثله، وإن الشيء ليتضاعف حسنُه في عين مُسْتحسنه، ثم اندفعتْ تغنّي بأبيات للعباس بن الأحنف.. ولعمري لكأن المِضْرابَ كان يقع على قلبي، وما نسيت ذلك اليوم، ولا أنساه إلى يوم مُفارقتي الدنيا».

ويمضي ابن حزم فيذكر أن خطوبَ الفتنة الكبرى بقرطبة فرَّقت بينه وبين هذه الجارية إلى أن رآها بعد بضع سنوات في جنازة لبعض أهله باكية نادبة، فأثارت فيه وجدا دفينا وحركت ساكنا وذكَّرته عهدا قديما وحُبًّا تليدا ودهرا ماضيا وجدَّدت أحزانه، وما كان نَسِيَ، وزاد الشَّجا وتوقَّدت اللوعة. واضطُرَّ إلى فراق قرطبة سنة ٤٠٤ فغابت عن بصره نحو خمسة أعوام، وعاد فنزل على بعض أهله فرآها وما كاد يميِّزها فقد غاض الحسن وذهبت نضارتُها لفقدها الصيانة التي كانت لها في قَصْر أبيه وأيام عِزِّه، ويقول إنه مع ذلك لو أنالته أقلَّ وَصْلٍ وأنستْ له بعض الأنس لجُنَّ طربا أو لمات فرحا، غير أن هذا النفار منها هو الذي أتاح له الصبر والسُّلْوَى مع ما ظل يطْوى في نفسه من عذاب حبه وآلامه.

ويمثل هذا التصوير الواقعي القصصي الصريح المرسل في غير تكلف لسجع أو غير سجع يتحدث ابن حزم عن الحب العذري العفيف وتجاربه فيه وتجارب معاصريه وما له

---

(١) قصبة: غرفة أو غرف مشرفة في الدار.
(٢) فحوص قرطبة: ضواحيها
(٣) شراجيب: قوائم.
(٤) الزوال: التحول.
(٥) القيافة: المعرفة القائمة على التتبع.
(٦) مدلج في الآثار هنا: متعمق في تتبع الآثار.

من سلطان على النفوس وما يثير فيها من آلام وشكوك، وما له من ضحايا، وما يحدث فيه من العتاب والخصام والصلح والتواعد على اللقاء ومن الهجر والخداع والغدر والسلوان إلى غير ذلك مما يتعثر أهل الهوى فى شباكه. وفى حديثه عن السعادة بالوصل يقول إنه «الحياة المجدَّدة» ويقول الدكتور الطاهر مكى فى هامش تحقيقه للكتاب إن هذه العبارة لفتت عامة المستشرقين لأنها تتطابق مع نفس العنوان الذى اختاره دانتى الإيطالى (١٢٦٥ - ١٣٢١ م) لكتابه La Vita Nova الرائع، وهو على غرار طوق الحمامة، طاقة طريفة من أقاصيص الحب ومقطعات الشعر والتحليل النفسى الخلقى مما يؤكد معرفته بالطوق. ولا يشك آسين بلاسيوس - كما ذكر بالنثيا - فى معرفة دانتى بالتراث الأدبى الأندلسى، ويشير الدكتور الطاهر مكى أيضا فى هوامش الكتاب إلى تأثير بعض موضوعاته فى الروايات الإسبانية. ويذكر ابن حزم قصة فى باب «القنوع من المحبوب بأى شىء» عن امرأة فى صقلية شاهدت شابا فى غاية الجمال بأحد المتنزهات، فسارت خلفه تنظر إليه، فلما بَعُدَ أتت إلى المكان الذى أثر فيه مشيه وجعلت تقبل الأرض فى مواقع قدميه، ويقول بالنثيا إن شاعرهم الإسبانى المبدع «ماثياس» حاكى هذه القصة بنفس الصنيع. ويبدو أنه كان لطوق الحمامة ترجمة لاتينية مبكرة وأخرى إلى الإسبانية.

٦

كتابة التاريخ والتراجم الأدبية

(أ) المقتبس لابن حيان

هو أبو مروان[١] حيان بن خلف بن حيان، وقد وزر خلف للمنصور بن أبى عامر (٣٦٦ - ٣٩٢ هـ) وبعد وفاته وزر لابنه المظفر عبد الملك (٣٩٢ - ٣٩٩ هـ) وظل بقرطبة طوال اندلاع فتنتها (٣٩٩ - ٤٢٢ هـ). وتوفى سنة ٤٢٧. ورُزق بابنه حيان سنة ٣٧٧ وعنى بتربيته، ويذكر ابن بشكوال فى كتابه الصلة من شيوخه ثلاثة هم الفقيه المحدث عمر بن نابل واللغوى النحوى ابن أبى الحباب والعالم اللغوى المشهور صاعد البغدادى وجميعهم توفوا بين سنتى ٤٠٠ و٤٠٣ للهجرة، مما يدل على أن ابن حيان اكتملت له ثقافته وهو فى نحو العشرين، وكان منهوما بقراءة الكتب فعكف عليها يستوعبها وخاصة

---

(١) انظر فى ابن حيان وترجمته الذخيرة ٥٧٣/١ والجذوة: ١٨٨ والبغية رقم ٦٧٩ والصلة رقم ٣٤٢ وراجع دراسة د. محمود مكى فى مقدمة نشره لقطعة المقتبس الخاصة بعبد الرحمن بن الحكم الربضى وابنه محمد (طبع بيروت) وتاريخ الفكر الأندلسى لبالنثيا ص٢٠٨ وتاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس للدكتور حسين مؤنس (طبع مدريد) ص١٠١.

كتب التاريخ. وظل بعد وفاة أبيه لا يبرح قرطبة حتى وفاته سنة ٤٦٩ وليس بين أيدينا ما يدل على أنه عمل فى دواوين الدولة حتى نهاية عهد أبى الحزم جهور سنة ٤٣٥. ويبدو أنه كان له ولأبيه من قبله ما كفل لهما الحياة الكريمة، ونرى أبا الوليد حين يخلف أباه جهورا يلحقه بدواوينه ويفرض له راتبا واسعا. وذكر مترجموه أنه لُقِّب بلقب صاحب الشرطة، واستظهر الدكتور محمود مكى أن يكون هذا اللقب أسبغ عليه رسميا فقط دون أن يتولى القيام على الشرطة بقرطبة. وحين قسم أبو الوليد بن جهور الحكم فى إمارته قرطبة بين ولديه عبد الملك وعبد الرحمن، وجعل لعبد الملك أمر قرطبة نفسها، وكان سيء التدبير حاصره المأمون بن ذى النون أمير طليطلة، مما جعله يستنجد بالمعتمد بن عباد أمير إشبيلية، وانتهز المعتمد الفرصة فاستولى على تلك الإمارة سنة ٤٦٣ ونفى منها أبا الوليد وابنيه عبد الملك وعبد الرحمن كما مر بنا فى غير هذا الموضع، ونرى ابن حيان يهنئه بهذا الفتح، كما نراه يوثق علاقته بأبى بكر بن زيدون وزير المعتمد، وفى الذخيرة رسالة له يشكره فيها على ما أرسله إليه من القمح والزيت والدهن، وظلت العلاقة وثيقة بينهما إلى وفاة ابن حيان. ويذكر له الدكتور محمود مكى ثلاثة كتب تاريخية بجانب المقتبس هى:

١ - أخبار الدولة العامرية: دولة المنصور وابنيه المظفر عبد الملك والناصر.
٢ - كتاب المتين ويبتدئ بتاريخ الفتنة سنة ٣٩٩ إلى نحو سنة ٤٦٣.
٣ - وكتاب البطشة الكبرى وهو فى خلع المعتمد بن عباد لأبى الوليد بن جهور عن قرطبة ونفيه مع ولديه عبد الملك وعبد الرحمن إلى جزيرة شلطيش فى الجنوب الغربى للأندلس.

ونظن ظنا أن أخبار الدولة العامرية لم تكن كتابا مستقلا عن كتاب المتين، بل كانت أجزاؤه الأولى، وبالمثل كتاب البطشة الكبرى كان جزءا فى كتاب المتين، إذ يقال إنه كان فى ستين مجلدة. وكأن ابن حيان إنما كان له فى رأينا كتابان فى تاريخ الأندلس كتاب المقتبس وكتاب المتين، وقد سقط كتاب المتين من يد الزمن بسبب ضخامة حجمه، وفى كتاب الذخيرة والجزء الثالث من البيان المغرب لابن عذارى والمغرب لابن سعيد وكتب ابن الأبار نقول منه كثيرة. وبقيت من المقتبس خمس قطع أو قل خمسة أجزاء: جزء يضم إمارة الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) وشطرا من إمارة ابنه عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) وقد تملكه المستشرق بروفنسال ورجع إليه مرارا فى كتابه «تاريخ

إسبانيا الإسلامية» ومصير هذا الجزء بعد موت بروفنسال غير معروف. وجزء ثان يضم بقية إمارة عبد الرحمن الأوسط وابنه محمد (٢٣٨ - ٢٧٤ هـ) نشره الدكتور محمود مكى ببيروت. وجزء ثالث يضم إمارة عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠هـ) نشره الراهب ملتشور أنطونيا بباريس، ويعيد نشره الآن الدكتور مكي. وجزء رابع نُشر بمدريد باسم الجزء الخامس نشره شالميتا مستعينا بكورينطي وصبح، ويضم الشطر الأكبر من خلافة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠هـ). ثم جزء فى أحداث خمس سنوات من خلافة المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) نشره ببيروت الدكتور عبد الرحمن الحجي. ويتميز ابن حيان فى المقتبس بأنه يضم فى تاريخ كل حاكم أموى إلى الأحداث المرتبة على السنوات معلومات مهمة عن شخصية الحاكم والأحوال الاجتماعية والعمرانية والاقتصادية فى عهده مع تراجم مفصلة للوزراء فى أيامه وللقواد والقضاة والعلماء والكتاب والشعراء. وبذلك يجمع المقتبس تاريخ الأندلس الثقافى والاجتماعى والعمرانى والاقتصادى إلى تاريخها السياسى. ونذكر قطعة من حديث ابن حيان فى الجزء الخاص بالناصر عن غزوته لمدينة بنبلونة قاعدة مملكة نبارّة فى بلاد البَشْكُنْس.

«فى سنة اثنتى عشرة وثلاثمائة غَزَا الخليفة الناصر لدين الله إلى دار الحرب - دمَّرها الله - غَزْوته المعروفة بِبَنْبَلُونَةَ: بلد أعداء الله الكفرة البَشْكُنس. وسلك فى سفره هذا طريقَ الشرق، وتمنع من النزول إليه والغزو معه محمدُ بن عبد الرحمن، وكان بمدينة العَسْكر من أحْواز[١] بَلَنْسِيَة، فنازل حصونه ووَطِئ بساطه وأوقع به.. ودخل بجموعه بلادَ المشركين بَنْبَلُونَةَ بأنفذِ عزمٍ وأوْكد حَزْمٍ وأقوى نيَّة فى الانتقام لله تعالى ولدينه من الأرْجاس[٢] الكفرة واحتلَّ من أول بلدهم حصن قَلْهُرّة، وكان العِلْج شانجه[٣] أميرهم - لعنه الله - قد أخلاه فأمر بهدمه وإحراق جميع ما فيه. ثم انتقل منه إلى موضع يُعَرَف بقنطرة أَلْبَة وكانت حوله حصون منيعة قد أخلاها الكفرة، وخلَّفوا فى بَسائطها[٤] جميعَ أمتعتهم وأطعمتهم، إذ أُعْجلوا عن انتقالها ولجأ عُلوجٌ منهم بأهليهم وأولادهم إلى ثلاثة غِيران[٥] فى شفير جُرْف[٦] على النهر، فلم يزل المسلمون

---

(١) أحواز: نواحى.

(٢) الأرجاس جمع رجس: القذر.

(٣) العلج: الكافر الفظ. وشانجه: حاكم البشكنس (٢٩٣-٣١٤هـ).

(٤) بسائطها: أراضيها المبسوطة.

(٥) غيران جمع غار: المنخفض من الأرض.

(٦) شفير: جانب. جرف: شق الوادى.

يَتَوَقَّلون(١) إليهم فيها، ويَتَسَوَّرون (٢) عليهم من أعاليها، حتى فتح الله تلك الغِيران عليهم، فقتلوا العُلوج وسَبوا الذَّرارى وغنموا الأمتعة، وهُدِمَت حصون الكفَرة التى كانت فى تلك الجهة، فلم يبق فيها صَخْرة قائمة. ثم تنقَّل الناصر لدين الله من هذه المَحِلَّة(٣) بعد أن أقام فيها يوما إلى حِصْن فالجْش فأضرِمت نارا أرباضُه(٤) واستقصيت زروعه ونِعَمه بالنَّسف والاستئصال.. ثم اسْتَعْزَمَ على الإيغال فى بلد الكفرة والاقتحام لسَرَوَاته(٥) والتوصل إلى موضع قَرارهم ومجتمع كفارهم ونِكايتهم فى عُقْر(٦) دارهم ومكان أَمْنهم.. وأمر بتعبئة الكتائب وترتيب المقانب(٧) وشَكِّ(٨) العَسْكر.. وارتحل الناصر لدين الله بين أَجْبُل(٩) شامخة، وشواهقَ منقطعة، والجيوشُ لا تمرُّ بموضع إلا اصْطَلَمَتْه(١٠) وَنَسَفت زروعَه، وأفسدتْ ما لم يَسْتوف أُكُلَه وهدمتْ قُراه وحُصونه، إلى أن بلغ مدينة بَنْبلونة التى إليها يُنْسَبُ الإقليم، فأصابها خاليةً مُقْفِرة، فدخلها الناصرُ لدين الله بنفسه وجال فى ساحاتها وأمر بهدم جميع مبَانيها وتخريب كنيسةِ الكفرة المعظَّمة وموضع بِيعتهم(١١) ومكانَ مَنْسكهم فجُمِعت الأيدى عليها، حتى جُعلت قاعًا صَفْصَفًا.(١٢) وتنقل الناصر لدين الله، وكان فى مِمرِّه فجٌّ(١٣) ضيق المسالك وَعْرُ المجاز.. وتظاهر(١٤) أعداءُ الله لأهل الساقة(١٥) مُتَسنِّمين(١٦) فى جبل شاهق، ملتمسين الفرصة، فنهضت الخيلُ إليهم سريعا، فكشفتهم وهزمتهم، وقتلتْ طائفة منهم، فانْقَشَعُوا(١٧) مُدْبرين لاثنين لا يلْوُون ولا يعرِّجون، وتقدَّم المسلمون بعِزَّة القَهْر وسَوْرَة(١٨) النصر».

وبهذا الأسلوب الأدبى الخافق بالحيوية البارع فى تصوير المواقع الحربية يمضى ابن حيان فى المقتبس وغيره من كتبه التاريخية، وكأنه يستمد من معين لغوى وأدبى لا ينضب،

---

(١) يتوقلون إليهم: يأتونهم من الأعالى.
(٢) يتسورون: يتسلقون.
(٣) المحلة: الموضع.
(٤) الأرباض جمع ربض: ما حول الحصن أو المدينة.
(٥) سروات البلاد: أوساطها وأعاليها.
(٦) عقر دارهم: وسطها.
(٧) المقانب جمع مقنب: جماعة الفرسان.
(٨) شك العسكر: حمله للسلاح.
(٩) أجبل: جمع جبل.
(١٠) اصطلمته: استأصلته.
(١١) بيعتهم بكسر الباء: معبدهم.
(١٢) صفصفا: لا نبات فيه.
(١٣) فج: طريق.
(١٤) تظاهر: تجمّع.
(١٥) الساقة: مؤخرة الجيش.
(١٦) متسنمين: معتلين ومختفين.
(١٧) انقشعوا: انسحبوا وتفرقوا.
(١٨) سورة هنا: مجد.

معين يرفده بكل ما يريد من كلم ومن صور دالّة بحيث يستوى له نسق أسلوب محكم بألفاظه التى يرصفها فى يُسْر متلاحقة بجزالتها ورصانتها ونصاعتها وأى نَصاعة؟ لكأنما كانت الألفاظ مختبئة فى أكمامها اللغوية الأدبية، حتى جاء ابن حَيَّان، فتفتحت له أكمامها وانقادت إليه مهيَّئة له هذه الرَّوْعَةَ فى اختيارها ونَسْج تعبيراتها مع الرونق الذى يلذ العقل والشعور، وهو رونق لا يستعين عليه بشىء من تزاويق المحسنات البديعية التى أخذ يصطنعها بعض كُتاب عصره، ولا شىء من السجع إلا ما جاء عفوا، مثله فى ذلك مثل ابن شهيد وابن حزم ولا إفراط فى السرد التاريخى ولا تفريط، بل سرد مقتصد يؤدى المعانى بدقة، مع إحكام التصوير النفسى والاجتماعى لمن يترجم لهم من الأمراء والوزراء والقضاة وأصحاب المناصب الرفيعة والنساء والجوارى. ودائما يذكر بجانب محاسن الشخصية ومناقبها ما قد سُجِّل عليها من معايب ومساوئ. وكثيرا ما يسوق قصصا ممتعة تتممُ ملامح الشخصية أو تخفِّف عن القارئ جَفاف التاريخ على نحو ما يلقانا فى الصفحات الأولى من الجزء الخاص بالناصر وحديثه فى مطلعه عن حَظِيَّته مرجان أم ولى عهده المستنصر وكيف سَلَبَتْهُ من ابنة عمه الحرَّة وأوقعتها فى شِباك سُخْطه بدهائها ومكرها حتى منتهى حياتها. وهى قصة طريفة بما تصور من مكر النساء وكَيْدهن وما يتخذن لذلك من بعض الحيل الخادعة. وفى الحق أن كتابات ابن حيان فى المقتبس وغيره طرازٌ من الكتابة التاريخية الأدبية لا مثيل له قبله ولا بعده.

(ب) الذخيرة لابن بسام

هو أبو الحسن على[1] بن بسام التَّغلبى الشنترينى من شَنْتَرين فى أقصى الغرب على نهر تاجُه بالقرب من مصبه فى المحيط الأطلسى عند أشْبونة، وُلد بها قبيل سنة ٤٦٠ لأسرة على شىء من اليسار، وعُنى بتربيته أبوه، وتفتحت موهبته الأدبية مبكرة، ونراه فى صحبة مَنْ ببلدته من الأدباء ومَنْ يحيطون بالمتوكل أمير بطليوس عاصمة إقليمه

---

(١) انظر فى ابن بسام وترجمته رايات المبرزين لابن سعيد (طبع القاهرة) ص ٤٥ وكتابه المغرب ٤١٧/١ ومعجم الأدباء ٢٧٥/١٢ وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٠٨/٦ ومقدمته لكتابه الذخيرة وراجعْه فى محاورته مع ابن عبدون ١٤٤/١ وفى لقائه لابن الدودين ٧٠٣/٣ وفى عمله بدواوين إشبيلية ٢٠/٤ وفى ابتداء تأليفه للذخيرة ٦٥٤/٣ وفى أثناء تحريره لها ٤٥٢/٢ و٧٨٧/٣ و٧/٤ وانظر إحكام صنعة الكلام للكلاعى (تحقيق رضوان الداية) ص ١٣٣ إذ يذكر إرسال ابن خفاجة له طائفة كبيرة من شعره ونثره. وقد حقق الدكتور إحسان عباس الذخيرة ونشرها نشرة علمية محققة فى ثمانية أجزاء.

والوافدين عليه الملمين به مثل الشاعر ابن عبدون، وله معهم مطارحات. وينزل أُشْبونة سنة ٤٧٧ ويلتقي بأديبها ابن الدودين ويكتب عنه طائفة من نظمه ونثره، مما يدل على أنه أخذ يشغف بالتعرف على أدباء موطنه منذ شبابه وتدوين بعض أشعارهم ورسائلهم. وأكثرَ نصارى الشمال من الإغارة على بلدته، مما جعله يهاجر منها - كما ذكر فى مقدمته للذخيرة - مروَّع السِّرب، بعد أن استنفد الطريف والتِّلاد، مما اضطره إلى التقلب فى البلاد. ولم يتجه إلى عاصمة إقليمه بطليوس، وإنما اتجه إلى إشبيلية عاصمة بنى عباد، وبها كان أكبر حشد حافل بالأندلس حينئذ من الكتاب والشعراء، ويقول ابن سعيد فى كتابه الرايات إنه اتخذها موطنا له، ويذكر ابن بسام إنه خدم فى بعض أعمالها السلطانية، ولعله بدأ ذلك بأخرة من عهد المعتمد بن عباد. ولم يلبث أن أظله فيها عهد المرابطين وأميرها ابن أخى يوسف بن تاشفين الذى مهد له سلطانه على الأندلس: سير بن أبى بكر، وقد ظل يلى إشبيلية - فيما يقال - سبعة وعشرين عاما. ويشيد ابن بسَّام فى مقدمته للذخيرة بعهده وبما أسبغ عليه وعلى الأدباء من العطاء الوفر، ولم يسمِّه، ولكن من الواضح أن هذا الثناء المستطاب على من خلف فى حكم إشبيلية والبلاد إنما يريد به سير بن أبى بكر. ويقول إنه قدَّم إلى حضرته الذخيرة مطرِّزا لها باسمه حتى تجوب به الآفاق. ويبدو أنه كان يترك إشبيلية فترات، ثم يعود إليها من حين إلى حين كما يبدو أنه استعفى من الأعمال السلطانية منذ أخذ يجمع عزمه على تحرير الذخيرة مكتفيا بما كان يغدقه عليه الكتاب والشعراء ممن يريدون أن يحظوا بشرف ذكرهم فيها وما وفَّره من بيع نسخها أو إهدائها لهواة الأدب ومحبيه، ولا شك فى أن سير بن أبى بكر أعطاه فى نسخته مبلغا ضخما من المال، أكبر الظن أنه كفل له عيشة طيبة إلى أن توفى سنة ٥٤٢ للهجرة.

وكتاب الذخيرة حققه الدكتور إحسان عباس فى ثمانية مجلدات، وقد ترجم فيه ابن بسام لشعراء عصر أمراء الطوائف وأوائل عصر المرابطين وكتَّابها ترجمات ضافية، وشفع ذلك بأخبار سياسية واجتماعية عن الأمراء والحكام وأهل الأندلس ومعاركهم مع نصارى الشمال. وقسم الكتاب أربعة أقسام: قسم لقرطبة وما يصاقبها من مَوْسَطة الأندلس، وقسم لإشبيلية وأهل الجانب الغربى حتى ساحل البحر المحيط، وقسم لأهل الجانب الشرقى من دانية وبلنسية إلى الثغر الأعلى، ثم قسم رابع خاص بالوافدين على جزيرة الأندلس من المشرق والبلاد المغربية. وهو حين يعرض كاتبا أو شاعرا أو أميرا أو وزيرا لا يكتفى بكلمات مجملة أو مقتطفات شعرية ونثرية قليلة بل يعمد إلى التفصيل وذكر الدقائق مستعينا بمؤرخ عصر الطوائف ابن حيان فى كتابه المتين وبقدرة تحليلية.

وبيانية على حشد كل ما يجلو ملامح من يتحدث عنهم من الأدباء ورجال السياسة والحكم، وهو بذلك يختلف اختلافا بينا عن الثعالبى فى يتيمته والعماد الأصبهانى فى خريدته، إذ لا يرصف حشودا من الثناء والإطراء لا تكشف شخصية من يكتب عنه كما يصنعان، بل يجلو شخصيته جلاء تاما، على الرغم من أنه يعتمد فى كتابه على السجع مثلهما، غير أنه سجع لا يستر حقائق الشخصية، بل يعرضها فى ضياء غامر، ولنضرب لذلك مثالا، هو ترجمته للشاعر أبى عبد الله بن الحداد الذى مرت ترجمته بين شعراء المديح وهو يفتتحها على هذه الشاكلة[١]:

«كان أبو عبد الله هذا شمسَ ظَهيرةٍ، وبحرَ خَبرٍ وسِيرةٍ، وديوانَ تعاليمَ مشهورة، وضَح في طريق المعارف وضوح الصُّبْح المتهلِّل، وضَرَب فيها بقِدْح ابن مُقْبل[٢] إلى جلالةِ مَقْطَعٍ، وأصالة مَنْزَعٍ، ترى العلم يَنِمُّ على أشعاره، ويتبيَّن فى منازعه وآثاره، وله فى العَروض تأليف، وتصنيف مشهور معروف، مزَج فيه بين الأنحاء الموسيقية، والآراء الخِليليَّة، وردَّ فيه على السَّرَقُسْطِيّ المنبوز بالحمار[٣]، ونقض كلامه فيما تكلم عليه من الأشطار. وأصل أبى عبد الله من وادى آش إلا أنه استوطن المَرِيَّة أكثرَ عمره، وفى بنى صُمادح معظمُ شعره، ومع ذلك طُولِبَ عندهم هنالك، ولِحَقَ بثغر بنى هود، وله فيهم أيضا غيرُ ما قصيد، وهو القائل بعد خروجه من المَرِيَّة من قطعة فَلْسفية:

لزمتُ قناعتى وقعدتُ عنهمْ	فلستُ أرى الوزيرَ ولا الأسيرا
وكنتُ سَميرَ أشعارى سَفاهًا	فعـدتُ لفَلْسَفِيَّاتى سَمِيــرا

وكان قد مُنِيَ فى صباه بصبيَّة نصرانية ذهبتْ بلُبِّه كلَّ مذهب، وركبَ إليها أصعبَ مَرْكب، فصرف نحوها وَجْهَ رضاه، وحكَّمها فى رأيه وهَواه، وكان يسمِّيها نُوَيرة كما فَعَل الشعراءُ الظرفاء قديما فى الكناية عمنْ أحبوه، وتغيير اسمِ مَنْ عَلِقوه. وقد كتبت فى هذا الفصل بعض ما قاله فيها من مُلَحه، وروائق أوصافه ومِدَحِه، وبعض سائر شعره، بعد تقديم فصول من نثره ما يُقِرُّ بتفضيله، ويشهد له بجملة الاحسان وتَفْصيله».

والتعريف بابن الحداد مثل بقية الذخيرة مسجوع، والسجع فيها دائما لا يبهم شخصيات الشعراء والكتاب بل يوضحها توضيحا تاما على نحو ما نرى الآن فى السجع

---

(١) الذخيرة ٦٩١/١.

(٢) قدح ابن مقبل: سهم فائز من سهام الميسر.

(٣) هو سعيد بن فتحون وانظره فى الجذوة ٢١٦ والذيل والتكملة ٤٠/٤.

الذى قدَّم به ابنَ الحداد، إذ يجلو ملامحه وثقافته جلاء تاما، فهو عربى الأصل من قيس، وكان مثقفا ثقافة واسعة بالفلسفة وما يتصل بها من علوم الأوائل وتنم عن ذلك أشعاره، وله فى علم العروض كتاب ردَّ فيه على الفيلسوف السرقسطى الملقب بالحمار محتجا للخليل بن أحمد واضع هذا العلم بما ذكره عن الأعاريض المهملة وقد ألممنا بذلك فى ترجمة ابن الحداد. ويَذْكر أن مسقط رأسه مدينة وادى آش إلى الشمال الشرقى من غرناطة وأنه استوطن المرية، وعاش بها سنوات متوالية يمدح بنى صمادح أمراءها، وأنه حدث ما عكر صفو علاقته بأميرها المعتصم وسيذكر فيها بعد بالترجمة أنه اعتقل أخاه سنة ٤٦١. ويقول إنه ولَّى وجهه إلى بنى هود بسرقسطة، ويذكر فيها بعد بالترجمة أنه عاد ثانية إلى المرية «وحسن بَعْدُ بها مَثْواه، وأكرمه المعتصم وأجزل قِراه» وظل بالمرية إلى أن توفى بها سنة ٤٨٠. ويعرض علينا فى الترجمة قطعة كبيرة من نثره ورسائله، ثم يعرض علينا طرائف من شعره، ويقتطف من غزله بُنَوَيْرَةَ قطعة بديعة ويقول إن اسمها الحقيقى جميلة، وكأن أهلها سموها باسم عربى، ثم يذكر مقتطفات من مدائحه فى المعتصم بن صمادح منذ سنة ٤٥٥، ولا يتجلى لنا ذوقه الأدبى فى جمال اختياراته من شعر ابن الحداد فحسب، بل أيضا تتجلَّى لنا قدرته النقدية إذ يَرُدُّ بيتا لابن الحداد إلى أصله عند المعرى، ويقول إن النابغةَ الذُّبيانى سبق المعرى إلى معناه وإن عبد الجليل بن وَهْبون الشاعر يشترك مع ابن الحداد فيه ويذكر لأبى وَجْزَةَ السَّعْدى الأموى بيتا يتعلق بالمعنى. ويُنْشد لابن الحداد قصيدة ثانية ويلاحظ صلةً بين بيت له وبيتين للمتنبى ويذكر أن المتنبى ألمَّ فى بيتيه ببيتين لمسلم بن الوليد وأن مسلما مسبوق فى بيتيه ببيتين للنُّمرىّ. وتلقانا مثل هذه التعليقات النقدية فى الذخيرة مرارا وتكرارا. وأشار ابن الحداد فى مدحة للمعتصم إلى قصة القارظين فى الجاهلية فاستطرد ابن بسام يقصها استرواحا للقارئ. وبذلك تكاملت ترجمة ابن الحداد سواء فى سيرته وحبه فى مطالع شبابه لنويرة أو فى ثقافته أو فى نثره أو فى شعره وطرائفه وبدائعه فى مديح المعتصم والمقتدر بن هود.

ويقول ابن بسام فى القسم الأول بحديثه عن أشعار بنى الطبنى (٥٤٤/١) إنه صان كتابه عن ذكر الهجاء المقذع إلا أن يكون من مليح التعريض، وكأنه أراد به مَنْحىً أخلاقيا وإن لم يطبقه بدقة أحيانا. ويمتزج هذا المنحى عنده بمنحى دينى إذ نراه فى القسم الثانى بترجمته للشاعر ابن وهبون (٤٧٨/٢) يحمل على الشعر الفلسفى المتأثر بمنزع المتنبى وأبى العلاء، وهو تشدد أكثر مما ينبغى. وبحقٍّ حمل فى القسم الأول بترجمة الوزير ابن الشماخ (٨٤١/١) على الاستعارات البعيدة التى يمجُّها الذوق كأن يجعل شاعر

للكلام كيسًا يحلُّ عُقَده، ويجعل شاعر تان للبَلْوَى بَرَصًا ويجعل شاعر ثالث للمهابة فأسًا. وكان له ذوق أدبى مصفًّى أحال به الذخيرة إلى متحف رائع يموج بالاستعارات والأخيلة المبتكرة ولُمَع البديع الرائعة بل إنه يموج بفرائد لا تحصى للأندلسيين من الشعر والنثر، ويكفى أنهم يبلغون فى الكتاب أكثر من تسعين بين شاعر وكاتب، ولم يكد ابن بسام يترك لأحدهم عملا أدبيا أبدع فيه إلا عرضه حتى يصور بدقة ما ذكره فى مقدمة الكتاب من تفوق الأندلس فى الأدب وأنها منه فى الأفق الأعلى.

وفى الحق أنه لولا الذخيرة لظل الأدب الأندلسى بروائعه الباهرة شعرا ونثرا محجوبا عن الباحثين ولما استطاع أحد أن يكتب تاريخه. وذكر ابن بسام فى بعض الصحف أنه ابتدأ تحرير الذخيرة بقرطبة سنة ٤٩٣ وقال إنه كان لا يزال معنيا بتحريرها سنة ٥٠٠ وأنه بدأ الكتابة فى قسمها الرابع سنة ٥٠٢ ويبدو أنه كان لا يزال يعيد النظر فى بعض فصولها، إذ نراه فى ترجمته للكاتب ابن أبى الخصال يذكر أنه لم يجد لديه فى سنة ٥٠٣ شيئا من ترسله، فسأل بعض إخوانه أن يخاطبه ليرسل إليه بعض نماذج من أدبه. وبدون ريب اقتضت الذخيرة من ابن بسام جهودا مضنية فى سنين متطاولة، وهى جهود تنوء بها العصبة أولو القوة.

مذكرات عبد الله بن بُلُقِّين

هو عبد الله[1] بن بُلُقِّين بن حَبُوس بن ماكسن بن زيرى الصنهاجي القيروانى آخر أمراء بنى زيري لعهد الطوائف. شاد لهم هذه الإمارة بغرناطة وإلبيرة زاوى بن زيرى فى زمن الفتنة، وظل يلى شئونها حتى سنة ٤١٠ وخلفه ابن أخيه حبوس بن ماكسن حتى سنة ٤٢٩ وقام عليها بعده ابنه باديس حتى وفاته سنة ٤٦٥ وورثها بعده ابن أخيه عبد الله بن بلقين وهو فى الثامنة من عمره، وحاز حظا من العربية والثقافة غير أنه لم يكن على نصيب من السياسة والمهارة فى تدبير الحكم، فاتخذ وزراء أغمارا غير مجربين مثل سِماجة الصنهاجى، ويقول ابن الصيرفى المؤرخ إنه كان جبانا هيَّابة مغمد السيف، فكان طبيعيا أن ترتعد فرائصه كلما ذكر ألفونس السادس أمير قشتالة، وقد فرض عليه

---

(١) انظر فى عبد الله بن بلقين المغرب ١٠٨/٢ وأعمال الأعلام لابن الخطيب (طبعة بروفنسال) ٢٣٣/٢ وما بعدها والإحاطة ٣٧٩/٣ وتاريخ ابن خلدون ١٦١/٤ والبيان المغرب لابن عذارى، ومذكرات الأمير عبد الله منشورة بدار المعارف فى القاهرة.

عشرة آلاف دينار يدفعها سنويا. وكان طبيعيا أن يهلل لعبور يوسف بن تاشفين أمير المرابطين بجنوده إلى الأندلس ومواقعته ألفونس فى الزلاقة وسحقه لجيشه سحقا كاد لا يبقى منه ولا يذر. وعاد يوسف إلى المغرب، وعاد أمراء الأندلس إلى المنافسات فيما بينهم ومدّ أيديهم إلى ألفونس السادس، كلٌ يستعديه على أخيه، واستغاث الفقهاء فى الأندلس ثانية بيوسف. وأخذ المعتمد بن عباد أمير إشبيلية وعبد الله بن بلقين وغيرهما يحاولون استصراخ ألفونس خشية أن يفكر يوسف فى عزلهم وضم الأندلس إلى سلطانه. وعرف يوسف ما يبيّتون وخشى على الأندلس من الضياع، فعبر إليها سنة ٤٨٣ وبدأ بغرناطة وأميرها عبد الله بن بُلُقِّين، وكان لا يزال يعد جيشه للقاء يوسف كما كان يفاوض ألفونس ويرسل إليه هدايا نفيسة ويطمعه بأموال كثيرة ليمد له يد العون، ونصحه خلصاؤه أن يلقى ابن تاشفين وكان قد أصبح على مسافة فرسخين من غرناطة، فلقيه مترجّلا مرحّبا سائلا العفو، فأمّنه على نفسه وأهله وطيّبَ خاطره، وصودر كل ما كان بالقصر وكل ما ملك عبد الله وأمه من أموال. وأمر يوسف بتوزيع كل ذلك على قواده ولم يستأثر منه بشىء. ونفى عبد الله إلى المغرب الأقصى مع مشيّعين يؤنسونه فى الطريق ويتكفّلون أموره، وكتب إليه يوسف: «لا أنساك ما بقيت» وأنزله بأغمات، وأسعفه - كما يقول ابن الخطيب - فى رغباته، فعاش معيشة كريمة، ورُزق ولدين وبنتا، وترك لهم - حين توفّى - مالا جمّا.

وكتب عبد الله فى أثناء منفاه بأغمات كتابا باسم «التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى فى غرناطة» وكانت قد حُفظت منه نسخة تنقص بعض الأوراق، فنشرها المستشرق بروفنسال باسم «مذكرات الأمير عبد الله». وهو فى الفصول الأولى من الكتاب يحكى مَقْدَم بنى زيرى الإفريقيين أو التونسيين إلى الأندلس وتأسيس زاوى بن زيرى لإمارتهم فى غرناطة وتدبير حبوس بن ماكسن بعده فى تنظيم حكمها وإدارته وميراث ابنه باديس الإمارة بعده واستيلاءه على مالقة وتفويضه شئون الحكم إلى وزيره اليهودى ابن النغريلة وازدياد نفوذ النساء فى القصر ومؤامرات ابن النغريلة وإفساده الحكم وقتل صنهاجة له واستيلاء باديس على جيان. ثم تتعاقب ثمانية فصول فى الحديث عن إمارته، وفيها يتحول الكتاب إلى مذكرات حقيقية، مستهلا لها بالحديث عن أحداث الأندلس وتمزقها أمام ألفونس السادس وغاراته المتلاحقة على غرناطة وغيرها مما أدى إلى استيلائه على طليطلة سنة ٤٧٨ ثم ما كان من استصراخ الأمراء والسفارات لابن تاشفين وعبوره إلى الأندلس واشتراك الأمير عبد الله فى موقعة الزلاقة معه مجاهدا بماله

وجنوده، ورجوع يوسف إلى المغرب واضطراره إلى العودة، ومبارحة الأندلس وعودة أمرائها إلى الخلاف. ويحاول أن يبرر نقضه لما عاهد عليه ابن تاشفين وأخذه فى اختزان الأقوات وبناء الأسوار وإعلاء الأبراج استعدادا لمنازلته وحربه، والسوءة الكبرى أنه عقد معاهدة مع ألفونس السادس التزم فيها بأداء الجزية له سنويا، ويقول إن ابن تاشفين علم بجميع ما صنع، فأرسل إليه يهدده وكتب إليه عبد الله يبرر مسلكه، ويعرض بعض الأحداث فى إمارته وبعض الشئون الشخصية والأحوال الاجتماعية. ويفصّل الحديث فى عبور ابن تاشفين إلى الأندلس سنة ٤٨٣ للمّ شعثها ويصور مثول جيشه أمام غرناطة وأحوالها وانصراف الناس والجند عنه واضطراره إلى التسليم وما كان من نفيه إلى المغرب الأقصى ومن عزل بقية أمراء الطوائف. وينهى المذكرات بطائفة من تأملاته وأحاديث عن نفسه وعن أولاده. والمذكرات طرفة نفيسة بما تصور من الانحلال السياسى والاجتماعى والأخلاقى فى الأندلس زمن أمراء الطوائف مما أدى إلى سقوط طليطلة فى حجر ألفونس السادس وخنوع أمرائها له وانعكاس الموقف السياسى والحربى فلم يعد نصارى الشمال يؤدون الجزية لحكام الأندلس كما كان الشأن فى العصر الأموى، بل أصبح حكام الأندلس وأمراؤها يؤدون الجزية لألفونس، وأوشكت الأندلس جميعها أن تسقط فى حجره لولا أن تداركها ابن تاشفين فقلَّم أظفار ألفونس فى الزلاقة وردُّه إلى وكره خاسئا مدحورا. ولا تصور المذكرات الانحلال الذى عمَّ الأندلس فحسب، بل تصور أيضا غرناطة وجميع أحوالها فى عهد بنى زيرى وخاصة فى عهد أميرها عبد الله، كما تصور فساد حكمه ومنازعاته مع جيرانه ومحاولاته فى التواطىء المزرى مع ألفونس السادس أمير قشتالة عدوه ضد ابن تاشفين منقذ الأندلس من براثنه. وعبثا يحاول تبرير فساد سياسته التى أدت إلى ضياع إمارته وعزله، ونفيه إلى أغمات. ومع نفاسة هذه المذكرات عبثت بها يد بروفنسال محققها إذ لم يكن يحسن العربية فامتلأت بتصحيفات لا تكاد فى أحوال كثيرة توجد بينها مسافات فى السطور والكلمات. ونسوق من المذكرات قطعة من حديث عبد الله عن أهل غرناطة حين اقترب منها ابن تاشفين وانفضاض كل من فيها من الجند والناس عنه حتى العبيد من الصقالبة وغيرهم وحتى الخدم من النساء والغلمان. يقول[1]:

«أما الجندُ من البَرْبَر فكانوا مغتبطين بهم (بالمغاربة) طامعين فى الزيادة على أيديهم

---

(١) المذكرات ص ١٥ وصححنا النصّ فى غير موضع.

لِلجنسية، واتفق رأيهم على أن لا يلقوه بجَحدْ[١] وقدموا كتبهم بالطاعة، وراجعهم عليها، يعدهم بأن يبقيهم فى أماكنهم على أفضل ما كانوا عليه.. وأما مَنْ كان من التجار وأهل البلد فكانوا على نيَّة أنهم مع من انتصر ولا طاقة لهم بالحرب، ولا هُمْ أهلها. وأكثرهم خرج من البلدة يقول: «لأى وجه نَحْتمل الحصار؟ تاجر هنا أو صانع،كما فى غيرها. وأما الرعية فبخٍ بخ، ذلك ما كانت تبغى طمعا منها فى الحرية وأنها لا يلزمها غيرُ الزكاة والعُشْرِ. وأما العبيد والصقالبة، فالعبيد الأعلاج (الأفظاظ) أول من عصا، رجوا أن يكونوا عنده فى أعلى مرتبة. حتى الخدم من النساء والخِصْيان كلٌ طامع فى إقبال الدنيا عليه والخروج عن ثِقاف (قيد) القصر إلى راحة التسريح والاستهتار بالرجال وما أشبه ذلك. وجعفر الخصيُّ منهم ولبيبٌ كانا زعيمى المداخلة ورُأَسا الفَتْك. يقولان: «نحن لا ولد لنا ولا تالد[٢]» فعلى أى شىء نصير[٣] إلى القتال؟ وما عسى نطمعُ إن نَصِرْ إليه؟ هل تحصل لنا سلطنَة أو قيادةٌ أو قضاءٌ أو فقه؟ إنما نحن بمنزلة العِيال. من سبق[٤] استمتعَ بنا وكنا عنده من جملة الفَيْىء، نُرْزَقُ كسائر الكَسْب. فلا نضيع، تعالوا بنا نقدِّم لأنفسنا. ووردتْ عليهم كتبُ أمير المسلمين بالإنْزالات القوِّية والمثاقيل والمراتب العالية، يَعِدهم بذلك عند إكمال حاجته وإسلامهم[٥] له».

وعبد الله يقول إن جيشه وهو من البربر اغتبط بالمرابطين لأنهم بربر مغاربة مثله، ولما رجوا من زيادة رواتبهم، لذلك قرروا أن لا يلقوا ابن تاشفين بإنكار لصنيعه وما كان من إنقاذه للأندلس، وأرسلوا إليه يعلنون طاعتهم، فكتب إليهم برضاه عنهم وأنه مبقيهم فى أماكنهم وزائدهم فى رواتبهم. وأما التجار والصناع فهم مع من انتصر، وأما الرعية فابتهجت بمقدم ابن تاشفين، لما كان يثقل عليهم عبد الله من ضرائب متنوعة تارة باسم ألفونس السادس وتارة باسم حاجة الجيش والدولة بجانب زكاة العين وعشر الزرع. وفعلا بمجرد أن استسلم عبد الله لابن تاشفين أسقط عن الرعية تلك الضرائب مكتفيا بزكاة العين وعُشْر الزرع. وانفض عن عبد الله سريعا العبيد والصقالبة آملين أن يجدوا عند ابن تاشفين مرتبة أعلى، ومثلهم الخدم من النساء والخصيان طامعين فى إقبال الدنيا عليهم. ويصور موقف الخصيان على لسان خَصِيين كبيرين، قالا إننا لا نعد أنفسنا شيئا إنما نحن لمن غلب، وأرسلا هما وأضرابهما الكتب إلى ابن تاشفين، وردَّ عليهم بأنه

---

(١) فى الأصل: بحجر. جحد: نكران للحق.

(٢) فى الأصل: تلد. والتالد: القديم والموروث من المال.

(٣) فى الأصل: نصبر.

(٤) يريد: انتصر.

(٥) فى الأصل: وإسلامهم لنا.

سيعطيهم ما أملوه من مثاقيل الدراهم والرواتب والمراتب العالية. وهكذا تلفت عبد الله حوله فلم يجد له ناصرا، مما جعله يسارع إلى تسليم نفسه لابن تاشفين. والمذكرات تمضى على هذه الشاكلة فى لغة بسيطة لا سجع فيها ولا تكلف إلا ما دخلها من تصحيفات، ويقول محققها إنه نقلها عن نسخة محفوظة بجامع القرويين بفاس، وحرى أن يعيد نشرها محقق من أبناء الضاد يتقن العربية وقراءة خطها الأندلسى.

قصة[1] حى بن يقظان لابن طفيل

مر بنا فى الفصل الثانى تعريف قصير بابن طفيل بين فلاسفة الأندلس مع ذكر أهم المصادر لترجمته. وهو فى الذروة من الفكر الأندلسى، عاش فى القرن السادس الهجرى (٥٠٦ - ٥٨١ هـ) ونريد الآن أن نفصل الحديث فى قصة أدبية فلسفية قيِّمة له هى قصة حىّ بن يقظان، وهى قصة فلسفية صوفية تثبت أنه لا تقاطع بين العقل والشريعة أو الفلسفة والدين، وهو فيها يحكى بالتفصيل قصة حى ونشأته فى جزيرة مهجورة من جزر الهند تحت خط الاستواء، ويقول إنه اختلف فى تكوينه، فقيل إنه تولد - دون أم وأب - من طينة تخمَّرت بالجزيرة على مر السنين، وقيل إنه ابن أميرة جميلة كانت شقيقة لملك يمتلىء بالغيرة والأنفة منعها من الزواج بحجة أنه لا يجد لها زوجا كُفْئًا، فتزوجت سرا من قريب لها يسمى «يقظان»، وحملت منه بجنين، ولما وضعته خشيت أن ينكشف سرها، فوضعته فى تابوت أحكمت إغلاقه، واستودعته أمواج اليم، فألقت به فى تلك الجزيرة وسمعت صياحه ظبية فقدت وليدها، فعطفت عليه، وظلت ترضعه وصارت له كأمه، ونما الطفل العريان وأخذ يتحول تدريجا إلى معرفة كل ما حوله. وتنتقل به ابن طفيل من المهد إلى الصبا إلى الشباب، وهو يلاحظ ويجرب ويتأمل، نافذا إلى كل المعارف، من خلال فكر مستبصر. وما إن يصل إلى سن الثلاثين حتى يحيط بالطبيعة من حوله، وحتى يستغلها لغذائه ولكل حاجاته بدءا بتحريك يديه واستخدامها وستر سَوْءته ومعرفته الصيد، والنار واستخدامها فى إنضاج السمك واللحم، واتخاذ المخزن لحفظ ما يفضل من غذائه، والتفت إلى فرق ما بين النبات والحيوان فى الحركة وارتفاع الهواء

(١) طبعت قصة حى بن يقظان بمصر مرارا وفى دمشق وآخر طبعاتها بالقاهرة طبعة دار المعارف سنة ١٩٥٩ ومعها نفس القصة لابن سينا وللسهروردى وانظر فيها كتابنا عصر الدول والإمارات الجزء الخاص بالجزيرة العربية والعراق وإيران ص ٦٤٤ وما بعدها وانظر فى قصة حى بن يقظان لابن طفيل وترجماتها بروكلمان وبالنتيا ص ٣٤٨ و٦٠١ ومقدمات أحمد أمين لطبعة دار المعارف وكتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية ص ٩٩ وما بعدها.

واللهيب إلى أعلى وانحدار الماء إلى أسفل. ولاحظ أن كل ما فى الطبيعة خاضع لقانون الكون والفساد، وعرف أرفع حقائق الطبيعة. وطال به التأمل فى ملكوت السموات والأرض، وهداه تفكيره إلى أن كل ما فى الوجود لابد له من خالق لا يستغنى عنه، وأحسَّ حاجته إلى مشاهدته وما ينبغى أن يكون عليه من طهارة جسده وصفاء نفسه حتى يتحد به. وتعبَّد لذلك فى غار الأيامَ ذوات العدد وصام أربعين يوما. وظل يستغرق فى تأملاته منفصلا عن العالم الخارجى وعن جسده وحواسه حتى غاب عن كل ما حوله غيبات متصلة، وأصبح لا يحس شيئا سوى واجب الوجود، وكأنما فنى فيه عن ذاته، فليس فى الوجود إلا الواحد الأحد، وكأنما هما شىء واحد أو كأنما ذاته هى ذات الحق. وكان يفيق من حاله تلك المتصلة بالعالم الإلهى البرئ من المادة ويعود إلى العالم الحسى مرارا وتكرارا، وأحسَّ أنهما عالمان مختلفان تمام الاختلاف: عالم يقوم على الكشف والذوق ويصيب الإنسان فيه ما يشبه السكر والإغماء، وعالم يقوم على المنطق والعقل والمحسوسات المادية.

وحين بلغ خمسين عاما من عمره نزل جزيرته من جزيرة بمجاورة رجل تقى يسمى أبسال وصلته - كما وصل أهلها - تعاليم النبوة، وتعرف على «حى» وعلمه اللغة والكلام، وعجب أن وجد فى الطريق الفلسفى الذى سلكه «حى» تعليلا علويا لرحلة العقل من عالم الحس إلى عالم الدين الروحى الذى اعتقده ولجميع الأديان المنزلة. وعرض عليه أن يأخذه إلى جزيرته التى يحكمها صديقه سلامان حتى يرى أهلها ما اكتشف من الحقائق العليا، وقَبِلَ عرضه ونزل معه تلك الجزيرة وأخذ يحدِّث أهلها عن العالم الإلهى الذى يتحد فيه الإنسان بربه ولا يرى فى ذاته ولا فى الوجود سواه. غير أن الناس لم يفهموا ما يتحدث عنه، وكلما زاد فى الحديث ازدادوا نبوًّا ونفارا، إذ تهالكوا على الشهوات وجمع حطام الدنيا، وأصبحت لا تنجع فيهم الموعظة ولا الكلمة الطيبة، فقد ألهتهم عن ذكر الله تعالى الدنيا، مما جعل مخاطبتهم عن طريق التذوق الروحى لا تمكن، فحَسْبُهم ما تخاطبهم به شرائعهم حتى يستقيم معاشهم، لذلك اعتذر «حى» لسلامان وأصحابه عما تكلم به معهم، ونصحهم بالتمسك بديانات آبائهم وأعمالها الظاهرة فإن ما وراءها من الاتصال بالعالم الإلهى والذات الإلهية فوق حاجتهم ومداركهم. وقرر مع صاحبه أبسال العودة إلى الجزيرة المهجورة لينعما فيها بحياة المكاشفة الإلهية. ونختطف من القصة قطعة يصور فيها «حى» أنه ما زال يحاول الاتصال بواجب الوجود معرضا عن جميع المحسوسات، مستغرقا فى مشاهدته، واستطاع بجهاده أن تغيب عنه جميع

الذوات إلا ذاته لإنه كان لا يزال يشعر بها، وكان يدرك فى وضوح أن هذا الشعور شَوْبٌ يشوب المشاهدة الإلهية المحضة، وما زال يجاهد فى الاتحاد بربه يقول:

«ما زال يطلبُ الفناءَ عن نفسه والإخلاصَ فى مشاهدة الحق حتى تأتّى له ذلك، وغابتْ عن ذكره وفكره السموات والأرض وما بينهما وجميعُ الصور الروحانية والقوى الجسمانية وجميعُ القوى المفارقة للمواد والتى هى الذواتُ العارفة بالموجود، وغابت ذاتُه فى جملة تلك الذوات وتلاشى الكلُّ واضمحلَّ وصار هَباءً منثورا ولم يبْقَ إلا الواحدُ الحقُّ الموجودُ الثابتُ الوجود، واستغرق فى حالته هذه وشاهد ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خَطَرَ على قلب بشر. ولا تُعَلِّقْ قلبك بوصف أمرٍ لم يخطر على قلب بشر فإن كثيرا من الأمور التى قد تَخْطر على قلوب البشر يَتَعَذَّرُ وصفُها فكيف بأمرٍ لا سبيل إلى خطوره على القَلْب ولا هو من عالمه ولا من طَوْره.. ومن رامَ التعبيرَ عن تلك الحال فقد رام مستحيلا. وأقول إنه لما فنى عن ذاته ولم ير فى الوجود إلا الواحدَ الحىَّ القيومَ وشاهدَ ما شاهد، ثم عادَ إلى ملاحظة الأغْيار عندما أفاقَ من حاله تلك التى هى شبيهة بالسُّكْر فخطَر بباله أنه لا ذاتَ له يغاير بها ذاتَ الحقِّ تعالى وأنَّ حقيقة ذاتِه هى ذاتُ الحق وأن الشىء الذى كان يظُنُّ أولا أنه ذاتُه المغايرة لذات الحق ليس شيئا فى الحقيقة، بل ليس شىء إلا ذاتَ الحقِّ، وأنٍ ذلك بمنزلة نور الشمس الذى يقع على الأجسام الكثيفة فتراه يظهر فيها، فإنه وإن نُسِبَ إلى الجسم الذى ظهر فيه فليس هو فى الحقيقة شيئا سوى نور الشمس، وإن زال ذلك الجسم زال نورُه وبقى نورُ الشمس بحاله لم يَنْقُصْ عند حضور ذلك الجسم ولم يزدْ عند مغيبه لما قد كان بان له من أن ذاتَ الحق عز وجَلَّ لا تتكثّر بوجه من الوجوه».

وابن طفيل فى هذه القطعة من قصته يصور تصويرا رائعا شعور المتصوفة بانمحائهم فى ربهم وفنائهم فيه. ولروعة القصة ترجمت إلى اللاتينية واللغات الأوربية الحديثة، ومن أقدم ترجماتها ترجمة بوكوك لها فى أوكسفورد إلى اللاتينية بعنوان الفيلسوف الذى علم نفسه بنفسه مع نصها العربى سنة ١٦٧١ وترجمت إلى الهولندية سنة ١٦٧٢ وترجمها أوكلى إلى الإنجليزية سنة ١٧٠٨ وعلى ضوئها كتب دانييل ديفو قصته: «روبنسن كروزو». وترجمها إلى الألمانية إنجهورن سنة١٧٨٢ وترجمها بونس بويجس إلى الأسبانية سنة١٩٠٠ وترجمها بتروف إلى الروسية سنة١٩٢٠ وترجمها بالنثيا إلى الإسبانية سنة ١٩٣٤ وأعاد ترجمتها سنة١٩٤٨ وترجمها إلى الفرنسية ليون جوتييه سنة ١٩٠٠ ثم أعاد ترجمتها سنة ١٩٣٦ وزعم المستشرق الإسبانى المعاصر غرسية غوميس فى بحث نشره

عن القصة بمدريد سنة ١٩٢٦ أنه وجد بمكتبة الإسكوريال فى مخطوط موريسكى يرجع إلى القرن السادس عشر الميلادى قصة بعنوان قصة الصَّنم والملك وابنته، وزعم أنها كانت شائعة بين الموريسكيين (بقية المسلمين فى الأندلس) ورأى أنها تلتقى بقصة حى بن يقظان وبالفصول الأولى من قصة الكريتيكون لجراثيان اليسوعى الأرجونى التى نشرت فى منتصف القرن السابع عشر، فقد وجد قصة الصَّنم تقول إن الأميرة بنت الملك حُجزت عن الناس فى مَحْبس لتنجو من طالع سىء، واستسلمت فى مَحْبسها لابن الوزير وحملتْ منه ووضعت وليدها فى صندوق من الخشب وألقت به فى اليمّ، فحملته الأمواج إلى جزيرة نما فيها واهتدى ببصيرته إلى بدائع خلق الله، وبدلا من أن يقول إن القصة الموريسكية وقصة جراثيان استضاءتا بقصة ابن طفيل السابقة لهما بأربعة قرون أوتزيد زعم زعما غريبا هو أن ابن طفيل كان قد عرف أصل القصة الموريسكية عند أجداد الموريسكيين المسلمين من معاصريه، وأنها ألهمته حينئذ قصته: حى بن يقظان. وكل ذلك لينفى عن ابن طفيل أصالته فى قصته العالمية الفريدة، وقد نقض رأيه جوتييه فى ترجمته المجددة لقصة حى بن يقظان سنة ١٩٣٦ قائلا بحق: إنه لا علاقة بين مضمون قصة حى بن يقظان والقصة الموريسكية. وقد افترض غرسية أن القصة لم تعرف فى المحيط الإسبانى إلا بعد ترجمتها إلى اللاتينية فى القرن السابع عشر! وكان ينبغى أن ينبهه ما بينها وبين قصة الكريتيكون المطبوعة فى القرن السابع عشر من تشابه إلى أن الأقرب إلى المنطق وطبائع الأشياء أن تكون قصة حى بن يقظان مما ترجمته مدرسة طليطلة إلى القشتالية أو الإسبانية القديمة فى القرن الثالث عشر الميلادى أو قبله أو لعلها ترجمت قديما إلى اللاتينية، وعلى ضوء إحدى الترجمتين كتبت قصة الكريتيكون. وأيضا كان جديرا بغرسية أن يصل بين قصة ابن طفيل وقصتى ابن سينا اللتين أشار إليهما ابن طفيل فى مقدمته لقصته وهما قصة حى بن يقظان وقصة سلامان وأبسال وما تصوران من غلبة العقل على القوى البدنية وغلبة الذات الإلهية على العلل الكونية، ويؤكد هذه الصلة أن شخصيات أبسال وسلامان وحى بن يقظان عند ابن سيناهى نفس شخصيات قصة حى بن يقظان عند ابن طفيل. وأكثر من ذلك يشير ابن طفيل فى مقدمة قصته صراحة أنه يتابع ابن سينا فى نزعته الصوفية التى بثها فى كتابه أسرار الحكمة المشرقية التى تقابل الحكمة اليونانية. وأيضا فإنه تابع ابن باجة - الذى نوه به مع ابن سينا فى مقدمة القصة - فى كتابه تدبير المتوحد الذى يتحد فيه -كما مر بنا فى الفصل الثانى- عقل الفيلسوف بالعقل العلوى الفعال مباشرة واصلا بذلك ابن باجة بين الفلسفة والدين، ولكن دون نزوع إلى التصوف كما يقول ابن طفيل فى مقدمته للقصة.

ولا علاقة أى علاقة بين قصة ابن طفيل ومذهب الأفلاطونية الحديثة كما ظن بالنثيا وغيره، وأيضا لا علاقة بين يقظان فى القصة والمسيح، فيقظان ليس هو الله ولا حى ابن الله كما ظن بالنثيا ظنا مخطئا، ومعاذ الله أن نصل بين قصة ابن طفيل والمسيحية بأى وجه من الوجوه، والقصة تزخر بالآيات والتعبيرات القرآنية والروح الإسلامية الصوفية. وكان حريا بغرسية وغيره أن يردُّوا عناصر الإطار فى القصة إلى ما ذكره ابن طفيل نفسه من أنه استوحى فكرة ميلاد «حى» بدون أم ولا أب فى إحدى جزر الهند مما جاء عند المسعودى من أن بين تلك الجزر جزيرة يتولد فيها الإنسان من غير أم ولا أب، وبها شجر يثمر نساء. أما تصوره بأن طينا تخمَّر وتخلَّق منه «حى» فقد استوحى فيه مثل قوله تعالى عن أصل خلق الإنسان من طين: (ولقد خلقنا الإنسان من سُلالة من طين). وأما على التقدير الثانى وهو أنه كان بإزاء تلك الجزيرة جزيرة يملكها رجل شديد الأنفة والغيرة وكانت له أخت ذات جمال وحسنٍ باهر فعضَلها ومنعها من الأزواج إذ لم يجد لها كُفْئًا، وكان له قريب يسمى «يقظان» فتزوَّجها سرا وحملت منه ووضعت طفلا، ولما خافت أن يفتضح أمرها وينكشف سرها وضعته فى تابوت أحكمت زمَّه (إغلاقه) وخرجت به فى أول الليل إلى ساحل البحر وقذفت به فى اليَمّ فحملته أمواجه إلى ساحل تلك الجزيرة فإن ابن طفيل يستلهم القسم الأول من هذا الخبر للمولود مما ردَّدته بعض كتب التاريخ العربى من خبر هرون الرشيد مع أخته العباسة ووزيره جعفر بن يحيى البرمكى من أنه كان لا يستطيع الصبر عن لقائها، فقال لجعفر أزوجها لك ليحل لك النظر إليها ولا تقْربها، فقال: نعم. فزوَّجها منه، وكانا يحضران معا، وكان الرشيد يتركها فحملت العباسة من جعفر، وخافت الرشيد فسيَّرت ابنها مع حواضن إلى مكة. والصلة واضحة بين ميلاد حى سِرًّا من أخت الملك وميلاد ابن العباسة سرا من أخيها الرشيد ومحاولة كل منهما تهريب مولودها، واستلهم ابن طفيل فى وضع أم حَىٍّ له فى تابوت والقذف به فى يَمٍّ نقلته أمواجه إلى جزيرة ما جاء فى القرآن الكريم عن أُمّ موسى حين وضعته وخافت عليه من فرعون ومَلئه أن يقتلوه - وكانوا يقتلون أبناء اليهود الذكور ويستحيون بناتهم الإناث فأوحى الله إليها - كما جاء فى سورة طه - ﴿أنِ اقْذِفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليَمّ فَلْيُلْقه اليَمّ بالساحل﴾ ونفسُ الصيغة القرآنية نجدها عند ابن طفيل حين يقول عن أم حى: «وضعت ابنها فى تابوت ثم قذفت به فى اليم فاحتمله إلى ساحل الجزيرة» وهو تطابق واضح مع العبارة القرآنية. وبذلك كله يتضح أن عناصر الإطار القصصى فى قصة حى بن يقظان عناصر عربية إسلامية صوفية خالصة.

٥

المقامات والرحلات

(أ) المقامات

فن المقامات من أهم فنون النثر العربى، وقد ابتكره بديع الزمان الهمذانى (٣٥٨ - ٣٩٨ هـ) نافذا فيه إلى أقاصيص تصور الأدباء السيَّارين المسمَّين فى عصره بالساسانيين المحترفين للكُدْية أو الشحاذة الأدبية متخذا له أديبا شحاذا، أو متسولا كبيرا، هو أبو الفتح الإسكندرى، ومعه راويته عيسى بن هشام. وبديع الزمان يصور حِيَل أبى الفتح فى استخلاص الأموال والمطاعم من أيدى الناس بفصاحته وخلابة منطقه فى أسلوب قصصى يشيع فيه الحوار. وطارت شهرة مقامات البديع فى العالم العربى ونزلت قرطبة فيما نزلت من بلدانه، ونرى ابنَ شهيد المار بنا يستوحى - كما ذكرنا - من إحدى مقامات البديع، وهى المقامة الإبليسية، رسالته التوابع والزوابع التى بناها على لقائه فى وادى الجن لشياطين الشعراء والكتاب، ولقى بينهم شيطان بديع الزمان. وليس ذلك فحسب فإننا نراه - كما مرَّ بنا - يحاكيه فى وصفه للحلواء ببعض مقاماته كما يحاكيه فى وصفه الرائع للماء. ويعرض علينا ابن بسام فى ذخيرته ثلاث مقامات، غير أنها ليست مقامات بالمعنى الذى أراده بديع الزمان إذ لا تقوم على الكدية والشحاذة الأدبية، وإنما تصف موضوعا أو موضوعات، وهى أشبه بالرسائل منها بالمقامات.

وأولى المقامات الثلاث مقامة أبى حفص[1] عمر بن الشهيد الذى لقيه الحميدى فى المريَّة سنة ٤٤٠ وهو من شعراء أميرها المعتصم بن صمادح (٤٣٩ - ٤٨٤ هـ) ومقامته أشبه بوصف رحلة له وصفا أدبيا طريفا، فيه غير قليل من الدعابة، وقد استهلها بنعى حال الكتابة فى عصره وأنها أصبحت صنعة ممتهنة. ويكتفى ابن بسام بعرض فصول منها، وفى أحد الفصول يصف ابن الشهيد الربيع وصياح الديك فى السحر، وفى فصل ثان يصف منزل بدوى دخله مع صحبه «فهش البدوى وبَش، وكَنَس منزله ورش، وصير عياله

---

(١) انظر فى أبى حفص بن الشهيد ومقامته الذخيرة ١/٦٧٠ وما بعدها، وراجع فى ترجمته الجذوة للحميدى ص ٢٨٣ والبغية ص ٣٩٤ والمغرب ٢/٢٠٩.

إلى ناحية، وجمع أطفاله فى زاوية». ويتحدث عن أثاث بيته حديثا فكها، ويقول إنه حاول أن يكرمهم فدعا صبيانه ليمسكوا بديكٍ هَرِم، ويستغيث بهم الديك ويتشفع - فى حوار طويل - بهرمه وأنه أصبح لضعفه ونحوله أشبه بالأدوية منه بالأغذية، ويَرِقّون له. ويقدّم إليهم البدوى بعض ألطافه معتذرا ويَقْبلون عُذْرَه ويَرْحلون سَحرا عنه. وينزل مع صحبه قريةً مسيحية سمعوا فيها صَوْتَ الناقوس وألموابدَيْر راعهم ما فيه من شموس وأقمار ولا سيوفَ إلا من مُقَل ولا تُرُوسَ إلا من خَجَل، فنزلوا فيه وشربوا من الدِّنان ما أسكرهم ثم شدُّوا الجياد عنه رَكْضًا فمروا بكنيسة متهدمة ويبكى ابن الشهيد أطلالها وما كان فيها. ويفضى مع صحبه إلى مروج بها قطعان من السائمة، ويصيدون كثيرا من طير البِرك، وينقش على مرمرة بيضاء مقطوعة شعرية بصوِّر فيها البرك ومياهها وما صادوه من طَيْرها. ويستأنفون السَّيْرَ ليلا، ويلقاهم شابٌّ فارس ممتطيًا جوادًا ومُتَقَلِّدًا حُساما، آبِقٌ من أهل حصن لنصارى مَرّوا به، معلنا إليهم أنه عَبَدَ الصُّليبَ وقَرع الناقوسَ إلى أن أسعده الله بهداية الإسلام، ويشهد أن الله إلهٌ واحد، ليس له وَلَدٌ ولا والد. وبذلك تنتهى المقامة وهى أشبه بنزهة متعددة المشاهد.

والمقامة الثانية عند ابن بسام مقامة أبى الوليد[١] محمد بن عبد العزيز المعلم أحد وزراء المعتضد أمير إشبيلية وكُتّابه، وقد انتقى منها ابن بسام فصولا وأولها يستهله ابن المعلم بالحنين إلى ماضٍ نعم فيه برفاهية العيش، ثم دار به الدهر من نعيم إلى شظف شديد، وما يلبث أن يقول إن البشير قرع بابه حاملا إليه كتابا من أمير، فلبّاه، حتى إذا مثَل بين يديه أسمعه مدحة فيه ثم تَلاها بنثر مُفْرط فى الثناء عليه من مثل قوله: «هو الإمام الطاهر، والكوكب الزّاهر، والأسَدُ الخادِرُ[٢]، والبحر الزّاخِرُ، أوهبُ الملوك للذخائر، وأعفاهم عن الجرائر.. أعطرُ من العنبر، فى كلِ مِنْبر، وأفْوح من المسك الذكىّ،فى كل نَدِىّ» ومضى فى مثل هذا الثناء حتى استطير الأمير فرحا، وازْدَهى مَرحا، وقام إليه فقبّل بين عينيه. وبذلك تنتهى المقامة، وهى أشبه برسالة فى مديح أمير، وربما كتب بها إلى المعتضد أميره.

والمقامة الثالثة عند ابن بسام مقامة أبى محمد[٣] بن مالك القرطبى، وقد ساق فى

---

(١) انظر فى ابن المعلم ومقامته الذخيرة ١١٢/٢ وراجع الجذوة ص ٦٥ والبغية ص ٩٤ والمغرب ١١٢/١.

(٢) الخادر: المقيم بعرينه.

(٣) انظر فى أبى محمد بن مالك ومقامته الذخيرة ٧٣٩/١ وما بعدها وراجع فى ترجمته القلائد ١٧٠.

ذخيرته بعض فصولها، وابن مالك يديرها على مديح المعتصم بن صُمادح أمير المرية ويُغرق فى مديحه إغراقا شديدا، ونراه يُطيل فى وصف فُتوحه وانتصاراته فى الحروب ووَصْف جيشه وأسلحته من الدروع والسيوف والرماح والخيل مظهرا فى هذا الوصف غير قليل من البراعة، ولا يزال ينثر عليه ثناءه من مثل قوله: «جَذْبٌ وربيع مُعْرِق، وليل ونهار مشرق، فيه الصَّابُ والعَسَلُ والسَّهْل والجَبل، ثالثُ القمرين وسِراج الخافِقَيْن[1]، وعماد الثَّقَلَيْن، المعتصم بالله ذو الرياستين». ويشكو للمعتصم عَوز أهله وضِيقَ ذاتِ يَده، وأنه لولا ما يُقَيِّده من أفْرُخٍ كزُغْبِ القَطَا لتقدم فى صفوف جُنده تارة محاربا وتارة خَطيبا محمِّسا أو مُهادِنًا. وبذلك تنتهى المقامة، وهى أشبه بقصيدة مدح طويلة دبَّجها فى المعتصم بن صمادح

وعلى هذا النحو نَفْتقد المقامة التى تقوم على الكُدْية والشِّحاذة الأدبية فى عصر أمراء الطوائف، ويظهر الحريرى (٤٤٦ - ٥١٦ هـ) ويؤلف مقاماته فى أواخر القرن الخامس وسرعان ما تُدَوِّى شهرتها فى العالم العربى ويَؤُمُّه الرواة من كل مكان يأخذونها عنه، وأمَّه من الأندلس فى فواتح القرن السادس الهجرى أبو[2] القاسم عيسى بن جَهْوَر القرطبى وأحمد بن محمد بن خَلف الشَّاطبى وأبو الحجاج يوسف القُضاعى البَلَنْسِىّ والحسن بن على البَطَلْيَوْسِىّ، وجميعهم حملوا مقاماته إلى الأندلس وأخذها عنهم تلاميذ كثيرون ومضوا بدورهم يدرسونها لطلابهم، وأخذ نفر من دارسيها هناك يتجرَّد لشرحها، منهم عبد[3] الله بن ميمون العَبْدرى القرطبى المتوفى سنة ٥٦٧، ومنهم أبو العباس[4] أحمد الشريشى المتوفى سنة ٦١٩ وقد صنع لها ثلاثة شروح: كبير طُبع بمصر مرارا فى جزئين، ثم أوسط وأصغر. ومعروف أن مقامات الحريرى تقوم - مثل مقامات بديع الزمان - على الطريقة الساسانية أو الشِّحاذة الأدبية، وقد بلغ الحريرى بفنِّها الذروة.

وإذا رجعنا إلى ما أُثر من مقامات عند الأندلسيين بعد مدارستهم لمقامات الحريرى وجدنا المقامات تأخذ نهجين: نهجها المار فى القرن الخامس الهجرى القائم على الوصل بينها وبين أغراض الشعر من مديح وغيره وكذلك بينها وبين أغراض الرسائل من وصف بعض المشاهد والبلدان. ونهج جديد يستوحى الحريرى فى مقاماته الساسانية القائمة على

---

(١) الخافقان: المشرق والمغرب، والثقلان: الإنس والجن.

(٢) انظر فى ترجمة أبى القاسم بن جهور وزملائه التكملة رقم ٣٥ ورقم ٧٢٧ ورقم ٢٠٧٦.

(٣) انظر ترجمة العبدرى فى المغرب ١/١١١.

(٤) راجع فى الشريشى التكملة ١١١ والنفح ٢/١١٥ والمنهل الصافى ١/٣٥٤.

الكُدْية والشحاذة الأدبية، ومن النهج الأول المقامة الدَّوْجِيَّة لمحمد[١] بن عياض اللُّبْلِيّ المتوفى سنة ٥٥٠ وموضوعها الغزل، وذكر ابن سعيد فى المغرب فاتحتها، والمقامة العِياضية لمحارب[٢] بن محمد بن محارب الوادى آشى المتوفى سنة ٥٥٣ وهى فى مديح القاضى عياض، ومقامة فى هجاء بعض أعيان مالقة لعلى[٣] بن جامع الأوسى، والمقامة النُّخْلية لأبى الحسن النباهى المالقى المتوفى بأخرة من القرن الثامن وهى مفاخرة بين النخلة والكَرْمة. وللسان الدين بن الخطيب مقامة فى السياسة، وهى أشبه برسالة أو مبحث فيما ينبغى أن يكون الحاكم عليه من نشر العدل فى رعيته وتعهد المجاهدين فى سبيل الله وأن لا يعوِّلوا فى كسبهم إلا على مغانمهم كالجوارح لا تَطْعَمُ إلا من صَيْدها وما يقع فى مخالبها، ويلمُّ بسياسة العمال فى ولاياتهم وأن تقوم على الحق ودَحْض الباطل. وكل ذلك على لسان شَيْخٍ فارسى ناصح لهرون الرشيد ويوصيه بعمارة البلدان والتمسك بالشريعة. والرسالة حرية بأن تقرن برسائل السياسة عند ابن المقفع. وللسان الدين غير مقامة فى وصف رحلات له فى بلدان الأندلس والمغرب الأقصى، وهى أشبه بالرحلات منها بالمقامات ولذلك سنتحدث عنها بين رحلات الأندلسيين. وحوالى منتصف القرن التاسع الهجرى يشتهر - فى أيام الأندلس الأخيرة - عمر الزَّجَّال، وقد روى له المقَّرى مقامتين أولاهما مقدمة لقصيدة هزلية طويلة، وثانيتهما فى أمر الوباء الذى ألم بغرناطة زمن أميرها الغنى بالله، وهو فيها ينكر على قصر الحمراء بغرناطة إبقاءه فيه على السلطان مع تفشى الوباء، ويقول إنه ينبغى أن يتحول عنه إلى مالقة التى كانت تتبع حينئذ غرناطة.

ونترك هذه المقامات التى تستوحى مقامات عصر أمراء الطوائف الشبيهة بالرسائل الأدبية إلى مقامات الكدية والشحاذة الأدبية التى تستوحى الحريرى فى مقاماته أو أقاصيصه الساسانية التى رواها الحارث بن همَّام عن بطلها أبى زيد السروجى. وأول ما يلقانا من ذلك المقامات اللزومية للسرقسطى، وهى خمسون مقامة، وسنخصها بحديث مستقل. وكان يعاصره الكاتب أبو عبدالله بن أبى الخصَّال الذى مرت ترجمته والمتوفى سنة ٥٤٠ وله مقامة[٤] ساسانية جعل بطلها نفس بطل مقامات الحريرى: أبا زيد السروجى، كما جعل الراوى لها نفس راوية تلك المقامات: الحارث بن همام. وتبدأ المقامة

---

(١) انظر ترجمة ابن عياض فى المغرب ٣٤٤/١ والتكملة ص ٢٣٣.

(٢) التكملة ص ٤٠٧.

(٣) راجع ترجمته فى الذيل والتكملة: القسم الأول من السفر الخامس ص ٢٠٢.

(٤) انظر فى مقامة ابن أبى الخصال تاريخ الأدب الأندلسى: عصر الطوائف والمرابطين للدكتور إحسان عباس ص ٣١٦.

بمنظر فى الريف والناس متجمعون حول أبى زيد السروجى، وهو يستحثهم على الجود والسخاء وهم يحذفونه بالدراهم، وهو يتلقف ولا يتوقف. وعرفه الحارث ونصحه أن يبيت بمنزله خشية اللصوص ويلبى دعوته، ويطعم عنده الطعام المرىء، حتى إذا أصبح الحارث وجده غادر المنزل تاركا له رقعة فيها ثلاث قصائد. ويبحث عنه ويعرف أنه ذهب إلى حانة. وتطيل المقامة فى وصف الخمر والشاربين ومن فى الحانة من الجوارى والغلمان. ويقضى البطل وروايته فيها يوماً هنيئا، وتنتهى المقامة بمقطوعة شعرية.

وتنوه كتب التراجم بمقامات لغير أديب، ولكن لا ندرى هل هى كمقامات عصر أمراء الطوائف أو هى تستلهم الحريرى فى مقاماته الساسانية، ومن أهم المقامات التى استلهمته مقامة العيد لعبد[1] الله بن إبراهيم بن عبد الله الأزدى المتوفى سنة ٧٥٠ وهو من أهل مدينة بُلّيش،وكانت مجاورة لمالقة، وهى مقامة خاطب فيها الرئيس أبا سعيد بن نصر يستجديه أضحية، وهو فيها يحكى قصة ساسانى من أهل الكدية أو الشحاذة الأدبية، ويستهلها بأن الرجل دخل داره ليتناول شيئا من الطعام فقالت له زوجته لم جئت؟ لا طعام لك عندى إلا إذا صنعت ما صنعه زوج الجارة إذ فكَّر فى العيد وأنت قد نسيته، فقال لها: صدقت وسأخرج الآن لأبحث لك عما ذكرت، وأخذت تقول له إنك لن تأتى بشىء وأخذت تهوّن من شأنه، ولما كان يجد من خوفها - كما يقول - ما يجد صغار الغنم من الذئاب غدَا يطوف السكك والشوارع ويجوب الآفاق، ويسأل الرفاق، ويخترق الأسواق، إلى أن مرَّ بقصَّاب (جزَّار) وبين يديه عَنْز، وسأله أن يبيعه منه ويمهله فى الثمن، وباعه له مؤجَّلا بعشرين دينارا، وانحدر معه لدُكَّان موثّق يكتب لهما عقْد البيع. وعاد مع الجزار فلم يجد العنز، وكان قد شرَد، فأخذ ينادى فى الأسواق والأزقة مَنْ رأى عَنْزا، وإذا برجل فخار خرج من دهليز يصيح أين صاحب هذا العَنْز، والعَنْز يدور فى الدهليز ويحطم ما بقى من الطواجن والقدور. وطلبه المحتسب (شرطىّ السوق) وصاحب الدهليز أمامه يبكى، ولم يَعْف عنه إلا بعد أن أدّى عنه جيرانه ما أفسده عنزه. وتوجّه به مع الحمَّال إلى داره ولم تبق فى الزُّقاق عجوز إلا وصلتْ لتراه، وتسأله بكم اشتراه، والأولاد يدورون به، أما ربّة البيت، فبادرت زوجها تقول:«ليس فى البيت خَلٌّ ولا زيت، ومتى تُفْرح زوجتك، والعنز أُضحيتك، واقلّةَ سَعْدِها، واخُلْفَ وَعْدِها، وما حَبَسَك عن الكِباش السِّمان» وتأخذ فى وصف الكبش السمين الذى كانت تريده، فيقول لها: وأين توجد هذه الصفة، يا قليلة

---

[1] راجع فى ترجمة عبد الله الأزدى ومقامته الإحاطة فى أخبار غرناطة (تحقيق عنان) ٤٢١/٣ وما بعدها.

المعرفة، فتقول له عند مولانا ومأوانا الرئيس الأعلى، ويفيض في مديح الرئيس أبي سعيد بن نصر.

والمقامة مسجوعة سَجْعًا عذبا، وهي تصوّر جوانب كثيرة من المجتمع الغرناطي، تصوّر ربة البيت وما تكلف به زوجها من مطالب فوق طاقته حتى إذا أحضر لها ما تريد عادت فأزْرَتْ به، وتصوّر القصّاب في زيّه وقد شَدَّ في وسطه مِئْزَرةً وقَصَّر ثوبه وكشف عن ساقيه وشمر ساعديه، وتصوّر جشعه في البيع. وتُرينا نظام التوثيق وكتابة العقود في الأندلس وما كان يشيع هناك من صناعة الفخار، والمحتسب ومن يساعده من الأمناء ورجال الشرطة، والعجائز وتطفلهن، والأولاد والتفافهم حول كل ما يرون. وهي مقامة بديعة.

المقامات اللزومية للسَّرَقُسْطي

هو أبو الطاهر[1] محمد بن يوسف التميمي السرقسطي الإشتركوني نسبة إلى إشتركونه: حصن من أعمال تُطيلة في الثغر الأعلى. ويبدو أنه نشأ في سرقسطة، ولذلك نُسب إليها وقيل إنه من أهلها. ويقول ابن بشكوال إنه سكن قرطبة، ولا نعرف بالضبط هل سكنها بعد أخذ النصارى لسرقسطة سنة ٥١٢ أو قبل ذلك وأكبر الظن أنه بارح سرقسطة مبكرا للقاء الشيوخ النابهين في الأندلس، إذ تذكر كتب التراجم أنه أخذ عن ابن السيد البطليوسي ببلنسية وعن أبي بكر بن العربي بإشبيلية وعن أبي علي الصدفي بمرسية سنة ٥٠٨ وعن أبي محمد الرُّكْلي بشاطبة، واستقر بقرطبة وتصدر فيها لإقراء الأدب واللغة. ونوهت كتب التراجم بأستاذيته لكثيرين من علماء الأندلس في العربية في مقدمتهم ابن مضاء صاحب كتاب الرد على النحاة. ولم تذكر كتب التراجم تاريخ مولد السرقسطي وذكرت أنه توفي بقرطبة سنة ٥٣٨ للهجرة. ومن آثاره كتاب المسلسل في غريب لغة العرب وهو منشور بالقاهرة، ومقاماته اللزومية أروع آثاره، ومن أروع ما قدمت الأندلس للأدب العربي من أعمال أدبية.

---

(١) انظر في أبي الطاهر السرقسطي الصلة لابن بشكوال رقم ١١٧٥ والتكملة لابن الأبار رقم ٥٥٤ ومعجمه ص ١٤٤ وما بعدها والإحاطة ٥٢١/٢ وتاريخ الأدب الأندلسي: عصر أمراء الطوائف المرابطين ص ٣١٧. وقد نشر مقاماته نشرة علمية محققه الدكتور بدر أحمد ضيف في الهيئة المصرية العامة للكتاب (فرع الإسكندرية).

وقد وضع السرقسطى مقاماته فى محاذاة مقامات الحريرى وعلى غرارها من اتخاذ بطل لها من أبطال الشحاذة الأدبية هو الشيخ أبو حبيب فى محاذاة بطل مقامات الحريرى: أبى زيد السروجى واتخذ له راوية هو السائب بن تمام فى محاذاة راوية مقامات الحريرى: الحارث بن همام. وذكر مع السائب فى تسع مقامات راوية يحدث عنه هو المنذر بن حمام. وجعل السرقسطى مقاماته خمسين بعدد مقامات الحريرى وبناها مثله على عَرْض حِيَل شحاذ أدبى كبير هو الشيخ أبو حبيب ويرقّمها مثله من المقامة الأولى إلى المقامة الخمسين، غير أنه يختلف عن الحريرى فى أنه لا يعطى لكل مقامة لقبا خاصا بها يميزها ما عدا أربع عشرة منها فقط هى التى ميزها بالألقاب. والشيخ أبو حبيب سدوسى من عمان وكثيرا ما يظهر فى ثياب خَلَقَة وأسْمال، منكِّرا لشخصه على طريقة الحريرى. وهو دائما واعظ يزهد الناس فى الحياة ويحثهم على عَوْنه لما يرون من سوء حاله، ويُلْقون إليه بالدراهم والدنانير، أو يبذلون له المآكل والطعام، متخذا دائما حيلة أو موقفا، به يستدرّ عطفهم. وكثيرا ما يشترك معه فى الموقف أو الحيلة راويته السائب أو ابنه حبيب أو ابنته التى يتخذ منها جارية يبيعها ويأخذ ثمنها، ثم يتضح أنها حُرّة، فيظفر بالثمن، وتُرَدّ إليها حريتها، حيلة من حيله.

ومقامات السرقسطى مبنية على السجع مثل مقامات الحريرى، غير أنه اقتدى فيه بأبى العلاء المعرى فالتزم فى نسجه مالا يلزم من تعدد قوافى السجع أو نهاياته مشترطا على نفسه أن تكون من حرفين أو أكثر. ولا يكتفى بتصعيب المرات إلى سجعاته فى بعض مقاماته، إذ نراه فى المقامة السادسة عشرة يشترط على نفسه أن تتوالى سجعاتها ثلاثية ولذلك سماها المثلثة مفتتحا لها بقوله: «أقمت فى غَزْنة[١]، فترشفت من مائها أى مزنة، وتوطّأت من أكنافها كل سهلة وحزنة» وسمى تاليتها المرصّعة لأنه لم يكتف فى سجعاتها بالاتفاق فى حرف واحد بل التزم فيها حرفين أو أكثر كقوله فى مطلعها: «حننت إلى الوطن المحبوب، ونزعت إلى العَطن[٢] المشبوب، حيث مآرب الشباب وملاعب الأحباب» وسمى الثامنة عشرة المدبّجة، لأنه جعل الكلمات فى كل سجعتين تتقابل فى نهاياتها وتتعادل، على شاكلة قوله فى وعظها: «وسامِك[٣] السماء ورافعها، وماسك الدّماء ودافعها، إنك فى حَبائل الرّزايا لمضطرب، ومن مناهل المنايا لمُقْترب». واشترط على نفسه فى المقامة الثانية والثلاثين أن يختتم كل سجعاتها بحرف الهمزة ولذلك سماها

---

(١) غزنة: مدينة فى أفغانستان.
(٢) العطن: مبرك الإبل.
(٣) سامك: رافع.

الهمزية، واختتم سجعات المقامة الثالثة والثلاثين بحرف الباء ولذلك سماها البائية، وسمى الرابعة والثلاثين الجيمية لاختتامه سجعاتها بحرف الجيم والخامسة والثلاثين الدالية لاختتام السجعات بحرف الدال. وبالمثل صنع نفس الصنيع فى السادسة والثلاثين فاختتم سجعاتها بالنون وسماها النونية. ونحس غير قليل من التكلف فى هذه المقامات الخمس لبناء السجعات فيها على حرف واحد. وكذلك الشأن فى المقامات الأربع التالية وأولاها وثانيتها على نسق الحروف الهجائية وثالثتها ورابعتها على نسق حروف أبجد المعروفة، ولكن من الحق أن سجعاته فى المقامات الأخرى تشيع فيها العذوبة والسهولة والقدرة على التفنن فى الوعظ والوصف ونسج الكلام.

ويتنقل السرقسطى ببطل مقاماته بين بلدان كثيرة فيما عدا المقامتين الثلاثين والخمسين، فقد استعرض فى أولاهما على لسان البطل مميزات أنبه الشعراء فى الجاهلية وعصر المخضرمين والعصرين: الأموى والعباسى، وخصَّ الثانية - وهى المقامة الخمسون - بالحوار فى النظم والنثر بين ابن البطل حبيب وابن ثان لم يظهر إلا فى هذه المقامة اسمه غريب، وبينما ينتصر حبيب للشعر ينتصر غريب للنثر، حتى إذا اشتد بينهما الخصام، تدخل بينهما أبوهما الشيخ أبو حبيب للوئام، مبينا أن لكل من الشعر والنثر مجاله، والإحسان أنواع وضروب، حتى إذا اقتنع المتحاوران بكلامه أوصاهما - كما أوصى الحريرى ابنه فى مقامته الأخيرة - أن يقوما على حرفة الكدية وأن لا يصطحبا إلا الجواد ولا يرحلا إلا بزاد. ومثل هاتين المقامتين فى العناية بموضوع محدد المقامة التاسعة عشرة، وهى فى وصف الخمر وحاناتها. ودائما يتنقل الشيخ أبو حبيب فى مقاماته من بلد إلى بلد فى العالم الإسلامى منكرا لشخصه متحولا من حيلة إلى حيلة ومن صيد إلى صيد، وفى كل صيد وحيلة يعرفه السائب بعينه ويكشف حقيقته وسره. ولم ينزل فى الأندلس سوى جزيرة طريف ونزل فى المغرب طنجة والقيروان، ونزل فى مصر الإسكندرية ودمياط وفى الشام فلسطين وحلب. ونزل فى أنحاء كثيرة من الجزيرة العربية مثل عدن والشِّحْر وظَفار وزَبيد والبحرين واليمامة، ونزل بالعراق فى بغداد وواسط والأنبار والرَّقّة وحَرَّان، ونزل بإيران فى الأهواز وأَصْبهان والرىّ ومَرْو، وتوغل فى بلاد الترك إلى الكَرَج وصول وغَزْنة. ولا يكتفى السرقسطى بإنزال بطله فى البلدان الإسلامية والضرب فى الصحارى والقفار، إذ رأى أن يخوض به البحار وأن يضم إلى رحلاته البرية كما صنع الحريرى رحلات بحرية تأثر فيها بما كتبه أصحاب تلك الرحلات، على نحو ما يلقانا فى المقامة الرابعة والأربعين وسماها العَنْقاوية نسبة إلى

العَنْقاء أنثى الرُّخّ. وهما طائران خرافيان ضخمان يتردد ذكرهما فى أحاديث بَحّارة العرب عن رحلاتهم فى أعماق البحار والمحيطات مبالغين فى وصف ضخامتهما وقوتهما الخارقة وحملها لمن تحطمت سفنهم إلى البرّ والبلاد المأهولة. على نحو ما نقرأ عند الرُّبّان بُزُرْك بن شهريار من بحّارة القرن الرابع الهجرى فى كتابه: «عجائب الهند: بَرّه وبحره وجزائره» إذ يقول إن الرُّخّ أنقذ سبعةً غرقت سفينتهم فى جزيرةٍ بقرب الهند ويَرْوِى عن بعض الملاحين أنه رأى ريشة من ريشه تسع خمسا وعشرين قربة من قرب الماء! كما يذكر أن بحارةً وقع فى سفينتهم عيب اضطرهم أن يَقْدُموا بها إلى جزيرة صغيرة رأوها فى طريقهم، فنزلوا بها وأصلحوا عيب سفينتهم وعنَّ لهم أن يوقدوا نارًا لبعض أغراضهم، فأحسوا الجزيرة تتحرك من تحتهم، فأسرعوا بالنزول إلى سفينتهم، وتولتهم الدهشة، إذ رأوا الجزيرة تغوص فى الماء وعرفوا أنها سُلْحفاة كانت طافية على وجه الماء وأحست النار فغاصت. وإنما ذكرت هذه السلحفاة الضخمة الخرافية والرخ الخرافى قبلها لأن من يقرأ مقامة السرقسطى العنقاوية لا يشك فى أنه قرأ كتاب بُزُرْك بن شَهْرِيار، وأنه استمدَّ منه حين جعل بطل مقامته وراويته يلجُّجان فى رحلة بحرية، «ويخرجان إلى جزيرة عَريضة وأرض أريضة[1]. ولا ألباب ولا أفكار، ولا عرفان ولا إنكار، إلى أن استيقظا من تلك الغمرات، وصحَوًا من تلك السَّكَرات، فعلما أن الجزيرة حيوان بحرى أَصْحَر[2]، ثم أبْحَر، وشَمَسَ، ثم قَمَس[3] فى الماء وانغمس» والسرقسطى يشير بهذا الوصف للحيوان إلى أنه سلحفاة، فإنها حيوان بحرى برى إذا نزل إلى الماء قصدا للاستراحة من طول المقام فى البر طفا على وجهه. وما يلبث السرقسطى أن يقول إن بطل المقامة وراويته «أظلّتهما ظُلّة ظليلة وسحابة بَليلة». وتهبط السحابة إلى الأرض وإذا هى الرخ فَرْخ العَنْقاء، ويطيل السَّرَقُسْطى فى وصفه وكيف تعلقا بأطراف ريشه يقول السائب الراوى:

«ثم لما صَدَع الفجر ووَضَح، واخْضَلَّ[4] النَّدىَ ونَضَح، سار فى الهواء سَيْرًا رَفيقا[5]، وجعل السحاب يسايرنا رَفيقا، تَخْفُقُ تحتنا البُروق، وتتطلع إلينا المغاربُ والشروق، إلى أن فارقَتْنا البحار، وعلمنا أنه الإصْحار[6]، ولما يَجِنْ من ليلنا

---

(١) أريضه: حسنة المرأى.
(٢) أصحر: برز فى الصحراء أو الأرض.
(٣) شمس: نفر. قمس فى الماء: غاص.
(٤) اخضل: ابتل.
(٥) رفيقا: لينا متئدا. رفيقا التالية: صاحبا.
(٦) الاصحار: يريد الأرض.

الإسْحار[١]. ثم أخذ فى الانصباب إلى أرضٍ ذاتِ أشجارٍ وأنهار، ورياض مونقة وأزهار، فخبِّرنا أنها من أرْيافِ النيل وشُطُوطِه، ومجاريه وخُطُوطِه، فحمدنا الله على نَعْمائه، وتقلُّبنا بين أرْضِهِ وسَمائه».

ولا يلبث الشيخ أبو حبيب أن يعظ الناس ويَرْفدوه بالصِّلات الحَفِيَّة، والهبات الخَفِيَّة وهو دائما يضمنّ مقاماته مواعظ خلقية ويُنْهى المقامة بشعر، وقد يُكثر منه فى تضاعيفها. ويعود السرقسطى فى المقامة السابعة والأربعين إلى الحديث عن رحلة فى جزائر الهند لبطل مقاماته وراويته، غير أن الراوى لا يُفْضى فيها إلى وصف تلك الجزائر ولا إلى شىء من العجائب البحرية هناك إذ شُغِلَ عن ذلك بقضاء ليلة ماجنة مع البطل فى مجلس غناء. وكأنما كان السرقسطى مطلعا على شىء من الغيب، إذ جعل البطل فى المقامة الحادية والأربعين يتعيَّش من دُبٍّ يُراقصه ويَزْمر عليه ويلاعبه، ومعروف أن رمز مَدْريد فى عصرنا إنما هو الدبّ. وفى الحق أن المقامات اللزومية للسرقسطى أروع المقامات الأندلسية التى حاكت مقامات الحريرى بعده، وكانت حرية بأن يتجرد لها شارح مثل الشريشى مواطنه، وكأنما ينطبق عليه المثل: لا يطرب الزامر أهل بلده.

وحرى بنا أن نعرف أنه كان للمقامات تأثير واضح فى الأدب الإسبانى إذ نشأ على غرارها فى منتصف القرن السادس عشر الميلادى لون من الفن القصصى ازدهر خلال القرن التالى يصف حياة المشرَّدين والمتسوِّلين ويقوم على الشحاذة أو الكُدْية، سُمِّيَتْ أقاصيصه باسم «الأقاصيص البيكارسية» وسُمِّىَ بطلها باسم «البيكارو» ودائما نشأته متواضعة ويعانى من آلام المسغبة والبطالة، فيتخذ التسوُّل حرفة له يكسب بها قوته مستخدما فى ذلك حيلا وألاعيب شتى تماما كالشيخ أبى زيد السروجى فى مقامات الحريرى وكالشيخ أبى حبيب فى مقامات السرقسطى، مع صبغ كلامه مثلها بصبغة وعظية خلقية[٢].

(ب) الرحلات

لعل مسيرة قوافل الأندلسيين إلى مكة سنويا لأداء فريضة الحج وزيارة القبر النبوى الشريف هى التى جعلتهم يولعون بالرحلة والأسفار فى العالم الإسلامى وما وراءه من

(١) الإسحار: السير فى السحر.

(٢) انظر فى ذلك د. مكى فى كتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية ص ٨٨ وما بعدها.

بلدان وشعوب فى آسيا وأوربا وخاصة فى أنحائها الشرقية لاكتشاف المجهول من تلك الشعوب وما بديارهم من ظواهر كونية. وأيضا فإن تعدد مراكز الثقافة فى العالم العربى وفى الأندلس نفسها منذ عصر أمراء الطوائف حَبَّب الرحلة إلى المشغوفين بالعلم والعلماء، على نحو ما نجد فى عصرنا عند شبابنا العلميين من شغفهم بالرحلة إلى الغرب للتزود منه فى جميع ضروب العلم والمعرفة. ولا ننسى السفارات الخارجية التى كان يرسل بها حكام الأندلس وخاصة فى عصر أمراء الطوائف إلى إخوانهم من الأمراء فى الأندلس أو إلى نصارى الشمال أو إلى حكام إفريقيا ومصر والشام، وحتى فى أيام الأندلس الأخيرة إلى الدولة العثمانية. وكثرت الرحلات والسفارات الداخلية زمن أمراء الطوائف للتشاور فى أمر خطير من أمور السياسة والحكم كما كثرت رحلات حكام غرناطة والمغرب لتفقد شئون البلاد والرعية. ومن السفارات الداخلية سفارة الكاتب محمد[١] بن مسلم الدانى عن إقبال الدولة على بن مجاهد إلى بعض أمراء الطوائف من مثل المعتصم بن صُمادح أمير المريَّة والمعتضد أمير إشبيلية حين نازعه المقتدر بن هود (٤٣٨ - ٤٧٥ هـ) أمير سرقسطة فى أحد الحصون، فكتب إلى أغلب قائد ابن مجاهد وواليه على ميورقة يصف له أحداث سفارته فى رسالة طويلة سماها «طَىّ المراحل» قال ابن بسام إنه اقتضب من فصولها لطولها ما يدل على براعة كاتبها، وبلغ ما اقتضبه منها نحو عشرين صحيفة. وفى فواتحها يتحدث محمد بن مسلم عن صداقته لأغلب وشوقه للقائه، ويذكر دعوة إقبال الدولة إخوانه من أمراء الطوائف لإنجاده، ونداءه عليهم لإمداده فاستغشوا بأكمامهم وجعلوا أصابعهم فى آذانهم. ويقتطف ابن بسام من رسالته قطعا بديعة فى وصف الطبيعة، وأخرى فى وصف ما كان ينغمس فيه أمراء الطوائف من ترف بالغ، إذ بنوا - من عَرق الرعية - القصور المشيدة، وألحقوا بها حدائق بهيجة، ويصور كيف كان يطاف عليهم بصحاف من فضة وذهب، وحين يتوضئون تجيئهم طِساسٌ[٢] من التبر وأباريق رُصِّعت بالدر. وللشراب حجر خاصة وكأن الأطباق فيها مُقل الجفون مُلئت من قُرَّة العيون وكأن الكئوس مراشف الحور تمزج بحَباب الثغور. ومن تصويره لقرطبة حين مرَّ بها ورأى ما نزل بها من الدمار والذل والهوان قوله: «كثيرا ما كنت أقْتَرِحُ إتيانها وإن كانت على هَرَم، وأتمنىَّ وقفةً فيها ولو على قَدم،

---

(١) انظر فى الدانى الذخيرة ٤٢٧/٣ والمغرب ٤٠٥/٢.

(٢) طساس: جمع طست.

وأرعب [في] زيارتها ولو لِمامًا، وأودُّ رؤيتها ولو مَنامًا، لألمح دارَ الخلافة، وأرى بَيْت الرياسة، وجعلتُ أسلك في منازل المدينة، وأنظر في تلك المشاهد المُبينة، فإذا رُسومها قائمةُ الأعلام، ونُصُبُها ماثلةُ الشكل والقيام.. ووقفت بالقصر المرواني وانْتَبَذْتُ إلى المُنْتَزَه العَبْدِ الرَّحماني[١]، فإذا الثلاثُ الأثافي[٢] والديارُ البَلاقع[٣]، وقيل هنا كانت قصورهم وهناك هي قبورهم، قد صارت معاقلُهم ترابا، ومساكنُهم يَبَابًا[٤]».

ويطيل في تصوير مجد قرطبة أيام بني أمية ويبكيها بكاء مؤثرا ويصور جامعها وقبابه ومقصورته الفخمة وزخارفها البديعة، والمحراب والمصحف العثماني بجانبه، وكأنما بيده ريشة يرسم بها لوحات بديعة. ويختم الداني رسالته بزيارته للمعتضد في إشبيلية وبيان مدى ترحيبه به وما أغدق عليه من التحف والطرف.

ويتكاثر الرحالة الأندلسيون منذ القرن السادس الهجري ومن أهمهم أبو حامد[٥] الغرناطي (٤٧٤ - ٥٦٤ هـ) شُغف بالرحلة وتجوَّل في إفريقيا وزار صقلية سنة ٥١١ ومنها رحل إلى مصر وزار الشام والعراق، وتحول إلى نواحي البحر الأسود (بحر الخزر) وتوغل في بلاد الصَّقالبة والبلْغار وعلى ضفاف نهر الفُولجا، وصعد إلى أقصى الشمال في روسيا، وسجل مشاهداته في كتابه «تحفة الألْباب ونخبة الأعجاب» وله كتاب سماه «تحفة الكبار في أسفار البحار» ونشر سيزاردوبلر بمدريد ما شاهده في شرقيّ أوربا، وهو يكثر فيه من ذكر الخوارق والعجائب الخرافية، غير أن به من حين إلى حين بعض حقائق ومشاهد بديعة كمشهد الزُّحْلوقة يتزحلق بها الناس على الثلج في روسيا يقول:

«الطريق هناك في أرض لا يفارقها الثلج أبدا، ويتخذ الناس لأرجلهم ألواحا (زُحْلُوقة) يَنْحَتونها، طولُ كل لوح باعٌ وعرضه شبرٌ، ومقدمٌ ذلك اللوح ومؤخرُه مرتفعان عن الأرض، وفي وسط اللوح موضع يضع الماشي فيه رجله، وفيه ثقب، وشَدّوا فيه سيورا

---

(١) نسبة إلى عبد الرحمن بن الناصر أهم حكام البيت الأموي بقرطبة.

(٢) الأثافي: جمع أثفية، والثلاث الأثافي: ثلاثة أحجار توضع عليها القِدْر، وكانت القبائل تتركها وراءها حين ترحل عن الديار.

(٣) البلاقع: المقفرة.

(٤) يبابا: خرابا.

(٥) انظر في أبي حامد ورحلته مقدمة جبرييل فيران لتحقيق كتابه تحفة الألباب ومقدمة سيزار دوبلر لتحقيقه قطعة من كتابه «المعرب عن بعض عجائب المغرب» وتاريخ الأدب الجغرافي لكراتشكوفسكي تعريب الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم (طبع لجنة التأليف) ص ٢٩٥ وتاريخ الجغرافية والجغرافيين لمؤنس ص ٣٠٣ وكتابنا: الرحلات (طبع دار المعارف) ص ٥١ وما بعدها وبالنشيا ص ٣١٢.

من جلود قوية يشدُّونها على أرْجلهم. ويقرن [الرجل] بين اللوحين اللذين يكونان فى رِجْلَيه بشندال (حبل) طويل مثل عنان الفرس، يمسكه فى يده الشمال، وفى يده اليمنى عَصًا بطوله، وفى أسفل العصا مثل كرة من الثياب محشوَّة بصوف كثير مثل رأس الإنسان خَفِيفة. ويعتمد على تلك العصا فوق الثّلج. ويدفع العصا خلف ظهره كما يصنع الملّاحُ فى السفينة. فيذهب على ذلك الثلج بسرعة، ولولا تلك الحيلة لم يمكن أحدا أن يمشى هناك البتة، لأن الثلج على الأرض مثل الرمل لا يتلبَّد البتة، وأى حيوان يمشى عليه يَغُوص فى ذلك الثلج فيموت إلا الكلاب والحيوان الخفيف كالثعلب والأرنب، فإنها تمشى عليه بخفة وسرعة». وهى صورة من التزحلق قديمة شبيهة أدق الشبه بصورة التزحلق الحديث الذى تُعْقَدُ له المسابقات سنويا فى البلاد الأوربية.

ونلتقى بعد أبى حامد الغرناطى من رحالة الأندلس بابن جبير، وسنفرد له مع رحلته كلمة. ويلقانا من رحالة العصر الغرناطى القاضى أبو البقاء[1] البلوى خالد بن عيسى وسمى رحلته «تاج المفرق فى تحلية علماء إفريقيا والمشرق» وقد لقى فيها كثيرين من العلماء وروى عنهم، بدأها فى ١٨ من صفر سنة ٧٣٠ وظل يلقى العلماء سنوات ويأخذ عنهم، ونزل تونس وعيَّنه أميرها كاتبا فى ديوانه زمنا يسيرا، ثم عاد إلى بلده فعُين بها قاضيا. ويقول لسان الدين بنُ الخطيب فى الإحاطة إنه حجَّ وقيَّدَ عن العلماء، ورحلته فى سِفْر وَصَفَ فيه البلادَ ومَنْ لقى بفصول، جَلَب أكثرها من كتابات العماد الأصبهانى وصفوان بن إدريس. ولابن جابر الوادى آشى الذى مرت ترجمته فى الفصل الماضى رحلة دوَّن فيها ما اكتسبه من الفوائد الأدبية أثناء أسفاره الطويلة.

ويلقانا ابن[2] الحاج النميرى المولود سنة ٧١٣ لأسرة كريمة وقد عنى أبوه بتربيته حتى إذا كانت سنة ٧٣٤ عُيِّن كاتبا فى ديوان أبى الحجاج يوسف الأول أمير غرناطة، وفى سنة ٧٣٧ رحل لأداء فريضة الحج، ونزل فى عودته بقسنطينة سنة ٧٣٩ وخدم أمراءها الحفصيين، ثم تركهم وخدم أبا الحسن المرينى حتى سنة ٧٤٧ إذ رأى العودة إلى أداء

---

(١) انظر فى أبى البقاء ورحلته الإحاطة ٥٠٠/١ ونيل الابتهاج (طبع فاس) ص ٩٩ والكتيبة الكامنة ص ١٣٤.

(٢) راجع فى ابن الحاج النميرى الإحاطة ٣٤٢/١ والكتيبة الكامنة ص ٢٦٠ ونيل الابتهاج ص ١٤ والمنهل الصافى لابن تغرى بردى ٦٦/١ وجذوة الاقتباس لابن القاضى ص ٨٧ ونثير فرائد الجمان لابن الأحمر ص ١١٣ ونفح الطيب ١٠٩/٧ ورحلة: «فيض العباب» حققها الدكتور محمد بن شقرون ونشرها فى الرباط.

فريضة الحج وعاد فخدم الحفصيين سنة ٧٥٠ وبعد سنتين اعتزل للعبادة بتلمسان وأُجْبر فى سنة ٧٥٧ على خدمة السلطان أبى عنان وجعله رئيس ديوان الكتبة. وأفلت عند موته وعاد إلى غرناطة فعُيِّن قاضيا إلى وفاته بعد سنة ٧٧٤ وكان شاعرا مجيدا فى الشعر الغنائى والتعليمى. ويقول ابن الخطيب فى الإحاطة له رحلة «فيض العُباب وإحالة قداح الآداب فى الحركة إلى قسنطينة والزاب» وقد حققها ونشرها بالرباط - كما ذكرنا فى الهامش - الدكتور محمد بن شقرون، ووضع بين يديها مقدمة قيمة. وهى فى وصف رحلة السلطان أبى عنان المرينى من فاس إلى سَلا والعودة منها ثم إلى قسنطينة والزاب والعودة منها عن طريق الصحراء. والرحلة وثيقة تاريخية مهمة عن فتح بنى مرين لقسنطينة وعنابة وتونس وبيعة البلدان المغربية لأبى عنان، وقد كتبها ابن الحاج بأسلوب أدبى التزم فيه السجع وبعض المحسنات البديعية مع العناية باستخدام التورية والتصنع للمصطلحات العلمية وبعض الألفاظ الغريبة مما أشاع غير قليل من التكلف فى صياغة الرحلة.

ولصديقه ابن الخطيب معاصره الذى مرت ترجمته بين كتاب الرسائل الديوانية رحلات بديعة فى بلدان الأندلس والمغرب، وأول ما نقف عنده رحلته[1] مع أميره أبى الحجاج يوسف الأول فى تفقده لبعض الثغور الشرقية لإمارته سماها: «خطرة الطيف فى رحلة الشتاء والصيف» وقد سار موكب أبى الحجاج فيها تلقاء الشمال الشرقى من العاصمة غرناطة إلى وادى آش فإلبيرة. ويعود الموكب من طريق آخر مارا بثغر المَرِيَّة على البحر المتوسط. وكانت زيارات الأمير أبى الحجاج لها ولغيرها من المدن أشبه باستعراضات عسكرية، يشترك فيها جند الأمير مع أهل البلدة إذ كانت بلاد الإمارة الغرناطية أشبه برباطات حربية، فكل من فيها حاملو سلاح. ويقول ابن الخطيب إن النساء فى هذه الاستعراضات كن كثيرات، وكن يحيين الرجال ويحييهن الرجال، ونظن ظنا أن كثيرات منهن كن سافرات إذ عرفت الأندلس - كما مر فى غير هذا الموضع - السفور مبكرا.

ولابن الخطيب رحلة ثانية سماها «معيار الاختيار فى ذكر الأحوال والديار» ويسميها مقامة وليست مقامة بل رحلة كسابقتها وصَف فيها أربعا وثلاثين مدينة من مدن إمارة

---

(١) انظر فى هذه الرحلة وتاليتها كتاب مشاهدات لسان الدين بن الخطيب تحقيق د. مختار العبادى.

غرناطة وبعض مدن المغرب الأقصى مثل مكناسة. والمقامة مسجوعة مثل سابقتها، وتصور فى تلك المدن عمرانها ونشاطها الثقافى وكل ما بها من صور الحياة، مع ذكر محاسن كل مدينة وما قد يكون فيها من مساوئ. وله رحلة طويلة لم يكتبها سجعا مثل الرحلتين السالفتين بل كتبها مرسلة غير مسجوعة، وصف فيها المغرب الأقصى ومدنه سماها «نُفاضة الجراب فى عُلالة الاغتراب» وكانت فى أربعة أجزاء، سقط منها ثلاثة من يد الزمن وبقى الجزء[1] الثانى وهو يفتتح هذا الجزء بالصعود إلى جبل هِنْتَاتَة بمنطقة أطلس ويزور هناك قبر السلطان أبى الحسن المرينى ويفيض فى الحديث عن أحوال قبيلة هنتاتة. ويزور أغمات وقبر المعتمد بن عباد بها ويحيِّيه بقصيدة ويلمُّ بمراكش وغيرها من المدن فى طريقه إلى مدينة سَلا على المحيط، ويذكر كل ما فى تلك المدن من مساجد ومكتبات ومدارس. ورحلات ابن الخطيب عامة تكتظ ببيان أحوال المدن الأندلسية والمغربية الاجتماعية والثقافية.

ونلتقى بأخرة من زمن دولة بنى الأحمر فى غرناطة بالقَلْصادى على بن محمد القرشى البَسْطى (٨١٥ - ٨٩١ هـ) الذى مرَّ ذكره فى الفصل الثانى بين علماء الرياضة، وله رحلة إلى الحجاز لأداء فريضة الحج والزيارة النبوية، سماها: «تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب» حققها وقدَّم لها ونشرها بتونس الأستاذ محمد أبو الأجفان، وهو لا يتوسع - باستثناء مكة ومناسك الحج - فى وصف البلدان التى نزلها ذهابا وإيابا فى رحلته إلى الحجاز، بل يلمّ بها فى إيجاز شديد، ليحدثنا عن الشيوخ الذين تتلمذ لهم فيها، وخاصة فى تلمسان وتونس والقاهرة، ويبلغون عنده ثلاثة وثلاثين شيخا. والكتاب أشبه بكتب الفهرسة والبرامج منه بكتب الرحلات، وهى كتب اشتهرت بها الأندلس من قديم، وفيها يذكر مؤلفوها شيوخهم وما سمعوه منهم وأخذوه عنهم من مؤلفات. وحرى بنا الآن أن نتحدث عن رحلة ابن جبير.

---

(١) نشر هذا الجزء د. مختار العبادى بالقاهرة.

رحلة ابن جبير

هو محمد[1] بن أحمد بن جبير الكنانى البلنسى المشهور باسم ابن جبير، أصل أسرته من مدينة شاطبة، وُلد ببلنسية سنة ٥٣٩ وقيل سنة ٥٤٠ وسمع فى نشأته من أبيه وعلماء موطنه وأكبَّ على دراسة الفقه، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة، وطمح إلى العمل فى الدواوين، وألحقه أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن حاكم غرناطة لأبيه عبد المؤمن ثم لأخيه يوسف حتى وفاته سنة ٥٧٢. وكان عثمان شغوفا بالأدب، وخف على نفسه ابن جبير فكان يحضره مجالس شرابه وعبثا حاول أن يقنعه بالشراب معه، إذ كان يعافه تدينا، وذات يوم أقسم عليه ليشربنَّ سبعا، ونزل مضطرا عند إرادته وشرب سبع كئوس، فملأ أبا سعيد الكأس دنانير سبع مرات وصبَّ ذلك فى حجره، فحملها إلى منزله، وصمم أن يجعل كفارة شربه الخمر الحجَّ بتلك الدنانير، حتى إذا كانت سنة ٥٧٨ باع ملكا له تزوَّد به للحج، وفصَل من غرناطة فى شوال، وركب البحر فى سفينة لبعض أهل جنوة قاصدا إلى الإسكندرية ونزل بها واتجه إلى القاهرة ومنها إلى قوص بصعيد مصر، ومنها إلى عَيْذاب حيث عبر البحر الأحمر إلى جدة، وقصد من فوره مكة، وأدى فريضة الحج، وزار القبر الشريف بالمدينة، ثم اتجه إلى الكوفة فبغداد فالموصل وبلدانه. وهو فى كل تلك البلدان يمكث بعض الوقت ويدوِّن ما شاهده فيها من مساجد ومدارس وغرائب، ونزل الشام وكان لحملة الصليب فيها مستعمرات، فجاس خلال ديارهم وسجَّل كثيرا من أحوالهم. وركب البحر المتوسط من عكا على سفينة مسيحية عائدا إلى موطنه. وألمت السفينة بصقلية فنزل فيها وتجوَّل فى بلادها، ورجع إلى السفينة، ونزل منها فى قرطاجنة بساحل الأندلس فى ١٥ من المحرم سنة ٥٨١

ورحلة ابن جبير تقصُّ ما شاهده فى البلدان التى زارها ونزل بها فى صورة مذكرات يومية، ومع كل بلدة وكل مشهد التاريخ باليوم والشهر، ويبدو أنه كتبها فى أوراق منفصلة، وكأن الموت عاجله قبل أن يجمعها نهائيا، فجمعها بعض تلاميذه ونشرها بعد وفاته باسم «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» وآثر من نشروها فى العصر الحديث

---

(١) انظر فى ترجمة ابن جبير ورحلته المغرب ٣٨٤/٢ والإحاطة ٢٣٠/٢ ومقدمة رايت لتحقيقه لرحلته بلندن ومقدمة دى خويه لطبعتها فى ليدن وكتاب د. مؤنس ص ٤٣٧ وكراتشكوفسكى ص ٢٩٩ وبالنثيا ص ٣١٦ ودائرة المعارف الإسلامية فى ابن جبير وكتابنا: الرحلات (طبع دار المعارف) ص ٧٠ - ٩٤. والرحلة طبعت مرارا فى ليدن والقاهرة.

من المستشرقين والعرب أن يطلقوا عليها اسم «رحلة ابن جبير». وله رحلتان بعد هذه الرحلة حجَّ فى كل منهما، والسبب فى أولاهما أنه سمع بفتح صلاح الدين لبيت المقدس سنة ٥٨٢ واستيلائه عليه من أيدى الصليبيين، فحدثته نفسه أن يزور تلك الأماكن وعلَمُ الإسلام يرفرف عليها، وارتحل لذلك سنة ٥٨٥ وعاد سنة ٥٨٧ إلى غرناطة وسكنها ثم سكن مالقة ثم سبتة منقطعا إلى إسماع الحديث النبوى وروايته. وكان قد تزوج من أم المجد عاتكة بنت أبى جعفر الوقشى وزير ابن همشك أمير جيان قبل دخوله فى طاعة الموحدين، وكان كلفا بها، وتوفيت فعظم وجده عليها، ونظم فيها - بجانب ديوانين له أحدهما فى الشكوى من إخوان الزمان - ديوانا سماه: نتيجة وجد الجوانح فى تأبين القرين الصالح». ولكى يخفف عن نفسه حزنه عليها رحل رحلته الأخيرة لأداء الحج سنة ٦١٤ وجاور بمكة فترة، ثم ارتحل إلى الإسكندرية وأدركته فيها منيته فى نفس السنة، ويغلب أن يكون مسجد سيدى جابر بها مسجده وأن تكون العامة حرَّفت اسمه مع الزمن.

والرحلة مكتوبة بأسلوب مرسل تشيع فيه السهولة والسلاسة والعذوبة، مما جعلها نسيجة وحدها - كما يقول ابن الخطيب - كما جعلها تطير كل مطار، ونشعر فى أحيان كثيرة كأنما بيده ريشة يبدع بها لوحات رائعة كما فى تصويره للإسكندرية حين نزلها ومبانيها وأسواقها وشوارعها ومنارها العجيب وما بها من مساجد ومدارس وبيوت لطلاب العلم. ويقول إنه بمجرد أن ينزل بها طالب علم من الأقطار النائية يجد مسكنا والعالم الذى يدرس عليه والراتب الذى يرتفق به. وينزل القاهرة ويصف القلعة والأهرام وأبا الهول، ويرسم مشهد الحسين حفيد الرسول عليه السلام فى لوحة باهرة. ويطيل فى وصفه للمارستان بالقاهرة وما به من خزائن الأدوية والأسرَّة كاملة الكسوة للرجال وما اتُّخذ فيه من قسم خاص بالنساء وقسم على مقاصيره شبابيك من حديد للمجانين. وينزل مدينة قوص ويصف الحياة فيها كما يصف مدينة عَيْذاب على البحر الأحمر ويقول فى بحرها جزائر بها مغاص للؤلؤ نفيس. ويركب البحر إلى جدة وينزل مكة، ويرسم المسجد الحرام فى لوحة باهرة، تجمع كل تفاصيله بأركانه وأبوابه وكل ما يُغشى جوانب فيه من ذهب وفضة وستور حريرية وما به من مقام إبراهيم المغطى بالفضة ومن حوائط رائقة الترصيع والتجزيع وقِباب بديعة وسَوَار وأعمدة بديعة التركيب. وتشغل هذه اللوحة صفحات متصلة من الرحلة لا تترك شيئا فى المسجد ولا فى ظاهره وسطحه إلا تقيِّده. ويرسم لوحة باهرة لمسجد الرسول عليه السلام كاللوحة التى رسمها للمسجد الحرام،

ومن قوله فيها عن الروضة المقدسة: (قبر الرسول وصاحبيه أبي بكر وعمر) والمنبر الشريف:

«الروضة المقدسة مع آخر الجهة القبلية مما يلى الشرق.. وشكلها شكل عجيب لا يكاد يتأتّى تصويره ولا تمثيله. وجميع سَعتها من جميع جهاتها مائتا شبر واثنان وسبعون شبرا، وهى مؤزّرة بالرخام البديع النحت، الرائع النعْت، وينتهى إزار منها إلى نحو الثلث أو أقل يسيرا، وعليه من الجدار المكرّم ثلثٌ آخر قد علاه تضَمْيخ المسك والطِّيب، والذى يعلوه من الجدار شبابيكُ عودٍ متصلة بالسُّمْك الأعلى، لأن أعلى الروضة المباركة متصل بَسمْك المسجد. وإلى حيِّز إزار الرخام تنتهى الأسْتار، وهى لازَوَرْدِيَّة اللون.. وفى الصفحة القبلية أمام وجه النبى ﷺ مسمارُ فضةٍ، هو أمام الوجه الكريم فيقف الناس أمامه للسلام، وإلى قدميه ﷺ رأسُ أبي بكر الصديق رضى الله عنه، ورأس عمر الفاروق مما يلى كتفى أبي بكر الصديق رضى الله عنهما، فيقف المسلم مستدبر القبلة ومستقبلَ الوجه الكريم فيسلّم، ثم ينصرف يمينا إلى وجه أبى بكر، ثم إلى وجه عمر. وأمام هذه الصفحة المكرمة نحو عشرين قنديلا معلّقة من الفضة، وفيها اثنان من الذهب. وعن يمين الروضة المكّرمة المِنْبَر الكريم، ومنه إليها اثنتان وأربعون خُطوة، وهو مرخَّم كله، وارتفاعه نحو القامة أو أزيد، وسَعته خمسة أشبار، وطوله خمس خطوات، وأدراجه ثمانية، وله باب على هيئة الشُّبَّاك مقفل، يُفْتح يوم الجمعة، وطوله أربعة أشبار ونصف. والمِنَبرُ مغشىٌّ بعود الآبنوس، وَمْقعد الرسول ﷺ من أعلاه ظاهر، قد طُبِّق عليه بلوح من الآبنوس غير متصل به يصونه من القعود عليه، فيُدْخل الناس أيديهم إليه ويتمسَّحون به تبركا بلَمْس ذلك المقعد الكريم».

ويسترسل ابن جبير فى وصف المسجد وقبلته وما على جدارها من الفسيفساء بهذا التصوير البارع الدقيق. ويذكر أن المؤذن الراتب فيه من أحفاد بلال مؤذن الرسول رضى الله عنه، ويصف مشاهد المدينة. ويبارحها إلى الكوفة، ويصل إلى بغداد، ويصور بعض المجالس العظيمة لعلمائها ووعَّاظها وخاصة ابن الجوزى إمام عصره فى الحديث والوعظ وفى وصف إحدى مواعظه يقول:

«أتَى فيها بِرَقَائق من الوعظ وآياتٍ بيناتٍ من الذكر طارتْ لها القلوبُ اشتياقا، وذابتْ بها الأنفس احتراقا، إلى أن عَلَا الضَّجيجُ، وتردد بشهقاته النَّشِيج، وأعلن التائبون بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح، فشاهدنا هَوْلًا يملأ

النفوس إنابةً وندامة، ويذكّرها هولَ يوم القيامة، فلو لم نركب ثَبَجَ البحر، ونعتسف مفازات القفر، إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقةَ الرابحة، والوجهةَ المفلحة الناجحة».

ويصف بغداد ومساجدها ومبانيها وأسواقها ومحالّها، ويغادرها إلى الموصل فحلب، وتروعُه مبانيها وقلعتها وجامعها والمدرسة الملحقة به وكأنها فى الحسن روضة تجاور أخرى. ويصل دمشق جنة المشرق وعروس المدن، وتروعُه بساتينها المحدقة بها إحداق الهالة بالقمر وما يمتد بشرقيها من غوطتها الخضراء بحللها السندسية البديعة، وينوه بحسنها، ويقول صدق القائلون عنها: «إن كانت الجنةُ فى الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت فى السماء فهى بحيث تُسامِتها (تقابلها) وتُحاذيها». ويطيل الوصف لمسجدها الأموى العظيم وما به من عُمُد وقباب وأبواب وما عليها من نقوش وما يمتد على حيطانه وسقوفه من الفُسَيْفِساء البديعة وما به من مقاصير وغرائب التصاوير. ويفيض فى الحديث عن مشاهد دمشق وأسواقها ومدارسها ومارستانها وما بها من خانقاهات للمتصوفة. وأشاد بأعمال صلاح الدين الأيوبى فى الشام، كما أشاد بها فى الإسكندرية والقاهرة، ونوه بانتصاراته على الصليبيين، وتغلغله فى ديارهم، ولاحظ أن تجارهم وتجار المسلمين يغدون ويروحون فى الدارين: دار الإسلام ودار حملة الصليب دون أى اعتراض، والحرب مع ذلك قائمة بين الفئتين والتجار فى عافية. ويُبحر من ميناء عَكَّا مع التجار النصارى فى إحدى سفنهم المعدَّة لسفر الخريف، وكانت متجهة إلى مسِّينة فى صِقِلِّية، فنزل بها وتجوَّل فى بلدانها، وكان المسلمون قد فتحوا تلك الجزيرة فى مطالع القرن الثالث الهجرى وعرَّبوها لمدة قرنين ونصف إذ فتحها النورمان، وكان ملوكهم الأولون يحتضنون الثقافة العربية ويَرْعَوْنَ علماءها، ويجلسون منهم مجلس التلاميذ، مما أتاح لصقلِّية حينئذ أن تُصبح مجازًا لعبور الثقافة العربية الإسلامية إلى أوربا وخاصة فى عهد روجر الثانى وابنه غليوم اللذين طبعا حياة الدولة فى أيامهما بالطوابع العربية الإسلامية. ويصوِّر ذلك ابن جبير فى حديثه - برحلته - عن غليوم الذى زار الجزيرة فى عهده، فيقول عنه:

«هو كثيرُ الثقة بالمسلمين، وساكنٌ إليهم فى أحواله والمهمِّ من أشغاله، حتى إن الناظر فى مطبخه رجلٌ من المسلمين.. ومن عجيب شأنه المتحدَّث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية، وعلامته (فى أول رسائله) - على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به - «الحمد لله حَقَّ حمده»، وكانت علامة أبيه «الحمد لله شكرا لأنعمه». وأما جواريه وحَظاياه فى قَصْره

فمسلمات كلهن، يقول: ومن أعجب ما حدَّثنا به خَدِيمه: يحيى بن فتيان الطرَّاز أن الإفرنجية من النصرانيات تقع فى قصره، فتعود مُسْلمة، تعيدها الجوارى المذكورات مسلمة، وهُنَّ على تكتم فى ذلك كله، ولهنَّ فى فعل الخير أمور عجيبة.. وأما فتيانه الذين هم عُيُون دولته وأهل عِمالته فى ملكه فهم مُسْلمون، ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوُّعا وتأجُرا (طلبا للأجر) ويتصدَّق تقربا إلى الله وتزلفا، ولهم فى فعل الجميل أخبارٌ مأثورة». وهى وثيقة تاريخية مهمة فيما كان من تعاون بين النورمان النصارى والمسلمين فى أيام ملوكهم الأولى بصقلية. ويتنقَّل ابن جبير فى الجزيرة، ومما يذكره عن نساء النصارى فى «بالرم» العاصمة أنهن كن يلبسن نفس زِىِّ المسلمات ويتَحَجَّبْنَ مثلهن منتقباتٍ بالنُّقب الملونة كما يتزيَّنَّ على طريقتهن، ويقول إنهن فصيحات. ومع ذلك كله يقول ابن جبير إن راية الإسلام ستنكَّس هناك وسُيصْبح كل ما للمسلمين من مساجد وغير مساجد هناك أثرا بعد عين، وصدق حَدْسُه. وقد أبحر من صقلية إلى قرطاجنة على الشاطىء الأندلسى ومنها إلى غرناطة. والرحلة - بحق - ممتعة لا بأسلوبها الأدبى المرسل البليغ فحسب، بل أيضا بملاحظات ابن جبير الدقيقة المتنوعة.

خاتمة

تحدثنا - فى الصحف الماضية - عن كثرة العناصر المكونة لسكان إيبيريا وأنها ظلت تستقبل عناصر متنوعة من القارات القديمة الثلاث: أوربا وإفريقيا وآسيا، ومن قديم ظلت تستقبل حضارات الفينيقيين واليونان والقرطاجينيين والرومان دون أن تضيف شيئا يميزها فى تاريخ الحضارة الإنسانية، وغزاها القوط المتبربرون فى القرن الخامس للميلاد وقضوا - أو كادوا يقضون - على كل ما وفد عليها من تلك الحضارات. ومرَّ بنا فتح العرب لإيبيريا سنة ٩٢ هـ/ ٧١١م والجهود التى بذلها موسى بن نُصَير وطارق بن زياد فى فتحها حتى خليج بسكاى وجبال البرينيه التى تفصلها عن غالة (فرنسا). ولم تكد تمضى أربع سنوات حتى أصبحت إيبيريا من جنوبيِّها إلى شماليِّها تدين بالولاء لدمشق كإقليم من أقاليم الدولة الأموية. ويُسْتَدْعى الفاتحان العظيمان إلى دمشق بأخرة من سنة ٩٥ للهجرة ولا يعودان إليها. واستوطن الجيش الفاتح من العرب والبربر أواسط إيبيريا وجنوبيها، وسموا ديارهم -بل إيبيريا جميعها- باسم الأندلس أخذا من كلمة «فندالس» سكانها فى الجنوب. وتدخل الأندلس فى عصر الولاة منذ سنة ٩٥ إلى سنة ١٣٨ وأبلى نفر من ولاتها - حتى سنة ١١٦ - بلاء حسنا فى غزو غالة (فرنسا) ويفرضون على إقليم سبتمانية بجنوبيها ولاءه للعرب، وتتقدم جيوشهم مرارا على نهر الرون وفى اتجاه بواتييه إلى الشمال وليون إلى الجنوب، وتدب العصبيات - بل تضطرم - بين قبائل العرب القحطانية والمضرية، وبين العرب والبربر، فيتوقف هذا المد العظيم، ولولا ذلك لفتح العرب شطرًا كبيرًا من أوربا الغربية.

ويقيِّض لانتشال الأندلس من العصبيات المحتدمة فيها عبور عبد الرحمن بن معاوية ابن الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٣٨ للهجرة بحرَ الزُّقاق إليها وإعلانه فيها ميلاد دولة أموية غربية تخلف دولة آبائه فى دمشق التى قضى عليها العباسيون قضاء مبرما سنة ١٣٢ للهجرة. ويأخذ هو وأبناؤه وأحفاده الذين امتد حكمهم للأندلس نحو ثلاثة قرون فى تأسيس حضارة أندلسية عربية باهرة، وقد أخذت تلك الحضارة فى التكامل لعهد عبد الرحمن الأوسط الذى أنشأ للدولة أسطولا يحمى موانيها على المحيط الأطلسى

والبحر المتوسط، ووضع لحكم البلاد نظاما إداريا حضاريا، إذ اتخذ لها مجلس وزراء على نحو ما نعرف الآن من مجالس الوزراء فى الأمم المتحضرة، وأضاف إليه هيئات - باسم خطط - للإشراف على مصالح الرعية. وبلغت الأندلس الذروة فى المكانة السياسية والحضارية لعهد عبد الرحمن الناصر الذى فرض سلطانه على المسيحيين فى الشمال. وما يلبث عهد الدولة الأموية أن ينتهى بفتنة كبرى ظلت نحو عشرين عاما. وينشأ عصر أمراء الطوائف، وفيه تنقسم الأندلس إلى أندلسات، وبعبارة أخرى إلى إمارات كثيرة، ويتنافس الأمراء فى الإكثار مما يحيط بهم من شعراء وعلماء وكتّاب، وتنفق سوق الأدب والعلم، وتهبط كفّة الحكم والسياسة إلى أدنى مستوى، إذ يعيش الأمراء للترف واللهو وكل فنونه، ويتناحرون فيما بينهم، على حين يركعون - خانعين - للمسيحيين الشماليين، مما جعل ألفونس السادس ملك قشتالة ينقض على طليطلة واسطة عقد الأندلس سنة ٤٧٨ للهجرة ويستولى عليها، حتى إذا لم يبق منزع فى قوس الصبر لا للفقهاء ولا للرعية ولا للأمراء اللاهين استصرخوا جميعا يوسف بن تاشفين أمير المرابطين فى المغرب، فعبر إلى الأندلس سنة ٤٧٩ وسحق جموع ألفونس السادس فى الزلاقة سحقا ذَريعا، وتطورت الأمور سريعا، وأظل لواء المرابطين الأندلس جميعا. وتضعف دولتهم بعد نحو نصف قرن ونيِّف، وتعود الأندلس فى بعض أجزائها إلى التفكك، وتتداركها دولة الموحدين، وتظل تحميها إلى أوائل العقد الثالث فى القرن السابع الهجرى، ومن مفاخرهم تدمير أميرهم يعقوب الموحدى لجيش ألفونس الثامن فى موقعة الأرك سنة ٥٩١. وتعود الأندلس منذ سنة ٦٢٣ إلى التفكك، وتقع كثرة من مدنها العريقة فى حجور المسيحيين الشماليين، ويستطيع ابن الأحمر سليل سعد بن عبادة الصحابى الجليل أن يستنقذ إمارة غرناطة له ولأسرته لأكثر من قرنين ونصف إلى أن سلَّم أبو عبد الله الصغير مفاتيح المدينة لفرناند وزوجته إيزابيلا سنة ٨٩٧ للهجرة.

وذكرنا ما تم فى المجتمع الأندلسى من مزج سريع بين المسلمين من العرب والبربر وبين المسيحيين ومن دخلوا فى الإسلام منهم وأبنائهم، وكانت حياة المسيحيين حياة متبدية بها غير قليل من الشظف، بينما أخذ المسلمون الأندلسيون يتحولون إلى حياة حضارية، وخاصة منذ عهد عبد الرحمن الأوسط لشغفه بحضارة العرب المادية فى المشرق مما جعل التجار يحملون إليه كثيرا من أدواتها، وساعد على اكتمال الحضارة الأندلسية فى عهده وفود زرياب تلميذ إسحق الموصلى - أكبر الموسيقيين فى عهد الرشيد - على قرطبة، ومكّن له عبد الرحمن - إلى أقصى حد - من إحداث نهضة موسيقية فى الأندلس بإنشائه

له معهدا موسيقيا تخرج فيه كثيرون، قادوا بالأندلس الحركة الغنائية والموسيقية قيادة بديعة. ولا يقف أثر زرياب عند هذا الجانب، بل يتسع ليشمل الجوانب الحضارية المادية فى المأكل وملبس الجنسين وتزينهما فى الهيئة والمظهر، وأيضا فى اتخاذ الرياش الفاخر. وأخذ عبد الرحمن الأوسط وأبناؤه يعنون ببناء القصور والتأنق فى أثاثها وزينتها، ولا يبنى حفيده الناصر قصرا فحسب بل يبنى مدينة عظيمة هى مدينة الزهراء. ومن يتابع ابن بسام فى وصفه لبعض قصور أمراء الطوائف مثل قصر المكرّم لبنى ذى النون يظن كأنها من قصور ألف ليلة وليلة الخيالية، وما يزال قصر الحمراء بغرناطة إلى اليوم يشهد بما بلغته الحضارة المادية فى المعمار إلى أوج لم تعرفه الأندلس قبل العرب وبعدهم إلى اليوم.

وكان للمرأة فى هذا المجتمع الأندلسى الحضارى مكانة عظيمة جعلتها تحظى من الحرية بما لم تحظ به أختها فى المشرق حتى كان بينهن كاتبات مشهورات للخلفاء الأمويين، وكان بينهن عالمات مقرئات ومحدِّثات وطبيبات، وكان بينهن سيدات مجتمع راقيات كصواحب الصالونات بفرنسا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وكان لهن - مثلهن - غير قليل من التأثير فى الحياة الأدبية.

ولم تعرف الأندلس التشيع إلا قليلا وعند أفراد محدودين، وظلت النزعة الأموية تغلب عليها بعد سقوط الدولة الأموية، وعرفت الأندلس الزهد وتألق فيها أسماء زهاد كثيرين، كما عرفت التصوف منذ القرن الرابع الهجرى وأنجبت فيه مشاهير مثل ابن عربى وابن سبعين والششترى.

ولم يكن لإيبيريا دور علمى فى العصور القديمة، والعرب هم الذين بدأوا فيها الحركة العلمية بعلومهم اللغوية والدينية، وعَمِلَ عبد الرحمن الأوسط على السعة بهذه الحركة، إذ أدخل عليها بقوة العناية بعلوم الأوائل من رياضة وطب وصيدلة، وجلب كتب تلك العلوم من بغداد. وبلغ الناصر وابنه الحكم المستنصر بالحركة العلمية الغاية المأمولة باستدعاء العلماء من المشرق وإجزال العطاء لهم وجلب المخطوطات النفيسة فى مختلف العلوم والآداب، مما أتاح لدراسة علوم الأوائل الازدهار منذ القرن الرابع الهجرى، مع ما أضاف إليها علماء الأندلس من إضافات باهرة على مر العصور، وتلمع فى الرياضة أسماء مسلمة المجريطى والزرقالى والبِطْرَوْجى والرُّقوطى، وتلمع فى الطب أسماء الزهراوى وبنو زهر وابن رشد، وفى الصيدلة أسماء الغافقى وابن العوام وابن البيطار

وفى الفلسفة أسماء ابن باجة وابن طفيل وابن رشد وفى الجغرافية أسماء الرازى وأبى عبيد البكرى وابن غالب وابن سعيد.

وينشط علماء النحو واللغة مبكرين، ويؤلف الزبيدى كتابا فى طبقاتهم حتى زمنه فى القرن الرابع الهجرى، ويبلغون عنده نحو مائة عالم نحوى ولغوى، ومن أشهرهم الرباحى راوى كتاب سيبويه عن أبى جعفر النحاس المصرى ومنذر بن سعيد راوى معجم العين للخليل بن أحمد عن ابن ولاد المصرى، والزبيدى نفسه صاحب الكتاب السالف، وأبو بكر بن القوطية وابن الإفليلى وابن سيده والشنتمرى وابن الطراوة وعيسى الجزولى وابن عصفور وابن مالك وابن حيان. وتنشط مباحث البلاغة على يد أمثال ابن الكتانى المتطبب وحبيب والكلاعى والمواعينى وابن رشد وأبى البقاء الرندى، وبالمثل تنشط الكتابات النقدية عند ابن شهيد وابن خفاجة وابن بسام وحازم القرطاجنى.

وينقل القراء مبكرين عن ورش المصرى قراءته وتشيع فى الأندلس، ومن أشهر علماء القراءات هناك القضاعى والطلمنكى ومكى بن أبى طالب وأبو عمرو الدانى والشاطبى وابن حيان. وتعنى الأندلس بتفسير القرآن مبكرة، وتلمع فيه أسماء بقى بن مخلد وابن أبى زمنين وابن عطية والقرطبى وابن حيان. ويتكاثر المحدِّثون من أمثال ابن وضاح وقاسم بن أصبغ والحميدى وابن قرقول وابن الخراط وابن القطان. ويتكاثر الفقهاء كثرة مفرطة وخاصة على مذهب مالك، وتدور فتوى فقهائهم وقضاتهم عليه وعلى حَمَلة مذهبه المصريين وخاصة عبد الرحمن بن القاسم، ومن أشهرهم شَبْطون وعيسى بن دينار ويحيى الليثى وعبد الملك بن حبيب وابن عتبة وابن عبد البر وأبو الوليد الباجى وابن رشد الجد. ويلقانا غير فقيه للشافعية من مثل ابن الخراز والأصيلى. وينشط المذهب الظاهرى هناك، ومن كبار أتباعه منذر بن سعيد وابن حزم وابن حوط الله. وعرفت الأندلس الاعتزال عند أمثال عبد الأعلى بن وهب وابن مسرة ومنذر بن سعيد وإسماعيل الرعينى، كما عرفت المذهب الأشعرى عند محمد بن خلف.

وكان للمؤرخين نشاط واسع فى الأندلس منذ القرن الثالث الهجرى، ومنهم من كتب فى التاريخ العام مثل عبد الملك بن حبيب وعَريب وابن الخطيب، ومنهم من كتب فى تاريخ الأندلس مثل أحمد الرازى وابنه عيسى وابن القوطية وابن حيان ويحيى بن الصيرفى وابن صاحب الصلاة وأبى الحجاج البياسى وابن الخطيب. ومنهم من كتب فى

السيرة النبوية مثل ابن حزم وابن عبد البر والكلاعى وابن سيد الناس. ومنهم من كتب فى تراجم الأدباء والعلماء من كل صنف. ومنهم من كتب فى الأنساب مثل ابن حزم وفى تراجم الصحابة مثل ابن عبد البر. ومنهم من كتب فى التراجم الأندلسية العامة مثل ابن الفرضى وصاعد والحميدى وابن بشكوال والضبى وابن الأبار والملاحى وابن الزبير وابن الخطيب. ومنهم من كتب فى تراجم الفقهاء والقضاة مثل ابن عبد البر أحمد بن محمد والخشنى والنباهى، ويشتهر فى الترجمة للأطباء ابن جلجل وللغويين والنحاة الزبيدى وللأدباء من شعراء وكتاب ابن دحية والفتح بن خاقان وابن بسام وابن الأبار وابن سعيد وابن الخطيب وابن الأحمر.

وأخذتُ أبحث بحثا تحليليا تاريخيا فى نشاط الشعر والشعراء موضحا كيف أن أهل الأندلس تمثلوا العربية تمثلا قويا، وشركهم المسيحيون فى هذا التمثل، حتى إن جمهورهم هجر لغته اللاتينية الدارجة، وأصبحت العربية لسانه ومهوى فؤاده وأداة تعبيره عن مشاعره وأفكاره، حتى ليعلن ذلك أحد قساوستهم متحسرا ومتعجبا أشد العجب من هجران الشباب المسيحى للغة وطنه الرومانثية وتمثله للعربية معجبا بها وبأدبها أشد الإعجاب، محاولا بكل ما استطاع أن يتقنها. ويقول القس إن كثيرين من الشباب أتقنوها وكتبوا بها أشعارا ورسائل بديعة. ويشهد لكلامه أننا نجد فعلا بين المسيحيين الإسبان من بلغوا من إتقان العربية والقدرة على التعبير الدقيق بها أن عُيِّنوا كتّابا فى دواوين الدولة، وبذلك وبأدلة أخرى مؤيدة أضفناها ما ينقض نظرية ريبيرا المفضية إلى أن عرب الأندلس كانوا يستخدمون فى حياتهم اليومية لهجة رومانثية من اللاتينية الدارجة، وما كانت الأندلس بدعا من الأقاليم العربية، فقد ظهرت فيها جميعا عاميات دخلتها فى جميع البلدان العربية ألفاظ من لغاتها الأصلية التى كانت متداولة فيها، وبالمثل كانت تشيع فى الأندلس عامية عربية تسربت إليها ألفاظ من اللاتينية الدارجة على نحو ما حدث فى عامية الشام ومصر وغيرها من البلدان العربية.

وعاشت الفصحى بجانب هذه العامية الأندلسية العربية معيشة مزدهرة شأنها فى ذلك نفس شأنها وازدهارها فى جميع الأقطار العربية، وتدل على ذلك دلالة بيِّنة كثرة الشعراء فى كل بلد بالأندلس حتى فى الريف وبين أهل القرى، وهى كثرة تأخذ فى الانضاح منذ القرن الثالث الهجرى، وتتسع سعة شديدة فى عصر أمراء الطوائف، إذ تعدَّد الأمراء الذين يغدقون عطاياهم على الشعراء. ويظلون يتكاثرون فى اطراد طوال العصور التالية.

واستطاعت الأندلس فى أثناء هذا النشاط الشعرى الواسع أن تنفذ إلى ابتكار فن شعرى جديد هو فن الموشحات، وحاول بعض المستشرقين الإسبان مثل غرسية غوميس أن يقولوا إنها نشأت من المزج بين الشعر العربى وبين بعض الأغانى الرومانسية فى اللاتينية الإسبانية الشعبية، وليس فى أيديهم أغنية رومانثية واحدة يستطيعون أن يثبتوا عن طريقها هذا المزج. والصحيح - كما أثبتنا بأدلة متعددة - أن الموشحات إنما هى صورة أندلسية تطورت عن أصول مشرقية هى المسمطات، وكان أول من أحدثها عربى هو مقدم بن معافى، وأعطاها صورتها النهائية بعده عربيان هما الرمادى الكندى وعبادة ابن ماء السماء الأنصارى. وعرضنا أوأشرنا إلى طرائف من الموشحات على مر الأزمنة مع الترجمة لثلاثة من الوشاحين البارعين هم ابن عبادة القزاز ويحيى بن بقى وابن زهر، وألممنا بالأزجال وذهبنا مع ابن خلدون إلى أنها نشأت بعد الموشحات مع الاستشهاد ببعض روائعها ومع الترجمة للزجال الفذ ابن قزمان. ثم أخذنا فى دراسة أغراض الشعر دراسة تاريخية نقدية تحليلية تعقبنا فيها كل غرض وأهم شعرائه على مر التاريخ، وبدأنا بشعراء المديح مع نماذج من مدائحهم ومع الترجمة لسبعة من أعلامهم، وصنعنا نفس الصنيع بشعراء الفخر مع الترجمة لثلاثة من أفذاذهم، وبالمثل لشعراء الهجاء مع الترجمة لأربعة من كبار الهجائين، ولأصحاب الشعر التعليمى مع الترجمة لعلمين من أعلامهم.

وعلى نحو ما عُرض من روائع الأغراض الشعرية السالفة عُرضت روائع الغزل على مر العصور مجسِّدة الشأو البعيد الذى بلغته الأندلس فى تلك الروائع، إذ تمثل شعراؤها إلى أقصى حد ما فى الحب العذرى العربى القديم من حنين ملتاع وحب ظامئ لا ينطفئ أواره، مع ما يلاحظ من أن ناظميه يعكسون مشاعرهم على عناصر الطبيعة من حولهم. وتبادلهم المرأة الأندلسية - مع ما يحفها من عفة ووقار - حبا بحب. ويشترك معهم فى الغزل الفقهاء والفلاسفة هناك، مما أتاح للغزل فى الأندلس سموا بعيدا على نحو ما يتضح عند من ترجمنا لهم وخاصة ابن زيدون وولادة. ونلتقى بشعراء الطبيعة والخمر، وتبلغ الأندلس فى شعر الطبيعة ذروة لعل إقليما عربيا لم يبلغها على مر العصور، وتوضح ذلك غاية التوضيح النصوص والتراجم المختارة وخاصة تراجم ابن مقانا وابن خفاجة وابن سفر. ويلقانا شعراء الرثاء للأفراد وفى مقدمتهم ابن وهبون وتأملاته البديعة فى حقائق الحياة والموت، وشعراء الرثاء للدول الغاربة فى الأندلس وفى مقدمتهم ابن اللبانة وابن عبدون. ونقرأ خواطر بديعة لشعراء الزهد والتصوف، وتتيح الأندلس للتصوف الفلسفى ازدهارًا عظيمًا على نحو ما هو معروف عن متصوفها ابن عربى. وتزدهر فيها

المدائح النبوية ازدهارا رائعا على نحو ما يلقانا عند ابن جابر الوادى آشى. ومنذ سقطت طليطلة فى القرن الخامس يستصرخ الشعراءُ العربَ ومواطنيهم لاستنقاذ مدنهم من أيدى حملة الصليب، ويتعالى الصراخ فى القرن السابع الهجرى وبعده، على نحو ما يلقانا عند ابن الأبار وأبى البقاء الرندى.

وازدهر النثر فى الأندلس ازدهارا لا يقل عن ازدهار الشعر فيها. ويتضح ذلك فى كثرة كتاب الرسائل الديوانية على مر العصور، وفى مقدمتهم البِزِلْيانى وأبو محمد بن عبد البرّ وابن القصيرة وابن أبى الخصال وابن الخطيب، كما يتضح فى كثرة كتّاب الرسائل الشخصية وفى مقدمتهم حبيب وابن الدباغ وابن طاهر وابن الجد. ونفذ الكتاب المبدعون هناك إلى رسائل أدبية بارعة، منها رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد المستوحاة من إحدى مقامات بديع الزمان، مع بث روح وفكر جديدين فيها، ومنها رسائل ابن برد الأدبية، وإحداها وهى فى تفضيل أهب (جلود) الشياه على البُسطِ مستوحاة من رسالة سهل ابن هرون فى فاتحة كتاب البخلاء للجاحظ التى يحتج فيها للبخل ضد الكرم، ومنها الرسالة الهزلية لابن زيدون وأختها الجدية، وأولاهما مستوحاة من رسالة التربيع والتدوير للجاحظ مع اختلاف الموضوع، ومنها رسالة ابن غرسيه الذميمة فى الشعوبية والردود عليها، ومنها الرسائل النبوية البديعة على نحو ما يلقانا عند ابن الجنان، ومنها مواعظ مؤثرة مثل مواعظ منذر بن سعيد وأبى بكر الطرطوشى. ونلتقى بأعمال نثرية متنوعة وفى مقدمتها كتاب طوق الحمامة لابن حزم الفقيه المبدع، وهو يكتظ بتجاربه وتجارب معاصريه فى الحب العذرى مع الشهادة الناطقة بازدهار هذا الحب العفيف الطاهر فى الأندلس. ونلتقى بالمقتبس لابن حيان وهو طراز فى الكتابة التاريخية لا نظير له فى كتابة التاريخ عند العرب، ومثله الذخيرة لابن بسام فى كتابة التراجم الأدبية وعَرْضٍ ما لأصحابها من روائع شعرية ونثرية. وتلقانا مذكرات لأمير غرناطى هو عبد الله بن بُلُقّين، كما تلقانا قصة حَىّ بن يقظان لابن طفيل، وهى قصة طفل ألقى به بعد مولده فى جزيرة مهجورة، فتبنته ظبية فقدت رضيعها وأرضعته، ونما وأخذ عقله ينمو معه ويرصد كل ما حوله حتى إذا بلغ الثلاثين أخذ يدرك حقائق الأشياء شأن الفلاسفة، وشعر أن للكون خالقا وأخذ يشعر برغبة شديدة للاتصال به، وبعد محاولات شتى استطاع الاتحاد بربه. وبذلك يثبت ابن طفيل أن التأمل العقلى الخالص المفضى إلى الفلسفة مثله مثل الإيمان عن طريق الأنبياء فى أن كلا منهما يؤدى إلى نفس الغاية وهى الاتحاد الصوفى بخالق الكون ومنشئه. وقد ثبت ثبوتًا بيِّنًا أن عناصر القصة عناصر

عربية إسلامية خالصة، وقد أثرت فى الأدب الإسبانى إذ استُوحيت منها قصة موريسكية هى قصة الصنم والملك وابنته وقصة (الكريتيكون) للكاتب الإسبانى اليسوعى جراثيان المنشورة فى منتصف القرن السابع عشر، وأثرت القصة آثارا مختلفة فى الآداب العالمية على نحو ما هو معروف عن قصة روبنسن كروزو لكاتبها الإنجليزى دانييل ديفو.

ويعرض الفصل بعد ذلك فن المقامات فى الأندلس وسلوك بعض أصحابه مسلك الحريرى فى مقاماته القائمة على الكُدْية والشحاذة والتفاصح بالسجع والتعبيرات الأنيقة، مع عرض المقامات اللزومية للسرقسطى وبيان التزامه فيها ما لا يلزم من تعدد الحرف فى قوافى السجع محاكاة لأبى العلاء فى لزومياته، وتغلغله ببطل مقاماته فى أعماق المحيطات بالإضافة إلى ما تنقل بينه من البلدان العربية. وذُكر - فى إجمال - ما أثَّر به فن المقامات فى الأدب الأندلسى إذ نشأت على غراره فى القرن السادس عشر للميلاد وخلال القرن السابع عشر قصص سميت بالقصص البيكارسية، وبطلها «البيكارو» يتجرّع - كبطل المقامات - آلام البؤسِ والفقر، ويعيش على التسول والشحاذة متوسلا إلى ما يكتسبه عن طريقهما بحِيل وخُدَعٍ شتى يستحوذ بها على إعجاب الناس فيوسعونه حفاوة وعطاء.

وتحدث الفصل عن رحلات الأندلسيين وبواعثها الكثيرة لأداء فريضة الحج والزيارة النبوية، وللإلمام بمراكز الثقافة فى المشرق والأخذ عن الشيوخ: أخذ المؤلفات والإجازات، وللسفارة إلى ممالك النصارى فى الشمال وأصحاب الإمارات المختلفة فى الأندلس ولمرافقه حكام غرناطة وسلاطين المغرب فى رحلاتهم، وللفرجة على ما وراء البلاد العربية فى آسيا وشرقى أوربا واكتشاف المجهول فى تلك الديار النائية من الأمم وظواهر الكون. ومن أطرف تلك الرحلات رحلة أبى حامد الغرناطى إلى بلاد البلغار والصقالبة وروسيا، ورحلة ابن جبير فى البلدان العربية، وتتميز بدقة الوصف وجمال السرد والأسلوب المرسل العذب.

فهرس

صفحة

الفصل الثانى
الثقـــافة

الفصل الثالث
نشاط الشعر والشعراء

صفحة

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

صفحة

صفحة

الفصل الخامس
النَّثْرُ وكُتَّابه

صفحة